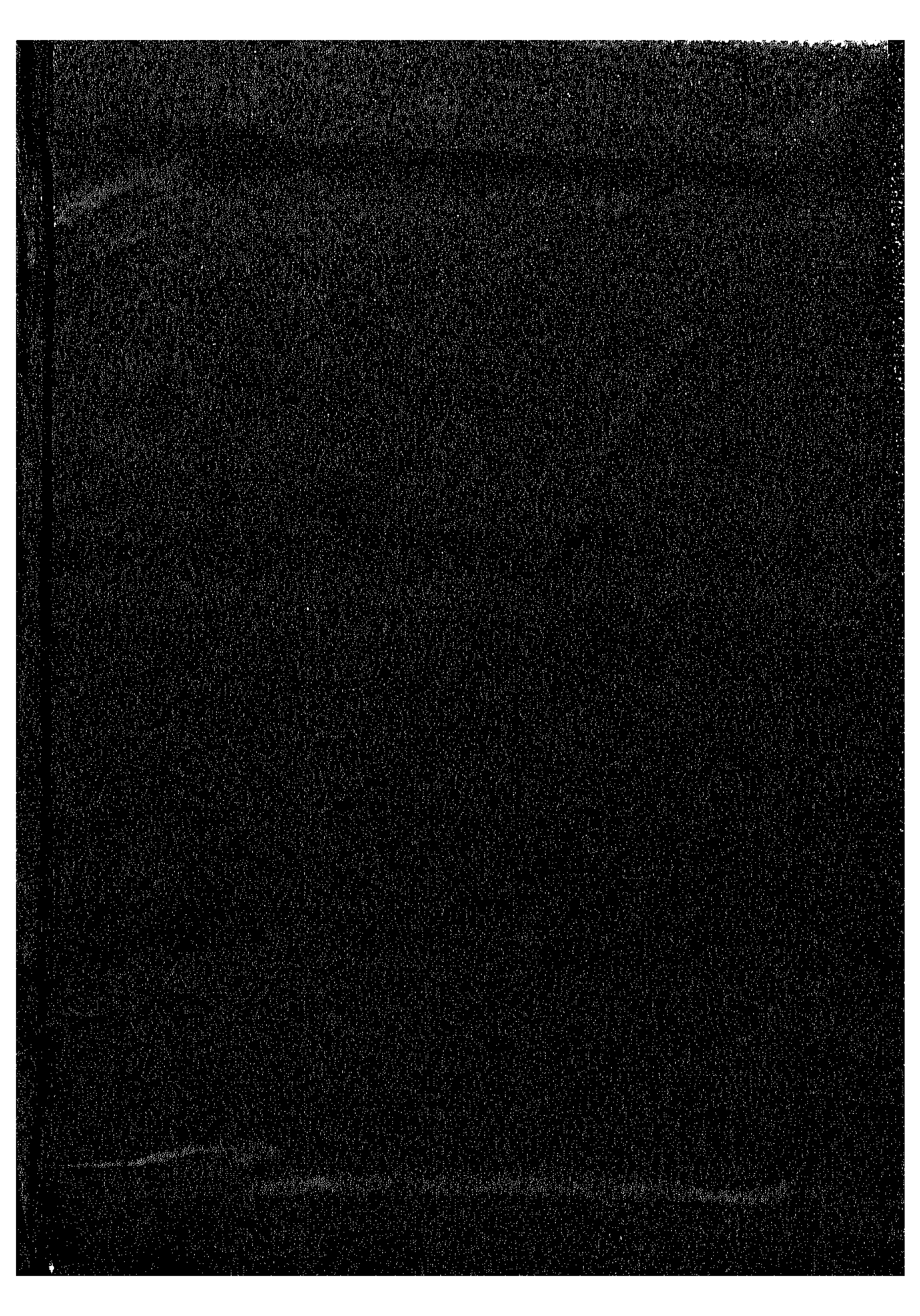
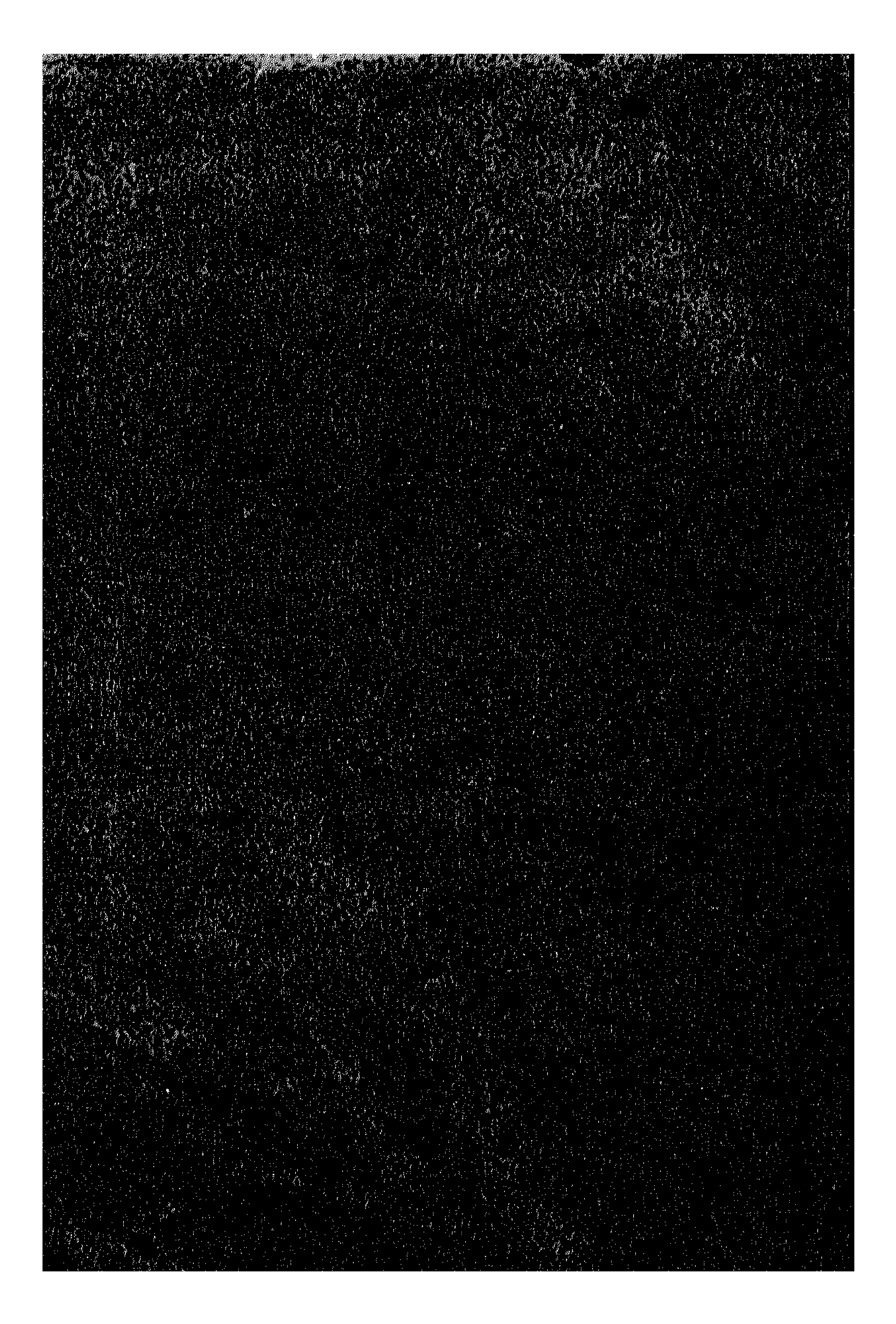

Bibliotheca Alexandrina
0137878





اقرأ

فتحى أبو الفضل

حافية على الشوك

عدد ممتاز



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤١٤] أغسطس ـ ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

فتحي أبو الفضل



الرواية الحائزة على جائزة الدولة للرواية
عام ١٩٧٧

(الطبعة الثانية)



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أستاذ أجيال متعاقبة غرس فى نفوس أفرادها بعلمه وفنه وأدبه وأستاذيته شيئا اسمه « الحس الإذاعى » ، عندما يقف الواحد منهم خلف الميكرفون ليخاطب الملايين ، ومخاطبة الملايين مسئولية ثقيلة ضخمة يحزننى ويحزن كل من يقدر ثقلها وضخامتها أن يراها — أعنى هذه المسئولية — قد ذابت ، فتلاشت من وجدان ونفوس الغالبية الغالبة من العاملين فى أخطر جهاز فى أية دولة ولا أقول فى مصر وحسب .

إلى أستاذ كبير عالم بأسرار هذا العلم الذى وهبه نفسه وذاته وحياته جميعا — الإذاعة — وقد قدم كل هذا إلى أجيال متعاقبة من تلامذته — بالألوف — فى عطاء بار كريم سخى ، فلم يبخل على أيهم يوما بالمعرفة والتوجيه ..

إلى عبد الحميد الحديدى .

أول وآخر رئيس لمجلس إدارة إذاعة مصر

إليه ، ضيفاً عزيزاً غالياً على الكوكب الأعلى — الجنة — التى وعد الله بها الأخيار من عباده .

حبا ووفاء وعرفانًا ، بلا حدود .

فتحى أبو الفضل

دار الأهرام — القاهرة

تحية خاصة

إلى من قطعت رحلتها إلى أوربا ، وهى على سلم الطائرة– التى كان مقرراً أن تقلع بها من مطار القاهرة – عندما علمت بمرضى ، فهبطت أرض المطار ، ومنها إلى المستشفى حيث كنت أرقد بين الحياة والموت ، لتظل إلى جانبي أسابيع متعاقبة ، إلى أن اطمأنت إلى اجتيازى الخيط الرفيع بين الموت والحياة . .

إلى الفلاحة المصرية التى لم تنس تراب قريتها ، « الإبراهيمية » – شرقية ، وهى فى قلب كل عاصمة من عواصم الدنيا . . .

إلى الصديقة الوفية ، التى جاوز وفاؤها كل مألوف . .

إلى كريمة . .

تحية خاصة من . . « حافية على الشوك » !

فتحي

١

« أسابيع ثلاثة تنقضى اليوم على ما جرى لى من هول . .

« الأسابيع الثلاثة هذه ، عشتها بإحساس واحد لا يتغير . . إحساس من يهوى من حالق . .

« من ارتفاع شاهق ، شاهق ، شاهق يقاس بُعْده عن الأرض – فى تقديرى – بآلاف السنوات الضوئية ، فظللت أعانى – وما أزال – فظاعة هذا الإحساس المروع . . إحساس السقوط من هذا الارتفاع الشاهق ، الشاهق ، الشاهق ، وسرعة السقوط تتزايد وتتضاعف ، وتتزايد وتتضاعف لتتساوى بسرعة الصاروخ . . لا أدرى متى أرتطم بالأرض لأتخلص من هذا الفزع المخيف ، وأنا أهوى بين متاهات الفضاء اللانهائى ، وإن كنت أعلم أننى لن أصل إلى الأرض – إذا وصلت – إلا ذرات متناثرة من اللحم المحترق والعظام المتفحمة !

« حسبى أن أنتهى من عذابى هذا على أية صورة ، حتى لو كانت النهاية على هذا النحو المفجع الأليم . .

« حياة وآخرها الموت .

« وهل يعيش إنسان إلى الأبد ؟

« أو هل نموت مرتين ؟

« هى ميتة واحدة يا صفاء !

« نموت اليوم ، أوغداً ، أو بعد أعوام . .

« ونموت فجأة ، أو بعد مرض طويل أوقصير . .

« ونموت إثر حادث ، أوفى معركة ، أونتيجة جراحة أواختناق أو تسمم . .

« ونموت حرقاً فى طائرة ،أو غرقاً فى محيط ، أوشنقاً تنفيذاً لعقوبة ، أو تحت أنقاض منزل يتداعى فوق رؤوسنا . .

« تتعدد الوسائل والموت واحد ، أو كما يقولون : « تعددت الأسباب والموت واحد » . . وهو الحقيقة المؤكدة ، والنهاية المحتومة لكل كائن حى . .

« فأية غرابة فى أن أموت يا صفاء ؟ !

« أى جديد وأى بأس فى أن أموت وأنتهى ؟ »

وماتت الكلمات على شفتى عصمت ، وقد تحولت دمعتان فى عينيها الرماديتين إلى حبّتين من اللؤلؤ ، وكأنهما تأبيان الفرار منهما لتنسابا على وجنتيها اللتين أذبلهما الحزن والهم والانكسار ثلاثة أسابيع متصلة . .

كان واضحاً من شحوبها الحزين أنها لم يغمض لهما جفن حقيقة ، خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت .

* * *

وطال الصمت بين الصديقين إلى أن قالت صفاء :

ــ عصمت . . يجب أن تبلغى النيابة .

ــ النيابة ؟ ! !

ــ إنها جهة الاختصاص .

ــ فى حياتى كلها ما وقفت مرة ، أوجلست ، أمام وكيل نيابة ، أو

ضابط شرطة . . فى حياتى كلها ، مادخلت مرة من باب يؤدى إلى حجرة تحقيق .

ــآن لك أن تدق باب غرفة وكيل النائب العام ، لتدخلى عليه ، ولتحكى له القصة كلها ، وكاتب التحقيق يدوّن ما تنفرج عنه شفتاك ، كلمة بكلمة .

ــ يا مصيبتى ! ! . . نيابة ؟ !

قالتها عصمت فى صوت هامس تخنقه الدموع ، ولكن صديقتها صفاء أمسكت بذراعها برفق ، وهى تقول :

ــ المصيبةُ فيما جرى ياعصمت ، والعدالة يجب أن تأخذ مجراها . . والنيابة خطوتك الأولى نحو تحقيق هذه العدالة .

ــ ووالدتى ؟

ــ تذهب معك .

ــ يعنى . . أعترف لها ؟

ــ بكل شىء . . فأنت مجنىّ عليك ، لا جانية . . خالك أحمد رجل عاقل ، وهو صديق لك أكثر منه شقيقاً لوالدتك ، وهو واسع الأفق ، سليم الإدراك ، وسيقدر كل شىء عندما تدعوه والدتك ليصحبك إلى دار النيابة ، بعد أن تروى له كل شىء .

ــ هل هذا هو الحل الوحيد كما تعتقدين ؟

ــ هل لديك غيره ؟

ــ أنا لست دارية بنفسى يا صفاء . . لقد أدركت ــ خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت ــ معنى حالة انعدام الوزن ، التى نقرأ

عنها منذ اقتحم الإنسان الفضاء .. إننى أعيش حقيقة فى حالة انعدام الوزن بصورة مستمرة .

ـ أستأذنك فى أن تتركى لى مهمة إطلاع والدتك على كل شىء .

هتفت عصمت بسرعة :

ليتك تفعلين يا صفاء !

ـ وفيمَ التمنى ؟ . . أنت منى فى مكانة الأخت العزيزة الغالية ، ووالدتك فى مكانة الأم منى . . سأقوم لزيارتها وأروى لها كل شىء . . ولنتفق من الآن على أنك تعلمين أننى سأخاطبها فى هذا الشأن . . أى أن إحساسك بالحرج والخجل البالغين ، هو ما دفعك لأن تنيبينى عنك للقيام بهذه المهمة .

ـ شكراً يا صفاء .

ـ سنتوجه معاً الآن ، وسأنفرد بها قليلاً ، بينما تتشاغلين أنت فى عمل أى شىء ، إلى أن أفرغ أنا من إطلاعها على القصة ، ثم نجتمع ثلاثتنا ونتفق على الخطوة التالية !

٢

إلى جانب خالها أحمد ، جلست عصمت أمام وكيل النائب العام ، الذى فتح محضراً ليسجل أقوالها كلمة بكلمة . .

ـ اسمى عصمت مرتضى ، ابنة المرحوم أمين مرتضى المحامى . . فى الثلاثين من هذا الشهر ، أبلغ الرابعة والعشرين من عمرى .

وكان كاتب التحقيق يدوّن كل ما تقوله عصمت ، التى توقفت

قليلاً عن الحديث ، وسألت وكيل النائب العام بصوت مرتجف ، إن كان من المتيسر أن يأمر لها بكوب ماء ، فأجابها النائب من فوره :

ــ بكل تأكيد . . أطلبي ماشئت يا آنسة عصمت . . يستطيع الأستاذ أحمد كذلك أن يطلب ما يشاء .

وأمر الحاجب بإحضار قدحي قهوة مع ماء مثلوج . . واستأنفت عصمت الحديث :

ــ فى اليوم الثالث من هذا الشهر . . أذكر أنه كان يوم سبت . . .

ــ أى منذ نحو ثلاثة أسابيع .

ــ بارحت منزل أسرتى ، بشارع الدكتور محمد مصــدق بالدقى ، قاصدة مستشفى « دار الشفاء » بشارع رمسيس ، لزيارة صديقة لى أجريت لها جراحة دقيقة . . .

ــ وبعد ؟ . .

ــ انتظرت إحدى سيارات « التاكسى » قرابة عشر دقائق دون جدوى . . .

ــ إنها أصبحت مشكلة .

ــ فقلت لنفسى ، أو قالت لى نفسى ، أن أمشى قليلاً لعلى أجد إحدى هذه السيارات مقبلة من أي شارع جانبي ، فأستقلها إلى وجهتى .

ــ فمشيت . .

ــ وكلما مرت بى سيارة حاولت أن أستوقفها ، ولكنى كنت أمام حالتين لا تتغيران : فالسيارة إما مشغولة براكبيها ، أو خالية ! ولكن السائق لا يقف ، وكأنه لا يرى من يستوقفه ليحمله إلى حيث يريد . .

ــ حالة محيرة بطبيعة الحال .

ـ وانقضت خمسون دقيقة . . .

ـ خمسون دقيقة ! !

ـ أرجو أن أكررها مؤكدة . . انقضت خمسون دقيقة كاملة ، وأنا أنتظر سيارة تحملنى إلى المستشفى دون جدوى ، واكتشفت أن الوقت يسرقنى ، والشمس بدأت زحفها نحو الغروب ، ولو انتظرت خمسين دقيقة أخرى ، ما وصلت المستشفى إلا والظلام قد أقبل .

ـ فكرت فى العودة إلى المنزل

ـ هذا صحيح . . ولكنى لم أكد أستدير عائدة ، حتى وقفت بالقرب منى سيارة فاخرة ، فتح قائدها بابها بهدوء ، وهو يقول لى فى صوت مهذب ، وفى لهجة أكثر تهذيباً : « الآنسة لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه » !

ـ شكراً ، ولكنى . .

ـ ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة – وفى هذا الشارع بالذات – يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن ينشر فى الصحف ، ولاشك فى أنك أمضيت مالايقل عن نصف ساعة تنتظرين . .

ـ فى الحقيقة ، أمضيت خمسين دقيقة .

ـ إذن أرجو أن تمنحينى شرف حملك إلى حيث تريدين . . إننى جارك فى هذا الشارع . . ، إذا كنت من ساكنيه .

ـ إننى أسكن هذا الشارع .

ـ نحن جيران إذن . . اسمحى لى أن أقدم لك نفسى ، حتى لا تكونى على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا « عبد الحميد لطفى » ، مزارع . .

درست الحقوق ، هذا صحيح ، ولكني تفرغت لزراعة أرضى فى طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلى يا آنستى . . تفضلى

وترددت . . حقيقة ترددت فى بادئ الأمر وأحس هو بترددى فعاد يقول :

ــ آنستى . . إن لى شقيقات وبنات شقيقات بعضهن فى مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحى أخاً أكبر أو خالاً بمظنة سوء ، وبعد . . فإنك لست طفلة . . وبيتى – أعنى بيت أسرتى – يقوم على رأس هذا الشارع وسأريك إياه مشيراً إليه عندما نمر به الآن . . ربما تعرفت والدتك بوالدتى ، أو تعرفت أنت ببنات شقيقاتى وتبادلتن الزيارات جميعاً ، وأصبحت أسرتانا أسرة واحدة . .

ــ فى الحقيقة ، أنا فى عجالة فإن صديقة عزيزة لى ترقد فى مستشفى « دار الشفاء » ، وكنت أرجو زيارتها قبل أن يقبل المساء .

ــ تقولين مستشفى « دار الشفاء » ؟

ــ نعم .

ــ يعنى فى سكتى ، لأننى ذاهب إلى مصر الجديدة . . تفضلى واركبى ، أرجوك . . تفضلى .

وصعدت ، وجلست إلى جانبه . وانطلق بالسيارة فى سرعة عادية توحى بالرزانة والاتزان ، والمهارة وحسن القيادة .

وعند أول شارع الدكتور مصدق ، أشار بأصبعه إلى المبنى الكبير ، القائم على زاوية التقائه بشارع الدقى ، وهو يقول :

ـ« هنا نسكن » .

وانحرف يميناً إلى شارع الدقى . .

* * *

فى الطريق ، وبعد قليل ، قال لى :

ـ مارأيك فى الآتى ؟ . . سأتركك عند مستشفى « دار الشفاء » لزيارة صديقتك ، وأتم أنا رحلتى إلى مصر الجديدة ، وفى عودتى – بعد قضاء مهمتى هناك – سأمر لآخذك من المستشفى ، لأعود بك إلى منزل أسرتك ، فإن العثور على « تاكسى » فى شارع رمسيس ، وفى منطقة مستشفى « دار الشفاء » بالذات ، وبعد نحو ساعتين من الآن ، مسألة لا أقول شبه مستحيلة ، لأنها مستحيلة حقيقة . . ولنتفق من الآن على ساعة معينة ، أعود لك عند حلولها.

ولكنى شكرت له هذا ، معتذرة بأننى سألتقى – حتماً – ببضع صديقات يزرن صديقتنا المريضة فى المستشفى ، ومن الطبيعى أن نعود معاً .

فأجابنى بأدب مفرط :

ـ كما يتراءى لك ، مادامت راحتك فى هذا .

كان مهذباً عالى التهذيب . . مؤدباً مفرط الأدب ، يركب سيارة فاخرة ، ويرتدى ثياباً فاخرة ، ويتضوع منه عطر جذاب جميل . . « ابن ناس » ، كما يقولون . . ولم يكن شاباً نزقاً ممن يطيلون شعورهم ، ويقودون السيارات بسرعة مخيفة ، ويملأون الجو زعيقاً بآلات التنبيه ، كما هى القاعدة الآن . بالعكس ، فقد كان واضحاً أنه تعدى الثلاثين . . أستطيع أن أقول إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، يبدو محترماً عاقلاً

رزيناً . . وكانت عقود ياسمين نضرة تتدلى من المرآة الصغيرة المثبّتة أمامه ليرى فى صقالها الطريق خلفه . . وسقطت على ركبتى زهرة من هذه الأزهار ، فالتقطتها وقربتها من أنفى أستنشق شذاها العبق ، فنظر نحوى وهو يسألنى :

ـ أتحبين عطر الياسمين ؟

ـ أحب العطور الجميلة عموماً . . والياسمين بالذات ، أحب عطره .

أجابنى وابتسامة هادئة على وجهه ، بينما عيناه على الطريق :

ـ أنا أيضاً ضعيف جدّاً أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال ثمناً لقارورة عطر يعجبنى .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال بعدها وعيناه لا تزالان على الطريق ، دون أن ينظر لى :

ـ فى مرة ، دفعت مائة وخمسين جنيهاً استرلينياً ثمناً لزجاجة عطر اشتريتها من « بيير بالمان » فى باريس .

ولا أنكر أن الرقم استثارنى ، فسألته :

ـ يا خبر ! . . مائة وخمسون جنيها ثمناً لزجاجة عطر ! ! . . لاشك فى أنه شىء رائع . . غير عادى .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لك أن تحكمى بنفسك .

وأخرج من جيبه منديلاً أبيض ناصعاً – وكنا قد اقتربنا من ميدان الجلاء – وقرب المنديل من أنفى ، وهو يقول :

شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى المائة والخمسين جنيهاً

أولا يستحقها .

وأعترف أن العطر كان شيئاً ساحراً ، لاعهد لى به ، فاستنشقته بعمق . . ثم بعمق أكثر ، فأكثر ، فأكثر ، وهو يقول لى :

ـ ما رأيك ؟

ولما حاولت أن أجيبه ، أحسست بلسانى أثقل من أن أحركه .

كل ما أذكره أن صوته كان يصل إلى مسمعى كأنه آت من مكان بعيد ، بعيد ، ومن خلال ضباب ، وهو يقول :

ـ شمى . . شمى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . .

ولم أعد أدرى بشئ !

* * *

لا أدرى كم من الوقت مرّ على قبل أن أفيق من الغيبوبة ، لأجد نفسى راقدة شبه عارية ، فى فراش لا عهد لى به . .

واكتشفت على الفور فظاعة ما جرى لى . . .

صرخت . . .

قاومت ضعفى وذلى وعارى ، وتغلبت على آثار الإغماء الذى عشته نحواً من ساعة ، وقمت من مكانى لأجد هذا الشيطان جالساً على مقعد قريب من الفراش ، وهو ينظر لى ، وابتسامة ثعبان ترتسم على وجهه . . إذا استطاع الثعبان أن يبتسم !

دخلت فى ثيابى بسرعة ، واتجهت نحوه ، ونظرت له نظرة جمعت احتقار الدنيا بأسرها . . لو كان فى نظرات الاحتقار ما يقتل إنساناً ، لمات هذا الشقى ألف مرة ، وعيناى تلعنانه وتبصقان ما ضمنته قواميس

العالم بكل لغاته من كلمات الاحتقار.

ورفعت يمينى بقدر ما استطعت ، وهويت بكفى على صدغه القبيح بلطمة خيل إلى أنها ستلقيه أرضاً . . ولكنه تلقى اللطمة فى هدوء ، وابتسم لى ابتسامة صفراء ، وهو يقول :

ــ إننى لا أستحق منك هذه المعاملة الخشنة .

بصقت على وجهه وأنا أصرخ :

ــ أنت نذل . . أنت جبان . . أنت حقير . . أنت أحقر من صرصور ، وأقبح من برص ، وأقذر من خنزير . . أنت أحقر وأقبح وأقذر من كافة الحشرات والهوام التى خلقها الله فى هذا العالم ، دون أن نصل إلى حكمته من خلقها.

وبدا عليه أنه بدأ يتململ . . فى ظنى أنه لم يكن يتصور أننى سأهاجمه بكل هذا العنف ، فغاضت الابتسامة الصفراء فجأة من قسمات وجهه ، وقال لى فى برود :

هل انتهيت من سبابك ؟

السباب لن يشفى غليلى منك ، بعد أن سطوت على ما لا يُعاد ولا يُسترد . . ولكنى سأسجنك . . أتسمع ما أقول ؟ سأسجنك . . سأجعلك من أرباب السوابق ، وسيهدر عتاة المجرمين رجولتك عشرات المرات كل ليلة ، كما نسمع عن عالم الليل فى عنابر السجون . . وإلى أن يجىء يوم الإفراج عنك بعد قضاء مدة السجن ، ستجد نفسك بقايا مخلوق ، ولا أقول بقايا رجل ، لأنك لم تكن رجلاً يوماً ما . . وسترى فى أخواتك وفى بنات أخواتك مثل ما فعلت بى الليلة ، فلن تعْدم واحدة منهن نذلاً

مثلك يفعل بها ما فعلت بى ، يا عديم الرجولة والمروءة والشرف !

وقام عن مقعده فى هدوء وهو يقول :

ـ تفضلى لأحملك إلى حيث تريدين .

ـ أأركب معك ثانية ؟ ! !

قلتها وأنا أبصق على الأرض . . .

ـ إننى أتصرف تصرف المهذبين ، إذ لا يليق أن أتركك تنتظرين سيارة لا يعلم إلا الله متى يمكنك العثور عليها ، ونحن فى منطقة شبه معزولة عن زحام العمران .

وتناولت حقيبة يدى ، وبصقت على وجهه مرة ثانية ، وخرجت من الغرفة إلى ردهة المسكن متجهة إلى بابه ففتحته . . واكتشفت أنها « ڤيلا » تحيطها حديقة كثيفة الأشجار . . ولم يكد البواب يرانى حتى وقف رافعاً يده بالتحية ، فمضيت خارجة دون أن أنظر إليه .

سيارته كانت واقفة أمام الباب ، فالتقطت رقمها ودونته ، ورحت أبتعد .

* * *

لم أكن أعرف أين موقعى من القاهرة ، وفى أى أحيائها أقف هذه الوقفة الجريحة الذليلة . .

الليل أقبل ، ومصابيح الشارع أضيئت فأضاءت أمامى الطريق التى تظللها الأشجار من الجانبين ، فمنحنى الضوء بعض الطمأنينة . . ولكنى أحسست بساقى تتخاذلان وترتجفان عجزاً عن حملى .

صفير حاد أخذ يخترق أذنى ، ويدق جوانب رأسي . . والمرئيات أمامى

تدور وتتراقص ، كما لو دبت فيها الحياة بمعجزة !

أحسست بعيني تغيمان . . بغثيان . . برغبة فى القىء . . ولكنى تحاملت على نفسى ، وشهقت شهيقاً طويلاً فملأت صدرى بالهواء ثم زفرته ببطء . وظللت أسير وقد أبطأت من سرعتى ، حتى بلغت الشارع العام.

السيارات ، والمركبات ، وعربات النقل ، والدراجات ، والدكاكين ، والأضواء ، والحركة ، والحياة فى مختلف صورها ، فى شارع يموج بالألوف . . واكتشفت أننى فى أطراف مدينة المهندسين .

الغريب أننى شاهدت سيارة من سيارات الأجرة واقفة ، وسائقها خلف عجلة القيادة يدخن سيجارته فى هدوء ، فسألته أن يحملنى إلى البيت إن لم يكن ينتظر أحداً ، فأجابنى فى نبرة مهذبة ، وهو يلقى بقايا سيجارته : » تفضلى يا هانم ! «

وأحسست بالمرارة تملأ نفسى ، وقلبى ، ووجدانى ، وكل مسام جلدى . . أين كان هذا السائق قبل أن أركب مع ذلك الحيوان الضارى . . . هل حقًا اسمه « عبد الحميد لطفى » كما قال لى ؟ . . من يدرى ؟

حملتنى السيارة إلى بيت أسرتى ، واعتذرت لوالدتى عن عدم استطاعتى مشاركتهم العشاء ، ودخلت غرفتى وأغلقت بابى على ، لأبدأ معاناة أرق لا عهد لى به . . انتابنى أرق عات مدمر ، لازمنى بصورة مستمرة ، حتى ليخيل لى أنه أصبح حالة مرضية . . إننى لم أنم منذ تلك الليلة حالكة السواد ، حتى هذه اللحظة . . لم أنم حقيقة ، ولقد لاحظت والدتى ما طرأ علىّ من تغيير ، كما لاحظه خالى . . وسألنى كل منهما عما بى ، فأجبت بأننى أعانى حالة أرق لا أدرى لها سبباً . . .

والتفتت عصمت إلى خالها الجالس بجانبها ، وهى تقول :

ــ خالى أحمد يتذكر هذا طبعاً .

أجاب خالها فى صوت مقهور : « طبعاً أتذكره يا ابنتى » .

سألها النائب : « ولم لم تأت إلينا فى الليلة ذاتها ، للإبلاغ عما حدث ؟ »

أطرقت عصمت قليلاً . . وهزت رأسها فى أسى ، وهى تجيب :

ــ سيادة النائب يستطيع – بلا شك – أن يدرك حال بنت مثلى ، جرى لها ما جرى لى . . فظاعة إحساسى بفداحة ما فقدت بعد الاعتداء علىّ . . الخوف . . الرعب . . خشية الفضيحة ، والتفكير فى محاولة اتقائها ، وكيف يكون هذا الاتقاء . . ثم والدتى وأهلى . . كيف يكون وقع ما حدث لى عليهم . . من أين أجد الجرأة ، وأنا فريسة كل هذه الصراعات ، على أن أحضر لمقابلتك أو لمقابلة أى زميل لك ، لأروى قصة عارى . . إننى لم أجد الشجاعة لأطلع والدتى أو خالى على ما جرى لى ، لولا أن دفعتنى صديقتى « صفاء » لأخطو هذه الخطوة . . بل إنها جنّبتنى حرج الموقف المخزى الأليم ، فتولت المهمة نيابة عنى ، وقصت على والدتى القصة بحذافيرها ، ونقلتها والدتى بدورها إلى خالى ، فهو الرجل الوحيد فى أسرتنا بعد وفاة والدى . . فجاء بى إلى هنا لأقول كل شىء

سألها النائب : « هل معك رقم السيارة ؟ »

ــ هاهو ذا يا سيدى : « ٦٠٦٠٦٠٦ – ملاكى جيزة »

ــ قلت إن اسمه عبد المجيد لطفى ؟

ــ عبد الحميد وليس عبد المجيد – هكذا قال لى ، ولا أعرف إن كان صادقاً أو غير صادق .

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ، وقال له :

اكتب يا سيد رمضان . . « يتم الاتصال فوراً بقلم مرور الجيزة ، للاستفسار عن اسم صاحب السيارة (٦٠٦٠٦٠٦ - ملاكى جيزة) ، وعنوانه ، ويستدعي للحضور أمامنا غداً الاثنين ٢٦ أبريل الساعة الثانية عشرة ظهراً لاستجوابه » .

ثم استدار بمقعده إلى عصمت ، وسألها :

- أتريدين إضافة شئ آخر يا آنسة عصمت ؟

أجابته فى صوت يائس : « لقد قلت كل ما عندى » .

قدم لها قلماً ، وهو يقول : « لو سمحت ، وقعى هنا . . عند نهاية أقوالك » .

ووقعت عصمت باسمها واضحاً وكاملاً ، بينما كان وكيل النائب العام يقول لها :

- ستشرفيننا مع الأستاذ أحمد غداً ، فى الثانية عشرة ظهراً ، لمواجهتك بصاحب السيارة ، إذ من يدرى . . قد يكون شخصاً غيره . . أعنى غير من ركبت معه واعتدى عليك .

وأطرقت عصمت برأسها ، وقد صعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول فى همس : « سأكون هنا فى الثانية عشرة ، ظهر غد » .

٣

فى الثانية عشرة تماماً ، ظهر اليوم التالى ، دخل « عبد الحميد » غرفة وكيل النائب العام ، ومعه شخص تبدو على وجهه سمات الجد وجهامة من أخذ الأهبة لمعركة لامفر منها .

وكانت « عصمت » تجلس قريبة من خالها « أحمد » فى جانب من الغرفة ، وبمجرد أن وقعت عيناها على غريمها ، همست فى أذن خالها : « هذا هو يا خالى » .

تقدم عبد الحميد من وكيل النيابة فى ثقة واعتزاز ، وهو يقول فى صوت هادئ :

ــ سيادة النائب ، أنا عبد الحميد لطفى ، وقد تلقيت هذا الاستدعاء للمثول أمامكم فى هذه الساعة من هذا اليوم .

رفع النائب رأسه عن الأوراق التى أمامه ، ونظر إلى عبد الحميد ، وقال له فى هدوء : « تفضل . . اجلس ! » .

وأضاف عبد الحميد ، مشيراً إلى مرافقه :

ــ وكيلى ، الأستاذ صادق الكاشف المحامى

أشار النائب إلى مقعد آخر مجاور ، وهو يقول للمحامى : « تفضل يا أستاذ صادق ! » .

وأومأ إلى « عصمت » وخالها لينتقلا إلى مقعدين قريبين من مكتبه ، فأصبح الجميع فى شبه حلقة صغيرة ، يتصدرها وكيل النائب العام ، وبجانبه كاتب النيابة ، وعن يمينه عبد الحميد ومحاميه ، وعن يساره

عصمت وخالها أحمد .

وافتتح النائب محضره ، فسأل عبد الحميد عن اسمه ، وعمله ، وعنوان مسكنه . فأجاب عن كل هذا فى هدوء غريب . . وكان أغرب ما فى هذه الإجابات جميعاً أن اسمه « عبد الحميد لطفى » حقيقة ، أى أنه لم يغير اسمه عند ما قدم نفسه لعصمت يوم أن دعاها لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليحملها إلى حيث كانت ذاهبة .

ثم قدم بطاقته الشخصية ، عندما سأله النائب إياها ، فأثبت هذا رقمها وتاريخ إصدارها فى المحضر ، وأعادها إليه .

وعن عنوانه أجاب بأنه يقيم فى مسكنه الخاص ، الذى بناه . . « ڤيلا » عند نهاية مدينة المهندسين ، فى شارع تم شقه حديثاً فلم يعلن اسمه بعد . . وبالتالى فإن مسكنه لم يتم ترقيمه .

وأضاف بعد لحظة صمت : « سمعت أنهم قد يطلقون اسمى على هذا الشارع ، باعتبارى أول من بنى فيه بيتاً » .

ولم يعلق النائب على عبارة عبد الحميد الأخيرة ، ولكنه وجه له سؤالاً مباشراً ، وهو يشير إلى عصمت : « هل تعرف هذه الآنسة ؟ » .

ــ إلتفت عبد الحميد إلى عصمت ، وأجاب فى براءة الأطفال :

ــ طبعاً أعرفها ، وإن كنت أجهل اسمها ، لأننا لم نلتق غير مرة واحدة ولقد قالت لى إن اسمها « فيفى » .

ــ كيف وأين ومتى التقيت بها ؟

ــ سيادة النائب ، أتأذن لى بإعادة ترتيب الإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة ، فأجيب أولاً عن « متى » التقيت بها ؟ . . . فأقول : منذ نحو

ثلاثة أسابيع . . ربما أكثر بيوم أو يومين . . لا أذكر !

ـ لا بأس . . . لا بأس .

ـ ثم أجيب ثانياً عن « أين » ، فأقول : فى شارع الدكتور مصدق بالدقى ، حوالى الساعة الخامسة مساء ، أو بعدها بقليل . . أما عن « كيف » التقيت بها ، فقد كنت منصرفاً فى تلك الساعة – من ذلك اليوم – من زيارة بيت الأسرة . . أعنى بيت والدتى وأخواتى . . وكنت أقود سيارتى ، وإذا بهذه الآنسة تعترض طريقى ، وهى ترفع لى إبهامها إشارة إلى أنها ترجو أن أحملها معى إلى حيث هى ذاهبة . . « موضة » جديدة تفشّت أخيراً فى شوارع القاهرة ، كما تعرف سيادتك ولاشك ! . . فتوقفت عن المسير مروءة منى ، وفتحت باب السيارة ، وقلت لها : تفضلى ، فأنا أعرف صعوبة العثور على « تاكسى » !

لم تكد عصمت تسمع هذا حتى هبّت عن مقعدها ، وهى تصرخ :

– كاذب . . كاذب . . كاذب يا سيادة النائب . . أقسم أنه كاذب !

ولم يهتز عبد الحميد لثورتها . . لم يرد بكلمة واحدة !.

محاميه هو الذى تدخل ، فقال للمحقق :

– أرجو من سيادة المحقق أن يحمى موكلى من سباب الآنسة . . إننا للآن لم نعرف لماذا استدعينا . . لماذا استدعت النيابة موكلى ؟

أشار النائب إلى « عصمت » فى هدوء لتلتزم الصمت ، فعادت إلى مقعدها والإحساس بالقهر يفتك بكل خلايا جسمها . . وعاد المحقق يسأل عبد الحميد :

– ماذا حدث بعد أن ركبت إلى جانبك فى سيارتك ؟

– ما يحدث عادة بين شاب وفتاة ، التقيا فى الطريق ، على هذا النحو . أحاديث فارغة تافهة . . سألتها إلى أين ؟ فقالت إلى أى مكان . . فعدت أسألها : «هل لديك ما يمنع أن تصحبينى إلى مسكنى ؟ إنى أسكن – مدينة المهندسين – ڤيلا جميلة بنيتها حديثاً ، وهى مؤثثة بأثاث فاخر ، ولها حديقة جميلة ، وشرفة ساحرة ، جلسة واحدة فيها تطيل العمر» . . فابتسمت وهى تقول لى ، من جانب شفتيها : «أنت عفريت . . شقى» !

وهبت عصمت عن مقعدها مرة أخرى ، وهى تصرخ فى صوت أبح :

– نهار أسود . . أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم !

وعاد المحقق يشير إليها لتجلس ، ولتلزم الهدوء . . فحطت على مقعدها وقد غص حلقها ، وشرقت عيناها بالدموع . واستأنف المحقق توجيه أسئلته إلى عبد الحميد : «وبعد ؟»

– وهل لهذا من بعد . . إلا ما هو معروف ومألوف ؟ توجهنا معاً إلى مسكنى ، وأمضينا معاً وقتاً سعيداً ، كأى شاب وفتاة ، ولما سألتها اسمها ، قالت لى : «فيفى» ، ولم تزد . . أعنى أنها لم تصرح لى باسمها الحقيقى . . . حاولت أن أعرف منها رقم «تليفونها» ، فقالت إنها تفضل أن أترك لها الاتصال بى . أخذاً بالأحوط . . ثم انصرفت معززة مكرمة .

عند هذا الحد تدخل المحامى ، فسأل المحقق :

– سيادة النائب . . موكلى – للآن – لا يعلم لماذا استدعته النيابة ! ! هل هناك أى اتهام موجه له ؟

– الآنسة عصمت تتهم الأستاذ عبد الحميد لطفى بأنه خدرها فى

السيارة – عن طريق الشم – بعد أن ركبت بجانبه ، وعندما أفاقت من غيبوبتها من تأثير المخدر ، وجدت نفسها شبه عارية فى فراشه ، وقد اعتدى عليها أبشع اعتداء . . .

ولم يكد عبد الحميد يسمع هذا الاتهام ، حتى نظر إلى عصمت والمرارة تملأ صوته ، وهو يقول :

– أهكذا يكون جزاء إحسانى إليك يا آنسة ؟ . . أتنكرين أنك سألتنى – وأنت تتأهبين لمغادرتى – عشرين جنيها ، فأعطيتك خمسين ؟ صحيح . . اتق شر من أحسنت إليه !

ولم تملك « عصمت » نفسها ، فهبت للمرة الثالثة عن مقعدها كالقذيفة ، وهى تصرخ فى شبه جنون :

– اخرس ! . . إخرس ! . . لوملكت الآن أن أقتلك ما ترددت لحظة واحدة . . ولكنى – حتما – سأقتلك يوماً ما . ! . سأقتلك جزاء كذبك الحقير ، وافترائك الفاضح الظالم ، وجبنك الذى يزرى بأى رجل . . إن كنت من الرجال !

ولم يزد عبد الحميد عن أن يطرق ، وهو يقول :

– سيادة النائب . . أرجو حمايتى من سلاطة لسان السيدة !

واندفعت عصمت نحو المحقق وهى تبكى :

– أنا التى أطلب الحماية ياسيادة النائب . . أطلب الحماية من هذه الافتراءات ، التى يحاول بها أن يجعل منى عاهراً أو بغيًا . . إنه قتلنى مرة منذ ثلاثة أسابيع ، عندما سلبنى أغلى ما أملك ، محتالاً بأخس الحيل . . واليوم يقتلنى مرات بادعاءاته الفاضحة . . .

أجابها المحقق ، وقد رسمت المرارة خطوطها على جبينه :

– آنسة عصمت . . للمدعى أن يقول ما يشاء ، وقد قلت كل ما عندك باعتبارك المدعية . . كذلك ، للمدَّعَى عليه أن يقول ما يشاء دفاعاً عن نفسه ، ولا أحد يملك أن يمنعه – وهو فى موقف الاتهام – من أن يقول كل ما عنده . . ومهمة النيابة فى النهاية أن تتقصَّى الحقيقة لتصل إليها ، فأرجو منك أن تعودى إلى مقعدك ، وأن تهدئى قليلاً !

فى هذه اللحظة تدخل المحامى ، قائلاً :

– سيادة النائب ، أرجو أن يُسمَح لى بالاطلاع على اتهام السيدة لموكلى ، فى بلاغها لسيادتكم ، لأستطيع أن أفند أقوالها ، لننتهى من هذا الموقف الذى تحاول أن تجعل منه مشكلة ولا أعتقد أنه كذلك .

قدم المحقق للمحامى أقوال عصمت ، التى أدلت بها فى اليوم السابق ، مذيَّلة بتوقيعها ، وهو يقول :

– إن ادعاءها يختلف تماماً عن أقوال المدعى عليه .

– لهذا رجوت أن أُطلع على تفاصيل هذا الادعاء .

وفى لحظات ، انتهى المحامى من الاطلاع على أقوال عصمت ، فرد المحضر للمحقق وهو يقول :

أرجو أن يُسمَح لى بتفسير قصير ، أعتقد أنه سيكون فصل الخطاب .

– تفضل !

– أرجو أن يسجل كاتب التحقيق فى المحضر كل كلمة أمليها عليه ، لأن ما سأمليه سيكون خاتمة ما لدينا من أقوال ، ردا على كل ادعاءاتها الكاذبة . . هذا إذا سمح السيد المحقق !

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ،وأومأ له بتسجيل ماسيمليه محامى المدعى عليه ، الذى بدأ يقول :

– المدعية السيدة عصمت أمين مرتضى تعترف فى بلاغها بأنها ركبت مع موكلى المدعى عليه بكامل رغبتها وحريتها . . ومعنى هذا أنه لم يقسرها على أن تركب معه برغمها . . .

« وهى باعترافها ، تتم الرابعة والعشرين من عمرها السعيد ، المديد إن شاء الله ، بعد أيام . . ومعنى هذا أنها بالغة سن الرشد ، يعنى راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها . .

« وسأتمشى معها ، وسأصدقها . . وسأفترض صدق افترائها على موكلى بأنه خدرها ، ليصحبها إلى منزله بعد أن تفقد إرادتها ، لينال منها ما تدعى أنه ناله . . إن صح هذا – كل هذا – الذى تدعيه السيدة المدعية ، فلا جريمة على موكلى ، لأن السيدة – كما قدمت – راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، من واقع أقوالها فى البلاغ الذى تقدمت به إلى النيابة العامة . . وهى – لكل هذا – تتحمل نتيجة تصرف البالغين الراشدين العقلاء . . وهى إن كانت جادة وصادقة فى ادعائها ، فلمَ لم تبلغ النيابة بما وقع عليها من اعتداء ، ليلة أن تم الاعتداء عليها ؟ . . أين كانت خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، التى انقضت منذ أعتدى عليها موكلى – كما تدعى – حتى اليوم ؟

« من هنا يتبين عدم جدية التهمة التى تحاول المدعية إلصاقها بموكلى ظلما ، لتحقيق غاية فى نفسها . . ولهذا أطلب حفظ البلاغ ، والإفراج عن موكلى بلا ضمان ولا كفالة ! »

عند هذا الحد . انفض المولد ، أو السامر ، أو الندوة ، أو الاجتماع ، أو المهرجان ، أو المؤتمر . . أو أى شيء ! . . فقد انتهى التحقيق . .

انتهى التحقيق بحفظ البــلاغ ، وأفرجت النيــابة عن السيد « عبد الحميد لطفى » بلا كفالة ولا ضمان . . « لأن البلاغ المقدم ضده من الآنسة – أو السيدة المدعية عصمت أمين مرتضى – لا يتضمن جريمة يعاقب عليها القانون ، حيث إنها باعترافها ركبت سيارته برغبتها ، دون أى إرغام ، أوضغط ، أوقسر ، أوتهديد . . وحيث إنها بالغة وراشدة ، وتملك أمر نفسها ، وتستطيع أن تفرّق بين ما يجوز ومالا يجوز ، فإنها تتحمل نتيجة ما تقدم عليه . . وأقفل المحضر » !

وقام عبد الحميد عن مقعده ، وقام محاميه معه . .

وقامت عصمت ، كما قام خالها . .

لم يفتح أحدهم فمه بكلمة ! . . عصمت كانت الوحيدة التى تكلمت ، فسألت المحقق :

– هل هذا هو القانون يا سيادة النائب ؟

فأجابها النائب بنبرة مهذبة ، وبصوت خفيض :

– نعم يا آنسة عصمت . . إنه القانون !

رفعت عصمت رأسها ، وقد أحست بأنها تكاد تختنق . . ولكنها تمالكت أعصابها ، لتقول فى هدوء :

– مادام هذا هو القانون ، فهذا إذن حق يا سيادة النائب . . فقد ركبت سيارته برغبتى ، وبإرادتى ، وبدون أى إرغام ، أو ضغط ، أو قسر ،

أو تهديد . . وأنا بالغة وراشدة وأملك أمر نفسى ، وأستطيع أن أفرق بين ما يجوز وما لا يجوز . . ولهذا يجب أن أتحمل نتيجة ما أقدمت ، أو ما أقدم عليه !

٤

فى المساء ذاته ، كان عبد الحميد يجلس مع أقرب أصدقائه إليه ، فى حديقة السطح بأحد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، يروى له تفاصيل ما جرى ظهراً فى غرفة التحقيق ، وكيف كان وقع قرار حفظ البلاغ على « عصمت » ، وإن تقبلته بهدوء غريب ، وبأعصاب من حديد . . ثم أضاف بلهجة السوقة : .

– حلوة بنت الكلب ؟ . . حلوه صحيح يا حافظ ، وكنت أتمنى ألا تثير كل ما أثارته ، حتى أظل على علاقة طويلة بها . . ولكنها صعَّدت الأمر ، فبلغت به إلى النيابة ، وهو ما يحدث لى لأول مرة ، لأنهن – جميعاً – يخفن الفضيحة ويتقينها . .

أجابه صديقه ، وهو يرشف رشفة من كأسه :

– ربما لأنها كانت بكراً . . وسقطتها ستنكشف يوماً ما ، لا محالة . . بعكس الزوجة ، أو المطلقة ، أو الأرملة – ، فهى تستطيع أن تبتلع غصتها فى صمت ، وأن تدارى عارها ، فلا يدرى أحد بما وقع لها !

أطلق عبد الحميد دخان سيجارته ، وهو يرد كأسه إلى سطح المائدة ، قائلاً لصديقه :

– لا ياحافظ . . هذه البنت – عصمت – جريئة جرأة غير مألوفة . .

إنها البكر الوحيدة التى أفشت سرّها لأهلها ، وأبلغت النيابة . . هذه أول « حالة » من نوعها تصادفنى فى مغامراتى .

– تعنى أنك صادفت أبكاراً غيرها من قبل ؟

– كثيرات

– و . . . .

– وأرضيت كلاً منهن بكلمتين ، وأغرقتهن بهدايا وفلوس ، مع إشارة مغلّفة مهذبة – من بعيد – إلى فضيلة اتقاء الفضيحة ، وأن ما وقع وقع . . وأنها تستطيع الاعتماد علىّ ، والالتجاء لى دائماً ، وفى أى وقت ، وأية مناسبة . . ولا مانع من وعد عائم بالزواج . . عندما يحين الحين !

وبنفس لهجة السوقة ، أضاف عبد الحميد لطفى :

– هذا طبعاً لمن أعجبتنى منهن ، ومن أحسست بأنه يسعدنى أن ألتقى بها أكثر من مرة . . أما الأخريات – من درجة « مقبول » بلغة الجامعات – فكنت أكتفى باسترضائهن وإرضائهن . . أعنى لقاء واحداً وحسب . . يعنى مرة والسلام عليكم !

وأمسك عبد الحميد لحظة ، وهو يقول فى غيظ لم يحاول أن يخفيه :

– أما هذه ، فقد . . « فَرَسْتْنى » !

وضحك صديقه وهو يقول : » والله يا أخى أنت جبار . . أبَعْد أن تفعل بها ما فعلت : « تقول إنها فَرَستك » ؟ . . ماذا تقول هى إذن عنك ، بعد أن ذبحتها ؟ !

وشرب عبد الحميد جرعة كبيرة من كأسه ، وهو يقول : « على أية

حال ، هى الخاسرة ! »

– هى خاسرة خاسرة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . . لقد خسرت ما لا يُعوَّض فى لعبة !

– لا أعنيها خاسرة بالمعنى « المتخلِّف » الذى فهمته حضرتك !

ضحك صديقه وهو يسأله : « شيئاً من التوضيح من فضلك ، واغفر لنا تخلفنا وقصر نظرنا . . ماذا تعنى بقولك إنها الخاسرة . . من وجهة نظرك غير المتخلفة ؟ »

– يعنى ، مثلاً . . إنها خسرت صديقاً تستطيع أن تلجأ إليه فى أية مناسبة ، صديقاً يغرقها فى الفلوس والهدايا والعطايا والمنن . . كما كانوا يقولون أيام زمان . . والسر فى بئر بينى وبينها !

– ولكن هذه البئر ستكشف يوماً – لا محالة – عما بها . . يوم أن تتزوج فتكون الكارثة .

ضحك عبد الحميد ضحكة خافتة ، قصيرة ، ساخرة ، وهو يقول بلهجة أبناء الشوارع : « والله يا ابنى . . أنت على نياتك ! »

– كيف ؟

– أتظن ما تتحدث عنه لا يزال مشكلة فى الربع الأخير من القرن العشرين ؟

– ألا تراها أنت كذلك ؟

– هذه أمور تُعالَج بعشرة جنيهات ، قبل ليلة الزفاف بليلة ، فيعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل ! . . ويدخل العريس بعروسه فى أمان الله ، وهى كأى عذراء لم يمسها بشر ! . . ثم يصحو صباح اليوم التالى

لزفافه ، يبتسم ويتمطى كأى طرزان ، بعد أن فتح عكا ، ظنًّا منه أنه انتظم سلك الفاتحين . . ثم يحتفظ بالمنديل . المرصّع بقطرات من دمها الغالى ، كأغلى ما يعتز به فى حياته للذكرى والتاريخ !

وزفر الهواء من أنفه ، وهو يحاول أن يكتم ضحكة أحس بأنها ستغلبه وهو يقول :

– هل عرفت الآن كيف أنها الخاسرة ، وكيف أنك على نياتك ؟

وسأله صديقه حافظ ، مبهوراً بما سمع :

– هل فعلتها من قبل يا عبد الحميد ؟ . . أعنى مع عذارى ؟ . . أبكار ؟

– مع ثلاث ، جاءتنى كل منهن قبل أن تزف إلى خاطبها بأيام ، وهى تسألنى كيف تتصرف ، فكنت أصحبهن إلى متخصص لينهى المهمة فى عشر دقائق ، ثم عشر دقائق ثانية لتفيق من المخدر ، وتقوم بعد ذلك كالغزال ، لتدخل – هى – بعد ذلك على زوجها بقلب من حديد ! . . كلهن تزوجن ، وأنجبن ، ويعشن سعيدات مع أزواجهن ، والسر فى بئر ، كما قلت لك . . فأنا رجل شريف صاحب مروءة ، وأعرف كيف أصون أسرار الحرائر !

وضحك حافظ من قلبه وهو يقول : « الله يخرب بيتك يا عبد الحميد . . أنت شيطان ! »

ورفع عبد الحميد كأسه إلى شفتيه ، وهو يقول :

– على أية حال ، أنا عينى على بنت يا حافظ . . لو قدّر لى أن أنالها ، فإنها قطعاً ستمحو عصِمت وغير عصمت من تاريخى الحافل المجيد !

– جميلة إلى هذا الحد ؟

– إنها شيء غير عادى . . « فَلْتَة » . . تستطيع بسهولة أن تقول إنها فلتة . . إلى جانب مظهرها الرفيع ، وأناقتها العالية . . لاشك فى أنها من أسرة كبيرة ، ومن مستوى عال .

– أتعرفها ؟

– لا أعرف عنها أكثر من أنها لايمكن أن تتجاوز الثالثة والعشرين ، وأنها تستطيع بجمالها أن تُنْطِق الأصنام التى كانوا يعبدونها أيام الجاهلية . .

– نهارك أسود !

– والله يا حافظ إنها كما أقول لك . . جمالها ينطق الحجر . . يخسف القمر . . يسقط المطر ، والسجع غير مقصود !

– ما هذا كله ؟

– إنها تبدو كحجر الماس الكريم ، يضوّى خلف واجهة من البلّور !

– ألا تعرف من هي ؟ . . اسمها ؟ ابنة من ؟ أين تسكن ؟

– الشطر الأخير من سؤالك – أين تسكن ؟ – هو المهم .

– لتستطيع أن تراقب خروجها ودخولها ؟ !

– دخولها لا يهمنى . .

– خروجها هو الأهم ؟

– إنها الفرصة الوحيدة المتاحة . . عندما أراها تحاول أن تستوقف إحدى السيارات دون جدوى ، وأكون بعيداً عنها أراقبها ، فأتقدم عارضاً عليها أن أحملها إلى حيث تريد .

وازدرد جرعة أخرى من كأسه ، وهو يقول فى سعار جنونى .

– آه يا حافظ . . لويتمّ هذا ! ! . . آه يا حافظ !

– ماذا تفعل ؟

– أتوب !

– أنت ؟

– ولم لا ؟

– ولماذا لا تتوب توبة صادقة على يديها ، مادامت تعجبك إلى هذا الحد ؟

– وهل قلت غير ذلك ؟ سأتوب بعد أن أنالها .

– إنك تستطيع أن تنالها الليلة .

– كيف ؟

– تذهب إلى ذويها وتتزوجها فى نصف ساعة ، ولن يرفضوك لأنك لا تنقصك غير هذه التوبة النصوح لتكون زوجاً كاملاً ، فأنت شاب وغنى ، ومتعلم ، وابن ناس . . أنت صحيح سافل السلوك والتصرفات . . ولكن مادمت ستتوب كما تقول ، فإنك ستعود إلى أصلك ، ابن ناس . . كما يقولون !

وضحك عبد الحميد من قلبه ، وهو يقول لصديقه : « ألم أقل لك إنك على نيّاتك ؟ »

– لم أنكر أننى هكذا .

– أتريد منى أن أتزوج ؟

– ولم لا ؟ مادمت ستتزوج فتاة يحرقك الشوق إليها كما أرى ، وهى بالتأكيد من أسرة طيبة ، ومن وسط محترم ، كما قلت أنت الآن .

هز عبد الحميد كتفيه ، وهو يغالب الضحك ، وقال :

– الزواج ليس لعبتى .

– مهما كانت جميلة ؟

– مهما كانت جميلة ، فالجمال لا نهاية له ولا حدود .

– والى متى يا عبد الحميد ؟

– إلى أن أشبع .

– عندما تشبع لم تجد من ترضى بك ، لأنك لن تشبع إلا مرغماً ، بعد أن تكون قد انتهيت !

– وما دمت قد انتهيت ، فما حاجتى لامرأة ؟

– لا فائدة منك ياعبد الحميد . . ولكنك – برغم كل هذا – قد أثرت فضولى لكى أرى ساحرتك الجديدة ، التى حدثتنى عنها .

– خذها كلمة منى . . ليلة أن « تَطُبّ » وتصبح فى فراشى ، سأتصل بك تليفونياً من غرفة نومى ، لكى تحضر لتراها ولتسلم عليها ، ثم تنصرف .

– وعد ؟

– وما المانع ؟ وعد طبعاً ، وكفى ثرثرة ، فقد قلبت لى دماغى ، ولقد جُعْت . . ألم تجع أنت ؟

طبعاً جعت .

– سآمر بالعشاء حالاً ، ثم نتحدث أثناء تناولنا الطعام .

٥

الشهور تمضى . .

وعبد الحميد لا يتخلف يوماً عن مراقبة صيده الجديد المأمول بمقربة من بيت أسرتها بحى « جاردن سيتى » .

إنه لا يعرف عنها شيئاً ، ولايهمه أن يعرف ، فهولا يراها إلا بغرائزه وحيوانيته ، وقد بلغ به الشوق إليها حد الهوس !

إنه يراها صورة جميلة ، مضيئة ، مثيرة . . وحسب !

يراها شعراً فاحماً لامعاً غزيراً ، ينساب فوق كتفيها فى دلال آسر . . ويراها عينين سوداوين ساجيتين عميقتين ، تنفثان سحراً دار له رأسه ، يوم وقعت عيناه عليها لأول مرة . . ويراها صدراً بكراً ناهداً ، وخصراً دقيقاً ناحلاً ، وردفين يبدوان فى حركتهما الرتيبة – أثناء سيرها – كإيقاع منتظم لرقصة ساحرة ، تؤديها راقصة من راقصات الجنة . . إذا كان فى الجنة رقص وراقصات ! . . ويراها ساقين متناسقتين مستويتين جميلتين ، تشعلان حريقاً فى قلبه مع كل خطوة من خطاها ، تدق بهما حصباء الطريق ، وهذا حسبه ! . .

ماله هو – وماذا يهمه – إذا كان اسمهـا أمينـة ، أو زوزو ، أو فاطمة ، أونشارلوت ، أو كريستين ، أوفرناندا ، أو . . أم سحلول ؟ !

إنه يريدها وحسب . . يريدها أياً كانت ! . . لا يهمه من تكون ، ولا من يكون أبوها ، ولا لأية أسرة تنتمى . . ولا يعنيه إذا كانت طالبة ، أوعاملة ، أو ربة بيت ، وإن كان يستبعد الاحتمال الأخير ، فإنها تبدو

أصغَر من أن تكون مسؤولة عن بيت وزوج وأطفال . .

حسبه أنها بلغت سن الرشد ، وهذا واضح وضوح الشمس . . وهو كل ما يعنيه ويحسب له ألف حساب . . إنها ليست من صديقات النائب العام ، اللواتى يتمتعن بحمايته ، فقد تخطت هذه المرحلة من سنها ! .

* * *

إلى أن كان يوم . .

يوم أسود ، سواد الهباب . . !

كل شيء كأنما أعد خصيصاً من أجل خاطره وسواد عينيه ، لتقدمها له الأقدار قطعة من الماس البراق الثمين على صفحة من البلاتين الخالص . . ومن حيث لم يكن يتوقع أو ينتظر !

كيف تم هذا ؟

تم بمنتهى البساطة ، وبمنتهى السهولة ، وفى ثوان . . وهو الذى أمضى الشهور ينتظرها ويترقبها دون جدوى . .

كان عائداً من مزرعته ، فقطع بسيارته شارع الأهرام إلى أن وصل ميدان الجيزة ، فانحرف يساراً إلى شارع الجامعة . .

الساعة حول معصمه تشير إلى السادسة مساء . .

كان سعيداً فى ذلك اليوم ، يحس بخفة ونشاط ابن العشرين . . وكان يحمل فى جيب سترته الداخلى ألفين من الجنيهات ، ثمن ثمار حديقة البرتقال التى باعها على أشجارها . .

وأبطأ السير قليلاً ، بعد أن خفف ضغط قدمه على صمام الوقود ، وهو يلقى نظراته السعيدة على جانبي الشارع بين حين وحين . .

فجأة . . !

فجأة لمحها ! . . لمحها من بعيد ، واقفة على إفريز الطريق . . رآها تشير إلى « تاكسى » ، فلم يقف لها . . وفى أعقابه آخر ، كان يحمل أسرة من أب وأم وطفلين . .

وقال لنفسه بصوت سمعته أذناه : « هذه تستحق سيارة رولز ، ولا أقل من رولز ، تُصْنَع لها بمواصفات خاصة » .

إنها هى . . هى بعينها ولاشك فى هذا مطلقاً !

لقد أمضى الشهور ينتظرها قريباً من بيتها – بيت أسرتها – فى « جاردن سيتى » ، لعلها تخرج وحدها يوماً . . ولكنه لم يوفق . من يدرى ؟ . . لعله ليس بيت أسرتها ، ذلك الذى رآها تدخله يوماً . . لعلها كانت زائرة فى ذلك اليوم . . ولعلها تسكن بيتاً من هذه البيوت الحديثة ، التى قامت فى شارع الجامعة ، خلال ربع القرن الأخير .

أوقف سيارته بسرعة وفى هدوء ، وفتح الدرج الصغير الذى أمامه ، وأخرج منه قارورة وقطعة قطن بللها مما فى القارورة ، ثم دسها بين طيات منديله ، ثم أغرق المنديل بقطرات غزيرة من عطر نفاذ ، أخاذ ، قوى ، جميل تضمه قارورة أخرى . . وأعاد المنديل إلى جيبه ، واستأنف السير . .

أخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً . .

وشيئاً فشيئاً تتضح له صورتها الشهية المضيئة ، التى أدارت رأسه يوم أن رآها للمرة الأولى . .

رأسه يدور من جديد كلما اقترب منها ، وقلبه يدق بعنف كلما أحس بأنه يقترب من لحظة المواجهة التى ترقبها طويلاً . . كان إحساسه إحساس

من بدأ العد التنازلى مقتَرِبـاً – رقماً برقم – من بدء مغامرة تتوقف عليها حياته . . إنه يقترب من الصفر !

وقالت له نفسه : « هذه فرصة عمرك يا عبد الحميد ! »

فى هذه الأثناء – وقبل أن يقترب منها ويصبح بمحاذاتها تماماً – مرت بها أكثر من سيارة من سيارات الأجرة ، فكانت تشير لكل منها دون أن تقف لها واحدة من هذه السيارات .

– تقدم يا عبد الحميد !

قالتها له نفسه !

توقف بسيارته وفتح بابها ، وهو يقول فى صوته الخفيض ، وبلهجته المهذبة :

– الآنسة . . لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيمًا .

نظرت له – دون استنكار – وهى تقول : « شكراً ، ولكنى . . »

وأسرع هو يلتقط الحديث منها : « ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة – فى هذا الشارع بالذات – يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن تنشره الصحف ، ولا شك فى أنك أمضيت ما لا يقل عن نصف ساعة تنتظرين . . . »

نفس الكلمات ، ونفس الألفاظ التى أصبحت – لكثرة تكرارها – تنساب من بين شفتيه كما لو كانت مسجلة على شريط ، فهى لا تتغير .

وابتسمت عائدة . . اسمها عائدة ! . . ابتسمت وهى تقول :

– إننى حقيقة . . أمضيت نحواً من نصف ساعة فى انتظار تاكسى ، دون جدوى .

– إذن أرجو أن تمنحيني شرف حملك إلى حيث تريدين ، فإنني أرى الظلام يقترب ، ونحن الآن في شهر نوفمبر ، وقد بدأ النهار يقصر . .

– لا أريد أن أزعجك ، أو أن أغير طريقك .

– إنني في طريقي للقاهرة ، واسمحي لي بأن أقدم لك نفسي ، حتى لا تكوني على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا عبد الحميد لطفي ، مزارع . . درست الحقوق ، هذا صحيح . . ولكني تفرغت لزراعة أرضي في طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة ، بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلي يا آنستي . . تفضلي !

أحس بترددها . . إنه – دائماً – يحس بترددهن . . وكانت عبارته المألوفة التي لا تتغير :

– آنستي . . إن لي شقيقات ، وبنات شقيقات ، بعضهن في مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحي أخا أكبر ، أو خالاً ، بمظنة سوء !

أجابته في أدبها المفرط :

– لا سمح الله ، فما فكرت في سوء قط . . سأركب معك ، فإنني – حقيقة – أخشى أن يتقدم بي الليل ، قبل أن أجد سيارة تعود بي إلى البيت . .

– تفضلي يا آنستي . . تفضلي !

وصعدت ، فركبت إلى جانبه ، وجذبت الباب فأغلقته ، وهي تقول :

– والدي قدم سيارته اليوم لتحمل عروساً من بيت أسرتها إلى بيت زوجها . .

ثم بعد لحظة ، أردفت : « والد العروس رجل طيب ، يعمل مع والدي ».

ثم بعد لحظة ثانية ، أضافت : « ولقد كنت فى زيارة صديقة لى ، أستعير منها كراسة المحاضرات ، لأنسخ منها ما فاتنى خلال مرضى ، أيام الأسبوع الماضى . . »

سألها وهو يتحرك بالسيارة : « الآنسة طالبة ؟ »

– بكلية الحقوق ، فى السنة النهائية.

ابتسم وهو يقول : « يعنى زميلة ! »

– سمعتك تقول إنك درست الحقوق .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قالت بعدها :

– أرجوألا أبعدك كثيراً عن طريقك . . إننى أسكن « جاردن سيتى » .

– « جاردن سيتى » فى طريقى . . وسأحملك إليها .

وانطلق بسيارته . . وسمعها تقول له :

– إنى أخاف السرعة الزائدة ، فرجائى ألا تسرع كثيراً !

ابتسم وهو يجيبها :

– أنا أيضاً لا أحب السرعة الزائدة . . أترين هذه السرعة معقولة ، أم . . ؟

التقطت الحديث منه ، وهى تعلق حقيبتها بكتفها ، وقالت :

– هذه سرعة معقولة جداً . . وشكراً .

وكان يضع أمامه وردة نضرة ، يتضوّع عطرها فيملأ فراغ السيارة . . فالتقطتها « عائدة » ، وقرّبتها من أنفها تستنشق شذاها ، وهى تقول :

– هذه وردة جميلة . . من النادر أن تجمع الوردة بين جمال الشكل والشذى !

ابتسم وهو يسألها : « أتحبين رائحة الورد ؟ »

– أحب العطور الجميلة عموماً .. كل الناس تحب العطور الجميلة !

وأحسّ بقدمها تقترب من الفخ .. إنها تقترب من تلقاء نفسها ، دون أن يدفعها أحد .

قال – وابتسامة هادئة على وجهه – بينما عيناه على الطريق :

– أنا أيضًا ضعيف جدًّا أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال أدفعه ثمناً لقارورة عطر يعجبنى .. فى الصيف الماضى ، دفعت مائتى جنيه استرلينى ثمناً لقارورة عطر اشتريتها من « لانفان » فى باريس ..

نظرت له ، وقد فوجئت بضخامة الرقم ، وسألته فى دهشة :

– مائتا جنيه ثمناً لقارورة عطر ! !

– تصورى !

– هل هو « الآربيج » ؟

– الآربيج عفت عليه السنون ، ولم يعد أحد يستعمله .

– ما هو إذن ؟

– إنه أحدث مبتكرات « لانفان » .

– لاشك فى أنه شيءغير عادى .. إننى – فعلاً – أشم رائحة عطر ساحرة ، ما اسم هذا العطر ؟

وضع يده فى جيبه ، ثم أخرجها والمنديل بين أصابعه ، فقربه من أنفها ، وهو يقول :

– شمّى ، ولك أن تحكمى بنفسك .. ويخيل لى أنك ستعرفين اسمه

عندما تستنشقين شذاه .

استنشقت عائدة العطر الذى كان يتضوع من المنديل ، فقالت فى ضعف : « الله ! »

ارتسمت صورة الشيطان على وجهه بمعجزة ، وهو يقرب المنديل من أنفها أكثر ، ويقول : « شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى مائتى استرلينى . . أولا يساويها . . شمّى . . شمّى ! »

وضغط المنديل إلى أنفها ، وهو يردد :

– شمّى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . . !

وأيقن من أنها راحت فى غيبوبة ، ولم تعد تدرى بشىء .

فى هذه اللحظة فقط ، ضغط صمام الوقود بقدمه ، فانطلقت السيارة بسرعة الصاروخ ، وكان قائداً ماهراً . . اخترق شارع الدقى فى دقائق ، حتى وصل إلى نهايته . . ومن نهايته مرق إلى مدينة المهندسين . .

انحرف يميناً ، ثم يساراً . . ثم يساراً ، ثم يمينًا ، إلى أن أصبح بعيداً عن العمران ، فهو يريد أن يصل إلى داره خلال طريق غير آهلة . . هذه عادته الدائمة فى مثل هذه الأحوال ، أن يسلك الطرق الخالية غير الآهلة !

وأوقف السيارة أمام الباب . ونظر إليها فوجدها تحاول أن تفتح جفنيها ، فقرّب المنديل من أنفها ، وأبقاه قليلاً إلى أن أغرقها – من جديد – فى غيبوبة أعمق .

* * *

هبط من سيارته ، وحمل الفتاة بين ذراعيه والحقيبة معلقة بكتفها ،

ودخل حديقة « الفيلا » . وكان البواب جالساً أمام الباب ، فوقف احتراماً له ، وحياه تحية المساء . . ولم يرد عبد الحميد تحيته . . كان مشغولاً عن الدنيا بما فيها ، ومن فيها ، بالحمل الخفيف الجميل الذى كان فوق ذراعيه .

تقدم إلى الدرجات الرخامية المؤدية إلى باب المسكن . وكان قد أعد المفتاح فى يده ، ففتح ، وأضاء النور ، وأغلق الباب . . واتجه إلى غرفة نومه ، فأضاء نورها ، ثم أرقد حمله الغالى على الفراش بهدوء وحرص بالغين .

خلص الحقيبة من بين ذراعها وإبطها ، ووضعها جانباً ، ووقف يتأمل صاحبتها لحظات ، من شعرها حتى قدميها . .

عراها بعينيه الجائعتين ، وأحس بحلقه يجف . . إنه يكاد يختنق ، فهولا يستطيع أن يصدق ما يرى . . إنها راقدة فى فراشه ، لقمة سهلة سائغة !

نزع سترته وعلقها على مسند مقعد قريب ، ثم فك بنيقة (١) قميصه ، ونزع ربطة عنقه وألقاها على المقعد الذى يحمل سترته . . واقترب منها ببطء شديد ، وهو يتأملها فى شراهة جائع تشققت معدته وأمعاؤه وشفتاه جوعاً إلى قطعة لحم وعطشاً إلى قطرة ماء !

انحنى عليها ، وألصق شفتيه بشفتيها . . وراح يمتص منهما الشهد . . أحلى ماذاق فى حياته من شهد !

— سكر يا بنت الكلب سكر !

---

(١) البنيقة هى الياقة — « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

عبارته السوقية التى يعبر بها دائماً عن إعجابه وسعادته . . قالها وهو يحسر ثوبها الرمادى الأنيق عن ركبتيها ، وراح يتأمل فخذيها المضمومتين فى حسنهما الفريد . . ولم يتمالك نفسه ، فهوى بشفتيه عليهما يقبلهما ، قبلات مجنونة محمومة ، وقد تحول إلى حيوان .

وابتسم كمن تذكر شيئاً كان غافلاً عنه ، فرفع رأسه عنها ، وخلع قميصه فأصبح بنصف ثيابه . . ثم أخرج من جيب سترته المنديل ، الذى يضم قطعة القطن المبللة بالمخدّر ، ووضعه فوق أنفها لتظل فى غيبوبتها ، واتجه إلى المسرة القريبة من الفراش ، ورفع السماعة ، وأدار القرص بستة أرقام . . ولم تمض لحظات حتى بدأ حديثه :

– آلو ، يا حافظ !

كان يكلم صديقه حافظاً . .

– لك عندى مفاجأة ستذهل لها . . نعم . . حصل وطبّت . . وحياتك عندى ، طبّت يا أبا الحفظ . . إنها أمامى ، راقدة فى فراشى ، أجمل من القمر . . لا طبعاً ، إنها فى غيبوبة المخدّر . . لا يهمنى اسمها . . المهم أنها هى التى ترقبتها شهوراً . . كل ماعرفته منها أنها طالبة فى كلية الحقوق . . لا ، لا ، لا . . اسمع ! . . لقد وعدتك بأن أعطيك الفرصة لتراها . . يمكنك أن تحضر بعد ساعة ، أكون قد فرغت منها ، وتكون هى قد أفاقت من المخدّر ، فتسلّم عليها ثم تنصرف وحدك ، لأحملها بعد ذلك إلى بيت أسرتها . .

ثم مداعباً ، بلهجة من يريد أن ينهى المكالمة :

– المدة انتهت ياحافظ ، بلغة بنات مصلحة التليفونات . . ولاتقلب

لى دماغى ، الله يقلب دماغك . . فيما بعد يا حافظ . . فيما بعد . . مع السلامة .

وأعاد السماعة إلى حاملها ، ثم رفعها عنه ثانية ، ووضعها قريبة من آلة التليفون ، حتى لا يزعجه الجرس ، إذا ناداه أحد معارفه . .

اقترب من الفراش ، وجلس على حافته ، وبدأ ينزع عنها ثوبها . .

ألقى الثوب جانباً ، فأصبحت بقميصها الحريرى الناصع المشغول والمنهدة من تحته تحرس الثمرتين الدافئتين الشهيتين . .

ورفع عن أنفها منديله المبلل بالمخدر ، فوضعه بجانب المسرة ، وبدأ ينزع بقية ثيابه . .

الصمت مطبق ، كما لو كانت الغرفة كهفاً قريباً من إحدى قمم الهيمالايا ، لم تطأه قدم بشر من قبل . .

وجحظت عيناه وقد بلغت به الرغبة حد الشبق ، ولو نظر إلى المرآة فى هذه اللحظة ، لأنكر وجهه الذى يطالعه فى صقالها ، ولفزع منه . .

إنه ليس وجهه . . إنه وجه قرد !

الصمت لا يزال طبقاً ثقيلاً رهيباً ، فهناك عذراء سيُسفَح دمها غيلة بعد لحظات . . ولو مشت نملة على الجدار ، لفضح الصمت الثقيل الرهيب صوت احتكاك أرجلها الدقيقة بسطح الجدار !

ألقى عبد الحميد فى جوفه جرعة من خمر ، تضمها قارورة قائمة على مرتفع قريب من خزانة الملابس . .

واقترب من الفراش . .

الثمرة الشهية ، التى تمنّاها واشتهاها شهوراً . . هاهى ذى دانية ،

فى متناول يده ، تنتظر القطاف . .

اقترب من الفراش أكثر . . ونزع ساعته الثمينة من حول معصمه ووضعها جانبًا ، وركع على ركبتيه ملتصقاً بحافة السرير . ورفع قميصها عن فخذيها أكثر ، وراح يتأمل فتنتها ، ويملأ عينيه الشرهتين منها ، ولو ملك أن يأكلها لحماً ودماً وعظماً ما توانى لحظة . .

* * *

وقام من ركعته وقد تهيأ ليهم بها . . بعائدة . . بنت الثالثة والعشرين . . طالبة السنة النهائية بكلية الحقوق . . وحيدة أبويها وأملهما من الحياة . . رجاؤهما وقرة عينى كل منهما . .

ولكنه فجأة . .

فجأة ، وقبل أن يقربها ، أحس برعب قاتل . . خيل إليه أن الدم قد توقف وتجمد فى عروقه ، وأن حركته قد شُلَّت عندما جاءه — من خلفه — صوت آمرٌ ، خشن :

– عندك !

انتفض كلوْلَب من الصلب القوى ، وقد جف حلقه . . والتفت إلى ورائه . .

وجده منتصباً أمامه كالهول . .

شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، شعره خليط من الأسود والأبيض ، يعلو جبيناً عريضاً ، وحاجبين سوداوين غزيرين فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . رداؤه السواد من قطعة واحدة ، وقد دس كفيه فى قفازين من لون ردائه . . واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كأنما لم تطف

البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى هذه اللحظة التعسة السوداء فى حياة عبد الحميد ، الذى أسرع فتمالك نفسه ، واسترد رباطة جأشه ، وهو يصرخ بالغريب الواقف أمامه :

– من أنت ؟ . . وما الذى أتى بك إلى بيتى ! . . وماذا تصنع هنا ؟

استعرضه الزائر الدخيل بنظرة قاتلة ، مسحته من رأسه إلى قدميه ، دون أن يفتح فمه بكلمة . فصرخ به عبد الحميد :

– تكلم ! . . من أنت ؟ . . وماذا تفعل هنا فى بيتى ؟

أجابه الشاب فى هدوء قاتل :

– أنا لص . . دخلت بيتك من الباب الخلفى لأسرق . . بعد دقيقة من دخولى ، سمعت المفتاح يدور فى ثقب الباب ، وأضىء نور الردهة الخارجية ، فأسرعت بالاختباء خلف هذه الستار . . رأيتك تدخل وتلقى بهذه الفتاة على فراشك ، وتضع على أنفها المنديل المخدّر حتى لا تفيق أثناء حديثك التليفونى . . وسمعت محادثتك البذيئة ، كلمة بكلمة . . ثم شاهدت ما أنت مقبل عليه ، وأنا مختف خلف الستار ، فأحسست وأنا لص – بأننى أشرف ، وأكبر ، وأعظم بكثير مما كنت أظن بنفسى . لأننى لم أكن أتصور أن هناك لصوصاً بهذه القذارة التى تتمتع بها سيادتك يا أخسّ نذل فى هذا العالم !

ثم صرخ به فى احتقار شديد : ابتعد عنها يا أفندى . . يافضيحة الأفندية ومعرتهم ! »

ولم يكد اللص ينتهى من عبارته ، حتى عاجله عبد الحميد بلطمة هائلة مفاجئة ، وهو يقول : » سأسجنك يالص يا ابن الـ . . . . . »

سأسلمك للشرطة حالاً ! »

ولكن اللص ردّ له اللطمة بمثلها . . بل إنها كانت أكثر إيلاماً . . ولكن عبد الحميد فارع الطول ، عريض المنكبين ، قوى يمتلئ صحة وعافية ، فتلقى اللطمة التى ردها إليه اللص فى ثبات ، ثم عاجله بلكمة إلى فكه ، أتبعها بأخرى إلى بطنه . .

كان واضحاً أنه أقوى من اللص ، وأن الغلبة ستكون له . . ولكن اللص استمات حتى يواجهه ويحتضنه ، فلا يفطن عبد الحميد لما سيفاجئه به . . وعبد الحميد مستمر فى توجيه لكماته القوية إلى جنبي اللص ، وبطنه ، وعموده الفقرى يحاول أن يحطمه بقبضته ليسقط عاجزاً بلا حراك . . ولكن هذا استل من خصره خنجراً ماضياً ، غرسه — بكل ما فى ذراعه المفتولة من قوة — فى قلب غريمه ، الذى صرخ صرخة واحدة خافتة ، سقط على أثرها على الطنفسة[1] والخنجر غائص فى قلبه . .

شد اللص قامته ، ورفع رأسه ، وشهق شهيقاً عميقاً ملأ صدره بالهواء ، ثم زفره بسرعة ، وأسرع إلى خزانة الملابس ففتحها وكان المفتاح فى ثقب بابها — فالتقط ما وجده أمامه بداخلها من أشياء صغيرة ثمينة ، دسها فى جيبه ، ثم استدار إلى جهة عبد الحميد . . الذى كان راقداً والخنجر مزروع فى صدره ، كما لو كان سارية مركب تغرق فى بحر من الدم !

عينه اللماحة التقطت ساعة عبد الحميد ، التى خلعها — قبل أن يهمّ بعائدة — وألقى بها قريباً من الفراش ، فأخذها بهدوء ، ووضعها فى أحد جيوبه . .

---

(١) الطنفسة هى السجادة — « معجم الفاظ الحضارة » : محمود تيمور

العين اللماحة – ذاتها – بهرها بريق حجر من الماس فى حجم البندقة المقشورة ، يزين خاتماً يحيط بأحد أصابع عبد الحميد ، فانحنى .. وبأصابع خبيرة مدربة سحب الخاتم من حول أصبع عبد الحميد ، وأضافه إلى مافى جيوبه . .

واتجه إلى السترة المعلقة على مسند المقعد القريب من الفراش ، ودس يده فى جيبيها الخارجيين . . فى الجيب الأيمن لم يجد شيئاً يهمه . . ولكن يده خرجت من الجيب الأيسر بسلسلة قصيرة غليظة ثقيلة من الذهب الخالص ، تنتهى من أحد طرفيها بمفتاحين صغيرين ، أدرك من فوره أنهما مفتاحا سيارة . . وفى طرفها الثانى تنتهى بعلبة من الذهب الخالص أيضاً ، وبداخلها مصحف صغير !

فك المفتاحين من الحلقة التى تضمهما ، ووضعهما جانباً ، واحتفظ بالسلسلة ، وهو يقول مخاطباً ضحيته الغارقة فى دمها :

– وتحمل مصحفاً يا ضلالى يا مفترى ! ! صحيح . . من « اختشوا » ماتوا !

ومد يده إلى أحد جيبى السترة الداخليين ، فخرجت بقلم من أقلام الحبر الثمينة النادرة ، أما الجيب الثانى ، فقد كان مسك الختام . . لقد خرجت يده منه برزمتين ضخمتين من الأوراق المالية ، من فئة العشرة الجنيهات ، أدرك من فوره أن كل رزمة منهما تضم ألفاً من الجنيهات » هكذا كان مكتوباً على كل منهما ، فأسرع بإخفاء إحداهما فى جيب سرواله الأيمن ، والثانية فى الجيب الأيسر . .

* * *

اتجه اللص نحو « عائدة » ، وهو يقبل أصابع يمناه ظهراً لبطن ، ويقول لنفسه : « رضا وسيدنا النبي . . رضا ! »

فى هذه اللحظة ، بدأت عائدة تفتح عينيها ، وهى لا تزال راقدة فى الفراش ، لا تشعر بما جرى حولها من هول . .

فى الثوانى الأولى لصحوتها وعودتها لوعيها ، كانت تفتح عينيها وتغمضهما فى لمسات سريعة خاطفة ثم فجأة ، فتحت عينيها تماماً ، وإذابها أمام رجل غريب عنها . . رجل تراه لأول مرة . . رجل – أوشاب – فى نحو الثلاثين من عمره . . شعره خليط من الأبيض والأسود ، يعلو جبيناً عريضاً ، وحاجبين سوداوين غزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . .

– رداؤه السوادمن قطعة واحدة ، وقد دس كفيه فى قفازين من لون ردائه . .

وجهه واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، حتى هذه اللحظة التعسة من حياة « عائدة » . .

ارتسم الفزع على وجهها ، وأطل من عينيها الصافيتين ، يكاد يذهب بصفائهما ليلونهما بلونه . . هل للفزع لون يميزه كما لو كان من الماديات التى يمكن أن تتلوّن بألف لون ؟ ؟

وهمّت بأن تصرخ ، ولكن اللص وضع أصابعه على شفتيها بلطف شديد ، وهو يقول : « أرجوك . . إنى أحاول أن أسترك وأخلصك من فضيحة مؤكدة » .

سألته فى صوت كأنه آت من أصابع قدميها : « من أنت ؟ » .

أجابها ببساطة متناهية :

– بدون أن تنزعجى . . أنا لص !

– لص ؟ !

– لاداعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة ، قبل أن . . .

وأمسك اللص قليلاً ، ثم قال بصوت حزين : « ثلاثة بالله العظيم . . أنا لص ، إنما أشرف منه ألف مرة ! »

ولاحت منها التفاتــة إلى « عبد الحميد » وهو راقد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، والتى تشرّبت دماءه التى نزفها والخنجر مغروس فى صدره ، يحكى قصة نهايته المؤسفة . . وكادت تصرخ ثانية ، ولكن اللص ناشدها بقوله :

– اعملى معروفاً . ليس لدينا وقت . . واحمدى الله على أن انتهت الليلة على هذا النحو . .

صعدت الدموع إلى عينيها وهى تقول :

– أنا بريئة . . كنت مخدَّرة . . خدّرنى فى سيارته . . .

– استطعت أن أفهم كل شىء ، وهو يتحدث إلى حيوان مثله تليفونيًّا ، ولهذا صممت على إنقاذك من شره ، والحمد لله على نجاتك وسلامتك . . هيا وبسرعة . أرجوك . . أدخلى فى ثوبك ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول . . والوقت يجرى بسرعة

وأولاها ظهره ، وراح يتفحص محتويات الغرفة بعينيه ، فقد يجد ما يستطيع ضمه إلى مسروقاته .

مرت عايدة بأصابعها فوق جبينها ، تحاول أن تزيل آثار الغيبوبة التى كانت غارقة فى ضبابها ، ثم ارتكزت بكفها على حافة السرير المصنوع من الخشب الفاخر . . وتحاملت على ساقيها ، وهبّت — دفعة واحدة — واقفة . . وأسرعت فارتدت ثوبها فى ثوان ، ودست قدميها فى حذائيها ، وكان عبد الحميد قد نزعهما منهما . .

فى هذه الأثناء ،لاحت من اللص نظرة إلى المنديل الذى يخفى بين طياته قطعة القطن المبللة بالمخدر ، وكان عبد الحميد قد ألقاه قريباً من الفراش ، عندما بدأ يهمّ بعائدة . . فالتقطه ووضعه فى أحد جيوبه ، وهو يقول : « منديل الحلو . . توحة تربط به رقبتها ، أو رأسها ، عند اللزوم ! »

والتفت إلى عائدة يسألها : « جاهزة ؟ »

— جاهزة . . من أين سنخرج ؟

— من الباب الخلفى للفيلا . . تفضلى بمنتهى الهدوء

— هل تخرج معى ؟

— وهل أتركك هنا ؟ . . إننى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، ولو كلفنى هذا حياتى . . ثم أتركك فى العمران ، لتركبى أول « تاكسى » يقابلك .

أطرقت برأسها وهى تهمس فى مرارة أليمة :

— تاكسى ؟ ! . . لعنة الله على كل سائق تاكسى لا يقف لمن يشير له بالتوقّف ، إذا كانت السيارة التى يقودها خالية من الراكبين .

سحبها اللص من يدها برفق ، واتجه بها إلى باب الغرفة ، فبارحاها إلى ردهة المسكن .

لم تفطن عائدة — وهى تحت وطأة إحساسها المرير بالضياع — إلى أنها تركت حقيبة يدها سهواً ، حيث وضعها عبد الحميد عندما دخل حاملاً إياها على ذراعيه . .

همس اللص فى أذنها : « سنتجه إلى المطهى ، لنخرج من الباب الخلفى للفيلا » .

هزت رأسها إيجاباً ، دون أن تفتح فمها بكلمة .

فجأة . . أزّ جرس الباب فى ردهة المسكن ، وهما فى منتصفها . .

أحست كما لو كانت قطة صغيرة ، أحاطت بها مجموعة من الكلاب الضخمة الشرسة المدربة . . الرعب يحاصرها . . يسكن كل خلية من خلايا جلدها ، فيجعلها تحس بأن ساقيها أعجز من أن تحملا جسمها ، وأنها ستسقط عجزاً وضعفاً وإعياء !

وأحس اللص بما تعانيه ، فجذبها من يدها بسرعة نحو المطهى ولكنها استوقفته دون كلمة منها ، وهى تدق صدرها بكفها فى ضربات سريعة متلاحقة ، وقد رسم الهلع تهاويله على قسمات وجهها الدقيقة .

سألها بعينيه سبب توقفها ، بينما جرس الباب يجلجل بصورة شبه مستمرة فى ردهة المسكن ، فهمست فى رعب قاتل كأنها تستغيث :

— حقيبتى . . نسيتها فى الداخل !

أشار لها لتسبقه إلى المطهى ، وأن تنتظره بداخله دون أن تضئ نوره وأسرع عائداً فى خفة الفهد إلى غرفة النوم . . ولم يغب بداخلها أكثر من ثانيتين ، عاد بعدهما إليها يحمل حقيبتها ، فسلمها إياها ، ودفعها نحو الباب المفضى إلى الجزء الخلفى من حديقة « الفيللا » . وخرجا فى هدوء ،

ورنين جرس الباب يصل إليهما من بعيد . .

* * *

الظلام شامل ، فإن الليل قد أقبل . .

وأحس اللص بأن صاحبته الصغيرة تتعثر فى خطواتها ، فأمسك بساعدها فى رفق ، وهو يهمس لها :

– اجمدى ، ولا تخافى ! . . هذا هو الباب الخلفى للحديقة .

وخرجا إلى أرض فضاء واسعة غير مرصوفة ، يبدو واضحاً أنها لاتزال تحت التخطيط والتقسيم وشق الشوارع . .

قالت ترجوه : « أرجوك ! »

– رقبتى !

– لا تتركنى قبل أن نصل إلى النور والناس والعمران .

أجابها مؤكداً ، بصوت حاول كل جهده أن يشيع بنبراته الطمأنينة إلى نفسها : « لاتخافى . . سأدافع عنك بحياتى ، حتى تطمئنى إلى ضمان وصولك البيت سالمة » .

تصاعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول : « لا أعرف كيف أشكرك »

– لا شكر على واجب محتوم الأداء على أى رجل شريف .

– إنك أنقذتنى من عار الأبد . . وقفت إلى جانبى وقفة كبيرة ، ولا أدرى كيف أرد جميلك !

أجابها فى إيمان عميق ، أثار دهشتها أن يصدر عن لص لا مانع لديه من أن يقتل . . إذا اضطر للقتل .

– كله باق ! . . يبقى لى فى ابنتى التى لم تتم من عمرها العام الثالث . .

ألا يجوز أن تتعرض ، عندما تكبر وتصبح شابة ، لمثل ما تعرضت له الليلة ؟ . . حتمًا ستجد إذ ذاك من ينقذها كما أنقذتك . . الله لا يتخلى عن الضعفاء أبداً . . وكله بثوابه !

ثم أردف بصوت باسم ، كأنه يسخر من نفسه : « ومن يدرى ؟ ! . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبى يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أولك أن نتكهن به الساعة ، وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك ؟ . . كل شيء جائز يا بنتى ، ولا تستبعدى شيئاً ! » .

سألته بعد لحظات ، وهما يغذان السير فى الطريق المظلمة :

— تقول . لك طفلة ؟

ابتسم حناناً — فى الظلام — وهو يقول :

— رشا . . اسمها رشا . . تتم ثلاثة أعوام بعد شهر .

— حلوة ؟

— قمر . . أصل أمها قمر !

— توحة ؟

— من أين عرفت اسمها ؟

— سمعتك تقول ، وأنت تأخذ المنديل : « توحة تربط به رقبتها أو رأسها عند اللزوم » ، قلت لنفسى لابد أنها زوجته . .

— كما أنقذتك الليلة بمعركة ، تزوجت « توحة » بمعركة .

— كيف ؟

— كنت عائداً فى نحو الثالثة صباحاً ، من بيت فى شارع الأهرام ، بعد انتهائى من عملية ناجحة . . الدنيا صيف ، والجو جميل . . سكون

مريح لأعصاب من يمتهن مهنتى المقرفة . . المزاج معتدل أربعة وعشرين قيراطاً . . وفجأة ، سمعت صراخاً خلفى ، فالتفت . . وإذا بى أمام سيارة « تاكسى » ، يحاول سائقها والراكبان معه — والثلاثة من خنافس هذه الأيام — رأيتهم يحاولون إرغام فتاة على الركوب معهم . . الفتاة تقاومهم مستميتة ، وهم لا يتركون لها فرصة للإفلات منهم . . يا أولاد الأبالسة ! ! . ثلاثة رجال ضد بنت واحدة ؟ ! . . فار الدم فى عروقى . . زاده فوراناً أن رأيت أحدهم يهوى بلطمة قوية على خد البنت ، فهوت أرضاً فى شبه إغماء . . انتهز الآخران هذه الفرصة ، وتعاونا على حملها لإدخالها السيارة ، فأسرعت إليهم وقد لبست القبضة الحديدية فى أصابعى. .كنستهم فى نصف دقيقة . !

وضحكت عائدة للتعبير . . وأكمل هو قصته :

— طبعاً كنستهم . . لم يتحمل الواحد منهم أكثر من ضربة لا ثانية لها . . واحد منهم تهشمت عظمة أنفه ، والثانى فقد أسنانه الأمامية ، أما الثالث فقد مزقت القبضة الحديدية فكه الأيسر . .

أحست عائدة بالرعب وهى تلهث وراء حديثه ، فقالت بصوت مأخوذ : « يا ساتر ! . . » .

— ألا يستحقون ؟

— طبعاً يستحقون .

— البنت روت لى قصتها ، ونحن فى الطريق إلى بيت أسرتها ، باختصار شديد . . كانت عائدة من بيت خالتها ، التى توفيت قبل قليل بين يديها . . بيت خالتها فى « الطالبية » ، وبيت توحة وأمها عند « نصر

الدين » . . مسافة ! . . البنيَّة تركت خالتها بعد أن توفيت ، وأسرعت سيراً على قدميها لتخبر أمها ، شقيقة المتوفاة . . أمها لم تكن قد ذهبت معها من بادئ الأمر ، لأنها هي الأخرى مريضة ، وراقدة في فراشها . . هم ثقيل بعيد عنك ! . . وفي الطريق ، اعترضها أولئك الثلاثة الخنافس ، وحاولوا خطفها . . كأنها ناقصة هم ! . . والباقي رويته لك .

– وبعد ؟ . . كيف تزوجتها ؟

– البنت مسكينة وعلى قد حالها . . التفتت نحوي فجأة ، وهي تبكي ، وسألتني إن كنت أتزوجها . . البنت حلوة ، صغيرة . . ويتيمة الأب ، كما علمت منها . . ولكني أشفقت عليها أن تواجه حياة شاقة مع مثلي ، فصارحتها بكل شئ .

سألته عائدة : « ماذا قلت لها ؟ »

– إنني لص . . وسألتها أتتزوجين لصًّا ؟

– يعني . . لم تخفِ عنها حقيقتك !

– لو أخفيت عنها ما عشنا معاً أكثر من أسبوع . . قبلتني كما أنا !

– ماذا قالت لك ؟

– إنها أحبتني بعد أن أثبتّ لها – ورأت بعينيها – أنني رجل ، وأنني دافعت عنها وعن عرضها ، وعرّضت نفسي لأن يتكاثر عليّ ثلاثة يفتكون بي ومع ذلك لم أهتم بهم وتغلبت عليهم وفروا أمامي وأمامها ، برغم الخرافة الشائعة التي تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة !

– وتزوجتها . .

– وأنجبنا « رشا » . . وكل أملي أن يساعدني الله على أن أؤمن لها مستقبلها .

وأجابته عائدة وهى تتأمل – فيما بينها وبين نفسها – هذه الشخصية الغريبة : « سيساعدك الله بإذنه ! » .

وكانا قد قطعا المسافة الخلاء ، وبدأت أنوار حى الدقى تكشف لهما الطريق ، فقال لها : « سنفترق هنا » .

نظرت إلى عينيه ، وهى تقول : « شكراً » .

– سأقف بمبعدة منك ، وكأن أحداً منا لا يعرف الآخر ، إلى أن يتعطف أحد سائقى « التاكسى » فيقف لك ، ليحملك إلى البيت .. ألا يجوز أن يتعرض لك أحدهم وأنت واقفة ؟

– أشكرك مرة أخرى .

– وأنت تفتحين باب السيارة ، احفظى الرقم المكتوب عليه فى ذاكرتك ، لأنى لن أستطيع قراءته من مكانى هنا .

– هذه نصيحة غالية سآخذ بها .. وأشكرك من كل قلبى .

– النصيحة فيما سأقوله لك ، فأرجو أن تستمعى لى جيداً !

– تفضل !

– لا تركبى مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية – أمام خانة المهنة – أنه نبى .. فلسنا فى عصر الأنبياء ، والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » .. كلهم ذئاب ، ولا أهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لأى جميلة ، وكل جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيِّتون لها ما كان سيحل بك الليلة .. لا أشبّه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة .. فلا تركبى

مع أحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبي . . لا تركبي . . لا تركبي !

– صدقت ، هذه المرة كانت الأولى . . وستكون الأخيرة .

– مع السلامة ، والله يتولاك ويسترك !

٦

عائدة تكاد لا تصدق أنها وصلت إلى بيت أسرتها – فى حى « جاردن سيتى » – بعد أحداث هذه الليلة السوداء !

لا تصدق أنها تجلس إلى مائدة العشاء بين أبويها ، وإن لم تأكل غير قطعة من تفاحة . . قطعة صغيرة من تفاحة .

قال لها والدها : « لم تتناولى عشاءك يا عائدة ! »

جاهدت لترسم على شفتيها ظل ابتسامة ، وهى تقول : « لا أحس بقابلية للطعام الليلة » .

وقالت لها أمها : « اكملى تفاحتك يا حبيبتى ! » .

هزت عائدة رأسها كمن يحس وعكة – مثلا – دون أن يدرى سببها ، واجابت : « لست قادرة يا ماما » .

ومست كوب اللبن بشفتيها ، وشربت منه بقدر مايشرب العصفور، ثم ردته إلى سطح المائدة ، وهى تستأذن للقيام للنوم ، فسألها والدها بحنانه البالغ :

– عائدة . . هل أنت مريضة ؟

أبداً . . مرهقة بعض الشئ

وسألتها أمها : « هل أحضرت كراسة المحاضرات من زميلتك ناهد ؟ » .

– أحضرتها . وسأحاول الآن أن أنسخ منها بعض ما فاتنى خلال الأسبوع الذى انقطعت خلاله عن المحاضرات ، وإن أحسست بأننى متعبة ، فسأنام فوراً ، وأرجىء النسخ لوقت آخر .

وقبلت كلا من أبويها قبلة المساء ، ودخلت غرفتها ، وارتدت ثياب النوم ، ثم أطفأت النور الكبير ، بعد أن أضاءت المصباح الصغير القريب من فراشها . . ثم استلقت راقدة ، وبدأت رحلة عذاب ذهنى وعقلى ونفسى مدمر . .

استعرضت ما حدث لها فى ثوان ، فمر أمام عينيها كشريط تم تصويره فى الجحيم ، بين زبانية يرقصون ويصرخون ، والنار من حولهم ومن فوقهم ومن تحتهم بحار . . بحار . . بحار . . .

بحار من النار لا نهاية لها ، ومع ذلك فهى لا تحرقهم ، وهم لا يتوقفون عن الرقص ولا يكفّون عن الصراخ .

هل ما حدث لها حقيقة ؟ !

هل كانت تحلم ، وأن ما تستعرضه الآن – وهى راقدة فى سريرها ، مفتوحة العينين – ليس إلا من تهاويل ذلك الحلم المفزع ، الذى طاف بها ؟

مستحيل ! . . مستحيل أن يكون حلماً ما مرّ بها . . فهناك رجل استدرجها لتركب سيارته ، فخدرها وهى إلى جانبه . . رجل اسمه « عبد الحميد لطفى » . . وهناك لص أنقذها من اعتداء هذا الرجل عليها ،

وقتله فى سبيل ذلك . . وحذاؤها لا تزال بعض الأتربة عالقة به ، بعد أن مشت – ويدها فى يد اللص ، حرصاً منه عليها – مسافة طويلة فوق أرض مترىة غير مرصوفة . . والمبلغ الذى سددته ، أجر « التاكسى » الذى حملها من مشارف مدينة المهندسين عائداً بها إلى البيت ، يختلف تماماً عن المبلغ الذى سددته من بيت أسرتها إلى بيت أسرة زميلتها « ناهد » ، فى شارع الجامعة بالجيزة ، لتستعير منها كراسة المحاضرات . .

هذا المبلغ يختلف عن المبلغ الآخر بفارق ملحوظ . . والمتبقى من النقود فى حافظة نقودها الصغيرة – بداخل حقيبة يدها – يؤكد هذا بصورة لا تقبل المناقشة . .

ليس حلماً – إذن – ما تعرضت له . . ولكنه حقيقة لاشك فيها . . حقيقة تقول إن هناك رجلاً قتل فى غرفة نومه ، وإنها كانت فى هذه الغرفة أثناء قتله ، والذى لاشك فيه أن اللص قد سرق ما وقعت عليه عيناه . . فهل هناك ما يقود إليها ؟

إنها لم تترك أثراً

لم تنس شيئًا من أشيائها ، فهى لم تكن تحمل غير حقيبة يدها . . وكراسة المحاضرات الخاصة بزميلتها ناهد بداخل هذه الحقيبة ، والله ألهمها أن تتذكر فى اللحظة الأخيرة أنها تركت الحقيبة سهواً فى غرفة الجريمة . . ولقد أسرع اللص فأعادها إليها ، وهاهى ذى الحقيبة أمامها ، وكراسة ناهد بداخلها . . كما أنها لم تلمس شيئاً من محتويات الغرفة يمكن أن يقود المحققين إليها عن طريق بصماتها . .

إنها لم تفعل شيئاً . . فهى بريئة . .

أكثر من هذا أنها مجنى عليها ، فقد حاول أحدهم الاعتداء عليها باغتصابها ، وخاب أثر الجريمة لسبب خارج عن إرادته – كما توصف الجرائم عادة – بأن تعرض له آخر ، فحال بينه وبين ارتكاب جريمته ، ثم انتهى الخلاف بينهما إلى قتله . .

هل يتصور عاقل أن تقتل فتاة مثلها – لاتزن أكثر من اثنين وخمسين كيلو جراما – رجلاً لا يقل وزنه عن الثمانين ، يمتلئ صحة وعافية وشباباً وقوة ؟ . . هل يتصور عاقل أن تقدم فتاة مثلها على مثل هذه الجريمة ، لتسرق ما لا شك فى أن اللص قد سرقه وهى تحت تأثير المخدر؟

راحت تفتش عما قد يبعث الطمأنينة إلى نفسها ، وفى كل مرة ينتهى بها هذا التفتيش إلى استحالة قيام الشبهات حولها ، ففيم القلق ؟

فيم القلق يا عائدة ؟ . . نامى واطمئنى !

* * *

ومع ذلك فهى لا تنام . . لم تنم حتى الصباح ، وسؤال واحد يلح عليها : ماذا حدث عندما اكتشفت الجريمة ؟

الذى لاشك فيه أنها اكتُشفت قبل أن تصل هى إلى بيت أسرتها ، فإن زائراً – يجوز أنه صديق المقتول ، الذى حدثها اللص عنه فقال إنه فى الطريق لزيارته – كان يضغط الجرس ، وهى فى ردهة المنزل ، فى طريقها واللص معها إلى المطهى ، ليخرجا منه إلى الحديقة ، ومنها إلى الخلاء . .

وهذا الزائر – أو الصديق – لاشك فى أنه سأل البواب عن سيده ، فأفاده بوجوده داخل المسكن . . ومن المؤكد أن نور الغرفة كان يتسلل

من خصاص نوافذها – إلى مَنْ فى الحديقة ، ليؤكد أن صاحب المسكن بداخله . .

ومن المؤكد أيضاً أن الطارق ، أوالزائر ، أوالصديق ، قد رابه – والبواب معه – أن صاحب البيت لا يفتح ، فتحايلا على الدخول بأية وسيلة ، فدخلا وإذا بهما أمام ذلك المنظر المروع . .

رب البيت مقتول . . فارقته الحياة . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدماء بدأت تتجمد على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة .

فماذا بعد ذلك ؟

إنها لا تدرى !

وكان لابد لليل أن ينتهى ، وأن يأتى الصباح ، ومعه الحياة والحركة والجرى والسعى والدأب بلا توقف . . عجلة اسمها الحياة ، ما فتئت تدور منذ الخليقة ، وحتى هذا الصباح الأصفر ، الذى لا تدرى عائدة شيئاً عما سيسفر عنه من أنباء وأحداث ومفاجآت . .

كان الصباح صباح يوم جمعة . . يوم عطلة رسمية ، فأعفاها هذا من مقابلة ومواجهة زميلاتها وزملائها وأساتذتها فى الكلية ، فإنها لم تكن مهيّأة للاختلاط بهم وبهن ، كما اعتادت فى حياتها اليومية معهم جميعاً .

جلست إلى مائدة الفطور مع أبيها وأمها كعادتها ، وراحت تحسو من كوب اللبن أمامها ببطء ، وهى تبدو كمن تنظر إلى لا شىء .

وضعت الأم فى صفحة ابنتها بيضة مقشورة ، ساخنة لامعة ، وهى تقول :

– كلى يا عائدة . . إنك لم تتناولى عشاءك أمس ، فنمت جائعة . .

ووضعت إلى جانب البيضة المقشورة شريحة من الجبن « الروكفور». ثم شريحة من الزبد ، ثم ملعقتين من مربى النارنج ، ثم بضع زيتونات سوداء لامعة ، وهى تقول : « كلى يا عائدة . . كلى يا حبيبتى ! ».

وهمست عائدة ، وكأنها تبتعد عن أبيها وأمها بآلاف الأميال : «شكراً يا ماما ».

كانت عيناها على ظهر الصحيفة التى أمسك بها والدها ، وقد فرغ من تناول إفطاره . . كان يبدو كمن استغرقته القراءة ، وقد نسى أن ابنته فى مواجهته ، وأن أمها عن يمينه تتصدر المائدة . . هكذا تعودوا الجلوس – ثلاثتهم – إلى مائدة الطعام ، منذ كبرت عائدة وطالت قامتها واستطاعت أن تشارك أبويها مائدة الطعام . .

سألته زوجه : « ما أخبار البلد يا محمود ؟ . . هل من جديد ؟ ؟

نحىّ الزوج الصحيفة عن وجهه ، ووضعها جانباً ، وهو يقول :

–لا جديد تقريباً ، ولكن هناك حادثاً فظيعاً . . غريباً وفظيعاً معاً !

تشاغلت عائدة بكوب اللبن بين أصابعها ، تحسو منه ببطء شديد ، بينما اهتمت والدتها بالاستفسار عن هذا الحادث الغريب الفظيع ، الذى يتحدث زوجها عنه

–شاب ثرى . . وجدوه مقتولاً فى مسكنه ، عند أطراف مدينة المهندسين .

– يا ساتر يارب !

قالتها الأم مشفقة ومستنكرة معاً ، وأضافت : الناس ضلّت . . أو جُنَّت ! ».

رفعت عائدة عينيها عن كوب اللبن الذى أمامها ، وهى تسأل والدها فى هدوء :

– وما وجه الغرابة فى الحادث ؟ . . إننا نقرأ فى الصحف كل يوم تقريباً أكثر من نبأ عن مقتل إنسان فى بيته .

رفع والدها فنجان القهوة إلى شفتيه ، ورشف منه رشفة صغيرة ، وهو يبتسم مجيباً ابنته :

– الغرابة فى هذا الحادث أن القاتل ، قاتلة . . أعنى فتاة !

– يا مصيبتى ! . .

قالتها الأم وهى تضع كفها على صدرها ، كمن لا تستطيع أن تصدق . .

– بنت تقتل رجلاً ؟ !

– إنها بكل تأكيد ليست بنتاً عادية ، بالمعنى المفهوم لنا يا فوقية . . فمن المؤكد أنها عاهر محترفة ، خطرة مدربة ، بدليل أنها قتلته . . ومعنى هذا أنها كانت مسلحة بالخنجر الذى استعملته فى ارتكاب الجريمة . . ثم أنها سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض النفائس من جواهر وغيرها . . .

– وكيف عرفوا هذا ؟

– ناظر زراعته قال فى التحقيق إنه كان يحمل ألفى جنيه ، تسلمها من أحد تجار الفاكهة ثمناً لثمار حديقة البرتقال . .

عائدة تستمع لحديث والدها ووالدتها ، ودقات قلبها تزداد سرعة ، وكأن كل دقة منها تحاول أن تسبق التى قبلها . . والدم فى عروقها يكاد يغلى . . يتمدد بسرعة الزئبق فى مقياس للحرارة وضع فى فم مريض تفتك الحمى بجسمه ، وإن هى إلا درجة أو درجتان حتى ينفجر المقياس

حتما ويقفز الزئبق من أنبوبته الشعرية الدقيقة .

وأحسست بأن عليها مشاركة والديها الحديث ، حتى تبدو طبيعية وغير منعزلة عنهما ، فلا يثير صمتها شبهة ما . . فقالت : « الجريمة كانت بدافع السرقة اذن . . ؟ » .

أجابها والدها : « الصحف لم تذكر التفاصيل كاملة ، وإن كان واضحاً أن السرقة كانت هدف القاتلة » .

– هل كانت على صلة بضحيتها ؟

– شهادة البواب تفيد بأن سيده كان فى مزرعته منذ الصباح ، ثم عاد قبل منتصف السابعة مساء بقليل ، يحمل على ذراعيه فتاة غائبة عن الوعى ، فدخل بها مسكنه . . وبعد نحو ساعة ، جاء لزيارته صديق من أقرب أصدقائه إليه ، اسمه حافظ ، فضغط جرس الباب أكثر من مرة ، دون مجيب . . فانضم إليه البواب مؤكداً أن سيده بالداخل ، فلما لم يفتح لهما الباب برغم ظهور نور غرفة نومه من خصاص إحدى نوافذها رابهما الأمر ،فاقترح البواب على صديق المجنى عليه أن يصحبه إلى الباب الخلفى للفيلا ، ليدخلا منه ، فهو يحمل مفتاحه . . وعندما دخلا ، وجدا صاحب البيت مقتولاً بطعنة خنجر ، والخنجر مغروس فى صدره ، لم ينزعه القاتل بعد أن طعنه ، وقد تجمدت الدماء التى سالت منه على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة . . .

وسألت عائدة والدها فى هدوء : « والصديق . . ماذا قال ؟ » .

– قال شيئًا غريباً جداً فى التحقيق . . كان لصديقه المقتول طريقة مخزية للإيقاع بالسيدات أو بالفتيات اللواتى يرقن له فى الطريق . .

فينتهز فرصة ندرة سيارات « التاكسى » ، وطول انتظار السيدة أو الآنسة لسيارة تحملها إلى بيتها – أو إلى حيث هى ذاهبة – فيتقدم منها بسيارته الفاخرة ، عارضاً عليها بكل أدب واحترام أن يحملها إلى حيث تريد . . وفى الطريق يخدرها عن طريق الشم ، ثم يسرع بها إلى بيته ، حيث يعتدى عليها ، وهى تحت تأثير المخدر . . وقد أيّد البواب أقوال صديق سيده . . .

هتفت الأم مولولة : « يا مصيبتى ! ! » .

ووجدت عائدة ما تقوله ، دون أن يثير قولها ريبة ما :

– هو إذن يستحق . . وقد نال جزاءه !

وضحك الأب وهو يقول : « أنا شخصيًّا لا أستبعد أن تكون القاتلة إحدى ضحاياه ، إذا استبعدنا أنها من محترفات الجريمة . . اعتدى عليها مرة ، فبيَّتت له نية الانتقام منه ، إلى أن واتتها الفرصة ، فلم تدعها لتفلت منها »

سؤال كان يلسع طرف لسان عائدة ، وهى تتردد فى إلقائه على والدها . كانت تحس بأنها كمن يسير على حبل مشدود بين ارتفاعين شاهقين ، وأن أية كلمة تخرج من فمها دون أن تكون محسوبة حساباً دقيقاً ، ستكون بمثابة الخطوة غير المحسوبة لمن يسير على هذا الحبل المشدود بين الارتفاعين الشاهقين ، فتكون فيها نهايته !

سألت والدها فى هدوء ، وهى تضع بطرف السكين بعض الزبد والمربى فوق كسرة من الخبز :

– ألم يلتقطوا بصمات للقاتلة يمكن أن تقودهم إليها ؟

وكانت الإجابة عن هذا السؤال أكثر ما يؤرق عائدة . .

طوى الوالد الصحيفة ، وقدمها لابنته ، وهو يقول :

– لا ذكر هنا للبصمات .

– ولكن البصمات مهمة .

قالتها وهى تتناول الصحيفة من والدها ، الذى أجابها :

– بلا شك . . ولكن لم يرد لها أى ذكر أوسيرة ، ومعنى هذا أن مندوب تحقيق الشخصية لم يلتقط أية بصمات تفيد التحقيق . . من الجائز أن القاتلة كانت تضع كفيها فى قفازين .

وأحست عائدة بأن ثقلا كثيباً كان يرزح فوق قلبها ونفسها ، وقد انزاح عنهما فجأة . . إنها تستطيع أن تتنفس . . وتذكرت أن اللص كان يضع كفيه فى قفازين ، ومعنى هذا أنه إذا كانت هناك أية بصمات ، فلن تكون إلا لها أوللقتيل صاحب المسكن . . ومادام مندوب تحقيق الشخصية لم يعثر على أية بصمات ، فليس لهذا غير معنى واحد . . أنها بعيدة عن الشبهات .

وفتحت الصحيفة وأبوها يقول لها : « فى صفحة الحوادث » .

وإذا بصورة « عبد الحميد » تطالعها – كما رأتها بالأمس على الطبيعة رأى العين – وهو ممدد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، وعيناه جاحظتان ، والفزع وألم الطعنة يلونان تقاطيع وجهه بتهاويل اللحظات الأخيرة لأى إنسان يلفظ حياته . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط حوله وعلى الطنفسة . . وإلى جانب صورة الجريمة صورة أخرى من صور عبد الحميد بثيابه العادية ؛ كأن الصحفى الذى قام بتغطية الحادث قد أراد أن يعطى قراء صحيفته فكرة – أو بالأصح – صورة أكثر

وضوحاً ، للثرى المقتول ، فطلب من أهله صورة عادية له ، لينشرها إلى جانب الصورة التى التقطت له بعد أن أجهزت عليه القاتلة . .

وهمست فيما بينها و بين نفسها :

– يا ساتر يارب . . أستغفر الله العظيم !

* * *

فى غرفتها ، انفردت عائدة بالصحف الصباحية الثلاث ، فى فراشها كعادتها صباح كل يوم جمعة ، وقرأت تفصيلات الحادث ، التى لم تخرج عما لخصه لها والدها وهما حول مائدة الإفطار . .

البواب – ومعه صديق عبد الحميد – رابهما أنه لم يستجب لصوت الجرس ، فلم يفتح الباب . .

أشفقا أن يكون قد وقع له مكروه

دخلا من الباب الخلفى للفيلا فوجداه مقتولاً . .

أبلغا قسم الشرطة ، فقام أحد الضباط لإجراء اللازم ، ثم أخطر النيابة ، فانتقل أحد أعضائها لمكان الجريمة ، حيث بدأ التحقيق .

٧

فى ذات اللحظة التى كانت «عائدة» تقرأ أنباء الجريمة ، وتقارن بين ما كتبته كل من الصحف الصباحية الثلاث وزميلتيها ، كانت هناك أكثر من سيدة وأكثر من آنسة يقرأن تفاصيل الجريمة ذاتها باهتمام أكثر

من أي قارئ آخر أو أية قارئة أخرى . .

إنهن ضحايا « عبد الحميد لطفي » ، اللواتي استدرجهن في سيارته إلى مسكنه ، واعتدى عليهن بعد تخديرهن ، وآثرت كل منهن ابتلاع غصتها والسكوت على اغتصابها ، اتقاء فضيحة تهدم حياتها ، وتظل تطاردها وتتبعها كظلها إلى الأبد ، ولن يصدق أحد أنها ضحية ! .

ولكن زميلة لهن في الهم ، كانت أكثر اهتماماً بالحادث من أيهن .

إنها « عصمت » . . آخر ضحاياه قبل أن يصبح هو ضحية مغامرته الأخيرة . .

الوحيدة التي واتتها الجرأة لتلجأ للنيابة العامة ، دون أن تعبأ بفضيحة لا مفر منها ، وإن كانت في حيّز محدود . حيز أفراد أسرتها وهيئة التحقيق بعد أن التمس خالها من المحقق أن يكتم الأمر عن الصحف كتماناً تامًّا ، فوعده المحقق وكان بارًّا بوعده !

كانت تقرأ تفاصيل الحادث لوالدتها ، وهي تهتز انفعالاً ، إلى أن قالت في النهاية : « عادل ومنتقم يارب . . تمهل ولا تهمل ! ».

واستغفرت ربها وهي تخاطبه : ليست شماتة يارب . . ولكنها عبرة ! ».

ثم قالت لوالدتها : « كم أود يا أمي ، بل كم أتمنى أن أتوجه الآن لوكيل النائب العام ، الذي حفظ شكواي عندما تقدمت بها ضد هذا الحيوان ، منذ شهور ، بحجة أنني راشدة وعاقلة وأملك أمر نفسي ، وأنني ركبت إلى جانبه في سيارته بمحض إرادتي ، وأنني لهذا أتحمل نتيجة تصرفي . . كم أتمنى أن أتوجه إليه الآن ، لأقول له ما بنفسي . .

ولم تكد تنتهي من عبارتها حتى أز جرس الباب فقامت لترى من

الطارق ، وإذا بها – عندما فتحت الباب – أمام أحد ضباط الشرطة ، وهو يقول فى أدب ملحوظ :

الآنسة عصمت مرتضى ؟

– أنا يا سيدى .

– هل تأذنين لى بالدخول ؟

– تفضل . . خيراً إن شاء الله ؟

– خير بإذن الله .

قالها وهو يدخل . . وأغلقت عصمت باب المسكن فى هدوء ، وهى تقول للضابط مشيرة إلى أحد المقاعد : « تفضل بالجلوس ! ».

وجلس الضابط . . وحضرت الأم ، وراعها أن ترى واحداً من رجال الشرطة فى بيتها ، دون أن تعرف لقدومه سبباً . . ولم تكد تسأله هذا ، حتى أسرع يطمئنها :

– لا تنزعجى يا هانم . . إن وكيل النيابة سلمنى هذا الأمر باستدعاء الآنسة عصمت ، لمجرد سؤالها سؤالا واحداً ، تجيب عنه بكلمتين ، وتنصرف بسلام .

أدركت « عصمت » الموقف من فورها ، فقالت ، فى محاولة منها لتبعث الطمأنينة إلى نفس والدتها :

– لا تنزعجى يا « ماما » ، فإننى أدركت كل شىء .

سألتها والدتها ملهوفة : « أدركت ماذا يا عصمت ؟ ».

– الذى لاشك فيه أن الشبهات يجب أن تتجه لى ، متهمة إياى بقتل الأستاذ عبد الحميد لطفى ، فإننى إحدى ضحاياه ، وقد أكون

الوحيدة التى أبلغت باعتدائه عليها . . ولهذا لا يمكن أن يهمل التحقيق استدعائى لسماع أقوالى . . على الأقل ، لكى أثبت للمحقق أين كنت وقت وقوع الجريمة ، فقد أكون القاتلة . . ولم لا ؟

ابتسم الضابط لعصمت وهو يقول :

– كل ما قالته الآنسة عصمت صحيح جملة وتفصيلاً ، وأرجو من الهانم ألا تنزعج .

– ولكن خالها ليس هنا يا ابنى . . إنه فى مهمة خارج القاهرة ، ولن يعود قبل أسبوع .

– إذا أحببت ياسيدتى أن تتفضلى بمصاحبتنا فأهلاً ، وإذا لم يكن يتيسر لك هذا ، فإننى أتعهد بأن أعيدها بنفسى ، لأسلمك إياها يداً بيد !

– شكراً يا ابنى . .

قالتها الأم ، ثم أضافت وهى تقوم عن مقعدها :

– سأصحبكما لأكون بجانبها . . دقائق من فضلك ، وإلى أن أرتدى – وكذلك عصمت – ثياب الخروج . . عن إذنك !

وقامت عصمت مع أمها ، وهى تستأذن الضابط دقائق .

* * *

لم تمض « عصمت » أمام وكيل النائب العام – وأمها معها – أكثر من نصف ساعة . . كان هو نفسه الذى تلقى بلاغها منذ شهور ضد « عبد الحميد لطفى » ، الذى اعتدى عليها بعد أن خدرها فى سيارته . .

ابتسم لها محيياً ، وهو يقول فى رقة بالغة :

– لا بأس يا آنسة عصمت . . حظى أن ألتقى بك دائماً فى مناسبات ليست سارة . . ولكن اليوم ، ليس أكثر من مجرد إجراء بسيط ، ستنصرفين بعد الانتهاء منه إلى دارك بسلام .

ابتسمت وهى تجيبه فى هدوء :

– شكراً ، سيادة النائب . . أدعملك على الوجه الأكمل !

سألها بعد أن فتح المحضر : أين كانت فى اليوم السابق ، بين الساعة السادسة والثامنة والنصف مساء ؟ فأجابت بأنها كانت مع والدتها عند طبيبها المعالج – طبيب الأم – الذى حرّر لها هذه التذكرة الطبية ، وأشارت لأمها فاخرجت – هذه – من حقيبة يدها تذكرة الطبيب ، مؤرخة بتاريخ اليوم السابق .

وأضافت عصمت قائلة :

– ومن عيادة الطبيب ، توجهنا معاً إلى أقرب صيدلية لنشترى الأدوية الموصوفة لها ، وكان من بينها مالا مفرّ من تجهيزه . أى أنه استوجب منا الانتظار إلى أن يتم هذا التحضير ، فانتظرنا إلى نحو الساعة العاشرة ، ويمكن لسيادتك أن ترى خاتم الصيدلية باسم صاحبها على التذكرة ، وبالتاريخ ذاته ، تاريخ الأمس . .

ودخل الغرفة أحد رجال الشرطة برتبة عريف ، فالتقط بصمات « عصمت » ، وهى تتساءل فى دهشة عن سبب هذا ، فأجابها النائب فى لطف ملحوظ :

– إنه مجرد إجراء بسيط ، على سبيل الاحتياط الكلى ، حتى لانزعجك باستدعائك مرة أخرى .

وطلب منها أن توقع على أقوالها ، وكانت لا تتعدى الإجابة على السؤال الواحد الذى وجهه لها . . وعند ما سألته إن كانت تستطيع أن تنصرف ، رجاها أن تنتظر دقائق معدودات ، فظلت جالسة فى مكانها إلى جانب أمها ، إلى ان عاد الشرطى الذى التقط بصماتها – منذ قليل – ومعه ورقة قدمها للنائب ، فقرأها فى لمحة قصيرة ، ثم أومأ إلى « عصمت » بأنها تستطيع أن تنصرف بسلام .

قامت « عصمت » عن مقعدها واقفة . . ولكنها قبل أن تتجه نحو باب الغرفة خارجة ، قالت للنائب المحقق :

– سيادة النائب . . الله يمهل ولا يهمل . . ولا شك أن من قتلته كانت إحدى ضحاياه . . ولقد كنت أتمنى أن أقوم أنا بهذه المهمة ، وإن قدمت حياتى ثمناً لها !

ابتسم النائب وهو يقول فى هدوء : « أرجو منك أن تنسى ما مضى ! »

ابتسمت عصمت فى مرارة ، وهى تقول :

– أنسى ؟ ! . . تريد منى أن أنسى ؟ ! . . أنسى ماذا ياسيدى ؟ . . إننى أستأذنك لأسألك سؤالاً واحداً بسيطاً : ما الفرق بين رجل خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم هتك عرضها ، وبين رجل آخر خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم قتلها بسكين ؟ . . هل يحفظ البلاغ فى الحالة الثانية – حالة القتل – كما يحفظ فى الحالة الأولى ، حالة هتك العرض ؟ . . وهل يخلى سبيل القاتل لأن الفتاة التى قتلها يجب أن تتحمل نتيجة تصرفاتها ، باعتبارها بالغة سن الرشد ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، كما فى حالتى منذ شهور ؟ . . أو ، السؤال فى كلمتين ، هل يخلَى سبيل القاتل

لمجرد أن المقتـولة ركبت مع قاتلها برغبتها ، وهى رشيـــدة تملـك أمر نفسها ؟ .

وابتسم المحقق محاولاً تهدئة عصمت ، وهو يقول :

– هذا بحث قانونى طويل ، ولا أظن هذا وقته يا آنسة « عصمت » .

وأضافت « عصمت » والمرارة تقطر مع كل حرف من حروف كلماتها :

– سيادة النائب . . بأمانة شديدة ، صدقنى إذا قلت لك . . إننى أشفق على أى محقق يرى نفسه عاجزاً أمام قصور القانون ، عندما تعرض له حالة من هذه الحالات ، فإذا به يجد نفسه مضطرًّا للإفراج عن مجرم هو أول من يؤمن بأنه مجرم حقيقة !

وبذلت جهداً هائلاً حتى لاتفلت من عينيها دمعة حاولت أن تقهر مقاومتها لتفرّ من بين جفنيها . . وأسرعت – وذراعها فى ذراع والدتها – خارجة ، وهى تنحنى للنائب المحقق انحناءة تحيــة وشكر ، فقد كانت تحس فى أعماقها بأنه متعاطف معها ، مقدر لمأساتها ، وإن كان قاصر اليد والحيلة .

وهى فى سيارة « التاكسى » – بجانب أمها – فى طريق عودتهما إلى المنزل ، سمعت نفسها تسألها :

– هل من الضرورى أن يحدث ما حدث لك يا عصمت لابنة أحد الكبار المسئولين ، ليتقدم باقتراح تعديل هذه القوانين القاصرة ، حتى تأخذ فى صورها المعدَّلة برقاب أمثال « عبد الحميد لطفى » ؟

وأخفت عن والدتها دمعة لمعت فى عينيها . .

٨

« عائدة » . : وهى تدخل حرم الجامعة صباح السبت ، بمتجهة إلى كلية الحقوق ، للاستماع إلى محاضرة الصباح ، كان يخيل إليها أن كل العيون تتجة نحوها ، تحمل نظرات الاتهام . . عيون زملائها وزميلاتها ، وصديقاتها . . وكل من تعرف ومن لا تعرف . .

كان يخيل إليها أن كل هذه العيون تقول لها :

– أنت من كانت مع بطل فضيحة الأمس ، التى نشرتها الصحف الصباحية والمسائية . . وأنت التى قتلته ، وسرقت ماله وجواهره ونفائسه !

وكان يخيل إليها أن كل من يتقدم لتحيتها من الزملاء أوالزميلات ، سيبادرها بالاستفسار عن تفاصيل الحادث : كيف بدأ ، وكيف انتهى ، وكيف خرجت من المأزق خروج الشعرة من العجين ؟ !

وجهاً لوجه ، وجدت نفسها أمام صديقتها ناهد . . التى كانت فى زيارتها قبل الحادث ، لتستعير منها كراسة المحاضرات .

خيل إليها – لوهلة – أن ناهد ستسألها :

– ما الأخبار ؟ . . ما آخر تطورات الحادث والتحقيق الذى يجرى بشأنه ؟

ولكنها تساندت وتماسكت، وحيّت ناهد – كما تحييها كل صباح – بابتسامتها العذبة الرقيقة ، وقالت لنفسها ، أوقالت لها نفسها :

– تماسكى يا عائدة . . فكل هذا ليس إلا أوهاماً يهيئها لك الخوف . .

وهل من المعقول أن يخطر ببال إنسان – أى إنسان – أنك بطلة الحادث الذى أصبح حديث الجميع ؟ !

سألتها ناهد فجأة : مالك يا عائدة ؟ »

وفوجئت بالسؤال . . ولكنها تجلدت أكثر ، وتماسكت أصلب ، ونسجت ظلال ابتسامة على وجهها ، وهى ترد سؤال ناهد بسؤال من عندها : « مالى يا ناهد ؟ . . هل ترينني على غير عادتى ؟ »

أجابتها ناهد بابتسامتها الوديعة ، التى أحبتها عائدة منذ اليوم الأول للقائهما ، طالبتين صغيرتين من السنة الأولى بكلية حقوق جامعة القاهرة ، إلى أن وصلتا – معاً – إلى السنة النهائية :

– أبداً . . ألمح شحوباً على وجهك ، وهذا كل شىء . . ربما لم تأخذى كفايتك من النوم !

– هذا صحيح يا ناهد . . لم أنم كفايتى ليلة أمس .

وسارت الصديقتان فى طريقهما إلى المدرج الذى يستمعان فيه إلى محاضرة اليوم عن القانون الجنائى .

ناهد سألت عائدة فجأة : « هل قرأت الحادث الغريب فى صحف أمس ؟ »

أجابتها عائدة فى هدوء : « وتابعت قراءته فى صحف اليوم ، ولو أنها لم تأت بجديد » .

– الحادث غامض . .

– يستمد غموضه واستثارته للقراء من كون بطلته فتاة . . هذا رأى الجميع تقريباً .

– وأية فتاة يا عائدة ! ؟

– بمعنى ؟

– حرصها الشديد .. تنفيذها الجريمة بإحكام .. براعتها فى أنها لم تترك بصمة واحدة تقود المحققين إليها ..

علقت عائدة على رأى صديقتها قائلة :

– أتعرفين يا ناهد ؟ .. لقد اكتشفت حقيقة هامة جدًّا ، بعد شيء من التفكير فى ملابسات الحادث .

– أية حقيقة يا عائدة ؟

– حتى لو كانت هذه الفتاة المتهمة بقتل المجنى عليه – المدعو عبد الحميد لطفى – قد تركت بصماتها ، فإنهم لن يصلوا إليها إلا إذا كانت من معتادات الجريمة ، ولها بصمات محفوظة فى سجلات إدارة القلم الجنائى .. ألا تقريننى على هذا ؟

– بداهة يا عائدة .. ولكن أتظنينها من غير معتادات الإجرام ؟

– لا أدرى ، ولكن المهم .. ألست معى فى أنهم لن يصلوا إليها ، إذا لم تكن لها صحيفة جنائية مسجل فيها سابقة أو أكثر ، على أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة ؟

– طبعاً .. ولو أنى أشك فى أنها جريمتها الأولى ..

– ولم ؟

– من تنفذ مثل هذه الجريمة ، بهذا الإحكام والنجاح ، لا شك فى أنها مدربة على مثل هذا العمل .

– هذا .. أو نحوه ، كان رأى والدى أمس ونحن نتحدث على مائدة الإفطار ،

– ماذا كان رأيه ؟

– إنها لا بد أن تكون عاهراً مدربة ، وخطرة .

وجاهدت عائدة لتبتسم ولتضيف : « ولو أنه عاد – بعد ذلك – فرجح أن تكون إحدى ضحايا المجنى عليه ، وانتقمت منه » .

وكانت الصديقتان قد اقتربتا من باب المدرج ، فأنهت ناهد الحديث ، وهما تدخلان معا ، بقولها : « على أية حال ، الجريمة مثيرة . . ولا شك فى أن سر إثارتها كون الفاعل فتاة »

– هذا صحيح .

– ولكن ، لكى يصلوا إليها ، يجب أن يتوفر لهم عنصران .

سألتها عائدة فى لهفة : « ما هما ؟ »

الأول : أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة . .

– والثانى ؟

– أن تكون من معتادات الجريمة كما اتفقنا ، ولها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى .

– هذا ما أقول تماماً يا ناهد . . لن يصلوا إليها إلا إذا كان لها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى . . أليس كذلك ؟

ونسيت ناهد نفسها ، وخيل إليها أنها أستاذ يلقى محاضرة على طلبته ، فراحت تتم حديثها فى نبرة جادة متئدة :

– وحيث إن الجانية لم تترك أية بصمة فى مكان الجريمة ، يمكن . مضاهاتها ببصمات معتادى الإجرام – إذا كانت منهم أو منهن – فإن التوصل إليها يصبح عسيراً ، وإن توصلوا . فمن الصعب إثبات التهمة عليها .

وكان هذا ما تسعى إليه عائدة لتسمع تأكيده من أى إنسان . .
إن صديقتها « ناهد » قد رددت ما تردده هى لنفسها . . .
فهى تريد أن تطمئن . . أن تنام . . أن تنعم بهدوء النفس والخاطر ، لتتفرغ لاستذكار دروسها ، فإن هى إلا بضعة شهور ويدهمها الامتحان ، وهذه سنتها النهائية فى الدراسة ، وهى لم تتخلف سنة واحدة منذ المرحلة الابتدائية حتى وصلت للسنة النهائية فى كلية الحقوق . . وهى حريصة على أن تنجح لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها . .
مرحلة العمل . . ثم الزواج عندما تلتقى بالرجل المناسب .

* * *

الصحف لا تزال تتابع أنباء جريمة الأسبوع ، مقتل الثرى . « عبد الحميد لطفى » ، وإن بدأت هذه الأنباء تحتل مساحات أقل مما كانت تحتله خلال الأيام التى أعقبت وقوع الجريمة مباشرة .
وشيئاً فشيئاً ، كفت الصحف عن النشر ، فأنباء الجرائم لا تنتهى ، والجديد منها يحجب القديم ويصبح أولى بالمتابعة والنشر . .
ويوم اختفت تماما أنباء هذه الجريمة من الصحف ، وقف الدكتور « نور الدين الريدى » – أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق – أمام ألف ومائتى طالب وطالبة ، يستعدون لنيل إجازة القانون بعد شهور . . وقف أمامهم قبل أن يبدأ محاضرته ، وخاطبهم بقوله :
– إنكم بكل تأكيد قد قرأتم تفاصيل الجريمة التى وقعت فى نهاية الأسبوع الماضى ، فى « فيلا » تقع عند نهاية مدينة المهندسين بالدقى ، فقتل صاحبها بطعنة خنجر من فتاة اصطحبها معه بعد أن خدرها فى

سيارته ، كما شهد بذلك أقرب أصدقائه إليه ، وأيّد بواب المسكن شهادته ، كما أضاف أن هذه كانت « لعبة » سيده . أن يستدرج السيدة أو الفتاة للركوب معه ، ثم يخدرها وهى إلى جانبه فى سيارته ، ويحملها إلى بيته ليعتدى عليها . . إلى نهاية ما ورد فى الصحف . . أريد ممن استهواه الحادث منكم ، ومن شاقه التحقيق إذا كان قد تابعه يوماً بعد يوم ، أن يكتب تحليلا لهذه الجريمة ، مستنتجاً دوافعها وملابساتها والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة إذا كان مكانه خلف منصة القضاء ، على ألا يزيد هذا على بضع صفحات معدودات ، وشكراً .

وبدأ الدكتور الريدى إلقاء محاضرته على طلبته .

* * *

ليلتان طويلتان أمضتهما « عائدة » فريسة القلق والتردد . .

هل تلبي دعوة أستاذها فتكتب ما اقترحه على طلبته وطالباته ، وهى واحدة منهم ومنهن . . إنه أستاذها وهى تلميذته ، وهو يحبها ويحترمها ويقدر اجتهادها وتقدمها باستمرار ، مع قلة من زملائها وزميلاتها ، وإن كان يبدو واضحاً أنه يخصها – هى بالذات – برعاية أكثر . . ربما لأنها كانت تتميز بهدوء أوضح ، وذكاء أوفر ، واستجابة أسرع ، مع ما تمتاز به من أدب الحديث والخطاب ، بصورة عذبة آسرة لافتة للسمع والنظر معا . .

كان يبدو أنها نشأت بين أبوين كريمين ، من وسط معين وطبقة معينة ، وأنهما أحسنا تربيتها ، فكانت لهما مرآة صافية تعكس ما بذلا فى سبيل تنشئتها على هذه الصورة المضيئة المشرقة . .

هى تشعر بأنها أكثر قدرة من أى محقق على تصور هذه الجريمة ، واستنباط خباياها ، لأنها عاشتها دقيقة بدقيقة ، ما عدا الفترة التى كانت خلالها تحت تأثير المخدر . . وما حدث فى هذه الفترة تعرفه حق المعرفة ، فقد لخصه اللص لها فى كلمات :

عبد الحميد أرقدها على السرير ، وخلع عنها ثوبها ، كما خلع بعض ثيابه . . وعندما هم بها ، خرج له اللص من خلف الستار الذى كان مختفياً وراءه ، وحاول منعه من الاعتداء عليها . . فاشتجرا شجار حياة أو موت ، إلى أن أجهز عليه اللص بطعنة من خنجر يحمله ، ثم سرق ما وصلت إليه يداه . . وكانت هى قد أفاقت ، فخرجت معه . .

على هذا الأساس يجب أن يتناول المحقق تفاصيل هذه الجريمة . . . فالفتاة التى كانت مع المجنى عليه لم تقتله ، ولم تسرق ماله ونفائسه . . ولكن شخصاً ثالثاً كان هناك ، فى نفس الغرفة . . وهو الذى ارتكب الجريمة .

بالتأكيد ، بكل تأكيد . . كان هناك شخص ثالث ، ويجب على المحقق أن يبدأ من هذه الحقيقة المؤكدة ، وإلا فانه سيظل فى وادٍ والحقيقة فى واد آخر . . وإذا كانت النيابة تريد أن تصل إلى القاتل ، فلتبحث عنه بين اللصوص والقتلة المعروفين لرجال المباحث ، ولتكف عن البحث عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه .

ووفقاً لهذا المنطق ، الذى لا يخرج بطبيعته عما حدث حقيقة فى هذه الليلة السوداء ، كتبت عائدة تحليلها للجريمة ، ولدوافعها ، ولظروفها ، وللابساتها . . وقدمته بعد أيام لأستاذها الدكتور الريدى ، أستاذ مادة القانون الجنائى .

ابتسم وهو يتناوله منها قائلاً

– سبقك بعض زملائك وزميلاتك يا عائدة ، فقد تسلمت محاولات عديدة من بعضهم ، ولو أنني – بيني وبينك – لم أجد من بينها ما يشير إلى عمق البحث وسلامة الاستقصاء وصحة رد النتائج إلى أسبابها . . ولكنى أرجو أن أجد فى بحثك ما افتقدته فى أبحاث زملائك وزميلاتك .

– أطرقت عائدة فى هدوئها المألوف ، وهى تقول فى شبه همس متقطع :

– أرجو أن أكون قد . . قد وفقت يا دكتور .

ابتسم الدكتور الريدى وهو يقول لها .

– أعدك إذا أعجبنى البحث ، بأن ألخصه فى المدرج ، على مسمع من كل زملائك وزميلاتك ، مشيداً به ، وذلك فى محاضرة الغد .

همست « عائدة » بكلمة شكر ، وهى تستأذن للانصراف من مكتب أستاذها . .

وخرجت . .

* * *

فى اليوم التالى ، دخل الأستاذ الدكتور نور الدين الريدى مدرج السنة النهائية بكلية الحقوق . وقبل أن يبدأ المحاضرة ، وجه الحديث إلى طلبته وطلباته ، بقوله :

– تلقيت عدة أبحاث ممتعة عن جريمة مدينة المهندسين . . وإننى إذ أشكر كل من بذل جهداً مهما كان ضئيلا فى إعداد البحث الذى قدمه لى . فإننى أحب أن أذكر بالذات ، البحث الذى أعدته زميلتكم الطالبة « عائدة محمود فهمى » . . فأنا – وأنا أقرأ بحثها – خيل لى حقيقة أنها

كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها . .

« اسمعوا تحليل زميلتكم عائدة فهمى للجريمة ، وتصورها للأحداث ، واستنتاجها الذى لم يتوصل التحقيق له . .

« تقول عائدة : إن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه لا يمكن أن تقتل رجلاً قويًا فى عنفوان شبابه ، بعد أن أفاقت من المخدّر ، لأنها بالقطع كانت بعد لا تزال تحت تأثير هذا المخدّر ، ولا يمكن أن تكون بكامل قوتها وعافيتها . . وحتى إن كانت ، فإنها من المستحيل أن تتغلب على رجل قال التحقيق عنه إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، وإنه فارع الطول ، وافر الجسم ، قوى البنية

« تستنتج عائدة من هذا أن هناك شخصاً ثالثاً كان معهما فى الغرفة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب جريمة القتل ، بدافع السرقة فى المرتبة الأولى . . من الجائز أن يكون القاتل أحد أصدقاء المجنى عليه ، وقد اختلفا معا على من ينال الفتاة أولاً ، والجريمة عادة تقود إلى جريمة أخرى . . فبعد أن قتل الصديق صديقه امتدت يده إلى ماله فسرقه . .

« ومن الجائز أن يكون بواب المنزل هو القاتل ، بقصد السرقة ، وهو يعلم أن سيده يحمل مالا بصفة دائمة ، لأنه يملك مزرعة تدر عليه . الآلاف . .

« ومن الجائز جدًّا – وزميلتكم عائدة تميل لترجيح هذا الاحتمال الآتى . . »

وابتسم الدكتور الريدى وهو يقول :

– الواقع أن زميلتكم « عائدة فهمى » تفترض افتراضاً كان أبعد الأمور

عن ذهني ، وهو بالتأكيد لم يطف بذهن محقق الجريمة . . وهو افتراض محتمل وواقعي .

« تقول زميلتكم إن المجني عليه كان يحمل في جيبه ألفي جنيه ، تسلمها ثمناً لثمار حديقة البرتقال ، كما قرر بذلك العاملون في مزرعته وبعض ذويه . . فلم لا نفترض أن واحداً ممن يعلمون بأنه يحمل هذا المبلغ في جيبه – وهم كثيرون – من رجال مزرعته مثلاً ، أو بعض رفاق تاجر الفاكهة الذي سلمه الألفي جنيه . لم لا نفترض أن واحداً من هؤلاء سبقه إلى داره ، ودخلها من الباب الخلفي – وهو شيء ليس صعباً – وانتظر وصول المجني عليه ، وهو يحمل هذا المبلغ الكبير من المال ، وتربص به في غرفة نومه – مختبئاً في أي ركن من أركانها – حتى إذا وصل هاجمه ، ليغتصب منه هذا المبلغ . . فاشتجرا ، بدليل وجود آثار مقاومة في الغرفة ، كما ورد في التحقيق الذي نشرت الصحف جانباً منه . وعندما وجد اللص أن أمره سيفتضح حتماً ، وسينتهي بالقبض عليه وتسليمه للشرطة ، لجأ إلى خنجره فقتله ، وسرق ما وصلت إليه يداه ، وانصرف دون أن يراه أحد

« أما عن الفتاة ، فلا بد أنها كانت قد أفاقت من تأثير المخدر بعد ذلك ، واكتشفت مقتل صاحب السيارة الذي استدرجها لركوب سيارته ، ثم خدرها وحملها إلى مسكنه ليعتدي عليها . . فأسرعت بالخروج من باب الخدم ، حتى لا تُتَّهم في جريمة قتل لا يد لها فيها ، ولا شأن لها بها . وبعد أن خرجت ، اكتشف البواب وصديق المجني عليه الجريمة ، فأبلغا الشرطة ، التي بدأت التحقيق في الجريمة .

« ومن هنا – والكلام لا يزال للدكتور الريدي ، تلخيصاً لبحث

تلميذته – ترى زميلتكم عائدة أنه لا يمكن لأى محقق يتناول هذه الجريمة بالتحقيق – للوصول إلى الجانى – أن يهدر هذا الافتراض ، افتراض وجود شخص ثالث قام بارتكاب الجريمة . . والأرجح أنه لص كانت السرقة هدفه الأول ، فاضطر لارتكاب جريمة القتل . . »

وعاد الأستاذ يقرأ مما كتبت عائدة : أما عن تصرفى فى هذه الجريمة – إذا كنت فى مكان المحقق – فإننى يجب أن أكلف المباحث بالتركيز على السعى للعثور على القاتل ، فهذا هو المهم ، لأنى أستبعد تماماً أن تكون الفتاة المخدّرة – التى كانت مع المجنى عليه – هى القاتلة .

« وعند العثور عليه ، سيتم التحقيق معه ، وفى ضوء أقواله واعترافاته ، وما يظهره التحقيق ، يتم تكييف التهمة :

« هل هى القتل عمداً مع سبق الإصرار والترصد ؟

« هل هى ضرب أفضى إلى موت ؟

« هل كان القاتل فى حالة دفاع شرعى عن النفس ؟

« وتحال القضية إلى محكمة الجنايات لتنظرها الهيئة ، ولتحكم فيها طبق المواد التى تنطبق على أى حالة من الحالات سابقة الذكر . . »

وابتسم الدكتور الريدى ، وهو يذكر آخر فقرة فى مذكرة تلميذته ، وكانت لا تزيد على كلمات :

« أما التركيز على البحث عن الفتاة ، فهو فى تقديرى مضيعة للوقت ، وإفساح الفرصة للجانى الحقيقى لطمس معالم الجريمة : !

. . . .

انتهى الدكتور الريدى من تلخيص مذكرة تلميذته ، بمسمع من كل

زملائها وزميلاتها ، ثم توجه لهم بالحديث ، فقال :

الواقع أن عائدة قد أحسنت العرض والسرد والاستنتاج إلى حد كبير . .

وأنا شخصياً أميل إلى ما ذهبت إليه ، من أن ثالثاً كان حتماً فى غرفة الجريمة ، مع المجنى عليه والفتاة التى حملها إلى مسكنه مخدَّرة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب الجريمة ، وسرق ما سرق مما جاء حصره فى التحقيق على ألسنة رجال مزرعة المجنى عليه وأفراد أسرته . . ولو سلك المحقق هذا الطريق ، ربما وصل إلى القاتل فى أقصر وقت ممكن ، بالرغم من الصعوبة الكبيرة التى تعترضه ، وهى عدم وجود أية بصمات يمكن أن تقود إليه ، ومع ذلك فالقضية لا تزال قائمة ولم يحفظ التحقيق فيها بعد ، لعدم العثور على الفاعل . . »

وابتسم الدكتور الريدى لطلبته ، ووضع يده فى جيب سترته الداخلى ، وهو يقول :

– لإعجابى الشديد بمذكرة زميلتكم عائدة فهمى، سأقدم لها قلمى هذا ، هدية وتشجيعاً وتقديراً لما بذلته فى إعداد هذا الموضوع من عناء جاد .

وضج المدرَّج بالتصفيق . . وتقدمت عائدة من أستاذها ، فصافحها ، وسلمها قلمه ، وهو يقول لطلبته :

– لعلكم لا تعلمون أن هذا الموسم الدراسى هو آخر عهدى بالتدريس لكم ، فلم يعد لنا غير بضعة أشهر نلتقى خلالها – فى هذا المدرج – لأننى أبلغ سن اعتزال الخدمة فى شهر يوليو القادم . . وسيكون آخر ما أعمله فى هذه الكلية العزيزة علىّ ، هو تصحيح أوراقكم وستنجحون وتتخرجون جميعاً بإذن الله . . وسيسعدنى كثيراً أن يشرفنى أى واحد ، منكم ومنكن ،

بزيارتى فى مكتبى ، إذا احتاج إلى رأى أو مشورة ، فإننى ساعمل بالمحاماة بعد اعتزالى الخدمة ، وأظنكم – جميعاً – تعرفون عنوان هذا المكتب . إنه بالمبنى رقم ٨ بشارع قصر النيل .

٩

عائدة لا تدرى أنها عندما كتبت تحليلها لجريمة مدينة المهندسين ، لتقدمها لأستاذها . . كانت متأثرة بفكرة واحدة . . أن تدافع عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، وأن تنفى عنها تهمتى القتل والسرقة ، لأنها فى الواقع كانت تدافع عن نفسها وتنفى عنها التهمتين معا . .

افترضت – للتعمية – عدة افتراضات ، ولكنها ساقت بينها الوصف الحقيقى للجريمة ، وهو دخول لص – أى لص – إلى المسكن قبل وصول صاحبه ، ليسرق ما يحمل من مال . .

وافترضت – للتعمية أيضاً – أن يكون هذا اللص أحد رجال مزرعته ، أو أحد رفاق تاجر الفاكهة ، الذى اشترى منه ثمار حديقة البرتقال . . ثم طلبت – فى نهاية المذكرة – أن يكون التركيز على البحث عن هذا اللص ، وليس عن الفتاة التى حملها المجنى عليه إلى مسكنه غائبة عن وعيها ، ليعتدى عليها . . أى ، عنها هى . .

وراحت تستعيد ما قاله أستاذها ، وهو يلخص مذكرتها لزملائها . وزميلاتها . . واستوقفتها عبارة قالها ، قبل أن يبدأ التلخيص . . قال أستاذها :

« خيل لى حقيقة أنها – أى عائدة – كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها » . !

هذه العبارة أقلقت عائدة ، وأحست – عندما قالها أستاذها – كما لو أن إبرة رفيعة حادة ، وخزت قلبها . . وبدأ شاغل يتسلل إلى نفسها . .

هل كانت أسيرة ما يصطرع فى عقلها الباطن ، من إحساسها بأن كل العيون عليها وكل الأصابع تشير إليها ، ولهذا كان تركيزها فى المذكرة على ذكر الحقيقة . . أن « ثالثاً » كان فى غرفة الجريمة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . . وكل هذا فى محاولة مستميتة منها ، لإقصاء تهمتى القتل والسرقة عنها ؟

هل بالغت فى تحمسها وهى تكتب هذه المذكرة لدرجة التورط ! . . هل ما كتبته – إذا اطلع المحقق عليه مثلاً – يمكن أن يشير إليها وإلى أنها الفتاة التى يبحثون عنها بأنوف أكثر حساسية من أنوف الكلاب البوليسية المدربة ؟ . . هل كشفت عن نفسها بما كتبت دون أن تدرى ؟

إنها لا تدرى . .

كل ما تدريه أنها أسيرة دوامة عاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة ، تحوطها جدران هائلة عالية ، مظلمة ، مخيفة من الماء . . بلايين البلايين من أطنان الماء تحيط بها ، وهى تدور معها ، وبذات سرعتها ، لا تستطيع ولا تملك من أمر نفسها شيئاً . . انها فى قاع الدوامة . . قاع الدوامة العاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة !

هل يستطيع بشر أن يوقف دوران دوامة ، فى مياه المحيط . أى محيط ؟ !

هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟ !

وفكرت فى أن تستأذن أستاذها لتسترد المذكرة التى قدمتها له ، ولتعلل

هذا بأنها تود أن تحتفظ بها للذكرى ، ثم لتمزقها بعد ذلك ، أو تحرقها عندما تنفرد بنفسها . . ولكنها استسخفت الفكرة فاستبعدتها ، وابتدأت تستعرض موقفها فى هدوء – حاولت أن تصنعه لنفسها ، فسألت نفسها :

– ممَّ تخافين يا عائدة ؟

البواب قال فى التحقيق إنه – لثلاثة أسباب – لم يروجه الفتاة التى دخل سيده يحملها على ذراعيه مخدَّرة : أولها الظلام الذى ما كان يمكن أن يتيح له رؤية وجهها إذا حاول ، وهو ما كان يمكن أن يحاول . . وثانيها أن وجه الفتاة كان مختفياً فى صدر سيده ، وهو يحملها على ذراعيه . . وثالثها – وهو الأهم – أنه بواب . . بواب وحسب ، وليس من شأنه – ولا يملك – أن ينظر إلى وجه سيدة يأتى بها سيده ، سواء كانت محمولة على ذراعيه ، أو تسير على قدميها بجانبه . . كبقية خلق الله ! . .

هكذا علّمه سيده منذ ألحقه بخدمته ، وكذلك علّم البستانى . . ولما سأله المحقق عما إذا كان يستطيع التعرّف على هذه السيدة أو الفتاة – إذا وقفت أمامه بين أربع أو خمس سيدات أو فتيات – أجاب بالنفى القاطع ، ثم أكد هذا ، مضيفاً بلهجته الريفية البسيطة كما ذكرت الصحف : « إنى أخاف الله ، فلا أظلم أحداً حتى لا يظلمنى أحد » !

– فممَّ تخافين يا عائدة ؟ . . مم تخافين ولم تشر الصحف – مجرد إشارة – إلى وجود بصمات للفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، أى بصماتك . . وهذا أخطر ما يجب أن يؤخذ فى الحساب !

« خوفك إذن – يا عائدة – لا سبب ، ولا مبرر ، ولا داعى ، ولا محل له . . فاطمئنى واهتمى بدروسك ومحاضراتك ، وتفرّغى للاستذكار

فالأيام تسرقك ، والأمتحان يقترب ، وأنت تحاولين النجاح بتقدير يتيح لك وظيفة « معيد » بالجامعة . . ألا تريدين أن تكونى معيدة ، لتصبحى ضمن أعضاء هيئة التدريس فى الكلية التى أمضيت بها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك ؟

« ما أجمل أن تقفى فى المدرج ، أمام أكثر من ألف طالب وطالبة ، لتعيدى عليهم وعليهن محاضرة الأستاذ . . فى ذات المدرج الذى جلست على أحد مقاعده طالبة ، على مدى أربعة أعوام مرت كالحلم . . هذا المدرج ذاته تقفين على منصته معيدة ، ثم مدرسة مساعدة ، ثم مدرسة ، ثم أستاذاً مساعداً ، ثم أستاذاً . .

« ولم لا ؟ . . إنك بالتأكيد ستحضرين للماجستير ، ثم للدكتوراه . . وستصبحين الدكتورة عائدة محمود فهمى ، أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق ، بجامعة القاهرة . .

« ولم لا ؟ . . لم لا ياعائدة ؟ » . .

وابتسمت وهى مستلقية على فراشها ، بالرغم من القلق الذى يسمّم هناءها . والخيال يصعد بها حينا إلى ذرى الموج ، ثم يهبط بها حينا آخر إلى سحيق القاع . .

وقامت من فراشها منتصبة كالغزال ، وهى تقول فى ثقة وإيمان عميقين : « إننى بريئة وطاهرة ، والله يعلم أننى لم أقتل ، ولم أسرق ، ولن يكون . . وهو لن يتخلى عنى أبدا ؟ » .

وهمست ، فيما بينها وبين نفسها : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » !

وأقبلت على الحياة . .

استردت الكثير من هدوء النفس ، فبدأت فى تنظيم وقتها : دراستها ، وطعامها ، ونومها ، واستذكار دروسها . . وكان هذا كله قد تعرّض لخلل مدمّر ، خلال الأسابيع التى انقضت على تلك الليلة ، التى كانت تراها على بعدين متنا قضين تناقضاً أعجزها تفسيره :

فهى تراها . . كأنها الأمس ، أمس اليوم الذى تعيشه . .

وهى تراها . . كما لو أن سنين طويلة قد انقضت عليها !

١٠

الشهور تمضى . . وعائدة ماضية فى حياتها الطبيعية . .

أب لطيف أنيق ، رقيق ، كريم ، مهذّب ، واسع الأفق ، سليم الإدراك ، يفيض قلبه حبًّا وحنانًا نحو وحيدته « عائدة » وأمها . . وقد تعلّم ، وسافر ليستزيد من العلم ، وكان تخصصه الصيدلة ، فنال فيها درجة الدكتوراه من لندن ، وعاد وأسس صيدلية خاصة به ، أسفل المسكن الذى ورثه عن والده ، فى ضاحية « جاردن سيتى » . .

زوجه – والدة عائدة – ليست غريبة عنه ، فهى ابنة خالته ، أحبها وأحبته وهو طالب ، وتزوجها وهو طالب ، وأنجبا عائدة وهو طالب ، وكان ميلادها مقدم سعد على أبويها . . فقد كان والدها فى السنة النهائية من دراسة الصيدلة ، عندما رزقه الله إياها . وكان نجاحه بتقدير ممتاز ، فأوفد فى بعثة مجانية لإتمام دراساته العليا ، عاد بعدها ليبدأ حياته العملية بنجاح كبير . .

والدة عائدة . . سيدة تفيض رقة وعذوبة وحنانا ، وقد كانت زينة أسرتها وقطتها المدللة ، ولا تزال – وقد تخطت الأربعين بسنة واحدة – العروس الجميلة التى لا يرى فيها زوجها – والد عائدة – إلا عروسه الشابة التى تزوجها منذ نحو أربع وعشرين سنة ، وكأن دخوله بها كان فى ليلة الأمس فقط . . أمس اليوم الذى يعيشه !

كانوا دائماً أصدقاء ثلاثة ، وكان جمعهم – إذا اجتمعوا فى حفل ، أو دعوة ، أو عشاء ، أو أية مناسبة من المناسبات – ملفتا للأنظار ، كل الأنظار . .

فالأب – الدكتور محمود فهمى – تتمناه بنت الخامسة والعشرين – زوجا ، بالرغم من أنه شارف السادسة والأربعين . . فهو فارع الطول مهندم أنيق أناقة عالية خفيض الصوت ، عذب الحديث ، غزير العلم والمادة ، لا يشبع المستمع إليه مهما طال حديثه وتشعب . .

والأم – فوقية هانم – صورة مضيئة للأم التى رعت زوجها وابنتها وأعطتهما كل حياتها عطاء بلا حدود . . وهى دائما محط الأنظار ، وموضع الاحترام والتقدير . . وقد سافرت مع زوجها وابنتهما ، فطافوا ثلاثتهم بأجمل بلاد الدنيا ، فجمعت من هنا ومن هناك حصيلة ضخمة من التجارب واللغات والمعارف . وكانت – كزوجها – مركز الدائرة بين جمع السيدات ، فى أى مكان تحل به ، فتجتمع حولها صديقاتها ولا يتركنها إلا إذا حان موعد الانصراف . .

والابنة – عائدة – كانت دائماً قطعة الماس النادرة الثمينة ، التى تضوى بريقاً فوق المخمل الأسود اللامع ، خلف واجهة من البلّور الشفيف

المصقول . . فى حركتها ، فى حديثها ، فى نظرتها ، فى لفتتها ، فى إيماءتها . . وكان الناظر إليها - وهى تضع نظارة طبية رقيقة على عينيها أحياناً - يحار أمام هذا الحسن الفريد ، ولا يملك أن يقول لنفسه إنها - والنظارة فوق عينيها - أجمل ألف مرة منها عندما ترفعها عنهما . . فإذا رفعت النظارة عن عينيها ، أسرع يقول : « بل هى بلا نظارة أجمل ألف مرة . . من يستطيع أن يطيل النظر إلى هاتين العينين دون أن يصاب بإغماء » !

وهكذا يحار الناظر إليها فى جمالها ، الذى كالته السماء لها بغير حساب . فوجهها يبدو وكأن الله قد خلق كل قسمة من قسماته على حدة ، ثم صقله على حدة ، وجمّله على حدة ، وسوّاه على حدة . . وفى النهاية ضم هذه القسمات بعضها إلى بعض ، كل فى مكانه من الوجه ، فإذا بهذه الصورة الفريدة فى النهاية . . وجه عائدة ! .

وكان الجميع يطلقون على هذا الثالوث المفرح الجميل - عائدة ووالدها ووالدتها - الأسرة السعيدة . .

من كل هذا استمدت عائدة القوة والقدرة على أن تطرح خلفها الحادث الذى وقع لها ، محاولة ألا تتذكره حتى لا يعكر عليها صفو حياتها ، والامتحان على الأبواب . . .

* * *

إلى أن كان ذات يوم ، أحست فيه بأن الأيام تصالحها . . والزمن يصفو لها . . الدنيا تصيح بها ابتسمى يا عائدة . . طيبى نفساً ، واهدئى قلباً ووجداناً ! . . ذلك أن صحف الصباح اليومية الثلاث نشرت خبراً صغيراً فى صفحة الحوادث ، والخبر يقول :

« قررت النيابة العامة حفظ التحقيق فى الجناية الخاصة بمقتل الثرى عبد الحميد لطفى ، والتى وقعت فى شهر نوفمبر الماضى – حين وُجد المجنى عليه مقتولا بطعنة خنجر نافذة إلى القلب ، فى غرفه نومه ، بمسكنه بمدينة المهندسين – وذلك لعدم العثور على الفاعل . . وكان المجنى عليه قد اعتاد استدراج السيدات والفتيات ممن يعييهن العثور على سيارات الأجرة ، فيعرض عليهن حملهن بسيارته إلى حيث يردن . . وعندما تركب معه السيدة أو الآنسه ، يحتال على تخديرها ، ثم يسرع بها إلى بيته ويعتدى عليها . . وقد قيدت الجناية ضد مجهول » .

. . . .

عندما فرغت عائدة من قراءة هذا القرار ، أحست كما لو أنها كانت قطعة من المطاط ظلت زمنا تحت ثقل كبير ضاغط لايتزحزح ، فانكمشت طولا وعرضا وحجما وتكوينا ، ثم انزاح هذا الثقل عنها فجأة ، فانتفضت لتعود إلى حجمها الطبيعى ، طولا وعرضا وحجما وتكويناً . .

إنها تستطيع الآن أن تتنفس بحرية . . أن تتحرك بحرية . . أن تضحك بحرية وبملء قلبها ونفسها إحساساً بمتعة الضحك وانطلاقه ! . . تستطيع أن تأكل بنفس ، أن تتحرك بنفس ، أن تستذكر دروسها بنفس ، أن تلتقى بزميلاتها وصديقاتها كما كانت تلتقى بهن قبل هذا الحادث التعس ، والبسمة تشرق على شفتيها ، والفرحة تضيء عينيها ، وحب الحياة والإقبال عليها يزيدها جمالاً وشباباً وبهاء ونضرة .

وكان اليوم يوم خميس ، يوم طلعت الصحف بهذا النبأ ، وقد قرأته وهى تجلس مع صديقتها ناهد – على مقعديهما المتجاورين دائماً فى مدرج

المحاضرات — انتظاراً لدخول الأستاذ المحاضر . . وكانت « ناهد » هي التي وجهت نظرها إليه ، وهي تتصفح إحدى صحف الصباح :

— تصوري يا عائدة . . أتذكرين جريمة مدينة المهندسين ، التي أشاد الدكتور الريدي بتحليلك إياها منذ شهور ؟ . . لقد حفظتها النيابة ، لعدم الوصول إلى الفاعل !

وكادت عائدة تهتف صائحة : » الحمد لله ! » . . كادت كلمتا « الحمد لله » تنطلقان من بين شفتيها ، ولكنها تمالكت ، وتماسكت ، وضغطت أعصابها وهي ترسم ابتسامة على وجهها ، وتسأل صديقتها في هدوء : « حقيقي ؟ » .

قدمت ناهد لها الصحيفة ، وهي تقول : اقرئي . . هذا قرار الحفظ ! »

ولم تكد عائدة تنتهي من قراءته ، حتى دخل الأستاذ المحاضر ، فأعفاها دخوله من التعليق أو الأخذ مع صديقتها في حديث ، قد تنزلق فيه — على لسانها — كلمة مما لا يجوز أن تنفرج عنه شفتاها . .

إنها تخاف عقلها الباطن وتخشاه . . تخاف أن يتخلى عنها . . أن يغدر بها . . أن يغافلها فيدفع إلى لسانها — دون أن تشعر — بكلمة قد يكون فيها الكشف عما تخفيه عن الدنيا بأسرها . . وتتمنى لو استطاعت أن تخفيه عن نفسها . . حتى نفسها !

وبارحت الكلية — في ذلك اليوم — سعيدة ، فرحة ، خفيفة نشطة وجلست بين أبويها إلى مائدة الغداء ، دون أن تغير ثوبها ، الذي خرجت به صباحاً من البيت . . كانت جائعة ! . . وكانت تتصور أنها تستطيع أن تأكل خروفاً . . ولكنها ما كادت تشرب ملعقة من قدح الحساء الساخن

أمامها ، حتى أحست بالشبع . .

فرحتها بالنبأ – الذى قرأته متضمناً قرار النيابة بحفظ التحقيق فى مقتل عبد الحميد لطفى ، وقيد الجناية ضد مجهول – منحتها الإحساس بالشبع . . وهى تعلم أنه شبع كاذب . . هذا صحيح ، ولكنها تعلم أيضاً أنها ستأكل ، بعد أن يزول عنها أثر الانفعال الذى لازمها منذ قرأت نبأ حفظ التحقيق فى الجريمة .

قالت والدتها : « لم تأكلى ياعائدة ، مع أننى أوصيت الطاهى بالشركسية اليوم . . من أجلك ! » .

ابتسمت عائدة وهى ترسل لأمها قبلة صغيرة على الهواء ، عبر المائدة ، وتقول : « نظرة إلى عينيك يا ماما تشبعنى أكثر ، وتمتعنى أشهى من أى شركسية أو أى ألماسية !

وضحكت الأم ، وشاركها الوالد ضحكتها ، وهو يقول :

– لا يمكن ألاّ تأكلى يا عائدة فأنت متعبة ، وللتو وصلت من الكلية ، وأنت بالتأكيد جائعة . .

ثم قدم لها تفاحة حمراء نضرة ، من صحفة الفاكهة التى كانت بعيدة عنها ، عند طرف المائدة ، وهو يقول :

– مادمت لا تحسين الجوع الآن ، فلا أقل من أن تأكلى هذه التفاحة . . وإلى جانبها موزة أو موزتين ، إلى أن تحسي برغبتك فى تناول الطعام .

تناولت عائدة التفاحة من أبيها ، وهى تقول فى ابتسامتها العذبة : « شكراً يا بابا » . . ثم أضافت :

– ما رأيكما فى الآتى ؟ . . اليوم الخميس ، أعنى نهاية الإسبوع ،

فان غدا الجمعة – هل تمنحانى شرف دعوتكما الليلة إلى عشاء فى شرفة « شيراتون » المطلة على النيل ؟

ابتسم والدها وهو يقول :

– ولم لا نجعلها فى الدور العلوى ، لكى أرقص معك ومع « ماما » ؟

أفلتت عائدة التفاحة من بين أصابعها ، وصفقت بكفيها الصغيرتين فرحا وابتهاجاً ، وهى تقول : « صحيح ؟ » .

– تحت شرط واحد . . .

– إذا كان بابا سيرقص معى ، أو إذا كنت سأرقص أنا مع بابا ، فكل شروطه مجابة ، أمام هذه المتعة التى لا تطاولها متعة أخرى . . هات شرطك الواحد !

– الدعوة دعوتك ، هذا صحيح . . ولكن على أن تسمحى لى بشرف محاسبة المسؤول عن الخدمة .

– يا بابا . . ؟!

قالتها فى احتجاج مهذب رقيق ، ثم أضافت : « لم تحرمنى هذه السعادة ؟ » .

وكانت الأم ترقب المناقشة بين زوجها وابنتها ، بعينين تكاد الدموع تلمع فيهما . . إن السماء لم تعط امرأة زوجاً فى رقة زوجها وحنانه ، كما أنها لم تعط أماً ابنة فى عذوبة وشفافية ابنتها عائدة . .

أجاب الأب ابنته ، وقلبه يطل خلال عينيه : « أنا ؟ . . أنا احرمك سعادة ما يا عائدة ؟ ! . . لو سألونى بمَ تشترى السعادة لابنتك أو لأمها ، لأجبت بكلمة واحدة . . بعمرى ! » .

وهبت عائدة واقفة ، وقبلت خد والدها ، وهى تقول فى صوت طفلة : « ياحبيبى يا بابا ! » . . ثم أضافت :

– على أية حال . . المهم أنكما قبلتما دعوتى .

– وهل نملك إلا أن نقبلها ؟

– ولن نختلف على من منا يسدد الحساب . . أليس كذلك يا ماما ؟

ابتسمت الأم وهى تقول :

– الغريب يا عائدة أننى كنت على وشك أن أقترح على بابا ، أن نتناول عشاءنا الليلة خارج البيت !

وقبلت عائدة أمها ، وهى تقول : « يا حبيبتى يا ماما . . كأن كلاً منا تقرأ أفكار الأخرى » .

انعكس نبأ حفظ التحقيق على سلوك عائدة ، فبدت فى سعادتها كمن استطاعت أن تحقق المعجزة . . أن تتسلق الماء . . أن يتسلق جدران الدوامة العاتية ، التى كانت قد احتوتها فى متاهات المحيطات السبعة . . وعندما وصلت إلى السطح ، وجدت نفسها قريبة من الشاطئ ، والماء الهادئ يحملها مهدهدًا إياها ، إلى رماله الناعمة . . شىء كالحلم !

١١

الامتحان يقترب . . يبدأ بعد أسابيع ، ويستغرق شهراً . .

وهى واثقة بنفسها ، مؤمنة بأنها ستنجح بتقدير ممتاز ، وستتقدم بأوراقها – بعد ذلك – إلى الكلية التى احتضنتها طالبة ، لتعمل بها فى منصب « معيد » .

قالت لوالديها ، وهم حول مائدة العشاء ذات مساء : « لن أقبل أى عمل بعد نجاحى إلا فى كلية الحقوق ، فى وظيفة معيد » .

وقال لها والدها : « معنى هذا أنك مصممة على التخرّج بتقدير ممتاز ؟ »

— إن شاء الله !

ضحكت والدتها ، وهى تسألها : « — وإذا تفضلت وتنازلت عن هذا التقدير ، إلى ما دونه مباشرة ، أعنى جيد جداً ؟ »

— سأشتغل بالمحاماة . . إما فى منصب معيد فى كلية الحقوق حيث كنت طالبة ، وإما المحاماة إذا خاننى المجموع . . أما أية وظيفة أخرى . . فلا !

ابتسم والدها — وهو ينزع عن موزة قشرتها — ويقول :

— والله يا عائدة . . لو نجحت بتقدير ممتاز كما تقولين ، فستكون هديتى لك سيارة صغيرة جميلة . . وهذا وعد من بابا !

صفقت كعادتها للتعبير عن سرورها ، وهى تقول :

— مهما كانت صغيرة ، فستكون فى نظرى كما لو كانت « رولز » أو « كاديلاك » .

وقبلت والدها ووالدتها ، وهمت بالقيام عن المائدة . . ولكن والدها استبقاها وهو يقول : « اجلسى ياعائدة ، فإن عندى ما أقوله لك بحضور ماما » .

وجلست عائدة ، وبدأ والدها يتكلم . . وكان مختصراً ومفيداً :

— فى كلمتين ، زارنى — اليوم — الأستاذ زكى الرفاعى ، المدرس

بكلية الحقوق وسألنى يدك ، فاستمهلته لأسألك رأيك أولاً . . وبينى وبينك ، لأستفسر عنه ثانياً . . فما قولك فى هذا ؟

مطّت عائدة شفتيها ، وحارت صمتاً ، أو صمتت حيرة ، لا تدرى بم تجيب . . فقد كان العرض مفاجأة لها . وسألتها والدتها : « أتعرفينه يا عائدة ؟ »

ـ طبعاً يا ماما ، فقد كان مدرّسى .

ـ هل فاتحك برغبته هذه قبل ذلك ؟

ـ لم يفاتحنى قط ، وقد يكون هذا سر حيرتى أو دهشتى .

وتطوع والدها بتفسير هذا ، فقال : « عندما بدأ يحدثنى عن رغبته ، قال لى إنه لم يحاول أن يفاتح عائدة فى أى شيء ، بل إنه لم يحاول قط أن يعطيها الفرصة لأن تلحظ عليه اهتمامه بها ، فإن دقة موقفه بالنسبة لمكانه منها ـ مدرّس وتلميذته ـ ردته عن طرق هذا الباب . . لأنه رأى أن هناك باباً أقرب وأولى بأن يطرقه ، وهو أن يزورنى باعتبارى والدها ، ليطلبها منى . . ثم أضاف قائلاً

ـ هذا هو الطريق السليم يا دكتور محمود ، وقد سلكته .

وفى الحقيقة أننى أكبرت فيه سلوكه ، فهو كما يبدو ـ شاب جاد ، يطـرق البيوت من أبوابها كما يقولون . . ولكن القرار النهائى معلق بكلمة تقـولها عائدة ، قبولا أو رفضاً . . ربما أعجبنى أنا ـ مبدئيا ـ ولكنه قد لا يعجبها لأى سبب . . قد تستثقل ظله ، مثلاً . . »

سألتها والدتها : « ما رأيك يا عائدة ؟ »

أجابت عائدة ، ببطء من فوجئ فلا يستطيع أن يفصل فى أمر

ذى خطر بمجرد عرضه عليه :

– والله يا ماما . . إنه – ككلٍّ – لا بأس به .

وابتسمت وهى تنظر لأبيها ، وتضيف :

– لا أعرف عنه شيئاً أكثر مما يبدو لى ولكل من معى من طلبة وطالبات . .

ثم بعد لحظة صمت قصيرة ، أردفت :

– عائلته تهمنى جداً : مَن أبوه ؟ ومَن أمه ؟ كيف نشأ ؟ كيف تربى ؟ . . . التعلم لا يخلق « إنساناً » بمعنى كلمة الإنسانية فى شمولها الواسع . . فأنا وجميع زملائى وزميلاتى سمعنا أخبارا لا شك فى صحتها ، عن أستاذ – وأكرر كلمة أستاذ – هوايته الوحيدة الزواج . . فهو يتزوج ثم يطلق بعد شهور ، حتى بلغ عدد مطلقاته – فى سبع سنوات – تسع زوجات ، وهو يبحث عن العاشرة . . وهذا فى نظرى وفى نظر أى إنسان . . حيوان ! »

أجابها أبوها برفق : « إذا وافقت مبدئيًّا ، أعنى فى حدود رؤيتك اليومية له ومعرفتك به ، فاتركى لى الباقى ! »

أجابته ابنته فى هدوء : « اذا أسفرت تحرياتك عنه ، عن موافقتك وقبولك إياه زوجاً لابنتك ، فلا مانع عندى من قبوله . . وأرجو أن تتاح لى فرصة الجلوس معه – هنا فى البيت – أتحدث إليه وأسمع منه ، كما يتحدث إلىّ ويسمع منى ، حتى أعرفه أكثر . . ما رأى حضرتك يا بابا ؟ وما رأى حضرتك يا ماما ؟ »

أجابها والدها ، مؤيداً فكرتها :

– هذا اقتراح فى محله . . بمجرد أن أعرف عنه كل شيء، دون أن أرى ما يمكن أن يؤخذ عليه ، أخبركما – أنت وماما – وندعوه إلى عشاء معنا فى البيت ، وبعد هذا تكون الكلمة الأخيرة لك . .

* * *

جرس المسرة يئز – ذات صباح – فى مسكن الدكتور محمود فهمى . وتسرع « عائدة » فترفع السماعة، وإذا بأستاذها الدكتور الريدى يهنئها بنجاحها بتقدير ممتاز ، ثم يزفّ لها نبأ يعلم أنه سيسعدها كما لم يسعدها نبأ من قبل . . لقد رُشِّحت لمنصب « معيد » بكلية الحقوق ، وقد علم أن ترشيحها قد ووفق عليه بالإجماع ، وعليها أن تعدّ نفسها وتستعد بأوراقها ، حتى إذا انتهت إجازة الصيف وبدأت الدراسة ، كانت كل مستنداتها مستكملة . .

وأضاف الدكتور الريدى محدثا تلميذته : « علمت أن الأستاذ زكى الرفاعى تقدم لخطبتك ، وأنه فاز بهذا الشرف العظيم ، فهنأته بكل قلبي وقلت له : يا زكى . . إنك فزت بجوهرة ! »

وشكرت عائدة لأستاذها رقة مشاعره نحوها ، واخبرته معتذرة عن عدم دعوته فى حفل الخطبة – بأنه لم يكن – حفلاً بالمعنى المفهوم ، بل كان مجرد اجتماع عائلى صغير ، لم يستغرق أكثر من ساعة . . ولكنه – أى أستاذها – لن يكون مجرد مدعو كبقية المدعوين فى حفل زفافها . . بل إنه سيكون أحد شاهدى عقدها ، ليشرف وليبارك وثيقة زواجها بتوقيعه . .

هكذا قالت لوالدها ، الذى اعتبر هذا شرفاً كبيراً يمنحه الدكتور الريدى لابنته وتلميذته عائدة .

ولم يكد زكى يعلم بنبأ نجاح عائدة وترشيحها لوظيفة «معيــد» . . بالكلية ، حتى أسرع إليها مهنئاً ، دون أن يدرى أن أستاذه وأستاذها قد سبقه إلى هذا . . ولكن عائدة – من أدب مفرط ، وذوق أصيل ، ورقة مطبوعة ، وتربية عالية وإحساس عميق بما يجوز وما لا يجوز – لم تشأ أن تفسد عليه فرحته بأنه – كما يخيل إليه – أول من يحمل لها النبأ المفرح . فأخفت عنه أنها تعلم كل هذا من أستاذها ، وتقبلت تهنئته شاكرة ، وهى تقول ، إمعانا فى مجاملته :

– إنك « قدم سعد » كما يقولون يا زكى ، فلم تكد خطبتنا تتم حتى أعلنت النتيجة ، وإذابى أنجح بامتياز ، وأرشح للوظيفة التى تمنيتها .

وأكد هو هذه الحقيقة بقوله :

– ليس مجرد ترشيح وحسب يا عائدة ، فالمعلومات التى استقيتها من أوثق المصادر ، تقول إن ترشيحك قد ووفق عليه بإجماع لم يسبق له مثيل فى تاريخ الكلية ، وسيصلك خطاب التعيين فى خلال أسابيع .

– شكراً يا زكى

ثم فى ابتسامة رقيقة : « هذه بركاتك ! »

ولم يدع زكى الفرصة تفلت منه ، فالحديث مفتوح . . الموضوع الذى كان يحاول أن يخاطبها فى شأنه مطروح بينه وبينها ، ففيم التردد ؟

– اسمعى يا عائدة . . ما رأيك فى أن نتزوج خلال هذا الشهر ؟

– هذا الشهر ؟ !

– ولم لا ؟ . . نتيجة الامتحان أعلنت ، وقد نجحت بامتياز والحمد لله والذين يرشحون للوظيفة التى رشحت لها لا ينطبق عليهم قانون الخدمة العامة ،

لأنهم فى حكم المكلَّفين ، فلم نهدر أجازة هذا الصيف وكل منا بعيد عن الآخر ، محروم منه ؟ . . نستطيع أن نتزوج خلال هذا الأسبوع ، أو الأسبوع الذى يليه ، ثم نسافر إلى الإسكندرية ، فنمضى هناك ما شئنا من الوقت ، حتى موعد بدء الدراسة بالجامعات إذا شئت . ثم نعود فتتسلمين عملك ، ثم نستوفى معا أوراق ومسوّغات التعيين على مهلنا . . فكرى يا عائدة ! . . لم نضيع أشهر هذا الصيف الجميل بعيدين كل عن الآخر ؟

وأطرقت عائدة تفكر . .

هذا الرجل كله مفاجآت . . خطبته إياها كانت مفاجأة . . إعلان هذه الخطبة كان مفاجأة . . وها هو الآن يفاجئها برغبته فى أن تزف إليه خلال أسبوع أو أسبوعين ، وكانت تقدّر ألاّ يتم هذا قبل شهور . .

وأحس هو بأنها تدير شيئاً فى رأسها الصغير ، فأسرع يلاحقها :

— لا تحملى همّ شىء . . لقد وفقنى الله إلى « فيلا » رائعة ، خالية ، شاهدتها ، فأعجبتنى : وقد أعطيت البواب عشرة جنيهات ليرد عنها كل من يحاول مشاهدتها من الداخل ، بقوله إنها استؤجرت . . سأصحبك مع الوالدة اليوم ، بل الآن ، لتقولى رأيك فيها ، حتى إذا أعجبتك وقعت عقد استئجارها فوراً ، وبذلك نكون قد احتجزناها لحين عودتنا من الإسكندرية ، لنبدأ تأثيثها .

سألته وابتسامة على وجهها : « كيف وجدت مسكنا خالياً ؟ . . هذه معجزة » .

ضحك — سعيداً — وهو يقول :

– ربك يا عائدة . . ربك عندما يريد أن يسهلها ، فلا تسألى عن الأسباب !

هزت رأسها وابتسامتها العذبة تشيع بين قسمات وجهها ، وهى تقول :

– هذا صحيح . . عندما يريد الله أن يسهلها ، فعلينا أن نلغى كلمة « كيف » من اللغة . . أين هذا المسكن يازكى ؟

– فيلا رائعة عند أطراف مدينة المهندسين .

فى طرفة عين من الزمن ، أحست عائدة بوجهها يسخن ويحتقن ، وبأطرافها تبرد حتى تكاد تتجمد ، وبعرق غزير يبلل كفيها ، وقطراته تتساقط من بين أصابعها . . متناقضات غريبة ، حادة ، لا يمكن أن تجتمع قط إلا فى حالة اختلال أجهزة الجسم البشرى وغدده اختلالا مدمّرا ، يمكـــن أن يودى بحياة صاحبه . . وأحست بأعصابها تكاد تخونها فتتخلّ عنها . . ولكنها تماسكت ، وسألته فى هدوء :

– مدينة المهندسين ؟

– تصورى !

– أليست بعيدة ؟ . . أعنى منطقة بعيدة . .

– لا تبعد عن الجامعة – مقر عملنا – بأكثر من بضعة كيلومترات ، ونحن نملك سيارتين . . سيارتى وسيارتك التى سيهديك الوالد إياها هذا الأسبوع ، كما سمعت منه .

– وموحشة . .

– العمران يزحف هناك ، إلى كل شبر من الأرض يا عائدة . . اسمعى . . !

– نعم . .

– شاهديها أولاً ، وإذا لم تعجبك فلن نخسر إلا الجنيهات العشرة التى تقاضاها البواب . .

* * *

لم تحاول عائدة أن تطيل الجدل حول صلاحية هذا المسكن الذى يتحدث خاطبها عنه . . خيل إليها أنه قد يسألها : لماذا تخشين سكنى مدينة المهندسين ؟ . . هل تصورت أننى أعرض عليك سكنى « الفيلا » التى ارتكبت فيها الجريمة التى ظلت حديث الناس والصحافة أسابيع متواصلة ، فى شهر نوفمبر الماضى ؟ اطمئنى . . فأنا أعرف أنك بطلة هذا الحادث ، ولا يمكن أن أعرض عليك هذا المسكن لنبدأ فيه حياتنا السعيدة ! ! . . وأطرقت تفكر . . أيمكن أن يكون هو المسكن ذاته الذى . . ؟ !

ولم تجرؤعلى تكملة العبارة حتى فيما بينها وبين نفسها . .

نهار أسود . . مستحيل ! . . طبعاً مستحيل . .

ولكنها – مع ذلك – كان عليها أن تجاريه ، ما دامت الكلمة فى النهاية ستكون كلمتها دون غيرها ، فوافقته على أن ترى هذه « الفيلا » .

وحملتهما السيارة – ووالدتها معهما – إلى مدينة المهندسين . . إلى أطراف مدينة المهندسين . . انحرف زكى بالسيارة يميناً ، ثم يساراً ، ثم يمينـا . . ثم سار فى طريق مستقيمة مرصوفة – وكانت هذه الطريق قد رصفت خلال الشهور التى انقضت منذ ليلة الجريمة – إلى أن وقف بالسيارة أمام باب « فيلا » جميلة . .

« فيلا » جميلة حقيقة . .

وقالت الأم بإعجاب : « الله . . هذه فيلا رائعة . . حديقتها جنة ! »

وابتسم زكى وهو يقول لوالدة عروسه : « عندما تشاهدينها من الداخل ستزدادين إعجابا بها » .

نظرت عائدة إلى واجهة « الفيلا » ، وسألت نفسها : « هل تكون هى ؟ »

إنها لم تر واجهتها فى تلك الليلة الملعونة ، فقد كانت فى حالة غيبوبة ، عندما دخل بها عبد الحميد ، حاملا إياها فوق ذراعيه . . إنها تتذكر منظرها من الداخل ، كما تتذكر منظر باب الخدم المؤدى إلى الجزء الخلفى من الحديقة . . أما واجهتها ، فإنها لم ترها . .

تقدم البواب من زكى رافعاً يده إلى جبينه بالتحية ، قائلاً : « أهلا سعادة البك » .

أجابه زكى : « أهلا بك يا خليفة . . افتح فالهانم تريد أن ترى الفيلا من الداخل !

أسرع البواب نحو الباب والمفتاح فى يده . .

الأم نظرت إلى ابنتها ، وهى تقول : « المدخل جميل جداً يا عائدة . . أليس كذلك ؟ »

ولكن عائدة كانت تسير كالمسحورة . . كانت تبدو كالذين يسيرون نياماً ، فيبدون فى خطواتهم كالأشباح الهائمة . وأجابت بهمهمة غير واضحة . . وأدخلت ساعدها تحت ذراع أمها تتشبث بها ، كأنها تحتمى من . . تحتمى من ماذا ؟

لا تدرى . . إنها لا تدرى . . فهى خائفة . . من غيب

مجهول ، تشعر به ولا تراه . . بل إنها تكاد تراه ، وإن كانت لا تراه !

إنها لا تعلم – حتى هذه اللحظة – إن كانت هذه « الفيلا » هى بذاتها التى شهدت فيها ، وعاشت بين جدرانها ، أسوأ وأسود لحظات حياتها . . أم أنها « فيلا » غيرها . . إنها لا تدرى . .

أدار البواب المفتاح فى ثقب الباب المصنوع من خشب البلوط ، فى لون حبة البن المحروقة ، والمصمَّم على الطراز الإسلامى أو القبطىّ لا تدرى . . إنه يبدو كما لو كان باب مسجد ، أو باب كنيسة !

منظره لم يكن مريحاً للعين ، إن لم يكن قابضاً للنفس . .

ودفع البواب المصراع الأيمن ، وهو يقولُ للضيوف : « تفضلوا ! »

وأفسح زكى الطريق لعروسه ولوالدتها ، فتقدمتها الأم ، وتبعتها عائدة ، ووراءها زكى الذى راح يثرثر شارحاً :

– هنا المدخل . . وهنا قاعة المائدة . . وهنا قاعة الاستقبال . . وهذا الممر يؤدى إلى أربع حجرات . . اثنتان منها فى الناحية القبلية للشتاء ، والاثنتان الأخريان فى الناحية البحرية للصيف .

وكانت الأم تعلق – بين لحظة وأخرى – مبدية إعجابها الكبير باتساع « الفيلا » ، وجمال هندستها . . بينما كانت عائدة تهيم فى عوالم أخرى ، تكاد تهاويلها تصل بها – فزعاً – إلى حافة الجنون !

إنها « الفيلا » ذاتها . . فهذا المدخل بذاته تعرفه جيداً ، إذ تفحصته بنظرة عجلى ، لحظة أن جلجل جرس الباب ، وهى فى طريقها مع اللص إلى المطهى ، ليخرجها من الباب الخلفى ، المخصص للخدمة وللخدم . .

وقادهما زكى فى الممر الذى يفضى إلى الحجرات الداخلية ، وهو يقول :

– أعتقد أن هذه غرفة النوم الرئيسية . . تفضلى يا فوقية هانم . . تفضلى يا عائدة . . أتريان كم هى متسعة ورحبة ؟

ودخلت عائدة متشبثة بذراع أمها . . وخيل إليها أنها تعود بمعجزة ، إلى قاع الدوامة التى تدور بها فى متاهات المحيطات السبعة . . جدران الماء العالية المخيفة المظلمة تحوطها من كل جانب ، وتطبق عليها . . إنها لا تستطيع أن توقف دوران هذه الدوامة المخيفة . . لا تستطيع أن تتسلق هذه الجدران المفزعة . . هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟

إنها كمن يرى حوتاً هائلاً – فى ضخامة سفينة – يقترب منها ليبتلعها فى ظلام الماء . . كمن يرى أخطبوطاً بشعا ، مفزعاً ، مخيفاً ، مقبلاً نحوها . . ولن تمضى لحظات حتى ينقض عليها ليعتصرها بين أطرافه الرهيبة ، قبل أن يفترسها . .

واستعادت – للحظة – ذلك المنظر المروع الذى حفر فى ذاكرتها ، ولن تستطيع قوة أن تمحوه حتى تلفظ آخر خفقة من خفقات حياتها . . منظر هذه الغرفة بما كان فيها من أثاث وستر ، وطنفسة تكسو أرضها . . وفوق هذه الطنفسة يرقد « عبد الحميد لطفى » . . والخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط من حوله !

كل هذا وزكى يثرثر بمزايا الغرفة ، وأم عروسه تستمع إليه . . إلى أن التفت إلى عائدة يسألها : « أليس كذلك يا عائدة ؟ »

أجابته فى صوت كأنه آت من واد ضيق عميق ، لا نهاية له ، بين سلسلة من جبال شاهقة ، تخترق قممها السحب العالية :

– يخيل لى أنها قابضة للنفس . . غير مريحة !

ابتسم زكى وهو يقول : « غريب أنك شعرت بهذا ! »
سألته والدتها : « ولم ؟ . . أنا أيضا بمثل ما شعرت عائدة شعرت » .
– أقول لكما شيئاً . . هذه « الفيلا » قتل فيها صاحبها .
قالها وهو يضحك
وأطلقتها الأم بلا وعى : « يا مصيبتى ! ! »
وأكمل زكى حديثه : « قُتل فى هذه الغرفة بالذات . . كان يجب أن أخبركما ، إذ لا يجوز أن أخفى عنكما شيئاً » .
جاهدت عائدة لتبتسم ، وهى تقلد صيحة الأطفال المشهورة :
« يا مىّ »
وضحكت ، فى محاولة منها لإخفاء انفعالها ، وهى تقول :
– الغريب أننى أحسست ، منذ الوهلة الأولى ، برهبة غير عادية . . فالباب الخارجى يوحى – بمجرد نظرة إليه – بأنه يخفى وراءه أسراراً رهيبة !
ومطت شفتيها ، وهى تقول : « لنخرج بسرعة من هذه الغرفة المقبضة ، حتى لا نفاجأ بشبح صاحبها متسربلا بأكفانه ، يسألنا ماذا نصنع هنا . . هيا بنا يا ماما ! »
وخرج ثلاثتهم من الغرفة ، إلى الممر الذى يؤدى بهم عائدين إلى ردهة المسكن . . ومن ردهة المسكن ، لاحت منها التفاتة إلى جهة المطهى ، فسألت ، محاولة أن تغلف صوتها بكثير من عدم الاهتمام : « هنا المطهى ؟ »
وتصور زكى أنه قد يستطيع إثارة اهتمامها من جديد ، فيقنعها بقبول هذا المسكن ، فقال لها : « مطهى ممتاز والله يا عائدة . .

متسع ، مريح ، مجهَّز بالأرفف الغائره فى جدرانه ، والأبواب تحجبها وتحميها . . تفتح وتقفل بالانزلاق داخل الجدران ، على عجلات صغيرة ، حتى لا تزحم من يكون بداخله عند فتحها أو غلقها . . بابه يفضى إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ليسهل الخدمة . . يعنى من كله . . تعالى لمشاهدته ! . تفضلى يا فوقية هانم ! »

وتقدمهما نحو المطهى ، ثم أفسح لهما الطريق لتتقدماه . . فدخلت الأم ، ثم تبعتها عائدة . . وراح زكى يثرثر من جديد . . الأم تستمع له ، وعائدة تدور بعينيها بين أرجاء المطهى ، الذى وقفت بين جدرانه نصف دقيقة ، فى ظلام تلك الليلة المروعة ، عندما تركها اللص ليحضر لها حقيبة يدها وقد نسيتها فى حجرة الجريمة . . نصف دقيقة مر بها كأنه دهر بأكمله !

راحت تدور بعينيها ، فاستعرضت مكوناته الثابتة . . جدرانه ، نافذته العليا ، أبواب الأرفف الغائرة فى الحوائط ، والمفاتيح النحاسية بارزة منها على أبعاد متساوية . .

ثم الباب . . من هذا الباب تسللت مع اللص ، فى تلك الليلة ، التى يبدو لها أن أحداثها ستظل تطاردها إلى نهاية عمرها . . وإلا ، فكيف أمكن لخاطبها أن يصل إلى هذه « الفيللا » — هذه « الفيللا » بالذات — ليقترحها عليها مسكناً تبدأ فيه حياتها معه ؟ !

وجاءها التفسير فى الحال . . التفسير جاءها من خاطبها ، فقد سمعته يقول لوالدتها :

— لا أخفى عليكما يا فوقية هانم . . هذه « الفيللا » لم يسكنها أحد ،

منذ مقتل صاحبها بداخلها ، فى شهر نوفمبر الماضى . . حوالى ثمانية أشهر . فقد أخبرنى البواب أن كل من سمع بهذا الحادث أحجم عن سكناها ، مهما كان متحمساً فى البداية . . وأنتما تعرفان أزمة السكن الخانقة .

وأضاف زكى ، بعد لحظة : « كان حادثاً مشهوراً ، أفاضت الصحف فى ذكر تفصيلاته فى حينه . . وكانت بطلته امرأة من نوع معين ، أتحرّج من ذكر صفته فى حضرتكما ، صوناً لحيائكما . . كما أنها كانت من محترفات الجريمة ، فقد سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض نفائس أخرى لا تقل قيمتها عن ألفين آخرين » .

وسألته الأم : « أذكر أننى قرأت شيئاً كهذا فى الصحف . . هل قبضوا على القاتلة ؟ »

أجابها زكى : « المدهش أن المحققين ورجال المباحث لم يهتدوا إليها حتى اليوم . . ولا أظن أنهم سيتمكنون من هذا ! » .

سألته عائدة فى هدوء « ولمَ ؟ »

– كانت فى منتهى الحرص ، فلم تترك أية بصمة تقود إليها . . ولما أعياهم البحث دون جدوى ، حفظوا التحقيق فى الجناية ، لعدم العثور على الفاعل ، وقُيِّدت ضد مجهول . . . وما دام التحقيق قد حُفِظ ، فقد مات الموضوع تقريباً » .

ثم توجه بحديثه إلى عائدة : « لعلك قرأت أنباء هذا الحادث ، فى حينه ، يا عائدة ؟ » .

أجابت بصوت كسلان ، لا يعبر عن شىء : « أذكر شيئاً كهذا » . وبلا وعى منها قالت ، وهى تشير إلى الباب المؤدى إلى الجزء

الخلفي من الحديقة : « إلى أين يفضي هذا الباب ؟ »

أجابها بسرعة : « إلى الجزء الخلفي من الحديقة . . ويمكن زراعته بالخضر ، التي تغنينا عن شرائها من السوق . . فهي مساحة لا بأس بها » .

وأدار المقبض النحاسي المستدير ، وجذب الباب إليه ، فإذا بالحديقة أمام أعينهم . .

تقدمت عائدة نحو الباب ببطء . . ثم خرجت ، وهبطت الدرجات القليلة المؤدية إلى الحديقة . .

لحظات هائلة عاشتها ، وهي تتلفت حولها . . إلى جدران « الفيللا » . . إلى الحديقة . . إلى السور المحيط بها . . إلى الباب الذى مرقت منه إلى الخلاء الواسع ، فى تلك الليلة المخيفة ، ويدها فى يد اللص ، حرصاً منه على ألاّ تتعثر قدمها فى الظلام . . إلى أن وصل بها إلى العمران .

وظنها زكى تستعرض الحديقة وخضرتها وجمالها ، وهيأ له الوهم أنها راجعت نفسها فاقتنعت بصلاحية « الفيللا » لسكناهما ، فسألها : « هل غيرت رأيك ؟ »

جاهدت عائدة لتنسج ابتسامة على شفتيها ، وهى تقول :

– سأكتب إلى شركات السينما الأمريكية ، التى تخصصت فى إنتاج أفلام « فرانكشتين » ، مقترحة عليها تصوير أحد أفلام هذه الشخصية الأسطورية فى هذه « الفيللا » . .

وضحك زكى . . وفهم أن عروسه تعتذر بلطف عن سكنى هذه الدار

* * *

وهم ينصرفون من حديقة « الفيللا » ليستقلوا السيارة ، عائدة بهم إلى « جاردن سيتى » ، قالت الأم :

– أنا شخصيا ، لا أرى ضرورة لأن تبحثا عن مسكن . . فإن شقتنا فى « جاردن سيتى » مؤلفة من تسع حجرات . . المبانى القديمة الفاخرة . . خشب القرو يغطى جدران الغرف إلى أكثر من نصف ارتفاعها . . حمامان فاخران ، ومطبخان واسعان ، وشرفات طويلة عريضة ، تطل على رؤوس الأشجار من جهة ، وعلى النيل من الجهة الأخرى . . فلم لا تقيمان معنا ؟ . . شقتنا أكبر وأوسع وأرحب من شقتين . . بلد ، كما يقولون . . ثم إنكما ستكونان فى عملكما أثناء النهار ، فمن سيرعى شئونكما ، ويصبح مسئولاً عن المنزل فى غيابكما ، وأزمة الخدم أصبحت تنافس أزمتى المواصلات والإسكان بعد أن فتحت المدارس والجامعات للجميع !

وكان الرأى سليما ، والفكرة لامعة ، والاقتراح فى محله وفى أوانه . . والأب – الدكتور محمود – والأم – فوقية هانم – شديدا التعلق بابنتهما الوحيدة . . وكان أكثر ما يشفقان عليها منه ، أن تتعرض لمتاعب الإقامة فى مسكن خاص بها : من الوحدة ، وندرة الخدم ، والحيرة فيمن يشرف على هذا المسكن بالمعنى الكامل لكلمة الإشراف . . فلم يكد الدكتور محمود يستمع لاقتراح زوجته ، حتى صفق – على طريقة ابنته – معجباً به ، متحمساً له ، وقال :

– غدا أصحبك يا عائدة – وماما معنا – إلى « يونتر يمولى » لتختارى أثاث أجمل غرفة نوم تليق بعروس مثلك ، لنؤثث به إحدى الحجرات المطلة على النيل . .

وابتسم الوالد وهو يضيف

– وإن كان صعباً أن نعثر على ما يليق بك . . ولا عند «كريجر» في باريس !

ابتسمت عائدة ، وهي تقول لأبيها : « شكراً » .

– وهذه الغرفة ستكون هدية مني ،لا يناقشني زكي بشأنها . . هذا إذا لم يكن يضايقك أو يضايق زكي أن تقيما معنا . . ماما . . وأنا .

انتقلت عائدة من مكانها ، لتجلس على ركبتي والدها ، ولتضم رأسه إلى صدرها ، ولتقبله وهي تقول في صوت تقطر البسمة منه : « شكراً يا بابا . . أنت لا تستطيع أن تتصور – ولاماما تستطيع كذلك أن تتصور – مدى الهم الذي كنت أنوء تحت ثقله ، كلما فكرت في اليوم الذي أترككما لكي أعيش وحدي ! » .

بادلها والدها قبلتها ، وهو يقول في حنان بالغ : « لم أكن لأتركك لتقيمي وحدك أبداً . . وكنت أعدها لك مفاجأة ، ولكن ماما سبقتني وضيعت علي سعادة هذه الفرصة » .

وانتقلت عائدة لتجلس على ركبتي والدتها تضمها إلى قلبها ، وتقبل شعرها الفاحم الغزير ، الذي ورثت ابنتها إياه مع بقية مفاتنها .

وقام الدكتور محمود عن مقعده وهو يقول لزوجته ولابنته : « لحظة واحدة . . عائدة لها عندي هدية صغيرة ، سأعود بها من غرفتي بعد نصف دقيقة ! » .

وبارح الوالد الحجرة ، تاركاً زوجته وابنته في حيرة من أمر هذه الهدية الصغيرة ، التي يتكلم عنها . . ولم تكد عائدة تسأل والدتها :

« أية هدية يا ماما ؟ » . . حتى عاد والدها ، وبين أصابعه حلقة أنيقة من الفضة ، تضم مفتاحين صغيرين ، قدمها لابنته وهو يقول :

– مفتاحا سيارتك يا عائدة . . سأصحبك عصراً إلى وكيل الشركة المنتجة ، لتتسلميها بنفسك ، ولتقوديها بنفسك ، لأننى لم أشأ أن يقودها غيرك قبلك . . ولا حتى أنا . . مبروك !

وهبت عائدة عن ركبتى أمها ، تصيح والفرحة تهزها من أعماقها : « بابا . . » .

وارتمت فى حضنه تقبله . . بينما قال :

– لم أشأ أن أهديك إياها وأنت طالبة ، حتى لا يُنْظر لك فى الكلية نظرة معينة ، كفانا الله شرها . . إلى جانب أن والدتك كانت تخشى عليك من الحسد . . اسأليها ، هى التى طلبت منى تأجيل تقديمها لك إلى ما بعد أن تتخرجى ، خوفاً عليك من العين . . وقد كان فى نيتى أن أقدمها لك بمجرد حصولك على الثانوية العامة والتحاقك بكلية الحقوق . .

وابتسم الوالد ، وهو يضم ابنته إلى صدره . .

– لا أعرف كيف أقول لك شكراً .

– لا تقوليها . . فأنا – وما ملكت يداى – ملك لك . . ولهذا المَلَك الذى أهدانى إياك !

وأومأ مشيراً إلى زوجه الجالسة ، تضع ساقاً على ساق ، كملكة على إمبراطورية مستقلة ، ذات سيادة ، لها علَم ، ولها نشيد . . .

زوجها كان دائماً العَلَم ، وابنتها النشيد .

١٢

فى حديقة فندق « البوريفاج » فى الإسكندرية ، لاحت « ماجدة » عاملة التليفون ، وهى تلوح من بعيد مشيرة إلى عائدة ، التى كانت تجلس بجانب زوجها زكى ، أمام مائدة صغيرة عليها أقداح الشاى . .

واقترب أحد القائمين على الخدمة من زكى وعائدة ، وهو يقول :

– مصر على التليفون تطلبكما يا زكى بك ، وهاهى الآنسة ماجدة تشير إليكما لتسرعا !

وأسرعا معاً إلى حجرة التليفون . . وكان الدكتور محمود وفوقية هانم على الجانب الآخر عبر الأسلاك . .

تلقت عائدة من والدها أنباء سارة . . فقد وصل خطاب اختيارها وتعيينها معيدة بكلية الحقوق ، وتسلمه نيابة عنها ، وسمح لنفسه بأن يفضه ، فقد يكون فيه ما يوجب سرعة التصرف . . وقد صح تقديره ، فإن الكلية تطلب من عائدة أوراقاً عددتها ، وهى قائمة معروفة لكل من التحق أو سيلتحق بخدمة الدولة ، تبتدئ بشهادة الميلاد ، وتنتهى بشهادة تحقيق الشخصية . . وبين الشهادتين أكثر من شهادة ، وأكثر من وثيقة ، وأكثر من مستند .

وأخبرها والدها بأنه لم يشأ أن يزعجها ، ولا أن يقطع عليها وعلى زكى شهر عسلهما السعيد ، فتولى استخراج كل هذه الشهادات المطلوبة ، ولم يبق إلا شهادة تحقيق الشخصية ، وهى الوحيدة التى لا يملك أن ينوب عنها فى استخراجها ، لأنها تستوجب وجودها بشخصها لأخذ بصماتها . .

وطلب منها ومن زكى ألا يقطعا إجازتهما ، فإنها تستطيع أن تبقى فى الإسكندرية حتى قبل بدء الدراسة فى الجامعة بأيام ، ثم تعود على مهلها ، لتستخرج الشهادة . . ولن يضيرها أويعوقها عن بدء عملها ، إذا قدمت الأوراق تنقص ورقة واحدة ، مع تعهد بتقديمها فى أجل قريب . .
وقال لها أيضاً إنه التقى – فى اليوم السابق بأستاذها الدكتور الريدى ، الذى قال له إنه لن ينسى ما عاش – وإن عاش ألف سنة – تلك اللحظة النادرة ، عندما دعى – من بين كل المدعوين لشهود زفافها – ليوقع شاهداً على وثيقة زواجها . . أحس الدكتور الريدى أنه يوقع وثيقة زواج بنت من بناته !

* * *

أمضت عائدة فى الإسكندرية الأسابيع المتبقية على بدء افتتاح الجامعة ، ثم عادت مع زوجها إلى القاهرة .

فى اليوم التالى لوصولها ، توجهت إلى كلية الحقوق لتحية زملائها وزميلاتها وأساتذتها ، ثم توجهت إلى الموظف المختص بتسلم الأوراق التى كلفت بأحضارها . فاستقبلها استقبالاً حاراً ، حافلاً وهو يقول :

– مبروك يا أستاذة عائدة . . كلية الحقوق شرفت والله العظيم ، شرفت بتخريج حضرتك ، ولهيئة التدريس أن تفتخر بضمك إليها . .

وأحست عائدة بالخجل يبهظها ، فهمست فى حياء :

– شكراً يا أستاذ فكرى . . أشكرك من كل قلبى .

وراح يؤكد مشاعره نحوها بقوله :

– لقد كان الإجماع رائعاً على اختيارك معيدة من معيدى ومعيدات

الكلية . . لم يعترض عضو واحد من أعضاء المجلس على اختيارك بل كان إجماعاً . . كان إجماعاً بالإجماع والله العظيم ! .

وابتسمت عائدة للتعبير الغريب . . إنها - لأول مرة - نسمع عن إجماع بالإجماع . . لو أن هناك إجماعاً بالإجماع ! . . لعله حماس الموظف المختص ، ورغبته الصادقة فى التعبير لها عن فرحته بنجاحها الباهر ، وباختيارها لوظيفة لا يقع الاختيار على من يشغلها إلا بعد أن تتوفر له ، وفيه ، شروط صعبة ومعينة . .

واتسعت ابتسامة الأستاذ فكرى ، وهو يقول :

- أنا فى خدمتك يا أستاذة عائدة . . الكلية كلها فى خدمتك . . مرى بما تشائين !

- العفو يا أستاذ فكرى . . إنما جئت لأقدم الأوراق المطلوبة .

- فوراً . . هذا ملف أعددته لك منذ شهر والله ، انظرى هذا اسمك مكتوب عليه . . الأستاذة عائدة محمود فهمى . . هل الأوراق معك ؟

- معى يا أستاذ فكرى . . هاهى ذى فى هذا الظرف ، ولو أنها فى الحقيقة تنقص مستنداً واحداً . .

ابتسم الأستاذ فكرى وهو يقول : « أعرفه . . إنها شهادة تحقيق الشخصية . . يسمّونها الصحيفة الجنائية ! » .

ابتسمت عائدة وهى تقول : « كيف عرفت أنها المستند الوحيد الناقص ؟ »

- لست وحدك التى أحضرت أوراقها تنقصها هذه الشهادة بالذات . .

- صحيح ؟

– إجراءات تصعد بروح الإنسان إلى أنفه ! .
– لست وحدى إذن . .
– كثيرون غيرك مثلك .
– والعمل ؟
– لا يهمك . . سأتسلم منك هذه الأوراق ، وسأعطيك إيصالاً بها ، ولا يبقى إلا شهادة الصحيفة الجنائية ، وشهادة التخرج « الليسانس » . وهذه الأخيرة لست مسؤولة عن التأخير فى تقديمها ، مادامت الكلية لم تسلمك إياها بعد ولن يكون هذا قبل شهور . .

وضحك الأستاذ فكرى من قلبه ، وهو يقول فى ثرثرة الإنسان المتوكِّل :

– « س » سؤال : لماذا يتساهلون فى عدم تقديم شهادة تخرج ؟ . « ج » جواب : لأنهم – أعنى الكلية – جهة إصدارها ، ويعرفون أن العيب عيبهم ، وأن التأخير منهم . . « س » سؤال : فلماذا إذن يتشددون ، إذا كان التأخير متعلقاً بغيرها من المستندات ؟ . . « ج » جواب ، لا جواب . . ! » .

وضحكت عائدة ، وشاركها الأستاذ فكرى الضحك ، وهويقول :

– على مهلك يا أستاذة عائدة ، ولا يهمك . . إنك ستحضرينها يوماً ما ، هذا ما لاشك فيه . . فهل طارت الدنيا . . أم طارت الدنيا ؟ !

وتناول منها الشهادات والمستندات التى كانت تحملها ، وراجعها مقارناً إياها بقائمة الحصر التى أمامه ، وسلمها إيصالاً بالاستلام ، فشكرت له رقته البالغة ، ثم ودعته ، وهو يقول من قلب صاف : مع السلامة يا أستاذة عائدة . . مع السلامة .

ثم بينه وبين نفسه ، وهى تبتعد : « آه . . يارب يامنى يابنتى . . يارب أعيش حتى أراك مثل الأستاذة عائدة . . ليس بكثير على الله يا ابنتى . . ليس بكثير على الله ! » .

* * *

عائدة زينة كلية الحقوق . .

ليس بين هيئة التدريس وحسب ، بل بين الطالبات والطلبة ضمناً . . فهى تقارب الكثيرين والكثيرات منهم ومنهن سنًّا . .

الكل يحبها ويحترمها ، ويسعى إلى مودتها ، وإلى الإعراب عن حبه لها وتقديره واحترامه إياها . . وهى ، بلطفها ورقتها وشفافيتها ، استطاعت أن تجمع الجميع حولها . .

وكان زوجها – وهو ضمن أعضاء هيئة التدريس – محسوداً ، لأنه كان أسبق الجميع إليها ، ففاز بها !

وعائدة تؤدى عملها سعيدة بلا حدود ، فهى لا تزال تفيض شباباً ، وصحة وعافية ، وحماساً ، وإقبالاً على الحياة . . وهى ترى أن تحققٌ ذاتها ، وتثبت لطلبتها ولأساتذتها أن اختيارها معيدة كان اختياراً صائباً ، وفى محله ، وأنها أهل لهذه الوظيفة . . وقد حققت فى شهور قليلة ، ما صممت على تحقيقه منذ وضعت قدميها على مدخل المدرج – لأول مرة – لتعيد على الطلبة المحاضرة التى سبق للأستاذ المحاضر أن ألقاها .

وعائدة بحكم تربيتها منذ طفولتها – وقد تعودت النظام والترتيب ودقة المحافظة على المواعيد – عملت على أن تقسم وتنظم أوقاتها خلال ساعات اليوم ، بليله ونهاره . . فاستطاعت أن توفق بين عملها والتزامها

نحوه من جهة ، ونحو زوجها وأبويها من جهة ثانية . .

كانت تعيش ملء شبابها وجمالها وآمالها . . ملء صحتها وعافيتها ونشاطها وعنفوانها . . كانت تعيش ملء حياتها جميعاً ، طولا وعرضاً ، بين زوج يحبها وتحبه ، وأبوين يتمنى كل من يراهما لو كان ابنا لهما أو لو كانا أبويه . .

وفى ذات يوم ، مر الأستاذ فكرى بأعضاء هيئة التدريس الجدد ، الذين عينوا مع عائدة — أو الذين عينت عائدة معهم — ورجاهم ضرورة استكمال الشهادة التى تنقص أوراق كل منهم بلا استثناء . . وهى شهادة الصحيفة الجنائية ، فوعدوه بأنها ستكون على مكتبه خلال أسبوع ، واتفقوا فيما بينهم على أن يلتقوا فى الحادية عشرة ، من صباح اليوم التالى ، فى حجرتهم الخاصة فى الكلية ، ثم ينتقلوا جميعاً إلى إدارة تحقيق الشخصية ، للانتهاء من هذه المهمة . . ومن يملك منهم سيارة ، فليحمل معه من الزملاء أو الزميلات من لا سيارة له . . والتقوا فى الموعد المتفق عليه — ضحى اليوم التالى — وتوجهوا معاً فى سيارتين ، كانت سيارة عائدة واحدة منهما ، وانتهوا من المهمة فيما لا يزيد على نصف الساعة . .

وفى طريق عودتهم إلى الجامعة ، دعتهم عائدة لتناول شراب مرطب ، مع قطعة من الحلوى ، فى مقصف الطابق الأسفل لفندق « شيراتون » . . ثم عادوا إلى الكلية ، حيث انصرف بعضهم إلى عمله . . وعاد بعضهم إلى بيته ، لأنه لم يكن لديه عمل فى ذلك اليوم . . وكانت عائدة من هذا البعض .

١٣

عائدة ، عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

قبل حلوله بأسبوع ، قال لها أبوها :

– هذا أول عيد من أعياد ميلادك ، يحل بعد زفافك وتعيينك معيدة فى الكلية ، التى أمضيت فى مدرجاتها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك . . ولهذا يجب أن نحتفل به احتفالاً حافلاً . . سألتها والدتها : « أتحبين أن نقيم هذا الحفل هنا فى البيت ؟ . . أم فى مكان آخر ؟ . . أحد الفنادق الكبرى مثلاً ؟ »

ابتسمت عائدة . . وكان زوجها زكى يستمع إلى الحديث صامتاً ، وهو يبتسم دون أن يعلق بكلمة واحدة . . إن والدى زوجته يقترحان حفلاً لا تقل تكاليفه عن مائتين أو ثلثمائة جنيه . . رقم يحدده عدد المدعوين ، إذا أقيم فى أحد الفنادق الكبرى ، كما تقترح والدتها . . « مريديان » مثلاً ، أو « هيلتون » ، أو « شيراتون » . . وهذه لغة لا يحسن التعامل بها . . فأحس بأنه يجب أن يكون مستمعاً فقط . . أن يكون مستمعاً ، وليس أكثر من مستمع . .

وأجابت عائدة والدتها : « والله يا ماما . . أنا لا أحس بأننى على سجيتى وراحتى الكاملة – فى مثل هذه المناسبات – إلا هنا . . فى بيتنا ! »

ابتسم والدها وهو يقول :

– الاختيار متروك لك يا عائدة .

– أنا شخصياً أفضل البيت .

– خلاص يا محمود ! . . .

قالتها الأم ، ثم أضافت : « كما تحبين يا عائدة . . سنقيم الحفل هنا ، وسأوصى هيلتون أوشيراتون أو مريديان – أيها يقدم لنا خدمة أسرع وأسهل – بإعداد كل شيء وإحضاره يوم الخميس القادم . . كم عدد مدعويك ؟ »

هزت عائدة كتفيها فى طفولة عذبة ، وهى تقول :

– لا أدرى يا ماما . . ولكنى بالتأكيد – إن شاء الله – سأدعو الدكتور الريدى وحرمه .

ابتسم والدها ، وهو يقول مدللا إياها :

– لا تفوتك شاردة من الذوق ياعائدة !

ردت عائدة التحية إلى والدها : « تربيتك يا بابا ! »

ولكن الوالد أشار إلى زوجه ، وهو يقول :

– بل تربية « ماما » فهى أم الذوق كله . . احصرى عدد مدعويك ، وأخطرى ماما به . .

ثم بابتسامته العذبة تحول إلى زوجه قائلاً :

– وأنت يا « ماما » . . أضيفى إلى هذا العدد ما يساوى عشرين فى المائة منه احتياطاً .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

اليوم خميس . . ولا محاضرات عليها أن تعيدها ، بعد أن يلقيها الأستاذ المحاضر ، غير محاضرة واحدة ، موعدها الحادية عشرة ظهراً ،

تعود بعدها إلى البيت .

في الصباح الباكر ، قبلها والدها ، ورشق في صدر ثوبها رصيعة[١] منمنمة من البلاتين ، يتوسطها فص من الماس ، وهويقول لها : « كل سنة وأنت طيبة ! »

وقبلتها والدتها ، وعلقت بأذنيها قرطين ، وحول عنقها عقداً . . وكان القرطان والعقد توائم الرصيعة ، فأصبحت القطع الأربع طاقماً كاملاً متماثلا ، لا يبيعه أى جوهرى إلا صفقة واحدة .

عائدة أدركت هذا من نظرة . فهى خبيرة بهذه الأشياء الثمينة الجميلة ، وخبرتها من خبرة والديها . . فلمعت الدموع فى عينيها ، وأمها تقبلها قائلة : « كل سنة وأنت طيبة يا عائدة ! »

ثم قبلها زكى – زوجها – وقدم لها قارورة عطر فاخر ، كانت قد شاهدتها مرة خلف واجهة أحد المتاجر الكبرى ، وأحس لحظتها أنها ضمن عطورها المفضلة ، فاشتراها فى اليوم التالى ، وحفظها فى درج مكتبه بالكلية ، إلى أن يحين عيد ميلادها ليقدمها لها . . وكان يعرف أنه بعد أيام . قدم لها زجاجة العطر الفاخر ، وهو يقول : كل سنة وأنت طيبة ! »

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم . . الرابع من مارس

ومنذ السابعة مساء ، بدأ المدعون يتوافدون على الدار . . لم يزد عددهم على نحو الخمسين ، بين رجل وسيدة وفتاة ، من الأقارب والأقرباء والأصدقاء ، والزملاء والزميلات . .

---

(١) الرصيعة أى « البروش » – « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور

كانت عائدة فى استقبالهم . . والأم ترحب بهم . . والأب يحيي ويجامل ويبتسم ، سعيداً بابنته - وحيدته - يدعو لها من قلبه دعوات آباء الدنيا بأسرها لبناتهم وأبنائهم . . .

ثم انفرد بالدكتور الريدى - أستاذ ابنته ، وشاهد عقد زواجها - وراح يتحدث إليه حديث القلب للقلب ، فهو يعرف مدى حب هذا الرجل لابنته ، وتقديره واحترامه إياها ، كما يعرف كيف تبادله ابنته صدق هذه المشاعر . .

وأشارت الأم إلى ضيوف ابنتها - وقد اكتمل عددهم - لينتقلوا إلى موائد الشاى الصغيرة الأنيقة ، المتناثرة بذوق عالٍ فى بهوين واسعين متصل كل منهما بالآخر . . حول كل مائدة أربعة مقاعد . . وفى الصدر مائدة طويلة ، طويلة ، طويلة . . صفت فوقها ألوان الحلوى ، والفاكهة وعصيرها ، والفطائر والشطائر والمملحات ، وغيرها وغيرها مما يحار فيه الضيف ، وقد وقف خلف هذه المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، ستة شبان فى ثياب مُنَشَّاة أنيقة ، لخدمة الضيوف . . ما على الضيف إلا أن يشير إلى ما يريد ، فيسرع أحد هؤلاء الشبان إلى ملء صفحة بكل ما يريد ، يقدمها له . .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس

وقفت أمام كعكة كبيرة تتوسط المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، وقد رشق فى سطحها أربع وعشرون شمعة صغيرة ، تشير إلى أربع وعشرين سنة تتمها عائدة من عمرها اليوم . . وكانت الشموع من لون واحد . .

اللون الأبيض .

كأنها عروس . . كأن عائدة عروس فى ليلة زفافها !

تقدم والدها فأشعل الشموع الصغيرة ، وأشار لأحدهم ليطفئ نور البهو ، فإذا بالظلام يحيط بالجميع ، ولهب الشموع الصغيرة يتراقص ، فيعكس ظلال الحاضرين — المحيطين بعائدة — على جدران البهو وما به من قطع الأثاث وموائد الشاى المتناثرة . . وإذا بهذه الظلال تتمايل وتتكسر ، ثم تعتدل وتستقيم ، فوق كل ما انعكست عليه ، مع نسمات الهواء الرقيقة ، التى كانت تعبث بلهب الشموع . .

وارتفعت أصوات الحاضرين بالأغنية الإنجليزية المعروفة :

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لعائدة . .

« عيد سعيد لك ! »

وانحنت عائدة على الشموع فأطفأتها ، والجميع يصفقون . .

وأضيئت أنوار البهو ، وعاد الضيوف — كلٌ إلى مكانه — يحمل صحفة ملأى بما اختاره مما على المائدة الرئيسية الطويلة ، الطويلة ، الطويلة . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

راحت تمر بضيوفها حول الموائد الصغيرة ، لتسأل إن كانت تستطيع أن تقدم شيئاً لأحد منهم ، فكانوا جميعاً يسألونها أن تجلس معهم قليلاً ، وكانت تحقق لهم رغبتهم وهى تبتسم فى حياء شديد . .

وكانت والدتها تقوم بذات المهمة بين حين وحين ، ثم تعود لتجلس إلى قرينة الدكتور الريدى ، التى صحبته إلى حفل عيد ميلاد أقرب تلميذاته إلى نفسه . .

وكان زوجها زكى يجلس مع والدها والدكتور الريدى ، وقد راحوا يتحدثون فيما يتحدث عنه الناس ، فى مثل هذه المناسبات . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

فجأة تسلل أحد الخدم إلى البهو ، واقترب من الدكتور محمود – والد عائدة – وانحنى على أذنه ، وهمس بشيء لم يسمعه غيره ، فقام من فوره مستأذناً الدكتورالريدى وزوج ابنته . . كان هناك ضيف يريد أن يراه ، فقام ليرى الضيف .

فى غرفة الانتظار الصغيرة ، القريبة من باب المسكن ، وجد الدكتور محمود نفسه – وجهاً لوجه – أمام ضابط من ضباط الشرطة برتبة المقدم . . وهبّ الضابط واقفاً بمجرد أن دخل عليه ، وقدم له نفسه :

– أستأذن فى أن أقدم لك نفسى يا سيدى . . أنا المقدم فاروق الحسينى ، من قوة مباحث القاهرة .

أجابه الدكتور محمود فى أدب ملحوظ :

– أهلا بك يا سيادة المقدم . . تفضل . . اجلس !

جلس الضابط وهو يسأل الدكتور محمود :

– هل سيادتك الدكتور – صيدلى – محمود فهمى ؟

– أنا محمود فهمى

– والد السيدة عائدة فهمى ؟ . . أقصد عائدة محمود فهمى . المعيدة بكلية حقوق جامعة القاهرة ؟

– أنا محمود فهمى . والسيدة عائدة ابنتى الوحيدة ، وهى بالداخل مع ضيوفها تحتفل بعيد ميلادها . . هل أستطيع أن أعرف طبيعة المهمة التى من أجلها تشرفنى بالزيارة ؟ . .

– سيدى الدكتور . . إننى فى شدة الأسف ، لأننى – بيقين – قد سبّبت ، وسأسبّب لكم ولكريمتكم إزعاجاً بزيارتى هذه . .

– تكلم يا سيدى . . أرجوك .

أخرج الضابط من جيبه ورقة مطوية ، بسطها وقدمها للدكتور محمود وهو يقول :

– معى أمر من النيابة العامة باستدعاء السيدة عائدة فهمى .

انعقد حاجبا الدكتور محمود ، وانفرجت شفتاه من دهشة مفاجئة ، وهو يقول : « نيابة ؟ ! »

– لأخذ أقوالها . .

– فى أى شيء؟

– لا علم لى يا سيدى .

– سيدى . . أرجوك . . لاتنس أننى أب ، فأرجو منك أن تتكلم . . أستطيع أن أعتبرك فى حكم أخ أصغر لى ، فأرجو منك أن تتكلم !

– أقسم لك . . لو علمت ما أخفيت عنك .

همس الدكتور محمود باسم وحيدته : عائدة ؟ ! »

– أعتقد أنه خير إن شاء الله . . هى موجودة كما قلت لى سيادتك ؟

– موجودة طبعاً ، وليس هناك – مطلقاً – ما يدعو لإنكار وجودها . . هل أستطيع أن أستأذنك لأنهى لها الخبر ، فتستعد فى دقائق لنصحبك إلى النيابة ؟

– بلا أى شك . . تفضل يا سيدى

وبارح الدكتور محمود حجرة الانتظار الصغيرة ، تاركاً فيها الضيف الغريب المفاجئ . . ولم يفته – وهو يتجه إلى مكان الحفل – أن يأمر أحد الخدم بأن يقدم له قدحاً من الشاى وبعض الحلوى . .

وعاد إلى البهو – مكان الحفل – وأشار لابنته – من بعيد – إشارة لم يلحظها أى من المدعوين أو المدعوات ، لتتبعه ، فاستأذنت ممن كانت تتحدث إليهم ، وتبعت والدها إلى غرفة مكتبه . .

غرفة المكتب هادئة لا تصل إليها ضوضاء المدعوين . .

وعندما أغلق الدكتور محمود بابها – بعد أن دخلت عائدة – أصبح الهدوء صمتاً مطبقاً . .

الغرفة لا تضم غيرهما . . الوالد وابنته .

فى لمحة عين ، قرأت الابنة فى وجه والدها شيئاً أقلقها ، وإن لم يخطر لها أن هذا « الشيء » قد يتعلق بها . . فسألته فى قلق ظاهر : « أبى . . ماذا هناك ؟ »

أشار إلى أحد المقعدين أمام مكتبه ، وهو يقول لابنته : « اجلسى يا عائدة ! »

وجلس هو على المقعد المقابل لمقعدها . .

أحست بقلقها يتضاعف ، فعادت تسأل والدها :

— بابا . . هناك شئ ما بكل تأكيد . . أرجو منك أن تتكلم !

سأتكلم بطبيعة الحال يا عائدة ، وإلا ما استدعيتك . . ولو أنى أعتقد أن هناك خطأ ما . .

—ما الخبر ؟

— فى حجرة الانتظار الصغيرة ، يجلس الآن ضابط من ضباط المباحث العامة ، يحمل أمراً من النيابة باستدعائك . .

* * *

فجأة أحست بحلقها يجف . . بغصة تكاد تخنقها . . بالغرفة — بكل محتوياتها — المكتب ، المقاعد ، النوافذ ، الستر ، السقف بما يلتصق بأركانه الأربعة ، وبما يتدلى من وسطه من مصابيح كهربية . . الجدران بالصور الثلاث الكبيرة المرسومة بالزيت ، والمعلقة عليها — صورتها وصورة والدتها على الجدار المقابل لوالدها عندما يجلس خلف مكتبه — ثم صورته هو شخصياً فوق رأسه ، على الجدار الذى خلفه . .

أحست — بل رأت — كل هذا يدور ويدور ، ومع كل خفقة من خفقات قلبها ، تزداد سرعة الدوران . .

ولكنها تماسكت ، وبذلت جهداً خارقاً ، لتقول فى همس يكاد يكون آتياً من قاع المحيط : « النيابة ؟ ! »

إن والدها لا يعلم شيئاً عما تخفيه ابنته . . خاطر واحد خطر له ، فتصوره الاحتمال الوحيد الذى يمكن أن تستدعيها النيابة بسببه لسماع أقوالها ، فسألها :

— هل صدمت شخصاً ما بسيارتك — مثلا — وأصيب إصابة بالغة ،

ولهذا يريدون استجوابك ؟

انهارت عائدة فجأة . . لمعت فى عينيها دموع خائفة . . ارتعدت شفتاها – وهى تقاوم مقاومة هائلة – لتتحكم فى حركتهما ، وقد فقدت السيطرة عليهما تماماً . . وبدأ كيانها الصغير الدقيق يهتز انفعالاً . .

ونظرت إلى والدها . . واجهت عينيه وقد أتسعت عيناها ، فى نظرة صريحة واضحة صادقة ، تزفها الدموع ، وكأنها تقول : « حان الوقت لأقول لك كل شيء » .

وأحس الأب بأن هناك شيئاً أكثر وأكبر مما تبادر إلى ذهنه ، فسألها واللهفة فى عينيه ، والاهتمام فى صوته ، والقلق يرسم خطوطه الحادة على وجهه :

– عائدة ! . . ما بك يا حبيبتى ؟ تكلمى !

انفجرت باكية . . فقام عن مقعده ، ووقف بجانب مقعدها ، وأخذ رأسها بين ذراعيه ، وهو يمسح بكفه على شعرها حانيا . . ثم انحنى على جبينها يقبله وهو يقول : .

– لا تنزعجى يا عائدة . . قولى لبابا كل شئ وأنت مطمئنة !

وأخرج من جيب الصدر منديله الأبيض الناصع ، فقدمه لها لتلتقط فيه دموعها ، ولتزيلها عن خديها . .

عاد فجلس على مقعده المقابل لمقعدها ، وهو يسألها :

– هل تفضلين أن تستمع ماما معى لحديثك فأدعوها ؟ أم نؤجل هذا لوقت آخر ؟

– بل أفضل أن تكون معنا الآن . . لقد أخفيت مأساتى عنكما معا . .

فإذا ما فرضت على الظروف إعلانها . فيجب أن يكون إعلانها إليكما معا . .

– وزكي ؟

– زكي ، أرى أن يصحبنا إلى النيابة ، ليستمع إلى القصة أمام المحقق . فإنني يجب أن أقف على سلوكه عندما يستمع إليها ، فعلى ضوء هذا السلوك قد تتحدد حياتي معه . . .

ازداد القلق وضوحاً على وجه الوالد ، وهو يسأل ابنته :

– هل الأمر خطير إلى هذا الحد يا عائدة ؟

– ادع والدتي دون أن تستلفت نظر أحد من ضيوفنا المدعوين ، لأقص عليكما القصة ، وسأترك لك الحكم على مدى خطورتها .

ثم أضافت بعد لحظة صمت قصيرة :

– أنا شخصياً مجني عليّ ولست جانية . . والنيابة لا تعرف الحقيقة !

. . . .

ونهض الدكتور محمود ، فبارح غرفة مكتبه ، ثم عاد بعد دقائق تصبحه زوجته .

ومهد الزوج للموضوع ، حتى يهيء زوجته لاستماع شيء قد يزعجها قليلاً . . ثم بدأت عائدة تقص القصة على والديها بكل حذافيرها . . بكل أمانة ، بلا اختصار . . بلا حذف . . بلا بتر . . بلا خجل ، فهي لم تأت بإرادتها أمراً تخجل منه .

وفي النهاية ، أكدت أنها لم تترك أي أثر يمكن أن يقود إليها . . لم تترك بصمة ، لم تترك شعرة ، لم تترك زفرة من زفراتها . . والصحف جميعها

أجمعت – فى حينها – على أن المحققين لم يعثروا على أى أثر ، وأن المتهمة لم تترك أية بصمة يمكن أن تقودهم إليها ، إلى جانب أن بصماتها غير محفوظة – بداهة – ضمن محفوظات القلم الجنائى ، بين بصمات أصحاب وصاحبات السوابق ، حتى يمكن مضاهاتها بالبصمات الملتقطة من مكان الجريمة . . إذا كان لها بصمة فى مكان الجريمة .

وأطرقت برأسها ، وهى تقول فى همس :

– هذه هى القصة كاملة . . ولقد اكتشفت – الآن فقط – أننى ارتكبت خطأ فادحا ، لأننى لم أطلعكما عليها فى ليلتها . . ولكنى لم أكن أدرى ماذا أقول ؟ ! . . ماذا أفعل ؟ ! . . كيف أتكلم ؟ ! . . كيف أتصرف ؟ ! . . كيف أفزعكما – ولا أقول أزعجكما – بحادث مروع كهذا يقع لى . . ورأيت أن أتحمله وحدى فى صمت ، وقد شجعنى على هذا ، التأكيد المتواصل فى الصحف على أن القاتلة المزعومة – التى هى أنا – لم تترك أية بصمة من بصماتها فى مكان الجريمة .

وشدت عائدة قامتها ، وشهقت شهيقا عميقاً ، فملأت بالهواء صدرها ، وهى تقول : « أقسم لك يا بابا . . »

أسرع فرفع كفه أمام وجهها بلطف ، وهو يقول :

– لا تقسمى فأنت صادقة ، والأمر واضح ، والقصة عادية ومألوفة ، ويمكن أن تقع لزوجة أو ابنة أو شقيقة المحقق الذى سيحقق معك . . إننا – مع الأسف المحزن الشديد – نعيش هذه الأيام حياة الغاب . . فنحن نقرأ فى كل يوم عن مثل هذه الحوادث . . احتيال أى رجل على أية سيدة لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليغتصبها ، الفرق الوحيد بين رجل

ورجل ، أن أحدهما يصل إلى غايته بهدوء ، مثل ما كاد يحدث فى حالتك ، والآخر لا يرى حرجاً من استعمال العنف والقسر والضرب ، الذى يصل أحياناً إلى استعمال السلاح . . سكين مثلاً !

وأطرق الدكتور محمود قليلاً ، ثم قال لابنته فى إحساس بالغ بالقهر مما جرى لها : – « إن هذا اللص الذى أنقذك – فى اللحظة الأخيرة – قد جنبك عار الأبد ! » .

– لقد قلت له هذا .

– هو لص باعترافه . . هذا صحيح ، ولكنى – مع ذلك – أراه أعفّ من السيد الذى أراد أن يغتصبك وأنت تحت تأثير المخدر . . أعفّ ألف مرة !

– قالها فى نفسه . . نظر إلى الجثة غارقة فى دمائها تحت قدميه ، وقال : أنا لص ، هذا صحيح . . ولكنى أشرف منه ألف مرة » !

مط الدكتور محمود شفتيه وهو يقول فى حيرة من يكاد الذهول يذهب بعقله :

– مثل هذا الرجل لا يعف عن اغتصاب امرأة ميتة . . فالمخدَّرة فى حكم الميتة !

– هذا صحيح .

– شيئان يا عائدة آخذهما عليك . .

– أنى ركبت مع رجل غريب ؟

– هذه واحدة . .

– حذّرنى اللص من تكرارها ، وقال لى بالحرف الواحد : لو اطلعك

من يدعوك إلى ركوب سيارته على بطاقته الشخصية ، وقرأت أمام خانة المهنة أنه نبي ، فلا تركبي معه ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيچو » أو « المرسيدس » .

– هو على حق .

– والثانية ؟

– أنك لم تخبريني بالحادث فى ليلتها ، كما قلت الآن .

– لم أجد الشجاعة .

– أستطيع أن أقدر هذا . . ولكنك لو كنت قد قلت لى ، لذهبت بك إلى النيابة فى نفس الليلة ، لتروى لمن سيستمع لأقوالك كل القصة – كما رويتها لى ولوالدتك الآن – ولا تنهى كل شيء فى ساعتين . .

ودق ركبتها بكفه ، وهو ينهض واقفاً :

– هيا بنا . . وأعتقد أن وجود الدكتور الريدى معنا سيكون ضرورة ملحة ، فأنت بحاجة لمحام كبير ليحضر التحقيق . . وسأروى له القصة باختصار ونحن فى السيارة .

وسألته زوجته : « وزكى ؟ »

– سيأتى معنا بطبيعة الحال . . هذا موقف لا يمكن أن يخفى عنه ، حتى لا يتصور أن زوجته آثمة ، وأنها لهذا تخفى إثمها عنه . . يجب أن يسمع ما سيجرى فى غرفة التحقيق كلمة بكلمة ، فإن عائدة تريد أن تضعه أمام الحقيقة كاملة ، لأنها تعتقد أن حياتها قد تتحدد معه فى ضوء سلوكه عندما يستمع إلى القصة .

وربت كتف ابنته ، وهو يقول : « – هيا بنا يا ابنتى حتى لا يتصور

الضابط الذى ينتظرنا ، أننى أحاول أن أهربك من الباب الخلفى للمسكن . مثلاً ! »

خرجوا من غرفة المكتب ، وسؤال واحد يعربد بضراوة فى رأس عائدة ، تحاول عبثاً أن تجد له إجابة مقنعة شافية : كيف وصلوا إليها بعد مرور نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول ؟

على أية حال . . إنها ليست هاربة من جناية ارتكبتها . . إنها لم ترتكب جناية ما . . إنها مجرد شاهدة . . بل إنها نصف شاهدة ، فهى لم تر الجريمة وهى تُرتكب . .لقد افاقت من غيبوبة المخدّر – فى تلك الليلة السوداء – فوجدت أمامها من يقول لها إنه لص أنقذها وخلصها مما كان سيحيق بها من عار ، فشكرت له مروءته ، ثم خرجت معه دون أن تعرف عنه شئياً ، ودون أن يعرف عنها شيئاً . .

حتى اسمه – اسم اللص – لم تعرفه . .

وحتى اسمها ، لم يعرفه اللص . .

والسؤال الصعب الذى لا تجد له إجابه مقنعة شافية ، لا يزال يدق جدار رأسها معربداً فيه بضراوة : كيف وصلوا إليها بعد نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول . .

كيف وصلوا إليها ؟ ! . . كيف ؟ ؟

١٤

عندما اكتشفت الجريمة – ليلة وقوعها – تحوّلت الغرفة التى كانت مسرحاً لها ، إلى خلية نحل . . المسكن بأكمله تحول إلى خلايا نحل دائم الطنين ، لا يهدأ . .

رجال الشرطة يؤدون واجبهم . . يسألون ويستفسرون . . ولم يكن هناك من يسألونه . أو يستفسرونه غير خليفة البواب ، وحافظ عبد الرحيم صديق المجنى عليه ، الذى جاء لزيارته بعد محادثة تليفونية تمت بينهما . . وهما اللذان أبلغا عن وقوع الحادث .

رجال المباحث يطوفون بالمنطقة بحثاً واستقصاء . . يعاينون المسكن الذى ارتكبت فيه الجريمة . . يعاينون ويمسحون كل شبر فيه ، حجراته . . أبوابه ، نوافذه ومنافذه ، حديقته وبابيها ، باب الواجهة الكبير المصنوع من الحديد المطروق المزخرف الفاخر . . والباب الخلفى الصغير ، وهو الذى خرجت عائدة منه مع اللص ، ليلة الجريمة .

رجال تحقيق الشخصية . . بعضهم يمسك بالعدسات المكبّرة ، يحاول أن يستظهر بها أية بصمة تركتها القاتلة على أية قطعة من قطع أثاث الغرفة . . بعضهم يحمل آلات التصوير بالغة الحساسية ، لالتقاط أية بصمة قد تكشف العدسات المكبرة عنها بعد أن تغطى بمسحوق الألومينيوم الذى يساعد على وضوح ظهورها على ورق التصوير . .

وانتقلت خلية النحل – بعد نحو ثلاث ساعات – من مسرح الجريمة ، إلى دار النيابة العامة ، ليبدأ التحقيق . .

إن أقرب جار لمسكن المجنى عليه ، يبعد عنه بما لا يقل عن خمسمائة خطوة . . ولم يكن من المجدى سؤال أهل هذه الجيرة ، ولكن المحقق بالرغم من ذلك ، لم يشأ أن يترك شاردة تفوته فى التحقيق . .

هكذا تعلم فى كلية الحقوق . . إنه قد يصل من ثقب الإبرة إلى أوسع الآفاق

ولكنه عندما دق باب هذه « الڤيلا » – أقربها إلى مسكن المجنى عليه – فتحت له الباب طفلة فى نحو الثانية عشرة من عمرها . . واكتشف أن هذا المسكن لا يضم غير هذه الطفلة اليتيمة ، وجدّتها التى تحتضنها ، وهى سيدة فى نحو الستين . . وتقوم على خدمتها سيدة أخرى ، ربّتها ونشأتها هذه الجدة منذ طفولتها . .

ولم يكن هناك من يجوز أن يقود استجوابه لمفتاح الجريمة غير البواب ، وحافظ عبد الرحيم ، صديق المجنى عليه ، فعصرهما المحقق بأسئلته ، وحاصرهما بفنون من أساليب التحقيق وتوجيه الأسئلة . . ولكنه لم يظفر منهما – فى النهاية – بما يقنعه بأن أحداً منهما له يد فى الجريمة ، أو أنه – على الأقل – يستطيع أن يفيد التحقيق بأكثر مما أدلى به . . إنهما بريئان ، وهذه حقيقة لا شك فيها . .

ولم يكن المحقق شاباً تنقصه الخبرة والتجربة والدهاء – لحداثة تخرجه وممارسة المهنة – بل كان رجلاً حنكته التجارب ، وحقق مئات الجرائم ، وترافع أمام عشرات الهيئات القضائية أمام محاكم الجنايات ، مبتدئاً السلم من أوله حتى وصل إلى منصبه الحالى .. كان أحد وكلاء النائب العام الأوائل البارزين ، وليس أمامه أكثر من خطوة واحدة ليصبح رئيس نيابة . . .

قبل أن يختتم التحقيق فى تلك الليلة ، اتصل بالنائب العام فى بيته ، وأخبره بأنه يواجه موقفاً يرى ضرورة استشارته بشأنه ، وأنه يرجوه أن يتفضل بالحضور إلى دار النيابة . . فلم تنقض ساعة ، حتى كان المحقق مجتمعاً بالنائب العام فى مكتبه .

وبعد أن أحاطه إحاطة سريعة بالجريمة ، سأله النائب العام :

– ما المشكلة يا أستاذ فريد ؟

– سيادة النائب العام . . إن الشاهد حافظ عبد الرحيم – صديق المجنى عليه – قال فى التحقيق إن صديقه اتصل به تليفونيــاً ، ليخبره بأن الفتاة التى تمناها طويلا ، ورصد كل تحركاتها وتنقلاتها شهوراً ليوقع بها ، قد وقعت أخيراً ، وإنها – وهو يكلمه – راقدة فى فراشه مخدَّرة .

– وبعد ؟

– ومن بين ما قاله له ، إنه لا يعرف عنها شيئاً . . حتى اسمها لا يعرفه ، لأنه لم يكن يهتم إلا بجسمها ، ولاشيء غير جسمها . .

– وبعد ؟

– ثم قال إن كل ما عرفه عنها إنها طالبة بكلية الحقوق .

وضع النائب العام كفيه على مكتبه فجأة ، وهو يقول فى ذعر :

– طالبة بكلية الحقوق ؟ ! . . هذا فظيع . . هذا مؤسف ومحزن . . وبعد ياأستاذ فريد ؟ . . تكلم !

– إن مندوبى تحقيق الشخصية استطاعوا أن يلتقطوا بصمات الأصابع الخمس ليد الفتاة اليمنى : الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة على سطح حافة السرير . . والإبهام على جانب هذه الحافة من الداخل . . من

ناحية الوسائد ، واضح جداً أنها ارتكزت بكفها على هذه الحافة وهى تنهض من رقدتها ، بعد أن افاقت من أثر المخدر ، فانطبقت بصماتها عليها . .

– وبعد ؟ . . وبعد ؟ . . تكلم يا أستاذ فريد . . ماذا تريد أن تقول ؟

– لم نجد قرين هذه البصمات فى صحائف الحالات الجنائية .

– هذا يعنى أن صاحبة هذه البصمات . . لا سوابق لها .

– وهنا الصعوبة فى الوصول إليها . . ولهذا فإننى أرجو أن أقترح على سيادتكم الآتى . .

– تفضل يا أستاذ فريد . . تكلم !

– لن نذكر لمندوبى الصحف أننا عثرنا على أية بصمات فى مكان الجريمة .

– وما حكمة هذا ؟

– الجانية طالبة فى كلية الحقوق . . وهى بكل تأكيد ستأتى بقدميها ، بعد أن تتخرج ، لتستخرج صحيفتها الجنائية ، التى لا مفر لها من الحصول عليها ، لتقدمها للجهة التى ستعمل بها بعد التخرج . . وبطبيعة الحال ، لا مفر من مضاهاة بصمات كل من يطلب صحيفة حالته الجنائية بصحائف المطلوب القبض عليهم . . .

– معنى هذا أنك ستحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل ، إلى أن تتقدم الجانية بطلب استخراج صحيفتها الجنائية ؟

– سيادة النائب العام . . . نحن لا نستطيع أن نبحث بين طالبات كليتى حقوق القاهرة وعين شمس – وعددهن نحو أربعة آلاف طالبة –

فنلتقط بصماتهن جميعاً لمضاهاتها بالبصمات الخمس التى التقطناها من مكان الجريمة . . نحن نواجه كارثة خلقية يا سيادة النائب العام ، نواجه فضيحة تتعلق ببناتنا وتمسهن . . فضيحة لا أقول يحسن بنا بل يجب علينا أن نتكتمها فى أضيق الحدود ، ونحن بهذا نحاول أن نتفادى هزة عنيفة فى البلد ، يمكن أن يكون لها أسوأ النتائج . .

هز النائب العام رأسه فى أسى ، وهو يقول

– بكل أسف . . هذا كله صحيح .

– أكثر من هذا . .

– هات ما عندك . .

– إذا عرف وذاع أننا التقطنا بصمات القاتلة فى مكان الجريمة ، فإن المتهمة ستحجم قطعا عن استخراج صحيفتها الجنائية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ومعنى هذا أننا لن نصل إليها . .

– وتضحى بالوظيفة التى تعلمت من أجل الحصول عليها ؟

ضحك النائب المحقق وهو يقول :

– سيادة النائب العام . . إنها فى « خبطة » واحدة سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب جواهر ونفائس لا يقل ثمنها عن ألفين آخرين . . فهل تهتم مثلها بوظيفة تتقاضى عنها مرتباً شهرياً ، لا يزيد على واحد وعشرين جنيها بعد خصم الضرائب والتأمينات وغيرها وغيرها ؟

– معقول .

– هل تضحى بحريتها إذا سجنت ، أو بحياتها إذا حكم بإعدامها ، لتنال الوظيفة التى لن تنالها بحال ؟ . . إنها دارسة التدين ، وتعرف بداهة

أن البصمات التى تلتقط لمجهولى الشخصية فى مثل هذه الجرائم ، تحفظ فى إدارة خاصة ، إلى أن يضطر أصحابها لاستخراج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بهم فيكتشف أمرهم ، ويقبض عليهم فوراً .

– استمر يا أستاذ فريد . .

– إذا عرف وذاع أيضاً – عن طريق الصحف أو غير الصحف – أن المتهمة التى تبحث النيابة عنها من طالبات كلية الحقوق ، فإننا بهذا نحوِّل كل بيت ، كل أسرة بين أفرادها طالبة فى هذه الكلية ، إلى قنبلة زمنية لا مفر من انفجارها فى اللحظة الموقوتة لانفجارها ، لتدمر العلاقة بين البنت وأهلها . . سينظرون لها جميعاً على أنها بطلة الحادث الذى تناولت الصحف تغطيته بإسهاب ملحوظ ، نظراً لظروفه الشاذة ، ووسيلة المجنى عليه لاصطياد السيدات والفتيات . .

– هذا صحيح .

– كذلك . . أية فتاة من طالبات كليتى الحقوق – القاهرة وعين شمس – ستقرأ فى عينى أبويها وإخوتها وأخواتها ، وبقية أفراد أسرتها ، بل وجيرانها . . ستقرأ الاتهام فى عيونهم جميعاً ، ولو عن طريق الوهم إحساساً منها بأن الطالبة المتهمة زميلة لها . . أى أنه من الممكن أن تكون هى ، هذه الطالبة المتهمة . . ولم لا ؟ . . ومعنى هذا أننا سندمر العلاقة الأسرية الإنسانية بين أولئك الطالبات وذويهن .

اعتدل النائب العام فى جلسته ، وهو يقول لنائبه الأول :

– كل هذا جائز ومحتمل ، ومن المستحسن أن نتفاداه حقيقة . . وبعد ، فإنها حتماً ستقع يوماً ما ، وستجئ إلينا برجليها كتقديرك . .

– أتصرف إذن فى ضوء ما شرحت لسيادتكم ؟

– تصرف يا أستاذ فريد !

– بقيت نقطة أخيرة . .

– هاتها !

– أنا أميل للاعتقاد – مع شيء من التحفظ – بأن للفتاة شريكاً . . أو هى شريكة لثالث ، كان معها وقت تنفيذ الجريمة . .

– ولكن شهادة البواب تؤكد أن المجنى عليه دخل مسكنه ، يحملها على ذراعيه مغمى عليها ، وأنه – أى البواب – لم ينتقل من مكانه أمام الباب الخارجى للحديقة ، إلا عندما جاء صديق مخدومه واكتشفا الجريمة معا . . فمتى دخل هذا الثالث ؟ . . أعنى الشريك ، الذى تميل للاعتقاد بوجوده اثناء تنفيذ الجريمة ؟ . . من أين دخل المسكن ؟ . . ومتى ؟

– هذا ما يحيرنا جميعاً .

– « الڤيلا » . . لها باب خلفى ؟

– لها باب خلفى .

– هل تمت معاينته ؟

– بكل تأكيد . . ولم نجد على حافته أو مقبضه أية بصمة ، ولا أشك أبداً فى أن الفتاة وشريكها – إن صح اعتقادى بأن لها شريكاً – قد خرجت ، أو خرجا معا من هذا الباب الخلفى .

– هل وجدتم بصمات أخرى غير بصماتها ؟

– لم يكن هناك أية بصمات أخرى .

– أبدا ؟

– أبدا .

– ما الذى جعلك تعتقد إذن أنها لم تكن وحدها ؟

– آثار مقاومة فى الغرفة ، والفتاة مهما كانت قوية البنية ، فهى لا يمكن بحال أن تقاوم رجلا طويلا ، عريضاً ، فى وزن وحجم المجنى عليه . . إلى أن تقتله بخنجر .

ومرت لحظة صمت ، كان النائب العام خلالها يفكر . .

لعله كان يستعرض مئات الجرائم المشابهة لهذه الجريمة ، مما مر به خلال سنوات عمله الطويلة ، ليستخلص من هذا التشابه ما يمكن له أن يطبقه عليها . . ليصل إلى ثقب الإبرة الذى قد يفتح له أوسع الآفاق . .

وما لبث أن رفع عينيه إلى وكيله المحقق الجالس أمامه ، وقال له :

– أستاذ فريد . . أنا لا أستبعد ما تقول . . فقد علمتنى المهنة ألا أفاجأ أثناء أى تحقيق ، بأى شيء . . مهما كان هذا الشيء مخالفاً لتوقعاتى ، أو لرأى كوّنته وانتهيت إليه . .

– نحن متفقان إذن ، يا سيادة النائب العام .

– تصرف فى ضوء ما تداولناه الآن ، وإذا كان تقديرك سليماً – وهو سليم فيما أرى – فـاحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل . . وستجد رئيس وحدة فحص البصمات يدق باب مكتبك يوماً ، ليضع أمامك بصمات إحدى خريجات كلية الحقوق ، مطابقة للبصمات التى التقطها من غرفة الجريمة ، والمحفوظة لديه ضمن بصمات المطلوب القبض عليهم . ومن أقوالها تستخلص الحقيقة كاملة .

* * *

وتصرف النائب المحقق فى الجريمة ، فى ضوء ما انتهى إليه مع رئيسه بعدمناقشتهما الطويلة . . فحفظ التحقيق لعدم إمكان الوصول إلى الفاعل . ونشرت الصحف خبر هذا الحفظ . . وكان تركيز النائب – وهو يتحدث إلى الصحفيين – منصباً على أن الجانية لم تترك أى أثر يمكن أن يقود إليها بعد أن عجز مندوبو تحقيق الشخصية عن التقاط أية بصمة لها . .

كان التركيز على هذه النقطة مكثفاً ، مع تصريح من المحقق . للصحفيين بأن هذا ما يحيرهم ومادعاهم لحفظ التحقيق ، وقيد الجناية ضد مجهول . .

من هنا اطمأنت عائدة إلى أنها أبعد من أن يمكن الوصول إليها . .

وهى – بعد – ليست جانية . . ويوم ذهبت مع زملائها وزميلاتها . لتستخرج صحيفة حالتها الجنائية ، لم يخطر ببالها قط أنها استدرجت ، بكل هدوء وصبر ودهاء ، إلى المصيدة ! . . وإذا بها – وهى تحتفل بعيد ميلادها الرابع والعشرين – تفاجأ بمن يدق بابها ليستدعيها إلى دار النيابة العامة ، للتحقيق معها – وأدبا أو تأدبا – لسماع أقوالها ، بعد نحو ستة عشر شهراً من حفظ التحقيق وقيد الجناية ضد مجهول !

١٥

فتح المحضر ، وبدئ التحقيق . .

ذكرت عائدة اسمها ، وسنها ، وديانتها ، ووظيفتها ، وعنوان إقامتها ، واسم زوجها – وأشارت نحوه جالسا بالقرب منها – يقظاً مشدود الأعصاب ، متنبه الحواس . . ثم ذكرت اسم والدها ، وأشارت نحوه جالساً عن

يمينها ، واستأذنت لبقائهما معها إلى أن يتم التحقيق . . ولم يكن هناك ما يمنع ذلك ، فبقيا .

أما الدكتور الريدى ، فلم يكد يقدم نفسه للمحقق ، حاضراً التحقيق مع موكلته الأستاذة عايدة فهمى ، حتى قاطعه النائب المحقق :

– أستغفر الله يا دكتور . . لقد كنت من تلامذتك فى كلية الحقوق .

وبدئ التحقيق بسؤالها – سؤالاً مباشراً – عما إذا كانت تعرف شخصاً اسمه « عبد الحميد لطفى » . وهنا تدخل الدكتور الريدى مستأذناً فى كلمة .

– تفضل يا دكتور !

– إذا كانت النيابة تريد أن تسأل موكلتى ، الأستاذة عايدة فهمى ، عن مقتل المرحوم السيد عبد الحميد لطفى ، فإنها تستطيع أن توفر عليكم كثيراً من الأسئلة ، وأن تختصر ما قد يستغرقه التحقيق من أيام إلى ساعات . .

أجاب المحقق : « الواقع أن النيابة توجّه لها تهمة قتل المرحوم عبد الحميد لطفى . فقد عثرنا ليلة الجريمة على بصمات مجهولة على حافة السرير ، فى غرفة المجنى عليه . . وظلّت هذه البصمات محفوظة لدينا ، دون أن نعرف صاحبتها . . كان واضحاً من صغر حجمها أعنى مساحتها ، ودقتها – أنها لفتاة . . يؤيد هذا شهادة البواب ، الذى شاهد سيده يحملها ويدخل بها مسكنه ، ومحادثة تليفونية بين المجنى عليه وأحد أصدقائه . . وعندما ذهبت السيدة عائدة لتستخرج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بها ، بعد شهور من حفظ التحقيق ، فوجئ رئيس وحدة الفحص ،

بمطابقة بصماتها للبصمات التى التُقطت من غرفة الجريمة . . فوق حافة السرير الخاص بالمجنى عليه .

فجأة ، أحس الجميع بحركة المقعد الذى يجلس عليه زكى – زوج عائدة – وهو يقول ، فى صوت من فوجئ بلطمة غادرة :

– ما هذا الذى أسمعه ! ! . . زوجتى متَّهَمة بقتل وسرقة مال رجل كانت فى فراشه ؟ !

التفت الدكتور الويدى نحوه ، وهو يقول فى هدوء :

– أستاذ زكى . . أرجو منك أن تستمع ، وأن تملك أعصابك ، حتى لا تتسرع فتظلم زوجتك !

ثم اتجه للمحقق بالحديث :

– سيادة النائب . . . الأستاذة عائدة تستطيع أن توفِّر على النيابة الكثير ، كما قلت لسيادتك ، إذا استمعتم إلى القصة كاملة .

– والنيابة ترحِّب يا دكتور ريدى ، فليس لنا من هدف إلا الوصول للحقيقة ، والقبض على من ارتكب الجريمة . . تفضلى يا أستاذة عائدة !

ثم التفت إلى كاتب التحقيق ، وقال له : « اكتب يا سيد مسعود ! »

وروت عائدة القصة كاملة ، فى نحو نصف ساعة . . روتها من لحظة وقوفها فى شارع الجامعة بالجيزة ، تنتظر سيارة تعود بها إلى بيت أسرتها بعد أن استعارت كراسة المحاضرات من صديقتها وزميلتها « ناهد مؤافى » . . . إلى أن خرجت مع اللص من باب المطهى المخصَّص للخدمة ، ومنه إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ومن بابها الصغير إلى الطريق . .

وأنهت عائدة قصتها بقولها : « سيادة النائب . . أنا ضحية ، أنا مجنى

علىّ ولست جانية ، وإن كنت قد أخفيت القصة عن أهلى ، فلم يكن هذا الإخفاء إلاّ عن حرج ، وخجل ، بل وإحساس بالخزى عميق . . فلا شك أن عبد الحميد لطفى – وقد جرّدنى من ثوبى وأنا تحت تأثير المخدر – قد بدأ عبثه بجسمى . وإن لم يصل إلى غايته المخزية ، لأن اللص تصدّى له فى اللحظة الأخيرة ، فمنعه فصان عرضى ، وأنقذنى من عار الأبد . . سألها المحقق : « هل قتله اللص ؟ »

– لم أر شيئاً ، لأنى كنت تحت تأثير المخدّر .

– ألم تنتبهى لمعركة تدور فى نفس الغرفة ؟

– كنت مخدّرة ، فكيف أتنبه ؟

– ماذا قال لك اللص ، بعد أن أفقت من المخدر ؟

– قال : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة !

– هل رأيته يسرق شيئاً ؟

– منديل يد للمجنى عليه ، أظنه الذى كان مبللا بالمخدر . . كان ملقى قريباً من السرير

– هل كل ما سرقه اللص منديل يد ؟

– يبدو لى أنه كان قد فرغ من مهمته ، قبل أن أفيق من أثر المخدّر .

– ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

– قال وهو يتعجلنى ارتداء ثوبى : « ادخلى فى ثوبك بسرعة ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقا من أصدقائه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول » . . وفهمت أن الحديث كان عن طريق التليفون .

واجه المحقق عائدة ، وسألها : « أستاذة عائدة . . لو أنك تحققين هذه الجناية ، وأنا الآن أخاطب معيدة بكلية الحقوق . .

– تفضل !

– هل تصدقين المتهم ، إذا قص عليك القصة التى قصصتها علىّ الآن ؟

واجهته عائدة بشجاعة ، وغرست نظراتها فى عينيه ، وهى تقول فى صوت هادئ رزين ، فيه من الاعتداد بقدر ما فيه من أدب ، ومن إحساس صاحبته بأنها لم تعتد قط أن يشك إنسان فى صدق ما تقول .

– سيادة النائب . . أنا صادقة ، وقد قلت الحقيقة . . وخطئى الوحيد الكبير – بعد قبولى الركوب مع غريب لا أعرفه – أننى لم أخبر والدى ليلتها بما وقع لى ليصحبنى إلى هنا للإبلاغ عن الحادث فوراً . . ولو فعلت ، لانتهى كل شىء فى ساعتين . .

وهنا استأذن الدكتور الريدى ، فى إبداء ملاحظة ، وقال :

– سيادة النائب . . بعد أن أفاضت الصحف فى تغطية هذا الحادث ، حين وقوعه . طلبْت ممن تابع أنباء الجريمة من تلاميذى وشاقه التحقيق – إذا كان قد تابعه يوماً بيوم – أن يكتب تحليلاً . مستنتجاً دوافعها ، وظروفها ، والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة ، إذا كان مكانه خلف منصة القضاء . . أو تدرى يا سيادةِ النائب ماذا كتبت الأستاذة عايدة – فى هذا الموضوع . . وقد كانت ضمن تلامذتى ؟

– ماذا كتبت يا دكتور ؟

– كتبت القصة التى قصتها فى التحقيق الآن . . قالت إنها تقطع بوجود « ثالث » وقت ارتكاب الجريمة ، وإن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . وأعترف أننى أعجبت إعجاباً شديداً بمذكرتها ، وبوصولها إلى حصر التهمة فى شخص آخر ، غير الفتاة التى دخل المجنى عليه مسكنه حاملاً إياها على ذراعيه مخدّرة . . ولم أكن أدرى أنها كتبت التجربة التى عاشتها ، والتى تتضمن الحقيقة ، عندما قلت عنها – أقصد عن عائدة – إنها كما لو كانت فى الغرفة التى ارتكبت فيها الجريمة وقت ارتكابها . . وإنى لعلى استعداد لأن استأذنكم الآن لنصف ساعة ، أتوجه خلالها إلى مكتبى ، وأعود بالمذكرة مكتوبة بخط الأستاذة عائدة ومؤرخة بتاريخ معاصر لوقوع الجريمة . .

ونظر الدكتور الريدى إلى عائدة ، وهو يقول : « إنما أرمى بهذا لأن أؤكد أن موكلتى صادقة فى كل ما روت . . جملة وتفصيلاً » .

وقال له المحقق : « لا مانع عندى من أن أطلع على هذه المذكرة يا دكتور » .

قام الدكتور الريدى عن مقعده مستأذناً من الحاضرين ، واتجه نحو باب الغرفة ، وهو يقول : « لن تطول غيبتى أكثر من نصف ساعة ، فإن مكتبى فى شارع قصر النيل » .

وقبل أن يخرج الدكتور الريدى من الغرفة ، قام زكى – زوج عائدة – عن مقعده ، وهو يخاطب أستاذه السابق : « دكتور ريدى . . خذنى معك من فضلك ! »

والتفت إلى المحقق ، وإلى زوجته وإلى أبيها ، وهو يقول فى صوت

خيل لعائدة أنه ليس صوت زوجها : « عن إذنكم ! »
واندفع خارجاً – مع الدكتور – كالقذيفة الطائشة .

. . . .

عائدة توقعت أن الدكتور الريدى سيعود وحده . . وهمست لوالدها بهذا . . وحدث ما توقعته ، فقد عاد الدكتور الريدى بعد خمس وعشرين دقيقة ، ولم يكن زكى بصحبته . .

من ملامح الدكتور الريدى أدركت عائدة كل ما حدث . . كذلك والدها ، أدرك ما أدركته ابنته . .

كذلك أدرك الدكتور الريدى ، أن عائدة ووالدها قد أدركا كل شيء . . بلا كلمة واحدة ، ودون أن يفتح فمه بحرف واحد . .

إن زكى لا يستطيع أن يعاشر امرأته ، بعد كل ما سمعه من هول . . كان هذا موجز النبأ الذى قرأته عائدة كما قرأه والدها ، على وجه الدكتور الريدى . أما التفصيلات ، فلم يكن الوقت مناسباً ليقصها الدكتور الريدى على تلميذته الغالية ووالدها .

سأله المحقق – بمجرد دخوله غرفة التحقيق – إن كان قد أحضر المذكرة ، التى كتبتها عائدة عن الجريمة ، فقدمها له الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– ها هى ذى يا سيادة النائب » بخط عائدة ، وبتوقيعها ، ومؤرخة بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر من العام قبل الماضى . . والجريمة وقعت فى الثالث عشر من الشهر ذاته . . وعندما تقرأها سيادتك ، أعتقد أنك ستتفق معى فى الرأى . . فتاة وجدت نفسها فى مأزق قد يشير إليها –

اتهاماً - بجريمتين خطيرتين ، القتل والسرقة ، وهى بريئة منهما . . وعندما أتيحت لها الفرصة لتحليل هذه الجريمة ، كدارسة من دارسى القانون أو دارساته ، وجدت قلمها يجرى بالدفاع عن نفسها ، دون أن تدرى ، مدفوعة من عقلها الباطن بغريزة حب البقاء ، مسجلة أحداث الجريمة دقيقة بدقيقة ، وبصدق لا يمكن أن يشوبه أى شك . . تفضل سيادتك بقراءة المذكرة ، فقد تضيء لك الطريق إلى الحقيقة أكثر !

قرأ المحقق المذكرة فى دقائق ، وضمها للتحقيق ، مسجلا هذا فى المحضر ، ثم وجه لعائدة سؤالا محدداً :

- أستاذة عائدة . . إذا رأيت هذا اللص ، بين أربعة أو خمسة أشخاص ، فهل تستطيعين التعرف عليه وإخراجه من بينهم ؟

أجابت بسرعة ، دون تفكير : « طبعاً » .

- وإذا رأيت صورته ، بين مجموعة من الصور لآخرين ، فهل تستطيعين أن تشيرى إليه قائلة : هذا هو ؟

بالسرعة ذاتها أجابت ، وبدون تفكير : « طبعاً أستطيع ! »

ضغط المحقق زر الجرس إلى جانبه ، فدخل الحارس المنوب ، وأدَّى التحية العسكرية ، فأمره بأن يطلب من المقدم فاروق الحسينى مجموعة صور اللصوص الخطرين المحفوظة لديه . .

أدى الحارس التحية ، وبارح الغرفة ، لينفذ الأمر الصادر إليه . . ولم تمض دقائق حتى دقَّ المقدم فاروق الحسينى باب الغرفة ، ودخل فقدم للمحقق مجموعة من الصور الشمسية ، وهو يقول :

- هذه مجموعة صور اللصوص الخطرين التى لدينا يا سيادة النائب . .

خمس عشرة صورة .

تناولها النائب منه ، وهو يقول : « شكراً سيادة المقدم » .

وأملى على كاتب التحقيق أنه عرض على المتهمة صور اللصوص الخطرين ، المحفوظة لدى المباحث العامة ، فأجابت . .

وقدم الصور إلى عائدة ، وهو يقول :

– دقق النظر جيداً فى هذه الصور يا أستاذة عائدة ، وافرزى لنا من بينها صورة هذا اللص . .إن وجدتها .

تناولت عائدة مجموعة الصور بيد مرتعشة ، وراحت تستعرضها واحدة بعد واحدة ، إلى أن ردتها للمحقق ، وهى تقول :

– ليست بينها .

– متأكدة ؟

– متاكدة .

– هل تعيدين النظر مرة ثانية ؟

– إذا أردت سيادتك .

– أرجوك . . تفضلى ! . . أعيدى النظر مرة ثانية وأخيرة !

استعرضت عائدة الصور مرة ثانية – وأخيرة – ثم – ردتها إلى المحقق ، وهى تكرر ذات العبارة : « ليست بينها ! »

وأملى المحقق على كاتب التحقيق نتيجة هذا العرض ، وإنها كانت سلباً ، ثم التفت إلى عائدة وسألها :

– قلت إنك تستطيعين التعرف على هذا اللص ، إذا وقف أمامك بين أربعة أو خمسة أشخاص . .

– نعم قلت هذا .

– لن يتَيَسر لنا الليلة أن نجمع لك الخطرين المشهورين ، لعرضهم عليك عرضاً قانونيًّا . . ولهذا قررنا أن تتم عملية العرض هذه ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر غد .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– أستاذنا الدكتور الريدى . . النيابة مضطرة – مع الأسف الشديد – لإلقاء القبض على الأستاذة عائدة فهمى ، لحين استيفاء التحقيق .

. . . .

– قبض ؟ !

الكلمة خرجت – فى لحظة واحدة – من بين شفاه الدكتور الريدى وعائدة ووالدها الدكتور محمود فهمى . .

– لا يمكن .

– مستحيل .

وتمالكت عائدة أعصابها ، وهى تحس إعصاراً يعصف بروحها ونفسها وبكل كيانها ، وقالت فى صوت حاولت جهدها – وبقدر ما تستطيع – أن يبدو ثابت النبرات :

– سيادة النائب ، أنا بريئة . . أنا كما قلت لسيادتك من قبل ، مجنى علىّ ولست جانية . . ثق أننى لم أكن أتردد لحظة واحدة فى قتل عبد الحميد لطفى ، إذا كنت أفقت واكتشفت أنه اعتدى علىّ ، ولم أكن لأتردد لحظة فى الحضور لك فى نفس الليلة ، لأبلغك بأننى قتلت رجلا

فعلبى ما كان يريد أن يفعلهبى هذا الرجل لولا أن أنقذنى منه هذا اللص المجهول ، فى اللحظة الأخيرة المناسبة . . ففيمَ القبض على ؟ !

وقبل أن يجيبها المحقق ، استأذنه الدكتور الريدى فى كلمة :

– سيادة النائب . . الأستاذة عايدة فهمى شخصية معروفة ، فهى معيدة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ولها تلامذتها وتلميذاتها ، وهى بريئة قطعاً ، ووالدها الدكتور – صيدلى – محمود فهمى شخصية معروفة كذلك . . ولست أريد أن أتحدث عما يحدثه القبض عليها فى الرأى العام وفى المحيط الجامعى – بتهمتى القتل والسرقة ، فى جريمة خلقية ، من آثار بالغة السوء . . فهذه نتائج لا أشك فى أنها لا تخفى على فطنتكم . . ومع ذلك ، فوالدها وأنا نوقع الآن تعهداً قانونياً فى محضر التحقيق ، بإحضارها فى الموعد الذى حددته سيادتك لإجراء عملية العرض القانونية . .

وابتلع الدكتور الريدى غصته ، وهو يتحدث عن تلميذته الغالية ، ليضيف !

– وبعد ، فالأستاذة عائدة يا سيادة النائب ، لا تخرج أولاً وأخيراً عن كونها أحد أفراد أسرتنا القضائية ، ولو اقتضى الإفراج عنها سداد كفالة مالية – إذا رأيتم أن الضمان الشخصى لا يكفى – فنحن نسدد الكفالة فوراً .

أجابه النائب مقتنعاً : « لا بأس يا دكتور » .

وأملى كاتب التحقيق العبارة التقليدية ، التى يختتم بها أى تحقيق ، مع قرار الإفراج عن المتهمة الأستاذة عايدة فهمى ، بضمانة والدها الدكتور محمود فهمى ، على أن تحضر فى تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم

التالى . لإجراء عملية العرض القانونى على المتهمة . .

. . . .

وعلى باب غرفة التحقيق – وعائدة ووالدها ومحاميها فى طريقهم إلى الخروج – كان حشد من الصحفيين فى انتظارها . .

لمعت أضواء آلات التصوير الخاطفة فى تتابع سريع . . وحاول والد عائدة أن يمنعهم ، كما حاول الدكتور الريدى أن يردهم . . ولكن عائدة أشارت لوالدها ولأستاذها فى أدب عال ، وهى تقول فى صوت هادئ يشع كبرياء واعتدادا بالنفس :

– دعهم يا أبى . . دعهم يا دكتور ، فلست جانية ، ولا أهاب شيئاً ، ولم يعد لدى ما أخفيه !

وانهالت عليها أضواء آلات التصوير ، فبدت كمن تستحم فى الضوء . . كما انهالت الأسئلة ، وهى تجيب فى هدوء ، وفى ثبات ، وفى كبرياء ، وفى ثقة بالنفس بلا حدود . . حتى إذا سألتهم إن كانوا قد فرغوا من مهمتهم ، لتستطيع الانصراف مع والدها وأستاذها ، سألها صحفى ، إذا كان لها كلمة تريد أن تقولها أو توجهها للرأى العام ، فأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها لتقول :

– إذا كان لدى ما أقوله ، فهى كلمة قصيرة . . والكلمة ليست لى . . ولكنها للص ، ارتكب جريمة قتل دفاعاً عن عرض فتاة لا يعرفها . .

« واللص كان يستطيع أن ينجو بنفسه بكل سهولة ، فيتسلل فى هدوء خارجاً من خلف الستار التى كان يقف وراءها ، دون أن يشعر به السيد المتعلم الثرى صاحب المسكن ، لأنه سيكون – فى تلك الأثناء – مشغولاً

بالفتك بهذه الفتاة عن كل ما حوله . . واللص كان يستطيع – بعد أن ارتكب جريمة القتل – أن يستغل ضعف الفتاة ، وفظاعة موقفها بالغ الحرج والدقة والحساسية والسوء ، كفار فى مصيده . . ولكنه عفّ عن هذا المنكر ، وترفّع عن أن يسفح دم عذراء لا تملك حيال بطشه أية مقاومة ! . .

« واللص لم يتخلّ عن الفتاة ، ولم يتركها وحدها لليل وظلمته ، ووحشته ، ولكنه خرج من مسكن السيد ممسكاً بيدها ، ولم يتركها إلا بعد أن أطمأن إلى أنها آستطاعت أن تستوقف إحدى السيارات ، لتصل إلى منزلها بسلام . .

« اللص قال لى ، وهذا الكلام أنوب عنه فى توجيهه لكل فتاة أو سيدة :

« – لا تركبى مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية أمام خانة المهنة – أنه نبى ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » . . كلهم ذئاب ، ولا أهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لكل جميلة ، واى جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيّتون لها ما كان سيحل بى فى تلك الليلة . . لا أشبه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة ، فلا تركبى مع أحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! ! » .

وتابطت عائدة ذراع والدها من جهة ، وذراع استاذها من الجهة الثانية ، وساروا ثلاثتهم فى الممر الطويل ، وعدسات التصوير تلاحقهم بأضوائها السريعة ، إلى أن انعطفوا نحو سلم المبنى . . ومنه إلى الطريق حيث

كانت سيارة الدكتور الريدى فى انتظارهم ، فعادت بهم إلى بيت أسرة عائدة

كان الحفل قد انتهى ، وانصرف المدعوون ، ما عدا قرينة الدكتور الريدى ، التى بقيت مع فوقية هانم – والدة عائدة – إلى أن يعود زوجها ، الذى أوصاها بهذا قبل أن ينسحب من الحفل مع عائدة ووالدها والمقدم فاروق الحسينى .

* * *

عائدة لم تنم فى هذه الليلة . . لم تنم حقيقة ، إذ لم يغمض لها جفن حتى بارحت غرفة نومها – فى نحو التاسعة صباحاً – فقد كانت أسيرة فكرة واحدة . .

إن صور اللصوص ، التى عرضها المحقق عليها ليلة أمس ، طالباً منها أن تتعرّف من بينها على صورة اللص القاتل . . هذه المجموعة ، لم تكن تضم صورة هذا اللص ، ولهذا ردتها للمحقق وهى تخبره بأن الصورة التى يبحث عن صاحبها ليست بينها . . ردتها له مرتين . .

وهى على موعد – فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم – لإجراء عملية عرض حية أمامها . . سيؤتى بعدد من اللصوص المعروفين الخطرين ، ليقفوا أمامها . . لتتعرف على اللص القاتل . . لتخرجه من بينهم إذا كان بينهم . .

فماذا إذا كان بينهم حقيقة ؟ . . ماذا إذا كان واحداً منهم ؟ . . ماذا لو فوجئت به واقفاً بينهم ؟

هل تشير عليه بأصبعها ، لتقول : هذا هو اللص القاتل ؟

أيمكن هذا ؟ . . أتطاوعها نفسها لترفع يدها ، فتشير إلى رجل أنقذ عرضها ، وحفظه لها من هوان يظل عالقاً بها إلى الأبد ؟ . . أهكذا يكون جزاء من ارتكب جريمة قتل بسببها ، ومن أجلها ، ليصنع جميلاً لا يمكن أن تنساه أبداً ؟ . . هل تقابل جميلة بمثل هذا الجحود ؟

هى تعرف أن مشكلة اتهامها بالقتل والسرقة قد أنتهت تقريباً ، فهى تستطيع أن تدرك أن النائب المحقق قد اقتنع بصدق قصتها ، وبالتالى ببراءتها من التهمتين ، وأن الاهتمام كله - الآن - مكثّف ومركّز على البحث عن القاتل الحقيقى وللوصول إليه ، وإلا ما أصدر قراره بالإفراج عنها بلا كفالة ، مكتفياً بالضمان الشخصى . . وفى هذا ما يكفى للدلالة على اقتناعه ببراءتها !

كانت لها أمنية واحدة ، وهى تعانى أرقاً مريراً طوال هذه الليلة العصيبة . . ألاّ يكون اللص الذى أنقذها ، بين الذين سيقفون أمامها لتتعرف عليه ، ولتخرجه من بينهم . .

وظلت هكذا فى صراعها المرير ، مفتّحة العينين ، إلى أن غلب نورُ الفجر - متلصصاً من خصاص نوافذ غرفها - نورَ المصباح الكهربى الصغير القريب من فراشها ، فقامت وهى تزفر زهقها ومللها وقلقها وتوترها ، لتجلس فى شرفتها تستقبل نسمات الصباح الأولى ، لعلها تغسل هموم نفسها . .

ثم عادت إلى غرفتها ، عندما بدأت عيناها تواجهان قرص الشمس فى إبهاره غير المحتمل ، فرقدت فى فراشها الخالى . .

غريبة ! ! . . غريبة جداً ! ! . .

فى هذه اللحظة فقط ، بعد أن انجلى الليل وظهرت تباشير الصباح ،

تذكَّرت أو اكتشفت أن زوجها لم يعد .. وأنها أمضت الليلة وحدها ، لأول مرة منذ زواجها ..

إن زوجها لم يعد .. لم يعد منذ بارح غرفة التحقيق مع أستاذها ومحاميها الدكتور الريدى ..

وابتسمت فى مرارة .. فى مرارة ، ولكن فى قوة ، وفى كبرياء ..

* * *

وبارحت غرفتها فى نحو التاسعة ، فقبّلت والدها ووالدتها ، وانضمت إليهما حول مائدة الفطور .. وصبت اللبن الساخن فى قدحها ، وحاولت أن تبدو كما تعوداها دائماً ..

قال لها والدها :

– اتفقت مع الدكتور الريدى يا عائدة ، على أن تمر بمكتبه فى منتصف الواحدة ، لنصحبه إلى دار النيابة .. لنكون هناك قبل الموعد المحدد بدقائق .

أجابته فى هدوء :

– حسن جدًّا يا أبى .. حضرتك ستكون تحت ، فى الصيدلية ، طبعا ؟

– طبعاً .

وابتسم وهو يضيف ، محاولاً أن يسرِّى عنها :

– سأكون فى شرف أستقبالك ، ما بين الثانية عشرة والربع والثانية عشرة والنصف ، لنركب فوراً ، ونذهب للدكتور الريدى ، الذى سيكون فى أنتظارنا أمام باب العمارة ، حتى لا نضيع وقتاً ..

وقام الأب عن مقعده – أمام مائدة الفطور – وهو يستأذن زوجه وابنته للانصراف إلى عمله ، إلى صيدليته أسفل البيت .

وحمل أحد الخدم إلى عائدة صحف الصباح ، تحمل عناوينها الضخمة :

مباحث القاهرة تصل إلى قاتلة الثرى عبد الحميد لطفى ، بعد ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ القضية .

بطلة جريمة مدينة المهندسين من أسرة كبيرة ، ومعيدة بكلية الحقوق ، وعلى قدر كبير من الثقافة والجمال .

المجنى عليه كان يخدّر من تركب معه ، ثم يحملها إلى بيته ، ليعتدى عليها وهى فاقدة الوعى .

المتَّهَمَة تنكر تهمتى القتل والسرقة ، وتنسبهما إلى لص مجهول ، كان فى مسرح الجريمة .

الإفراج عن المتَّهَمَة بضمان والدها .

الدكتور نور الدين الريدى محامى المتهمة ، كان أستاذها – طالبة – فى كلية الحقوق .

عملية عرض قانونية تتم اليوم ، حيث تستعرض المتهمة أخطر عتاة الجريمة المعروفين ، لتتعرف من بينهم على اللص الذى تنسب له ارتكاب الجريمة .

وعشرات الصور تبدو فيها عائدة ، وحدها ، أو بين والدها ومحاميها . . ثم تحقيقات صحفية تشغل مساحات كبيرة من صحف الصباح اليومية الثلاث ، خلعت بعضها على الحادث وصف « جريمة الموسم » .

* * *

مع مئات الألوف الذين يقرأون ، كان اللص يقرأ ، فهو يستطيع أن يقرأ . .

– نهار أسود . . الحق يا توحة !

وأسرعت زوجته إليه ، فقال : « أنت فاكرة عملية مدينة المهندسين ؟ »

– مالها ؟

– وصلوا إلى البنيَّة المسكينة ، واتهموها بالقتل والسرقة .

– يا مصيبتى ! . . ولكنها مظلومة يا عبد الغفار .

– المهم الآن . . يجب أن أختفى بسرعة ، لأنى أتوقع حضورهم فى أية لحظة ، للقبض علىّ ، لأقف أمامها مع غيرى فى عملية العرض التى ستجرى اليوم . .

– وهى ستعرفك من نظرة . .

– مصيبة ! !

– أسرع يا عبد الغفار . . بسرعة « يا خويا » . . ربنا يسلم لك طريقك .

– عندك فلوس ؟

– عندى يا عبد الغفار . . معى كفاية .

– خذى هذا المبلغ أيضاً . . من يدرى ، فقد أضطر للغياب عنك أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ، إلى أن تنام الحكاية قليلا . . أراك بخير يا توحة .

– مع السلامة يا عبد الغفار .

– تعالى يا رشا !

وحمل طفلته الوحيدة ، وضمها إلى قلبه ، ثم قبلها وأعادها إلى

أمها ، وانطلق إلى باب المسكن . . وما إن فتحه ليخرج ، حتى فوجئ بأحد ضباط الشرطة ، ويده على الباب يكاد يدقه . . وكان بصحبته شرطيان ، أحدهما برتبة مساعد ، والثانى برتبة عريف

– إلى أين يا عبد الغفار ؟

فاجأه الضابط بسؤاله ، فأسرع عبد الغفار يقول :

– أشترى طعام اليوم ياحضرة الضابط . . تفضل ياحضرة الضابط !

ثم ابتسم للشرطى الذى يحمل رتبة مساعد :

– تفضل يا عم سلامة !

ثم للشرطى الآخر : « تفضل ياعم هارون ! »

ولكن الضابط ابتسم ابتسامة يعرفها عبد الغفار ، وهو يقول :

– لاتضيع الوقت يا عبد الغفار . . دع لامرأتك شراء طعام اليوم ، وتعال معنا !

تجاهل اللص معرفته بالغاية من زيارتهم المفاجئة ، وهو يقول للضابط :

– ماذا جرى ياحضرة الضابط ؟ أنا تُبت من زمن . . هل حدث منى شىء ؟

– لا شىء يا عبد الغفار . . عملية عرض بسيطة ، ولا داعى لكثرة الكلام .

– حاضر .

قالها اللص فى يأس وتسليم ، بعد أن أسلم لله أمره . . لقد حدث ما توقعه عندما قرأ نبأ عملية العرض ، من أن رجال الأمن لابد أن يكونوا فى طريقهم إليه ، ليكون ضمن الذين ستستعرضهم عائدة فى عرض

قانونى . . ولكنه لم يكن يتوقع مجيئهم بهذه السرعة ، قبل أن يلوذ بمخبأ خاص به ، لا يعرفه أحد سواه . . حتى زوجته لا تعرفه !

* * *

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم ذاته ، كانت عائدة بصحبة والدها ومحاميها – أستاذها الدكتور الريدى – يستأذنون للدخول على وكيل النائب العام المحقق .

رحب الرجل بهم ، وهو يقول : « سنبدأ عملية العرض فوراً ، فقد استدعينا معظم الخطرين الذين يحتمل أن يكون القاتل أحدهم ، وليس بينهم واحد ممن عرضت صورهم على الأستاذة عائدة بالأمس . . تفضل يادكتور ريدى . . تفضلى يا أستاذة عائدة . . تفضل يادكتور محمود ! »

وأشار إلى المقاعد القريبة من مكتبه ، وهو يدعوهم للجلوس ، فجلسوا .

أعاد فتح التحقيق ، وأملى الكاتب « الديباجة » المعروفة ، ثم أصدر أمره للشرطى الواقف بقرب الباب بأن ينهى للمقدم فاروق الحسينى أن الأستاذة عائدة فهمى قد حضرت لإجراء عملية العرض ، التى تقرر بالأمس إجراؤها بحضورها .

ولم تمض دقائق حتى دخل المقدم فاروق الحسينى ، يتبعه أحد عشر « نجماً » من نجوم الجريمة فى مدينة القاهرة ، يتبعهم أربعة مسلحون من رجال الشرطة الأشداء .

– فى الصف أنت وهو بسرعة ، قدام سيادة النائب . . تحرك !

قالها المقدم فاروق الحسيني للصوص ، الذين سيشكلون العرض أمام عائدة . . وفى ثوان كان الأحد عشر لصاً فى صف واحد منتظم .

استعرضهم النائب المحقق بنظرة لم تستغرق ثوانى ، ثم وجه حديثه إلى عائدة :

— أستاذة عائدة . . انظرى جيداً إلى هؤلاء الأشخاص . . هل ترين بينهم اللص الذى فتحت عينيك من الإغماء على وجهه ، ليلة الجريمة ؟

النائب لم يكن بحاجة لهذا السؤال ، لأن عينى عائدة قد التقطتا وجه اللص بين زملائه ، وهو يخطو من عتبة باب الغرفة إلى داخلها . . كما أحست بأن عينيه قد التقطتا وجهها ، فى لمحة تتساوى سرعة بسرعة الضوء . .

وعاد المحقق يقول لها فى هدوء :

— على مهلك يا أستاذة عائدة . . أنعمى النظر جيداً ، دون أن تظلمى نفسك أو تظلمى أحداً !

وراحت عائدة تستعرض وجوه الواقفين أمامها ، إلى أن التقت عيناها بعينيه . . وفى لمحة خاطفة ، عادت بخيالها إلى لحظة معينة من تلك الليلة المروعة . . ليلة الجريمة . . لحظة أن كان اللص يتعجلها الهرب — من ذلك المسكن الملعون — وهو يقول لها :

— لا داعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة قبل أن . .

— ومن يدرى . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبى يوما ما ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة . .

وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك . . كل شىء جائز يابنتى ، ولا تستبعدى شيئاً !

– مع السلامة . . والله يتولاك ويسترك !

هذا الرجل اللص – أو اللص الرجل بمعنى أصح – أنقذ عرضها من أن ينتهك ، وكان انتهاكه محتماً ، ذات ليلة حالكة السواد . . وبهذا جنّبها أن تعيش حياتها فى هوان ، يكللها بعار يظل عالقاً بها وباسمها وبسمعتها إلى نهاية العمر . .

فهل تخذله ؟ . . هل تتخلّى عنه ؟ . . هل تخيب رجاءه فيها ، وأمله فى أن تقف إلى جانبه ، كما وقف إلى جانبها فى أسوأ وأسود لحظات حياتها ؟

وبعد . .

فإن من قتله هذا اللص يستحق القتل ، بعد أن سفح أعراض عشرات السيدات والأبكار ، وكان من المقدّر لها أن تنضم – هى أيضاً – إلى قائمة من اعتدى على أعراضهن ، لولا هذا اللص الرجل ، الذى أنقذها فى اللحظة الأخيرة . . أنقذها بعد أن خاض معركة اضطر خلالها لأن يرتكب جريمة قتل ، وهو يعلم أن صديقاً لضحيته فى الطريق لزيارته ، بين لحظة وأخرى ، ليراها ، وليصافحها ، وليتعرّف عليها . . كأنها سلعة للفرجة !

وهل . . ؟

وبينا هى تدير كل هذه الأفكار فى رأسها ، سمعت النائب المحقق يسألها : « هيه يا أستاذة عائدة . . ؟ »

حولت عائدة عينيها عن صف اللصوص الواقفين أمامها ، ونظرت إلى النائب ، وهى تقول فى صوت هادئ النبرات :

– ليس بينهم يا سيادة النائب !
– متأكدة ؟
– متأكدة .
– هل تعيدين استعراضهم مرة أخرى ؟
– إذا شئت سيادتك . . ولكنى متأكدة من أنه ليس بينهم .
– حسن جداً
والتفت إلى المقدم فاروق الحسينى ، وقال له : « شكراً ياسيادة المقدم » .
وخرج الأحد عشر نجماً . .
ولم تفت عائدة لمحة خاطفة من عينى اللص ، وهو يستدير خارجاً .
وفهمت من هذه اللمحة الخاطفة الكثير . .
فقد كانت عيناه تقولان أكثر من الكثير . .

١٦

لم تمض أيام أخر ، حتى ظهر خبر صغير فى صفحات الحوادث بالصحف اليومية الثلاث . . والخبر يقول إن النيابة قد حفظت التحقيق فى جريمة مدينة المهندسين ، بعد أن ثبتت براءة الأستاذة عائدة فهمى - المعيدة بكلية الحقوق ، من تهمتى القتل والسرقة ، لعدم ثبوت الادلة ضدها . كما قيدت الجناية ضد مجهول ، ، لعدم إمكان التوصل للفاعل الحقيقى .

فى اليوم ذاته ، يوم نشر الخبر ، أزّ الجرس فى مسكن أسرة عائدة . . وكانت تجلس مع والدتها وقرينة الدكتور الريدى ، التى تعلقت بالأم وبابنتها منذ أن دعيت لشهود عيد ميلاد عائدة ، فلم تتخلف يوماً عن زيارتهما ، وقضاء بعض الوقت معهما . . وكانت عائدة قد طلبت السماح لها بأسبوعين للراحة من عملها ، فقد كانت فى حال لا تسمح لها بأن تمارس حياتها العادية ، بعد التجربة المريرة التى مرت بها . .

كانت تحس إحساس من دخل بكل جسمه – عارياً – خلية نحل تضم خمسين ألف نحلة . . مائة ألف نحلة . . فانقضت عليه جميعها ، تلسعه فى كل خلية من خلايا جلده . . فى كل مسام جلده ، إلى أن تخلص من الخلية بمعجزة . . ولكنه خرج حطاماً شائهاً .

أزّ الجرس فى ردهة المسكن ، ولم يمض قليل حتى جاءها أحد الخدم ، فأسر لها بكلمة فى أذنها ، فاستأذنت والدتها وقرينة أستاذها لتستكشف الأمر . .

بالباب رأت شرطياً يسألها : « السيدة الأستاذة عايدة محمود فهمى ؟ »

أجابته فى هدوء : « انا » .

– سيادتك ؟

– سيادتى .

– شخصياً ؟

– شخصياً .

– أنا آسف ياسيدتى ، فإننى أحمل لك ورقة لم أكن أحب أن أكون حاملها .

– أفصح من فضلك ؟

– وثيقة طلاقك من الأستاذ زكى الرفاعى .

ابتسمت ابتسامة هادئة ، وهى تقول :

– لا يهمك . . فقد كنت أنتظرها ، وقد أدهشنى أنها لم تصل إلا اليوم

– هل تسمحين بالتوقيع هنا بالاستلام ؟

– بكل تأكيد . . وشكراً .

وقعت باستلام وثيقة طلاقها . . وأنصرف الشرطى ، وأغلقت الباب وعادت إلى والدتها وضيفتهما ، قرينة الدكتور الريدى . .

* * *

سألتها والدتها الخبر ، فقدمت لها الوثيقة وهى تبتسم . . وما إن قرأتها الأم ، وانتهت من الإحاطة بمضمونها ، حتى مطت شفتها السفلى أسفاً واحتقاراً ، وهى تنظر لأبنتها تبادلها ابتسامتها ، ثم مدت يدها بالوثيقة فقدمتها إلى قرينة الدكتور الريدى ، وهى تقول :

– لأوفر عليك عناء قراءة هذا الخط الردئ ياسميه هانم . . لقد طلق زكى عائدة فى قسم الشرطة ، وهذه وثيقة طلاقها .

أجابتها قرينة الدكتور الريدى ، دون أن تلمس الوثيقة بأصابعها :

– كما لا تصنع الفلوس إنساناً يا فوقية هانم ، كذلك لا يصنع العلم ولا الشهادات هذا الإنسان . . لقد أخبرنى الدكتور ريدى بتفاصيل الحديث الذى جرى بينه وبين زكى ، ليلة أن استدعت النيابة عائدة ، ونحن نحتفل بعيد ميلادها هنا .

سألتها عائدة – كمن لا تمانع فى أن تعرف . . ولكن ليس باهتمام

من تعلق أهمية كبرى على هذه المعرفة :

– ماذا قال الدكتور الريدى ياسمية هانم ؟

– تذكرين أن عمك الدكتور استأذن – أثناء التحقيق – ليحضر مذكرة ، كنت قد كتبتها بخطك عن هذه الجريمة ، أثناء الدراسة خلال السنة النهائية . .

– أذكر هذا جيداً . . وأذكر أن زكى استأذن المحقق ، وطلب من الدكتور الريدى أن يحمله معه .

– فى السيارة ، قال – قليل الأدب – لعمك الدكتور : « لم أكن أعرف أنها ممثلة بارعة إلا الليلة . . لقد اصطحبتها مع والدتها لتشاهد « فيلا » عثرت عليها لتسكنها ، دون أن أدرى أن هذه الفيللا هى بذاتها التى أرتكبت فيها الجريمة ، إلى أن صرح لى البواب بذلك . . فقلت لنفسى : لا بأس ، فإن أزمة المساكن أصعب من أن تدع لمن يريد أن يسكن حرية الاختيار . . باختصار شديد ، صحبتها – ووالدتها معنا فدخلت « الفيللا » بأعصاب من حديد ، وتجولت بداخلها وكأنها تراها وتدخلها لأول مرة . . وبطبيعة الحال ، لم تكن لتستطيع أن تقبل سكناها ، بعد أن صارحتها بأن هذه « الفيللا » هى التى أرتكبت فيها الجريمة المشهورة ، حيث قتلت صاحبها إحدى النسوة من فئة معينة . . قلت لها هذا دون أن أدرى أنها كانت تعرفها قبل أن أعرفها ، ودخلتها قبل أن أدخلها ، وأن لها بين جدرانها مغامرتها المشينة المفزعة . . فظلت تتضاحك وتتعابث ، فمرة تقول لى إنها ستكتب لشركات السينما التى تخصصت فى إنتاج أفلام « فرانكشتين » لتخرج فيلماً – بين جدرانها – عن هذه الشخصية الأسطورية .

ومرة تقول – ونحن فى غرفة الجريمة – هيا بنا من هنا ، حتى لا تفاجأ بشبح الميت متسربلاً بأكفانه ، يسألنا ماذا نفعل هنا . . كيف أستطيع أن أعيش معها بعد كل ما عرفت عنها يا دكتور ريدى ؟ . . كيف أستطيع أن أعاشرها وأن أجعلها أما لأولادى ولها مثل هذه التجربة ؟ . . ومن يدرى إن كان لها تجارب سابقة ، وكم عدد هذه التجارب ؟ ! . . ومن يدرى أيضاً ، ماذا تم فى هذه التجربة ، وإلى أية نهاية انتهت ؟ . . مع كل هذا لا تتحرك ، ولا تهتز ، ولا تتأثر ! ! ! هذا كله سلوك ممثلة ، وانفعال ممثلة ، وأعصاب ممثلة . . وأنا لم أتزوج ممثلة ، لتمثل أمامى ما قد تضطرها الظروف للقيام بتمثيله من مواقف ، لتدارى سوأة أولتخفى عاراً . . أنا يادكتور ريدى لا أستطيع أن أعيش فى الزيف والكذب ، ولقد عشت معها هذه الشهور التى انقضت على زواجنا – وحتى اليوم – فى زيف وكذب متصلين مستمرين ، ولهذا فإنى سأطلقها . . غداً سأتوجه إلى قسم شرطة قصر النيل – قريباً من البيت – لأطلقها ، وسيتولى القسم تسليمها وثيقة طلاقها ، وأكون شاكراً لو تفضلت بأن ترسل لى متعلقاتى الخاصة ، على بيت أسرتى فى البغالة » . .

« ثم سكت ساكن البغالة قليلاً ، وعاد يقول :

– ما لنا نحن وسكان « جاردن سيتى » يا دكتور ريدى ؟ . . »

وسألتها عائدة : « ولم لم يخبرنى أستاذى الدكتور ريدى بكل هذا ياسمية هانم ؟ »

– أخبر والدك به ، مع رجاء منه بألا ينقله إليك إلا بعد وصول الوثيقة ، فربما تمهل زكى وراجع الأمر فيما بينه وبين نفسه – بعد أن

يهدأ ، فيعدل عن قراره الأحمق . ولكن . .

وأمسكت سمية هانم قليلاً ، لتستأنف حديثها :

– ولكن هناك ناس ياعائدة ياابنتى ، يركلون بأقدامهم ما بين أيديهم من نِعَم .

ثم ابتسمت وهى تقول :

– على أية حال . . لقد أعجبتنى عبارة واحدة ، قالها : « مالنا نحن سكان البغالة بسكان جاردن سيتى ؟ » . .

* * *

غداً ينتهى الأسبوعان اللذان أمضتهما عائدة بعيدة عن عملها ، وبانتهائهما تنتهى إجازتها العارضة . .

بعد غد تعود إلى عملها ، معيدة بكلية الحقوق ، جامعة القاهرة . .

ولكن عائدة كانت قد عقدت النية على أمر ، قررت أن تسأل والديها رأيهما فى شأنه ، وهم حول مائدة العشاء . .

فى المساء دعاها والدها مع والدتها إلى عشاء خارج البيت ، وترك لهما اختيار المكان . . ولكن عائدة اتفقت مع أمها على أن يكون هذا العشاء فى شرفة الدار ، وهى بموقعها الفريد ، مطلة على النيل ، لا لايضاهيها جمالاً وهدوءاً سطح أرقى فنادق القاهرة . . وقد كانت الغلبة لرأيهما معاً ، فجمعتهم مائدة العشاء فى الشرفة

وهم يتناولون الفاكهة ، قالت عائدة :

– أبى . . أرجو أن أستأذنك فى أن أقدم استقالتى من عملى بكلية الحقوق .

ولم يكن الاقتراح مفاجئاً لوالد عائدة . .

كذلك ، لم يكن مفاجئاً لوالدتها . .

فكلاهما يعرف ابنته شديدة الكبرياء ، عالية الأنفة ، وإن كان تواضعها – فى مقام التواضع – مضرب الأمثال . .

ابتسم الوالد وهو يقدم لها تفاحة ، أزال عنها قشرتها بسكينة ، وهو يقول « لَمَ ؟ »

تناولت منه التفاحة المقشورة مع كلمة شكر ، ثم قسمتها إلى ثلاثة أقسام ، قدمت لكل من والدتها ووالدها قسماً ، ووضعت القسم الثالث فى صحفتها ، وهى تقول :

– يخيل إلى أننى سأواجه فى الكلية – بعد كل ما جرى ونشر فى الصحف – متاعب قد لا تنتهى بسلام . . أنت تعرف – أبى – أن هناك كثيرين يعانون ضيق الأفق ، فتنقصهم النظرة المنصفة ، وهم بالتالى لا يملكون سلامة التقدير ، ولا يحسنون الإدراك ، ويتناولون الأمور تناولاً فجًّا ، فيسيئون إلى الغير بتصرف غير لائق ، أو بكلمة نابية ، أو بإشارة جارحة ، أو بنظرة ساخرة ، أو بابتسامة . . مجرد ابتسامة تقول ألف كلمة نابية ، وقد تجاوز النبوّ إلى البذاءة ، فما الذى يجبرنى على هذا ؟ . . إننى أترك الكلية باختيارى ، قبل أن أضطر لتركها لأننى لم أعد أستطيع البقاء بها .

أجابتها والدتها : « أنا شخصيًّا موافقة ، وأنت – بعد – لست بحاجة للعمل » .

– ليست مسألة حاجة يا ماما . . ولكنى أحس بسعادة كبيرة وأنا

أعمل . . وعندما أحس بأننى فقدت الإحساس بهذه السعادة ، فثق بأننى لن أتأخر لحظة عن تقديم استقالتى من عملى الجديد . .

تدخل والدها فى الحديث فقال : « أنا أفهم عائدة فهما تاماً . . »

– معنى هذا أنك تقرنى . . ؟

– طبعاً أقرك ، ما دام هذا إحساسك ، ولا أملك ، ولا أستطيع – بل لا يجوز – أن أردك عن تصرف تجدين فيه راحتك .

– شكراً ياأبى .

وضحك الدكتور محمود وهو يقول :

– ما رأيك لو شرفت صيدلية « بابا » المتواضعة ، وجعلت من نفسك مديرة لها ؟

ضحكت الأم وابنتها ، وقالت الأم : « والله . . أحسن فكرة ! »

– وأنا أتكلم جاداً والله . . ادرسى العمل معى أياماً ياعائدة ، وستعى ذاكرتك أسماء الأدوية ، وأمكنتها من الأرفف ، فى مدى أسابيع . . وأنا بحاجة لمن هى فى علمك ومظهرك وشبابك ونشاطك . . وبعد ، فالصيدلية فى النهاية لك ولماما ، ويجب أن تتعلمى كيف تديرينها من الآن . . صيدلية تدار إدارة ماهرة ، تدر الألوف كل شهر . . وليس من الضرورى أن يكون مديرها صيدليًّا ، من حيث الناحية القانونية ، فإن الإدارة علم منفصل بذاته . .

وضعت عائدة أطراف أصابعها على شفتى والدها ، وهى تقول :

– « أرجوك . . لا تعد لمثل هذا القول مرة أخرى ، أو . . سأبكى ! »

وابتسم الأب وهو ينظر إلى ابنته بحنان يكاد يقطر دموعاً من عينيه ،

وهو يقول : « إذن ، ما هى مشروعاتك بعد الاستقالة ؟ »

– سأشتغل بالمحاماة مع أستاذى الدكتور الريدى . . سأبدأ معه محامية تحت التمرين . . وأظل فى مكتبه . . أكبر ، وأنجح ، وأصبح محامية كبيرة مشهورة . .

– هذه أجمل فكرة !

العبارة قالها الأب والأم معاً ، وكأن شفاههما كانت على موعد .

* * *

فى اليوم التالى ، أرسلت عائدة استقالتها إلى عميد كلية الحقوق . . استقالة قصيرة ، مهذبة ، أنهتها بأنها لايمكن أن تنسى – مهما أمتد بها العمر – السنوات الأربع التى أمضتها طالبة بكليتها العزيزة ، ثم الشهور التى عملتها بها فى وظيفة « معيد » .

ولم تكد تعرض على أستاذها رغبتها فى العمل معه ، حتى قام عن مقعده ، وأمسك بيدها ، وخرج بها من غرفة مكتبه ، متجهاً إلى غرفة أخرى مجاورة ، فتحها وأضاء نورها ، وإذا بها غرفة مكتب مؤثثة بأثاث فاخر ، أنيق . .

أشار بيده إلى محتويات الغرفة ، وهو يقول لعائدة !

– المحاماة مهنتك يا عائدة ، وهنا مكانك . . هذا مكتبك الذى ستتدرجين فيه ، من المرافعة أمام المحاكم الجزئية والجنح والمخالفات ، إلى أن تصلى للمرافعة أمام محكمة النقض ومجلس الدولة . .

نظرت له متهللة ، والابتسامة تطل من عينيها مضيئة ضاحكة . .

– صحيح ؟ يعنى . ستشرفنى بالعمل معك يا دكتور ؟

ربت كتفها بكفه فى حنان بالغ ، وهو يقول فى عتب رقيق :

– كيف تسألين هذا السؤال يا عائدة ؟ أنت ابنتى . . وأنا بحاجة لك ، أنت بالذات ، لأننى لا يمكننى أن أطمئن لغيرك كما أطمئن لك . . ومن الغد سأصحبك لتحضرى معى مرافعة حاسمة ، وفاصلة ، فى قضية تهريب كبرى . . وأنا على ثقة بأنك ستكونين خير عون لى .

– لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور . .

– تعالى نطلب الدكتور محمود وفوقية هانم ، لنبى لهما هذا النبأ السعيد . . إنك قبلت أن تشرفى عملك الدكتور الريدى بالعمل معه . . كما نطلب أيضاً « سمية » لننبى لها النبأ ذاته . . ومن الغد تقدمى بطلب انضمامك عضواً بنقابة المحامين .

١٧

عائدة سعيدة بعملها الجديد . . لم تكن تدرى أن مهنة المحاماة يمكن أن تكون هكذا . . رحلة ممتعة ، أخاذة ، إلى الانطلاق ، تتجدد صورها يوما بعد يوم ، على هذا النحو المثير الذى يذكى فى النفس الطموح والأمل والتطلع إلى أرحب الآفاق . .

بدأ أستاذها يدربها على تنظيم القضايا ، وفهرسة وثائق ومستندات كل قضية بالأرقام فى ملفها الخاص بها ، كما بدأ يصطحبها معه إلى المحاكم التى يترافع أمامها فى أخطر القضايا ، فكانت – دائماً – خلفه كظله . .

حتى إذا أراد أن يعزز ما يقول بمستند رسمى ، كانت يدها ممدودة نحوه ، ليأخذ منها المستند ويقدمه لرئيس الهيئة ، وهو واثق بأنه يقدم المستند الصحيح . .

لم تخطئ مرة ، ولم تخذله مرة ، ولم تسبب له الحرج مرة . . ولم تعطه الفرصة ليندم على اعتماده عليها . فى مهنته الخطيرة ، مرة . . كانت دائماً « حاضرة » ، صاحية ، واعية ، يقظة ، مفتوحة العينين ، مرهفة الأذنين . . وقد لفتت الأنظار إليها بكل هذه اليقظة الحارة ، فلم تكن تفوتها شاردة . .

وأحبت عملها أكثر . . فقد أعطاها أستاذها أكثر من فرصة ، فأحال إليها القضايا التى يسمح لها بتمثيل المتهمين فيها أمام المحاكم الجزئية ومحاكم الجنح والمخالفات ، فلم تخسر قضية واحدة . . .

وبدأ أستاذها يكلفها بتحضير القضايا التى سيترافع فيها ، أمام محاكم الجنايات أو النقض أو مجلس الدولة . . تحضرها له مشفوعة – كل منها – بمذكرة وافية ، مدروسة ، مع إبداء رأيها القانونى ، وكانت فى أول عهدها بهذه العملية – عملية التحضير – تستشعر حرجًا بالغاً من إبداء رأيها فى أية قضية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ولكنه خلصها من هذا الإحساس بالحرج ، عندما قال لها :

– بالعكس يا عائدة ، فأى محام – مهما كان كبيراً – بحاجة دائمة إلى رأى أى زميل من زملائه ، ولو كان أحدث منه فى ممارسة المهنة . . إنه – على أقل تقدير – يستنير بهذا الرأى الآخر . . قد لا يأخذ به ، ولكنه قد يكون سكة تقوده إلى الطريق الصحيحة للمرافعة . . فلا تتحرجى أبدا من ابداء رأيك وتسجيله ، فمن الجائز أيضاً أن أجد ثغرة فى هذا الرأى ، فتكون

الفرصة متاحة لى لأصحح لك . . وبالتالى تكون متاحة لك لتستزيدى علماً وخبرة . .

وكان رأيه صوابا . .

الشهور تمر . .

وهى تعود كل يوم من مكتبها إلى بيتها مرتين ، ظهراً وليلاً ، تقود سيارتها الصغيرة ، سعيدة خفيفة نشطة ، لتحكى لوالدها ولوالدتها كل ما مر بها طوال اليوم بفترتيه : من قابلت ؟ . . من حدثت ؟ . . فيم ترافعت ؟ . . أغرب ما صادفها ومن الذى صادفها . . .

كانت تقص كل هذا على والديها ، كتلميذة صغيرة التحقت حديثاً بالمدرسة الابتدائية ، فإذابها تسرع – بمجرد عودتها من المدرسة – لتحكى لهما ما مر بها طول يومها المدرسى ، وهى سعيدة بإشراكهما معها فى كل متاعبها ومسراتها جميعاً . .

حتى إذا كان صباح أحد الأيام ، ولم يكن لديها من القضايا ما يدعوها للذهاب إلى المحكمة . . كذلك كان أستاذها عاكفاً – فى حجرة مكتبه – على مراجعة مذكرة أعدتها له ، خاصة بإحدى القضايا الكبرى ، التى ستنظر أمام محكمة أمن الدولة . . فإنه أيضاً لم يكن لديه ما يضطره للتوجه إلى المحكمة .

وعندما فتحت عائدة إحدى صحف الصباح ، فوجئت بصورته أمامها . . صورة اللص !

لم تستطع أن تقاوم رعدة ، سرت من قلبها إلى بقية أعضاء جسمها ،

حتى أطراف أصابع قدميها . قرأت أول ما قرأت ، الكلمات القليلة المكتوبة تحت صورته : « اللص الخطر عبد الغفار سرور » .

إنها لم تكن تعرف اسمه حتى هذه اللحظة . . اسمه عبد الغفار سرور .

وراحت تقرأ العناوين الكبيرة ، المكتوبة بالخط العريض :

* أغرب جرائم السطو فى القاهرة .

* اللص الخطير « عبد الغفار سرور » يهشم ويشوّه وجوه أربعة لصوص ، عندما وضعته الأقدار فى مواجهتهم .

* اللص الخطير تسلل إلى المسكن ، الذى قرر سرقته ، فى نفس الليلة التى قرر اللصوص الأربعة الشركاء سرقة المنزل ذاته . .

* ماذا يفعل اللصوص بعضهم ببعض ، إذا تعارضت مصالحهم ؟

* وفاة أحد اللصوص الأربعة ، بعد نقله إلى المستشفى بساعات . وتوجيه تهمة قتله إلى اللص الخطير .

قرأت عائدة التحقيق الصحفى ، الذى أفاضت فى وصفه الصحف ، ثم أمعنت النظر فى صورة عبد الغفار . . بجبينه العريض ، وحاجبيه السوداوين الغزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . بملامحه حادة التقاطيع صارمتها ، كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى اللحظة التى التقطوا فيها هذه الصورة المنشورة فى الصحف .

ولم تستطع أن تمنع شفتيها من أن تنفرجا عن ابتسامة ، وهى تقول لنفسها .

— مرة ثانية ، لن أتخلى عنك . . ولن تكون وحدك !

ثم بصوت خافت ، سمعته أذناها :

– على أية حال . . إنه متهم كأى متهم . ومن الممكن جداً أن يلجأ لمكتبنا . ليتولى الدكتور الزيدى قضيته والدفاع عنه .

وأخذت الصحيفة . وقامت متجهة إلى حجرة أستاذها ، فدقت بابها مستأذنة عليه . ودخلت . .

– أهلا يا عايدة !

– أهلا بك يا دكتور !

– تعالى . . اجلسى . فقد كنت بحاجة لمن ينتزعنى من قراءة هذه المذكرة انتزاعاً ، لأرتاح قليلاً . . فإذا بك تنقذيننى من نفسى ! ابتسمت وهى تقول : « الراحة أثناء دراسة القضايا ، أمر لا بد منه ، حتى لا يشوّش الإرهاق أذهاننا !

سألها وهو يبتسم : « ما رأيك فى قدح قهوة ؟ . . فرصة نتحدث خلالها معا . . راحة ربع ساعة ، ثم أعود بعدها لاستكمال دراسة هذه المذكرة الممتعة » .

ابتسمت وهى ترد تحيته لمجهودها : « شكراً يا دكتور . . ولا بأس أبدا بقدح من قهوة البن الفاخر الذى تعده سمية هانم » .

رفع الدكتور الزيدى سماعة التليفون الداخلى ، وأوصى بقدحين من القهوة ، ثم رد السماعة إلى مكانها ، وهو يرحب بتلميذته الغالية .

سألته عائدة ، وهى تقدم له الصحيفة مفتوحة على الصفحة التى تتوسطها صورة اللص ، وهى تقول : « هل قرأت نبأ هذا الحادث يا دكتور ؟ »

ضحك الدكتور الزيدى من قلبه ، وهو يقول :

– قرأت الحادث بكل تفصيلاته ، وأضحكنى اللص عبد الغفار

بسلوكه الغريب ، وبخفة دمه . . فعندما فوجئ بأربعة من اللصوص يدخلون المسكن ، وهو بداخله يتأهب للسرقة ، عرض عليهم أن يتعاونوا معا ، وأن يقتسم معهم ما سيسرقون ، قسمة الحق . . لكل منهم الخمس تطبيقاً لمبدأ الاشتراكية . . بمفهومه الخطأ طبعاً ! »

ضحكت عائدة ، وهى تقول :

– إنه فهم الاشتراكية بمعنى الاشتراك فى المسروقات . .

– كالكثيرين !

وضحك الدكتور الريدى وهو يقول :

– ومع ذلك ، فقد رفض اللصوص الأربعة ، وظنوا أنفسهم – وهم أربعة – يستطيعون أكله – وهو واحد صحيح – وراح يحتال على إقناعهم دون جدوى . . وكان أجمل ما فى أقواله أنه يحاول أن يتفق معهم كأى « جنتلمان » . . هكذا الكلمة منقولة عنه فى الصحف ، كما لاشك أنك قرأتها ، واستلفتت نظرك .

– استلفتت نظرى حقيقة ، وضحكت . . .

– ومع ذلك رفضوا ، ظنًّا منهم أنهم سيرهبونه بعددهم ... فما كان منه إلا أن لبس القبضة الحديدية فى أصابعه ، واكتسحهم . . وسمع الجيران ضجة المعركة ، فقبض عليهم جميعاً .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال الدكتور الريدى بعدها لتلميذته :

– لص خفيف الدم ، بلا أدنى شك . . ولكن ما الذى أثار اهتمامك بهذا الحادث بالذات ، فدعاك لسؤالى إن كنت قد قرأت تفصيلاته ؟

أطرقت عائدة قليلا ، ثم رفعت رأسها ، وواجهت بعينيها الصافيتين

العميقتين عيني أستاذها ، وهى تقول : « إنه . . هو . . يا دكتور ! »

ولم يفهم الدكتور الريدى شيئاً من هذه الكلمات الثلاث . . « إنه هو يا دكتور » . .

ولم يكد يسألها : « هو من . . يا عائدة ؟ » . . حتى دخل أحد العاملين فى خدمة المكتب ، يحمل قدحى قهوة على صينية من الفضة ، فقدم لعائدة أولاً ، ثم للدكتور . . ثم وضع الصينية وانصرف ، وأغلق الباب .

وعاد الدكتور الريدى يسأل تلميذته باهتمام :

– هو من يا عائدة ؟ . . أفصحى ، أرجوك !

– لص جريمة مدينة المهندسين ، الذى قتل عبد الحميد لطفى . بعد أن حال بينه وبين الاعتداء علىّ ، فى اللحظة الأخيرة .

هب الدكتور الريدى واقفا خلف مكتبه ، وهو يقول بصوت حاول جاهدا ألا يتجاوز باب الغرفة : « لا يمكن ! »

هزت عائدة رأسها تأكيداً ، وهى تقول :

– بل يمكن . . فهو هو . . إنه هو ، ولست بحاجة للتدقيق فى صورته ، أو لإعادة النظر فيها حتى أؤكد أنه هو . . ولم أكن أعرف اسمه حتى اليوم . . لم أكن أعرف أن اسمه عبد الغفار سرور .

وعاد الدكتور الريدى ليجلس على مقعده ، وقد حار فى ما يقول . . وأمسك بالصحيفة ، وراح يدقق النظر فى صورة اللص . .

الصورة واضحة تماماً . . ولم يكن قد أمعن فيها النظر ، عندما قرأ تفاصيل الجريمة فى الصباح . . وثبت عينيه على الصورة ، ليتأكد مما إذا كان قد رأى صاحبها من قبل . . ولكن عائدة سبقته إلى إعلان ما يريد أن

يتأكد من صحته :

– لقد كان واحداً ممن استعرضتهم منذ شهور ، عندما استدعتني النيابة وحققت معي ، ثم طلبت مني أن أخرج القاتل من بين زملائه . . إذا تعرفت عليه .

وأعاد الدكتور الريدى النظر إلى صورة اللص ، ثم رفع عينيه عنها ، وقال لعائدة : « تذكرته . . نعم ، كان واحداً منهم بكل تأكيد . . »

ثم بعد لحظة صمت قصيرة ، قصيرة جداً ، وكأنه تذكر شيئاً مهماً وخطيراً . . ! « ولكن . . ولكنك يا عائدة . . ؟ ! »

– أعرف ما ستقول يا دكتور .

– إنك قلت إنه ليس بينهم .

– لم أكن أستطيع أن أفعل يا دكتور ، فلا قلبي يعينني ، ولا لساني يطاوعني ، ولا أصبعي تستطيع أن ترتفع لتشير إليه فأقول هذا هو اللص الذى كان فى غرفة الجريمة ليلة حدوثها . . هذا الرجل يا دكتور – وإن كان لصاً – وقف بجانبي وقفة أب ، ولا أقل من وقفة أب ، برغم أنه لا يمكن أن يجاوز الثانية أو الثالثة والثلاثين . . لقد أنقذنى – فى اللحظة الأخيرة – من اعتداء وحشى كان سيقع علىّ لا محالة ، فصان عرضى ، وارتكب فى فى سبيل هذا جريمة قتل . . ولم يتخلّ عنى بعد ذلك ليتركني حتى يهرب بجلده . . ولكنه قال لى بالحرف الواحد : « إنى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، حتى تخرجى من هذا المكان ، ولو كلفنى هذا حياتى . . ومن يدرى ؟ . . ألا يجوز أن تقفى بجانبي يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة وبذلك تردين لى ما تعتقدين

أنه جميل قدمته ؟ . . كل شيء جائز يا بنتي ، ولا تستبعدى شيئاً ! . . »

« ولم يتركني بعد ذلك ، بل صحبني من الباب الخلفي للفيلا ، وسار بي وسط الخلاء ، فوق أرض وعرة ، ممسكاً بيدى حتى يجنبني عثرات الطريق فى الظلام ، إلى أن وصل بى إلى منطقة النور والعمران . . ومع ذلك لم يتركني ، بل ظل واقفاً بمبعدة مني – تحت شجرة – حتى اطمأن إلى أنني ركبت إحدى السيارات وانطلقت بى . .

« فهل كنت أملك أن أتخلى عنه بعد ذلك ، فأقابل صنيعه بالجحود والنكران ؟ . . ولماذا ؟ لأنه قتل رجلا يستحق القتل حقيقة ، بعد أن أهدر أعراض عشرات السيدات والبنات غدراً ! ! . . قد لا يكون كلامى هذا سليما من الناحية القانونية ، وهذا صحيح أسلم به . . ولكن من يطلب مني أن أدل رجال التحقيق عليه ، بعد كل ما فعل من أجلي ، فإنه يحمل الطبيعة الإنسانية فوق ما تطيق . . إلا مع الأنذال ، ولم تكن النذالة من طبعي يوماً ! »

ورفعت كوب الماء إلى فمها فبللت شفتيها على حافته ، ثم ردته إلى سطح المكتب ، ثم تناولت قدح القهوة الذى أمامها ، فرشفت منه رشفات ، بينما كان الدكتور الريدى يدير كلماتها فى رأسه ، إلى أن ابتسم وهو ينظر لها كما ينظر الأب إلى طفل فى السادسة أو السابعة من أولاده ، أتى تلقائيًّا عملاً كبيراً لا يقدر عليه إلا الرجال . . أشرف الرجال . . فسألته :

– هل كنت أستطيع أن أدلهم عليه يا دكتور بعد كل ما قدم لى ؟

– بالطبع لا .

قالها الدكتور الريدى بلا أى تردد ، فقالت عائدة :

– هو لص . . ولا يمكن أن يفلت من عيون رجال المباحث ، وإن

تأخروا فى الوصول إليه ، فإنهم حتماً سيصلون يوماً ، لا محالة . . ولكن أن يكون هذا الوصول عن طريق ، فهذا ما لن يكون قط !

واتسعت ابتسامة الدكتور الريدى ، وهو يداعب تلميذته بلغة التقاضى :

– طلبات الدفاع ؟

– أن تتفضل مشكوراً بالدفاع عنه !

– وأنا لن أخيب رجاءه فيك . . والقضية – كما يبدو – شيقة ، ومثيرة للمحامى الذى يحب البحث ، ويسعده أن ينجح فى القضايا الصعبة ، التى لا يمكن لأحد أن يتنبأ بالحكم الذى سيصدره القاضى فيها . . الطريق الرحبة المضيئة ، يستطيع . أى إنسان أن يسير فيها . . أما الدهاليز الملتوية المتشعبة ، والدروب الوعرة المعتمة ، فلا يستطيع كل إنسان أن يقتحمها ليصل إلى غايتها . .

– إذن أتقدم ، بعد إذنك ، بطلب للنيابة لمقابلته ؟

– جهزى الطلب ، وسأتقدم به باسمى ، بصفتى وكيلا عن المتهم عبد الغفار سرور .

١٨

عندما استقبلهما عبد الغفار فى زنزانته الخاصة – باعتباره من المجرمين الخطرين – راح يفرك عينيه بكفيه ، كأنه لا يستطيع أن يصدق . . وأطال النظر إلى عايدة وهو يقول لها : « سيادتك ؟ ! »

ابتسمت عائدة فى مودة وعطف ظاهرين ، وهى تقول : « سيادتى يا عبد الغفار » .

– عرفت اسمى ؟

– من الصحف التى نشرت الحادث . كنت أجهله حتى يوم أمس .

– أنا أيضاً عرفت اسمك من الصحف ، منذ شهور .

– وقتها كنت معيدة فى كلية الحقوق . . أما اليوم ، فأنا محامية .

– محامية ؟ !

– كنت لا أزال طالبة فى السنة النهائية ، ليلة الحادث ، ثم تخرجت بعدها بشهور .

نظر لها ، وكأن الذكرى تقيمه وتقعده ، إلى أن قال :

– لن أنسى لك موقفك يوم العرض القانونى . . ألم أقل لك ليلة الجريمة إنك قد تقفين إلى جانبي يوما ، لتردى لى ما تعتقدين أنه دين ، أو جميل قدمته لك ؟

أجابته فى هدوء :

– وها أنا ذى أزورك اليوم ، ومعى أستاذى الدكتور نور الدين الريدى المحامى ، وهو من أكبر محامى البلد – إن لم يكن أكبرهم وشيخهم جميعاً – وقد تطوع ليتولى قضيتك والدفاع عنك .

نظر عبد الغفار إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– يا سعادة الدكتور . . أقسم لك أننى لم أقتله ، أنا صادق . . فأنا رجل . . ولو قتلته لاعترفت بقتله . . إنى مثلا على استعداد لأن أعترف بقتل « المجحوم » – فى ستين داهية – الذى كان سيعتدى على الأستاذة عايدة ،

لأنى قتلته فعلا . . أعترف على الأقل لأنظف ثوبها مما لا يزال عالقاً به من شبهات . . ولكن هذا الصرصور الذى قتل فى حادث السرقة الأخير ، هذا الأسبوع ، لم أقتله ! »

ابتسم الدكتور الربدى وقد هزته شخصية هذا اللص الغريب ، فسأله بلطف :

– مَن الذى قتله إذن يا عبد الغفار ؟ . . صوّرلى الحادث كما وقع ، لأستطيع أن أحسن الدفاع عنك .

– لقد فوجئت بدخولهم وأنا داخل المسكن . . هم أربعة ، وأنا واحد . . وعندما حاولت الاتفاق معهم ، اتفاق « جنتلمان » ، وتنازلت لهم عن أربعة أخماس العملية – مع أن العرف بيننا يحتم عليهم الانسحاب ، ماداموا دخلوا المسكن فوجدوا زميلا سبقهم إليه – لم يستجيبوا لى . . واندفع أحدهم يريد أن يطعننى بمطواة قرن الغزال ، ولكنى لا أؤكل سهلا يا سعادة الدكتور . . واستطعت أن أفوّت عليه الطعنة ، وأسرعت بالقبضة الحديدية بين أصابعى ، فكنستهم . .

– ثم ؟

– أحدهم ، وهو كما بدالى رئيسهم ، أمسك بتمثال من النحاس ، قائم على خزانة ملابس منخفضة – ذات أدراج كثيرة – وحاول أن يهوى به فوق رأسى . . ولكنى تفاديت الضربة ، وإذا به يُصيب زميله ، الذى سقط بلا حراك . . ضربة التمثال فلقت رأسه ، فغرق فى دمه . . أنا لا أحب القتل يا سعادة الدكتور . . (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها) صدق الله العظيم ، ولا ألجأ إليه إلا للضرورة ، التى لا أرى معها مفرّاً من

الالتجاء إليه مثل حالة الأستاذة عائدة مثلا . . فقد كنت أدافع عنها وعن نفسي . . كانت معركة حياة أو موت . . وصدقني يا سعادة الدكتور ، وحياة بنتي رشا . . ما قتلت فى حياتى إلا هذا الحلوف « عبد الحميد لطفى » . قتلته مضطراً !

– أصدقك يا عبد الغفار .

– وكان الجيران قد أحسّوا بالمعركة فكسروا الباب وحاصرونا ، وبينهم – من السكان – بعض رجال الشرطة ، من الرتب العالية . . تعرفت عليهم من نظرة . . ولم أشأ للعملية أن تتسع أكثر ، فسلّمت نفسي وأنا واثق بأننى برىء من تهمة القتل ، ولا ينقصنى إلا المحامى « العُقْدةَ » لكى يظهر براءتى من هذه التهمة . .

الابتسامة لا تزال على شفتى الدكتور الريدى ، وهو يسأله :

– والسرقة يا عبد الغفار ؟

ابتسم عبد الغفار ، وهو يقول :

– هذه لا مناقشة فيها . . شروع فى سرقة ثابت ولا مفر منه ، لأننى كنت داخل المسكن فعلا ، أما القتل فلا . . ومع ذلك فنحن لم نسرق شيئا . . إنه شروع فى سرقة لم تتم . .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، سأله بعدها الدكتور الريدى :

– قل لى يا عبد الغفار . .

– خادمك يا دكتور.

– أستغفر الله يا رجل

– خادمك والله العظيم . . وخادم الأستاذة عائدة لآخر قطرة من

دمى ، كما قلت لها ليلة الجريمة . .

– حسن جداً . . ولكن هل أنت جادّ حقيقة ، فيما أعلنته الآن ؟

– بخصوص ماذا ؟

– إنك على استعداد لأن تعترف بقتل عبد الحميد لطفى ، لتنظف ثوب الأستاذه عائده كما قلت . .

– رقبتى يا دكتور .

– بجدّ ؟

– الرجل بكلمته يا دكتور . . وحتما سيصلون إلىّ يوماً ، فلم لا يكون هذا اليوم ، اليوم قبل الغد . . على الأقل ، إذا سلّمت نفسى بنفسى ، واعترفت ، ربما كان هذا من دواعي تخفيف العقوبة ، مع مرافعة سعادتك .

– يعنى مستعد لأن تقدّم طلباً للنيابة الآن ، تقول فيه إن عندك أقوالا تريد أن تدلى بها فى جريمة مدينة المهندسين . .

– على أتم استعداد . . والآن ، إذا شئت سعادتك .

ونظر الدكتور الريدى نظرة طويلة لهذه الشخصية الفريدة كما راحت عائدة تتأمله من جديد . . ولم تستطع أن تمنع طبقة رقيقة من الدموع من أن تلمع فى عينيها ، لحظها عبد الغفار ، فقال لها :

– رقبتى يا ست هانم فداء دمعة من هذه الدموع . . ولا يهمك . أنا رجل وأعجبك والله العظيم ، والرجل يُربط من لسانه .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وقال له :

– اتخذ إجراءاتك يا سعادة الدكتور ، وأنا جاهز . . وكله باق لابنتى « رشا » وأمها . . وأنا لا أريد أن أظل مطارداً بتهمة قتل إلى نهاية عمرى .

لم يضيع الدكتور الريدى دقيقة من وقته ، فأسرع باتخاذ كافة الإجراءات الواجب اتخاذها، بوصفه وكيلاً عن المتهم عبد الغفار سرور.

وعندما بدئ التحقيق معه ، وقف إلى جانبه بهذه الصفة ، ليتابع إجاباته عن أسئلة المحقق كلمة بكلمة ، حتى لا يزل لسانه . .

ولما انتهت جلسة التحقيق ، قال الدكتور الريدى للمحقق ، إن المتهم يريد أن يعترف بجريمة ارتكبها منذ نحو عامين أو أكثر قليلا ، وحُفظ التحقيق فيها لعدم العثور على الفاعل . والجريمة التى يريد المتهم أن يعترف بارتكابها ، اشتهرت باسم جريمة مدينة المهندسين ، والمجنى عليه فيها الثرى « عبد الحميد لطفى »

وفتح النائب المحقق تحقيقاً جديداً . .

* * *

ومن جديد دارت مطابع الصحف ، لتظهر صباح اليوم التالى حاملة أكثر العناوين إثارة وتشويقًا للقراءة .

* القاتل الحقيقى فى جريمة مدينة المهندسين ، يعترف بجريمته بعد أكثر من سنتين .

* اعترافات مذهلة يمليها القاتل فى جلسة التحقيق .

* المجنى عليه كان يأتى أعمالاً يندى لها جبين الأخلاق ، بعد أن يخدر ضحاياه ، وكاد يفتك بإحدى طالبات كلية الحقوق ، لولا أن تقدم اللص فأنقذها .

* القاتل يقول : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة ، ولو لم أقتله لقتله غيرى .

* غاظنى منه أنه يحمل مصحفاً صغيراً فى علبة من الذهب ، بينما يرتكب أخس الأفعال بلا وازع من ضمير .

* إنى أعترف بارتكاب هذه الجريمة ، لأغسل وأنظف ثوب سيدة كريمة فضلى ، من شوائب قد تكون عالقة به . .

وعشرات الصور تغطى صحف الصباح اليومية الثلاث . . عبد الغفار يتكلم ، أو يشير بيديه ، أو ترتسم على وجهه الانفعالات المختلفة من هدوء أو ثورة . . من رضى أو غضب . . من تأن أو اندفاع .

ولكنه لم يبتسم أبدا . . لم تُلتقط له صورة واحدة وهو يبتسم ، وكأنما البسمة لم تطف بشفتيه منذ ولدته أمه وحتى هذه اللحظات ، التى بدأ يحس معها أنه يواجه مصيره المحتوم . .

ولم يفت كل صحيفة — وهى تفرد صفحة كاملة لاعترافات اللص المثيرة — أن تنشر صورة للمجنى عليه عبد الحميد لطفى . . ثم صورة عريضة من صور عائدة ، تم اختيارها بعناية شديدة ، فكانت تبدو فى كل من هذه الصور — فى مختلف الصحف الثلاث — كما لو كانت أميرة تنظر إلى متاهات أفق عريض ، بعيد ، مجهول ، تحاول أن تستشفّ فى كلماته ما يترصدها به من أحداث ، قد تهبط بها عن عرش إمارتها إلى القاع

الصور كانت قد التقطت لها ليلة أن استدعتها النيابة للتحقيق معها ، ثم أفرجت عنها بضمان والدها . . لتعود فى اليوم التالى لكى تجرى النيابة أمامها عرضا حيا لمجموعة من أخطر لصوص القاهرة ، لتخرج من بينهم القاتل ، إذا كان بينهم .

والتمس الدكتور الريدى نظر القضيتين فى جلسة واحدة ، فأجيب التماسه . وحددت الجلسة ، التى غصت بأعداد من مختلف الطبقات . من جموع الناس ، لم يكن لقاعة المحكمة أى عهد بها من قبل .

وكانت « توحة » ضمن الحاضرين . . وكان الدكتور محمود . . والد عائدة ، ضمن الحاضرين أيضاً .

حضرت « توحة » – زوجة عبد الغفار فى ثوب بسيط نظيف . وكانت ابنتها « رشا » تمسك بيدها ، لا تدرى معنى لما يجرى حولها . . إنها الآن فى الخامسة من عمرها . . كل ما تدريه أنها شاهدت أباها خلف قضبان من الحديد ، وأنه عندما أراد أن يقبلها ، ركع على ركبتيه ، وقبلها من بين هذه القضبان ، وهى لا تدرى لماذا .

وحضر الدكتور محمود . . والد عائدة – ليرى هذا اللص الذى دافع عن ابنته دفاع المستميت ، وحال دون وحش بشرى من أن يعتدى عليها أبشع اعتداء ، وارتكب فى سبيل ذلك جريمة قتل . . حضر الدكتور محمود ليرى هذا اللص ، ليصافحه ، وليقدم له تحية شكر وعرفان ، ولينحنى أمام إنسانيته . . إنه لص ، هذا صحيح . . ولكنه فى نظر والد الفتاة التى صان عرضها إنسان تربع قمة الإنسانية . .

ترافع الدكتور الريدى عن موكله – المتهم عبد الغفار سرور – فى القضيتين : قضية السرقة التى وُجهت إليه معها تهمة قتل أحد اللصوص ، ثم قضية مقتل الثرى عبد الحميد لطفى .

ورفعت الجلسة للمداولة ، ثم انعقدت بعد ثلاث ساعات ، للنطق بالأحكام . . وكان نصيب عبد الغفار منها :

البراءة من تهمة قتل اللص . . والسجن لمدة سنة عن تهمة الشروع في السرقة . . ثم السجن مع الأشغال الشاقة – لمدة خمس عشرة سنة – لقتله الثرى عبد الحميد لطفى

* * *

ورفعت الجلسة . .وبارح الجميع القاعة . ما عدا خمسة : الدكتور الريدى ، وعائدة ، ووالدها ، وتوحه . . ثم رشا .

واقتربوا من القفص . .

وكان عبد الغفار البادئ بالكلام . . نظر إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– سعادة الدكتور . . لا أعرف كيف أشكرك . . لقد كنت أنتظر السجن المؤبد فى كل من القضيتين ، فإذا بك – بحول الله – تختصر الخمسين سنة إلى ست عشرة . . وإذا هدانى الله فى السجن – وسيهدينى بإذنه – ستصبح الست عشرة سنة اثنتى عشرة فقط .

ابتسم الدكتور الريدى ، وهو يقول : « يا عبد الغفار . . » .

– خادمك يا سعادة الدكتور .

– برغم حياتك التى اختارتها الظروف لك ، فإنى أراك شديد الإيمان بالله .

– ونِعْم بالله .

– فإذا ظللت متمسكاً بإيمانك هذا ، فثق بأن الله سيكرمك فى مقبل أيامك .

– أنا أسلمت أمرى لله ، الذى أمدّنى بقوة من عنده لكى أعترف بجريمة مدينة المهندسين ، حتى تتخلص الأستاذة عائدة نهائيًا من القلق

الذى لازمها أكثر من عامين ، ولأتخلص أنا أيضاً من مطاردة لا مفر من مواجهة نهايتها يوماً ما . .

أجابته عائدة ، فى ابتسامتها الوديعة :

– شكراً يا عبد الغفار . . شكراً من كل قلبى .

ولمحت دمعة تبرق فى عينيه ، فاتسعت ابتسامتها فى وجهه أكثر ، وهى تقول عاتبة : « وبعد يا عبد الغفار . . اهكذا تضعف ؟ »

واسرع فالتقط الطبقة اللامعة من مقلتيه ، قبل أن تنساب دموعاً على خديه ، وهو يقول :

– أنا لايهمنى شخصى ، ولا تهمنى نفسى يا ست هانم ، ولكن . . ولكن . . :

واختنق صوته ، فخاف أن تخونه دموعه ، فأمسك . . وأشار إلى زوجته وإلى طفلته . . وأدركت عائدة ما كان يريد أن يقول . .

والدها أيضاً أدرك ما أدركته ابنته ، فتدخل فى الحديث قائلا : « يا عبد الغفار . . » .

واسرعت عائدة تقول :

– هذا والدى يا عبد الغفار . . الدكتور محمود فهمى . .

– أهلا يا سعادة الدكتور . . ربنا يحفظك لها ، ويحميها لك !

– لقد حضرت اليوم خصيصاً لاراك ، لأصافحك ، لأحييك . . لأشكرك من كل قلبى ، فإنك عرضت حياتك للهلاك من أجل ابنتى الوحيدة ، وارتكبت جريمة قتل – كنت فى غنى عن ارتكابها – لتنقذ عرضها من هوان الاغتصاب . . يا أخ عبد الغفار ، هذه يدى أصافحك . .

ومد عبد الغفار يده من داخل القضبان ، ليصافح اليد الممدودة له من خارجها . وهو يقول :

– أنالم أفعل إلا ما يفعله أى رجل شريف . .

– أما عن   ورشا ، فإنهما ستخرجان من هذه القاعة إلى بيتى رأساً لتقيما معى ومع ابنتى ووالدتها ، ولن تتركا البيت بعد ذلك أبدا .

– ربنا يكرمك يا سعادة الدكتور .

وابتسم الدكتور ، وهو ينظر إلى الطفلة الجميلة ويسأل :

– رشا عمرها الآن . . ؟

– خمسة أعوام تقريباً .

– سألحقها بالمدرسة من مطلع الموسم الدراسى القادم .

وهتفت توحة ، فى صوت تشيع الفرحة فى نبراته : « مدرسة ؟ ؟ »

– وعند ما يخرج عبد الغفار من السجن – بعد اثنتى عشرة سنة بإذن الله – سيحتفل معنا بنجاحها فى الثانوية العامة . . وسألحقها بكلية الطب يا توحة ، لنراها جميعاً بعد ستة أعوام طبيبة ، فلا يناديك أحد إلا بقوله يا أم الدكتورة !

وبكى عبد الغفار . . بكى وهمّ بخطف يد الدكتور محمود ليقبلها ، ولكن هذا سحبها منه بلطف ، وهو يقول :

– أستغفر الله يا عبد الغفار .

– ربنا يعمر بيتك يا سعادة الدكتور ، ويحفظ لك الأستاذة عايدة والست الهانم الكبيرة والدتها . . ربنا يسترك ، ويخلف عليك ، ولا يريك ضيما قط !

والتقطت عائدة طرف الحديث من والدها ، فقالت لعبد الغفار :

– وبعد ، فإنك ستزانا – توحة ورشا وأنا – فى كل موعد زيارة ، وكأنك لم تفترق عنهما . . ستزورك كل أسبوع . . وسترى أننى سأكون عند وعدى .

ثم لحظة صمت ، أضافت بعدها :

– ومن يدرى يا عبد الغفار . .فالمناسبات كثيرة ، حيث يعلن الإفراج عمن أمضى نصف المدة المحكوم عليه بها ، إذا كان حسن السلوك خلالها .

– يارب ياست هانم . . يارب !

واختم الدكتور محمود الحديث بقوله :

– بقيت نقطة مهمة وأخيرة يا عبد الغفار . . إنك يوم تخرج من السجن ، ستجد عملا شريفا ينتظرك ، تبدأ ممارسته فى نفس اليوم . . يوم خروجك . و . . ونتركك الآن بخير وفى أمان الله !

وابتسم عبد الغفار . . ابتسم ابتسامة رضى واقتناع وقناعة ، وهو يقول للدكتور محمود :

– أرحتنى يا سعادة الدكتور . . طمأنت قلبى يا أستاذة عائدة . . مادامت توحة ورشا ستكونان فى رعايتكم بعد الله .

ثم نظر للدكتور الريدى وهو يقول :

– اما سعادتك يا سعادة الدكتور ، فاعفنى إذا عجزت الكلمات عن الوفاء بالتعبير عن شكرى لسعادتك .

ونظر للجميع وهو يقول : « مع السلامه . . مع السلامة يا توحه . . مع السلامة يا رشا . . مع السلامة كلكم ! »

وانصرفوا . .

وبقى هو فى القفص مع بقية المحكوم عليهم ، ينتظرون جميعاً من سيقودونهم إلى السيارة التى تحملهم إلى السجن . .

١٩

الشهر نوفمبر . . أخذ الأيام العشرة الأولى من نوفمبر . . بعد محاكمة عبد الغفار وصدور الحكم عليه بنحو أربعة أشهر . .

عائدة جالسة فى مكتبها ، والساعة حول معصمها تشير إلى منتصف الثامنة مساء .

أستاذها الدكتور الريدى يمر بها – بغرفة مكتبها – كعادته ، ليسألها سؤاله التقليدى ، إذا كان سينصرف قبلها : إن كانت بحاجة لأى شىء ، فتشكر له عنايته واهتمامه ، فيحييها وينصرف ، وهى تقول له :

– إنى أنتظر سيارتى ، لأن ناقل السرعة[1] بحاجة لإصلاح ، وقد وعدنى الحاج إدريس بأن يحضرها لى بنفسه ، بعد أن يتم إصلاحه ، ووعدنى بأنه سيكون هنا قبل الثامنة . . ولهذا فأنا مضطرة لانتظاره .

ومرت دقائق . . عشر دقائق . . خمس عشرة دقيقة . .

وسمعت طرقاً على باب غرفتها ، فأذنت للطارق بالدخول . .

---

(١) ناقل السرعة هو « التفليتيس » فى السيارة – « معجم الفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

كان أحد العاملين بالمكتب . . عم رضوان .

– أهلاً يا عم رضوان !

– أهلاً بسيادتك يا أستاذة عائدة . . هناك من يريد مقابلتك

– ألم يخبرك من يكون ؟

– اسمه زكى الرفاعى . . الأستاذ زكى الرفاعى .

* * *

ومرت لحظة صمت قصيرة ، أحست عائدة خلالها بأنها ترتفع ، وترتفع ، وترتفع ، حتى أصبحت تراه صغيراً ، صغيراً ، صغيراً . . وكلما أحست بارتفاعها أكثر ، ازداد صغراً وضآلة أكثر . . ثم نظرت إلى عم رضوان ، وقالت له فى هدوء وابتسامة على شفتيها :

– فليتفضل ياعم رضوان !

ووقفت خلف مكتبها قبل أن يدخل زوجها السابق ، فلما دخل صافحته بأدبها العالى ، والابتسامة ما زالت فوق شفتيها ، وقالت له :

– تفضل يا أستاذ زكى . . تفضل بالجلوس !

وجلست ، فجلس . .

– قهوة ، أو شراب من الثلاجة ؟

– شكراً .

– أهلا وسهلاً .

لم تسأله سبب الزيارة ، لأنها أرادت أن تترك له اختيار مدخل الحديث ، فقد كانت تعرف كل ما سيقوله . . قبل أن يقوله .

هو الذى فى زيارتها فيجب أن يبدأ – هو – حديثه .

سألها السؤالين الساذجين :

– كيف صحة الوالد ؟

– بخير .

– والوالدة ؟

– الحمد لله .

وعاد الصمت يعقد لسانه ، إلى أن وجد الكلمات ، فقال :

– فى الحقيقة يا أستاذة عائدة . . إننى جئت لك اليوم ، لأرجو منك أن يعود كل منا للآخر ، وأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

واجهته فى شجاعة ، ودون أن تهرب الابتسامة من قسمات وجهها : وقالت له فى أدب شديد :

– أستاذ زكى . . إننى آسفة أشد الأسف ، لأنك تسألنى ما لا أستطيع تحقيقه لك .

– ولِمَ ؟

– لم يعد أحدنا يصلح للآخر .

– إننا تعاشرنا شهوراً ، زوجين سعيدين . . فلم لا يصلح أحدنا للآخر ؟

– لأنك طلقتنى .

– كنتُ متسرعاً .

– هذا غير صحيح .

– غير صحيح ؟ !

– لو أنك كنت متسرعاً كما تقول ، لطلقتنى فى غرفة التحقيق ،

بعد أن سمعت ما ساءك من تفاصيل قصتي . . أو كنت خرجت من غرفة التحقيق إلى أقرب مأذون من مأذوني الشرع ، أو إلى أقرب قسم من أقسام الشرطة ، لتطلقني هناك كما فعلت . . في مثل هذه الحال أستطيع أن ألتمس لك عذراً ، فأقول إنه فعلها في لحظة انفعال وتسرع . . أما أن تنتظر أسبوعين ، ثم أتلقى وثيقة طلاقي ، يسلمني إياها أحد رجال الشرطة ، فمعنى هذا أنك لم تتسرع . . بل إنك فكرت تفكيراً طويلاً ، متأنياً ، اقتنعت بعده بأنك لا تصلح لي ، أو أنني لا أصلح لك . . وفي هذه الحال ، لا أرى – بكل أسف – أي مبرر أو ضرورة لأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

وأحس زكي بأنه يتضاءل أمامها . . كان منطقها صحيحاً ، وعادلاً ، ومنصفاً . . وقبل أن يحاول رد حجتها بضدها ، استأنفت هي حديثها فقالت :

– إنك اعتقدت ، أو شككت ، مجرد شك – ولو للحظة واحدة ، ولا أقول لأكثر من عامين ، منذ ليلة التحقيق معي – أنني فتاة سهلة ، يمكن أن تعبث ، وأن يصل عبثها إلى درجة التفريط . . وأنت لم تفكر في زيارتي لتعرض على أن أعود إليك ، أو تعود إليّ ، إلا بعد أن ضرب اللص عبد الغفار سرور مثل الرجولة ، فبلغ بمروءته وشجاعته ذرى الإنسانية وقممها . .

« رجل حر طليق . . يجري ، ويمرح ، ويسرق ، وينفق ، ويعبد زوجته وطفلته الواحدة . . وقضيته ميؤوس تماماً من العثور على الجاني فيها ، ومع ذلك لم يتردد ، عندما التقى بي ، في أن يعترف بأنه هو هذا الجاني الميؤوس من الوصول إليه . . ليضحي بحريته . . ليسجن اثنتي عشرة سنة ، إذا افترضنا الإفراج عنه بعد انقضاء ثلاثة أرباع المدة المحكوم

بها عليه . . من أجل ماذا ؟

« من أجل أن ينظف ثوب سيدة « كريمة فضلى » — كما وصفنى — مما قد يكون عالقاً به من شوائب . . فهل تظننى مستطيعة أن أعود إليك ، بعد كل هذا ؟

« إنك لم تشرفنى بهذه الزيارة ، إلا بعد أن اعترف عبد الغفار بكل شيء ، فصدقته . . أما أنا فإنك لم تصدقنى ، كنت أتمنى أن تفعل . . أن تقف إلى جانبى كما وقف أبى وأستاذى الدكتور الريدى . . بل وكما وقف لص لا تربطه بى أية صلة . . كنت أتمنى أن تدافع عنى ، أن تحمينى ، أن تعلن على الجميع أن زوجتك ضحية ، وأنها مجنى عليها وليست جانية . . ولكنك لم تفعل . . كل ما فعلته أنك طلقتنى فى قسم الشرطة دون أن تقدر أننى عشت هذه الشهور الطويلة أتعذب . . أتمزق . . أتفتت . . كنت كمن تمشى عارية — أو فى القليل — حافية على الشوك .

ومرت لحظة صمت هائلة ، أحس زكى الرفاعى خلالها بأنه لم يعد ينتمى إلى هذا العالم . . لقد سلقته عائدة فى حوض ماء مغلى ، كما تُسلق الدجاجة بريشها ، تهيئه لتعريتها من هذا الريش . . فقد أحس زكى بأن عائدة قد عرته تماماً ،

وعادت تقول ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة :

— أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يكن فى نيتى أن أُسْمِعك كل ما أسمعتك ، عندما أخبرنى عم رضوان أنك تطلب مقابلتى ، ولكن . . لا أدرى ماذا جرى لى . . فأرجو منك أن تقبل اعتذارى .

رفع زكى إليها عينين ذابلتين متعبتين ، كما لو أنه لم ينم منذ طلقها

وحتى هذه اللحظة . . وهمس فى ضعف :

– يعنى . . لا أمل ؟ ؟

– أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يعد كل منا يصلح للآخر . . طريقك غير طريقى ، كما أن طريقى غير طريقك .

ووقف زكى فوقفت . . ومد يده يصافحها فصافحته بأدبها العالى المألوف . . ومشت معه إلى باب حجرة مكتبها ، وهى تقول له : « مع السلامة ! » .

وعادت إلى مكتبها . . ونظرت إلى الساعة حول معصمها ، وهى تقول لنفسها :

– تأخر الحاج إدريس . . وأريد أن أعود إلى البيت .

ولم تكد تنتهى عبارتها ، حتى أزّ جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالحاج إدريس يقول لها إن سيارتها لن يتم إصلاحها الليلة ، فهناك قطعة لا مفر من إبدالها بجديدة ، ولن يتيسر له هذا إلا صباح اليوم التالى .

وبارحت مكتبها ، وألقت إلى عم رضوان ووكيل الدكتور الريدى والضارب على الآلة الكاتبة بتحية المساء ، وهبطت فى المصعد ، ومنه إلى الطريق . . إلى شارع قصر النيل .

ووقفت تنتظر سيارة تحملها إلى البيت . .

السيارات تمضى تحمل الراكبين ، أو خالية ، ولكن سائقيها لا يقفون لمن يشير إليهم بالتوقف .

ومرت سيارة . . سيارتان . . ثلاث سيارات . . أربع . . خمس . . عشر . .

وهى واقفة فى مكانها ، أمام باب المبنى الذى يضم مكتبها . . مكتب

أستاذها الدكتور الريدى .

وانقضى ثلث ساعة . .

فجأة ، وقفت أمامها سيارة فاخرة ، فتح سائقها بابها ، وهو يقول فى أدب مفرط :

– الآنسة ، لوسمحت لى بحملها إلى حيث تريد ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه . .

وابتسمت . . المصيبة أنه لا يدرى لماذا ابتسمت ! . .

مصيبة أكبر . . أنه فسر ابتسامتها بأنها تشجعه . . بأن صاحبة هذه الابتسامة ممن ينتظرنه ، أو ينتظرن غيره ، أوغيره ، أوغيره . فأضاف :

– إن العثور على تاكسى فى مثل هذه الساعة ، وفى هذا الشارع بالذات ، يعتبر من المستحيلات . . فتفضلى . . سأحملك إلى حيث تريدين . . ولو قلت إلى الإسكندرية !

أحنت رأسها وهى تقول له : « شكراً » .

– سيدتى . . يعزّ علىّ وقوفك فى مثل هذه الساعة ، وقد أقبل الليل .

– شكراً مرة أخرى .

وعاد يلح : « ولكن . . . »

قاطعته وهى تقول فى حزم يفرض شخصيتها فرضاً :

– أرجوك ، لا تلحّ وانصرف لحالك بسلام . . وإلا . .

واكتشف أنها ليست ممن ينتظرنه أو ينتظرن غيره ، فابتعد بسيارته ، وهو يسأل نفسه :

– هذا غريب . . غريب جداً . . فيمَ اذن كانت ابتسامتها المشجعة ،

لحظة أن وقفت ودعوتها للركوب ؟ !

وانطلق بسيارته متجهاً إلى ميدان التحرير . .

ومرت إحدى السيارات . وكانت خالية . ولكن سائقها لم يتوقف لها عندما أشارت له . .

بعدها مباشرة ، رأت سيارة مقبلة . فأشارت لسائقها . فوقف لها ، وتقدمت ، وفتحت الباب ، وركبت . . ولم يفتها أن تلتقط رقم السيارة المكتوب على بابها ، لتحفظه في ذاكرتها . . وابتسمت وهي تقول في همس :

– الله يمسيك بالخير يا عبد الغفار ويفك عنك !

فقد تذكرت نصيحته لها ليلة الجريمة .

ونكس السائق راية العداد وهي تقول له :

– جاردن سيتي من فضلك !

وابتعدت بها السيارة .

تمت

الخميس ١٩ يونيه ١٩٧٥ – الأحد ٢٤ أغسطس ١٩٧٥

رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٤٢٦
الترقيم الدولى	٩٧٧–٠٢–٠١٠٠–٦ ISBN

١/٨٢/١٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

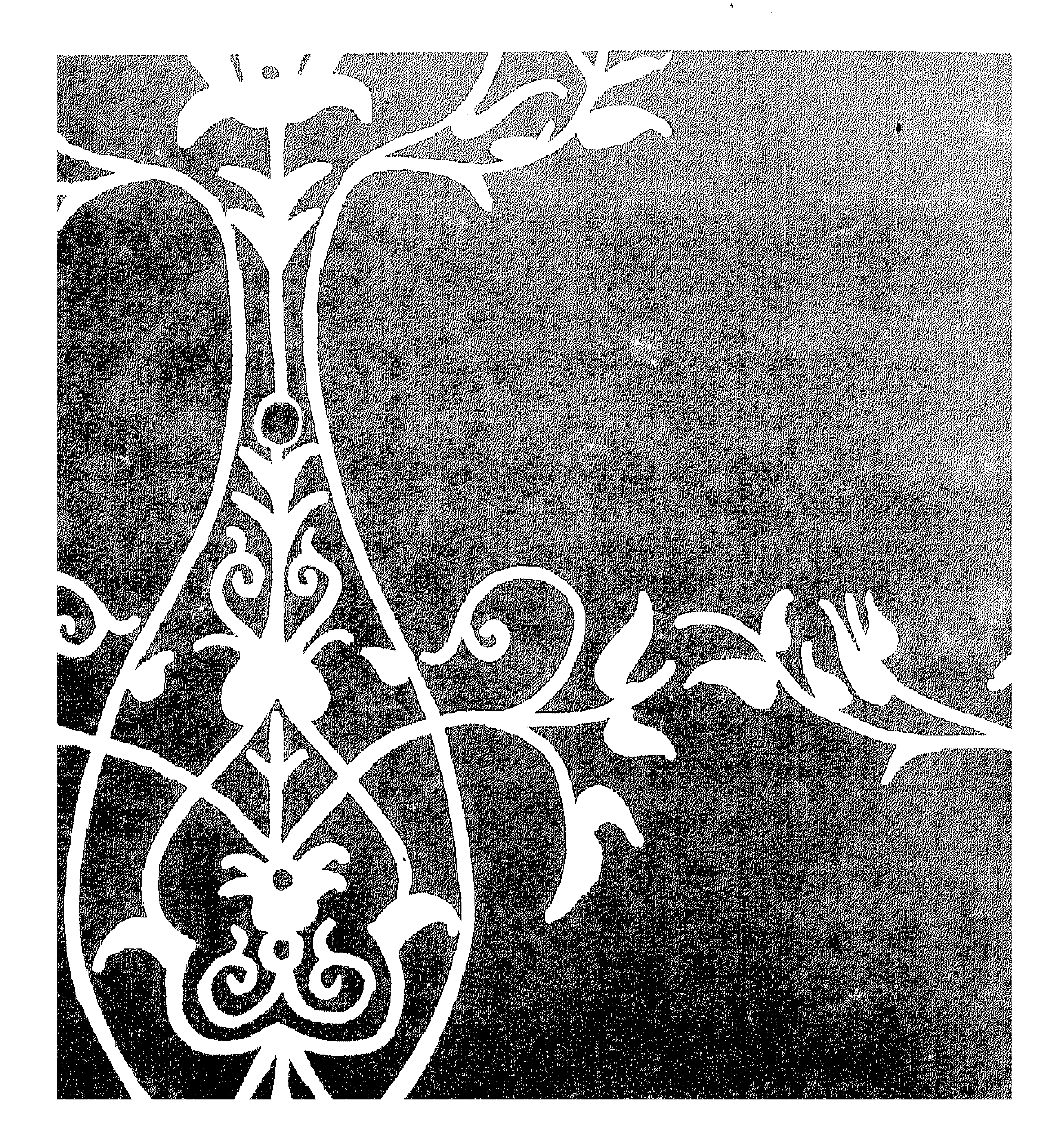

٥٠

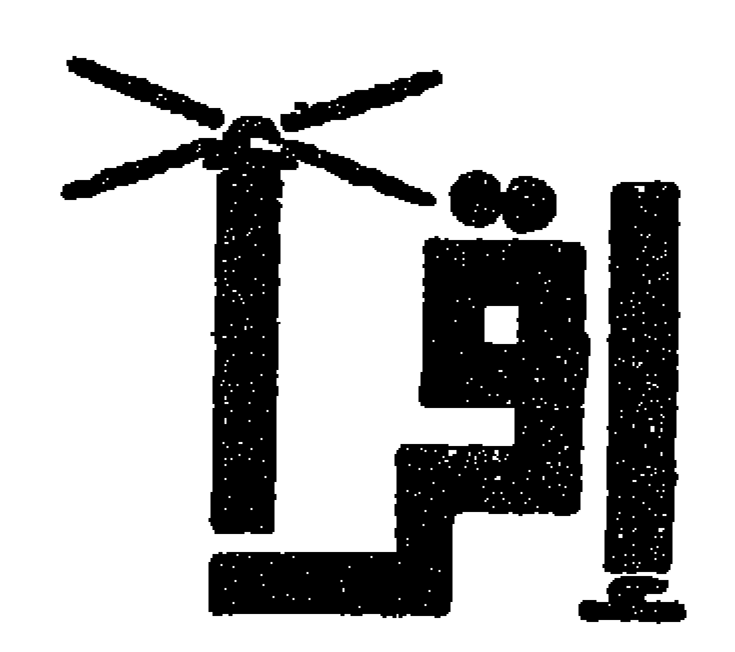
اقرأ

الإسلام

والمذاهب الحديثة

فتحي رضوان





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



فتحي رضوان

الإسلام والمذاهب الحديثة

اقرأ ٤١٥

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٥)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

العامل الاقتصادى فى القرآن

أراد بعض الذين لم يقرأوا القرآن ، أو الذين قرأوه ، دون أن يتدبروه ، أو الذين قرأوه وتدبروا معانيه ، وأدركوا آياته ومراميه ، ولكن لمرض فى قلوبهم : نسبوا إليه ما ليس فيه : أولئك جميعاً : أرادوا أن يصوروا الدين الإسلامى بأنه ذهول عن حقائق الدنيا ، التى لا فرار منها ، ولا فكاك من أثرها ، فى حياة الآدميين ، وأنه [دين روحانى فقط] . والروحانية عندهم ، قرين الغيبوبة ، يفر بها الإنسان المغلوب على أمره ، من متاعب جوعه وفقره ، وآلام عجزه وضعفه ، إلى عالم يتخيله ، هو عالم الآخرة ، يعوض فيه عن الجوع ، بأنهار من عسل مصفى ، وأنهار من ماء غير آسن : وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ويعوض عن حرمانه وهوانه ، بولدان مخلدين ، وحور عين ، ويعوض عن خوفه وقلقه ، عن حياة لا خوف عليهم فيها ولا يحزنون .

أما الحقائق المادية للحياة ، من سعى فى الدنيا ، يؤدى إلى جمع المال : وإحسان توزيعه ، وسد حاجة المحتاجين بالطعام يأكلونه ، وبالكساء يرتدونه ، وبالمسكن يأوون إليه ، وتطيب نفوسهم فيه ، بعد عناء المجاهدة ، من أجل الرزق واللقمة ، فوقف على جماعة من أقوياء المجتمع ، تنتهى إليهم السلطة ، وتسلم لهم مقاليد التجارة والصناعة والزراعة ، ويجمعون بين جاه الدنيا : مناصب الرياسة والسيادة ، وجاه الدين : أحباراً وكهاناً وسدنة للمعابد .

وليس ثمة شيء أبعد من الحق والحقيقة من هذا الافتراء ، فالعرب أمة ، لم تكن تنعم فى أرضها بمصادر الثروة الميسرة ، ولا السخية ، فأرضهم جدب ، وماؤهم غور ، لذلك كانت التجارة ، أصل موردهم الأول ، ينتقلون بين الدول الغنية بما تنتجه تلك الدول ، من نفائس الصناعة ، وخيرات الزراعة ، وتجنى من وراء هذه الوساطة ، ما يوفر لها الرزق ، وما يحقق لكبار التجار ، العيش الناعم ، والفراش الوثير ، فيهيئونهم للرياسة والسلطان ، لا بما بين أيديهم من مال فحسب ، بل لما تتيحه لهم التجارة ، من الاتصال بالأمم والشعوب ، ومعرفة أحوالها ، والوقوف على خبايا السياسة ، وخفايا الحكم ، والاقتراب من ذوى السلطة من الوزراء وأعوانهم ، فيقتبسون من خبرتهم ، وينقلون عنهم أساليبهم فى الإدارة ، وفنونهم فى الاقتصاد ، فتأتى للعربى ، فى بلاده القاحلة ، المعزولة عن الناس من المعرفة ، ما لم يتأت لغيره من الدول التى تتكون مجتمعاتها من المدن ، لا من الواحات التى يتجمع حولها رعاة الأغنام ، كما كان الحال ، فى شبه الجزيرة العربية . ولما كان القرآن الكريم قد جاء فيه قول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » : فقد تحتم أن يكون الرسول ، قادراً لا على مخاطبة القوم الذين أرسل إليهم بلغتهم فقط ، لا أن يكون فوق ذلك مبيناً ، فصيحاً ، ليفهموا عنه ، ما يقول ، وليتأثروا بما فهموه من قوله ، بل إن مقتضى هذا الشرط اللازم توفره فى الرسول ، أى شرط قيام وسيلة التفاهم المشتركة بين المرسلين والذين أرسل إليهم ، أن يكون مدار الحديث بين الطرفين ، أموراً تشغل بال أهل الرسول وعشيرته لأن اللغة ليست مجرد ألفاظ وأصوات تسمع ، بل إن

معانيها هى جوهر هذه اللغة ، وهى الغاية منها . ولولا دواعى المصلحة المشتركة بين الأقوام لما نشأت لغة من اللغات ، ومن هنا كان حديث الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلى أهله وعشيرته الذين يعيشون على ما تدره التجارة من رزق ، والذين يتأثرون بدواعى اتساعها ، ويسر سبلها ، أو ما يعترض طريقها ووسائلها من الصعاب والمتاعب . . كان غير قليل من حديثه ، وغير قليل من آيات القرآن ، فى شئون المال والتجارة ، وتدبيرهما ، وتتبع كل عنصر من عناصرهما ، جمعاً وإنفاقاً ، وشحًّا وسخاء ، وأخذاً وعطاء ، وحلالا وحراماً ، وبيعاً وإيجاراً ، ورهناً وبدلا ، وتبرعاً وعوضاً . ومن هنا كانت سورة قريش ، من أوائل السور ، وكانت جماعاً لما تقوم عليه حياة هذه القبيلة ، التى أتقنت التجارة ، وأصبحت [مكة] عاصمتها ، ملتقى الطرق التجارية العالمية قبل بعثة رسول الله ، بعهود . قال الله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رِحْلَةَ الشِّتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

ولم تكن رحلة الشتاء والصيف التى ألفتها قبيلة قريش ، والتى يمن الله تعالى عليهم بها ، إلا قوام حياة العرب التجارية ، وركن الزاوية فى شئونهم الاقتصادية . فقوافل قريش كانت – كما قلت – تروح وتغدو بين اليمن فى الشتاء ، والشام فى الشمال فى الصيف . تنقل عروض التجارة ، والمحاصيل والأقوات ، من الغرب الأوربى ، إلى الشرق الآسيوى ، فتصل عالمين مختلفين لوناً ولغة وسحنة وعقلية ، وتجنى من هذه الوساطة ، المال والخبرة والعلم ، على ما قدمنا .

ويستطيع أن يقف المفسر طويلا أمام هذه السورة التى تتكون عبارتها من عدد جد قليل من الألفاظ ، ذلك لأن ورودها فى مفتتح كتاب سماوى نزل إلى الناس ، ليدعوهم إلى الإيمان بإله واحد ، لا تراه الأبصار ، ولا تدركه ، ولا يتجسد فى شىء ولا فى شخص ، ولا ينتمى لأمة ولا لطبقة ولا لعهد ، ولا لزمن ولا لمكان ، أن ترد فى كتاب هذه طبيعته ، وتلك غايته ، هذه السورة التى تتحدث عن رحلة بين الشمال والجنوب ، أى بين الشام واليمن ، لتنقل البضائع ، ويكسب منها التجار ورجال المال ، وتنعقد عليها آمالهم ، ويترتب على استقرارها ، استقرارهم ، وعلى نجاحها رواج أحوالهم ، فمعنى ذلك أنه كتاب ، لا يتعالى على حقائق حياة البشر اليومية ، وحاجياتهم المادية ، ولا على شئون المال ، ولا على أساليب استنباطه واستكثاره ، وتداوله وتوزيعه . .

وإذا كانت السورة الكريمة قد بدأت بتقديم « أطعمهم من جوع » ! ثم أردفت « وآمنهم من خوف » فلأنها سورة فى كتاب منزل من السماء ، والله أعلم بعباده من أنفسهم ، والثابت أن غريزة حب البقاء ، هى أقوى غرائز الإنسان ، فلابد له من لقمة عيش تقيم أوده ، وتحميه من خطر الموت ، فإذا أمن ذلك الخطر ، هدأت نفسه ، وبدأ يدير عينيه ، فى نفسه هذه وفى الآفاق . ولو توقفت السورة عند الطعام وحده ، وجعلت منه ، الغاية التى لا غاية وراءها ، لما كان ذلك الكتاب ربانيًّا ، ولكان دعوة إلى اتباع الغرائز الدنيا ، والوقوف عندها ، ولذلك كان قوله تعالى : « وآمنهم من خوف » ، وهو المصراع الثانى فالإنسان فى ظل القرآن . ليس بدناً فحسب ، وليس روحاً محلقة ، مجردة ، وإنما هو جماع تلك

القوتين الماثلتين ، التى أصبح باجتماعهما ، جديراً بخلافة الله تعالى فى أرضه . فالإنسان الذى صنعه الله بيده ، من طين ، وصلصال ، أو حمأ مسنون ، هو الإنسان الذى قال عنه خالقه الأعظم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » . .

وقوله عز وعلا : « ونفخت فيه من روحى » بياناً لخاصية الإنسان الروحية ، وبياناً لمصدر هذه الخاصية ، وكون هذا المصدر هو خالق الأكوان مباشرة .

فتقابل العنصرين المكونين للإنسان ، من مادة حقيرة الشأن ، قليلة القدر ، يتحول بعدها إلى ماء مهين ، ثم من عنصر لا يرى ولا يمسك باليد ولا يوزن ، ويعلو فوق كل مادة ، ونعنى بها نفخة الله العظيم من روحه ، هو التوازن الذى يجعل العامل المادى فى حياة الإنسان ، عاملا معتبراً ، لا يهمل ، ولا يغض النظر عنه ، ولا يخرج من حساب الإنسان المسلم ، وإلا لما كان ثمة معنى من النص بهذا القدر من القوة والإبانة والوضوح والتأكيد ، فى قصة خلق الإنسان كما رواها القرآن الكريم ، وفى كثير من مواضعه . والشواهد على ذلك النظر فى القرآن عديدة ، بعضها يؤيد بعضاً . فإذا كان الله تعالى قد ذكر قريشاً برحلتها السنوية إلى الشمال والجنوب ، إلى الشام ، وما بعد الشام حتى بلاد العجم والهنود ، وإلى اليمن وما بعد اليمن فى الحبشة والصومال والشاطئ الشرقى الأفريقى ، وهى رحلة تجارة وكسب وارتزاق وجمع مال ، فإن الجزء الأول من القرآن ، هو الذى ضم السور الأوائل فيه من دلائل التفات كتاب الله تعالى إلى جانب المادى ، من حياة الإنسان ، المتصل بإشباع غرائزه ، وإرضاء

بدنه ، مما لا يخفى على نظر .

نسوق منه على سبيل المثال من سورة عبس قوله تعالى . « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم » ! والمعنى واضح ، وننقل عن تفسير الشيخ محمد عبده لجزء « عم » ما يلى :

فإن زعم الإنسان أنه لم يشهد خلق نفسه ، ورمى عينيه بالعمى ، عما فى بدنه ، وعقله ، بالغباوة عما فى ذاته ، وعما كان من أمرها فى بدايتها ونهايتها ، وعلل هواه فى الغواية بأن شيئاً مما خلقه لا يقوم دليلا على وحدانية خالقه وانفراده بالإحسان إليه ، لأنه لم يشهد تلك النشأة ، إن خطر ذلك ببال أحد من أفراد الإنسان [فلينظر] إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه [إلى طعامه] الذى يقيم بنيته ، ويجد لذته ، ويحفظ به منته ، ماذا حدث حقا فى إحداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً « أنا صببنا الماء » من المزن « صبا » شديداً طاهراً « ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقا مرئيا مشهوداً ، كما نراه فى الأرض بعد الرى . . . » .

وهذا قول حسن ، ولكن يكمله أن نقول إن الله تعالى ، وقد خلق الإنسان من هذين العنصرين المتباينين تماماً الطين ، [ونفخه منه] سبحانه عز وعلا ، فإن الدروس التى يجب أن تلقى عليه ، يجب أن تكون شاملة لما نسميه الآن « الروحى » ، ولما نسميه « المادى » شاملة للغيب أى لما لا تراه عيوننا ، ولا تسمعه آذاننا ، ولا تلمسه أيدينا ، ومع ذلك نحس ببعضه

فى أعماق وجداننا، ونؤمن به، كما نؤمن بالمادى ، كالمعانى المجردة ، من الوفاء والكمال والسمو والوطنية والإيمان ، فهذه حقائق فى حياتنا ، . لا تقاس ولا توزن ، ولكننا نتأثر بها ، ونستوحيها فيما نفعل وفيما ندع ، ونختلف عليها ، ونحارب من أجلها ، ومن هنا كان كتاب الله الذى يعلم الناس ، ويأخذ بأيديهم ،ويدير عيونهم وأبصارهم ، إلى ماقد يستصغرون شأنه ، أو يستقلون قدره ، ومن ذلك هذا الطعام الذى إن أعوزهم ، ولم يحصلوا عليه هلكوا ، فإن شبعوا منه ، انصرفوا عنه ، وعزفوا ، ، هذا الطعام ، يجب أن يتأمله الإنسان خطوة فخطوة ، ويعرف كيف يحصل عليه . كيف يصنع ، ومما يصنع . كما يجب أن يعرف الدلائل التى تنطوى عليها هذه الخطوات على قدرة الله أولا ، وعلى غرائب هذه الصنعة ودقائقها ، مما يجب على عقل الإنسان أن يتأملها ويعيها ، ويستخلص منها ، ما يزيده علماً ، فيزيده قوة ، فيزيده سعادة ، وجماع كل هذا يزيده قرباً من الله ، واحتراماً لأوامره ، ، وابتعاداً عن نواهيه مما يجمله القرآن الكريم فى كلمة واحدة : التقوى .

* * *

وأود أن أعجل بإيراد الشواهد الدالة على استعارة القرآن الكريم ، مصطلحات التجارة والمال ، بياناً عن شئون العقيدة والعبادة .

ففى سورة الصف : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ! .

وفى سورة فاطر : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ،

وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » .

وفى سورة البقرة : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

وفى سورة التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله : فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وفى سورتى البقرة وإبراهيم ، يتحدث الله تعالى عن اليوم الآخر فيصفه بقوله : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » البقرة « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » إبراهيم .

والمعاهدة ، وتبادل المواثيق ، يعبر عنها فى القرآن بالمبايعة ، ، وهو لفظ مشتق من البيع ، فى سورة الفتح لفظ المبايعة يرد مرتين « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » . « لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة » .

واستعمال مصطلحات التجارة ، فى تقريب الأمور الدينية والقواعد التعبدية ، إلى عقل العربى ، الذى يعيش حياته فى التجارة ، ويستمد منها رزقه ، ويبذل فيها أقصى الجهد ، ليحقق أعظم الربح لها دلالات كثيرة منها ما قدمناه من أن كتاب المسلمين ، كتاب أنزل ليخاطب الناس ، ليؤثر فيهم ، ويستميلهم إلى مبادئه ، وييسر عليهم الأخذ بقواعده ، لا ليفرضها عليهم فرضاً ، بقوة السلطان أو بسلطة الكهان ، ولا ليكون دين السادة دون العامة ، أو دون الخاصة من أهل الفكر ،

دون صغار المسلمين ، ممن قلت حظوظهم من المعرفة . وإلى جانب هذا المعنى ، فإن احتفال القرآن ، بما يتعارفه العرب من ألفاظ حياتهم اليومية ، ويتبادلونه فى صفقاتهم ومعاملاتهم ، معناه احتفال القرآن بالجانب المادى من حياة المسلم ، أى الجانب المتصل برزقه ، وشئون حياته اليومية لا ليقف عند هذا الجانب ، ويقنع به ويرضاه ، وإنما ليتخذ هذا الجانب نفسه ، درجة يستند عليها ويرقى منها إلى الجانب الأعلى والأبقى ، ولكى يرتفع بهذا الجانب ذاته ، ويضفى عليه من رقة الإنسان ولطفه ، وعدله وصدقه ، واستقامته وأمانته ، ما يجعل التجارة ، والأخذ والعطاء ، والسعى لكسب المال والاستزادة منه ، عبادة ، ينفع بها الناس وينفع بها نفسه ، فلا تقوم الحواجز بينها وبين سائر ما يأمر به الدين ، فالتاجر المسلم ، لا يخدع ، ولا يحتكر ، ولا يستحل فى أساليب تعامله ، مالا يستحله فى صلته مع ربه وخالقه .

ومع ذلك نجح التجار المسلمون أن يكونوا من أبرع تجار الأمم ، وأشدهم حذقًا لفنون إدارة المال ، وتبادله ، وأن يصلوا بسفنهم المحملة بالبضائع النفيسة والسلع الغالية النادرة إلى أقصى الشرق فى الصين ، وأقصى الغرب فى أوربا ، وأن تكون لهم محطات وقواعد لسفنهم وقوافلهم . . أستغفر الله ، لهذا – لا على الرغم من هذا – كان نجاح التاجر المسلم وتفوقه وثراؤه العظيم الحلال ، فالهمة واليقظة ، مع الأمانة والاستقامة هى رأس مال التاجر ، وليس الغش والكذب والحيلة الوضيعة .

ولا يزال القرآن الكريم ينطوى على المزيد من الشواهد على احتفاله بالعامل الاقتصادى أو المادى فى حياة الناس ، من ذلك ، ماسبق لنا أن

نبهنا إليه ، من أن لفظى المال والنفس لا يجتمعان فى موضع فى القرآن الكريم ، إلا وسبق المال النفس ، باستثناء موضع واحد فى سورة التوبة .

مثال ذلك : فى سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » وفى سورة التوبة « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » وفى سورة التوبة « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » وفى سورة النساء : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

وليس تقديم المال على النفس فى القرآن الكريم فقط فى مواضع الحديث عن الجهاد ، بل إنه تقديم ثابت فى كل المواضع الأخرى ، من ذلك قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » « يوم لا ينفع مال ولا بنون » « إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا » « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس ! .

ليس معنى التقديم على هذه الصورة ، أن القرآن الكريم يغض من قدر النفس الإنسانية ، ويراها فى درجة أدنى من درجة المال ، فالإنسان أكرم عند القرآن من المال ، ومن كل متاع آخر فى هذه الدنيا ، ولكن لهذا التقديم حكمته ، ومن عناصر هذه الحكمة ، مما يتصل بحديثنا هنا ، هو ما جبل عليه الإنسان من حرص شديد على المال ، وحب له ، ورغبة فى الاستكثار منه والاستزادة من النعيم الذى يوفره لصاحبه ، والجاه الذى يضفيه على جامعه ، فضلا عن أن المرحلة الأولى من جهاد المسلمين ، قبل أن يؤذن لهم بالحرب ، ورد العدوان المسلح بالسلاح ، كان قوامه وعدته ، المال

ولهذا انتقل القرآن الكريم من الآيات التى تتحدث عن جوانب متفرقة من أخلاق الإنسان الاقتصادية ، إذا جاز مثل هذا التعبير ، مثل قوله تعالى : « وكان الإنسان قتورا » « وأحضرت الأنفس الشح » « إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد » إلى آية كلية ، تجمل موقف الإنسان ، من متع الحياة المادية ومغرياتها جميعاً ، كقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » .

وقد يقع فى الوهم ، أنه ما دامت هذه المتع والرغبات ، قد وصفت بأنها متاع الحياة الدنيا ، فهى ملعونة عند الإسلام على الإطلاق ، إذ حسبها أن تكون متاع الحياة ، وأن تكون الحياة موصوفة [بالدنيا] ، حتى يتضح رأى الإسلام فيها ، وهذا أبعد شيء عن حقيقة رأى الإسلام فى كل ما يتصل بمقومات الحياة ، من حب النساء والبنين والذهب والفضة ، فهى وإن كانت متاعاً ، أى وسيلة انتفاع واستمتاع بالحياة ، وإنها ليست ملعونة فى ذاتها ، والمسلم ليس منهيا قط ، عن السعى فى اكتسابها ، والتمتع بها ، وطلب الراحة واللذة ، والسعادة من ورائها ، فليس فى الإسلام رهبنة ، ولم يزهد أحداً من أتباعه ، فى أن يكون قويا ، بل إنه نهى عن النقيض ، وفى الآية الكريمة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » الدليل على ما تقول بل إن القرآن يتساءل عن هؤلاء الذين يريدون أن يحولوا حياة الناس إلى عيش ثقيل ، لا يطاق ، وعبء باهظ لا يحتمل ، وحرمان قاس ، بغير مبرر ولا مقتض :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » بل إن الله يعاتب الذين ، يجعلون من أنفسهم أوصياء على البشر ، فيحرمون عليهم ما أحل الله ، قول الله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » .

فالإسلام ، على عكس ، ما يتوهم الواهمون ، أو ما يذهب إليه المتجنون ، لا يغفل عن العامل الاقتصادى ولا يغض من قدره ، بل يعتد به ، ويحسب حسابه ، ويحتفل بأثره فى حياة الناس ، وينظمه ويقومه ويجعله حافزًا ، لحياة أكرم ، ولعدالة أشمل ، مما يحتاج إلى تفصيل وبيان ، سنتولاه فى موضع آخر من هذا الكتاب ، بإذن الله .

لذلك قد جاهد نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، مستندًا إلى القرآن ، مؤيدًا بأحكامه وآياته ، ليجعل العامل الاقتصادى ، سبيلا إلى قوة الإنسان ورقيه ، وإلى إحكام علائق الأخوة بين الناس فى المجتمع الصغير ، وفى المجتمعات الكبرى ، دون أن يصبح العامل الاقتصادى هو السيد المطاع ، فى صورته الغريزية الأولى ، ولا أن ينفى تشابك العوامل المختلفة التى تتكون فيها الحياة الإنسانية ، فتخرج نسيجًا مجدولا ، مضفورًا ، لا يمكن فصل خيط منه ، من مجموع النسيج ، وإلا تهتك ، وانحل ، ويصبح من تسول له نفسه ذلك ، كالتى نقضت غزلها أنكاثا .

آية ذلك ، أن القرآن الكريم ، دعا الناس ، دعوة متكررة ، لأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، وليس بعد هذا ، دلالة على حرص كتاب الله ، على أن يعطى الجانب المادى ، المتصل بطعام الإنسان وشرابه ،

ما يستحقه من العناية ، فضلا عن أن نغفله ، وقد يزيد هذا المعنى أن نعرف أن الدعوة إلى أكل الطيبات ، والحلال ، وردت فى القرآن ، أكثر مما ورد لفظ « الحج » وهو عبادة من عبادات المسلمين المفروضة عليهم ، وتكاد تبلغ عدد المواضع التى ورد فيها لفظ الأكل ومشتقاته ما بلغه عدد المواضع التى ورد فيها لفظ الصلاة ذاتها ، ومن أمثلة ما ورد فى القرآن الكريم فى هذا الصدد - لأننا لا نستطيع أن نورده كله ، ولا جانباً كبيراً منه - « كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض » « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » وعما يصطاده الناس من الطير قال الله تعالى : « فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » ثم قال تعالى « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » « كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وعن البدن التى تذبح عند البيت الحرام قال تعالى : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ». « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » ! ولابد أن يستوقف النظر أن الله تعالى لا يقنع بدعوته إلينا إلى أن نأكل ، ولا أن نأكل ونشرب ، بل أن يكون أكلنا وشربنا ، متاعًا لنا وبهجة ، قال تبارك وتعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ». « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ، فكلوه هنيئاً مريئاً » والحديث هنا عما يأكله الأزواج من مال أزواجهم . ويقدم كتاب الله العزيز صورا لما يوفره الطعام للإنسان من نفع ولذة فيقول : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » وعن صيد البحر يقول القرآن : « ومن كل تأكلون لحما طريا » ويضرب للناس أمثلة عن أطعمة خاصة ،

وعن كيفية تكونها فيقول عن اللبن « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا ، سائغًا للشاربين » .

والحق أن الإنسان يجب . أن يقف مأخوذًا مشدوها من هذا التتبع الدقيق لمصادر الطعام وصوره المختلفة ، من صيد البر والبحر ، ومن اللبن والعسل ومما يستخرجه الإنسان من الشجر من سكر ، ومن رزق حسن ، وليس هذا كله إلا تفصيلا للآيتين الواردتين فى الجزء الأول من كتاب الله واللتين تبدآن بقوله تعالى « فلينظرِ الإنسان إلى طعامه » فهذا النظر ، تعليم وتلقين ، تزداد به معرفة الإنسان لدنياه ، والعلم مطلوب عند المسلم ، ثم هو تأمل فى قدرة الله ، وهذاالتأمل تسبيح للخالق عز وعلا ، واقتراب منه ، وركون إليه ، وهو أمر يسعى إليه المسلم ، وهو بعد ذلك التفات إلى جانب من حياة الإنسان ، قد يظن أنها لا تستحق منه الرعاية ، ولا العناية ، وهو أبعد الأمور عن الإسلام ، وعن أساس أحكامه وقواعده ، وعن حكمته وفلسفته .

* * *

وقد لا تظهر خاصية التكامل فى جانب من جوانب الحياة الإنسانية ، ظهورها فى الجانب الذى نسميه الآن « الجانب الاقتصادى من الحياة » ونعنى به جمع المال ، وإنفاقه ، وكسب الأرزاق والأقوات ، والاستمتاع بها ، وعلاقات الناس ، من أغنياء وفقراء ، وأصحاب أموال ، يستخدمون غيرهم ، فى صناعاتهم ومزارعهم ، ومتاجرهم . والمقصود بالتكامل ،

هو النظرة الشاملة ، التى تجعل الحياة الإنسانية ، بناء يتصل بعضه ببعض ، ولا يبدو فتاتا متناثرة ، يجهد المرء فى جمعها ، وضم بعضها إلى بعض ، فينجح حينا ، ويخفق حينا آخر ، لما بين هذه الأجزاء والكسور ، من تنافر يمنع انسجامها وتناسقها ، ويحول بين خلقها الكل أو الواحد الصحيح .

فالإسلام مثلا ، قد أسقط الحاجز الموهوم بين الدين والدنيا ، وبين الأولى والآخرة ، وبين المعنوى والمادى ، بل إنه أزال الحاجز بين الخير والشر ، لا بجعل الخير والشر ، متشابهين لا يتميزان ولا يتفاضلان ، بحيث يفعل الواحد منا الجريمة ، فكأنه يفعل العمل الصالح . بل بمعنى أن جعل مرد الخير والشر ، إلى عقيدة الإنسان ونصيبه من التقوى ، فإذا صلحت عقيدته ، تحول كل ما يراه الناس، عند الآخرين شرًا أوخيرًا عند المتقين فالمرض والجوع ، ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، يمكن أن يكون دافعاً للمسلم المتقى ، إلى خير عظيم ، مصداقاً لقول الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

فالتكامل القرآنى ، فى الجانب الاقتصادى من الحياة الإنسانية ، كائن فى أنه لا يفصل بين إقامة الدين ، وأداء العبادات ، وبين دنيا الكسب والمال ، والاستمتاع بما أحل الله للناس من طعام وشراب ، وسائر ما يمكن أن نسميه « زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ويبدو هذا التكامل على أعظم ما يكون من الوضوح فى كثير من

آيات القرآن ولكنه فى الآيات التالية لا يخفى على أحد .

قال الله تعالى فى سورة الجمعة « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً ، لعلكم تفلحون » .

وقال تعالى فى سورة الحج « وأذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .

ففى الشاهد الأول ، ترى كيف يتعاقب النشاط الدنيوى ، والنشاط الروحى ، تعاقباً ، يريك صورة الحياة فى نظر القرآن ، وكيف تجدل فيها العناصر المختلفة وتتداخل فى توازن رائع ، فتبدأ الآية بالنداء للصلاة ، ثم يعقبها البيع والدعوة إلى تركه ، لذكر الله ، فإذا قضيت الصلاة ، فلا تقنع الآية ، بالعودة إلى التجارة والبيع ، بل يستعمل لفظاً هو غاية فى الإبانة والدلالة ، على ما يطلبه القرآن ، من المسلمين والمؤمنين به ، من بذل أقصى الجهد ، فى تحصيل المنافع الدنيوية ، والنزول على مقتضى الحياة البشرية فقالت الآية « فانتشروا » ثم أردفت « فى الأرض » وثلثت بقولها « وابتغوا من فضل الله » .

ولكل عبارة من هذه العبارات الثلاث ، وقع فى الأذن وفى السمع ، غاية فى القوة وفى الوضوح .

فالانتشار ، شيء أكثر من مجرد ممارسة البيع والشراء ، والعودة إلى التجارة ، وغيرها من ضروب النشاط المؤدى إلى كسب الرزق ، وجمع المال ، وتحقيق المصالح الإنسانية التي تكفل للناس ، راحة البال ، وعلو المكانة ، والقدرة على نفع الغير . إذ أن لفظ « الانتشار » يبعث في النفس ، الإحساس ، بأن الدعوة من القرآن هي الحركة على أوسع صورها ، فهي تتجاوز الانتقال من عميل إلى عميل ، ومن صفقة إلى صفقة ، إلى الانتقال من صقع إلى صقع ، وما يتبع هذا الانتقال من جهد التحضير والإعداد والتدبير . فإذا أضيف إلى لفظ الانتشار ، عبارة « في الأرض » كمل الإحساس بأن الدعوة من القرآن ، هي دعوة حركة لا يحدها قيد ، وهذه الدعوة لم ترد في هذا الموضع من القرآن فقط ، فقد ترددت في أكثر من موضع :

ففي موضعين من سورة النساء يوجه القول تارة إلى أولئك الذين اطمأنوا إلى الظلم ورضوا به ، فيقول تعالى « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » . ويوجه الخطاب تارة أخرى إلى جميع الناس فيقول عز وعلا : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرًا وسعة » .

فالأرض عند القرآن هي الساحة المفتوحة لنشاط الإنسان ، فليست بلدته وحدها ، ولا وطنه فقط ، هو المجال الذي يستطيع أن يمارس فيه قدراته وطاقاته ، وهو مدعو إلى هذه الممارسة ، مثاب عليها من الله ، يرضى عنها تعالى ويباركها ، ويكافئ عليها ، وإذا كانت الأرض كلها هي ميدان النشاط الإنساني ، فغاية هذا النشاط الواسع المترامي الآفاق هي لابتغاء فضل الله ، ومعنى ذلك أن السعي في الكسب وتحصيل

الرزق ، هو سعى من أجل شىء لا خطأ فيه ، ولا عيب ، بدلالة وصفه « بفضل الله » وألا تلبث الآية أن تعود إلى « ذكر الله » حتى لا يتحول النشاط الاقتصادى : تجارة كان أو صناعة أو زراعة ، إلى عمل يتجرد من دوافع الإنسان السوى ، وحوافز الإنسانية ، فيكون ابتزازاً لمال الناس ، واستغلالا لحاجتهم ، وانتفاعاً بضعف تجربتهم : أو بساطتهم أو قلة حيلتهم : فيستباح فيه الكذب والإيهام ، والاحتكار والاختزان ويهبط الناس بفضله إلى وحوش يأكل بعضها بعضاً ، بدعوى أن الله دعانا إلى الانتشار فى الأرض كلها ، مادمنا قد أدينا الفرض كأن أداء العبادة إجازة للمتعبدين ، ليفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوا ، فذكر الله هو الضمان لأن يبقى العمل الإنسانى من أجل الرزق ، والمال والكسب ، فى حدود ما تفرضه إنسانية الناس عليهم . وهذا هو الجدل الرائع ، والضفر النبيل بين دواعى الحياة القوية ، ومتطلبات السمو العظيمة .

وترى مثل هذا فى الشاهد ، فالناس مدعوون لأداء الحج ، ولكن هذا الحج الذى هو عبادة ، لا يخلو من منافع للناس ، يشهدونها ، أى منافع دنيوية ، ولقد كان الحج منذ ما قبل الإسلام ، موسما تنشط فيه التجارة ، وتتوثق فيه علاقات العاملين فى ميدانها وأعوانهم فى كل العالم الإسلامى ، قريبة وبعيدة ، والناطق منه بالعربية ، والناطق بغيرها . وكان المسلم يجد فى مكة وما حولها فى هذا الموسم الإلهى طرائف الصناعة ولطائفها ، وغرائبها ونفائسها من أنحاء العالم كله ، فتتحقق فعلا لا مجازا فكرة « الانتشار فى الأرض » وفكرة « السعى فى مناكبها » وتبدأ الآية — على أسلوب القرآن الحكيم — الذى تضفر فيه شئون العبادة بشئون

الحياة ، على أجمل وألطف نسق – بالدعوة إلى الحج ، ثم تصور تدفق الحجيج إلى مكة ، من كل فج ، بعبارة تفيض بالحركة ، ليشهدوا منافع لهم ، ثم يذكروا اسم الله شكرا على ما رزقهم من بهيمة الأنعام أى على متعة دنيوية ، ورزق مما يقيم أود الناس ، ويعينهم فى شئون معاشهم ، ثم يدعوهم إلى الأكل من هذه الأنعام ، ثم يثنى بالدعوة إلى إطعام الفقير البائس من هذه الأنعام ذاتها ، ثم يختم هذه الحلقات المتماسكة بأداء منسك من مناسك الحج ، فيتطهروا ، ثم يطوفوا بالبيت العتيق . فالحياة الدنيا ، والآخرة ، والعبادة ، ثم التجارة ، وذكر الله ، والتمتع بأطايب الحياة ، حلقات فى سلسلة واحدة ، يمسك بعضها برقاب بعض ، إن انفرط سلكها ، لم تعد إسلاما ، ولم تعد نداء قرآنيا .

ولذلك فإن هؤلاء الذين يقرأون فى القرآن ، قول الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فيصيحون هذه هى غاية الإسلام انقطاع الناس للعبادة ، فيصدق الصغار والضعفاء والفقراء والمحرومون هذه الدعوة ، وينفذونها فيخلو الجو لكبار رجال الدين ، أعوان الحكام ، ووسطائه ، وأدواته ليكتنزوا الذهب والفضة ، ويتخموا ويترهلوا ، ويتخذوا من ظهور البشر مطايا يركبونها إلى أحقر غاياتهم وشهواتهم .

هؤلاء لا يعرفون هذه الآيات التى سقنا بعضها ، ولا يرون كيف تتعاقب فيها الدعوة لأداء الفروض وإقامة دعائم الدين ، بالإقبال على الحياة ، والفرح بها والحرص على تجميلها ، وترقيقها ، وجعلها متعة للأقوياء المؤمنين بأعلى ما طمحت إليه البشرية من مثل الحق والعدل والعلم والإخاء ، وهم لا يعرفون معنى العبادة فى الإسلام ، وأنها

ليست فقط الصلاة والصيام والزكاة ، والحج ، وحسبهم أن يعرفوا أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام قال « يثاب المرء على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » ليدركوا أن العبادة عند الإسلام شىء آخر غير العبادة بمعناها الضيق المعزول عن الحياة ، وهموم البشر ، فى غيره ، وأن الرجل فى الإسلام يكافأ ويجازى على اللقمة يضعها فى فم زوجته ، لأن سعادة الزوجين هدف من أهداف الإسلام ، وغاية من غاياته بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حديثا أبلغ وأعظم دلالة على المعنى الذى نحاول بسطه،فقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقالوا ، وما يكفرها » قال : « الهموم فى طلب العيش » .

جملة القول أن القرآن احتفل بالعامل الاقتصادى فى حياة الناس احتفالا كبيرا ، فبعد أن ذكر فى أكثر من موضع ، عظيم تأثر الإنسان بهذا العامل الاقتصادى ، وباستعداده وتهيئه ، للانحراف الروحى والخلقى ، تحت وطأة هذا العامل ، ما لم تتداركه عقيدة ، تجعل هذا العامل فى خدمة نفع الإنسان الفرد ، وفى خدمة الإنسان كمجموع ، أورد الأحكام العديدة ، المجملة والمفصلة ، التى تضع قواعد هذه العقيدة وأسسها .

[illegible] القول إلى أن القرآن سلك مسلكا فريدا فى ربط العقيدة التى جاء بها لتنظيم حياة الإنسان فى كل دروبه وفروع واتجاه ، وفى مقدمة تلك الدروب والفروع والاتجاهات النشاط الاقتصادى ، بحياة الإنسان اليومية ، وعلى وجه أخص بنشاطه الاقتصادى .

كما سبقت الإشارة إلى أن القرآن نزل لأمة كان عماد اقتصادها التجارة ، لجدب أرضها ، وخلوها ظاهرا وباطنا من الثروات التى مكنت أمما غيرهم من استنباط الثروة ، ومن تحقيق أسباب السيادة . لذلك قرب لهم مبادئ هذه العقيدة الجديدة ، باستعارة مصطلحات حياتهم التجارية ، مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله » وقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ثم قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » .

وقد أضاف القرآن الكريم إلى مصطلحات التجارة وألفاظها ، مصطلحات الزراعة فجاء فى القرآن الكريم عن : محمد رسول الله والذين معه ، « مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار » وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » وقوله تبارك وتعالى فى بيان مثل الحياة الدنيا : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » .

فالدين الإسلامى ، بقرآنه ، والقرآن بآياته وأحكامه ، شديد الاتصال – كما قلنا وكررنا – بالحياة ، وبكل جوانبها ، وبالجانب الاقتصادى منها ، فليس القرآن مواعظ خلقية ، تدعو الناس إلى الرفق بالضعيف ، والشفقة بالفقير ، والعطف على المحروم ، وليس دعوة إلى الصدق والإحسان إلى هؤلاء جميعا ، ليس ذلك فقط ، وإنما هو

أولا – تقرير واضح وبين وجلى لخصائص وصفات وميول وشهوات الإنسان فيما يتعلق بالمال ، والحرص عليه ، والطمع فيه ، وكراهية الإنفاق منه .

ثانيا – تجنب مصادرة هذا الميل الإنسانى إطلاقا ، الوقوف فى وجهه ، والميل إلى الرهبنة وتحبيب الناس فى الانصراف عن الدنيا وإهمال أمرها إعلانا منه بأنه نزل لبشر فيهم النقص والضعف ، ولكن فيهم أيضا قدرة لا حدود لها ، للتسامى على هذا الضعف ، والارتفاع عنه إلى البذل بالمال وبالحياة ، والتضحية بالولد وبلذائذ الدنيا ، وإن المذهب السليم ، والعقيدة الصالحة هى التى تعرف الإنسان على حقيقته بخيره وشره ، وقوته وضعفه ، والتى تحول غرائزه إلى طموح الإنسان واستشراقه إلى أعلى المراتب : مراتب النبيين والصديقين والشهداء « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ثالثا – دعوة الناس ، والإهابة بهم ، ليؤمنوا بالعقيدة التى تجعل المال فى خدمة الإنسان ، وتمنع جعل الإنسان فى خدمة المال ، وتحبيبهم فى إنفاق المال ، من أجل الصالح العام ، ووضع نظام يمنع من تكديس المال فى يد جماعة ، تتحكم عن طريقه فى رقاب الناس وحرياتهم ، وتستذلهم بجاه هذا المال وسلطانه . والبدء بالدعوة الكلامية ، والتحريض والإهابة والإثارة ، فإن لم تفلح هذه الوسائل ، وجبت الحرب ، وتعين اللجوء إلى القتال .

ويجب أن نستحضر فى الذهن ، بأن الإسلام لم يكن حركة فقراء ضد أغنياء ، وإنما كان دعوة إلى الإيمان بالتوحيد ضد الشرك والكفر بالله الواحد ، ذلك لأن الإيمان بآلهة عديدة ، هو الحاجز الأكبر ضد العلم ببدهية من بدهيات المعرفة ، لا يمكن الاهتداء إلى بدهية أخرى ، إلا بعد التسليم والاقتناع الكامل بها ، فالاهتداء إلى وحدة الإله ، معناها الاهتداء إلى القانون العلمى الأسمى الذى يحكم الكون ، بل الأكوان كلها ، ما نعرفه وما نجهله ، وما نشهده بأعيننا ، وما نتصوره بعقولنا . ذلك أن التسليم بإله واحد ، معناه أن لهذا الكون نواميس ثابتة ، تجرى آثارها فى الأشياء والأشخاص ، على وتيرة مستقرة ، وأن البحث وراء هذه النواميس ، والوقوف على حقائقها ، وتفاصيلها ، يؤدى إلى الانتفاع بكل ما فى الكون من قوى ، حتى الشمس والقمر والكواكب المسخرات بأمر الله ، للإنسان . إذا اهتدى إلى القوانين الضابطة والمحركة لها .

ولكن لم تكن مجردمصادفة محضة ، أن يكون أكثر من فى معسكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، من الفقراء ، وإن كان فيه عدد من كبار الأغنياء ، كما كان فيه نفر غير قليل من أشراف العرب المنحدرين من أسمى أرومة وأصول فيها ، كما لم يكن مجرد صدفة محضة أن معسكر الشرك ، كان أكثره أو كله من الأغنياء أصحاب المقامات الموروثة ، وأصحاب الكلمة النافذة فى شئون الحكم والمال والتجارة ، والدين . وأن تكون هذه القلة المؤمنة بمحمد ، ممن قبلوا عن رضا وطواعية ، أن يتخذوا من عبيدهم – إن لم يعتقوهم تماماً – إخواناً لهم

يؤاكلونهم ما يأكلون ، ويلبسونهم مما يلبسون ، فى حين أن معسكر الشرك ، كان يرفض أن ينظر إلى أحد من الرقيق والإماء ، وغيرهم ممن يشبهونهم فى رقة الحال ، وضعف المكانة ، من العمال والأجراء ، إلا كنظرة الآدمى إلى الحيوان الأعجم ، يسخره فى حمل الأثقال ، ويكل إليه أشق الأعمال ، ولا يجود عليه إلا بأقل القليل من الطعام ليقيم أوده ويحفظ عليه رمقه ، ولقد كبر على معسكر الشرك أن يكون رسول الله ، بشراً ، وأن يكون يتيما فقيراً ، وألا يكون مسلكه فى الحياة كمسلكهم ، اعتزازاً ، بالمال ، وإدلالا بالجاه ، فقالوا « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وكان طلبهم المتكرر الذى تقدموا به إلى محمد ، بعد أن استقرت دعوته ، ورأوا أنها تقوم على منطق مقبول ، وحجة صادقة ، أن يطرد الصغار المجهولين ، الذى لا شأن لهم فى المجتمع ، ولا مال فى أيديهم ، حتى لا يتساووا بهم ، إذا دخلوا فى الدين الجديد ، وسلموا بصدق النبى المرسل ، علانية ، وفى غير مواربة ، فكان أمر الله لرسوله « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وجاء رد الرسول « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون » ثم جاء رد الرسول أيضاً : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » .

وبذلك تحدد الموقف بين المعسكرين ، وزادت معالمه وضوحا . معسكر الأشراف ذوى المال الكثير ، والجاه العريض ، والنفوذ القائم على العصبية الموروثة ، والمناصب الموقوفة على عشائر بعينها ، والهيبة التى تخضع الجميع ، والتى تأبى أن يشاركها فى جاهها وعلو كلمتها ،

مشارك . ومعسكر التجديد والتطور ، الداعى إلى إزالة الحواجز الكاذبة بين الناس، وإبقاء الضعيف ضعيفا ، والفقير فقيرا ، والمحكوم مجردا من السلطة ، ومن المشاركة فيها ، ومن النصح ، للمتمتعين بسلطانها وهيلمانها . معسكر الذى يقول إن كل إنسان بعمله ، وإن المال مال الله ، يداوله بين الناس ، وإن للفقراء فيه حقا معلوما ، وإن الأرقاء يعتقون ، ويعانون على فك أسرهم ، ويصبحون أندادا للأحرار ، يتولون من شئون المسلمين ، ولاة ومعلمين وهداة ومرشدين ، ما كان وقفا على أبناء البيوتات ، والمنتمين إلى الأشراف جيلا بعد جيل .

لكن كيف أصبح معسكر التوحيد ، والتجديد ، وإطلاق القيود ، وتحرير العبيد ، معسكر الفقراء والمحرومين ؟

لقد قلت إن عقيدة التوحيد ، بذاتها ، تؤدى إلى رفض إبقاء الفقير فقيرا ، مهما حباه الله بالعقل ، والقدرة على العمل ، ومهما ميزه بالأمانة والصدق . ذلك لأن النتيجة الطبيعية ، لكون الإله ، واحدا لا يتعدد أن يكون جميع المخلوقات من صنعه ، أن تزول فكرة الإله « المحلى » ، و« الإله » الخاص فيتساوى الناس جميعا ، ومادام الناس مشمولين بعناية الإله الواحد ، ومنتمين إليه ، ولم يعد لكل قبيلة إله ، ولكل شعب إله ، ولكل طبقة إله ، انعدمت فكرة التميز والتباين ، التى قامت أساسا على أن الله ، يأبى أن يكون إله الفقراء والضعفاء والمحرومين والجهال ، وإله الأغنياء والأقوياء والحاكمين والحكماء .

وحينما يفقد الأغنياء والأقوياء ، حماية الإله الخاص ، يدركون أنه الطوفان ، وأن امتيازاتهم ستسقط ، وأن دولهم ستدول ، ولذلك

يقفون أمام الدعوة الجديدة بكل قواهم ، ويشتدون فى اضطهاد الفقراء . وملاحقتهم بصنوف الأذى حتى لا يتكاثرون فى المعسكر المضاد ، ويقوى عزمهم ، بازديادهم ، وبإقبال الآخرين على الدعوة الجديدة ، والدخول فى الدين الجديد أفواجا .

على أن القرآن الكريم ، لم يدع إلى التوحيد فحسب ، فنى السور الأولى ، إشارات صريحة إلى المنهج الجديد ، للدين الجديد ، فى جانب علاقة الناس المادية بعضهم ببعض ، وبالمكان الذى يضع فيه هذا الدين والمحرومين — فنى سورة المسد ، وهى سورة صغيرة من خمس آيات قصار يقول الله تعالى عن « أبى لهب » « ما أغنى عنه ماله وما كسب » وهذه الآية على قصرها ، يعدها معسكر الأغنياء زلزالا ، يهز بناءهم من قواعده ، لأنها تقرر أن المال لا يحمى الكافر ، ولا يغنى من كفره شيئاً ، والعهد بهم قبل ذلك أن المال يمنحهم العزة فى الدنيا وأنه لا آخرة بعد هذه الدنيا ، فكأن المال يكفل لهم خيراً غير ممنوع ، وحماية لاشك فيها ، ولا نهاية لها . ثم تأتى سورة أخرى هى سورة « الماعون » التى تبين وتحدد خصائص الذين لا يسلمون بهذا الدين ، ولا يؤمنون به ، فإذا هى خصائص تنصب كلها على علاقة هؤلاء الكافرين بالمال ، وطريقتهم فى إدارته وإنفاقه فقد قال الله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويلٌ للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون.ويمنعون الماعون » .

فخصائص المكذبين للدين أنهم يهينون ، ولا يرحمون المسكين فيطعمونه ، ثم يمنعون الماعون .

وتتوالى السور على نفس النسق ، ففى سورة الهمزة يتوعد الله الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، بأنه « لينبذن فى الحطمة » .

فإذا وصلنا إلى سورة « الذاريات » ، وضحت هذه المعانى ، بما لا يدع مجالا للمشركين والكفار فى تبين ما يدعو إليه الدين الذى أرسل به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، فقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين بأنه « فى أموالهم حق للسائل والمحروم » . فليس ما يعطاه الفقراء المعوزون ، والذين لا يجدون قوتهم ، تبرعاً أو نزولا من الغنى للفقير ، عن بعض ماله إنما هو حق فرضه الله تعالى ، فى هذه الأموال ، ومن هنا فقد اشتد الصراع بين المعسكرين اشتداداً ، بلغ حد القتال ، فسالت له دماء ، وبذلت فيه أرواح ، حتى كتب الله للدين الجديد أن تكون كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وفى بيان هذا الصراع ، نقول بإذن الله كلمة :

لقد أضفت عقيدة الإسلام ، أول ما أضفت – حماية سابغة على الفقراء والمحرومين والضعفاء والكادحين فى سبيل تحصيل لقمة العيش ، وإقامة الأود ، ولذلك رفض الأغنياء والأقوياء وأصحاب الكلمة النافذة ، والسلطة الباطشة ، هذه العقيدة ما وسعهم الرفض ، وقاوموها ما وسعتهم المقاومة .

والسر فى خلق هذه الحماية ، وبسط ظلها ، كما سبق القول ، أن الإله الخاص كان من صنع الجماعة القوية من البشر ، فكانت طقوس الدين الذى يتخذ من « الإله الخاص » رباً ، تقضى كلها ، بتقديم الغنى ، وتأخير الفقير وتكريم القوى ، وإهانة الضعيف ، وكان الأحبار والسدنة يكتبون الكتاب بأيديهم ، ويقولون إنه من عند الله ، ولم يكن

هذا الكتاب المفترى ، إلا تأييداً لسلطة الأقوياء الأغنياء ، وحماية لأموالهم ، وصيانة لثرواتهم ، وتأكيداً لعبودية العبيد ، ولذلهم وهوانهم .

فالدين الإسلامى ، وإن جاء يدعو إلى توحيد الله ، وهدم وهم الشرك وتعدد الآلهة ، وإنه فى سبيله إلى نشر هذه العقيدة ، ودعوة الناس إليها ، حطم كل ما كان المجتمع الجاهلى يؤمن به من التمييز بين الناس ، فالقرآن أعلن المساواة بين الناس بأكثر آياته ، صراحة وضمناً ، بالقول والمثل ، والأمر والنهى ، وأجمل هذا كله فى قول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

ولكن لم يكن ممكناً أن ينزل الأقوياء عما استأثروا به من سلطة وجاه ولا أن ينزل الأغنياء ، عما حظوا به من مال ومتاع ، بمجرد الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذى لا يتعدد ، والذى لا يشركه فى ألوهيته وربوبيته شريك من صنم أو بشر .

فالناس على ما بين القرآن الكريم ، مجبولون على حب المال وجمع الذهب والفضة ، ومن هنا ، تحتم أن يكافح المؤمنون ، بعقيدة التوحيد ، فى سبيل نصرة هذه العقيدة ، كفاحاً متصلاً مراً لا يقف عند حد الدعوة الكلامية ، بل يأخذ صورة المعارك والوقائع . وقد قبل المسلمون ، بنفس راضية ، أن يخوضوا هذه المعارك ، ويصطلوا بنارها ، لأنهم آمنوا بأن عقيدتهم لن ترتفع أعلامها إلا بهذا الجهاد .

فالذين يرمون الدين الإسلامى ، بتهمة مهادنة الأغنياء فى المجتمع القرشى ، وإن تألف قلوب أمثال أبى سفيان وأسيد بن خلف ، هو صورة من صور المصالحة ، لا يقولون إلا منكراً من القول وزوراً وبهتاناً عظيماً . فالإسلام منذ يومه الأول ، وهو يحارب من أجل حقوق الفقراء ، ويستخلصها من المجتمع الجاهلى ، لا على أنها تبرع محض ، متروك إلى المرء ، يعطيه إن شاء ، ويمنعه إن أراد ، إنما هو قرض يؤدى ، وعبادة يحاسب على التفريط فيها ، أو التقاعس فى القيام بها ، وهذه الحقوق كلها ليست سوى لبنة فى بناء متكامل ، لا يقام حتى لا يكون المال ، الكثير والقليل ، فى يد الحاكم أو المحكوم ، فى يد المسلم أو الذمى ، إلا عبداً للإنسان لا سيداً له ، وأداة لا غاية ، ومتاعاً للحياة الدنيا وزينة ، وليس جوهراً ، يكتفى به ، ويطمئن إليه .

وسنرى أن القرآن الكريم ، والسنة والسيرة المحمديتين، تفيض كلها ، بالأدلة والشواهد على صدق دعوانا . فضلاً عن تاريخ صدر الإسلام .

ونحن وإن لم نكن فى صدد بيان النظام الاقتصادى فى الإسلام لكنا فى حاجة إلى الإشارة إلى المعالم الكبرى لهذا النظام ، حتى يتيسر لنا ، إظهار مكان العامل الاقتصادى فى البناء الشامل للإسلام كله .

فالقاعدة الأولى من قواعد النظام الاقتصادى الإسلامى ، هى أن الملكية أو المال « وظيفة » وأن أيدى الناس عليه ، أشبه شىء بيد صاحب الوظيفة ، على ما تمنحه هذه الوظيفة من سلطات وقدرات ، وجاه ونفوذ . فهذه السلطات ، والقدرات ليست منحاً وامتيازات شخصية لصاحب الوظيفة وإنما هى وسائل ووسائط ، لخدمة الناس ، وإسعادهم ، وتحقيق

العدل بينهم ، ورد عادية الشر عنهم . وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى بالكثير من آياته منها قوله تعالى : آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

فما يظفر به الإنسان من مال ، هو مستخلف فيه ، أى أنه يديره بالنيابة أو بالوكالة أو كخليفة عن الخالق الأعظم ، الذى يعطى الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، فالمال مال الله صراحة ، ويد الإنسان عليه ، يد وديع ، فالثروة التى يحصل عليها ومتاع الدنيا الذى يظفر به ، هو مال الخالق المصرف لكل شيء فى هذا الكون ، وعليه أن يتحرى مقاصد هذا الخالق الأعظم ، من إنشاء هذا المال ، ومن تنقله بين أيدى الناس ، وتداولهم إياه

فإذا كان وصول المال إلى يده يكسبه مكانة ، ويضفى عليه مهابة أو يزيد نصيبه من متع الحياة ولذائذها ، ، فلا بد له لاستبقاء هذه النعم كلها ، ألا تشغله هذه المتع العابرة ، عن المعنى الأعظم ، المستفاد ، من اختيار الله إياه ، لحراسة هذا المال ، وإدارته بين الناس ، فيوسع من نطاق الخير الذى يمكن لهذا المال تحقيقه ، وألا يتخذه وسيلة للاستعلاء على الناس ، أو البطش بهم ، أو تسخيرهم لخدمته ، وإظهار الطاعة له ، والخوف منه ، وصرفهم عن العمل من أجل الخير العام ، وصالح المسلمين ثم صالح الناس أجمعين .

هذه القاعدة ، هى ركن الزاوية فى بناء النظام الاقتصادى الإسلامى ، تتفرع منه جميع الأحكام التالية والفرعية . لأن أساس الأحكام فى الإسلام ، هو « الأخلاق » التى تصنعها العقيدة ، والإسلام حريص على

أن يكون هذا الأساس قويا وثابتاً وجليا ، لأن سلامته ، ووضوح مقتضياته يحول بين الناس وبين أن يضلوا ، فالخطر الناجم من المال ليس مرده كثرة المال فى يد فرد أو يد جماعة ، إنما مرده نظرة الحائز المال ، إلى هذا المال ، فإن حب المال سلاح كالبندقية أو المدفع ، وضع فى يده ليخيف الناس ، ويرهبهم ، وينتزع منهم مالهم ، ويهدد أمنهم ، وينشر الفزع بينهم ، فقد خرج من ربقة الإسلام ، وخالف ما أمر به الله ، أما إذا اعتبر المال ، الذى اؤتمن عليه ، سلاحاً ، يدفع به غائلة المعتدين ، ويحمى بحده ، المحتاجين ، ويجعله سبيلاً لزيادة الخير بين الناس ، فقد اهتدى بهدى الإسلام ، وعمل بأحكامه .

فوصف المال فى القرآن بأنه « مال الله » وتقريره بأن هذا المال نحن « مستخلفون » فيه ، يتضاءل إلى جانبه كل ما يقال فى كتب الاقتصاد الحديثة ، وكتب الاجتماع المعاصرة ، من أن الملكية وظيفة اجتماعية لأن الله سبحانه – عند المسلمين – المثل الأعلى ، فحينما يكون المال ماله ، فمعنى ذلك أن المال يجب أن يرتقى دوره ، فى بناء المجتمع ، وتحديد علاقات الأفراد والسلطات فيه بين بعضها البعض ، إلى أعلى ما يصبو إليه الإنسان ، المتجرد من الهوى الذى تلتوى به الأمور ، وتفسد له شئون الناس .

ولقد فاضت آيات القرآن الكريم ، بأن المال ، لا يرفع قدر الإنسان ؛ وإنما عمله الصالح ، هو السبيل إلى رفعة القدر ، وعلو المكانة :

قال الله تعالى :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين . قل إن ربى

يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ، ولا أولادكم بالتى تقربكم عِندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف ، بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون . قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

فالقرآن الكريم الذى دعانا إلى الانتشار فى الأرض ، والذى دعانا إلى السعى فى مناكبها ، والأكل من رزقه ، والذى استنكر أن تحرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، والذى أمرنا ، أن نجعل المثل الأعلى ، أى الدار الآخرة ، نصب أعيننا مما أفاءه الله علينا من نعم الدنيا ، حثنا فى الوقت نفسه ، ألا ننسى نصيبنا من هذه الدنيا ، وأن نفرح ، ونجلو صدأ النفس به ، لنواصل سعينا إلى الدار الآخرة ، التى هى غاية غايات الرقى والسمو .

وقد أجملت الآية السادسة والأربعون من سورة الكهف هذا المعنى الكلى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » .

فالمال غير ملعون، ولا منهى عن جمعه والسعى فى الحصول عليه ضرورة لافرار منها ، لأنها السبيل إلى عمران هذا الكون ، وتجميله ، وتذليل صعابه ، ولكن نظر المسلم ، لا يثبت عنده ، بل هو يتجاوزه دائماً ، إلى ماهو أعلى منه مقاماً ، وأعظم منه دواماً ، أى « الباقيات الصالحات » التى هى خير

عند ربك ثواباً وخير أملاً .

ولما كان البناء الإسلامى ، فى كل نواحيه ، منطقيًّا ، بمعنى أنه مقدمات تفضى إلى نتائجها ، وتتصل بها اتصالاً محكماً وثيقاً ، كأنهما شىء واحد ، فإنه ينبنى على القاعدة السابقة ، قاعدة تتكون من شطرين ، كل منهما من الآخر ، بمثابة حد المقص :

الشق الأول ، أن الاستكثار من المال ، وإن كان حلالاً ، أمر مكروه . والشق الثانى أن حبس المال عن الإنفاق بعامة ، وعن الإنفاق من أجل المصلحة المشتركة أو القومية بخاصة ، معصية يكرهها الإسلام ، وينهى عنها ، ويعاقب عليها . ومرد كراهية الإسلام للاستكثار من المال ، ولو عن طريقة الحلال ، والانهماك فى جمعه ، والانشغال به دون سواه ، من النشاط الإنسانى بوجوهه المختلفة ، إن هذا الجمع والانهماك يؤدى بطبيعة الحال إلى موبقتين . الأولى أن يصبح الإنسان عبداً للمال فيكون صاحب المال عبداً له ، والأمر الثانى أن يكون المال أداة صاحبه لاستعباد الآخرين . أما كراهية الانهماك فى جمع المال ، والانشغال به والاستزادة منه فقد دلت عليه الآيات السادسة عشرة وما بعدها فى سورة الفجر :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حبا جما » .

أما اكتناز المال والضن به على الإنفاق العام ، المفضى إلى خير الجميع ، فقد خوف القرآن الكريم من نتائجه ، بآية صورت عواقب ذلك الاكتناز ، بما تنخلع له قلوب العصاة ، الذين بلغ حب المال من نفوسهم أقصى الغاية ، قال الله تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » ! .

أما الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة ، أى سبيل الله ، وفى سبيل البر بالفقراء والتخفيف عنهم ، والأخذ بيد الضعفاء والمساكين ، والذين نزلت بهم النوازل والضوائق ، فتجدها فى كل جانب فى القرآن الكريم منها :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء » « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة ، مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » .

كل هذا ، الجانب الأخلاقى ، أو الأساس الروحى ، للنظام المالى للإسلام ، ولكن لهذا النظام دعائم ثلاثة متجسد فيها :

الأولى — الزكاة .

الثانية — تحريم الربا .

الثالثة — نظام الميراث أى توزيع الثروة وعدم تكديسها فى يد أو أيد قليلة .

والذى نقصد إليه فى هذه الحلقة من حديثنا ، أن نثبت أن الإسلام : لم يقف عند حد حض المسلمين على اتباع نظرته إلى المال ، وإنما جند أتباعه والمؤمنين بأحكامه ليحاربوا فى سبيل هذا النظام ، لا يقصد تحرير الفقراء ، من أسر المال والأغنياء ، وتحطيم أغلال فقرهم ، فقط ، وإنما لتحرير الأغنياء ،

أنفسهم من ذل المال ، وحبه ، والخضوع لمغرياته ، ثم لتحرير المجتمع كله من سيادة المال وتسلطه ، وفى جملة ، إقامة نظام ، المال فيه خاضع لعقيدة الإسلام .

وأهمية الزكاة أنها إضافة جزء من أربعين جزءاً من رأس مال صاحب المال الخاص إلى المال العام .

وتاريخ الدعوة الإسلامية ، فى عهد الرسول ، وفى عهد خلفائه الراشدين ، دال على أن المسلمين خرجوا من مجرد الدعوة إلى أحكام الدين ، ومبادئه ، إلى الحرب من أجل إقامة حكم الزكاة ، والوفاء بها للخليفة ، وإمام المسلمين ، المشرف على أمورهم ، والمصرف لشؤونهم ، ليصرفها فى مصارفها .

وما حروب الردة إلا الصراع الحربى بين المسلمين وعلى رأسهم أميرهم ، الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، وبين المعسكر الذين كبر عليهم أن يؤدوا الزكاة لوالى مكة ، وقد ألفوا ألا يخضعوا لحكم يأتى لهم من خارج القبيلة التى ينتمون إليها ، وإن كانوا قد أذعنوا لحكم مكة ، إبان عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان مما يخفف عنهم هذا الخضوع ، أنه لرجل اختاره الله تعالى ، فالإذعان ليس له ، وإنما لله سبحانه وتعالى . فلما قبض الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وحل محله رجل لا يدعى لنفسه صلة بالله ، فلم يعد فى الأمر رسالة ولا نبوة ولا اختيار من عند الله .

ولقد قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بأخذ المرتدين بالرفق ، والانتفاع بسيوفهم فى سبيل نشر دعوة الإسلام ، وأقام رأيه على قول رسول صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا بأنه لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله ، ومن قالها فقد عصم منى دمه وماله إلا بحقهما » ، ورأى أبو بكر أن الزكاة حق المال ، وأنه سيحارب كل من منعه عقال بعير كان يعطيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وأدرك عمر أن ما رآه أبو بكر هو الرأى ، وخاض المسلمون حرباً كانت أشد عليهم ، وأعظم فتكاً بهم ، وبالخيرة من أصحاب رسول الله ، وقراء كتاب الله ، من معارك المشركين . وقد ثبت المسلمون لهذه الحرب الخطرة ، حتى خرج الإسلام سليماً بكل أحكامه ومبادئه ، ولم يعد ثمة مكان للتطرف أو اعتدال فى أحكام النبى الكبرى ، لأنها عند جميع طوائف المسلمين ، واجبة والوفاء بها أمر من الله لا يعصى .

وإذا كانت الزكاة ، فرضاً وعبادة ، فإنها تكشف بجلاء عن نظر الإسلام إلى المال ، وكونه مال الله ، أى أنه يجب أن يكون فى خدمة الناس ، عباد الله ، ولا أن يكون سيدهم المخوف ، وحاكمهم الآمر ، فإنهم إن سودوه عليهم ، ذلوا ، وأحاطت بهم المحن ، وزال ملكهم ، وهلك سلطانهم وهو ما أصابهم فى حقب جاءت بعد أن ازدهر الإسلام ، وارتفعت راياته ، وسادت حضاراته وثقافاته . أقول حضاراته وثقافاته ، ذلك لأنه كان للإسلام فى كل عصر ، حضارة ، تأخذ من الزمان والمكان سمات تميزها ، ويبقى جوهرها ، جوهر الإسلام الباقى الخالد .

ولكن هدية الإسلام إلى البشرية ، فتلك هى تحريمه المؤكد للربا ، وكراهيته له ، ووقوفه أمام جبروته الطاغى ، وإغرائه الساحر . فالإسلام بتحريمه الربا ، أهاض جناحى رأس المال ، وروض شراسته ، وأزال عنه عنفه ، فقاده من خطامه ، فبعد أن كان بالفائدة الربوية ، وحشاً لا سبيل

إلى التفاهم معه ، أصبح غلاماً مطيعاً ، يقاد من خطامه ، صاغراً صابراً .

والإسلام كالعهد به ، لم يقفز إلى تحريم الربا فى وثبة واحدة ، ذلك لأن الإسلام يعرف من نفوس الناس ، وما ينطوى عليها من ضعف ، الأمر الذى قرره القرآن كثيراً ، فتكشف عن ضعفه ، فى أكثر من موضع منه ، فقد خلق الإنسان من ضعف ، « وخلق الإنسان ضعيفاً » لذلك بدأ القرآن الكريم فى إشارة خفيفة يهيىء بها الأذهان ، والنفوس معاً ، لأمر التحريم الذى يتهيأ للنزول إلى المسلمين ، فقال الله تعالى وهو يتحدث عن أخطاء اليهود ، ومعاصيهم – فى الآية الحادية والستين بعد المائة من سورة النساء « وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه » وإن كان الحديث عنه عن بنى إسرائيل ، فإنه حيث قال إن أخذ الربا فى ذاته ، معصية ، ولكن التحريم لهذه المعصية لم يعلن بعد ، فليتدبر المسلمون هذا التمهيد ، وليهيئوا أنفسهم وحياتهم له ، فلا يفجؤهم وينزل بهم نزول المصاب ، وخطا الإسلام بعد ذلك خطوة إذ جاء فى الآية التاسعة والثلاثين فى سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس ، فلا يربوا عند الله » ثم جاء التحريم صريحاً وقاطعاً فى الآية الخامسة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ». « يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات » فى نفس الموضع من السورة قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ، إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم

لا تظلمون ، ولا تظلمون » .

وتأكد هذا التحريم القاطع بالآية الثلاثين بعد المائة من سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

والثابت أن الفائدة بعامة ، والفائدة الربوية بخاصة هى سبيل أصحاب رأس المال فى الاستزادة منه ، والاستكثار من ألوفه المؤلفة ، التى تزيد على مر الأيام ، وكلما زاد نجاح رأس المال وسطوته ، وكلما اطـرد نجاحه ، واتسع نطاقه ، وزادت قدرته على استخدام العقول المبتكرة ، والإدارات الحازمة القادرة على إدارة المئات والألوف من العمال والموظفين وأصحاب المهارات اليدوية والعقلية المختلفة. ولقد بتنا اليوم لا نسمع إلا المليارات بعد أن كان المليون فى الفترة ما بين الحربين العالميتين ، رقماً خياليًّا ، فأصبح الآن رقماً هزيلا ، لا يذكر إلا فى صدد المشروعات الصغيرة فى البلاد الفقيرة ، ولا يتصور فى بلاد المال والصناعة ، مجرد التفكير فى تحديد الفائدة الربوية ، وردها إلى الفائدة البسيطة التى لا تتراكم بعضها فوق بعض ، بل لا يتصور أحد من رجال المـال والصناعة حـد أعلى للفائدة فى المعاملات الدولية ، ولذلك كان الإسلام مدركاً حقائق الحياة الاقتصادية من الأفراد ، وفى داخل الوطن الواحد ، وفى نطاق المعاملات بين الدول ، فما رفع حماة رأس المال التى بها يلدغ والتى بها يقتل ، وهى الحماة التى يسميها عامة الناس « بالزبان » ، فإن رأس المال بعد رفعها منه ، يصبح طائراً وديعاً ، لا يؤذى .

ولقد تواصى علماء الاقتصاد العالميون على اعتبار تحريم الفائدة

الربوية خيالا لا يتفق مع حقائق الأمور العملية ، وعلى اعتبار أن النظام الذى يحرمه لا يمكن أن يكتب له البقاء ، ولقد تولت حياة الدولة الإسلامية العظيمة ، وما تم خلالها من فتوحات الحرب والسلم ، فى ميادين العلم والفكر والثقافة ، الرد على هذه الدعوى الباطلة ، فقد قامت مؤسسات ودور للتجارة والصناعة ، فى جميع بلاد العالم الإسلامى كله ، دون أن يتلوث الاقتصاد الإسلامى ، بشبهة الربا . ثم لما اشتد ألم الطبقات الفقيرة من سطوة رأس المال فى الغرب ، ومن الفائدة الربوية الخانقة ، اندفع المجتمع الغربى إلى أشد الاتجاهات المتطرفة ، فقامت بالفعل دول ، تلغى رأس المال كله ، ولا تلغى فائدته وحدها ، وهى تخوض تجربة ، أثارت ولا تزال تثير ما نعرفه جميعاً من أصداء ، لا نود أن نقف أمامها ، حتى لا نخرج عن نطاق هذا البحث الدينى البحت .

ولكن لابد أن نقف أمام لفظ القرآن الكريم ، وهو يأمر المسلمين أن يذروا الربا ، ثم وهو يحذرهم من عواقب التردد أو التكاسل فى إطاعة هذا التحذير والأخذ بمقتضاه قال الله تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، فالمذاهب الحديثة تؤمن بالصراع ، وتعتبره الفضيلة التى تقوم عليها ، وتدعو إليها ، وهى تتهم الدين ، بأنه يعمل على تهدئة هذا الصراع ، أو صرفه إلى غير غاياته ، فى حين أن الإسلام ذهب بهذا الصراع ، وهو الذى يسميه القرآن والإسلام « بالجهاد » إلى أسمى غاياته ، وإلى أقصى حدوده ، فهو يرتفع به من صراع الفقراء ضد الأغنياء فقط ، إلى جهاد ضد المشركين والكفار ، وإلى نظرتهم إلى الحياة كلها وأقيمها بما فيها المال ، واعتدادهم به ، وسوء استغلالهم له ، واعتباره الغاية من

الحياة ، وأنه ضمان السلطة والقوة والجاه ، فى حين يرى الإسلام فى المال أنه « متاع » و« تراث » ، وأن الباقيات الصالحات ، هى خير ثواباً ، وخير أملا . ولا أحسب أن مذهباً ، حارب كما حارب الإسلام من أجل الزكاة ، وهى حق الفقراء فى ظروف كان فيها المسلمون فى أحرج فترات حياتهم ، بعد أن قبض رسول الله إلى ربه تعالى ، وبعد أن خرج جيش المسلمين لأول مرة من حدود شبه الجزيرة العربية ليصطدم بقوة عالمية هى قوة الروم ، إحدى القوتين الكبيرتين فى دنيا تلك الأيام ، التى اقتسم الجزء المعمور والمعروف فيها الفرس ، وأبناء روما ، وتهيؤ العديد من القبائل ، للوقوف فى وجه حكومة مكة ، والعودة إلى عصبية الجاهلية ، وتربص المنافقين الذين يعايشون كبار الصحابة ، ويؤلبونهم من المدينة ، ويستطيعون أن يعرفوا ما يدور فى رءوسهم ، وما تقف فى وجوههم من صعاب ، وعقبات .

ولقد شاء الله تعالى أن يكتب النصر للمسلمين فى حروب الردة وأن يبقى الإسلام وأن يتسع ملكه ، وتنتشر دعوته ، لتقوم عقيدة ، لا تنكر المال ، ولا تتجاهل أثره فى حياة الناس ، ولا تمنعهم من السعى فى مناكب الأرض ، بل تدعوهم إلى الإنتشار فيها التماسا لفضل الله ، وفضل الله واسع ، يشمل المادى والأدبى ، يشمل ما يتصل بالبدن وما يشبع ويرضى النفس والعقل . . فقامت حكومة ، تضع المال فى مكانه بلا زيادة ولا نقصان ، فلا يذل أحداً ، ولا يخيف أحداً ، وإنما يكون فى خدمة الجميع ، يؤمر فيأتمر ، ويوجه فيتجه ، وتفيض خيراته على الكل وتتبدى علماً وعدلا ، وسكينة وطمأنينة ، وتفكيراً سليماً ، وتدبيراً صائباً ، وخيراً عميماً .

ولكن لقد دارت دورة الزمن ، وأصبح أبناء المسلمين الناشئون بعيدين

عن مصادر دينهم ، وعن مطولات شريعتهم ، وأصبح فهم العربية عسيرا على أذواقهم وعقولهم ، فتحتم أن نبادر بوضع هذه المجموعات فى غير عجلة ولا لهفة ، لتكون مدخلا إلى قراءة المراجع الكبرى .

وإذا كان ذلك واجباً بالنسبة للشريعة فى أحكامها ، فإنه أوجب فى الجانب الخاص بأحكام المال ، فإن الصراع حوله فى الدنيا شديد ، ومن خلفه تثور الأهواء والمطامع ، وتحاك الدسائس والمؤامرات ، وأبناء المسلمين ، لا يجدون بين أيديهم مرجعاً كاملا ، يعينهم على الفهم ، ويثبت أقدامهم عند المحاجة .

على أنه حتى نضع هذه المراجع الميسرة ، يجب أن يستقر فى يقين المسلم ، أن الإسلام لم ينظر قط إلى أحكام الشريعة ، على أنها نص قائم ، تسنده حراب السلطة ، ويحمل عليه الناس خوفا وطمعاً ، فإن القاعدة الكبرى فى الإسلام هى **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهى قاعدة أقامت حكومة الضمير ، وطبقت على أحسن وأسمى ما يكون التطبيق قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فأصبح فى مقدور المال أن يذهب إلى أى سبيل يشاء فى حدود ما أمر الله به دون أن يكون أداة للقهر أو الإذلال أو الاستغلال ، ذلك لأن الإسلام نجح بالتربية والإعداد والتلقين ، أن يجعل الغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والعامل وصاحب المال ، جميعا شركاء فى إدارة هذا المال ، وإن سولت لواحد أو لجماعة ، أن تخرج على حكم الله ، وجدت من جماعة المسلمين من يردها إلى حكم الله ، بالنصيحة القولية ثم بالسيف .**

* * *

يجدر بنا ، أن نتأمل، بصورة شاملة ، العامل الاقتصادى فى القرآن ، ودوره فى الإسلام ، ومكانته فى بناء مجتمع المسلمين . فنتخلص من هذا التأمل إلى الكلام فيما يستطيع أن يقدمه الإسلام إلى الإنسانية من علاج فى دورها الحاضر من القلق والحيرة ، ومن تفاقم مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعيه ، واستعصاء هذه المشكلات على الحل ، واضطراب الأمور فى الشرق والغرب . عند من آمن برأس المال ، وحريته فى التزايد والاستكثار من السلطة والتحكم ، وعند من كفر برأس المال وألغاه ، أو سحبه من أيدى الناس ، وأضافه إلى ذمة الدولة ، توجهه كيف تشاء ، وترسم له السبل ، وتفرض له الخطط .

وقد سبق القول بأن الحقيقة الأولى ، فى بيان موقف الإسلام من العامل الاقتصادى ، أن القرآن قد قرز ما يعرفه الله من طبيعة الإنسان ، من تسلط الشهوات عليه ، ومن حبه للمال ، ومباهاته به ، وحرصه على جمعه ، وكرها للإنفاق .

ومن ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »

وقوله عز وعلا : « ألهاكم التكاثر » و « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق » « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض »

وهذه التقريرات القرانية ترينا بادئ ذى بدء موقف القرآن من الإنسان بعامة ،

فهى تكشف طبيعة الإنسان ، وما تنطوى عليه من ضعف ، وهى تقريرات تراها منبثة فى أكثر من موضع فى كتاب الله ، مثل « وكان الإنسان قتورا » « وكان الإنسان كفوراً » « وأحضرت الأنفس الشح » « وكان الإنسان ضعيفاً » « إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » « وإذا مسه الشر كان يئوساً » « وكان الإنسان عجولا » « إنه كان ظلوماً جهولا » « إن الإنسان لربه لكنود » وخلق الإنسان ضعيفاً » .

ولكن هذه التقريرات ، لا تعنى فى قليل أو كثير ، أن خالقه سبحانه وتعالى ، نفض اليد منه ، أو عده مخلوقاً ميئوساً من إصلاحه ، أو علاجه بل إن هذه التقريرات هى بداية الإصلاح ومقدمة العلاج ، أشبه شيء بهذا الفحص الشامل الذى يجريه الطبيب اليوم مستعيناً بالأشعة التى تنفذ إلى أبعد الأجزاء فى جسم الإنسان عن يد الطبيب وعينه ، وبالتحليلات التى تظهر من الأدواء والعلل ، ما لا يبديه الكشف الظاهرى ، مهما بلغ من الدقة والتحرى . والطبيب الإنسان ، لا يجرى هذه الفحوص ، لينتهى إلى القول بأن موت المريض ، واقع لا محالة ، بل ليبحث عن بصيص من الأمل ، وليهتدى إلى علاج أكثر نجاعة ، وقد يؤدى هذا الامتحان الدقيق لنفس الإنسان وجسمه وأعصابه ، أن العلاج فى متناول اليد ، وأن مرد العلة ، خلل ضعيف ، وأن تقويمه من الهينات .

فالإنسان فى القرآن ، باعث على الأمل ، بل إن الإنسان محرم عليه أن ييأس أو يقنط مهما ضاقت عليه الدنيا ، وسدت فى وجهه المسالك ، وظن أن رحمة ربه ، قد انصرفت عنه ، ففى القرآن لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون والظالمون .

الحقيقة الثانية من حقائق موقف القرآن والإسلام ، من الجانب المادى من حياة الإنسان ، بعد بيان ضعف هذا الإنسان ، ومواطن هذا الضعف وصوره ، أن القرآن لم يغض النظر عن ماديات الحياة الإنسانية ، فلم يمر بها مرًّا خفيفاً ، باعتباره ديناً سماويًّا غايته أن يصل الإنسان بربه ، وأن يعلمه التوحيد ، ويدعو إلى التقوى والفضيلة ، بل إن القرآن وقف طويلا أمام هذا الجانب المادى واحتفل به احتفالاً عظيمًا . وحذر الإنسان من إهماله ، ووضع له قواعد ونظما ، وأطال القول فى هذه القواعد ، وفصل بعضها تفصيلا .

فالقرآن لم يلعن المال ، ولم يعد التفكير فيه شركاً أو كفراً ، أو أنه يؤدى إلى الكفر أو الشرك فى ذاته ، بل إن القرآن خطا خطوة أخرى ، فعدد صور فضل الله على الإنسان ، ونعمه عليه وآلاءه ، فإذا أكثر هذه الأفضال والنعم ، خيرات مادية ، تتصل بالطعام والشراب والثياب والمسكن ، والأنعام التى تحمله من بلد إلى بلد بغير مشقة أو بمشقة يحتملها ، ولا تؤوده .

ومازال القرآن الكريم يبسط على الإنسان الضعيف رحمته ، فدعاه دعوة ملحة ، لأن يتذوق أطيب ما فى هذه الدنيا ، وألا يفسد على نفسه حياته ، فيحرم ما أحل الله ، ولا يفرض على نفسه من القيود والمشقات ، التى أعفاه الله منها ، ورفع تكاليفها عنه « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم » .

ولم يدع القرآن الكريم الإنسان ، بعد كل هذه الخطوات فلا يزال يمسك بيده ، ويقوى من ثقته بنفسه ، ويبعد عنه الخوف من العالم الذى يعيش فيه ، ويثبت أقدامه ، فى أمرين متنائيين بعيدين ، أولهما السعى فى الدنيا ، وثانيهما كشف المجهول من الكون .

أما السعى فى الدنيا ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الإسلام ، جعل « الأرض » كلها مجال نشاط الإنسان ، وميدان سعيه واجتهاده ، فالقرآن لم يسلم بهذه الحدود المصطنعة التى أقامها الإنسان فى وجه حيويته ونشاطه ، وميله إلى الحركة والانتقال ، وحبه لمعرفة كل ما تكشف له مغالقه .

أما كشف المجهول ، والتعرف عليه ، وتجلية غوامضه ، فقد قرر القرآن للإنسان أمرين أيضاً : أولهما أن العالم كله مسخر له ، وأن سبيل الانتفاع من هذا التسخير أن يعرف أن لهذا الكون سنة ثابتة ، وأن على الإنسان أن يهتدى إلى هذه السنة ، فيرى الكون طوع أمره ، يلبى مشيئته ويذعن لتوجيهه .

وكل هذا يتصل بالجانب المادى من حياة الإنسان ، التى ظن الذين لم يعرفوا الإسلام ولم يقرأوا القرآن أنه جانب مهمل ، فى الإسلام والقرآن ، أو أن العناية المخصصة له منهما ، لا تعدو التوجيهات الوعظية العامة .

أما أن الأرض كلها ميدان مفتوح للإنسان ، فآيته قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها » . « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا » .

ودعوة القرآن للإنسان ليسير فى الأرض وليمشى فى مناكبها ، وليهاجر

من موقع فيها إلى موقع . وتأكيده لابن آدم أنه سيجد بفضل هذه الهجرة فرصاً عظيمة للرزق والعمل ، هما ثمرة خاصيتين من خصائص الإسلام ، هما عالميته ، وإنسانيته .

وهما خاصيتان تميز بهما الإسلام منذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعالميته تؤدى إلى أن العالم كله هو موطن الإنسان ، بغض النظر عن لغته وعقيدته ولونه ومقدار حظه من المال .

وإنسانيته ، تجعل المسلم ، أخا للإنسان جميعاً أينما وجد ، فبقدر ما يكون العالم وطن المسلم ، يضرب فى فجاج الأرض ، ويسير فى مسالكها ، غير شاعر لا بالوحشة ولا بالغربة فيها ، تكون الإنسانية قاطبة أمة المسلم وعائلته . يبحث فيها عن الصديق والعون ، والرفيق والشريك ، لا يرد نفسه لشبهة من شبهات التميز أو النقص ، فشعار المسلمين قول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهذه الدعوة ، وإن كانت تبدو أقرب إلى ما يتصل بعقل الإنسان ووجدانه ، أى بعقيدته ودينه ، إلا أنها شديدة الاتصال بالجانب المادى ، فالتجارة والأعمال ، تزدهر ، وتنمو ، وتكثر بفضلها أرزاق الناس ، وثروات الدول ، كلما أزيلت الحواجز فى وجه انتقال الناس من صقع إلى صقع ومن موطن إلى موطن ، كذلك انتقال الأموال والبضائع والسلع ، وأستطيع أن أؤكد جازما ، أنه لم تسبق الإسلام دعوة لا سماوية ولا إنسانية ، قررت أن الإنسان مخلوق عالمى ، وأن وطنه هو الأرض كلها ، وأن عائلته ، هى الإنسانية بقضها وقضيضها ، وأنه فوق ذلك ، مدعو لأن يحقق ذلك

فعلا ، بأن يسير فى مناكبها ، ويسعى فى سبيل رزقه ، ولا أحسب ان هناك نصا فى كتاب منزل أو موضوع أورد مثل هذه الآية : « إن الذين توفاهم الملائكة ، ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

فعقاب الذين لم يصدقوا أن الأرض وطنهم ، ولم ينفذوا أمر الله فى قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

صحيح أن الآية تعد المستضعفين الذين رضوا بسوء الحال ، بجهنم لأنهم مثلوا الظلم ، ولكن للآية دلالة أخرى ، هى أن أرض الله ، واسعة ، وأن الواجب الهجرة إلى جانب منها ، عندما تسوء الحال ، فى جانب آخر ، فهى أرض الإنسان ، وقد أضيف وصف « واسعة » ، ليتأكد معنى السعة بشقيه المادى والمعنوى ، فهى واسعة لأنها لا تضيق بأحد ولا بنشاط ولا براغب فى التنقل والهجرة ، وهى واسعة بمعنى أن الإنسان يجد فيها مخرجاً لضيقه ، وتفريجاً لكربه .

وليس ثمة عبارة يمكن أن تؤكد نظرة الإسلام والقرآن إلى مدى اتساع النشاط الإنسانى ، واحتمالات هذا النشاط المترامى الآفاق غير المحدودة ، كعبارة هذه الآية .

ولكن لا تزال الخاصية الكبرى لدعوة القرآن العظيمة للاحتفال بالعامل الاقتصادى فى النشاط الإنسانى ، والحوافز المادية له .

تلك هى أن الإسلام مع شدة اهتمامه بالجوانب غير الروحية فى الإنسان ، ومع تأكيد صلته بالأرض ، خروجه منها ، وعودته إليها ، وخلقه

من طين، من حمأ مسنون ، ولفت نظر الإنسان إلى ما يجمعه مع الحيوان الأعجم ، فى مثل قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » إلا أنه لا يزال كل شيء وكل حكم، وكل نشاط ، يقوم به الإنسان ، أو يتصل به ، أو يؤثر فى حياته ، خاضعاً للقانون الأسمى ، الذى جاء به القرآن ، وهو خضوعه لعقيدته التى تأمر بأن يكون المثل الأعلى ، هو غاية كل عمل وقول ، وفكر وخاطر . والمثل الأعلى هو الدار الآخرة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

فللإنسان أن يأكل ويشرب ، ويتمتع بكل جميل ولطيف فى الدنيا ، وأن يلتمس زينتها ، وله أن يسير فى الأرض ، ويمشى فى مناكبها ، على ألا يغيب عنه لحظة أن لله عاقبة الأمور ، وأن إليه النشور .

وقد سبقت الإشارة إلى ما سميته بالمنهج الجدلى للقرآن « مع تسكين الدال » . وأعنى بهذا المنهج ، هو جدله المادى بالروحى ، والدنيوى بالأخروى المجرد بالمجسد ، وهذه ميزة الإسلام الكبرى ، على ما عداه من العقائد والمبادئ والمذاهب . فاتصال الروح بالمادة ، والأدبيات المجردة ، بحقائق الحياة وحاجات الإنسان ، وتطلعاته إلى المجهول ، بانشغاله بالحال الزائل من عرض الدنيا ، مما ينشئ بناء « متكاملا » ، لا يتقسم فيه الإنسان ، ويصبح ممالك ودولا متناحرة ، تتجاذبه الأهواء والميول ، فينتهى به الأمر إلى أن تتحطم وينتهى . ولقد رأينا فى سورة الجمعة ، فى الآية التاسعة منها ، على قلة مفرداتها وألفاظها شاهداً حيًّا ناطقاً على ما نقول ، فإن الله تعالى قال فيها « فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض » فجاء الانتشار فى

الأرض ، عقب الصلاة مباشرة ، ولم يعبر عن العودة إلى العمل واستئنافه بلفظ يفي بهذا الغرض ولا يزيد عليه ، بل عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بالانتشار ، وجعل الانتشار فى الأرض ، وعقب على الانتشار فى الأرض بابتغاء فضل الله ، وفضل الله هو لفظ يتسع للمادى والمعنوى معاً مما يشتاق إليه الإنسان ويطمع فيه ، ثم يعقب على ذلك بذكر الله .

فإذا اجتمعت لنا هذه السمات المميزة للإسلام ، ما جاز لأحد أن يقول إن الإسلام ، اكتفى ببنيان أخلاقيات المعاملات الإنسانية من بيع وشراء ، وقرض ورهن ، ووكالة وعارية ذلك لأن الإسلام فى كتابه المبين وضع قواعد بعضها عام وبعضها تفصيلى فى المعاملات وقد يغيب عن الكثيرين ، أن أطول آية فى القرآن ، هى الآية الثانية والثمانون بعد المائتين فى سورة البقرة ، وهى الآية التى تدعو المسلمين إلى أن يثبتوا ديون بعضهم على بعض بالكتابة ، وتبين واجبات كاتب سند الدين ، وما يجب أن يتحلى به من أمانة وحيدة ، ومن الذى يمل على الكاتب ، فى حالة قصر المدين أو سفهه ولا شك فى أنه قد غاب عن الكثيرين أيضاً ، أن هذه الآية ، التى أوردت كل هذه التفاصيل قد أوردت حكماً يعد من أحدث ما أنتهت إليه قوانين الإثبات المدنية والتجارية ، فالمعروف أن التعامل المدنى أى التعامل بين غير التجار ، يتم فى هوادة وأناة ، فى حين أن التعامل بين التجار ، يتم فى صفقات سريعة ، ومن هنا كان الدين التجارى قابلاً للإثبات بغير السند الكتابى ، وهو ما أجازته الآية التى نحن بصددها فقد استثنت من حكم الإثبات بالكتابة ديون التجارة : لقوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » .

والغاية من الاستشهاد بهذه الآية ، هو إثبات أن القرآن لم يكتف بإيراد أخلاقيات التعامل ، دون أحكام هذه المعاملات فى ذاتها ، فالكتاب السماوى الذى يعنى بإيراد هذا النص المفصل فى صدد إثبات الديون ،

لا يمكن أن يتجنى عليه بالقول بأنه أورد أخلاقيات الحياة التجارية ، أو التعامل اليومى بين غير التجار ، ولسنا حريصين على فض هذه الشبهة ، لأنها تنتقص من مقام الإسلام ، بل لأنها تخالف الواقع ، وتتحداه ، والغاية من وراء دحضها ، هو أن يعرف المسلمون قبل غيرهم أن دينهم أورد نظاماً كاملا مفصّلا ، يتناول الأصول والفروع ، فى شأن المال وتداوله ، وفى شأن العلاقات المالية التى تتشكل فى صورة عقود للبيع والرهن ، والقرض والرهن ، وما أغفله القرآن ، بوصفه دستوراً تولت بيانه السنة المفسرة للقرآن والمبينة لأحكامه ، تطبيقاً لقول الله تعالى ، فى خطابه لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وأنزلنا إليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل إليهم » .

ولقد أوردت أحكام المواريث مفصلة وبنظام كامل لتداول الثروة بين أجيال الأسرة الواحدة ، وهو نظام عظيم التأثير فى الحياة المالية والاقتصادية .

وحكم تحريم الربا الوارد فى القرآن ، على إيجازه ، وهو الحكم الذى تولت السنة بيان نطاقه ، هو حكم كاف لإقامة نظام اقتصادى ، قائم بذاته ، ومختلف أشد الاختلاف عن غيره من الأنظمة . يختلف عنها فى أخلاقياته ، اختلافه عنها فى أحكامه الموضوعية .

ولقد آن الأوان ، لأن يعرض المسلمون على غير المسلمين النظام الاقتصادى

الذى جاء به المسلم ، عرضا يتناول الكليات والتفاصيل ، والمبادئ وطرق التنفيذ ، وأن يواجهوا جميع المشكلات التى يمكن أن تنجم عن تطبيق هذا النظام فى الظروف المالية والاقتصادية التى تغيرت فى القرون الخمسة الأخيرة ، والبديل الذى يقدمه الإسلام عن الأنظمة القائمة ، وهو جهد لا يمكن أن ينهض به فرد ، بل يتعين أن تقوم على تنفيذه ، هيئة ، وأن تسوق للناس الأدلة من واقع التاريخ الاقتصادى لدول المسلمين المزدهرة فى الشرق والغرب : فى دمشق وبغداد والقاهرة من جهة ، والأندلس وبلاد المغرب وجنوب أوربا من جهة أخرى وأن يكشفوا للناس ، كيف قامت مشروعات المسلمين فى تلك الفترة الزاهرة ، وكيف ولت ، وكيف اتسع نطاق المعاملات التجارية الإسلامية مع دول غير المسلمين حتى وصلت أساطيلهم إلى الصين ، وأوربا ، وحتى طافت قوافلهم حول أفريقيا شرقاً وغرباً ، فاستطاع التجار ، وهم يبيعون ويشترون ، أن ينشئوا على سواحل أفريقيا ، وجنوب شرقى آسيا ، المستعمرات ، التى كانت قواعد للدين الإسلامى ، تزحف منه ، وتتسع ، فيدخل الوثنيون فى فى دين الله أفواجاً .

إذ لا يكفى مطلقاً أن نتحدث عن مزايا النظام الإسلامى دون أن نقدم للناس ، فى عالم تصطرع فيه العقائد والمذاهب ، بعنف دام ، وضراوة شرسة ، شذرات قصيرة وصغيرة ، أو أن نورد المبادئ والكليات ، وندع لغير المسلمين أن يتولوا تطبيقها ، وأن يجدوا الحلول التى يقتضيها تطبيق هذا النظام الذى انقطع تأثيره فى الحياة المادية والعملية اليومية لملايين الناس منذ قرون .

إن الناس جميعاً فى حاجة إلى أن يقرأوا نصوص الشريعة فى مختلف وجوه الحياة ، كما يقرأون الآن القوانين الحديثة المدنية والجنائية والإجرائية ، لأن ذلك أقرب إلى التفاؤل والفهم ولا سيما لمن لم تواته ظروفه ، لأن يقرأ المطولات ، أو لا تعينه ثقافته على فهمها ، والإحاطة بها ، إن حاول قراءتها . وقد حالت دون تحقيق هذه الغاية صعوبات أهمها عدم توفر النية ، ومنها تعصب كل صاحب مذهب لمذهبه ، وخشية بعض الحكومات ، أن يعرف الناس عن القرآن والسنة ، ويقنعوا بهذه النصوص ، وقد تكتسب مع الزمن ، إن اتجه إليها القاضى والمحامى والشارح والمفسر ، قداسة فتصبح فى مقام الأصول التى أنزلها الله سبحانه وتعالى ، على نبيه المرسل صلى الله عليه وسلم .

وهى مخاوف مردها جميعاً أن حيوية الأمـة الإسلامية استنفدتها أحداث الزمان ، فضعفت جميعاً عند مواجهة المخاطر التى تستلزمها تكاليف الحياة ، والصراع بين الأمم ، وفى العهد القريب منا أقدمت حكومة الخلافة العثمانية على إصدار ما أسمته المجلة ، وطبعت هذه المجلة فى سنة ١٢٩٧ هجرية أى منذ قرن كامل ، وقد لخصت محتوى هذه المجلة بأنها تحتوى على القوانين الشرعية والأحكام العدلية المطابقة للكتب الفقهية حررتها لجنة مؤلفة من العلماء المحققين والفقهاء المدققين بعد أن وقعت لدى الباب العالى موقع الاستحسان ، تعلقت الإرادة السنية بأن تكون دستوراً للعمل بها » وقد وضعت هذه المجلة أو ما جاء فيها من أحكـام ، على أساس من أظهر الأقوال فى مذهب أبى حنيفة ، وقد جاء فى مقدمة المجلة : « لم يزل الأمل معلقاً بتأليف كتاب فى المعاملات الفقهية

يكون مضبوطاً سهل المأخذ ، عارياً من الاختلافات ، حاوياً للأقوال المختارة ، سهل المطالعة على كل أحد ، لأنه إذا وجد كتاب على هذا الشكل حصل منه فائدة عظيمة عامة لكل من نواب الشرع ومن أعضاء المحاكم النظامية والمأمورين بالإدارة ، فيحصل لهم بمطالعته انتساب إلى الشرع ولدى الإيجاب تصير لهم ملكة بحب التوسع . . . » .

ولقد بقيت المجلة دستور المحاكم العثمانية زمناً طويلاً ، بل بقيت أساس القضاء فى جميع الأقطار الداخلة فى إمبراطورية بنى عثمان كالعراق والشام وتحققت من وراء هذا المجهود المحدود فائدة غير قليلة .

وقد حاول الخديوى إسماعيل أن يفعل شيئاً من هذا القبيل فجمع علماء الشريعة ، من أساتذة الأزهر ، وكبار القضاة ، ولكنهم لم يتفقوا على منهج العمل ، إذ رفضوا أن يصدروا مجموعة قانونية ، فأخذ بأيسر الآراء فى جميع ، ولكن لم يحل هذا دون إقدام عالم كبير من علماء مصر ، هو المرحوم محمد قدرى باشا ، الذى وضع مجموعتين سمى الأولى منهما « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان » فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ملائماً لعرف الديار المصرية وسائر الأمم الإسلامية وسمى الثانية « قانون العدل والإنصاف فى حل مشكلات الأوقاف » وقصرها على أحكام الوقف وحده ، وطبعت المجموعتان تقريباً فى نفس التاريخ الذى طبعت فيه المجلة أى فى سنة ١٨٩٠ ميلادية ، ١٣٠٨ هجرية . ولم تتكرر المحاولة .

تطور الإنسان فى القرآن

لما عاد تشارلس روبرت داروين من رحلته البحرية على سطح الباخرة « بيجل » فرغ لدراسة ، ما جمعه فى هذه الرحلة ، من نماذج عديدة من أحياء مائية ، وطيور وزواحف وقواقع وأصداف ، ثم خرج على الناس ، بكتابه الذائع الصيت فى سنة ١٨٥٩ « أصل الأنواع » فكان لظهور كتابه هذا ، فى دوائر العلم والدين معاً ، وقع كوقع القنبلة المدوية . ولكن بعد أن هدأت العواصف التى أثارها هذا الكتاب ، استطاع عدد من مؤرخى العلوم فى أوربا وأمريكا الذين اتصفوا بالاعتدال ، والشجاعة ، وحب الحقيقة ، أن يثبتوا أن علماء المسلمين اهتدوا إلى هذه النظرية ، نظرية التطور ، قبل داروين بكثير ، وأنهم وسعوا نظريتهم ، فشملت الجمادات والحيوانات معاً ، ومن هؤلاء العلماء « دريبر » الأمريكى الذى كتب كثيراً عن فضل المسلمين على العلم الحديث .

اهتدى المسلمون إلى نظرية فى التطور ، قائمة على أسس علمية صحيحة بعضها ما أقام عليه داروين نظريته ، ولكنهم لم يتورطوا فى الأخطاء التى تورط فيها داروين ، والتى صححتها البحوث والكشوف الحديثة أى علم الأحياء وعلم الوراثة

ولنعلم بادئ ذى بدء : أن الإسلام هو دين التطور : شرح القرآن الكريم ، صوره فى الإنسان ، ومخلوقات الله الأخرى ، وفى الأكوان ،

من نجوم وكواكب وبحار وأنهار ، ورياح وسحب ، وليل ونهار . ثم بين للناس أسس هذا التطور ثم أسبابه ، وأتبع ذلك ببيان نتائجه وغاياته ، وتوج هذا جميعاً ، بدعوة الإنسان إلى التغيير والتطور ، عملاً بسنة التقدم ، الدائب المستمر ، التى أودعها الله فى مخلوقاته من الأحياء .

لقد أورد القرآن الكريم ، فى سورة البينات ، طائفتين من الآيات : الأولى ، تكشف للناس أجمعين ، سنة الله التى لن تجد لها تبديلاً ، فى الحركة الدائمة ، فى الأكوان ، والتطور المستمر ، الذى لا يفتر ولا يهن ، فى الجانب المادى من تلك الأكوان ، ونعنى بذلك الماء ، والأرض والسماء ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والحرارة والبخار ، والجبال والبحار .

والثانية : نفس الحركة المتصلة ، المتجددة ، المثابرة ، فى المجتمعات الإنسانية ، والصراع بين الحق والباطل ، وبين العدل والظلم ، وبين الإيمان والشرك ، وبين الأقوياء المتكبرين ، والضعفاء الصالحين .

وإلى جانب هاتين الطائفتين من الآيات ، آيات تدعو إلى تغيير الواقع القاتم الكريه ، ونبذ التقليد ، وتحريم مسايرة الأقوياء ، والنظر فى الجديد ، وإن يكن غير مألوف ، وشق الطرق إلى عالم حديث ،وإن يكن غير معروف .

فمن الطائفة الأولى ، طائفة الحديث عن التغير الدائب ، فى الجانب المادى من الكون قول الله تعالى : فى سورة الرحمن « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » وفى سورة يس : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وفى سورة الزمر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاماً » وفى سورة الروم : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » .

وفى سورة يونس : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ».

وفى سورة الرعد : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وفى سورة الكهف : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذ روه الرياح » .

وفى الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » .

فإذا انتقلنا إلى جانب الحركة فى المجتمعات الإنسانية ، وتطورها الدائب ، والصراع فيها بين الظلم والعدل ، والحق والباطل ، ألفينا فيضاً من آيات كتاب الله البينات .

وفى مقدمة هذه الآيات قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

وفى سورة الروم : « غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » ثم فى سورة الروم أيضاً : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وفى سورة القصص يروى القرآن حكاية قارون فيقول : « فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » ثم يقول تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وفى سورة غافر ، حوار طويل بين رجل من ذوى قربى فرعون ، أى من آله ، مؤمن بالله يكتم إيمانه ، وبين فرعون ، يرينا كيف يدل ذوو السلطان بسلطانهم ، ويصمون عن قول الحق آذانهم ، ثم يرينا عاقبة صدهم عن دعوة السماء ، قال الله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ، ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

وتنتهى هذه القصة ، ككل قصص القرآن ، بسوء عاقبة الكافرين . « وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب. وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » وظفر المؤمن بما يعد به الله عباده الصادقين « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »

وهذه القصة ، تتكرر في القرآن ،وإن اختلفت فيها الأسماء ، والأمكنة ، والأزمنة ، إلا أن العاقبة فيها لا تختلف ولا تتبدل ، ففي سورة الكهف ، مثل هذا الحوار ، بمعانيه ، وبعض ألفاظه ، ينتهي بنفس النهاية ، ويؤدى إلى نفس الغاية .

ومن هذه الآيات ، ترى الحركة التي يموج بها المجتمع الإنسانى ، بفضل جهاد المؤمنين ، وإصرارهم على دعوة الحق ، وحرصهم على إيمانهم ، وإن قل النصير ، وضعف المعين . وهم دائماً الغالبون ، ولو بعد حين . فحركة التطور ، كما يصورها القرآن ، ليست حركة عمياء ، تسير اعتباطاً ، بل إنها حركة مستنيرة مبصرة ، تهديها سنة الله فى خلقه ، التى لن تجد لها تبديلاً ، وهى سنة تقضى بانتصار الحق والخير والعدل ، بعد مشقة وعناء ، وامتحان وابتلاء .

أما الطائفة الثالثة ، من آيات الله المبينة ، فهى آيات التنديد بالجمود ، وكراهية التطور ، والاستمساك بالقديم البالى وإن كان ضارا ، لمجرد إلفه ، ولأنه ميراث الآباء والأجداد . وهذه نزعة كابد منها أصحاب الدعوات جميعاً ، وفى مقدمتهم أنبياء الله ورسله . من تلك الآيات ما جاء فى سورة الأعراف : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا » وما جاء فى سورة يونس : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » .

ثم جاء فى سورة الأنبياء حكاية لما جرى بين إبراهيم وأبيه وقومه : « إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » .

كذلك الآية الرابعة والسبعون فى سورة الشعراء استمرارًا للجدل بين

إبراهيم ، وقومه ، عن الأصنام التى ورثوا عبادتها عز الأقدمين : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » .

ونخلص من هذه الآيات الناطقة البليغة أولاً : إلى أن الحقائق الكبرى ، التى كشف عنها كتاب الله العزيز هى أولا أن هذا الكون الذى نعرفه ، ونتصل به ، ونحاول أن نستزيد من العلم به ، والانتفاع بما أودعه الله فيه من قوى ، سخرها لنا إن اهتدينا بهديه ، هو كون متطور ، دائب الحركة ، لا يعرف السكون ، ولا يقبله ، لأن فى السكون نهايته .

ثانياً : أن الناس الذين خلقهم الله تعالى ، وجعلهم خلفاء له ، وبالتالى سادة هذا الكون ، بالتقوى والعمل الصالح ، هم بدورهم فى حركة مستمرة ، وسعى موصول ، وأن فى هذه الحركة التى فطرهم الله تعالى عليها بركة ، هذه الحركة هى ما يسميه القرآن ، فى الحديث عن الدار الآخرة السعى « وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

ثالثاً : أن الله لا يحب لعباده الجمود ، ولا التشبث بالماضى ولو كان موروثاً عن الآباء ، فيجب أن يمحص الإنسان القديم الذى ورثه ، فإن اتفق مع العقل والحق أخذ به ، ولذلك قال النبى إبراهيم لقومه : قال : « أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » .

وبهذه الحقائق الثلاث الكبرى ، رسم القرآن الكريم ، الإطار العام لقاعدة « التطور » ولكن القرآن الكريم لم يقف عند حد بيان هذه الحقائق ، التى دعا عقول البشر إلى التأمل فيها ، والعمل بهديها ، بل انتقل

إلى الإنسان الفرد ، وأنزل فى حقه ، آيات ، تبين أنه مخلوق متطور ، وأنه قابل للتطور ، ومتطور عليه ، وأن فى تطوره ، الخير له ، وأداء الرسالة التى اختير لها ، والتى سماها القرآن الكريم « الأمانة » ، فارتفع بها إلى أعلى مقام .

ولقد ذكر القرآن الكريم ، الإنسان ، ونبهه إلى طبيعة التطور فيه ، فقال فى سورة الانشقاق : « والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق » . وفى سورة نوح قال عز وعلا : « ما لكم لا ترجون الله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً » . وفى السورة الكريمة التى تحمل اسم الإنسان ، أعاد كتاب الله المنزل تذكير الإنسان بأصله الأصيل : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » وفى آية واحدة فى سورة الحج ، ذكر القرآن العزيز ، أدوار الإنسان وأطواره ، من قبل أن يولد إلى أن يتوفى ، فى تتابع وتلاحق ، ينبه الذهن الغافل ، ويذكر العقل الذى غلبه النسيان ، فقال : «يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبتغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » .

ولكن القرآن الكريم ، قرر حقيقتين كبيرتين ، هما فى واقع الأمر ، عنصران أساسيان ، فى مبدأ التطور ، الذى يدعو إليه الإسلام ، لأنه قانون من قوانين هذا العالم ، أى سنة من سنن الله ، ثم لأنه ضمان من ضمانات تقدم الإنسان ، ونجاته من آفات الجمود ، والركون إلى الماضى ،

وكراهية السعى ، والنشاط ، المثمرين المباركين .

أما الحقيقة الأولى ، فهى انبثاق الإنسان ، من مادة قليلة الشأن ، هى الطين ، الذى يصبح صلصالا أو فخاراً ، بعد أن يدخل النار.

فى حين ان الحقيقة الثانية ، هى أن أصل الأحياء جميعاً ، سواء كانوا من بنى آدم أو من الحيوانات الراقية ، أو من دواب الأرض ، وهوامها ، هو الماء .

وهاتان الحقيقتان تؤكدان أن التطور ، هو قانون حياة هذا المخلوق ، الذى اختاره الله ، وصنعه ، وصوره ، ونفخ فيه من روحه . تطور من المادة الرخيصة ، إلى هذا البناء العجيب ، المعجز ، الذى يضم المادة والروح ، فى وحدة ، لا انفصام لها ، فحياته لا تستقيم على هذه الأرض ، بغير ارتباطهما الدائم ، وتوازنهما الدقيق . فالإنسان لا يكون بدناً مجرداً من روحه ، واستشراقه المستمر إلى ربه ، وشوقه المتجدد إلى المثل الأعلى ، ممثلاً فى الأنبياء والقديسين والشهداء والصالحين . وابتلاءه وامتحانه ، متجلى فى كيف يحمل جسده ، إلى تطلعات روحه ، وكيف لا يهبط بروحه إلى نزعات بدنه .

ومادية البناء الإنسانى ، تؤكد صلته بهذا الكون الذى يعيش فيه ، والذى أعلن خالقه عز وعلا ، أنه مسخر له ، بفضل ما يلقنه إياه ، بفضل الكتب المنزلة وعلى أيدى الأنبياء المرسلين ، الذين يثيرون شوقه إلى المعرفة حتى يكون لسان حاله الآية : « وقل رب زدنى علماً » .

أما الآية الكريمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » فهى تكشف عن حقيقة علمية ثابتة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فحيث

ينعدم الماء ، فلا حياة لنبات ، مهما كان النبات حقير الدرجة فى سلم النباتات ، كأن يكون من الطحالب، التى لا تنقسم كالنباتات الراقية ، إلى جذور وسيقان ، وأوراق وزهور والتى لا تتناسل ، وتتكاثر ، على وجه يشبه تكاثر الحيوان ، كذلك لا حياة للحيوان ولو كان – كما سبق القول – فى حيوان الخلية الواحدة ، أو إلى ما عرفناه اليوم من الفيروسات التى لا ترى ولا بالمجهر الميكروسكوب . فالماء هو صلب الحياة ومصدرها ، فإن جفت أو نفذت مات الكائن الحى . والكواكب التى تنعدم فيها الحياة ، ينعدم فيها الماء .

ولقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية ، ونبه الإنسان إليها ، ليؤكد للإنسان صلته بعالم الأحياء جميعاً ، فهى منه ، وهو منها ، وعلم الإنسان بهذه الحقيقة ، وانتفاعه بها ، تجعله أكثر قدرة على أداء الرسالة التى اختاره لها ، والتى قلنا إن القرآن الكريم ، اختار لها اسماً بالغاً أقصى درجات السمو ، إذ أطلق عليها لفظ الأمانة ، فهى ليست مجرد وظيفة ، وإنما هى عهد يطالب بأدائه ، أداء ماديًّا إبراءه ، بل يجب القضاء به ، بعنصرى الإنسان : ماديًّا وروحيًّا . أى كما يؤدى الدين ، وكما يقوم الإنسان بالعبادات المفروضة عليه ، ومن هنا قرر القرآن فى سورة الأنعام : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولا نجد نصًّا يكشف عن وحدة الأحياء مثل هذا النص المتين .

ولا يستطيع الإنسان أن يفهم معنى الأمانة ، ولا أن يدرك حدود خلافته عن الله سبحانه وتعالى ، إلا إذا وعى ، كأعظم ما يكون الوعى ، اتصاله الوثيق ، بهذا الكون الفسيح ، بمادته ، التى أخذ منها ، وبارتباطه

بالأحياء لأنهم خلقوا مثله ، أوخلق مثلهم ، من أصل واحد ، هو هذا العنصر الذى قد لا يحفل به كثيراً ذلك هو الماء .

ومن أجل هذا تكررت الآيات التى تذكر أصل الإنسان ، وأنه من صلصال : أو من طين أو من طين لازب .

فى سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » وفى سورة المؤمنون : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . « وبدأ خلق الإنسان من طين » وفى سورة الرحمن : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » .

وإذا كان عالم بريطانى قد اهتدى إلى تطور الأحياء ، وجعل من النتائج التى انتهى إليها قانوناً أو نظرية ، عرفت فى الغرب باسم « نظرية النشوء والارتقاء » ، فإن ما اهتدى إليه ، كان دون ما نصت عليه ، آيات القرآن الكريم ، من بواعث هذا التطور ، ودواعيه ، وكان دون ما كشفته هذه الآيات من نطاق هذا التطور ومجاله . فالتطور فى القرآن ، يشمل جميع عناصر الكون ، لأن الإسلام هو دين الوحدة والشمول ، وبواعث هذا التطور ، ليست مادية محضة ، وإنما هى اجتماعية كذلك ، وهى روحية فوق كل شىء لأن الإنسان — كما سبق القول — وحدة عنصراها الماده والروح ، وهما مندمجان اندماجاً تاماً ، بحيث لا يكون الإنسان إنساناً ، بواحداً منهما ولو لحظة ، فالإنسان وهو فى أشد حالات الخضوع لشهوات البدن لا يبعد قط عن سيادة الروح ، إذ لا يلبث أن يسأم من لذائذ البدن ، ويحس بوخز الضمير ، ويحاول التوبة ، ولو غلبته غرائزه ، والجانب الحيوانى فيه .

وقد قرر داروين أن بواعث التطور فى الأحياء ، هو الصراع الذى سماه تنازع البقاء ، الذى يؤدى إلى بقاء الأصلح ، وجعل تطابق الأحياء مع البيئة التى يعيشون فيها ، أو ما أطلق عليه الإنخاب الطبيعى ، باعث آخر من بواعث التطور .

وهذا كله أشار إليه القرآن فى سورة البقرة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

فصراع الأحياء ، أو صراع الآدميين ، هو سبب صلاح الدنيا ، ولكن هذا الصراع بين الناس ، لا يجرى فى القرآن ، صراعاً بين حيوانات ، أى لا يقتصر على صراع باعثه الغريزة الحيوانية المجردة من العقل ، والبعيدة عن أحكام الحياة الإنسانية السامية ومقتضياتها ، بل هو صراع العقول والنفوس . وهو صراع المبادئ والعقائد ، وهو صراع الحق والظلم ، وصراع العلم والجهل ، وصراع النور والظلام فالصراع الحيوانى ، يقف عند حد ، قد تتطور معه الحياة ، ولكن الصراع الإنسانى ، لا تتطور معه الحياة فقط ، بمعنى التغير فقط ، والارتقاء فى الوظيفة وفى الآلة التى تستعمل فى أدائها ، وفى قدرات الحيوان العضلية ، بل هو ارتقاء نفسى وعقلى وروحى ، يقترب به الإنسان من خالقه ، ما وسعت ذلك طاقته الإنسانية وإذا كان الصراع الدارويئى ، ينتهى ببقاء الأصلح أى الأقدر على البقاء وقد يكون فى أحيان كغيره هو الأقوى ، فى حين أن نتيجة الصراع القرآنى هو بقاء الأنفع ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

وغير الصالحين محكوم عليهم فى القرآن بالعفاء ، يحل محلهم سواهم ،

« وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » محمد ، وعبارة « وإن تتولوا » تتسع لكل صور التخلف عن تحمل تبعات الحياة المادية والروحية ، فهى تعنى عدم فهم أحكام القرآن ، ودعوته إلى فهم قوانين الكون وكشفها ، وتسخير الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، والنور والماء ، والنبات والحيوان ، والأشياء والمواد ، فى خدمة الإنسان ، أى فيما ينفع الناس ، وهى عدم طاعة قوانين القرآن ، من التعاون ، والرفق ، والعدل والرحمة ، والصدق والثبات ، وهى عدم الإنفاق من أجل المصالح المشتركة ، وإعداد القوة ورباط الخيل لمواجهة الأعداء ، كل أولئك يدخلون فى عبارة « وإن تتولوا » فإذا فعل الناس ذلك ، فقد انحدروا إلى الضعف ماديا وروحيا ، وعجزوا عن التكيف مع الحياة ، وفهم دواعيها ، وعندها يقفون ، يحل محلهم قوم آخرون ، لا يكونون فى مثل ضعف وسوء تدبير وسوء تكليف الذين سبقوهم .

وإذا كان القرآن قد هدد الذين لا يطيعون أحكامه ، بأنهم سيهبطون إلى مستوى الحيوان « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » فى سورة « البقرة » كما كرر هذا الوعيد فى سورة المائدة « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » فلكى يؤكد أن الإنسان مرتبته تعلو الحيوان وأن الفارق بين الإنسان والحيوان ليس فارقاً فى الدرجة ، ولكنه فارق فى الطبيعة ، وأن الإسلام على الرغم من نصه على وحدة أصل الحياة ، وعلى حسن علاقة المسلم بالكون كله بمادياته والكبير من مخلوقاته ، والصغير الدنىء منها ، فإن الإنسان يقف على رأس الأحياء ، متميزاً عنها جميعاً ، لا برقى أعضائه ، وقدراتها المتفوقة ، والمتنوعة ، بل

بجانبه الروحى الذى يجعله إماماً للأحياء جميعاً ، ليقودهم إلى عالم ينعدم فيه حكم الغرائز ، وتسوده أحكام الإنسان الأرقى ، المتطلع إلى مزيد من الخير ، والحب . والمعرفة ، والتسامح . والصبر يتطور دائماً ، فى هذا المجال السامى ، ويعلو كل يوم عن المرتبة التى حققها بالأمس .

* * *

ولقد ذهب القرآن الكريم آخر الأمر ، فى تكريم الإنسان ، وبيان رسالته ، والإعلاء من شأن أمانته ، أقصى الغاية ، حينما قرر فى الآية المبينة « إن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، فى هذه الآية على إيجازها ، تقرير أن التغيير أى التطور واجب وتبعة من واجبات الإنسان وتبعاته ، وأن الله تعالى يدعه للإنسان ، لأنه قادر عليه بإذن خالقه ، ولأنه مطلوب منه بأمر مبدعه ، وأنه حينما يتمه ، فقد أدى أمانته وأحسن أداءها ، وأصبح أقدر على مواصلة ، الوفاء بما تقتضيه . فاستحق اللقب العظيم الذى أضفاه الله العظيم ، خليفة الله فى أرضه .

لآيات القرآن الكريم ، فى التطور : وبيان حقائقه ، والإشارة إلى صوره ، حكمتان : حكمة عقلية ، وحكمة روحية أو خلقية .

أما الحكمة العقلية ، فقوامها أن يدرك الإنسان المسلم ، أنه هو يتطور ، وأنه وصل إلى ما وصل إليه فى بدنه ونفسه وعقله ، ودينه ودنياه ، بفضل التطور ، وأن يدرك أن كل ما حوله يتطور : الحيوان والنبات ، والجماد : والأفلاك والشموس والأقمار ، والجبال والبحار والأنهار ، والسحاب والبخار والأمطار . كلها تتغير ، وتتحرك : وتأخذ حسب سنة الله فى مخلوقاته : صوراً وأشكالاً ، فى اليوم الواحد ، وفى السنة بشهورها ،

وفى الآماد والحقب والأجيال .

والتفات ذهن الإنسان المسلم إلى هذه الحقيقة الكبيرة ، ينفعه فى أكثر من وجه : فالعلم فى ذاته ، غاية وهدف للإنسان المسلم : رجلا كان أو امرأة ، لأن العلم قوة ، وزاد ، لا يدخل عقل الإنسان ، حتى ينتقل إلى نفسه ، وأسلوب حياته ، ومنهج معيشته وطريقة تعامله مع إخوانه فى المجتمع . صحيح أن الناس تتفاوت من حيث الإفادة من العلم ، ومن هنا أمر الله المسلمين فى شخص نبيهم « وقل رب زدنى علماً » ومن هنا أيضاً قال القرآن الكريم « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » والوجه الثانى أن يحاول الإنسان المسلم ، الإفادة من حقيقة هذا التطور ، ومساره ، وآثاره ، وأن يتقى المضار التى تلحقه ، إن هو غفل عنه ، أو وقف فى طريقه ، دع عنك تحديه وإنكاره .

وإذا كان الله تعالى . . قد قال فى سورة واحدة : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » . « وسخر لكم الليل والنهار » ثم قال عز وعلا فى سورة النحل : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر » « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا » كما قال تبارك فى سورة الحج : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض » وفى سورة لقمان : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » . إذا كان الله تعالى قد من على الإنسان بما سخره له ، من الضخم العظيم ، من مخلوقاته ، وجعله سيداً لهذه الكواكب والأقمار ، والنجوم ، ودواب الأرض وهوامها . وما يلج فيها وما يخرج منها ، وما يعرج فى السماء ، وما ينزل منها ، فالسبيل الوحيد ، لتحقيق هذا

التسخير ، هو أولا التأمل فى هذا الكون ، ومعرفة السنن التى أودعها الله فيه ، والاهتداء إلى مفاتيح هذا الكون ومقاليده ، لإدارتها ، فإذا هو طائع ، يمنح الإنسان العالم ، المفكر ، المتدبر ، خيراته ، كأنه حيوان أليف ، يتبع سيده ، ويلبى إشاراته ، ولا يعصى ما يؤمر به .

فإذا أحسن التأمل ، وأطال النظر فى خفايا هذه الكائنات وخباياها ، وأسلوب تلونها وتحللها ، وطريقة غدوها ورواحها واتصال بعضها ببعض ، وتأثير بعضها فى بعض ، زاد سلطانه عليها ، ونفعه منها ، وزاد قربى لربه الذى وعد عباده بالزيادة فى كل شىء فى قوله تبارك وتعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وقد قلنا من قبل ، إن خير وسيلة لشكر الله ، هو التفكر فى أنعمه ، أى فى أكوانه ، وبدائع مخلوقاته ، والسعى الحثيث للاهتداء إلى نواميسه والوقوف على قوانينه .

والإنسان الذى يسعى هذا السعى ، هو لا يدرى ألف باء البحث والتنقيب ، أى سر أسرار الكون ، وهو تطوره ، أشبه شىء بمن يدخل إلى الصحراء ، وهو لا يدرى تقلب الأجواء فيها ، وما تخدع به السائر فى دروبها ، والسارى فى وهادها ونجادها ، من سراب و « أخيلة » ، فتطور الإنسان ، وقدرته على التحول والتكيف ، وانتقاله منذ خلقه الله فى هذه الأرض ، من طور إلى طور ، وانتقاله هو نفسه منذ دبت فيه الحياة ، فى ظلمات الرحم ، حتى يعود إلى ظلمات القبر ، هو الحقيقة البدهية ، التى يؤدى العلم بها ، إلى بدهيات أخرى تتسلسل وتتعاقب ، فى انتظام بديع ، واتساق رائع .

ولولا اهتداء الإنسان إلى قانون التطور لما اهتدى إلى القوانين الضابطة والحاكمة لهذا الكون ومخلوقاته من أحياء وجمادات : فالحرارة والبرودة ، والصلابة والسيولة ، والتمدد والانكماش ، ليست إلا مظاهر هذا التطور وصوره .

بل التأثر بقانون التطور ، والتأمل فيه ، هو الذى قاد خطى الإنسان إلى كشف أكبر القوانين العلمية حقاً وصدقاً ، هو قانون التوحيد . إذ لولا أن الإنسان قد عرف أن لهذه الأكوان جميعاً إلهاً واحداً ، وأن له قانوناً واحداً ، ثابتاً لا يتغير ، مهما تغير الزمان أو المكان ، فى القديم والحديث ، فى جميع القارات ، وكل المحيطات ، لبقّى الإنسان عبداً وأسيراً للخرافة والشعوذة ، وللذين يتسلطون على عقول الناس ونفوسهم ، بما يثيرونه فى تلك العقول والنفوس ، من مخاوف باطلة ، وأوهام زائفة ، بفضل إتقانهم لترويج الخرافة ولاستغلال الشعوذة .

ولقد روى لنا القرآن ، نموذجاً ، لاهتداء الإنسان ، إلى القانون الأسمى ، وهو قانون التوحيد ، بالاهتداء إلى قانون التطور ، وذلك فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فى سورة الأنعام :

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض : وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لا أحب الأفلين : فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين : فلما رأى الشمس بازغةً قال ، هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إنى برىءمما تشركون . إنى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا

من المشركين » .

ولقد بدأت هذه الآيات بقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ! أى أن اهتداء إبراهيم عليه السلام ، بدأ بالنظر فى السموات والأرض ، فلم يصل إلى الإيمان بالله ، والاهتداء إلى خالق الأكوان الأكبر ، إلا بتأمل ظواهر الكون المتطورة والمتغيرة ، وإجراء المقارنة بين النجم اللامع ، والقمر الساطع ، والشمس البازغة ، ثم بتبينه أن هذه الأجرام جميعاً تختفى ، وذهنه لم يتفتح إلى استنباط الحقيقة المستفادة من ظهور هذه الأجرام واختفائها من تباين أحجامها ، واختلاف نصيب كل منها من الضوء ، إلا بعد أن تدرب على منهج استنباط الحقائق من تأمل كل ما حوله . ولقد روى لنا القرآن الكريم هذا المثل ، ليرينا أن تأمل ملكوت السموات والأرض ، هى سنة صالحة ، وأن عاقبتها هى الوصول إلى أكبر الحقائق ، التى حينما تمتلئ نفس الإنسان بها يتحرر من الخوف الذى هو الحائل الأكبر دون رقى الإنسان ، واستزادته من القوة والمنعة والسيادة والخوف من مظاهر الطبيعة المجهولة ، والخوف من الإنسان الآخر حاكماً كان أو كاهناً ، لينطلق من أسر الأكاذيب الشائعة التى ترتقى باطلا إلى مستوى الحقيقة ، وتأخذ مكانها ، ومن أسر المتسلطين الذين يكسبون من استبقاء الجهال ، فى الجهل ، والضعفاء فى الضعف ، والفقراء فى الفقر .

هذه هى الفوائد التى يجنيها الإنسان ، فى مجال العقل ، من الاهتداء إلى قانون التطور . أما خيرات الاهتداء إلى هذا القانون ، الروحية أو الخلقية ، فهى كشف أثر تطور الإنسان فى المجتمعات ، وطواعية

الأنظمة ، والأحوال البشرية ، للتطور والتغير . وواجب الإنسان على دفع كل نقص وعيب وقصور وظلم فى مجتمع الإنسان ، ليكون أفضل وأحسن وأعدل وأسلم . .

فلو لم تقم الأدلة على القانون الأسمى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لاستكان الإنسان إلى الظلم ، والفساد ، والجهل ، ولما كانت لرسالة الرسل ، أثر ولا نفع .

وقد قلت وأقرت أن قانون التطور فى القرآن ، قانون مادى أو علمى ، وروحى أى خلقى ، فهو يشمل الكون بماديته ، ويشمل الإنسان الفرد ، والإنسان فى المجتمع ، فيبين قوانين المادة وقوانين الإنسان ، من حب وكره ، وتجمع وتفرق ، وتقدم وتأخر .

والقسمان ، قسم المادة وقسم الروح ، أو قسم العلم وقسم الأخلاق ، ليسا جزءين منفصلين ، بل هما عنصران فى شيء واحد. فما يعرفه الإنسان ، ينعكس على علاقاته بأهله ، وبغيره ، وبخالقه ، وما يفيده الإنسان من كشف قوانين الإنسان الداعية إلى رقيه ، وقوانين تدهوره وانحطاطه ، يعينه على تحصيل المعرفة العقلية ، وحسن استيعابها ، وتبويبها وتصنيفها .

وإذا أردت أن أضع تحت نظرك صورة لهذا الكون المتطور ، السائر دائماً ، المتحرك دائماً الذى لفت القرآن الكريم إلى تحركه وتطوره ودورانه ، فيما نقلت إليك من بعض آياته البينات ، فهذه فقرة من كتاب عالم عربى مسلم ، الأستاذ أحمد زكى يقول لك :

« إنه طريق الحياة ، العريض ، الواسع ، الفخم ، يحمل الخلائق ألوفاً مؤلفة ، وهو كالنهر ، يبدأ عند منبعه بميلاد ، وينتهى عند مصبه

با نصباب فى ذلك المحيط الأعظم ، الذى لا تكاد تدرك له غوراً ، وتأتى الشمس إلى هذا المحيط ، تستخلص منه الحياة سحباً ، تعود بها إلى تلك المنابع ترويها وتغذيها ، لتعود سيرتها الأولى من ميلاد فى أعالى الأرض عند منبع ثم انصباب آخر عند محيط فى دورة لا تنتهى » .

أليس هذا الذى يقوله العالم فى كلام كثير ، يقوله كتاب الله العظيم فى كلمات : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعاً ، مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً » أو قوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله » وغير ذلك كثير .

وحيرة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو ينظر إلى السماء ، هى حيرة العالم اليوم ، تماماً ، لأن الأنبياء هم أئمة العلماء والعلم ، جاء العلماء على أثرهم ، واهتدوا بهديهم ، يقول نفس العالم :

« يرفع الرجل المتعبد كفيه إلى السماء ، يدعو ربه ، فيقولون كفر ، فليس الرب يوجد فى مكان بعينه ، ولكنه يوجد فى كل مكان ، وهل رفع الرجل المتعبد إلى السماء ، إلى مكان معين ؟ وكيف والسماء تدور ، يرفعهما الرجل إلى مكان بعينه ؟ إنه يرفعهما إلى كل مكان ما تواتر الزمان . إن هذا الذى هو فوقه » ، كان منذ نصف يوم « تحته » والذى هو على يمينه « كان منذ نصف يوم على يساره » .

وقد سبق القول إن القرآن الكريم قرر ، فى معرض بيان تطور الإنسان ، أصل الإنسان فرده إلى المادة من جهة ، كما كشف عن الأصل المشترك بينه وبين جميع الأحياء من جهة أخرى ، ثم أفصح عن فضل

الإنسان على جميع الأحياء من جهة ثالثة .

أما أصل الإنسان المادى فتكشف عنه آيات منها : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » ومنها : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ومنها : « إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » وعن صلة الإنسان بالأرض وارتباطه بها قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وعن وحدة الحياة ، قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » كما قال : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » !

وليس ثمة مجال يتضح فيه تطور الأحياء مثل عالم الحيوان الأعجم ، الذى سخره الله للإنسان فيما سخر من مخلوقاته تبارك وتعالى ، ولذلك لا تجد كتاباً من كتب الإنسان ، سماوية أو بشرية ، احتفل بعالم الحيوان ، ودعى إلى التأمل فيه ، ونعنى بالكتب السماوية أو البشرية ، ما كانت كتب عقائد وتأصيل أصول الحياة الإنسانية الكبرى . فإن ضرب الأمثلة بالحيوان عديدة ، لبيان الأفكار القرآنية من ذلك : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها » ومنها : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً ، لا يستنقذوه منه » . ولعل من الأمور التى تخفى عنا ، أن أكبر سور القرآن ، وأول سورة فى الجزء الأول منه ، هى سورة تحمل اسم حيوان أعجم تلك هى « البقرة » ، والسورة السادسة ، وهى من السور الطوال تحمل اسم « الأنعام » . ولفظ الأنعام يتكرر فى القرآن كثيراً ، ثم هناك سورة تحمل

اسم « العنكبوت » ، وأخرى تحمل اسم « النحل وثالثة تحمل اسم « النمل » فلا عذر للإنسان المسلم إن هو أغمض عينيه عن هذا الكون ، وعن دراسة جميع عناصره الحية ، والجامدة ، وعن تبين صلاته بها ، ووجوه الشبه بينه وبينها ، وتفوقه عليها ، وتميزه بميزة الروح عنها جميعاً ، فالإنسان المخلوق من طين أو طين لازب أو حمأ مسنون أو صلصال كالفخار أو من تراب ، والذى خرج من الأرض ثم سيعود إليها ، ثم سيخرج منها ، والذى تربطه بالحيوان الأعجم وشائج فقد خلق مثله من ماء ، ثم هو بحكم القرآن أمة ، ودواب الأرض وطيور السماء أمم مثله ، ولكن يأتى بعد ذلك كله ، قول الله تعالى فى سورتى « الحجر » و « ص » « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » وهو خطاب موجه من الخالق الأعظم للملائكة ، مخلوقاته التى لا تعصى له أمراً ، فلا تعرف الذنب ، ولا تقارف الخطيئة .

هذه قمة التطور ، التى لا تقف عند حد التسامى المادى العضوى ، بل تخرج من نطاق المادة تماماً ، إلى نطاق تقف الحيوانية والمادية دونه بمراحل كثيرة ، وهذا هو الجانب الذى تعلو فيه نظرية التطور فى القرآن ، عن أية نظرية أخرى ، علمية أو فلسفية .

فالقرآن لا يغفل عن حقائق الإنسان الواقعية المادية الأرضية ، عن صلاته بالماء والهواء ، بالأسماك والطيور ، بالأرض ، بالتراب ، ويدعوه إلى التسليم بانبعاثه منها ، وخروجه من امتزاج واتحاد عناصرها ، ثم يدخل على ذلك كله : ذلك العنصر المجهول ، الذى لم يستطع العلم أن يطرق بابه ، ولا أن يجوس خلاله : عالم الروح ، التى هى – بإجماع علماء المادة – من أمر ربى .

ولكن نظرية القرآن – كما سبق أن قلنا – لا تقف عند حد الجانب المادى ، من الكون ، ولا عند الإنسان ، بوصفه وحدة من وحدات هذا الكون ، بل إنها تشمل جانب المجتمع الذى تدخل دراسته فى نطاق العلوم التى تسمى الآن بالعلوم الإنسانية ، التى منها علم الاجتماع والتاريخ .

ولقد أورد القرآن فى هذا المجال ، المبدأين الكليين اللذين سلفت إليهما الإشارة ، أولهما مبدأ الصراع بين الناس .

وثانيهما مبدأ غلبة الأعظم نفعاً أو الأقوى بالمفهوم الاجتماعى لا بالمفهوم الحيوانى .

فالمبدأ الأول قررته الآية الكريمة : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ! .

والمبدأ الثانى قررته الآية الكريمة : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ! .

ولكن إلى جانب هذين المبدأين الكليين ترى العديد من الحقائق الاجتماعية التى يهئ علم الاجتماع الحديث نفسه ، إذ اهتدى إليها وقررها .

من ذلك مبدأ تدهور المجتمعات ، وانحسار قوتها ، بغلبة الترف على أهلها . ومبدأ بدء ضعف المجتمعات ، عند وصولها إلى قمة قوتها ، لما يطرأ على السادة فيها من الاستئثار بالسلطة ، وتجميع الثروة ، والاستبداد بالضعفاء ، وحرمانهم من حقوقهم الأساسية .

فمن ذلك قول الله تعالى فى سورة الإسراء : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ومعنى الآية ، أنه إذا بلغت قرية أىْ مجتمع إنسانى ، الغاية من الفساد ، أمر الله سادتها ، الذين ينعمون بالسلطة

وبالثروة ، ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، بالعودة إلى الحق ، فلم يلتفتوا إلى مبادئ الصلاح المؤدية إلى القوة ، وآثروا جانب الفسق والطغيان ، فحق عليهم أن ينفذ فيهم قانون الحياة ، القانون الذى يقضى بأن عاقبة الفساد هى الهلاك . ويتكرر حديث القرآن عن الترف والمترفين ، مقروناً بسوء العاقبة ، وزوال السلطة ، والنعمة معاً .

أما بدء التردى فى الضعف ، عن بلوغ الإنسان إلى غاية القوة المادية واكتفائه بهذه القوى المادية ، دون المقومات المعنوية ، فتراه فى الآية الكريمة : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

وإذا أردت أن تعرف سر فساد الأمم ، وهلاك سلطانها ، فإن جزءاً من آية من القرآن الكريم تبرزه لك فى أربع كلمات ، « وبئر معطلة وقصر مشيد » فالمجتمع الذى تشاد فيه القصور ، وتهمل فيه المرافق التى لا غنى عنها للناس ، هو المجتمع الذى يصح فيه قول الله تبارك وتعالى : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » .

ولقد شهد القرن العشرون ، مولد فلسفة التاريخ ، على يد اشبنجلر ، مؤلف كتاب « انحلال الغرب » وقبله وضع « جيبون » مؤلف كتاب « سقوط الإمبراطورية الرومانية » مبادئ عامة أو بذورا لهذه الفلسفة ، وسبقهما إلى ذلك الفيلسوف الإسلامى المغربى ابن خلدون ، ولكن هذه المبادئ جميعاً ، ترى ما هو أصح منها ، وأشمل ، وأعمق ، ما انتثر فى

آيات القرآن الكريم ، من أحكام ، لم تكن الغاية منها بطبيعة الحال ؛ وضع منهج لدراسة التاريخ ، أو لتقرير مبادئ لاستنباط معانيه الكلية ، بالمعنى المدرسي ، ولكن ما انطوت عليه من الحقيقة ، وما استظهرته من أصول الحياة الإنسانية ، هاد تماماً إلى هدف التطور الإنسانى ، وغايته ، ومساره .

وجملة القول إن القرآن لم يدع وسيلة لقرع الأذهان ، وتنبيه النفوس ، إلى تطور الكون الدائم ، وتطور الإنسان معه ، ليكون الإنسان أقدر على الحياة ، وعلى استخلاص أسباب القوة ، والنجاة من دواعى الضعف والتحلل ، فالقرآن يؤمن بأن الحياة حق الأقوياء ، ولكن القوة عند القرآن ليست مادية بحتة ، وإن لم تخل قط ، من عناصر مادية . فالمسلم لا يملك أن يحطم بدنه ، ولا أن يهمل حاجياته ، ولا أن يقنع بالدون ، بين الأحياء ، ولا أن يزهد فى متع الحياة ، وأطايب لذائذها ، وإن كان مأموراً بأن ينأى عن الترف ، لأنه استئثار بأكثر مما يحتاج إليه بدنه وحياته الرفيعة من الملبس والمأكل والمسكن ، ولأن هذا الترف ، هو بداية انحلال المجتمعات ، فتقبل الظلم ، وتتعاطاه ، وتسلب الضعفاء حقوقهم ، حرصاً على متع الحياة الدنيا ، التى هى متاع الغرور .

فتنبيه القرآن ذهن المسلم إلى قانون التطور ، وتحذيره من الغفلة عن تبين آثاره غايته ، أن يتقدم الإنسان ، وألا يجمد ، لأن تطور الكون الدائم ، هو سير إلى ما هو أعلى وأسمى بدلالة قول الله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

فسير التطور كما قلنا ، ليس سيراً أعمى ، بل هو مستنير ، ولكن ما أيسر أن ينحرف الإنسان ، وإن كان قابلا دائماً للتطور نحو الأفضل والأقوى والأعظم . ولكن لا يتيسر له الوصول إلى ما هو أسمى إلا بالاهتداء إلى منهج القرآن فى الحياة ، وهو منهج يستدعى اللجوء إلى القوة النفسية والروحية التى تلتزم ضبط النفس ، وصبراً على التقشف ، وسهراً فى وجه عوادى التحلل والهلاك . فعقيدة التطور هى عقيدة الأحياء الأقوياء الظافرين .

فسير التاريخ ، وتطور الإنسان فى القرآن يختلف تماماً عن سيره مثلا عند شبنجلر ، الذى يقول ، كما جاء فى كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى ، لا تنخدع بهذه الآمال المعسولة ، آمال السلام الدائم والطمأنينة الهادئة ، فإن الحياة كفاح ، ولا تعرف غير الكفاح ، والانسان حيوان مفترس ، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك ، وما هؤلاء الدعاة إلا منافقون خبيثون فقدوا أنيابهم ، ونزعت منهم أظفارهم ، فحقدوا على من لها مالكون » .

فالحياة عند الإسلام ، كفاح كما يقول شبنجلر وكفاح دائم : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » والمسلمون أشداء على الكفار ، « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار » ، ولكن هؤلاء الأشداء ، ليسوا فقط « رحماء بينهم » ، بل « تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً » .

فالإنسان حيوان مفترس حقاً ، يأكل لحم أخيه ميتاً وحياً ، وهو « قتور » و « كفور » وأنه « ليطغى أن رآه استغنى » « وإنه لحب الخير

لشديد » « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » هذه كلها حقائق يقررها القرآن ويعلنها ، ويؤكدها ويبدأ القول فيها ويعيد ، ولكن ما إن ينقلب الإنسان إلى مسلم ومؤمن ، حتى تراه قد استحال إلى مخلوق جديد ، يكره العنف ، إلا مضطراً ، ويستعمل السلاح حتى تسود كلمة الحق ، فإن أسلم المعاندون فإخوان المسلمين وشركاؤهم فى الخير والشر ، يقتسمون معهم لقمة العيش ، وشربة الماء ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ويحذر شبنجلر الناس من وهم أن الحضارات حلقات متصلة ، فى سلسلة محكمة الأواصر هذه تفضى إلى تلك ، درجات فى سلم الرقى ، والإنسان بفضل هذه السلسلة الوثيقة الحلقات ، ينتقل حتماً من خير إلى خير أعظم منه ، ومن سلام إلى سلام أكبر استتباباً ، وأعظم انتشاراً . فى تاريخ الإنسانية نكسات وردات عودة إلى الجاهلية والشرك ، ولقد حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المسلمين ، بأن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ ، وأنه سيأتى عهد يكون فيه القابض على دينه ، كالقابض على الجمر ، كما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل : يا رسول الله أمن قلة منا نحن يومئذ ؟ قال ، لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » .

فالمسلمون أنفسهم ، سيدال عليهم ، سيضعف شأنهم ، ويزول سلطانهم ، وتغلبهم أمم غيرهم ، لأنهم سيصبحون كغثاء السيل ، يتطاير فى الهواء لأدنى هبة ، وقد قال الله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاءً » ،

فتطور الإنسان فى القريب ، ليس تطوراً مضموناً ، فى كل زمان ، وعند كل قوم ، بل لا بد لاستهدافه الغاية التى رسمها الله للإنسان ، بأنه لم يخلق السموات والأرض إلا بالحق ، وأنه تعالى لم يخلقهما باطلا ، إلا أن يكون المسلم حريصاً على الحق ، ملتزماً إياه والحق معناه الصدق والشجاعة ، والصراحة وإنكار الذات ، وفى جملة ملتزم ما قاله الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم.ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون » .

وبعد . فليس التطور ، انفلاتاً من سنن الله ، التى لن تجد لها تحويلا ولا تبديلا ، فالتطور هو فى إطار من ثبات القواعد الكبرى التى أقام الله تعالى أكوانه على أساسها ، فالتطور نفسه ، وإن كان تغيراً وحركة ، إلا أنه سنة ثابتة ، وسير الأحداث المتدافعة ، وإن بدا محموماً وعنيفاً ، كالسيل العرم ، إلا أنه محكوم ، لا يجرى اعتباطاً ، ولا يكتسح فى وجهه قوانين الجاذبية والحرارة وغيرهما من قوانين هذا الكون ، المضطردة ، ولا قوانين الله التى تحكم مخلوقه الأسمى : الإنسان . ونعنى بها التقوى والعمل الصالح ، ودفع الأذى ، والتعاون من أجل الخير ، أى العمل من أجل إنسان أرقى وأعظم ، وأكبر حظاً من العلم ومن السعادة .

لم يتحدث القرآن الكريم ، عن شيء ، بعد التوحيد ، كما تحدث عن تطور الكائنات والأكوان . وتطور الإنسان والحيوان ، وتطور الجمادات والجماعات أبدأ فى هذا وأعاد ، وضرب الأمثال ، وساق المواعظ ، وبين الأدلة والشواهد . حتى حق القول بأن الإسلام هو دين التطور .

وهو كذلك لأنه خاتمة الأديان وخلاصتها ، جاء مصدقاً لما سبقه منها

ومهيمناً على كل ما دعت إليه ، من أصول العقائد ، وهو كذلك لأنه رسالة من عند الله ، وبيان من رب العالمين إلى عباده أجمعين .

ولما كان خلق الله ، سائرين نحو الكمال ، إذ قضت بذلك مشيئته ، فلابد أن يكون قانون هذا الكون الذى نعرفه ، أو الذى يجب علينا أن نعرفه ، هو التطور . لأن الجمود هو ضد التطور ، والتطور هو سبيل وسنة الحياة التى أبدعها الله تعالى ، فلابد أن تقرع فى كتب الله قلوب الناس وأسماعهم ، الدعوة الملحة المضطردة المستمرة إلى تأمل مظاهر هذا التطور ، ودلائله : وشواهده ، وسيره الدائب ، وحركته الموصولة ، فى كل ما يضمه هذا الكون البديع من أدنأ المخلوقات إلى أكبرها ، من الجامد فيها إلى الحى ، ومن البسيط إلى المركب ، ومن الظاهر للأعين إلى الخفى الذى يتضح العلماء ورثة الأنبياء وحدهم بالوسائط من مجاهر وأدوات للكشف ، تتطور هى بدورها وتدق ، وتنفذ إلى أعمق أعماق البحر : وأبعد أجرام السماء ، وأخفى خفايا الإنسان ، فى بدنه : خليته الأولى ، وفى نفسه : عقله وأعصابه .

[ختام]

ولقد كان الأبناء – على ما سبق القول – من البشر – لفرط حرصهم على الجمود ، واستنامتهم إليه ، ورضائهم به ، عن كسل من جهة ، وعن خوف من الجديد من جهة ثانية ، وعن جهل من جهة ثالثة . فأعداء الإنسان الكبار ، لا يتجلون ولا يظهرون على مدى تاريخه ، إلا كما

يظهرون فى محاربتهم للتطور ، وكفرهم به ، وعجزهم عن تبين آيات الله الكبرى ، التى تتجلى فيه ، وتتبدى عن سبيله .

ومن ثم ، فقد لعن القرآن الكريم خصوم التطور ، وأعداءه ، فى مواضع كثيرة منه ، مرت الإشارة إليها ، ولكن لا تزال بقية منها كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » [البقرة] .

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله : وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا : أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ! [المائدة] . ولم يغير شيء فى حياة الناس ، ويدعوهم إلى التطور ، وطورهم بالفعل ، مثل الدين ، ولما كان الدين الإسلامى هو خاتمة هذه الأديان ، وخلاصتها ، وآخر ما ارتضاه الله تعالى لعباده ، بعد أن شبوا عن الطوق ، وعرفوا سبيل البحث عن أسرار الله فى كائناته ومخلوقاته وفى أنفسهم وفى الآفاق ، فقد كان دين التطور حقاً . وبكل معانى هذه الكلمة .

دعا إليه وعلم الناس إياه ، ووضع أيديهم على صوره ، وكشف لهم آثاره ، وحثهم على كشف قوانينه ، وحذرهم من تجاهله ، والوقوف فى وجهه ، ثم ضرب للبشرية جمعاء مثلا فى تطوير الإنسان ، فى أقل القليل من الزمن . فى ثلاث وعشرين سنة ، قلنا إنها لا تزيد عن عمر شاب واحد فى مطلع حياته ، أن ينقل أمة من حضيض الجهل فعلا إلى أعلى عليين من المعرفة ، وحب تحصيلها ، والإيمان بها ، وتقديم سدنتها ، والعاملين فى حقوقها ودروبها ، على كل من سواهم من بنى آدم . فقال الله تعالى فى حقهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وقال : « شهد الله أنه

لا إله إلا هو والملائكة ، وأولو العلم » فساوى بين شهادته تعالى ، وشهادة الملائكة ، وشهادة العلماء ونظم هذه الشهادات جميعاً فى سلك واحد .

وارتفع بها من الدرك الأسفل من التخلف الاجتماعى الذى كانت أكبر مظاهره فرقة ، لا أمل فى نفى بواعثها ، ولا رجاء فى إنقاذ المترددين فى حمأتها مع عصبية متأججة ، وحمية متوهجة .

أما الفقر ، وجدب الأرض ، وانقطاع الموارد ، فحدث عنه ، كما حدث عنه التاريخ فأطال الحديث .

وقد فعل هذا الدين فى هذه الأمة المتفرقة الفقيرة المتنافرة الأمية ، ما لم تفعله حركة أخرى ، فى الشرق ولا الغرب ، فى القديم ولا الحديث ، فقد سادت الدنيا المعروفة فى أيامه ، لا بقوة السلطة ، وسيادة الحاكم فقط ، بل بالجامعات والمعاهد ، ودور البحث ، وندوات المناظرة والمكتبات والوراقين ، ونسخ المؤلفات وترجمتها وتصحيحها والتعليق عليها والإضافة إليها .

وكان كل شىء يتم فى هذا الدين بسرعة خاطفة : الجيوش تنطلق ، وكأن البوادى قد طويت تحتها ، والمسافات قد زالت أمامها ، فالانتقال مثلا من المدينة ، عاصمة المسلمين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البحرين ، كان يستنفد من الوقت ، فى ذلك العهد المنير ، أكثر مما يحتاج الإنسان إليه ، لينتقل من المدينة إلى نيويورك فى العصر الحديث ، قبل الاهتداء إلى الطائرة والانتفاع بها . .

من أين جاءت كل هذه الدفعة ، وكيف تحققت ؟ ! لقد جاءت من الإيمان بوجوب التغيير : وبإمكان تحقيقه فى آن .

والحق أن الله تعالى ، كره للمسلمين ، أن تصيبهم آفة الجمود ، لأن الجمود ، قرين الموت والهلاك .

ولقد حدثنا التاريخ ، عن الأمم التي جمدت وتحجرت ، واستظهر المؤرخ الإنجليزى الكبير ، هذه الظاهرة ، المهلكة ، فى كتابه العظيم : ملخص تاريخ العالم ، فضرب للأمم المتحجرة [اليهود] مثلا ، وقد رد محنة اليهود ، وانعزالهم فى المجتمع الرومانى ، ثم فى المجتمع الأوربى كله بعد ذلك إلى قوله : ينحدر اليهود الإشكنازيون [الغربيون] من اليهود الذين اغتنموا فرصة فتح الرومانيين أبواب أوربا فحققوا أرباحاً من ممارسة تجارة التجزئة فى مقاطعات ما وراء الألب شبه الهمجية وتضاعفت محنة هؤلاء باعتناق الإمبراطورية الرومانية المسيحية ، ثم انهيارها ، إذ أصبحوا يعانون من تعصب الكنيسة المسيحية ومن ازدراء البرابرة ، إذ لا يستطيع الهمجى أن يحتمل مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الهمجى يفتقر إلى المهارة اللازمة لممارسته بنفسه ، فاندفع المسيحيون الغربيون مسيرين بهذه المشاعر إلى اضطهاد اليهودى ، طالما لا غنى لهم عنه ، ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

« وفى داخل المسيحية الغربية الآخذة فى الانتشار طفق اليهود يطردون من بلد بعد آخر ، كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معيناً من الكفاية والاقتصاد ، ثم انتقل إلى الحديث عن اليهود فى أسبانيا والبرتغال فى الحكم الإسلامى ، وهى عبارة تصلح أن تكون شاهداً على معنيين سأدير عليهما الكلام حالا ، فى شأن عقيدة التطور أو مذهبه .

قال توينبي :

« يفسر ضعف حدة الروح اليهودية » الذى نلاحظه بين مهاجرى طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة فى دار السلام ، فى فارس وفى المقاطعات الرومانية التى استولى عليها العرب فى نهاية الأمر ، وجد أصحاب التشتت اليهودى أنفسهم فى مركز أسعد نسبيًّا ، بل إنه من المؤكد أن وضعهم فى عهد الخلافة العباسية لم يكن أقل ملاءمة لهم من وضع اليهود فى الوقت الحاضر فى تلك البلاد الغربية [إنجلترا ، فرنسا] التى تحرر فيها اليهود فى وقتنا هذا . إن المصيبة التاريخية التى حلت بالسفارديم [يهود المشرق] بانتقال شبه جزيرة أيبيماز [أسبانيا والبرتغال] ، تدريجيا من المسلمين إلى المسيحيين الغربيين ، وهو الانتقال الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : الإبادة ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية » ولسنا فى صدد الحديث عن اليهود ، ودورهم فى تاريخ العالم ، ولا مقارنة بين تسامح الإسلام معهم ، وإبادة المسيحية لهم ، وإنما نريد أن نستخلص من هاتين الفقرتين ، كيف أن محنة اليهود أصلا ، هى محنة الجمود ، والانغلاق ، وكره التطور ، فقد أبى اليهود إلا أن يقفوا فى وجه تيار التطور ، ، فلا هم استطاعوا أن يمسكوا بزمام القوى الدافعة فى سير الأمم ، كما فعل المسلمون ، حينما بلغوا الغاية من الإيمان والتطور والاقتناع بأحكامه ، والانتفاع بسنته ، ولا هم فعلوا فعل المسلمين ، حينما أدال عليهم الزمان ، وسلبهم أسباب قوتهم وهبط بهم إلى أمم من الدرجة الثانية فالثالثة فلم يتحولوا قط

إلى مجتمعات منعزلة ، وإن كاد هذا الاتجاه المدمر ، يبدو فى بعض جماعاتهم ولفترات من تاريخهم ، ولكن الجرعة التى تناولها المسلمون الأوائل من حب الحياة الرفيعة ، وفهم مقتضياتها والنزول على هذه المقتضيات ، أعانهم على مواجهة ضغط تيارات الزحف الاستعمارى على بلادهم وثقافتهم ، وهم فى أشد حالات الضعف . فإن جهاد المسلمين وكفاحهم ضد الغزو الغربى ، ولا سيما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يكاد لا يصدق ، إذ لم تنقض فترة من الزمن إلا وكان للمسلمين هبات رائعة فى وجه الغزاة ، الذين كانوا فى أكثر الأحوال نسخاً متكررة من التتار . فما فعلته فرنسا فى شمال أفريقيا ، وما فعلتة هولندا فى إندونيسيا ، وما فعلته بريطانيا فى الهند ، ومصر والسودان ، هى عمليات شبيهة بما فعله الفرنجة والجرمان فى الإمبراطورية الرومانية وولاياتها .

ولكن كفاح عبد القادر الجزائرى فى الجزائر ، وعبد الكريم فى الريف ، وما فعلته ثورات المسلمين فى الهند ، يدل دلالة واضحة على أن المسلمين أمة حية ، حتى حينما تبدو عليها أمارات الموت .

ولأن الله كره للمسلمين أن يجمدوا فقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه من بعده ، ثم الأئمة من بعدهم ، الوسائل والسبل ، التى تبقى الدين حيًّا ، غضًّا ، قادراً على مواجهة ما تأتى به الأيام من صور جديدة للحياة ، والعلاقات الإنسانية والنشاط البشرى فى صوره المختلفة .

ولما كانت شريعة المسلمين هى شريعة شاملة ، تحكم علاقات الإنسان بربه ، وعلاقات الإنسان بأهله ، وعلاقات الإنسان بغيره ، وعلاقات الإنسان بالحاكم ، وعلاقات الإنسان بالبيئة ، فقد كان الإبقاء على

مرونتها واتساع مداها . الضمان الأكبر لبقاء المسلم ، خلية حية فعالة مؤثرة مستجيبة لتحديات الزمان ، موجهة لها .

لقد كان السبيل إلى استمرار الحياة للشريعة الإسلامية ، وبالتالى للمجتمع الإسلامى ، هو ما تواصى على تسميته المسلمون [بالاجتهاد] . وهو لفظ صغير فى معناه كبير جداً فى مدلوله ، ونطاقه ، ومعانيه ، ووسائله . الاجتهاد فى كلمة هى سلاح المسلم فى وجه الجمود الذى قد يهدده ، والكسل العقلى والروحى الذى قد يدمره .

وقد بين الشهرستانى دواعى هذا الاجتهاد فقال فى كتابه « الملل والنحل » :

« إن الحوادث والوقائع ، مما لا تقبل الحصر والعدد ، ويعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد .

ولا خلاف بين علماء المسلمين ، ومؤرخى فقه الشريعة الإسلامية ، وتاريخها ، أن خلفاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد اجتهدوا ، ولكن جميع هؤلاء — ومعهم من أنكر أن لرسول الله اجتهاداً قد أقروا بأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أجاز الاجتهاد فقد روى عنه أنه سأل معاذ بن جبل وهو يوفده إلى قضاء اليمن : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فقال معاذ : أقضى بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله ، فإن لم أجد أجتهد رأيى » ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهذه الإجابة ، أن وجد من

صحابته ، أن يهتدى إلى هذا النهج المتدرج السليم ، الذى ينتهى بإعمال الرأى .

ولكن فى علماء المسلمين من يذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد ، وأن ذلك كان شأن جميع الأنبياء عليهم السلام ، قبله .
فقد أورد الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى فى كتابه القيم « اجتهاد الرسول » عن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل »

« قد يقع من الأنبياء قصد الشىء ، يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شىء من هذا أصلا ، بل نبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده ، وربما عاتبهم على ذلك بالكلام ، كما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فى أمر زينب ، وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام » .

أما فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل نفسه فيقول فى الكتاب ذاته :

« ذكرنا من الأمثلة والشواهد ما يدل على وقوع الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ، متنوعاً حسب طبيعة الإنسان ، فرأيناه اجتهد وعبر عن اجتهاده بالقول مرة ، والعمل والفعل أخرى ، وإقرار رأى بعض صحابته ، أو عدم إقراره ثالثة .

والاجتهاد منه إذن مؤكد الوقوع ، سواء أكان عن طريق القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

أما اجتهاد صحابة رسول الله الكبار ، الذين ولوا أمر المسلمين بعده ، أى خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فأمر ثابت ،

ولا خلاف عليه ، واجتهاد عمر رضى الله عنه ، فى حق المؤلفة قلوبهم ، وقطع يد السارق ، وإيقاع الطلاق ثلاثاً ، طلاقاً بائناً ، بعد أن كان يعد طلاقاً رجعياً ، أى تحل للمطلق معاشرة زوجته بعده واجتهاد على فى حد القذف ، وقياسه على حد الشرب وهكذا » .

ولكن حينما مضت الأيام وتشابكت مصالح المسلمين ، باتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وظهور مصالح جديدة ، فقد تواضع فقهاء المسلمين على طرق عديدة لاستنباط الأحكام الجديدة ، وإنزالها على ما يجد من الأمور ، مستندين فى ذلك إلى أصول الأحكام الثابتة فى الشريعة الإسلامية ، ألا وهو القرآن والسنة النبوية ، ثم ما أجمع عليه بعد الرسول عليه السلام صحابته السابقون إلى الإيمان والجهاد والصحبة .

هذه الطرق هى بعد الإجماع ، القياس ، وهو فى اصطلاح الأصوليين تسوية واقعة لم يرد نص بحكمها فى الحكم الذى ورد به النص لتساوى الواقعتين فى علة هذا الحكم ، كحرمان القاتل من إرث من قتله ، فقد قاسوا الموصى له ، على الوارث فحرموه من إرث الموصى .

والقياس طريق من طرق الاجتهاد ولا خلاف عليه ، ولكن ما لبث الفقهاء والأصوليون ، أن أضافوا إليه طرقاً جديدة كالاستحسان والاستصحاب والعرف ، وشرع من قبلنا ، وكلها طرق تنتهى إلى غاية واحدة ، هى بعث الحياة فى الشريعة ، بوصلها بما يجرى فى حياة الناس ، ويحملها على مواجهة المصالح الجديدة ، بعد إنعام النظر ، وإمعان الفكر ، للاهتداء إلى الحكم الصالح ، المتفق ، مع ما وصلت إليه أمور الناس ، وقد استطاع المسلمون الأوائل بعد الفتوحات الكبرى ،

واتصالهم بمجتمعات لم يسمعوا عنها ، ولم يعرفوا شيئاً عن أسلوب حياتها ، وقواعد أحكامها ، ومناهج حكوماتها ، أن يبسطوا دينهم عليها بالدعوة والرفق والموعظة الحسنة ، والقدوة الكريمة ، دون أن يجدوا فى أحكام دينهم ، ولا فيما جاء فى قرآنهم ، ولا فى سنة نبيهم ، ما يحول دون هذا التعامل الميسر ، مع أعوان يختلفون عن العرب والمسلمين — كما قلنا ، فى أكثر الأمور . وبذلك ضمن المسلمون لأنفسهم مزايا التطور ، واستمروا ينافسون سواهم لا فى السيادة وحدها ، بل فى تحصيل العلوم والفنون وإتقانها والإضافة إليها ، وتنويعها والارتقاء بها ، وعقد المناظرات والمحاضرات وإقامة الندوات بين علماء ينتسبون إلى لغات غير العربية وإلى أديان غير الإسلام ، وإلى مناطق قاصية بعيدة لم يصل إليها العربى ، لا زائراً ولا سائحاً ، ولا غازياً أو فاتحاً .

وقد قال الدكتور عبد الرزاق السنهورى الفقيه المصرى المعاصر ، فى الرد على الذين توهموا أن ما كان من تطور وسائل وطرق استنباط الأحكام ، كان لعهد محدود ، هو عهد ازدهار الحضارة الإسلامية ، وأن ذلك العهد زال وانقضى ، ولم تعد الشريعة ، ولا فقهاؤها ولا كتبها ، ووراثاتها القديمة قابلة للتطور ، ولا قادرة على مصاحبة ماجد للإنسان الحديث من صور لا تنتهى فى كل درب وفرع من فروع الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية قال :

« وقد توهم بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم أن هذه المصادر ليس فيها من المرونة والخصوبة ، ما يكفل حركة تشريعية متجددة ، وقوانين وأحكاماً تتطور مع أحوال الناس ، وتساير الأزمان المتعاقبة ،

وتلائم البيئات المختلفة ، والذى أوهمهم هذا الوهم أنهم رأوا أن النصوص التشريعية فى القرآن والسنة معدودة ، والوقائع التى شرعت أحكامها وقائع محدودة ، وقدروا أن الشارع الإسلامى لابد أن يكون قد راعى فى تشريع ما شرعه من الأحكام لتلك الوقائع حال الأمة ومقتضيات البيئة وما يصلح لبيئة ربما لا يصلح لأخرى ، ورأوا أن الأدلة الأخرى لا يصدر عنها التشريع فيما لا نص فيه أدلة غير ممهدة للاهتداء بها وعلماء المسلمين أحاطوها بأمور من القيود والشروط والالتزامات ضيقت نطاقها وسدت أبوابها وجعلتها غير عملية .

وقد نقل هذا الكلام الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف فى رسالته القيمة « مصادر التشريع الإسلامى فيما لا نص فيه » فاسترسل يقول :

وأنا ألتمس بعض العذر لهؤلاء المتوهمين فيما توهموه لأن نواحى الخصوبة والمرونة فى النصوص التشريعية فى القرآن والسنة نواح دقيقة لا يحيط بها إلا من استقرأ تلك النصوص وراض عقله على الاستدلال بها ، وأنعم النظر فى جملتها وتفصيلها ، ولأن نواحى الخصوبة والمرونة فى سائر الأدلة الشرعية قد غطاها علماء المسلمين ببحوث لفظية واختلافات جدلية وشروط وقيود ذهبت بمرونتها ، وحالت دون الاهتداء بها ، واشتد تحجر هذه المصادر وزاد تراكم الأتربة عليها بسد باب الاجتهاد وإيجاب تقليد مجتهد من الأئمة الأربعة لأن هذا عطل استعمال مصادر التشريع فى الاستنباط وجمدها وعين الماء إذا لم يردها الواردون يغيض ماؤها والأسلحة إذا لم تستعمل يعلوها الصدأ » .

وفى هذا كله ، دليل حى ، على أن التطور الذى هو سنة الحياة ،

والذى هو مذهب الإسلام ، ومنهجه ، فى الدعوة والأحكام وسياسة أمور الدين والدنيا ، هو فى الوقت نفسه ، ولهذا السبب ذاته ، سر قوة الأقوياء ، وسر ضعف الضعفاء وقلة حيلهم . ولقد عرف الغزاة الذين أخذوا على المسلمين دنياهم من أقطارها ، وسدوا عليهم المنافذ من جهاتها ، بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد ، ليصرفوا المسلمين عن كتابهم والتأمل فيه والاهتداء إلى حقائقه الكبرى ، ولما كان هذا الكتاب داعيهم الساهر وحاديهم الساحر أن يتطوروا مع الزمن ويسبقوه إلى غايته ، فقد خمدت عقولهم ، فخمدت إرادتهم ، وأصبح الاجتهاد شاقًّا عليهم ، فلما ألفوا نبذ هذا الاجتهاد وسد منافذه ، راحوا يلتمسون الأعذار الواهية ، الموجبة لتركه فقالوا ضمن ما قالوا — إن حكام المسلمين أناس خلت قلوبهم من خشية الله وامتلأت نفوسهم بحب الدنيا ، وقد اصطنعوا فقهاء ليسوا من الدين ولا من التقوى ولا من العلم فى شيء ، وهؤلاء أصبحوا يقبلون من الحاكم ما يأمر به ، ولو خالف الشرع ، وما يرتضيه ، ولو أهدر المصلحة ، وقد ينصحون المسلمين بما لا يرضى عنه الله ، ولا الرسول ، ويصبح من الزمن فقهاً مأخوذاً به ، مرضياً عنه ، فيقوم إلى جانب الدين الصحيح ، دين فاسد ، وقد يختلط الأمر على الناس ، لشدة بعدهم عن الدين ، وعجزهم عن فهم لغته فيأخذون الدين الفاسد ، ويعضون عليه بالنواجذ .

وهذه حجة لا تقبل ، إذ لم يكبر شأن هذا الطراز الفاسد والمفسد من مجتهدى الحكام وفقهاء السلطة ، إلا لأن الفقهاء القادرين على الاجتهاد ، المالكين لعدته ، قد أمسكوا عن هداية الضالين ، ونصح السادرين ، ورد الشاردين ، ولو واجهوا العلم الزائف بالعلم الصحيح للقف حيات

وثعابين المضلين ولدبت الحياة فى شريعة المسلمين الغراء ، ولو وجد المسلمون فى ضوئها طرقاً لمنازلة أعدائهم ، فى حلبات السياسة والحرب ، والاقتصاد والاجتماع ، فالقوة لا تأتى للأجساد ، إلا عن طريق عقل يعى . وقلب يدرك ، ونفس تتأمل فيما حولها .

لقد ضرب القرآن الكريم المثل الأكبر للمسلمين ليدركوا معه ، أنهم خلقوا ليغيروا أنفسهم ، فيما قص عليهم قصة آدم إذ فضله الله سبحانه وتعالى على الملائكة ، فقد آثره وخصه بالخلافة مع أنه يخطئ ويفسد ويسفك الدماء ، لأنه يعلم ، ولأنه بفضل علمه يجتهد ، ولأنه بفضل اجتهاده يتطور ، أما الملائكة فبفضل كمالهم لا يحسون حاجة للاجتهاد ، ولا باعثاً على الاستنباط .

ولقد قال البيضاوى فى تفسيره إن إبليس كان أول من استعمل القياس ولجأ إلى الاستنباط حينما أمره الله بالسجود لآدم فأبى ، فلما سأله ربه ما منعك ألا تسجد لآدم « قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين » ولكن ليس هذا طعناً فى القياس ، ولا الاستنباط ، وإنما هو دليل على أن القياس لا يصح إلا إذا كمل علم من يلجأ إلى القياس ، ومن خلت نفسه من المصلحة أو الشهوة . فإبليس أبى عن استكبار ، لا عن اقتناع أدت إليه البديهة السليمة ، ولا الفطرة الصحيحة . ثم يبقى أن القرآن الكريم ، هو وحده الذى أورد هذا الجدل ، ليكون دليلا على أن القرآن هو دين الاجتهاد ، من أوسع أبوابه وكل وسائله .

ولم تتجرد فكرة الألوهية ، عند المسلمين من كل تجسيد ، ومادة ، لترفع من أمام العقل الإنسانى ، القيود التى تحد من حريته وانطلاقه ،

فتجسيد الفكرة فى شخص أو شيء ، يحدد من نطاقها ، ويحرمها من ترامى آفاقها . .

على المسلمين الذين علمهم دينهم كل هذا ، أن يعودوا إلى مناهجه ، فيسابقوا فى دنيا ، جعلها الله لهم فسيحة ، صدق الله تعالى إذ قال لمن يستكينون للظلم والخسف وسوء الحال :

« ألم تكن أرض الله واسعة » ؟ ؟

* * *

القصص فى القرآن

هل فى القرآن قصص ، أم أن كتاب الله الكريم ، قد انطوى على قصة واحدة ، هى قصة يوسف عليه السلام . التى جاءت كاملة ، فى سورة يوسف ، وهى السورة التى تفردت بالآية الكريمة التى قال فيها الله تعالى : نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

فإذا قلنا ، إن القرآن الكريم لم يورد إلا هذه القصة ، من قصص الأنبياء والرسل ، وقصص الأولياء والصالحين ، كقصة أهل الكهف ، وقصة موسى والخضر ، فيكون إذن ، ما ورد من هذا القبيل كذكر آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، لا يعدو أن يكون نبأ أو أنباء أو حديثاً عنهم ، فقد قال الله تعالى : فى سورة إبراهيم: « ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود » وقال فى سورة الشعراء : واتل عليهم نبأ إبراهيم ، وقال فى سورة هود « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل » كما قال تبارك وتعالى : « وهل أتاك حديث موسى » فى سورة طه وفى سورة الذاريات « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » وفى سورة النازعات : « هل أتاك حديث موسى.إذ نادى ربه » .

وفى القرآن الكريم : آيات تتحدث عن أخبار الماضى بأنها أنباء الغيب أو أنباء ما سبق كقول الله عز وعلا فى سورة آل عمران : « ذلك من

أنباء الغيب نوحيه إليك » .

هذه هى القضية التى نحن بسبيل طرحها ، توطئة للوصول إلى رد على السؤال الذى نقدمها به .

وقبل أن نطرح القضية ، وننتهى فيها إلى رأى ، نقدم بين يدى البحث ، مقدمات تصل به ، ولا يمكن الوصول فيه إلى نتيجة يحسن السكوت عليها إلا بعد الإلمام بها .

ورد لفظ القصص ، وما يشتق منه - على ما جاء بمعجم ألفاظ القرآن الذى وضعه المجمع اللغوى فى القاهرة ، مرة واحدة بلفظ [قص] فى سورة القصص ، وبلفظ قصصنا فى سورة الدخل ، وبلفظ قصصناهم فى سورة النساء ، و [نقصص] فى سورة يوسف ، و [نقص] فى سورة الأعراف وهود ويوسف والكهف وطه . وبلفظ [نقصص] فى غافر ونقصصهم فى النساء و [فلنقصن] فى الأعراف [ونقصه] فى هود ، ويقص فى الأنعام والنمل وبلفظ [يقصون] فى الأنعام والأعراف وبلفظ « فاقصص » فى الأعراف .

أما معنى [القص] ، والقصص فيقول فيه المعجم :

والقصص ما يتتبع ويروى من أخبار وقصص ، والقصص : مصدر « قص » بمعنى تتبع الأثر ، وقصصنا التى وردت فى سورة الكهف : « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » أى رجعا متتبعين آثارهما فى الطريق الذى أتيا منه . [وقصصهم] « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » التى وردت فى سورة يوسف أى فى رواية أخبارهم .

وقال القرطبى فى تفسير الآية الثانية من سورة يوسف : أحسن القصص

بمعنى المصدر والتقدير قصصنا أحسن القصص ، وأصل القصص تتبع الشيء ومنه قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه » ، أى تتبعى أثره ، فالقاص يتتبع الآثار فيخبر بها ، والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة ، يقال فلان : حسن الاقتصاص للحديث أى جيد السياقة له ، وقيل القصص ليس مصدراً بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال الله رجاؤنا ، أى مرجونا ، فالمعنى على هذا نحن نخبرك بأحسن الأخبار .

ثم قال : « واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة وبيانه قوله فى آخرها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على آذاهم وعفوه عنهم — بعد الالتقاء بهم فقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجميل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا . وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه ، وإخوته وامرأة العزيز : قيل والملك أيضاً ، أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير » .

أما الطبرى فيقول فى تفسيره [جامع البيان عن تأويل آى القرآن] :

يقول الله جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن نقص عليك » يا محمد ، أحسن القصص بوحينا إليك هذا القرآن فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية ، وأنباء الأمم السالفة ، والكتب التي أنزلناها فى العصور الخالية .

ونقل عن قتادة « نحن نقص عليك أحسن القصص » من الكتب الماضية فى الأمم ، « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسألة أصحابه إياه أن يقص عليهم . وذكر عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله لو قصصت ؟ قال : فنزلت، نحن نقص عليك أحسن القصص .

ثم نقل عن عون ابن عبد الله قال : مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا : يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله عز وجل : الله نزل أحسن الحديث ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص فأنزل الله « . . . نحن نقص عليك أحسن القصص » فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص ، فدلهم على أحسن القصص .

وقد قال البخارى رضى الله عنه عن هذا الحديث — على ما ورد فى هامش تفسير الطبرى تحقيق الأستاذ محمود شاكر — « منكر الحديث » .

وهو بلا شك حديث منكر .

وينقل الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء عن النسفى ، أن سبب نزول هذه السورة فى القرآن الكريم أن كفار مكة لقى بعض اليهود وتباحثوا فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم اليهود : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن قصة « يوسف » فنزلت .

ولم يلحظ من المفسرين المحدثين الفرق بين ما ورد فى القرآن ، من أنباء الرسل فى سور القرآن المختلفة ، وما ورد فى سورة يوسف ، مثل ما لحظ ذلك السيد محمد رشيد رضا ، رحمه الله فقد قال أولا ، فى كونها إتماماً أو امتداداً لسورة [هود] التى قبلها والمناسبة بينها وبين سورة [هود] أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام ، والاستدلال فى كل منهما على كونها وحيا من الله تعالى ، دالا على رسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بآيتين متشابهتين . ففى آخر قصة « نوح » عن هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وفى آخر الثانية : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » وإشارة التأنيث فى الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة ، وقيل للسورة ، وإشارة التذكير فى الثانية لقوله تعالى فى أول السورة : ؟ نحن نقص عليك أحسن القصص » والفرق بين قصتها وقصص الرسل التى قبلها وفى سورة الأعراف وغيرها ، أن تلك قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها ، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم ، لإنذار مشركى مكة ومتبعيهم من العرب ، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ، ووجوه الإعجاز ، أما سورة يوسف فهى قصة نبى واحد وجد فى غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتمل فنبئ وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم ، فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس فى رسالته ، وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته وآل بيت النبوة ، فكان من الحكمة

أن يجمع قصته فى سورة واحدة وهى أطول قصة فى القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية فى ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف ، وختمت بإحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام .

ونخرج من هذا الكلام بحقيقتين أساسيتين فى بحثنا :

الأولى : أن سورة يوسف قد أوقفت الكلام على نبى واحد من أنبياء الله هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام . الأمر الذى لم يتكرر فى القرآن قط .

والثانية : أن هذه القصة لم ترد فى موضع آخر من القرآن ، ولو على سبيل الإشارة أو التنويه ، كما حدث بالنسبة لجميع الأنبياء الآخرين فقد ذكرت أنباؤهم فى أكثر من موضع فى القرآن ، وربما تكرر النبأ الواحد عن النبى الواحد مراراً فى القرآن بنفس الصيغة حيناً ، وبصيغ متعددة حيناً آخر .

وقد كان أول ما ذكر من أنبياء الله هو بطبيعة الحال آدم ، وقد ورد ذكره فى خمسة وعشرين موضعاً فى تسع سور هى : البقرة ، وآل عمران ، والمائدة والأعراف ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، ويس .

بينما ورد ذكر نوح عليه السلام فى ثلاثة وأربعين موضعاً فى ثمان وعشرين سورة هى ، آل عمران والنساء والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود وإبراهيم والإسراء ومريم والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والعنكبوت والأحزاب والصافات وص وغافر والشورى وق والذاريات والنجم والقمر والحديد والتحريم ونوح ، والأغلب أن يرد ذكر [نوح] عليه

السلام فى السورة الواحدة مرة واحدة ولكن يحدث أن يتكرر ورود اسمه مرتين كما وقع فى الأعراف والصافات وثلاث مرات كما وقع فى سورة نوح ، وأربعاً كما وقع فى الشعراء ، وثمانى فى هود .

وقد ذكر هود عليه السلام سبع مرات مرة فى الأعراف وخمساً فى هود ، ومرة فى الشعراء . أما صالح عليه السلام فقد ذكر فى تسعة مواضع ثلاثة منها فى سورة الأعراف وأربعة فى سورة هود ، وواحدة فى الشعراء .

أما أبو الأنبياء إبراهيم بن تارح فقد ذكر فى خمس وعشرين سورة ، وقد كان أكثر ذكره فى السور الطوال فقد ورد اسمه فى سورة البقرة فى اثنى عشر موضعاً ، فى حين ذكر اسمه عليه السلام فى سبعة مواضع من سورة آل عمران وأربعة فى الأنعام وثلاثة فى النساء وثلاثة فى هود والأنبياء والحج والصافات ، ومرتين فى التوبة وهود ومرة فى إبراهيم والحجر والشعراء والأحزاب و ص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والممتحنة والأعلى . ونلاحظ أن اسم إبراهيم هو وحده الذى ورد فى الجزء الثلاثين من القرآن المعروف بجزء [عم] . وإن كنا سنرى أن اسم موسى عليه السلام قد ورد فى هذا الجزء أيضاً مع جده الأعلى إبراهيم .

ولوط عليه السلام ، هو ابن أخى إبراهيم ، وقد ذكر فى سبع وعشرين مرة ، أى بما يزيد عن المواضع التى ذكر فيها إبراهيم بموضعين كان اسمه يرد فى السور التى جاء ذكره فيها مرة واحدة كالأنعام والأعراف والحج والصافات و ص و ق ، والتحريم ، ولكنه ورد فى هود خمس مرات ، وفى الحجر وفى الأنبياء والنمل والقمر مرتين . وقد ذكر إسحق بن إبراهيم عليهما السلام فى ستة عشر موضعاً فى ست سور ، وقد ورد اسمه فى سورة

البقرة ثلاث مرات وفى آل عمران والنساء والأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء و ص مرة واحدة .

أما يوسف بن يعقوب عليه السلام فقد ورد اسمه فى السورة المسماة باسمه عشرين مرة ، ثم ذكر مرة واحدة فى الأنعام ، ومرة فى غافر . فكأن سورة [يوسف] قد استأثرت تقريباً باسمه وبكل شيء يتصل به . وهو ما سبقت إليه الإشارة ، وما نرى تأكيده ثانية هنا .

ومن أحفاد الطبقة الأولى لإبراهيم عليه السلام مدين والذين يعبر عنهم فى التوراة بلفظ مديان ، ويقول عنهم القرآن [شعيب] وقد ذكر اسمه فى عشرة مواضع فى أربع سور فقط هى الأعراف وقد تكرر اسمه فى آياتها أربع مرات وأربعاً مثلها فى هود ومرة فى الشعراء ، ومرة فى العنكبوت .

وقد ذكر اسم يعقوب بن إسحق وأبو يوسف وهو المسمى عند اليهود [بإسرائيل] ست عشرة مرة ، أربعاً منها فى البقرة وثلاثاً فى يوسف ومرتين فى مريم كما ذكر فى موضع واحد فى آل عمران والنساء والأنعام وهود والأنبياء والعنكبوت وص .

وقد كان طبيعيًّا أن يظفر اسم [موسى] عليه السلام ، بالنصيب الأكبر من الذكر والتكرار ، ذلك لأنه نبي اليهودية الذى أنزلت عليه التوراة ، وقد كان أتباعه فى المدينة خصوم نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، المطبوعين على حب الجدل ، والذين ركبت فى نفوسهم ، شدة الخصام ، واللدد والعداوة ، ولهذا انصرف أكثر جهد الرسول فى الرد على ما يقيمه يهود المدينة من حجج ضد الدين الجديد ، وما يروجونه بين العرب فى المدينة ومكة وما حولهما من مفتريات ، وما يبعثون به إلى الرسول

من أسئلة لا يقصدون منها إلا المكايدة ، وإظهار عجز الرسول ، وجهله بما سبق من أديان ، وما وقع للرسل من أحداث ، ما كان فى الأيام الخالية من كبريات الوقائع . ولهذا كان طبيعياً أن يمتلئ القرآن الكريم بالآيات التى تروى تاريخ أنبياء بنى إسرائيل ، بما يتفق مع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد ، وعلى تنزيه الله سبحانه وتعالى من كل شبهة من شبه الشرك أو الوثنية أو الضعف الإنسانى ، وكان مقتضى هذه المعارك الفكرية أن يرد اسم نبي اليهود موسى عليه السلام . وقد بلغت المواضع التى ذكر فيها اسم موسى فى القرآن نحو مائة وسبعة وثلاثين . منها ثمانية عشر موضعاً فى سورة القصص ، وسبعة عشر موضعاً فى سورة طه وواحد وعشرون موضعاً فى سورة الأعراف وأربعة عشر موضعاً فى سورة البقرة ، وثمانية فى سورة الشعراء وسبعة فى سورة غافر .

وكاد ما ذكر عن موسى عليه السلام فى هذه المواضع جميعاً ، يكون قصة كاملة عن حياة كليم الله منذ ولد ، حتى شب عن الطوق ، وبلغ أشده ، ثم ما تلا ذلك من هجرته لمصر ، وعودته إليها مع أخيه هارون نبيين مرسلين إلى فرعون مصر وآله ، يدعوان إلى عبادة التوحيد وبيان ما جرى بينهما وبينه من جدل ، حتى قادا بنى إسرائيل عبر البحر الأحمر إلى سيناء ، وما تبع ذلك من وقائع كبرى فى حياة اليهود ونبيهم وشعبهم وعودتهم إلى الوثنية وعبادة العجل . وهذا كله يمكن أن يكون قصة كاملة ، ذات بداية ونهاية ، لولا أنها لم ترد فى مكان واحد ، من كتاب الله الكريم ، ولولا أن كل موضع ورد فيه جزء منها ، لا يقوم بذاته كقصة . وهو ما سنعود إليه بإذن الله تعالى .

ولما كان لداود وابنه سليمان عليهما السلام دور كبير في إنشاء دولة بني إسرائيل ، فقد ذكرهما القرآن الكريم ، وأورد نبأهما ، بما يتفق مع الواقع من جهة ومع تفسير العقيدة الإسلامية ، لأحداث التاريخ . وقد ورد اسم داود في ستة عشر موضعا في سور البقرة والنساء والمائدة والأنعام والإسراء والأنبياء والنحل وسبأ وص . كما ورد ذكر سليمان في ست عشرة مرة في البقرة والنساء والأنعام والأنبياء وفي سبع آيات من سورة النمل ثم في سبأ وفي موضعين من [ص] .

ولما كان للمسيحيين مراكز نفوذ في الجزيرة العربية ، ولا سيما في نجران ، وكان أحبارهم ورهبانهم يمرون بمكة ، أو يترددون عليها ، كذلك رهبانهم في أديرتهم الواقعة في طريق تجارة أهل مكة والمدينة إلى الشام واليمن ، قد سمعوا بالدين الجديد . وخشوا أن يستميل بعض المسيحيين ويدخلهم في المؤمنين به ، فقد نهضوا يناقشون نبي الدين الجديد ، ويجادلونه ، ويسوقون إليه الأسئلة ، وإن كانوا في الجملة ، أقل ضراوة في الخصومة ، والعنف منهما في المنافسة ، فقد استتبع ذلك كله ، أن ينزل في الخلاف بين هؤلاء المسيحيين وبين الإسلام قرآن ، وأن يتضمن هذا القرآن ذكراً لنبي المسيحيين عيسى ابن مريم عليه السلام ولأمه مريم البتول ، ولابن اختها الذى مهد لظهور المسيح يحيي المسمى في الإنجيل يوحنا المعمدان ، ولزوج اختها الذى كفلها زكريا .

قد ورد اسم المسيح أو عيسى ابن‌مريم في ثلاث عشرة سورة هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والتوبة ومريم والمؤمنون والأحزاب والشورى والزخرف والحديد والصف ، وكان مجموع الآيات التي ذكر فيها

اسمه ثلاثاً وثلاثين ، ذكر فيها اسم المسيح إحدى عشر مرة وعيسى خمساً وعشرين ، وابن مريم ثلاثاً وعشرين .

ولكن القرآن قد ذكر إلى جانب أسماء أنبياء اليهودية والمسيحية ، أنبياء ، اكتفى بذكر القليل من وقائع جهادهم فى سبيل عقيدة التوحيد ، ومقاومة أهل الشرك ، ومناهضه دعاة الفساد ، من هؤلاء ، يونس عليه السلام الذى ذكر اسمه أربع مرات فى سور النساء والأنعام ويونس والصافات ، كما ذكر بوصفه فى سورة الأنبياء . وإدريس عليه السلام ، والمقول إن إدريس ابن يارد بن مهلاتيل بن قبان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام . وقد ورد اسمه فى التوراة باسم خنوح أو أخنوح . وقد اكتفى القرآن الكريم بقوله تعالى ، واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً .

كما ذكر إسماعيل بن إبراهيم جد نبي الإسلام الأعلى ، وأبو العرب المستعربة أو العدنانيين ، وقد وردت حكاية الرؤيا التى رأى فيها إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل ، وكيف هم بتنفيذ ما رآه فى منامه ، باعتباره أمراً من الله لنبيه بتضحية ابنه ، ثم افتداء إسماعيل الذبيح بفدية هى ذبح عظيم ، كما ورد فى سورة الصافات « رب هب لى من الصالحين.فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين.وفديناه بذبح عظيم » .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات ذكرت فيها أسماء الأنبياء والرسل بغير تفصيل من ذلك ما جاء فى سورة البقرة : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

وفى سورة آل عمران : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » وفى السورة نفسها : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وفى سورة الأنبياء : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » .

وقد يجمل بنا بعد أن أوردنا ، الإطار الخارجى للبحث ، أن نقول كلمة فى القصة وماذا تكون ، ليكون العلم بالقصة وعناصرها معياراً لنا ، فيما سنجريه من القول ، فى القصة القرآنية من جهة ، وأنباء الرسل ، وأنباء الغيب ، وأحاديث الأنبياء من جهة أخرى .

والقصة من غير خوض فى المذاهب الأدبية المختلفة ، ولا سيما ما كان منها حديثاً ، هى فى الواقع ،كلام يروى واقعة أو وقائع ، متعلق أساساً بأشخاص ، فى الأعم من الأمور ، أكثر من شخص ، وهى واقعة قابلة بطبيعتها للنمو ، وبمقدار نموها ، تستكمل القصة أكبر عناصرها ، وأكثرها حيوية ، وكلما كان نموها ، قادراً على تشويق سامعها أو قارئها ، ومفاجأته بالجديد فيها ، كانت القصة أعظم حظا من النجاح . وعلى الرغم من أن القصة ، تصدر عن شخص ، لأشخاص يسمعونها ، أو يقرءونها ، وأن غاية القاص ، متحدثاً أو كاتباً ، أن يؤثر فيهم ، وأن يثير انتباههم ، إلا أنه يجب ألا يظهر فى رواية وقائع القصة ، وألا تكون بياناً لرأيه ، وإلا استحالت إلى مقال أو تقرير أو تلقين ، وفقدت بذلك أكبر خصائصها ، وهى مجرد

سرد الوقائع ، وكأنها مقصودة لذاتها . والأصل فى القصة أن تروى للناس أمراً لا يعرفونه ، أو لا يعرفونه كله ، أو يعرفونه ولكن لا يعرفون أبطاله ، وأيامه ، فالقصة تفقد أكبر خصائصها لو روت حدثاً معروفاً بتفاصيله للسامعين ، إلا أن يكون أسلوب روايته ، هو الجديد فى القصة ، وليس هناك ما يمنع أن يكون للقصة غاية أدبية ، يتغاياها ، راويها ، أو واضعها ، ولكن يجب أن تخفى هذه الغاية ، حتى تبدو القصة وكأنها ، تساق لذاتها ، وأنه لا غرض لمن يقصها ، غير إبلاغهم بوقائعها ، وأطرافهم بأحداثها .

والقصة التى تخلو من الوقائع ، تبرد وتتفه عند السامع ، ويضعف نشاطه لمتابعتها ، ولكن كثرة حوادثها ، قد يقضى عليها ، ويصرف الناس عنها ، لأن القصة يجب أن تكون فى المتناول بلا إجهاد للعقل ، ولا تركيز شديد فى الفكر .

والتشويق والمتعة عنصران جوهريان فى القصة ، ولكن إذا زادا عن الحد ، فقدت القصة ، ما يثيره من اهتمام واستقر فى نفس سامعها أو قارئها ، أن صاحبها ، لا يريد أن يروى له شيئا يستحق الاهتمام والمتابعة ، وإنما يبغى فقط العبث به ، أو الخوف فقط من إملاله ، غير محترم ، لعقله .

فهل فيما تعارفنا على تسميته بقصص الأنبياء ، أو بالقصص القرآنى ، شيء من خصائص القصة الحديثة أو حتى القديمة .

لقد مر بنا الحديث الذى رواه ابن عباس ، والذى قال فيه إن أصحاب رسول الله ، قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا قال تنزلت نحن نقص عليك أحسن القصص .

والحديث الذى رواه عن عوف بن عبد الله ، فقال : مل أصحاب

رسول الله ملة ، فقالوا يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله تعالى « الله نزل أحسن الحديث » ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله ، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص ، فأنزل الله : « نحن نقص عليك أحسن القصص » .

كما مر بنا أن البخارى رضى الله عنه ، قال عن هذا الحديث الأخير منكر الحديث وقد صدق البخارى فى حكمه ، فليس فى القرآن ما نزل ، ليذهب عن الناس السأم ، ويسري عنهم ، وما يلتمس فيه المتعة التى يلتمسها الفارغون ، والتى يسميها القرآن : [لهو الحديث] .

فماذا يكون إذن فيما نسميه قصص الأنبياء من خصائص القصة ؟

* * *

ذكر أنبياء الله ، عليهم الصلاة والسلام ، بأسمائهم أو بصفاتهم ، وحدهم حيناً ، كما ذكرت أسماؤهم وجهادهم فى سبيل عقيدة التوحيد ، أحياناً ، فى أربع وأربعين سورة من سور القرآن التى بلغت عدتها أربع عشرة سورة ومائة ، موزعة ، كما هو معلوم للكافة ، على ثلاثين جزءاً . ولم يخل جزء من أجزاء القرآن ، من هذه الأسماء الكريمة ، ومن أعمال أصحابها ، الذين اصطفاهم الله تعالى لأداء رسالاته .

ومن هذه السور ، ما هو مكى ، وما هو مدنى ، وهذه السور المدنية عدتها أربع عشرة ، فى حين أن عدد السور المكية ، هو ثلاثون ، ومع ذلك ، فإن المواضع التى وردت فى السور المدنية ، واشتملت على أسماء الرسل ، وأنبائهم ، وأحاديثهم ، وقصصهم ، أكثر بكثير من المواضع

التي ورد فيها هذا الذكر ، في السور المكية ، فكثير من هذه السور المكية ، اقتصر فيها على ذكر اسم النبي ، أو اسمه مقروناً بألفاظ قليلة تتضمن الثناء عليه ، ففي الجزء الثلاثين مثلا ، المعروف عند عامة المسلمين بجزء [عم] لابتدائه بسورة تبدأ بقول الله تعالى « عم يتساءلون.عن النبأ العظيم » لا يذكر من أنبياء الله سوى إبراهيم وموسى في موضعين فقط : في النازعات ، جاء ذكر [موسى] عليه السلام : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون أنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى » .

وفي سورة الأعلى : « إن هذا لفي الصحف الأولى.صحف إبراهيم وموسى » .

ولكن الثابت أن أنباء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، جاءت في السور المكية والسور المدنية على السواء ، مما يدحض قول المستشرقين من أهل الغرب ، الذي طووا صدرهم ، ولا يزال يطوونه على كراهية متأججة للإسلام ورسول الإسلام ، وقرآن الإسلام ، من أن القسم المكي من القرآن سكت عن هذا الذكر ، لأن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم ير حاجة إلى سوق قصص أنبياء اليهود ، نقلاً عن التوراة ، إلا حينما جاور اليهود في المدينة ، فأحوجه هذا الجوار ، الذي انتقل من المصافاة إلى المهادنة ، إلى الجدل القولي ، إلى الحرب المشهرة ، والقتال المرير ، إلى الاستعانة بقصص أنبياء بني إسرائيل ، والاستشهاد بها ، والثناء عليهم ، وإظهار فضلهم ، والانتساب إليهم ، للتقرب إلى اليهود ، فلما لم ينفع

هذا فى كسب مودة اليهود ، أوكف أذاهم ، دخل معهم فى حوار ، يثبت به أن الله يوحى له من هذه الأنباء ، ما يدل على أن نبى الإسلام يوحى إليه ، بما لا يعرفه ، من أنباء هذا التاريخ المغيب ، والذى لا يعلمه إلا أهل الكتاب ، أو من يقرءون ويكتبون ومحمد أمى ، لا يقرأ ولا يكتب ، ثم انتقل فى آخر مراحل الصراع من الإسلام واليهودية ، إلى إيراد هذه الأنباء المذكورة فى التوراة ، بالأسلوب الإسلامى ، لتتضح الفوارق العقلية والروحية ، بين ما جاء به القرآن ، وما صارت إليه كتب اليهود فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليؤكد أن عقيدة التوحيد ، تظهر فى كل ما يقوله ، وما يفعله المسلمون ، حتى فى قصص الأنبياء وأنبائهم وأنباء جهادهم .

ولعل سورة [يوسف] المكية أقوى رد على المستشرقين الأوربيين من إنجليز وفرنسيين وهولنديين وألمان ، ومنهم المسيحى ، ومنهم اليهودى ، الذين يذهبون إلى أن القصص القرآنى ، لم يأت بياناً للعقيدة الإسلامية ، ولا إبرازاً للنظرة الإسلامية ، إلى حياة الرسل والأنبياء وجهادهم وعلاقتهم بأقوامهم المباينة للنظرة التى تبنتها كتب اليهود والمسيحيين ، التى يقرءونها ويتداولونها ، الآن ، وإنما كان رداً سياسياً بحتاً ، من محمد صلى الله عليه وسلم ، على ما كان يلقاه من جدل أهل الكتاب فى المدينة من اليهود والمسيحيين ، التى كانت تضيق عليه الخناق حيناً ، والتى كانت تمطره أحياناً بالأسئلة إحراجاً له ، أمام المؤمنين به ، بقصد إثبات إما جهله ، وإما فساد ما يذهب إليه من بطلان عقيدتهم . فسورة يوسف هى سورة مكية كما قلنا ، وهى قصة القرآن الكاملة التى اجتمعت فى سورة برأسها ،

والتى خلت تقريباً من الجدل مع اليهود والمسيحيين ، على السواء ، والتى راحت آياتها البينات جميعاً تشيد بيعقوب وابنه يوسف وآبائهما إبراهيم وإسحق ودعوتهم إلى الدين القويم ، دين التوحيد ، ودين العمل الصالح ، والبعث والحساب والجزاء . ومثال ذلك قول الله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام وآبائه وأجداده : « وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث : ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل : إبراهيم وإسحق » وقوله تبارك وتعالى : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث » « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » .

ثم قوله عز وعلا على لسان يوسف « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة ، هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » وقد ختمت قصة يوسف ، عليه السلام فى السورة التى سميت باسمه ، بما هو جوهر وغاية كل قصة قرآنية ، أى الدعوة للواحد الأحد ، وإن العافية للصالحين ، المحسنين ، فى الدار الآخرة ، التى هى المثل الأعلى ، التى يجزى فيها العمل الصالح ، وينعم فيها المتقون ، بالباقيات من الذكر الطيب ، وسكينة النفس ، وسعادة الإخاء وطهارة القلب من الغل والحقد والحسد : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .

وإذا كانت الأنبياء قد ذكرت فى أربع وأربعين سورة من القرآن ، وأن هذه السـور ، وزعت على أجزاء القرآن كله ، فإن لذلك التوزيع دلالة واضحة ، وهى أن القرآن اتخذ من أنباء الرسل ، وأحاديثهم ، وسيلة لبيان أغراض القرآن ، فهو لا يستغنى عنها ، فى بسط مقاصده ، وتقريبها للأفهام ، وإذا كان قد كرر أسماء رسل بعينهم ، وأبدأ القول وأعاده ، فيما جرى بينهم وبين أقوامهم ، فهذا التكرار ، لا يأتى فقط ، لتثبيت المعنى الذى يهدف إليه كتاب الله ، فى أذهان قارئيه وسامعيه ودارسيه ، والهادين والداعين إليه ، وإنما يتغيا من هذا التكرار ، أن تصبح هذه الأسماء مألوفة عند المسلم ، حتى يتداعى لها فى نفس الإنسان بمجرد سماع الاسم المعانى التى اتصلت به ، والتى جاء بها القرآن ، فنحن لطول ما كررنا اسم الله العظيم ، فى الصلاة والدعاء والحديث ، والرواية والجدل ، والتلقين والتعلم يسهل علينا نطقه ، وذهن الواحد منا شارد ، وقلبه مشغول ، ولكن الاسم يفعل فعله فى أعماق النفس ، والنفس لا تدرى ، كذلك يحدث فى سمع الإنسان وعقله ، كل اسم كثر ترداده ، واقتران بمعان لا تفارقه ولا يفارقها ، كأسماء الرسل ، وأسماء المعانى المجردة ، من حب وخير ، وعدل وظلم ، وسواد وبياض ، كذلك أصبحت أسماء صالح وهود ونوح ولوط ، وإبراهيم وموسى ، عناوين لمعانى ومبادئ يستحضرها الذهن بمجرد نطقها ، فى حين لو تعددت هذه الأسماء ، بالإضافة إليها ، وملء آيات القرآن بالأحداث العديدة ، أو التفريع عليها ، لتداخل بعضها فى بعض ، ولبهتت معانيها ، ولاحتاج الإنسان البسيط الذى جاء كتاب الله ليعلمه ويهديه ويأخذ بيده أن يجهد ذهنه ، فى التفريق بين هذا

النبي وذاك ، وما جرى لأولهما دون ثانيهما ، ولأعيته محاولة استيعاب الوقائع وحفظها واستظهارها والاستشهاد بها ، فى حين أن هذا التكرار الواضح ، وهذا التبسيط الذاهب إلى أقصى غاياته ، مكنت الفلاح ، وهو يخوض فى وحل الغيط ، متحدثاً إلى صاحبه أو صاحبته ، أن يستشهد بشيء من أقوال أو وقائع حياة نوح أو لوط ، أو قصة زوجتيهما وهكذا . .

وإذا كانت سور القرآن الأربع والأربعون التى اشتملت على أسماء الرسل ، وأحاديثهم وأنبائهم ، قد توزعتها أجزاؤه جميعاً على وجه التقريب فإن هذه السور لا تتساوى من حيث احتواء عدد المواضع التى وردت فيها هذه الأنباء والأحاديث ، فأكثر هذه السور نصيباً من هذا الذكر ، الأنبياء فقد بلغ عدد المرات التى ورد فيها هذا الذكر عشراً ، فى حين كان هذا العدد تسعاً فى كل من البقرة والأنعام وثمانى فى النساء ، وسبعاً فى هود و ص وستاً فى آل عمران ، وخمساً فى مريم ، وثلاثاً فى المائدة والإسراء والتوبة وإبراهيم والأحزاب واثنتين فى طه . ويمكنك أن تتعقب هذه المواضع فى باقى السور ، التى جاء فيها هذا البيان ، ونحن نورد هنا أسماء جميع السور التى ورد فيها ذكر للأنبياء فهى :

البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والنمل والعنكبوت والأحزاب وسبأ وفاطر ، ويس ، والصافات وغافر و ص والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف و ق والذاريات والنجم والقمر والحديد والممتحنة والصف والتحريم ونوح والأعلى .

ومن اليسير أن نفهم كيف خلت سور الأنفال والفتح ومحمد والحجرات من الإشارة إلى أخبار الرسل مع أن سورة الأنفال تقع بين سورتى الأعراف والتوبة ، فى كلتا السورتين مواضع غير قليلة ذكر فيها الأنبياء وذكرت أخبارهم ، بلغت فى الأعراف سبعة مواقع ، فالأنفال سورة لها موضوع شمل آياتها جميعاً ، فهى سورة تشرع للحرب وأحكامها ، وللقتال وظروفه المادية والمعنوية ، من الثبات عند البأس واحترام أوامر الرسول ، أو النهى عن الانشغال بالغنائم ، وبقوة المسلمين بفضل إيمانهم إلى المشركين نتيجة لكفرهم ، واهتمامهم بالدنيا دون ما يعلو عليها ، ويسمو فوقها من المثل العليا والباقيات الصالحات عند الله ، ثم حكم الغنائم وطريقة توزيعها ، وما جرى فى موقعة بدر ، وما وعد الله به المؤمنين من التأييد الإلهى ، إذا صبروا وثبتوا ، وكل هذا ، ينطوى فى ذاته على الأمثلة الواقعية وما يعرفه المسلمون أنفسهم وما شاهدوه مشاهدة العيان ، مما يغنى عن الأمثلة المستفادة من أنباء الماضى ، ومع ذلك فقد وردت فى هذه السورة إشارة إلى ما كان من آل فرعون دون ذكر موسى عليه السلام فقال الله تعالى : كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب » وقوله عز وعلا : كدأب آل فرعون ، والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين » .

والسور الثلاث : الفتح ومحمد والحجرات ، استقلت كل واحدة منها بموضوع متكامل ، أورد الله فيه أحكاماً تشريعية ، أو بياناً لواقعة ، ذات أهمية وخطر فى حياة المسلمين ، عاصروها ، وعرفوا بدايتها ، ونهايتها ،

فسورة محمد ، تكاد تكون امتداداً لسورة الأنفال ، ومن حيث كونهما معاً وعاء لأحكام الحرب ، والأسرى ، وهي كسورة الأنفال من جهة ، وكسورة الفتح من جهة أخرى من أقصر السور التي هي بين الطويلة ، كالبقرة أو قصيرة كسورة الجزءين الأخيرين التاسع والعشرين والثلاثين . وإذا كانت سورة محمد تعرف عند بعض المفسرين بسورة القتال لقول الله تعالى فيها : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » ، فإن سورة الفتح ، جاءت مقصورة تقريباً على واقعة صلح [الحديبية] الذى كان أكبر انتصارات المسلمين غير العسكرية ، وإن كان السر فى هذا الانتصار ، هو قوة المسلمين الحربية التي بدت فى الأفق ، واضحة جلية ، لمشركى مكة ، وزعماء كفارها ، مما يؤيد فى كل زمان ومكان ، إن أعداء السلام ، والخارجين عليه ، والمتجرين بالحرب والملوحين بها ، لا يردهم إلى السلام ، ويحملهم على النزول على مقتضياته ، إلا الخوف من الهزيمة ، واليأس من النصر . وقد روت سورة الفتح ، ما جرى فى الحديبية ، ومقدماتها وخواتيمها ، فاستغنت بذاتها عن الأمثلة الخارجية عنها ، والتى ألف القرآن أن يضربها للناس ، لينبه نفوسهم ، ويحرك عقولهم .

أما سورة الحجرات فقد دار كلام الله تعالى فيها أساساً حول تحذير المسلمين من الخوض فى الأعراض ، ولذلك لم يأذن المقام بإيراد أنباء الرسل فيها ، ولكن السور الثلاث كانت محصورة بين سورتى الأحقاف ، و ق وفى كلتا السورتين إشارات إلى أنبياء الله ، فى الأحقاف جاء قول الله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » وفى سورة ق « كذبت

قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد ، وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد » .

ويحسن أن نورد هنا أمثلة من الآيات التي وردت في شأن كل نبي من أنبياء الله ، عليهم السلام ، دون أن تتضمن واقعة ، ولا حتى مجرد نبأ ، لنستبعد هذه الآيات من بحثنا باعتبار أن هذه الآيات الكريمة ناطقة بذاتها بانقطاع صلتها تماماً بالقصة أو ما يشبه القصة .

ولنبدأ بأبي البشر ، وأبي الأنبياء آدم عليه السلام ، ففي آل عمران ، آيتان : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

وفي سورة الأعراف « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » « يا بني آدم ، إما يأتينكم رسل منكم ، يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين » .

وفي الإسراء « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وفي شأن نوح عليه السلام : ورد في آل عمران قول الله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » .

وفي سورة الأعراف في سياق ما جرى من جدال بين هود وقومه : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة »

وفى سورة إبراهيم « ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم » .

أما إدريس عليه السلام ، فقد ذكر مرتين ، إحداهما فى سورة مريم ، إذ قال الله تعالى عنه عليه السلام : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً » وفى سورة الأنبياء ، فى سياق ذكر عدد من أنبياء الله : « واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » .

وعن إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال الله تعالى فى سورة البقرة : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » كما قال عز وتبارك : « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ؟ » وفى سورة آل عمران : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » فقال : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وعن موسى عليه السلام ، جاء فى سورة البقرة : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » « قولوا آمنا بالله وما أنزل

إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وفى سورة الأنعام : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وفى سورة المؤمنون : « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » .

وعن عيسى عليه السلام جاء فى سورة البقرة : « وآتيناعيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس » « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى » وفى سورة آل عمران « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » وفى سورة النساء « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب » وفى السورة نفسها : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله » وفى سورة المائدة « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » .

ونجد مثل هذه الآيات عن إسماعيل وإسحق ويعقوب وزكريا ويحيي وهود وصالح وشعيب ، وهى تختلف موضعاً من القرآن ، وصياغة ، كما تتباين أهداف الكلام المباشر بشأنها فى سورة عن سورة ولكن الهدف البعيد من كل ذكرها جميعاً والاستشهاد بها ، هو تزكية أنبياء الله ، وحسن أدائهم للرسالات التى اصطفاهم ربهم لها ، وصبرهم على أذى الكافرين بها ، وسعة صدورهم ، وطول صبرهم ، وعفوهم عن قومهم ، ونصر الله لهم ، وللعقيدة التى علموها للناس ودعوهم لها : دعوة التوحيد والبعث وحسن

مثوبة العاملين الصالحين ، وسوء عقبى الكافرين .

وربما تجدنا أسرفنا نوعاً فى إيراد هذه الأمثلة ، ولكن كانت الغاية من ذلك بيان أمرين :

أولها : أن أسماء الرسل لا تأتى فى القرآن الكريم مغلفة فى سياق قصص أو أنباء أو أحاديث وإنما تأتى مجردة من كل هذا ، فى مواضع من كتاب الله العظيم .

والأمر الثانى : أن لذكر هذه الأسماء ، إن قصرت الآية وقلت ألفاظها وخلت من الوقائع ، أو إن طالت ، وامتلأت بالحوادث ، غاية واحدة لا تتغير ، هى بسط العقيدة وتقريبها إلى أذواق وأفهام الناس الذين دعوا للدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . فليست المتعة ولا التسرية على الناس أو الدخول فى منافسة مع أحاديث وأسماء أمثال النضر بن الحارث الذى سافر إلى بلاد العجم ، وعاد وقد امتلأت جعبته بطرائف أخبار [رستم] و[سفنيديار] وإلا لما جرى القرآن على نهج التكرار ، وإبداء القول وإعادته ، فى وقائع محددة ، وأكثرها بسيط ، لا يتعقد ، ولا يتداخل بعضه فى بعض ، ليثير شوق السامع إلى فك عقده والخلوص به إلى نتيجة يطمئن إليها ، شأنه عند سماع النوادر ، والطرائف والغرائب .

وأحاديث القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل ، وأنبائهم ، وأنباء الغيب ، تتسم جميعاً – على ما سنبين بإذن الله – بأمور ، وخصائص ، تباعد بينها وبين القصص على الوجه الذى تعارف الناس عليه قبل القرآن وبعده ، فى العهد القديم ، وفى أيامنا من أول هذه السمات :

أولاً : التكرار ، وقد سلفت إليه الإشارة ، والتكرار يسلب الحكاية ،

أو الرواية ، أكبر عناصرها ، وهو التشويق ، ومفاجأة السامع أو القارئ . بأحداث ووقائع لم يكن يتوقعها ، فإذا عرفت سلفاً ، فقدت عنده ، عنصر الجدة ، ولم تحرك شوقه إلى تبين ما ستأتى به باقى وقائعها .

وقد يقول قائل ، وأنّى لحكايات وأنباء ، كتاب أراد الله له أن يبقى مقروءاً ومسموعاً على مدى القرون ، أن تنطوى على المفاجأة والجدة ، وهى معروفة سلفاً ، يقرؤها الناس اليوم وغداً ، وفى الشباب والمشيب؟ والرد على ذلك ، أنه سيبقى فى الملايين التى ستقرأ القرآن ممن يتم لهم سماع كل قصصه وأنبائه ، وهؤلاء ، سيحسون بالجدة والمفاجأة ، إذا كانت القصة قد أريد لها منذ البداية أن تترك هذا الأثر ، وإذا صيغت القصة ، على وجه يحرك الشوق ، زاد فيها عنصر المفاجأة ، والغرابة ، وقعا فى السمع والنفس ، إعجاباً ، بقريحة صانع هذه الطرائف وتناول الناس قصها وإطراف وإمتاع أصدقائهم ، بذكر وقائعها ، فتمثيليات شكسبير وروايات « دكنز » وبلزاك ، وجيته ، تسمع وتشاهد وتقرأ ، وتبقى جديدة ، لجمال صنعتها . وقد تسامى القرآن وتسامت أنباؤه وقصصه عن هذا كله ، لأنها إن احتوته ، أصبحت قصة ممتعة ، وتذوق الناس طرافتها ، وغابت تماماً عنهم حكمتها ، وقد عوض القرآن هذا العنصر ، بأسلوب القرآن وأحكامه ، وحلاوة ألفاظه ، ورنين مقاطعه .

الأمر الثانى : تقطيع القصة أو الحكاية الواحدة ، وعدم الوصول بها إلى خاتمتها ، فقصة موسى وقصة آدم ، مع الملائكة وإبليس ، ترد فى القرآن أجزاء ، ولو اتصلت هذه الأجزاء فى موضع واحد ، لكملت قصته ، ولتوافر لها عنصر المفاجأة والتشويق ، وإن كان هذا العنصر بادياً فى هذه

الأجزاء الموزعة ، على مواضع مختلفة فى القرآن . ولكن يريد القرآن أن يعلن ويظهر للمسلمين وغيرهم ، أن الانشغال بما فيه من روايات وأنباء فى ذاتها ، والاحتفال بالنهايات والخواتيم ، تجعل القرآن كتاب قصص ، أشبه شيء بكتب بعض الأمم ، ككتب الهندوكين والبراهمة ، التى كانت أساساً [للميثلوجيا] الهندية ، وملاحم الإلياذة والأوديسا التى تعتبر نموذجاً عالياً للبلاغة الإغريقية ، والتى كانت أساس [الميثلوجيا اليونانية .

الأمر الثالث : ظهور القصة فى سياق السورة ، دون تمهيد لها ، والانتقال من القصة إلى غيرها ، دون تدرج ، فالقصة أو النبأ أو الحديث ، يأتى حتماً فى السورة أو لا يأتى ، كأنه فصل قائم بذاته فى السورة ، مستقل عنها ، يبدأ وحده ، وينتهى وحده ، بل إنها كلها ، تلتحم فى نسيج السورة ، التحاماً لا يأذن بالفصل بين بعضها البعض ، فهذه الأحاديث والأنباء جزء من بناء السورة ، ومن معانيها معاً ، لا تروى لذاتها ، ومن هنا يكون الانتقال إليها ، امتداداً للكلام الوارد قبلها ، ويكون الكلام امتداداً لها بعدها .

الأمر الرابع : أن أبطال قصص القرآن ، أو أنبائهم ، لا تتطور شخصياتهم ، من الصغر إلى الكبر ، فهم فى جميع أنبائهم ، رجال ناضجون يؤدون الرسالة التى اختارهم الله لها ، ولو ذكرت طفولة موسى وعيسى أو شباب إبراهيم ، عليهم السلام ، فلا تذكر هذه العهود لذاتها ، بل تذكر خدمة لدور النضوج واكتمال الرجولة ، فنوح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهود وعاد وإدريس ، تكاد تكون رموزاً لا أشخاصاً ، كلامهم فى جميع الموقف واحد ، ومواقف قومهم منهم واحدة ، وقولهم المتكرر اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقد سبق القول إننا إذا حذفنا اسم نبى من هؤلاء الأنبياء

ووضعنا مكانه غيره لاستقام القول ، ولما نبا جزء منه قط عن السياق .

ومع ذلك فإن فى سور القرآن ، من الوقائع التى تمر فى آياتها الكريمة مروراً سريعاً ، لا تستغرق منها إلا آية أو آيتين ، تحتوى على عناصر قصصية لا حدود لها ، تتفجر منها أساليب الإمتاع والتشويق ، وقرع الآذان ، وهز النفوس ، منها على سبيل المثال ، هذه القصة القصيرة ، التى وردت فى سورة القلم التى يسميها بعض المفسرين بسورة « ن » والتى تحكى ما كان من أصحاب الحديقة ، الذين خرجوا فى ظلام الليل ، قبيل الفجر ، ليحصدوا ثمارها ، خوف أن يشركهم فيها عمالهم الفقراء ، فإذا هى احترقت ، ولم يعد فيها ثمر يجنى ، ولا خير يرتقب ، عادوا إلى صوابهم ، وثابوا إلى رشدهم فآمنوا بربهم .

بعد هذه المقدمات يمكن أن نتناول جوهر القصة فى القرآن .

* * *

سبق لى أن قلت فى حديث عن القصص القرآنى . إنه لا يجمل بالمؤمنين بأن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الخالق عز وعلا ، أن يشغل بالهم أن بعض ما جاء فى القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله ، لا صدى له ولا أثر ، فى كتب التاريخ ، المعاصرة لهؤلاء الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام . ذلك لأن التاريخ ليس سوى عمل إنسانى ، لا يعلو على التزييف والاصطناع والتلفيق ، والقصور والسهو وعدم الإحاطة . وأن التاريخ كما يقول علماؤه فى القديم والحديث عمل « انتقائى » أو « اختيارى » : وأن الانتقاء فيه مرده إلى مزاج ومعتقدات وظروف المؤرخ

الشخصية ، وظروف عصره السياسية والدينية . فليس كل ما جاء فى كتب التاريخ العظيمة ، التى درج الناس على الاعتماد عليها ، والرجوع إليها ، فى صدد العصور التى أرخت لها ، صحيحاً وصادقاً . وأولى الناس بمعرفة هذا ، والوثوق به المسلمون ، فإن تاريخ نبيهم عليه السلام وتاريخ دينهم ، هو وحده بين جميع الأديان السماوية ، وتاريخ أنبياء هذه الأديان ، التاريخ المحقق لا بالسنة فقط ، بل بالشهر واليوم وأحياناً بالساعة . ومع ذلك فإن كبار مؤرخى الإسلام ، قد اختلفوا فيما بينهم فى أشياء تتعلق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، بل إن أقواله وأحاديثه عليه الصلاة والسلام ، لم تخل من وضع الوضاع ، وتلفيق ودس خصوم الإسلام من يهود ، ووثنيين وأعاجم من كل ملة وجنس . ولذلك قام علم مصطلح الحديث ، لغربلة هذه الأحاديث ثم نفى المصنوعة والموضوعة منها : لتخلص للمسلمين الأحاديث الصحيحة الثابتة .

ونحن نعلم أن التاريخ القديم فى كل حقبة وعصر منه ، هو تاريخ الملوك والوزراء ، والقادة والرؤساء ، فهو لا يحتفل فى قليل أو كثير ، بالحركات الدينية ، ولا بأصحاب الأفكار ، إلا أن يستفحل أمرها ، ويشتد ساعدها ، وتصبح قادرة على أن تخيف الحاكم ، أو تثل عرشه ، أو أن يعتنق مبادئها حاكم ويظلها بسلطانه ، ويحارب تحت لوائها ، ولذلك لا يستغرب أن يغمض هذا التاريخ الرسمى عينه عن بعض الرسل ، ولا سيما إذا كان البلد الذى بعثوا إليه ، لا يقع فى وسط العالم المعمور آنذاك ، بل كان على هامش دنيا الحضارة والتجارة ، والمال والسياسة ، كقوم صالح ، وشعيب وهود ، عليهم الصلاة والسلام ، وأنه لا يجمل بنا — وقد آمنا بالقرآن

وبصدقه وبصدق كل حرف فيه ، بوصفه كتاباً منزلاً من الله على نبيه المختار للرسالة ، والمبعوث للهداية أن يزعجنا أن يقول قائل إن كتب التاريخ قد خلت من كل شيء يؤيد ما جاء فى القرآن ، مثلاً من أن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل قد جاء إلى الحجاز ، وأنه نبى البيت العتيق مع ولده إسماعيل ، خصوصاً إذا كان قائل هذا القول يهودياً ، ممن ينفسون على الإسلام ، المكانة التى تحققت له فى عهد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أجلاهم عن ديارهم ، وأخرجهم فى عهد القيصر وفى عهد خليفته الثانى عمر رضى الله عنه ، من بلاد العرب . فإن هؤلاء قد عاشوا حياتهم يصنعون تاريخاً للإسلام وللمسلمين ، يحرمونهم فيه من كل فضل ، ويلصقون بهم كل منقصة وعيب .

وخلصت إلى القول بأن المؤمنين بالدين السماوى ، يغنيهم عن الحقيقة التاريخية ، التى هى فى كثير من الأحوال ، لا تمت إلى الحقيقة ، ولا تقوم عليهما ، « بالحقيقة الروحية » ، ولم أكن أظن أن تعبير « الحقيقة الروحية » اصطلاح يغمض على أحد ، بحيث يحتاج إلى شيء من البيان والتفسير . « فالحقيقة الروحية » ، هى حقيقة الدين كله ، وهو ما يؤمن به المتدينون ، والفرق بين هذه الحقيقة ، والحقيقة التى لا يعرف غير المتدينين سواها ، أن هؤلاء الأخيرين لا يعرفون من الحقيقة إلا أن تكون شيئاً من ثلاثة .

إما أن تكون ما يرونه رأى العين ، وما يسمعونه بآذانهم ، وما يلمسونه بأيديهم ، أى ما تقع عليه حواسهم ، وهو ما يسمى فى بعض العصور المتأخرة « بالمادية » . فكل ما يتجاوز « المادى » هو عند هؤلاء من كل

ملة ومذهب ، وفى كل عصر وزمان ، ضرب من الخرافة ، والهذيان لا يليق بالإنسان ، ولا يصلح أساساً لعلم ، ولا قاعدة لمعرفة .

وإما أن تكون مجموعة من الأوضاع ، تحقق مصلحتهم ، وتكسبهم مكانة أو مالاً أو جاهاً أو سلطة . فالإيمان بها والاطمئنان إليها ، هو تحقيق للمصلحة ، ودرء للخسارة المادية والأدبية الشخصيتين .

وإما أن تكون عقيدة موروثة عن الآباء والأجداد ، يتلقونها عنهم تعصباً لهم من جهة وإيثاراً للراحة ، وهرباً من الجهد ، من جهة أخرى .

أما المتدينون ، فعقيدتهم مستمدة من دينهم ، يؤمنون بما جاء به ، وما قام عليه ، وما يتفرع عن هذا الدين يأخذ حكمه ، وأول ما يتعلمونه من دينهم ، بأن هذا العالم ، ليس مادة بحتة ، فما الظاهر من هذا العالم ، ليس كل ما فيه ، إذ أن وراء هذا الظاهر ، باطناً ، سيجهد الإنسان جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، ليحيطوا به ، ويقفوا عليه ، يتعثرون ويضلون ، ويصيبون ويهتدون ، وهم فى اجتهادهم وخطئهم وصوابهم ، يلتمسون الهداية والتوجيه من أحكام دينهم . مستعينين بعقولهم وحواسهم من جهة ، وبوجدانهم وضمائرهم من جهة أخرى . ذلك لأن الحقائق عن هذا الكون ليست كلها مادية كما قلنا ، ومن هنا ، لا ينفع العقل وحده فى تحصيلها . فإلى جانب الحقيقة المادية حقيقة روحية ، ولو انعدمت هذه « الحقيقة الروحية » ، لما كان هناك دين ، ولما كان هناك متدينون إذ أن غاية الدين هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، والله « لا تدركه الأبصار » ، « وليس كمثله شيء » وما يتفرع عن الإيمان بالله ، لابد له

من نفس الوسائل للوصول إليه ، والإيمان بالرسل وبالكتب وبالملائكة ، وبكل ما هو غيب ، ليس إيماناً عقلياً فحسب ولا يتم تحصيله بنفس الطريقة التى تتم بها معرفة الماديات ، ومن هنا كان إيماننا بوجود هؤلاء الرسل وبتاريخهم وبأعمالهم ، لا يصلح فى تحصيله ، ما نتبعه فى تحقيق تاريخ الملوك والأمراء وقادة الجيوش ، فتحقيق هذا التاريخ له قواعده المألوفة من البحث عن الوثائق وتمحيصها ومقابلة بعضها ببعض ، أما الإيمان بالرسل وأعمالهم ، فهو فرع من الإيمان بالله كما قلنا ، فلا يقدم ولا يؤخر عندنا أن يكون لمؤرخ عصر ما ، قد ذكر النبى الذى عاصره أو لم يذكره ، وإلا فسنصطدم بأن الكثير من تاريخ هؤلاء الرسل لم يثبت فى تاريخ ، ولكن يغنى عن أى تاريخ آخر ، ما جاء فى القرآن عنهم ، لأن القرآن عندنا ، فوق كل تشكيك وتكذيب . فوق أن تاريخ الرسل ، له دور يخالف تماماً فى الطبيعة والغاية ، تاريخ الدول بملوكها وأمرائها وقادة جيوشها ، ووزرائها وساستها . فهذا التاريخ قوامه تجميع الوقائع وترتيبها ، وتمحيصها وهو نفى الزائف أو الضعيف أو ما لا دليل عليه ، وأهم ما يعنى به التاريخ ، هو الواقعة واليوم الذى أجرت خلاله والمكان الذى وقعت فيه ، وشهود الواقعة ، وكلما كثرت التفاصيل والجزئيات ، اعتبر التاريخ وافياً والمؤرخ دقيقاً ، وكلما بان لهم طرف جديد ، أو عرف عنها شىء لم يقع عليه أحد من قبل ، هنأ البحاث والأساتذة أنفسهم . وكل هذا الجهد ، ممتنع فى تاريخ الأنبياء ، أو لا معنى له ، لأنه لا يغذى قلباً ولا يثبت إيماناً ، ولا يؤيد عقيدة . « فالحقيقة الروحية » هى مناط الاعتقاد الدينى ، لأنها مستكفية بذاتها ، لا تحتاج إلى شىء خارج عنها ، يؤيدها

ويثبتها . دليلها منها ، ودلالاتها مقصورة على مجال العقيدة ، لا يراد منها أن تكمل شيئا قبلها ، ولا أن تمهد لشيء بعدها ، فهى لا ينتظمها هذا التيار المتدفق من الوقائع التى نسميها « التاريخ » .

وفى القرآن الكريم العديد الذى يخطئه الحصر من الأمثلة والشواهد على الإيمان بهذه الحقيقة والكفر بها . وهى حينما يكمل الإيمان بما تحتويه تكون دليلا على أن الإيمان يعمر القلوب ، وأن الدين قد انتشر وانتصر ، وحينما ينحسر هذا الإيمان ، يكون ذلك دليلا على أن الكلمة لا تزال للكفر .

ومن الأمثلة الناطقة ، التى تملأ جوانب القرآن الكريم ، وتشيع فى كثير من آياته ، هذه الآيات التى طالب فيها المشركون والكفار ، الأنبياء والرسل والأدلة المادية التى تثبت أنهم من عند الله ، فلم تكفهم الحجج العقلية التى ساقها الرسل ، ولا مشاهد الطبيعة وتقلباتها التى تدل على قدرة الله غير المحدودة على استخراج الحى من الميت ، وإيلاج الليل فى النهار ، وإحياء الأرض الميتة وهكذا . . من ذلك قول الله تعالى فى سورة الإسراء :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

وفى سورة البقرة .

« أوكالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال أنى يحيي هذه

الله بعد موتها ! فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ، قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحماً فلما تبين له ، قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» .

وفى سورة سبأ :

« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا ، أم به جنة ، بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » .

كل هذه الآيات ، ترينا الحقيقتين تواجه إحداهما الأخرى ، الحقيقة المادية ، التى تراها وتقع عليها وتتصل بها الحواس ، والحقيقة الروحية التى لا سبيل إلى الوصول إليها ، إلا بالتعالى عن المادة ، والنظر إلى ما وراءها ، وما فوقها ، والقصص القرآنى ، ولا سيما بما انطوى عليه من معجزات الأنبياء ، لا تؤمن به ، ولا تصدق بوقائعه . الطائفة التى لا تعرف إلا الحقيقة المادية ، أما الذين يستطيعون الوصول إلى « الحقيقة الروحية » ، ويطمئنون بها فأولئك لا يجدون صعوبة فى تصديق كل ما جاء به القرآن من أنباء الرسل وأحاديثهم بما فيها من حديث المعجزات ..

وهؤلاء أيضاً ، لا يهز يقينهم أن يقال لهم إن التاريخ المكتوب والمتداول ، لم يرو شيئاً عن بعض الأنبياء ، أو لم يرو بعض ما جاء فى كتاب الله العزيز ، عن هؤلاء الأنبياء عليهم سلام الله وصلاته ، لأنهم وقد آمنوا ، بما يتجاوز الكتب والوثائق ، آمنوا بالله العظم ، وهم لم يروه ، وآمنوا بالبعث والجنة

والنار ، ولا سبيل إلى إثباتها إلا بالبينة التي هي جزء من الحقيقة الروحية ، وأكبر عناصرها أي الإيمان بالغيب. فإيمان هؤلاء لا يستمد ولا يعتمد على كتاب مؤرخ أو كتب مؤرخين ، ولا لوثائق أو حفريات ، وهم لا يتبعونها ، وإن سمعوا بها ، التفتوا إليها ، لا لتزيدهم إيماناً ، بل لأنهم فطروا على حب المعرفة والتماسها من مصادرها .

وأحسب أن ما عنيته بالحقيقة الروحية ، قد أصبح واضحا ، ولم يعد ثمة ما يدعو إلى التساؤل عنها ، وعلى وجه أخص ، التساؤل عنها بما يوحي بالتشكك في بواعث التأمل فيها ، والإيمان بها معا .

ونحن – وإن كنا نكره كل مصادرة للبحث العلمي أو تضييق على الباحثين – إلا أننا لا نرى غناء أي غناء ، في البحوث التاريخية التي يجريها بعض العلماء لتحقيق بعض شخصيات القصص القرآني ، مهما حسنت النية ، وتوافرت وسائل البحث وأدواته ، فإن هذه البحوث في الأغلب الأعم تقوم على الفرض ، وكثيراً ما يكون الفرض أبعد ما يكون عن الحقيقة وهذا الفرض يغري المخالفين برده . وقد ينال الرسول الذي جعل تاريخه أو جانب من حياته ، موضوعا للتحقيق ، رذاذ من هذا الخلف العلمي ، وقد يغري بعض ذوي الغرض ، أن يجهروا بمثل نظرية « وللتوراة والقرآن أن يحدثانا عن إبراهيم عليه السلام » التي سمعنا بها في مصر في منتصف العقد الثالث من هذا القرن ليخرجوا من هذا الأفكار إلى نسبة التلفيق والاصطناع إلى خاتم النبيين والرسل ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنا بسبيل عرض المبحث الذي قام به العالم المسلم الهندي الكبير مولانا أبو الكلام أزاد ، وزير المعارف في حكومة الهند وهو البحث الذي قام به

لإثبات أن « ذا القرنين » هو « قوروش » العاهل الفارسى العظيم ، سنرى كيف شرق وغرب ، وكلف نفسه من الجهد ماكلف ، ثم لم يكسب المسلم من هذا كله شيئا ، كما أن العلم بالقرآن لم يزد قيد أنملة ، بعد هذا المبحث الدقيق ، وقد صرفنا عن هذا الفرض فى هذا الموضع من الكتاب ، ما رأيناه ضرورياً من تفسير بعض الذى تمخض فى قولنا عن القصة القرآنية « الحقيقة القرآنية » .

بقى أن نقول كلمة موجزة ، عما سقناه فيما سبق من أن فى القرآن قصة واحدة ، هى قصة « يوسف » ، وأن ما عدا ذلك مما جاء من أنباء الرسل ، وأحاديثهم وأخبارهم ، ليس من قبيل القصص ، وإن كان ككل القرآن القمة فى الإعجاز . وأول ما يجب أن يقال فى هذا الصدد ، أن هذا الذى ذهبنا إليه ، ليس سوى اجتهاد ، وهو بلا شك يحتمل الخطأ والصواب ، ولا شك أيضاً فى أن قبوله ، قد يحتاج من القارئ بعض الجهد ، لأننا درجنا على أن نعتبر كل ما جاء فى القرآن من أنباء الغيب ، أو أنباء الرسل ، هو قصص . ولكن لا يجوز أن يصدنا هذا الذى درجنا عليه عن أن نسمع الحجة المعارضة له ، وأن نزنها ، فإن رجحت أخذنا بها ، وإلا فليس ثمة ما يحول دون القول بردها ، وعدم الأخذ بها .

وثانى ما يجب أن يقال هو أن القرآن الكريم ، لن ينقص من قدره ، عند الناس جميعاً ، أن تكون فيه قصة واحدة ، ولا يزيد من هذا القدر ، أنه يحتوى على عشرين قصة ، فمقام القرآن ومكانته فى القلوب والعقول معاً ، مردها أنه كله من عند الله ، وأنه كلام البارئ المصور ، سبحانه وتعالى . فالقرآن لم تعن له الجباه ، ويذعن له المؤمنون لأنه احتوى مائة وأربع عشرة سورة ، ولا لأنه يتكون من ثلاثين جزءاً ، فهذه كلها تفاصيل

تذكر كحقائق عنه ، وكلها لا تزيده ولا تنقصه .

والقصص فى ذاته ، ليس سوى ضرب من الكلام ، لا يعلو على غيره ، وفيه – ككل كلام الناس – الجيد ، وفيه الخبيث ، وفيه الحسن وفيه الردىء، فليس هو طقساً من طقوس الدين ولا نسكاً من مناسك العبادة .

وقد لا أحتاج أن أقول إننى أتناول كل هذه المباحث القرآنية ، وقلبى ملىء بالحب للقرآن الكريم ، والذهاب فى تقديسه وتنزيهه كل مذهب والإعجاب الذى أوفى على الغاية ، بكل سوره بل آياته ، بل ألفاظه ، وبعد ذلك ، فلست ممن يتهيبون مواطن الاجتهاد ، مستعداً لاحتمال ضرائبه ، مستعيناً فى كل ذلك بالله العظيم .

وهذا المبحث ، قد أعددت له أكثر من فصل ، ولكن لا بأس أن نجمله هنا فى بضعة سطور .

فأولى الحجج ، هو أنه لم يرد فى القرآن الكريم عند ذكر أى من أنبياء الله ، لفظ القصة أو القصص إلا فى سورة يوسف ، وعند بداية حكايته عليه السلام مع أبيه وإخوته. فقد قال الله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » ثم جاء فى آخر السورة ذاتها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

أما فى المواطن الأخرى فقد استعمل القرآن الكريم ألفاظ « حديث ، وأحاديث ، وأنباء ونبأ ، وأخبار ، وذكر »

فعن موسى عليه السلام جاء فى سورة طه : « هل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا »

وفى النازعات : « هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى »

وفى القصص : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » .

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الحديث وأحاديث ، فى صدد إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الذاريات : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ثم فى البروج عن فرعون وثمود : « هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود »

أما لفظ « نبأ » فى مواضع كثيرة عن أكثر الأنبياء ، ففى سورة المائدة « واتل عليهم نبأ ابنى آدم إذ قربا قربانا » وفى سورة الأنعام : « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » ، وفى التوبة : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود» وقد جاء أيضاً : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى » وفى سورة إبراهيم : ألم يأتيكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود » وفى الشعراء « واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » وفى سورة ص : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » .

وجاء لفظ أنباء فى أكثر من موضع ، من ذلك فى سورة آل عمران « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » وفى سورة هود « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » وفى سورة هود أيضاً : ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » وفى سورة هود كذلك : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل » وفى سورة يوسف : ذلك من أنباء الغيب » وفى الأعراف : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » .

فكيف اتفق أن الحديث عن جميع الأنبياء – فيما عدا يوسف عليه

السلام – فى جميع المواضع من القرآن الكريم ، قد خلا من لفظة « القصص » ، فى حين أن هذا اللفظ « فى سورة يوسف » عند افتتاح الحديث عن حكايته عليه السلام ، وفى ختام السورة .

ثم كيف نعلل الظواهر الثلاث الآتية :

إن قصة يوسف عليه السلام ، استأثرت وحدها دون غيرها ، بسورة قائمة برأسها ، فى حين أنتثرت أنباء جميع الرسل الآخرين فى العديد من المواضع من القرآن الكريم وتوزعت على الكثير من السور .

إن يوسف عليه السلام لم يذكر شيء من أنبائه فى غير سورته ، وإن ورد اسمه فى موضع أو موضعين من القرآن ، دون أن يقترن بشيء من وقائع حياته .

إن سورة يوسف كادت تخلو خلواً تاماً من اسم أى نبى سواه ، وما ذكر شيء من وقائع جهاد الأنبياء الآخرين وما جرى بينهم وبين قومهم .

وهذه السورة التى اجتمعت فيها هذه الخصائص الثلاثة الملفتة حقاً للنظر ، هى وحدها التى استفتحت بلفظ القصص ، وختمت بهذا اللفظ .

أليس هذا كله دالاً على أن القصة التى وردت فى القرآن ، هى قصة يوسف ، وأن ما عداها إنما كان أحاديث عن الرسل ، أو أنباء من أنبائهم ، ولا يمنع أن يستعمل لفظ قص « بصيغة الماضى » وقص « بصيغة الأمر » فى صدد حكاية أو سرد أو ذكر الأنباء عن الرسل أو عن غيرهم ، كأن تقول قص النبأ أى اتله واذكره ، فالقص أصلا ، هو تتبع الشيء إلى أصله ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة القصص : « وقالت لأخته قصيه » أى قالت أم موسى لأخته تتبعى أثره .

وكذلك جاء فى القرآن لفظ اقصص فى مواضع مختلفة منها فى سورة يوسف : « قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك » وفى سورة النحل « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك » . وفى سورة النساء : « **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل** » وفى سورة الأعراف : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » فالرؤيا تقص ، والأنباء تقص ، والأحكام تقص ، وأعمال الرسل تقص . أو أسماؤهم تقص ، فالقص ، ليس مقصوراً على الرواية أو الحكاية أو القصة ، إنما يستعمل هذا اللفظ بمعنى – كما قلنا ، التلاوة والسرد ، والذكر وما إلى ذلك .

ولسنا بحاجة إلى القول بعد ذلك ، أن أنباء الرسل وأحاديثهم – وإن لم تأت فى القرآن الكريم فى صورة القصة ، إلا أنها قرآن من القرآن ، فهى لذلك وبغير حاجة إلى قول منا – هى ككل القرآن ، معجزة لا يلحق بها أدب كاتب ولا بيان قاص ، مهما بلغ من القدرة على الكلام ، ومهما أفاء الله عليه من براعة القول ، وبلاغة العبارة .

وواضح أن ما توافر لقصة يوسف عليه السلام ، لا من حيث اكتمالها فى موضع واحد من القرآن فقط ، الأمر الذى لم يجتمع لغيرها من أنباء الرسل ، بل إن الوقائع اتصلت فيها ، اتصالا بدأ بمقدمة أحداثها ، وانتهى بخاتمتها ، بحيث يستطيع قارئها أو سامعها ، أن يعرف كل حدث وتطوره ، وكل شخصية ودورها ، دون أن يقطع السياق ، أحداث قصة أو نبأ سواها ، ودون أن يتخللها ، تعليق طويل على مجرياتها ، يستخلص العبرة منها ، فى حين أن أنباء موسى عليه السلام ، يذكر منها جانب ، ثم ينقطع الكلام ، وينتقل تماماً إلى غيرها ، ثم يأتى جانب آخر فى موضع

آخر من القرآن الكريم ، وقد يكون هذا الجانب ، هو نفس ما ذكر فى سورة سابقة . أو جانب جديد تماماً ، ثم يحدث معه ، مثل ما حدث مع غيره ، إذ ينقطع الحديث تماماً وهكذا .

أما قصة أهل الكهف التى وردت فى موضع واحد من القرآن الكريم ولم يتكرر إيرادها فيه ، فى غير سورة الكهف فهى فى واقع الأمر ، نبأ ، ذكر جملة واحدة ، ولم يرد فى شأنه من التفصيل ، ما ورد فى سورة يوسف ، من التطور ، والاتساع ، وما توالى خلال وقائعها من المفاجآت ، وما تولته أحداثها من بيان مواقف أبطال الواقعة الأمر الذى كان واضحاً غاية الوضوح فى قصة يوسف ، فقد كان لوالد يوسف « يعقوب » عليه السلام موقف من ولديه يوسف وأخيه بنيامين ، وموقف بين سائر أولاده ، كما كان ليوسف مواقف تبرز شخصيته ، ومسلكه وعقيدته ، وكان لإخوة يوسف موقف واضح ، واتسعت رقعة الواقعة بدخول العزيز وامرأته وأهلها وأصدقائها ، وبدخول يوسف السجن والرؤيا التى رآها العزيز وهكذا ، مما يحتاج بنا إلى تفصيل نورده بإذن الله فى موضعه من البحث . ولست واجداً شيئاً من هذا لا فى الكهف ولا فى أنباء ذى القرنين ، مما يدخلها بلا شبهة فى نطاق الأنباء ، وإن كانت تنطوى على نواة القصة ، ولكن كتاب الله العزيز أوردها موجزة لتؤدى الغاية منها فى موضعها من السورة ، فأدتها على الوجه الذى يتناسب مع قدرة الله العظيم .

* * *

القصص القرآنى ، هو جزء من القرآن ، يجرى عليه ، ما يجرى على سائر

القرآن ، من حيث كونه كلام الله ، المنزل بنصه وحرفه على نبيه المرسل ، بقصد هداية الناس إلى دينه القويم ، دين التوحيد . ومن ثم فإن أكثر الذين يتناولون الحديث عن القصص القرآنى ، يرون أنفسهم مسوقين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، إلى إثبات صدق ما جاء فى هذا القصص ، وانطباقه على الواقع ، ثم إلى القول بأن القرآن فيما رواه من وقائع وأحداث القصص التى جاءت فيه ، وثيقة تاريخية أو أن هذه القصص صحيحة تاريخيًّا .

وقد يكون الدافع الأقوى إلى هذا التأكيد ، أن كتب التاريخ المعروفة والمتداولة بين أيدى الناس القديمة والحديثة كما سبق القول كادت تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى أسماء الرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن ، وبالتالى من الأحداث والوقائع ، التى ذكرت مع أسمائهم . فلم يظفر إبراهيم ولا نوح ولا لوط ولا موسى ولا عيسى أو زكريا ويحيي عليهم جميعاً السلام بمجرد الإشارة إليهم فى صحف المؤرخين المعاصرين لهم أو الذين أرخوا فى القديم لعهودهم . فهل يكفى خلو هذه الكتب القديمة ، من أسماء هؤلاء الأنبياء للقول بأنها أسماء ملفقة ، لأساطير قديمة تناقلها القدماء ، حتى وصلت إلى الأزمنة التى عرف الناس فيها الكتب المقدسة ؟ وهل احتضنت الكتب السماوية أساطير الأولين ، كما كان يقول كفار مكة ، لأغراض سياسية هى نشر الدين الجديد ، واستمالة الجماهير إليه ، ليتيسر لهذه العقيدة الناشئة أن تواجه سلطة الحاكم وبطشه ؟

هذا ما ذهب إليه فعلا ، مفكرون وكتاب ومؤرخون فى الغرب ، ولا سيما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن فى جانب آخر ،

قال كتاب ومفكرون ومؤرخون فى الغرب والشرق ، إن ما ورد فى الكتب المقدسة عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه ، هو الحقيقة بعينها ، ولما كانت الحقائق التى تتصل بوقائع الحياة الإنسانية وتطورها فى مختلف دروب نشاط الإنسان فى مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع . لها مستودع معروف ومتفق عليه ، هو التاريخ ، فقد قالوا إن ما ورد فى الكتب المقدسة ، ومنها القرآن الكريم ، والقرآن الكريم على وجه خاص ، هى وقائع تاريخية . وهم يحسبون أنهم بهذا يصفون على وقائع القصص القرآنى وأنباء وأحاديث الرسل فيه ، صفة الصدق العلمى . وهذا وهم عظيم ، لابد لنا أن نبدده ، لكى نخلص إلى حقيقة العلاقة بين القصص فى القرآن ، والتاريخ .

ويجمل بى أن أقول ، إن استعمالى لفظى « القصص القرآنى » ليس تسليماً منى ، بأن فى القرآن أكثر من قصة ، ولكنى أستعملهما من قبيل التبسيط والتيسير ، حتى نصل إلى بيت القصيد من هذا البحث .

وأول ما نحب أن نبادر إليه ، هو أن الواقعة التاريخية ، والواقعة الصحيحة ، ليستا شيئاً واحداً ، يعنى أنه ليس يكفى أن ترد الواقعة فى التاريخ ، ليكون ذلك شهادة لها ، بأنها صحيحة ، أى أنها وقعت فعلا ، أو وقعت فعلا فى الوقت الذى حدده التاريخ الذى أوردها ، أو وقعت فعلا فى المكان الذى ذكره التاريخ ، وعلى الوجه الذى أورده هذا التاريخ . وبعبارة أكثر صراحة إن كثيراً من الوقائع التاريخية ، هى وقائع متوهمة ، وليست صحيحة ، وقد يكون بعض عناصرها صحيحاً ، ولكن لا يمنع هذا ، أن يدخل على هذه العناصر ، الكثير من شوائب المبالغة أو التحريف أو

التنقص ، حتى تستحيل الواقعة الصحيحة ، شيئاً آخر ، يخالف الواقع مخالفة كلية .

ولكيلا يبدو هذا الكلام من جانبنا ، إلقاء للقول على عواهنه ، سنكل الأمر إلى أستاذ من أساتذة التاريخ ، هو الأستاذ « إدوارد هاليت كار » صاحب كتاب « ما هو التاريخ » فقد نقل هذا العالم الكبير ، عن الأستاذ « بركلاد » فى كتابه التاريخ فى عالم متغير : إن التاريخ الذى نقرأه ، وإن كان يعتمد على حقائق ، إذا تكلمنا بدقة ، ليس حقيقياً على الإطلاق ، بل هو سلسلة من الأحكام المقبولة » .

وفى موقع آخر من كتابه يقول : لقد أتم القرن التاسع عشر عبادة الوقائع السحرية ، كانت الوثائق تابوت العهد فى معبد الوقائع . وكان المؤرخ الموقر ، يقترب من تلك الوثائق ، وهو يحنى الرأس ويتكلم عنها فى صوت يدل على الخشوع والرهبة . فالشيء صحيح ما دمت قد عثرت عليه فى الوثائق ، ولكن ما الذى تذكره لنا هذه الوثائق — القوانين المعاهدات والقوائم والكتب الحكومية المسماة بالزرقاء والبيضاء] والمراسلات الرسمية والخطابات الشخصية واليوميات ؟ لا تستطيع الوثيقة [أياً كان محررها] أن تذكر لنا شيئاً أكثر مما اعتقده مؤلفها ، أى ما اعتقد أنه حدث ، وما اعتقد أنه ينبغى أن يحدث وقد يحدث . . أو ربما فقط ما أراد أن يعتقده الناس ، أو الذى اعتقد أنه اعتقده . ولا يعنى أى شيء من كل هذا شيئاً ، حتى يبدأ المؤرخ ويحاول حل رموز الوثيقة » .

وينقل الأستاذ [إدوارد كار] عن مؤرخ عظيم آخر ، كان يعتبر حجة جامعة إكسفورد البريطانية :

إن فلسفة التاريخ لا تعنى [بالماضى فى ذاته] أو بفكر المؤرخ ذاته عن هذا الماضى ، ولكنها تعنى بالشيئين فى صلتهما المتبادلة . . إن الماضى الذى يدرسه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً ، بل هو ماض بمعنى ما ، ولكن لا يزال يحيا فى الحاضر . . ولكن أى فعل ماض ، يكون ميتاً ، أى لا يعنى شيئاً للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراء هذا الفعل . . ومن ثم فإن « كل تاريخ ، هو تاريخ فكر . والتاريخ فى الواقع هو إعادة تمثل فى عقل المؤرخ الفكر وراء التاريخ الذى يقوم بدراسته ، إن إعادة بناء الماضى فى ذهن المؤرخ تعتمد على البينة التجريبية ولا يمكن أن تتكون من مجرد استعادة للوقائع . والأمر على العكس فإن عملية إعادة البناء تتحكم فى انتقاء الوقائع وتفسيرها ، وهذا بحق هو الذى يجعلها وقائع تاريخية . ويقول الأستاذ أوكيشوت : التاريخ هو تجربة المؤرخ ، فلا أحد يصنع التاريخ غير المؤرخ ، إن كتاب المؤرخ هو الطريقة الوحيدة لإنشائه » .

ثم يزيد هذا المعنى وضوحاً :

« إن وقائع التاريخ لا تأتى لنا أبداً « خالصة » ، لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد فى صورة خالصة . إنها دائماً منعكسة فى عقل من قام بتسجيلها ، ويتبع ذلك أننا عندما ننظر إلى أى عمل من أعمال التاريخ ، فإن أول ما يهمنا يجب ألا ينصب على الوقائع التى تحتويه ، بل على المؤرخ الذى قام بكتابته » .

ثم ختم كلامه بقوله :

« والمؤرخ يبدأ بطائفة منتقاة مؤقتة من الوقائع ، وتفسير مؤقت ، وبتقدم البحث يصادف كلاً من التفسير الانتقائى وترتيب الوقائع ،

تغييرات خفية ، وربما كان لها جانب لا شعورى ، وذلك من التأثير المتبادل لعامل أو آخر . ويتضمن هذا الفعل المتبادل كذلك التأثير المتبادل بين الحاضر والماضى ، لأن المؤرخ جزء من الحاضر والوقائع تنتمى إلى الماضى . والمؤرخ ضرورى لوقائع التاريخ ، كما أنها ضرورية له ، وهو بغير وقائع فاقد الجذور عديم الجدوى ، والوقائع بغير مؤرخها ميتة وبلا معنى » .

والوقوف أمام المعانى التى انتهى إليها المؤرخ الكبير [إدوارد هالت كار] يعيننا على البحث فى صلة وقائع القصص القرآنى بالتاريخ ولذلك يحسن بنا أن نحلل هذه المعانى .

وأول ما أراد « كار » أن يلفت نظرنا إليه ، هو أن ليس كل ما يقع فى حياة الأمم والجماعات ، ما يستوقف نظر من يكتب تاريخ هذه الأمم والجماعات ، فإن المؤرخ ينتقى من الوقائع ما يروقه .

وإن انتقاء المؤرخ للوقائع خاضع لمعتقدات المؤرخ ، ولظروف زمانه وبيئته ، فإذا كان المؤرخ متديناً ، جمع من الوقائع ، عدداً منها ، ونسقها على وجه يثبت أن للدين أثراً بارزاً فى توجيه الوقائع ، وحفز الناس إلى العمل . وإذا كانت ظروف العصر الذى يعيش فيه المؤرخ ، داعية إلى الاهتمام إلى جانب بذاته من الحياة العامة ، ولنفرض على سبيل المثال الصراع بين الملك والأشراف ، وحول حقوق الشعب فى الاشتراك فى الحكم ، أو فى الصراع بين الفلاحين وكبار الأغنياء ، أو ظهور قوة العمال ووقوفهم فى وجه السلطة ، فإن نظر المؤرخ ، يقع من حيث يدرى أو من حيث لا يدرى على وقائع بذاتها من الوقائع التى تفرض نفسها عليه ، فيختارها لتؤيد وجهة نظره ، وهو لا يقنع بالاختيار ، وإنما يفعل فوق ذلك التنسيق

الذى يؤدى إلى هذه النتيجة .

وخلاصة الرأى ، أن واقعة ما ، لا تكون واقعة تاريخية ، بمجرد حدوثها ، وهى لا تظفر بهذا الاسم ، أو المرتبة ، لكونها حقيقية وغير مفتراة ، بل يجب إلى جانب صحتها وخلوها من الزيف والاختلاق ، أن تروق فى نظر مؤرخ ، وهى لا تروق فى نظره ، إلا إذا كانت تخدم معتقداته ، ونظرته للأمور . وهو بهذا التأثر لا يعنى تزييف التاريخ ، وما يختاره ، واقع لا شبهة فى صدقه . ولكن هذا الواقع لا تجد له صدى عند مؤلف مؤرخ آخر ، لا يقل صدقا ولا أمانة من الأول . ولقد أحسن [كار] حين قال إن الماضى ، يصوغه الحاضر ، ذلك لأن هذا الماضى بوقائعه يبقى ميتاً حتى يجد المؤرخ الذى يدخله فى سياق وقائعه المختارة ، وينسقه فى ترتيب ، يرضيه .

قد ذكر [كار] فى هذا الصدد معنى طريفاً نقله عن المؤلف المسرحى الإيطالى [بير انديلو] ، فقد قال [بير انديلو] إن الوقائع كالأكياس أو الزكائب ، لا تنهض وحدها ، بل يجب أن تملأبشىء لتقف . فإذا أخليتها مما فيها ، هبطت إلى الأرض ، والتصقت . فالوقائع تجرى فى الحياة ، ، متتابعة وكثيرة ، ولكنها لا تلبث أن تسقط فى الأرض ، كالطيور التى أنهكتها رحلة طويلة ، فما لم تمتد إليها يد لترفعها ، تختفى عن الأنظار ، وتنسى .

فالمؤرخ هو فى الواقع ، صانع التاريخ ، وخالق وقائع ، وإن كان لا يفترى هذه الوقائع ، ولا يصنعها . والكلام هنا كله على المؤرخين الصادقين الأمناء ، وليس معنى هذا أن كل المؤرخين من هذا الطراز ،

وقد يكون صحيحاً ما قاله المؤرخ [سكوت] بأن أى صحفى يعلم اليوم بأن أفضل السبل للتأثير على الرأى العام هو انتقاء الوقائع المناسبة وتنظيمها ، ولكن هذا الكلام الصحيح ، ينقصه أن الوقائع المختارة والمنسقة ، لابد أن يكون من ورائها فكر معين يدعو إلى هذا الاختيار وإلى ذلك التنسيق ، بمعنى أن الوقائع لا تتحدث عن نفسها ، وإنما تتحدث حينما يدعوها المؤرخ إلى هذا الحديث ، والصحفى . وإن كان يكتب عن وقائع اليوم لأبناء اليوم ، إلا أنه فى الواقع مؤرخ ، لأن الوقائع تحيا وتموت بقرار منه ، فسيرتها عنه ، مؤرخون يصنفون البحوث الجادة ، ولا يقصدون تلهية القراء .

وقد ضرب [كار] مثلا فقال : إن المؤرخ هو الذى يقرر لأسبابه الخاصة أن عبور قيصر لقناة [الروبيكون] الصغيرة ، هو واقعة للتاريخ ، بينما لا يثير عبور الملايين من الناس لهذه القناة نفسها ، فى نفسه ولا فى نفس الآخرين أى شعور بالاهتمام .

وإذا اتضحت لنا هذه الحقائق ، وهى فى واقع الأمر حقائق ، استطعنا أن نتكلم باطمئنان أعظم ، ومعرفة أوثق ، عن تاريخ الأنبياء بعامة ، وعن وقائع القصص فى القرآن بخاصة ، دون أن نتكلف جهداً خاصاً ، لنثبت أن ما جاء فى القرآن ، أو فى قصص الأنبياء ، هو حقيقى تاريخياً ، وأن نفسر - بلا جزع - لماذا سكت التاريخ الرسمى ، عن ذكر شىء مطلقاً ، أو شىء ذى قيمة عن موسى وعيسى ويوسف وعن إبراهيم عليهم السلام .

ثم لنتحدث عن صلة هذا القصص القرآنى بالتاريخ ، أو ماذا ينبغى أن تكون نظرتنا إلى هذه العلاقة .

ولنتخذ من تاريخ السيد المسيح ، نموذجاً تطبيقياً للمبادئ التى قررناها فيما سلف .

يقول الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « حياة المسيح »

« إن القرن الثامن عشر ، قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق ، فى مقررات العلم القديم ، ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الأنبياء والمرسلين ، وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا ، كما شكوا فى إبراهيم وموسى وعيسى . .

وقد زار فولتير – إمام الشاكين – بلاد الإنجليز فوجد هناك مدرسة « لنجيروك » تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح وكان نابليون يسأل العالم الألمانى « ويلاند » هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى ، وجد ، كما وصفوه ؟ » .

« وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والإنجليز ، يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال » .

« ونحن نجتزئ بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره ، والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم ، وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض .

« أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس وتاسيتس وسويتنوس وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن آياته .

« نعم ، وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس ، إشارة مقتضبة إلى [عيسى القديس] ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه ، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام [يوسفوس] على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يتعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين ، فيقول إنه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس – إن جاز أن يسمى إنساناً – بعد ما أوتى به من المعجزات البينات وعلم الناس ، وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والإغريق وكان هو المسيح » .

ويورد الأستاذ العقاد عليه رحمة الله ، تعليقا للقس [هورن] مؤلف كتاب « الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » على هذا الكلام يقول فيه إن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وأن العبارة نفسها موجودة فى النسخة العربية التى تحتفظ بها الطائفة المارونية فى لبنان ، وأن يوسفوس أشار فى تاريخه فى موضع آخر إلى المسيح ، إذ قال « حنانا [كبير أحبار اليهود] جمع السنهدرين [المجمع اليهودى المقدس] وأحضر

أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » انتهى كلام العقاد .

ثم قال هورن إن أول من استشهد بعبارة [يوسفوس] المشار إليها هو [أوسيباس] ولو كان قد اختلقها ، لما عدم ناقداً فى عهده ، يكشف دسه هذه العبارة على الأصل ، وإذا كان قد تأخر الاستشهاد بهذه العبارة حتى جاء [أوسيباس] فذلك لأن المؤرخين المسيحيين الذين جاءوا قبل [أوسيباس] لم يشعروا بالحاجة إلى إثبات وجود عيسى عليه السلام لأن وجوده كان عندهم حقيقة لا تقبل النقض ولا تدعو إلى المناقشة .

أما [تاسيتس] المؤرخ الرومانى فلم يذكر اسم المسيح عليه السلام إلا مقروناً بوقائع لا ترجع إلى أقدم من سنة ٦٤ ميلادية بمعنى أنه لم يشر إلى ميلاده ، ولا إلى بدء دعوته ، ولا إلى محاكمته ، كما لم يشر المؤرخ [سوتنيوس] إلى السيد المسيح ذاته ، وإنما أورد إشارة غامضة فى سياق تاريخه لقيصر [كلوديس] إلى اتباع رجل يلقب بكريستس [أى المسيح] .

أما المؤرخون اليهود مثل فيلون والمؤرخ [جستين الطبرى] الذين عاشوا فى عهد المسيح عليه السلام فلم يشيروا إليه بحرف .

وقد أورد [أرنست رينان] الفيلسوف الفرنسى الحديث ، فى مقدمة كتاب [حياة عيسى] أن [يوسفوس] المؤرخ اليهودى لم يرد أن يذكر شيئاً عن حركة السيد المسيح ودعوته ، لأنه كان يكتب لوثنيين . وكان يعلم أن حديثاً من هذا القبيل لا يهمهم ولا يمتعهم .

كما يضيف [رينان] ملحوظة أخرى خلاصتها أن القول بأن شخصية

المسيح أسطورية ، أى غير حقيقية ، لاقترانها بأمور خارقة للطبيعة ، ويرد عليه بأن اقتران الخوارق والعجائب بشخصية ما ، لا يعنى أنها لم توجد ، فقد اقترنت الخوارق بشخصية [فرانسيس دا أسيسى] مؤسس جماعة الفرنسيسكان ومع ذلك ، فإن فرانسيس شخصية حقيقية لا جدال فى أنها وجدت وعاشت وأن الناس شهدوا صاحبها وسمعوه وتأثروا به ، ورووا تاريخه رواية صادقة .

وقد نضيف إلى اسم هذا القديس [جان دارك] التى تعتبر شخصية [تاريخية] بالمعنى الذى حددناه فيما سلف ، لأن التاريخ العام ، يروى وقائع حياتها ، ويرتب على جهادها ، وأعمالها ، نتائج سياسية دنيوية ، ومع ذلك فقد اقترن اسمها وشخصها بمعجزات فى دنيا الحرب والسياسية فى دنيا الوجدان والتجليات الروحية على السواء .

ويتعرض المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه : قصص الأنبياء ، لنفس القضية ولكن بمناسبة الحديث عن إبراهيم عليه السلام فيقول : يريد بعض الناس أن ينفى العرب عن إبراهيم وإسماعيل فيتذرع إلى ذلك بنفى وجود إبراهيم وإسماعيل تاريخياً بمعنى أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى يدعى لهما من يدون التاريخ ويسطر أحواله . ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب عن إبراهيم وإسماعيل لا ينفى أنهما وردا سجل الحياة ، فإن الجد الذى يكمل العشرة من أجدادى ، لم أعلم اسمه ، ولم يسجله تاريخ ، فهل معنى ذلك أن ليس لى جد عاشر .

ثم يضيف . . يقولون إن وجود إبراهيم وإسماعيل هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة ، ليتقربوا إلى العرب المسلمين ، وهذا القول حجة داحضة .

لأن مسألة إسماعيل موجودة فى سفر التكوين من أسفار التوراة ، وقد ترجم فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية فى عصر بطليموس فيلادلف – وهو بطليموس الثانى – فى الترجمة المشهورة بالسبعينية التى قام على ترجمتها بالإسكندرية سبعون حبراً من أحبار اليهود ، وذلك قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم بسبعة قرون »

ويرد المرحوم الأستاذ العقاد بحجج مشابهة فيقول :

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولا لوجود المسيحية بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فإن التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية السيد المسيح التاريخية . وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخه ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المسيحية ومن المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة » .

ولست أرى فى كل هذا حجة مقنعة ، فقول الشيخ عبد الوهاب النجار ، إن جده العاشر لم يؤرخ له أحد ، ومع ذلك ، فإنه ولد ، ثم رزق الأولاد ، وعاش بلا شبهة ، فالرد عليه بأن جد الشيخ لم يحى الموتى ، ولم يبرئ الأكمه ، ولم يدع إلى دين جديد ولم يتخذ السلطات ، ولم يجب القفار ويعبر الصحارى وينتقل من بلد إلى بلد ، متصلا بالأحداث الدينية والتطورات الاجتماعية فى عهده ، وعلى مدى واسع من الأرض ، فإذا أغفله المؤرخ ، فلا غرابة فى ذلك ، ولكن الغريب أن يكون صاحب دعوة وأن يكون لدعوته ، بعد وفاته ، شأن كبير ، ويسكت التاريخ عن

ذكره أو الإشارة إليه ، بما يتناسب مع دعوته من الأهمية والخطر .

وليس أساس الاحتجاج على قول القائل بوجود إبراهيم عليه السلام أنه لم يكن هناك مؤرخون يؤرخون لعهده بل إن هناك تاريخاً لهذا العهد كتب فى كتب المؤرخين ، أو على جدران المعابد ، أو فى أوراق البردى ، لا نجد للأنبياء فيها ذكراً ، فالتاريخ روى وقائع حقب ترجع إلى ما هو أقدم من عهد إبراهيم فلم سكت هذا التاريخ ذاته ، عن ذكر إبراهيم ورحلاته وتنقلاته وأسفاره وزوجاته ؟

ولكن الأستاذ العقاد قال بعد ذلك ما نراه التعليل الصحيح ، لإغفال المؤرخين لذكر المسيح عليه السلام ، أو لعدم الإشارة إليه وإلى وقائع حياته باستفاضة ، فقد قال :

« وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين [عن الحديث عن نشوء المسيحية] على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الأناجيل جميعاً غير ثلاث مرات . .

« جملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحية ، وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها » .

وقد قال الكاتب اليهودى [أميل لدفيج] فى كتابه عن حياة السيد المسيح المعنون « ابن الإنسان » : هل يمكن أن تكون ثمة صورة أشق على المصورين من الصورة التى أنا بصددها . إذ علينا أن نصور رجلا نجهل فى الواقع كل ما يتصل به حتى بلغ الثلاثين من عمره ، وكان أكثر ما جهلناه مظهره الخارجى ، وصورة نفسه ، فى حين أن السنتين أو نحو ذلك اللتين سبقتا وفاته المبكرة ، تتضارب بشأنها مصادر الحقائق ، فى أكثر من موضع ، وفى بعض المواضع تتعارض هذه الحقائق ، مع ما تقوله المصادر غير المسيحية ، وفوق ذلك فإن هناك فوضى فى ترتيب الوقائع وسياقها ، الأمر الذى كان محلا للتعبير عن الأسف طوال القرون ، وآخر الأمر ليس لدينا من تقارير عما يتجاوز البداية والنهاية : [فى حياة عيسى] التعميد والمحاكمة ، أما ما بينها ، فهو الفوضى بعينها وقد كتب لوثر أن الأناجيل الأربعة لا تلتزم سياقا واحداً فى إيراد معجزات وأعمال عيسى . وقد لا يكون هذا كبير الأهمية . وحينما تكون هناك مناقشة حول النص المقدس ، فإنه لا مجال للمقارنة ، وعندها يتعين إسقاط المحاولة ، محاولة مقارنة النص موضوع الجدل بغيره ، إذ لا يوجد ما تجرى على أساسه المقارنة .

وهذا وحده يعطينا فكرة عن الصعوبة التى يجدها المؤرخ ، فى الحصول على حقائق تتصل بشخص رسول ، انقضى على تاريخ دعوته نحو ألفين من السنين أما فى أيامه حيث تسود الأمية ، وتفشو الأغراض والمخاوف ، وتسود الرغبة فى تصديق ما تروجه السلطات ، وتنعدم الرغبة فى تسجيل التاريخ ، وتبدد الحركات فى بدايتها ، إما عبثاً لا معنى له ، ولا نفع فيه ، وإما مجازفة بالحياة والمال ، لا تستأهل البذل فى سبيلها ، أو الالتفات إليها

ولكن كل هذه اعتبارات عملية ، أما الأصل المجرد الذى نود أن نرد إليه كل الأمور ، فهو أن التاريخ هو عملية انتقاء واختيار ، وأن التاريخ لا تصنعه الوقائع ، بل يصنعه المؤرخ . وأن تفسير المؤرخ ، وتحليله ، وتبويبه واستنتاجه ، هو الذى يعطى للتاريخ مادته ، ولونه ، ومذاقه ، ولكل مؤرخ وسائله فى تحصيل الوقائع ، وفرزها وتبويبها وتنسيقها ، واستخراج المعانى والمدلولات منها . وكما يختلف المنهج بين مؤرخ ومؤرخ ، فكذلك يختلف المؤرخون فيما بينهم بسبب العهود التى ينتسبون إليها ، فإنهم يختلفون أيضا بفضل انتماءاتهم الفكرية والمذهبية . ومن هنا كانت المناهج التى تناقش بها الحقائق والوقائع فى حياة الشخصيات الدينية ، وشخصيات القصص القرآنى ، يجب أن تختلف عن المناهج التى لها شخصيات التاريخ العام .

ويتفرع عن هذه المقدمة ، أن الشخصية الدينية لها إلى جانب الوجود المادى الذى يعنى به التاريخ العام ، والذى تتمثل فى الميلاد والوفاة ، والموطن والعمر ، والمظهر والمزاج ، والعلاقات الشخصية ، وجود روحى ، تتمثل فى الفكرة والدعوة والأثر فى الناس ، توجيهاً وتغييراً ، وإلهاماً . فالشخصية الدينية لا تكسب قليلا أو كثيراً من إحاطة المؤرخ أو الناس ، بمظاهرها المادية ، وعلاقاتها الدنيوية ، لأنها موجودة ، فى الفكر الذى دعت إليه ، وفى العقيدة التى بعثتها وفى التطورات التى أدخلتها فى حياة الأفراد والجماعات والأمم . ولو فرضنا جدلاً – والفرض جدلى بحت – أن أنبياء الله ، الذين نعرف أسماءهم فقط كإبراهيم وموسى وهارون وعيسى ، ثبت قطعيًّا أنهم لم يولدوا ولم يعيشوا ، فإن هذا لن ينقص من أثرهم فى حياة

الأمم التى تأثرت بهم ، وآمنت بالعقائد التى نسبت إليهم ، فقد استحالوا إلى عقيدة وإيمان ، علا علواً عظيماً على أجسادهم وأعمارهم ، وما يكون قوام حياة الآخرين من الزعماء والقادة ، وما لا يمكن تصور هؤلاء الآخرين بغير الوقوف عليه ، والتأمل فيه .

فالصلة بين الواقعة التاريخية ، والحقيقة الروحية مقطوعة ، لأن لكلٍّ منهما قانونه الخاص ، إذ لكل منهما وظيفة خاصة ، ورسالة متميزة ، والواقعة التاريخية لبنة من بناء يصنعه عقل إنسان ليفسر به جانباً من حياة طائفة من الناس ، لفترة محدودة ، فى حين أن الواقعة القرآنية ، تعلو على الزمان ، والمكان ، ولا تتمثل فى صورة إنسان ، وإنما فى فكرة ، ومن هنا ، تخلو من مقومات الواقعة التاريخية ، من هنا أيضاً لا يمكن أن تجرى بينها مقارنة – إذ ليس بينهما مشابهة –

خصائص القصة القرآنية

يتسم منهج القرآن الكريم فى إيراد أخبار الأنبياء ، وأحاديثهم ، وأنباء الأمم القديمة والصالحين من عباد الله ، وبعض ما وقع فى الماضى مما يحمل دلالات على أن سنة الله ، التى تقضى بغلبة الحق ، وهزيمة الباطل ، هى سنة ثابتة يتسم هذا المنهج بسمات ، لا تخطئها العين ، التى تقرأ القرآن ، بروح المتأمل المتدبر.

وسنورد هنا الخصائص البارزة فى هذا المنهج ، ونتبعها بإذنه تعالى بما عداها من خصائص ، وأوضحها جميعاً .

أولا : إن القرآن الكريم ، لا يعرف بالشخصيات ، التى يدور حولها كلامه .

ثانيا : إنه يجرد كلامه تعالى من الزمان والمكان .

ثالثاً : إنه يصطنع أسلوباً من الإيجاز التام الذى لا نعرف له نظيراً فى آثار الأمم الأخرى : مهما سمت مكانتها البيانية .

وابعا : وحدة الغاية فى كل ما ورد فى القرآن من أنباء وأخبار وأحاديث وذكر.

أولاً : الشخصيات فى أخبار القرآن الكريم .

الشخصية فى القصة ، وفى النبأ أو الخبر أو الحديث ، هى ركن الزاوية . يقوم البناء عليها ، ويدور الكلام حولها ، وتتفاعل مع الحوادث ،

فتزيدها الحوادث وضوحاً ، وتمنحها قوة وطرافة وإثارة ، وتمنح بدورها هي الوقائع ، حيوية ومتعة وتضفي عليها رداء وجمالا . وليست هناك قصة بلا شخصية حتى ولو كانت من قصص الرمز ، أو كانت من حكايات الحيوانات أو الجمادات ، تروى للأطفال ، أو تنسج على منوال الأساطير القديمة ، التي تنطق فيها الشجرة ، ويتكلم البحر ، وتحكى العصفورة أو القطة .

وأساليب الرواة والقصاصين تتباين وتختلف فى تقديم شخصيات حكاياتهم أو أنبائهم أوتراجمهم الواقعية أو المتخيلة ، المنسوجة من وقائع التاريخ ، أو من وحى الإبداع . فمنهم من يبدأ بشخصية الحكاية أو الخبر ، منذ مولدها . ويقدمها للقارئ أو السامع . خطوة فخطوة وجيلا بعد جيل ، ويتابعها ، تنمو وتكبر ، وتتسع علاقاتها ، وتتشابك روابطها : حتى تصل إلى قمة القصة ، ثم تنحدر إما إلى المشيب والضعف والموت ، وإما إلى الأفول والذبول والاختفاء .

ومنهم من يدع الحوادث نفسها تروى قصة البطل ، حتى يخيل إليك أنه لا يشغل دوراً كبيراً فيها ، ولا تزال الوقائع تتتابع وتتوالى ، حتى نعرف منها هذا البطل ، وصفاته وخصائصه ، دون أن يذكر القاص أو الراوى ، هذه الصفات والخصائص ، وصفاً أو ذكراً مباشراً ، فلا يقول شيئاً عن طوله أوقصره ، أو بياضه أوسواده ، أوغناه أوفقره ، أوثرثرته أوصمته ، بل يترك هذه المهمة لمجريات روايته تكشف لنا عن مزاياه ونقائصه ، وأسلوبه فى الوقفة ، مظهره وملبسه ميوله ونزواته . .

ومنهم من يقدم لنا شخصيات حكايته دفعة واحدة ثم يتركهم يحيون

حياتهم ، ويتحاربون ويتصارعون ، فنرى من حبهم وبغضهم ، وصراعهم وقتالهم ، جوانب من شخصياتهم ، تكاد تخالف كل ما قدمهم به إلينا ، وكان صاحب الحكاية يقول ، لقد قدمت لكم ظاهر هؤلاء ، ذكرت الأسماء والتواريخ والصنائع وعدد الأولاد ، ومقدار الثروة ، والمكانة فى المجتمع ، لتعرفوا بعد ذلك أن هذا كله لا يعرف بالإنسان : ولا يكشف عن حقيقته ، وإنما هو كوثائق الميلاد والزواج والوفاة ، مجرد أوراق ، لا تنبض فيها حياة ، ولا تقوم بها شخصية امرأة أو رجل .

فإذا قارنا هذه الأساليب جميعاً بأسلوب القرآن الكريم ، وجدنا أنه أسلوب قائم بذاته ، لا يمت إليها جميعاً بسبب ، ولا يشبهها من قريب أو بعيد ، فهو يذكر من يدور حوله الحديث ، دون أن يقرنه ببلد ، أو بزمن ، أو أن يضيف إليه شيئاً غير هذا الاسم ، ثم يمضى فى قص ما يريد أن يقصه ، دون أن ينال هذا القص ، ضعف أو غموض ، بسبب ما أغفله القرآن الكريم مما تعارف القصاصون والرواة فى القديم والحديث من حقائق أو تفاصيل .

فالقرآن الكريم ، حينما يذكر فقط الاسم الذى يروى شيئا عن صاحبه ، يعنى واحداً من ثلاثة أمور :

١ — يعنى إما أن الناس تعرف صاحب الاسم فلا حاجة إلى التعريف به .

٢ — وإما أن الناس ستعرف عنه ما يجب أن تعرفه مما سيذكره القرآن الكريم ، وهذا القدر حسبهم فى تحقيق الغاية من القصة أو الخبر .

٣ — وإما أنه لا ضرورة لأن تعرف عنه شيئاً حتى ولا اسمه ، لأن ذلك ، لا معنى له ، ولا نفع منه .

ولنورد فيما يلى أمثلة على هذه الأساليب الثلاثة . فى الحالة الأولى ، لا يتصور أن يكون آدم أو نوح أو موسى أو عيسى ممن يحتاج القرآن الكريم إلى التعريف بهم ، ولذلك فهو يذكرهم ، ويروى أنباءهم ، وما كان منهم ، دون أن يتوقف ، ليقول من هؤلاء جميعاً ، ومتى ولدوا ، وأين نشأوا ، ومن تزوجوا ، وكم من الأولاد رزقوا ، ما هى خصائصهم البدنية ، وصفتهم النفسية والعقلية ، مما تعنى به القصص فى كل زمان ومكان ، وتتفاوت فيه براعة القصاصين والرواة ، يتنافسون فى رسم شخصيات وأبطال رواياتهم ، إلى حد أن القصصى القديم كان يبذل وقتاً وجهوداً ، فى وصف ثوب أو ثوب البطلة ، وثنياته ، ولونه ، ومدى انطباقه عليه أو عليها ، وأسلوب كل منهم فى المشية والقعدة ، والضحكة والبسمة ، وطريقتهم فى تناول الطعام وتوجيه الكلام وهكذا . .

لقد ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام أول ما ذكرا فى القرآن فى سورة الأعلى : فقال تعالى « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى « صحف إبراهيم وموسى » .

وفى سورة الممتحنة ورد ذكر إبراهيم عليه السلام مرتين فى الآية الرابعة : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » .

ولم يتغير موقف القرآن الكريم حينما بدأ يروى ما كان من إبراهيم مع قومه ففى الذاريات مثلا يقول الله تعالى « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون » . .

فإبراهيم يذكر اسمه مجرداً ، من كل وصف ، وضيف ابراهيم ،

لا يذكرون إلا بهذين اللفظين ، فهم ضيف ابراهيم ، وحسب ، كم عددهم ما مظهرهم ، ومالبسهم وكيف دخلوا عليه ، هل طرقوا بابه ، أم كان هذا الباب مفتوحاً ، وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار دخلوا عليه ، وفى الحال ، وبلامقدمات طويلة أوقصيرة ، انتهى الأمر ، بلا إبطاء إلى الحوار ، الذى تصل به الواقعة إلى قمتها : « قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » ، وقبل ذلك مباشرة سمعنا ما لو جاء فى قصة من قصص البشر لاستنفد من الكاتب جهداً ، ولاحتاج إلى غير قليل من الصفحات ليرويه لنا ، مما يثيرنا ويدهشنا ، ولعلق عليه فأطال التعليق : قال تعالى : .

« قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ! » .

وبهذين الوصفين فقط قدم لنا كتاب الله امرأة إبراهيم ، فهى « عجوز عقيم » ، وكل الذى فعلته إزاء هذه البشرى المذهلة أنها « صكت وجهها » وكل الذى ظفرت به حالتها من وصف وهى مقبلة لترى هؤلاء الضيوف الغرباء ، والذين لا يشبهون ضيفاً من قبل : « فأقبلت امرأته فى صرة » .

وفى سورة الصافات ، يروى القرآن الكريم ، جانباً آخر من حياة إبراهيم عليه السلام ، وهو جانب بدئه بالدعوة ، وبدئه بأبيه فى نشر هذه الدعوة ، وما كان بينه وبين قومه ، عندما عالنهم بها ، ورأى انصرافهم عنه ، وعزوفهم عن دعوته . وقد استمر المنهج نفسه لا يتغير فقد قال الله تعالى :

« إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون » .

ثم انتقل كتاب الله العظيم إلى رد الفعل عند هؤلاء الكافرين فقال تعالى :
« قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ! » .

ثم تأتى خطوة أخرى وكبرى فى حياته بعد هذا مباشرة : « رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم » .

ثم خطوة أكبر وأعظم :

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا . . . ! » .

ففى هذه الآيات يأتى ذكر ١ – والد إبراهيم ثم ٢ – ابن إبراهيم ثم ٣ – قوم إبراهيم . فوالد إبراهيم – على منهج كتاب الله الحكيم – هو والد إبراهيم ولا زيادة ، فلا نعرف مثلاً فى أى سن كان هذا الوالد ، عندما وقعت هذه الواقعة الكبرى فى حياة الأب والابن ، ولا ما هى مكانته فى المجتمع الذى كان يعيش فيه إبراهيم وينتسب إليه ، ولا مقدار حظه من العلم إطلاقاً ، والعلم الدينى على وجه خاص ، ولا ما يباشره من عمل قبل هذه اللحظة الهامة ، التى رأى ابنه فيها داعياً إلى دين غير دينه ، متحدياً تقاليد قومه ، خارجاً عليها ، متعارضاً بسبب هذه الثورة ، للموت حرقاً ، وهو أمرٌ يهز كل والد ، مهما بلغت قسوة قلبه ، وتبلد شعوره ، وحرصه على إبقاء الدين القديم حيث هو ، غير مبال بما يصيب ابنه من أذى إلا أن يبلغ الأذى هذا المبلغ الخطير وغير المسبوق . فإذا انتقلنا إلى ابن إبراهيم . فهو غلام عليم ، وكفى . هذا مايجب أن يشغل بال قارئ هذه القصة ، أما لونه وسمته ، وما كان يرتدى عندما وعى إلى أن يبذل ذات نفسه من أجل

هذه العقيدة التي يؤمن بها أبوه ، ويثير عليه غضب قومه ، إلى حد الحكم عليه بالموت حرقاً ، لا شنقاً ، فأمور يغض عنها القرآن ، ولا يحفل بها .

ولو كانت هذه القصة من تأليف إنسان ، لسمعنا عن إسماعيل ، وعن صفاته وخصائصه وعن الساعة التى سمع فيها هذا النبأ العظيم ، وعن خواطره حينما طلب منه أبوه أن يموت ، ولوصف لنا الطريق التى سلكاها حتى وصلا إلى قمة الجبل ، حيث سيجرى الفداء ، ويتم إنقاذه بمشيئة الله ، ولحدثونا عن شجرة تتمايل وكأنها تحنو على الغلام الذى سيموت ، وطائر يرفرف بجناحيه رمزاً للحياة التى ستنتهى بعد حين وهكذا وهكذا .

أما قوم إبراهيم ، فكذلك لا نعرف من أمرهم إلا أنهم قومه ، فأين اجتمع هؤلاء القوم ، وكيف انتهوا إلى هذا القرار ، وما هى صفتهم فى البلدة ، بلدة إبراهيم ، وهل هم قوم سياسة وحكم ، أم هم قوم دين وكهانة ، أم هم قوم مال وتجارة ، وهل اجتمعوا فى معبد ، أم فى دار إفتاء ، كالسهندرين الذى كان أحبار اليهود يقيمونه ، ويحاكمون أمامه من يخالف فتواهم ، ويخرج على أسلوب تفكيرهم .

فإذا انتقلنا إلى موسى عليه السلام نجد الأسلوب نفسه ، فقصة موسى تبدأ من سورة النازعات ، فيقول الله تعالى :

« هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

فى هذه الآيات القصار ، عرفنا أن موسى نبى مرسل من عند ربه .

وأنه أرسل إلى من يسمى « فرعون » ، وأنه دعا فرعون هذا إلى دينه ، فأبى فأراه بينة مقنعة ، فلم يتأثر بها ، فأخذه الله بعقاب شديد .

أما موسى عليه السلام ، فغنى عن أن يذكر الله غير اسمه ، وفرعون ، لا يقدم فى النبأ أو الحديث ، وصف له أو تعريف به ، إذ أنه ملك ، معتد بسلطانه ، لا يقيم وزناً لدعوة من السماء . وهذا يكفى فى بيان الغاية من إيراد هذا النبأ أو ذلك الحديث . ولا يقع التجريد فى السور القصار فقط ، فهو محقق فى السور الطوال أيضاً ، ففى سورة البقرة يذكر موسى عليه السلام وتذكر معه وقائع هى فى أقصى الغاية من الخطورة والأهمية ، بدون أن تقترن بشىء يزيد موسى عليه السلام ، لا يوصف بوصف يتعلق بجسمه أو بنفسه أو بعلاقاته بأهله أو بقومه أو بغيرهما فهو فى جميع الأحوال « موسى » فقط ، بلا أية إضافة .

قال الله تعالى :

« وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يقول تعالى :

« وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

ثم يقول :

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

ويتكرر هذا الأسلوب فى سائر الأنبياء ، فعيسى عليه السلام ، لا يعرف بأكثر من أنه عيسى أو المسيح ، فإذا أضيف إليه فهو عيسى ابن مريم ومريم عليها السلام تذكر كذلك ، دون أن تقترن إلا بأنها بنت عمران .

ويذكر عيسى عليه السلام أول ما يذكر فى سورة الصف :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » ! .

«كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله» .

ثم فى الحديد :

« وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ! » .

وفى السور الطوال كالبقرة :

« وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

وفى آل عمران :

« إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » .

ومريم عليها السلام تذكر أول ما تذكر فى سورة التحريم ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها » .

وفى السور الطوال ، جاء ذكر مريم عليها السلام ، كما جاء فى السور القصار ، غير مصحوب بتعريف ، يتجاوز اسمها فقد قال الله تعالى :

« وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

« وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ! » .

ولا يتغير منهج القرآن الكريم حينما يتحدث عن الأنبياء الذين لم يكلفوا برسالة دين جديد يؤدونها ، كصالح وهود وشعيب ، سوى دعوة التوحيد المطلقة ، ويبدو هذا واضحاً غاية الوضوح فى سورة « الأعراف » ، فإن ما صدر عن الأنبياء هود وصالح وشعيب إلى قومهم ،

دعوة لهم إلى عقيدة التوحيد ، ونبذ الشرك ، هو قول واحد ، كأنه صادر عن رجل واحد ، فى طرف واحد ، لقوم بعينهم ، قال الله تعالى :

« وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم : اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . . » .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . . ! » .

وترى مثلا آخر من هذا التطابق فى سورة الشعراء ، قال الله تعالى :

« كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتتركون فى ما هاهنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ثم يقول عن أصحاب الأيكة :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ،

إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون : وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين : واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفاً من السماء ، إن كنت من الصادقين. قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ! .

وبهذا المنهج يقل دور الأشخاص ، ليصل إلى أدنى حد ، وتبرز الفكرة من النبأ أو الخبر أو الحديث ، ولما تتطابق الأقوال ، وتتقارب ردود الأفعال . وألوان الاستجابة فى المواقف المتشابهة روحيًّا ، والمتفاوتة زماناً ومكاناً ، وبيئة ، تبدو فكرة الدين الواحد ، التى تظل الأجيال المختلفة ، أكثر وضوحاً تبدو مقاومة الدين الواحد ، على اختلاف العصور والحقب ، وكان أهل الدين على مر القرون أمة واحدة ، وكان أصحاب الشرك والكفر أمة تقابلها وتعاندها ، لأن الظروف الداعية إلى الإيمان فى كل زمان ومكان واحدة ، ولأن الظروف الداعية إلى الشرك والضلال والعناد والفساد ، واحدة ، فى كل أمة وصقع .

وهذا ما يدعو إليه القرآن أول ما يدعو .

ولكن لا تزال ثمة بقية فى مذهب القرآن الكريم التجريدى ، فإن بعض أبطال ما أورده من أنباء وأخبار ، لا تزيد الإشارة إليهم عن لفظ « رجل » أو « امرأة » أو يستعمل ضمير وصل ، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعدموتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه » .

وفى الآية التى قبلها مباشرة :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك » .

وفى سورة الكهف :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . .

إلى أن قال تعالى :

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » .

وفى نفس السورة ما جرى بين موسى عليه السلام والرجل الصالح ، فقد قال :

فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . .. » .

فصاحب هذه الواقعة ، لا يذكر له اسم ، ولا يرد فى القرآن له وصف ، وإنما يكتفى كلام الله العزيز بالإشارة إليه بلفظ « عبد » .

وأبطال نبأ الكهف هم فى الآية التاسعة من السورة مجرد « فتية » .

« إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » .

ولما أراد كتاب الله أن يزيد بهم تعريفاً قال تعالى :

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

فما يهم قارئ القرآن الكريم ، أن يعرف نصيبهم من الإيمان ،

وموقفهم من الدين القيم ودعايات الضلال .

وإذا صرح القرآن الكريم باسم شخص . كما فعل مع « قارون » ، فلا يظفر هذا الاسم إلا بنسبته إلى قومه ، قال تعالى فى سورة القصص :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » .

ولم يحل منهج التجريد ، بين القرآن الكريم ، وبين أن يبلغ فى أداء المعنى ، وتصوير وقائع النبأ ، وإيراد الإشارات المحددة للشخصية ، بالقدر الذى تستلزمه الغاية من النبأ أو القصة ، ولعل أوضح الأمثال على هذا ، ما جاء عن أصحاب الحديقة ، التى أورد كتاب الله نبأهم فى سورة القلم ، فجاءت تموج بالحركة ، حركة الأبدان ، وحركة العواطف والوجدان ، حتى تكاد ترتسم لأصحاب هذه الجنة ، صورة تتابع خطاهم ، فى غبشة الفجر ، وهم يكتمون أصواتهم ، ويسترقون خطاهم ، ويتلمسون طريقهم ، لكى يجنوا ثمر الحديقة ، دون أن يراهم راء من الفقراء ، حتى إذا ما وصلوها رأوها على غير حالها ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ، ثم أدركوا أن أمر الله أدركها فأصبحت حطباً لا ماء فيه ، ولا ثمر ، فعرفوا أن البخل ، والضن على من يستحقون المعونة ، لا يحقق خيراً ، ولا يزيد الناس كما قال تعالى :

« إنا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك . وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم لم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم

على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » .

لم يذكر هنا اسم واحد ، ولا وصف لأحد من أصحاب الحديقة ، ولا تحديد لبلدهم ، ولا لجنسهم ، ولكن العبارات ناطقة بكل ما يقتضيه بيان الواقعة ، وبيان زمانها ، وما يلابس مكانها ، حتى ليصبح ذكر هذا كله ، ضرباً من العبث ، لا يزيدالعبارة جمالاً ، ولا وضوحاً ، ولا تأثيراً . .

إن منهج القرآن الكريم ، فى تجريد الأسماء التى تدور حولها الأنباء والأخبار ، والأحاديث ، فى آياته البينات ، من الزمان والمكان ، ومن الصفات والنعوت ، يستوقف نظر الباحث طويلا ، وهو يزداد وضوحاً ،

حينما يفطن القارئ المتدبر ، إلى أن القرآن ، يغفل – كما سبق القول – فى كثير من مواضعه ، الأسماء تماماً ، فيأتى الكلام ، والفاعل فيه ، ضمير من الضمائر ، أو اسم من أسماء الإشارة ، أو من أدوات الوصل .

فالاقتصاد فى استعمال الأسماء ، بلغ أقصى الغاية فى كتاب الله العزيز . ولعلنا لا نجد أبلغ فى بيان هذا المنهج ، من أن نذكر أن اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أنزل عليه هذا الكتاب المبين ، لم يرد فى هذا الكتـــاب ذاته ، إلا أربع مرات ومن ثم تكون أجزاء كاملة ، بل يكون ست وعشرون جزءا من أجزاء القرآن الثلاثين ، قد خلت تماماً من اسم خاتم النبيين الذى بشر بهذا الكتاب العزيز ، واستظل برايته ، وحارب فى سبيل دعوته .

ويكمل هذا المعنى ، أن كتاب الإسلام الأعظم ، الذى تعقب

دعاوى وافتراءات الكفار والمشركين ، وخصومه الألداء المعاندين ، من أهل الكتاب ، والذى سجل الوقائع الكبرى ، التى انطوى عليها تاريخ هذا الدين الحنيف ، فى الحرب والسلم ، لم يرد فيه من أسماء أبطال هذا الدين الصناديد الذين أبلوا أحسن البلاء فى الدفاع عنه ، ورفع رايته ، وإعزاز كلمته ، إلا اسم واحد ، لم يكن صاحب هذا الاسم ، من أهل الصدارة فى الجهاد فى سبيل نصرة هذه العقيدة . فلست واجداً فيه اسم أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ، رضى الله عنهم وهم خلفاء رسول الله الراشدون ، ولا اسم أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولا اسم أحد كبار قادة المسلمين فى وقائعه الكبرى كخالد سيف الله المسلول ، رضى الله عنه .

بل إن كتاب الله الكريم ، التزم هذا المنهج الثابت ، وهو يورد أحداثا هى فى القمة من الخطر وعظم الأثر فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحياة الدين ، الذين بعث بالدعوة له ، خذ مثلا ما جاء فى سورة « التوبة » عما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر الصديق فى لحظة من أشد اللحظات حرجاً ، وأشدها اتصالا بالخطر وبواعث الخوف ، تلك لحظة وصول المشركين إلى باب الغار ، الذى لجأ إليه رسول الله وأبو بكر ، بحيث لو نظر أحد هؤلاء المشركين إلى قدميه ، لعرف أن فى الغار ، الرسول ، الذى خرجوا ليتعقبوه ، وليردوه عن الهجرة إلى المدينة ، ثم ليسلموه لزعماء قريش ينفذون فيه ، ما عقدوا العزم عليه من الاشتراك جميعاً فى قتله ، بحيث يتفرق دمه بين القبائل ، ويعجز بنو هاشم أن يقفوا فى وجه قبائل العرب جميعاً » .

هذه اللحظة الفذة فى تاريخ الأمم والشعوب ، بكل معيار أردت

أن تقيسها به ، يوردها كتاب الله العزيز على النحو التالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ولست أريد أن تقف معى ، لنتأمل كيف أحاطت هذه الألفاظ القليلة بهذه الواقعة الجليلة ، وكيف أوردت فى سطورها ، عناصر تلك الواقعة المادية والروحية ، وكيف استظهرت دلالاتها ، وكشفت عن نتائجها ، فلهذا كله موضع تال فى الكلام بإذن الله ، وإنما أريد أن ترى كيف شاءت إرادة خير القائلين ، وأصدقهم ، أن توصف بهذا الأسلوب هذه الواقعة التى وقف التاريخ الإنسانى كله أمامها وكأنه يحبس أنفاسه ، ليرى ، هل نبعث هذه الأمة المتفرقة الجاهلة الفقيرة لتكون خير أمة أخرجت للناس ، أم أنها ستبقى كما كانت على هامش الأمم قبل ذلك اليوم المشهود . فى صحرائها المجدبة ، وقفارها الممحلة ، وعزلتها الطويلة .

فقد خلا هذا النص الموجز من اسمى اللذين صنعا هذه اللحظة بكل احتمالاتها غير المتناهية . لأنها لا تزال توجه حياة الناس إلى اليوم ، وعلى الأقل ، حياة ثلث البشر ، باعتبار أن المسلمين قد بلغت عدتهم ألف مليون ، وهم والأمم التى تعيش معهم كأقليات ، أو هم مع الأمم التى يعيشون هم بين ظهرانيها كأقلية .

ولا أريد أن أضيف هنا أن خلو النص من الاسمين قليلاً لم ينقص من معانى النص ومضمونه وتأثيره قليلا أو كثيراً ، فذلك أيضاً موضع مما سيأتى

فى بقية البحث بمشيئة الرحمن وإنما أريد أن أصنع تحت نظرك ، نصوصاً أخرى ، تحكى للناس ، حديث أمور وقعت للمسلمين فى جهادهم ضد الشرك والمشركين ، كانت من الوقائع الفاصلة ، فى تاريخ هذا الجهاد ، وقد خلت هذه النصوص جميعاً من الأسماء قاطبة . .

من ذلك ما جاء فى سورة الأنفال عن واقعة بدر الكبرى :

« وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولوكره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

كما قال الله تعالى فى نفس السورة :

« . . يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور» .

وعن واقعة « حنين » التى كاد المسلمون على كثرتهم يهلكون فيها ، لولا ثبات الرسول ، فى مكانه ، ودعوته للمسلمين ، وهو فى أخراهم ، ليثوبوا إلى مواقعهم ، وليستأنفوا القتال ، عن هذه الواقعة قال الله تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

وعن واقعة « أحد » التى كانت فى مثل خطر الواقعتين الأخريين ، نزلت آيات ، منها ما يلى فى سورة آل عمران :

« وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا . والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

ثم قال الله تعالى فى الموضع نفسه : « وما النصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » وفى السورة نفسها قال الله تعالى :

إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ، ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . . »

ثم قال تعالى .

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

وفى موضع آخر من السورة ، جاءت آيات ، فى صدد بعض ماجرى بين المسلمين بعضهم البعض ، وما جرى بينهم وبين الكفار والمنافقين :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا . قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ، وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

فإذا انتقلنا إلى سورة الفتح ، ألفيناها تروى وقائع « الحديبية » ، أكبر الوقائع السياسية فى حياة المسلمين فى عهد الرسول قاطبة ، لأنها مهدت لفتح مكة عاصمة الشرك ، ولدخول المسلمين فيها فى العام التالى لهذا الصلح ، وأنف الكفار راغم ، وقلوبهم تفيض بالغيظ المكتوم ، ونفوسهم تتمزق حرجا ، وضيقا بهذا النصر الذى لم يكلف محمداً عليه الصلاة والسلام ومن معه قطرة دم ، رأيت القرآن الكريم ، يروى تفاصيل هذه الموقعة الحاسمة ، واقعة فى إثر واقعة لا يدع منها شيئاً ، ومع ذلك يبقى كما تعهدنا بكتاب الله الكريم ، خالياً من الاسم والتاريخ ومن الوصف للرجال والأماكن ، ومن كل التفاصيل التى يعنى بها المؤرخ البشرى ، ويفرح

بها ، ويطيل الوقوف أمامها ويختلف فى شأنها مع زملائه وأنه أدق قال الله تعالى فى أول سورة « الفتح » :

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته ، عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً.هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً » .

ثم انتقل كتاب الله العزيز إلى واقعة من أكبر وقائع هذا اليوم الباقى على الزمن كمعلم من معالم طريق دين المسلمين فقال :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ، سيقول لك المخلفون من الأعراب ، شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّا أو أراد بكم نفعاً ، بل كان الله بما تعملون خبيراً بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » .

ثم أورد الله بياناً للخطة التى كاد يفلت فيها زمام المسلمين من أيديهم ، ضيقاً بلجاجة مشركى مكة ، وسوء مسلكهم ، لولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ألزمهم كلمة التقوى وكبح جماح غضبهم ، قال تعالى :

« وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء

مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة ، بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليماً » .

لقد أكثرت نوعا ما من سوق الشواهد ، ليتضح بجلاء أسلوب القرآن الكريم ، وهو يروى التاريخ الذى رأى المسلمون ، وأعداؤهم معا ، وقائعه وتطوراته : أو سمعوا منها ، من أهلهم وذويهم ، وأصدقائهم وجيرانهم ، وليتضح أيضاً أن هذا الأسلوب ذاته ، هو أسلوب الرواية القرآنية ، لأنباء الغيب ، وتاريخ ما اندثر وزال من الأمم والأقوام ، أو لأخبار الرسل ، وأخبار ما عانوه ، وتجشموه فى الدعوة إلى الحق ، وإلى مناهضة الباطل ، من عهد آدم عليه السلام ، إلى أيام محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم .

فالعناصر التى تتضمنها القصة أو الرواية القرآنية ، فى جميع الأحوال هى لا تتغير ولا تتبدل . فكل ما يخدم القصة أو النبأ وإظهار جوهرهما ، وارد فى القصة ، لا يحذف منه شىء ، ولا ينتقض فى قليل أو كثير ، وكل ما يخرج عن هذا الجوهر ، أو يعطل تأثيره أو ينتقص منه ، أو ينقله من مكانه ، بحيث يظهر عليه سواه ، أو بحيث يشاركه فى الظهور والوضوح غيره من العناصر ، لاتجده فى أنباء وأخبار القرآن الكريم ، سواء كان هذا النبأ طويلا ، متعدد الحلقات ، يمتد لزمن غير قصير ، وتتداخل فى تطوراته شخصيات كثيرة ، كقصة يوسف عليه السلام التى استأثرت

بسورة كاملة أو كاد من آيتين أو ثلاث أو عشر كالأنباء والأحاديث العديدة التى انتشرت فى سور القرآن .

وهذا المنهج القرآنى القويم ، يحقق غايات كثيرة ، قد نقف نحن الآن على بعضها ، ولكن لا شك أن المتأملين والدارسين الذين سيأتون بعدنا ، سيرون فيها أكثر مما رأينا ، أو غير ما رأينا .

ولكن الذى لا تخطئه البديهة أو الفطرة ، أن تجريد أشخاص القصة القرآنية ، من ملابسات الزمان والمكان ، ومن الاسم والوصف والنعت ، تجعل هؤلاء الأشخاص ممثلين للإنسان المطلق فى كل زمان ومكان : الإنسان فى الموقف الذى تحكى الآيات القرآنية وقائعه ، فلا يكون عربياً ولا أعجمياً ، ولا يكون قديماً ولا معاصراً ، إذ أن الثابت ، أن عواطف الإنسان ومخاوفه ، وآلامه وأحلامه ، لا تتأثر كثيراً بالإقليم الذى يعيش فيه ، ولا بالعصر الذى يحيا خلاله، فما يتغير فى الإنسان بتغير الزمان والمكان ، هو المظاهر التى يتبدى فيها : الثوب الذى يرتديه ، والزى الذى يصطنعه . واللغة التى يتكلم بها ، والمواصفات والتقاليد التى يلتزم بها ، أما ما يتصل بقلبه ووجدانه ، فثابت حتى نرى أنفسنا ، فيما أحس به أبونا آدم وأمنا حواء ، فى الأيام الأولى من فجر حياة البشر ، قبل أن يدب على سطح الكرة الأرضية ، من أبناء آدم لا ولد ولا أنثى .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فثبت أن كل ما يرد فى القصص من تعاريف وأوصاف وتفاصيل ، هو قيود على خيال القارئ وتصوره ، بل إن مجرد الاسم الذى يطلق على بطل الرواية أو بطلتها ، يقف حاملا فى انطلاق خيال القارئ أو السامع فى حين أن تقديم البطل ، بوقائع القصة التى

اشترك فيها تطلق أمامهما مجال التصور ، فيزداد القارئ أو السامع استمتاعا بالقصة أو النبأ الذى يسمعه أو يقرأه . وتزداد حريته فى استنباط المعانى منه ، واستخراج المدلولات والمفاهيم . ولما كانت الغاية لما أورده الله تعالى فى كتابه الكريم من الأنباء والأحاديث هو شهية نفوس البشر . لما يريده الخالق العظيم سبحانه لهم من السمو والارتقاء عن سبيل التأمل والإحساس . والتلقى والاسترشاد ، فتجريد الأسماء من ملابسات الموقع والتاريخ ، أمعن فى تحقيق هذه الغاية ، وأفعل فى تحريك ثوى النفس الإنسانية ، المتخيلة والمدركة .

ولما كان هذا القرآن هو كتاب البشرية ، حينما نزل على النبى العربى صلى الله عليه وسلم وبعد أن يلحق بالرفيق الأعلى ، ثم بعد ذلك من أجيال وأحقاب وعهود ، وقد أصبح أليق بما فى هذا الكتاب من نبأ وقصة وحديث وذكر ، ألا يحمل طابع أمة ولا عصراً .

ولقد قرأت أخيراً بحثاً قام به العالم الهندى المسلم مولانا أبو الكلام أزاد ، وزير المعارف فى حكومة الهند عقب استقلالها ، أداره واضعه حول ذى القرنين الذى ورد اسمه فى سورة « الكهف » ، وقد بذل مولانا أبو الكلام رحمه الله ، جهداً مشكوراً فى إثبات أن المقصود « بذى القرنين هو الملك الفارسى قورش ، ولما فرغت من قراءة البحث ، تساءلت هل ازداد ما جاء فى القرآن عن ذى القرنين بعد هذا المبحث الجليل ، تأثيراً أو وضوحاً ، أم أن النص القرآنى ، مع خلوه من البيان المحدد لشخصية وعصر وصفة « ذى القرنين المحكى عنه ، مؤثر بألفاظه وبالأسلوب الذى سيقت به وقائع الجانب الذى رواه القرآن الكريم من حياة هذا الملك

العظيم ، وقد انتهيت بغير عناء إلى النص القرآني الذى يجهل شخص ذى القرنين . فلا يضفى عليه وصفا ، ولا يحدد له تاريخاً ، ولا يعين السامع على تبين المناطق التى كانت مجال نشاطه فى أرض الله الواسعة ، أفعل فى نفس الإنسان ، من هذا المبحث وأمثاله الذى تصرف ذهن القارئ عن جوهر كلام الله تعالى إلى تفاصيل لا تقدم ولا تؤخر وهذا فى ذاته جانب من جوانب الله سبحانه فى الأسلوب الذى اصطنعه القرآن الكريم فى إيراد الأنباء والأخبار .

وقد عنون مولانا أبو الكلام أزاد بحثه بقوله : شخصية ذى القرنين فى القرآن » وبعد أن أورد الآيات الواردة فى سورة البقرة والتى جاء فيها قول الله تعالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا » .

ثم قال ما مجمله :

إن ما ذكر فى الآيات من خصائص « ذى القرنين » يتلخص فيما يأتى :

١ — إن الذين سألوا النبى عليه الصلاة والسلام عن ذى القرنين هم يهود المدينة وكانوا يسمونه « بذى القرنين » فهذا الاسم أطلقه السائلون ولم يطلقه القرآن الكريم .

٢ — إنه كان ملكا هيأ الله له أسباب القوة ، وأنه خاض ثلاث مهام حربية كبرى ، كانت إحداها إلى الغرب من بلاده ، والثانية شرقية ، والثالثة وصلت به إلى مكان به مضيق جبلى يشن من ورائه قوم الغارات على أهل هذا المكان ، فأقام لهم سداً . يقيه غارات المغيرين ، وقد رفض أن

يتقاضى منهم عن هذا العمل الفذ أجراً .

٣- إنه كان مؤمناً بالله وبالآخرة ، وكان لذلك عادلا رحيماً .

ثم انتقل إلى أقوال المفسرين المسلمين فى صدر الإسلام فقال إن أول ما شغل هؤلاء المفسرين اسم الرجل ولقبه ، إذ لم يعرف أن يكون لإنسان قرن ، دع عنك أن يكون له قرنان ، فقال بعضهم إن القرن كان رمزاً على طول حكم هذا الملك الذى امتد من نهاية قرن إلى قرن تال ، وأقول إن القرآن الكريم يستعمل لفظ قـرن بمعنى الجيل « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون » « ثم أنشأنا من من بعدهم قرنا آخرين » المؤمنون « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » يونس .

ولما بدأ عهد جديد للبحث اتجهت أذهان بعض المؤرخين إلى ملوك اليمن فظنوا أن ذا القرنين واحد منهم ، كما أن بعضهم كانوا يسمون « ذى الأذار » وقد ذهب إلى هذا الرأى البيرونى وتابعه عليه ابن خلدون .

ثم جاءت طبقة يصفها العلامة أبو الكلام بأنها أصحاب النظر فقال إن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر وقد كان ابن سينا أول من قال بهذا ، وأيده فى هذا القول الرازى وقد رفض العالم الهندى المسلم هذا الرأى لأنه لم يثبت فى التاريخ أن الإسكندر بنى سداً كالسد الذى جاء ذكره فى القرآن . .

وانتهى إلى القول بأن ذا القرنين هو بذاته وشخصه « قوروش » الملك الفارسى الذى هدم بابل وأطلق سراح اليهود المأسورين فيها بعد أن هزمهم وسباهم بختونصر . وأيد هذا الرأى بأن السائلين كانوا من اليهود ، فلابد أن يكون ذا القرنين المسئول عنه علي صلة ما بهم وبتاريخهم القومى ، ولما كان

« قوروش » هو الذى حررهم من الأسر . وأعادهم إلى الوطن ، فهو أقرب الملوك » لأن يكون ذا القرنين فإذا أضفنا إلى ذلك أن من أسفار التوراة المتداولة فى أيدى اليهود سفر دانيال ،وإن دانيال النبي كانت له رؤى رأى فى إحداها « كبشاً واقفاً على شاطئ النهر له قرنان عاليان ، وكان أحدهما منحرفا إلى ظهره ، ورأى الكبش ينطح بقرنيه شرقاً وغرباً وجنوباً لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه » .

ولما سئل دانيال عن تفسير رؤياه قال إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد جزئى مملكة فارس : ماذا وفارس .

وقد جاءت بعد ذلك نبوءات من أسفار التوراة منهما نبوءات يشعياه ويرميا ، وقد ذكر فيها اسم قوروش باللفظ العبرى « خوروش » باعتباره المنقذ الذى سيخلص اليهود .

وقد ثبت عقيدة مولانا « أبو الكلام » على صحة استنتاجه ، كشف أثرى هام ، هو تمثال لقوروش بعينه وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة « اصطخر » نحو خمسين ميلا على شاطئ نهر « الرغاب » وقد سبق العالم الأثرى جيمس موريو وأخبر بوجوده ، ثم جاء بعد سنوات السير روبرت كير بورتو ونشر رسما للتمثال بقلم الرصاص ، وهذا التمثال فى طول القامة الإنسانية ظهر فيه قوروش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش . وقد ثبت أن لقوروش ثلاث هجمات واحدة فى الغرب ضد كروس ملك اليونان وكانت مملكته تدعى ليديا وموقعها الأناضول الحالى وكان هجومه التالى فى الشرق ضد قبائل همجية فى ولايتى جيدوردبيا ، ويكتربا ، وهى تقع بين إيران

والسند وهى التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان ، أما الهجمة التى بنوا فيها السد فقد كانت نحو الشمال ، إذ ذهب ليحصن حدود مملكته الشمالية مادا وهى منطقة إيران فى الشمال ، وهذه المنطقة تتاخم الجبال الفاصلة بين بحر الخزر وقزوين البحر الأسود ، وقد سميت فيما بعد هذه المنطقة بالقوقاز . وقد نزل قوروش على نهر هناك يسمى باسمه ولكن باللفظ اليونانى . وإن السد الذى بناه هناك ، حمى أهل هذه المنطقة من غزوات القبائل غير المتمدينة الواقعة فى شمال الموقع الذى أقيم فيه السد .

وليس لدينا شك فى قيمة البحث الذى قام به مولانا أبو الكلام رحمه الله رحمة واسعة ، وهو لون من البحث القائم على دراسة النصوص الدينية والتاريخية والنظر فيما كتبه الأجانب ومحاولة مقارنة النتائج والحقائق ، بروح العالم الممحص المدقق ، دون الرغبة فى فرض الرأى ، أو إقامته على أى سند ، ولكن ماذا أضاف هذا البحث – كما سبق القول – إلى المعانى التى أوردها كتاب الله العظيم ، والتى قصد إليها من نبأ ذى القرنين ومحاولة اليهود إظهار عجز الرسول عليه الصلاة والسلام عن الرد على أسئلتهم ، وقلة علمه بأخبار الأمم البائدة ، وأنه رد عليهم ، بما أسكتهم بدلالة أنهم لم يماروا فى هذه الإجابة ، فلم نجد فى القرآن عودة إليها ، ولا تعقيبا عليها .

التكنولوجيا بين لا إله إلا الله والحمد لله

نحن مفتونون « بالتكنولوجيا » لأنها تقرب البعيد وتذلل الصعب ، وتجمل الحياة وتأتى بالعجائب والمبتكرات ، فقد صعدت بالإنسان إلى أعماق الفضاء ، ووصلت به إلى أغوار الماء ، وأنطقت الجامد ، وألهبت الخامد ، وسجلت الهمسات التى لا تكاد تسمع ، وقيدت الهواجس التى لا تكاد تبين .

ولكن إذا قيل إن هذه « التكنولوجيا » هى ثمرة مباشرة للإيمان الذى جاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يبشر به ، ويدعو إليه ، والذى لخصته شهادة ألا إله إلا الله ، لم نصدق هذا ، وحسبنا أن ذلك تعصب للإسلام لا يقوم على حجة من الحجج التى يؤمن بها العقل ، ويطمئن إليها المنطق .

ومع ذلك فإن كتب أهل « التكنولوجيا » من أساتذة علم ومؤرخى حضارات يؤلفون عشرات الكتب بل مئاتها فى إثبات أن العرب الذين آمنوا بهذه العقيدة ، وحاربوا لها ، وأذاعوها فى العالمين هم الذين وضعوا أسس العلم الحديث ، وأقاموا بنيانه ، ورسموا منهاجه وفتحوا مدارسه ، وقعدوا قواعده ، وأن هذا العلم هو الذى قاد إلى « التكنولوجيا » .

فالتكنولوجيا حقًّا وصدقاً هى ثمرة لا إله إلا الله وقد تأكدت وزادت وضوحاً ورسوخاً بعقيدة أومذهب (الحمد لله) .

ولكى نؤمن بهذه المقولة ، يجب أن نفهم مدلول (لا إله إلا الله) فى مجال العلم والعقل والمعرفة . إنها لتبدو لأول وهلة عقيدة يراد بها التعبد الصحيح لله ، وتنزيهه عن الشريك ، أيا كانت صفة هذا الشريك من ملائكة أوجن أو بشر ، سواء كان معيناً أوابناً أو زوجة ، والواقع أنها كذلك ، ولكنها فوق ذلك تعنى شيئاً آخر جد خطير ، تعنى تحرير العقل من كل الخرافات ، والأكاذيب ، وترسم للعقل طريقاً وحيداً وواضحاً لتحصيل المعرفة هو التأمل فى هذا الكون ، ومفرداته وعناصره ، وطريقة سير أفلاكه ونجومه ، وتطوره ونشوئه وجمع هذه الحقائق الكثيرة ، وتبويبها ، وتحليلها ثم استخلاص النتائج الكلية لها ، ثم تفريغ الحقائق الفرعية عليها ، وبالجملة . وضع أساس العلم التطبيقى ، الذى أدى إلى ما نرى من التقدم الآلى الذى نرى آثاره فى كل فرع من فروع الحياة الحديثة .

بدأت (لا إله إلا الله) فى أقرب المجالات لها ، وهومجال الدين والعبادة فارتقت بفكرة الألوهية ، إلى أقصى ما وصلت إليه ، من « التجريد » و« التسامى » وبعد أن ارتقت فكرة الإله من مرتبة الوثن المصنوع من أحقر المواد ، من الخشب أو الحجر ، ومن مرتبة الإله المكلف لعابديه وأتباعه ، لأنه من ذهب خالص أو من صخر لا يلين للحديد ، ولا يستجيب للنار ، ثم من مرتبة الإله الذى يتجسد شخصيا ، ومن الإله الفكرة التى تقوم على الازدواج ، وصلت بفضل القرآن والإسلام ، إلى الإله الذى لا ينتمى لشعب ، ولا لإقليم ولا لجنس ، ولا للون والذى لا يحد بمكان ولا زمان ، فهو الإله الذي ليس كمثله شيء ، الذى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك

الأبصار » . (الأنعام ١٠٣) ، وهو رب العالمين فى المشارق والمغارب فى الماضى والحاضر والمستقبل وهو خالق كل الأشياء وكل الأحياء « وإلى الله ترجع الأمور » (٢١٠ البقرة) .

وبما أنه خالق هذا الكون الفسيح المترامى ، الذى لا نعلم عنه إلا شيئاً قليلاً غاية فى القلة ، ضيئلاً إلى أقصى الحدود . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (٨٥ الإسراء) ، فإن هذا الكون الذى يبدو أكواناً لأن خالقه واحد يسوده قانون واحد ، وإذا تعددت الأكوان تعددت القوانين وأصبح العلم الواحد مستحيلاً ، ولما كان هذا الإله الذى لا تتناهى قوته ولا قدرته أبديا أزليا ، لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، فقوانينه الصادرة عنه دقيقة منتظمة لا يتطرق إليها خلل ولا يعتريها ما يعترى قوانين البشر من وهن ، ولما كان هو فى كلامه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم قد قال « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الفتح ٢٣) ، وقال « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً » (الإسراء ٧٧) ، ومن الميسور أن نتبين هذه السنن بالتأمل فيها ، واستنباطها بالنظر والتأمل والتدبر والتعقل ، ولقد وضعت قاعدة (لا إله إلا الله) فى الكتاب الذى أنزل لبيانها ولبيان أحكامها ، أسس هذا التكامل لكثرة ما امتلأت به سوره وآياته من الدعوة إلى ذلك التأمل بأكثر من صيغة ، وفى مئات المواضيع فى القرآن الكريم . فبلفظ انظر ، وما يشتق منها ، قال الله تعالى :

« فلينظر الإنسان مم خلق » (الطارق ٥) .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه » (عبس ٢٤) .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت » (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ الغاشية) .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » (الأعراف ١٨٥) .

تنوع الأهداف

وقد تنوعت النظرات وأهدافها فى القرآن الكريم ، فمنها ما كانت غايته تقريراً لحقيقة اجتماعية مثل قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » (١٠٩ يوسف) ، « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة » (غافر ٨٢) . ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة طبيعية ، أو دعوة إلى تدبر هذه الحقيقة : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » (ق ٦) . « فانظرْ إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » (٥٠ الروم) ، ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة (بيولوجية) متعلقة بعلم الأحياء ، وعلم أصل الإنسان : « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة » (الحج ٥) « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة » (المؤمنون ١٣ ، ١٤) .

ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة متعلقة بعلم النبات : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » (ق ١٠) ، وما زال كتاب الله يلفت عين الإنسان ونفسه وعقله ، ويلح عليه إلحاحاً متصلاً ليجعل التفكر والتعقل

والتدبر وسيلته التى لا ينفك عن استعمالها ، ولا يسأم من الرجوع إليها والاعتماد عليها فمن ذلك :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (البقرة ٢١٩) .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الأنعام ٥٠) .

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » (الروم ٨) .

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » (آل عمران ١٩١) .

ومن ذلك بلفظ يعقلون : « كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (البقرة ٧٣) .

« إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (يوسف ٢) .

« وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون » (المؤمنون ٨٠) .

« وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة ١٦٤) .

ومن ذلك أيضاً بلفظ يتدبرون :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٢٤) .

« أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » (المؤمنون ٦٨)

وأخيراً بلفظ يتذكرون :

« وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون » (الأنعام ٨٠) .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات ٤٩) .

« ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » (الواقعة ٦٢) .

وما زال كتاب الله العظيم يدير عقل الإنسان وعينيه وحواسه كلها ليرى صور هذا الكون الصغيرة والكبيرة . فى السموات والأرض معاً ، إما فى السماء وحدها ، أوفى الأرض وحدها ، أوما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما يجرى فى كواكب السماء ونجومها ورجومها وأفلاكها ، وما ينعقد فيها من سحاب ، وما يهب من رياح ، وما يلمع من برق ، وما يدوى من رعد ، وما يضطرب فى البحر من أمواج ، وما يصيب الفلك فيها عند العاصفة ، وعند ركود الماء ، وينتقل من الذباب إلى السحاب ، ومن العنكبوت إلى البعوضة ، ثم إلى البحار والأنهار ، ومن النحل إلى النمل ، ومن الليل إلى النهار ، ومن الحر إلى البرد ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن العز إلى الذل ، ويتعقب الإنسان تراباً ثم نطفة فمضغة فعلقة فعظاما ، فطفلا يحبو إلى شيخ فان حتى يعود إلى الأرض ثم يصبح عظاماً نخرة . « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » (٦٧ غافر) .

ولسنا نستطيع أن نورد كل ما احتواه القرآن الكريم من هذه الصور ولكن حسبنا أن ننقل هنا ما جاء فى سورة النحل . فقد احتشد فى موضع واحد من صور هذا الكون العظيم قدر غير قليل قال الله تعالى : « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل

من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى . . . » (من ٤ إلى ١٥ النحل) . .

ولا يذكر تاريخ العلم من أول أن خلق الله آدم حتى اليوم كتاباً قبل القرآن ولا بعده قرع أسماع الناس ولا طرق أفهامهم ، بمثل ما قرعت آيات القرآن أسماعهم وعقولهم ، بصور هذا الكون وغرائبه وعجائب صنعته ، ولطائف مخلوقاته ، وإثبات قوانينه ، وكان هذا وحده كافياً لإثارة أشواق المسلمين إلى الوقوف على أحكام هذا الكون وقوانينه .

ولكن القرآن أضاف إلى هذا كله ، وهذا كله مجتمع ومتفرق ، شىء جديد ، وبالغ أشد درجات التأثير فى القلوب والعقول والوجدان ، بحلاوة عبارته ، وعذوبة صيغته ، وجمال أمثلته وروعة صوره ، ولكنه قد أضاف إلى هذا كله شيئاً آخر ، هو تقريره بأن الله سخر للإنسان هذا الكون بشمسه وقمره وسحابه وأرضه ، وهوائه ومائه وجباله وأنهاره ، ووهاده ونجاده ، واقتران دعوة القرآن للإنسان إلى النظر والتأمل والتدبر والتعقل فى كل ما يحيط به ، وفى نفسه ، وفى الآفاق ، بتقرير أن الكون مسخر له ، أدرك المسلمون أنهم إذا اهتدوا إلى سنن هذا الكون الثابتة

استطاعوا أن يسخروا هذا الكون ، وما له من قوى هائلة ، فى خدمتهم وصلاح أمورهم ، وزيادة أرزاقهم وتقرير قوتهم وصلاحهم .

وقد أنتج هذا كله ، وضع أسس للعلم التطبيقى القائم على التجربة ، وغير القائم على الفروض النظرية وحدها .

وبهذه الروح الجديدة بدأ فى العلم فصل جديد ، هو فصل التجربة ، واحترام ما تثبته هذه التجربة ، والاستمرار فى إجراء التجارب ، بكل وسيلة جديدة تتاح ، وبكل أسلوب من أساليب البحث يهتدى إليه ، والعدول عن النتائج السابقة عندما يثبت كذبها أو عدم صحتها ، واختلاطها ببعض الخطأ ، وتنقيتها منه وهكذوا دواليك وبذلك كله سبق العرب غيرهم من الأمم فى نواح من المعرفة الإنسانية ، بعضها كان معروفاً وبعضها كان من ابتكارهم البحت ، ولما تتلمذ عليهم علماء من الغرب ، إما بطريق مباشر ، أى بطريق أخذ العلم عن علماء المسلمين ، ومشافهة أو بطريق قراءة ما تركه هؤلاء العلماء من كتب ضخمة .

وقد كان روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢ م) أول رائد للعلم التطبيقى فى أوربا ، ممن تلقوا العلم على أساتذة من علماء العرب ، وبعد بيكون والروح التى نقلها عن العرب وجدنا سماء المعرفة فى أوربا تضىء بأسماء كوبر نيكوس فى القرن السادس عشر وكيلر وجاليلو فى القرن السابع عشر ونيوتن فى القرن الثامن عشر وداروين فى القرن التاسع عشر .

وقد جاء على إثر روجر بيكون ، سميه فرانسيس بيكون المولود فى ١٥٦٠ م والمتوفى سنة (١٦٢٦ م) فاستقر بفضله المنهج التطبيقى ، ومضت مناهج البحث الجديدة فى طريقها تؤتى آثارها وخيراتها

وقد أثبت مؤرخو العلم الحديث فى أوربا دين هذا العلم للعرب ، ودراساتهم ومؤلفاتهم والروح التى أخذوها عن القرآن بالنظر فى الكون ، وتتبع آثار قوانين الله فى كل صغيرة وكبيرة فيه ، وليس فى وسعنا أن ننقل كل أقوالهم ، ولكن يمكننا الاجتزاء ببعض ما قالوه ، فقد قال سارتون مؤلف مقدمة « تاريخ العلم » : أريد أن أتكلم عن (معجزة) العلم العربى ، فأوردت كلمة (معجزة) لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب فى الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق ، وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله .

ثم قال وأعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك شيئان : علم الحساب الجديد ، وعلم المثلثات الجديد .

أما درابر فيقول :

لما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، فى سنة ٧٥٣ م إلى سنة ٧٧٥ م نقل عاصمة الملك إلى بغداد ، وجعلها عاصمة فخمة ، ثم بدأ فى نشر العلوم الفلكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة ولما تولى حفيده هارون الرشيد ٧٨٦ م اقتفى أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه ، ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة سنة ٨١٣ حتى ٨٣٢ م ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى وجمع إليها كتباً لا تحصى وقرب إليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

هذا الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمستكشفين لعدة أجهزة للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد)

والتعبئة . . إلخ ، وهذا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة وآلات القياس لأبعاد الكواكب وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظرية الميزان ، وهو الذى هداهم إلى عمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية ، وجداول تعرف بها حركات الكواكب ، مثل تلك التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند وهو أيضاً الذى حقق لهم القدرة الباهرة فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو الذى أدى لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندسية . . هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

فضلنا على الحضارات :

وثمة غير هؤلاء عشرات من كبار المؤرخين الأوربيين الذين اعترفوا بفضل المسلمين على العلم الحديث ، ونحن ننقل عن « كتاب مآثر العرب على الحضارة الأوربية » للأستاذ جلال مظهر ، بعض ما قالوه فى هذا الصدد موجزاً حيناً ، وببعض التصرف حيناً آخر .

قال سارتون « حقق المسلمون ، عباقرة الشرق ، أعظم المآثر فى القرون الوسطى ، فكتب أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت هذه اللغة من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر ، لغة للعلم ولارتقاء الجنس البشرى ، لقد كان ينبغى لأى إنسان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ،

أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » .

وقال جوستاف لوبون « إن البحوث التى أجراها د ينو وفافيه ، والتى سبقهم إليها « كاسيرى » و « أندريه » و « فياردو » أثبتت بوضوح أن البارود ذا القوة الدافعة باعتباره مادة متفجرة تعمل على دفع القذائف . . اختراع عربى أصيل لم يشارك العرب فيه أحد ، عرفوا كيف يخترعون ويستعملون القوة الناشئة عن البارود ، وباختصار فهم الذين اخترعوا الأسلحة النارية .

وقال « سيديو » المؤرخ الفرنسى الكبير « قال همبولوت ينبغى علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية ، آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى عصرنا هذا .

وقال « ريتشارد كوك » تدين أوربا بالشىء الكثير لأسبانيا العربية ، إذ حملت قرطبة مصباح العلم ، وضاء فى زمان كان العلم فيه فى بلدان أوربية أخرى ، خافتا كبصيص نار مختنق ، إن التصور الخلاق الذى استطاع أن يقيم صرحاً كقصر الحمراء ويبنى مسجداً للعبادة كجامع قرطبة ، إنما يعطينا مثلاً للفارق البعيد بين هؤلاء والهمجية الطليقة التى كان يتردى فيها الفرنجة والنورمان .

وقال « شارلز سنجر » « إن طالب العلم الأوربى الشغوف بالعلم المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة – ذلك الذى كانت لا ترضيه الدراسة فى باريس أو بوردو أو أكسفورد والذى كانت تأخذ بلبه الأخبار المتناقلة عن عجائب العلم والحكمة العربية – إنما كان يذهب للدراسة فى طليطلة أو قرطبة » .

مقومات العلم الحديث :

وقال « نيلسون » قد صحب هذا التوسع نشاط فكرى ، لا عهد للشرق بمثله من قبل ، فقد لاح أن الناس فى العالم كله ، ابتداء من الخليفة إلى أقل المواطنين قد أصبحوا طلاباً للعلم ، أوعلى الأقل مناصريه ، وكان الناس طلباً للعلم ، يسافرون عبر القارات الثلاث ، ثم يعودون إلى بلادهم ، وكأنهم نحل تشبع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمى ثمين إلى حشود من التلاميذ المتشوقين للعلم ، وليؤلفوا بهمة عظيمة ، الأعمال التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق والتى استخدمها العلم الحديث– بكل ما تحمله هذه العبارة من معان – مقومات له بصورة أكثر فاعلية مما نفترض » .

وقال « دوق البا » إن أهم اكتشاف للعالم « مبجبل آسين » قامت عليه شهرته ، هو موضوع كتابة « الكوميديا الإلهية ، والإسلام » ويعنى به اكتشافه أن النماذج الإسلامية هى التى أوحت لدانتى بـ« كوميديته الإلهية » وأما الدانتيون الإيطاليون خاصة ، فلم يعترفوا إلا على مضض بأن الأصول الإسلامية ، كانت الأساس الذى بنيت عليه « الكوميديا الإلهية » تلك القصيدة التى تمثل ثقافة أوربا المسيحية برمتها فى القرون الوسطى .

مقدمة ابن خلدون :

وقال المؤرخ البريطانى المعاصر الشهير « أرنولد توينبى » وضع ابن خلدون فى مقدمة تاريخه فلسفة التاريخ ، ولا شك أنها أعظم عمل من نوعه ،

ابتكره عقل فى أى زمان أومكان » .

وقال « روبرت فلنت » عن نفس هذا العمل (أى مقدمة ابن خلدون) . إن أفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا من أنداد ابن خلدون . أما الآخرون فلا يستحقون أن نذكر أسماءهم إلى جانب اسمه .

ونحب أن ننقل أيضاً عن « جون درابر » العالم الأمريكى المنصف للإسلام والعرب فى كتابه « تطور أوربا الفكرى » الجانب الآخر من أثر الإسلام على مسلك المسلمين فى المعاملات الإنسانية والذى هو أثر الثقافة الإسلامية فيهم ، قال « وفى فلسطين أثناء الحرب الصليبية ، كم كانت طبائع العرب التى خبرها الغربيون بأنفسهم ، غير متوقعة لديهم ، ذلك بأن الذين دفعوهم إلى القيام بهذه الحروب قد صوروا لهم العرب على أنهم أشرار متعطشون للدماء ، غير أنهم وجدوهم شجعاناً رحماء عدولاً ، أما الجنود حتى أدنى أتباع الجيش ، فقد تحتم عليهم أن يعترفوا بالفرق بين ما كانوا يتوقعون وما لمسوه بأنفسهم فعلاً ، شاهدوا شجاعة فائقة وفروسية فذة وثقافة عقلية أرقى بكثير مما عندهم ، لقد كانوا فى بقاع تملأ أرجاءها أعاجيب المهارة الإنسانية حتى إنهم لم يفعلوا عندما عادوا إلى أوطانهم إلا أن ينقلوا إلى شعوبهم ما انطبع فى نفوسهم من أثر عميق قدر له أن يظل باقياً على مر السنين .

الحمد لله . . والحركة العلمية :

ولكن قد يقول قائل وما صلة « الحمد لله » بهذه الحركة العقلية العلمية العظيمة التى قام بها العرب ، والتى اتصلت اتصالاً وثيقاً بالحضارة

الحديثة ، وبحركة العلوم فى أيامنا هذه .

والحق أن الحمد لله ، هيأت المسلمين والعرب ، للتطور العقلى والتهيؤ العلمى الذى أعانهم على أن يصنعوا أسس العلم التطبيقى والتجريبى ، الذى أثمر « التكنولوجيا » الحديثة فالحمد لله — كما نص عليها القرآن الكريم — هى دعوة ذات جوانب ثلاثة عقلية ، ووجدانية ، ونفسية وكلها مفضية إلى التفكير والتأمل فى الكون ، على وجه يستقصى عناصره ، ويستنبط أحكامه ويستخرج قواعده ، فهى دعوة للتأمل العقلى فى كل ما ينطوى عليه هذا الكون الفسيح ، من صور العظمة والصنعة المحكمة والابتكار الفذ . فالمسلم المؤمن بعظمة ربه وبتساميه وفعاليته وتفرده ، استيقظ عقله ، ليزداد إيماناً بهذه العظمة ، وذلك عن مزيد من الجهد ، فى تبين دلائل هذه العظمة والإعجاب بها ، والتحدث إلى النفس وإلى الغير عنها .

وهى دعوة وجدانية ، لأنها تستحثه على تبين الجمال فى هذا الكون ، وفى العلاقات الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وفى آثار رحمة الله ، ولطفه بعباده ، مما يزيد الإنسان رقة وعطفاً وحرية وتسامحاً ، فيزداد بذلك قدرة على التفكير المتسق الذى لا تشتته وتبدد قواه ، عوامل الكره والحقد والخوف والشك والتردد .

دعوة للاطمئنان والراحة :

أما أنها دعوة نفسية ، فذلك لأنها تؤنس الإنسان فى هذا الكون الفسيح المترامى ، فلا تخيفه من اتساعه ، ولا تلقى فى نفسه الجزع إذا

لمعت بروقه أو دوت رعوده أو توالت فيه الزلازل ، والبراكين والفيضانات ، لأنها تجعله يطمئن إلى قوة عاقلة ومدركة ورحيمة ، تدير هذا الكون وتشرف عليه وتؤكد للناس فيه أن خالقهم يبلوهم بالشر والخير فتنة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » (البقرة ٢١٦) ، وبروح هذه الطمأنينة ، وبفضل هذه السكينة ، تصبح الحياة مجالاً للإنتاج المثمر الهادئ ، فتكون سبل البحث عن الحقيقة مفتوحة للإنسان ، دون أن يصرفهم عنها تشاؤمهم ، وانقباضهم واعتقادهم بأن هذا الكون ، مكان كريه ومخيف ليس فيه إلا الكوارث والمصائب وأنه لا جدوى من البحث والاستزادة منه ، لأن كل شيء ما خلا الله باطل .

والمسلمون يفهمون قول الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » (إبراهيم ٧) . لا على أن حمد النعمة يبقيها ويزيدها فقط ، بل لأن التأمل في كل ما هو جميل ورائع في هذا الكون ، من الماديات والمعنويات ، يزيد الإنسان في نفسه علماً ورقة وسعة أفق ، وقدرة على الابتكار والإضافة أشبه شيء بمن يقف مأخوذاً أمام لوحة جميلة ، من صنع فنان من البشر . فالذين يعرفون كيف يبحثون فيها عن أسرارها وحسن صنعتها يشعرون باللذة والارتياح ، وهذا الشعور يهيء الإنسان للعمل النافع والخلق الذى يقود الآخرين إلى مثله .

وإذا كان هذا التأمل ممن يمارسون فن الرسم ، فإنه يزداد علماً بهذا الفن ، وكذلك الحال إذا كان العمل الفنى كتاباً يقرأ أو موسيقى تعزف ، أو بناء يشاد ، أو خطبة تلقى فالانتباه والدراسة الفاحصة ، وحب الأثر الذى يمر عليه الإنسان يؤيد من أحبه وقدره فى الحال فى حين أن الذين

يمرون على آيات الكون ، دون أن يحمدوها ويشكروها ، فهم يغلقون نوافذ أنفسهم فتضمر قلوبهم وعقولهم .

عقيدة صنعت الحضارة والعلم :

وهكذا يرى الإنسان أن عقيدة ألا إله إلا الله وعقيدة الحمد لله صنعت فعلاً الحضارة الحديثة وصنعت التكنولوجيا ، وصنعت الإنسان العاقل المفكر المتدبر .

الإسلام والمذاهب (الحديثة)

فى بداية العقد الرابع من القرن الحالى ، كانت « النازية » ، قد بلغت قمة نجاحها وسط حيرة وارتباك خصومها ، وتساؤل ودهشة المحايدين من المراقبين والسياسيين والمؤرخين .

ولم يكن نجاح ذلك النظام ، عسكريا فحسب وإن كان الجانب العسكرى ، قد بلغ حد الإعجاز البشرى ، إذ حاربت ألمانيا بفضله كل القوى الحربية فى العالم المتمدين ، فهزمتها جميعـاً — ولكن الجانب العسكرى لم يكن سوى الوجه الظاهر ، لحشد هائل من ملكات التفكير والتنظيم والاختراع والاحتيال ، والإسهام والتأثير ، فى دروب الحكم والاقتصاد والدعاية والتموين والنقل والمواصلات ، والطباعة والنشر ، والحرب النفسية .

النظام النازى

وقد بلغ هذا النجاح أقصى الغاية ، حينما استطاع أن يضم إلى صفه ، كبار رجال السياسة والفكر ، فى المعسكر الأوربى والأمريكى الذى يكره ألمانيا بطبيعته ويكره أنظمة الحكم الشمولية أو الكلية ، التى كانت النازية أوضح وأظهر نماذجها فقد اجتمعت كل السلطات فيها

فى حزب واجتمعت سلطات الحزب فى زعيم وحسبك أن تعلم أن بطل أبطال فرنسا عدوة ألمانيا التقليدية ، وضع يده فى يد زعماء ألمانيا النازية الدولة التى قهرت أمته ، وهزمت شعبه ، وفرضت على فرنسا ، أكثر المعاهدات إذلالاً ، وأشد أنواع الاحتلال امتهاناً ، ولم يكن هذا القائد سوى البطل القومى « بيتان بطل فرنسا فى موقعة » « فردان » ، فى حين كان أكثر الرأى العام السياسى فى الولايات المتحدة يضمر الإعجاب بألمانيا وقد كان على رأس هؤلاء جميعاً « كندى » سفير الولايات المتحدة إلى لندن « الدراجون كندى » أشهر رؤساء الولايات المتحدة فى نصف القرن الأخير .

ولا يحسبن أحد أن هذا مقدمة بحث عن (النازية) ، وإنما هو حديث متصل بهذا الكتاب عن (الإسلام والمذاهب الحديثة) ، والإطالة فى إيراد ما تقدم ، الغاية منه ، إثبات أن علماء المسلمين وزعماءهم المشغولين بجانب الفكر والنظر ، من حياة إخوانهم وشعوبهم وأممهم ، لم يكونوا بدعاً بين أشباههم ونظائرهم فى الأمم الأخرى التى خلبت (النـــازية) أنظارها ، وأوهمتها ، بأنه نظـام جدير بالحياة ، وقادر على البقاء بل إنه الحل الأسمى لأزمة أوربا والغرب كله لذلك ليس عجباً ، أن يتقدم بعض علماء المسلمين حينما نفـد صبرهم من زحزحـة الاستعمار الغربى من موقفه المتعنت والمتعالى ، بعد طول الملاينة ، ثم المقاومة ، والمجاهدة ، ولعله مما استدرج هذا الفريق من علماء المسلمين إلى ما انتهوا إليه . موقف دول الغرب آنذاك ، أى فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية وطوال مدتها (١٩٣٩ – ١٩٤٥) من قرحة فلسطين الملتهبة ، وتأييد بريطانيا ثم الولايات المتحدة. ثم الغرب كله لاستيلاء اليهود

عليها ، وطرد العرب أصحابها منها ، فى الوقت الذى كان يعلن فيه هتلر حربًا صليبية على اليهود ، فى كل أنحاء العالم ، محملاً إياهم مسئولية كل مصائب الدنيا من حروب وأزمات مال واقتصاد ، وانقلابات ودسائس ، وإيقاد فتن .

ولست أنسى ليلة ضمت عدداً من زعماء العرب والمسلمين ، فى دار واحد من كبارهم فى القاهرة ، والحرب ، تبدأ أول أدوارها ، والجميع حيارى ، لا يعرفون ماذا يفعلون ، وإلى أى جانب ينحازون ، وأى طريق فى الحرب والسياسة ، يسلكون . ثم بدأ الكلام شيخ ذو لحية طويلة بيضاء ، تهتز فى رفق على صدره ، الفسيح العريض ، كلما نطق ، قال الشيخ ، فى رصانة يمازجها أسى عميق ، وحزن غائر ، تخفيه ملامحه الوقورة ، ونبرات صوته العريض : « صدقونى يا أولادى ، أن ما ترونه من نجاح ألمانيا ، وزعيمها ، دليل على صدق نظر الإسلام ، وصحة مبادئه . ما يحدث بالضبط هو تطبيق للجانب المادى البحت من الإسلام ، فلو أضيف إلى النازية ، الجانب الروحى الذى ينقصها ، لبرئت من العيوب التى تشينها ، ولجنبها الأخطاء والجرائم ، التى تسود صفحتها

فصدرت أصوات استنكار من ناحية فى المجلس ، وأصوات احتجاج من جانب ، وأخيراً أصوات تساؤل واستفهام من ركن ثالث ووجد الشيخ صعوبة فى استئناف الكلام ، ولكنه استطاع آخر الأمر أن يتكلم ، وأن يحمل الناس فى المجلس على الإنصات : —

من حقكم أن تنكروا على أن أقرن الحركة النارية المادية المتجبرة ، بالإسلام السمح . ولكن سنحرم أنفسنا من الوصول إلى الحقائق ،

والانتفاع بها ، كلما رددنا أنفسنا عن أن نناقش أموراً قد يكون فيها الحق ، لمجرد مراعاة أمور تواضعنا على التزامها واحترامها . أنا رجل شابت رأسه فى دراسة القرآن وتدريسه ، والدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه ، ما استطعت . ولكن هل يعجبكم حال الإسلام والمسلمين ، التى تعرفون . . وما سر هذه الحال عندى ، إلا أننا نغمض أعيننا عما يجرى حولنا ، بدعوى أو بأخرى . النازية — بعد طول التفكير — هى الإسلام بعد إسقاط الجانب الروحى منه . وقد تسألون ، وماذا يبقى من الإسلام ، إذا سقط الجانب الروحى منه . وأحذركم أن تقولوا إن الإسلام روحانية بحتة فهذا خطأ كبير ، الإسلام بناء ومادة وقواعد حياة وأصول حكم ، وتجارة وصناعة وزراعة ، وزواج وطلاق . حياة بشرية كاملة ولكن يحيط بهذا كله ويرفعه إلى مستواه الأعلى ويجمله ، ويجلله روح سامية هى الإسلام . والله قد خلق آدم أولاً بيده ، بخلقه من صلصال من حمأ مسنون ، خلقه من طين لازب . خلق جسمه أولاً ، أرجوكم أن تسمعوا وأن تفهموا . فبناء آدم المادى وجدتم نفخ الله فيه من روحه .

والله تعالى قال إنه خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم عقب تبارك : « ثم رددناه أسفل سافلين ، هذا شأن الجسم المادى ، إلا أن رحمة الله تداركته فقال . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . افهموا هذه الحلقات وعوها جيداً ، لتعرفوا الإسلام ، ولتدركوا دوره ، ولتهتدوا إلى سبيل تجديده وبعثه . فالبناء الإسلامى بقى مزدهراً رفيعاً ، تموج فى أبهائه طوائف العلماء والمفكرين والشراح والمفسرين ، والفقهاء والمجاهدين ، مع أن روح الإسلام كان قد نالها ما نالها ، بسبب انصراف المسلمين عن دينهم

وانشغالهم بدنياهم ، ولكن كانت روح الإسلام تشع نورها ، وإن حجب قليلاً عن القلوب . . وبقى البناء ، يزدهر ويرتفع ، ويبدو جميلا ، وإن كانت مصابيح الأنوار السماوية تنطفئ فيه ، مصباحاً بعد مصباح . والغاية من هذا التشبيه أن أقرر أن المظهر المادى للإسلام بقى ، وإن كان إيمان المسلمين ناله الضعف شيئاً فشيئاً ، بل لعل المظهر المادى ، زاد ضخامة ورواء ، بما فتحه الله على المسلمين من أراض وأقاليم ، وبما ساهم به علماء المسلمين ، وفقهاؤهم وفلاسفتهم فى تعليم الأمم وتلقينها والأخذ بيدها . ولكن الحقيقة لم يكن ممكناً إخفاؤها كان هذا البناء الباذخ يتحول شيئاً فشيئاً إلى بناء يسكنه المسلمون ولا يملكونه . أكثره مأخوذ ومنحول ومستعار من غيرهم وإن كان اللواء الذى يرفرف على أعلى سارية فيه ، هو لواء الإسلام ، وإن كان الشعار المكتوب على مدخله هو آيات من القرآن ، . . فإذا فهمتم ذلك ، فقد استطعتم أن تفهموا ما الذى أعنيه أن النازية هى التطبيق المادى للإسلام الذى يرينا كيف نجدد بناءنا ، مادة وروحاً .

« فما هى النازية فى رأيى أنا بوصفى من المسلمين ؟ . إنها زعيم متجرد للمصلحة العامة من عامة الشعب وفقرائهم . ولا أحد ينكر أن زعيم النازية ، يفيض حبا لبلاده وإعجاباً بها . قولوا عنه ما شئتم الا أن تنكروا عليه ذلك . ثم هو يعلن أنه يمثل المصلحة العامة ، لأنه لا يسعى إلا لها . ومن هنا فأنصاره يقولون عنه إنه زعيم معصوم . وأنه أقدر على تبين ما تقتضيه المصلحة القومية العليا لبلاده على وجه أسلم وأوضح من مئات المجالس النيابية ، التى لا يصل أعضاؤها إلى مقاعدهم فيها ، إلا بما نعرف كلنا

من وسائل شراء ذمم الناخبين بالمال ، والتأثير ، والوعد والوعيد .

فنفقه البداية فى النازية ، هى رجل قوى ، مؤمن حقًّا بما يقول لا يخجل أن يقول ما يؤمن صراحة ، بدلاً من هذا الهراء الذى تروجه د يموقراطيات الغرب ، من الإيمان بالشعوب والجماعات ، التى يضحكون عليها ، وتقاد من خطامها فنقطة البداية هى أن الرجل المتجرد للمصلحة العامة يضم حوله رجالاً قريبين منه وشبيهين به فى التجرد لها ، والفناء فيها . لا يصلون إلى مكانهم بالانتخاب وإنما بالجهاد والمضى على طريقه ، لا يترهلون من الاستسلام للراحة والإخلاد إليها .

والنقطة التالية ، هى أن هذه الجماعة ، وعلى رأسها ، زعيمها ، لا تعمل شيئاً إلا بالتشاور فيه ، وتبادل الرأى . هذه هى الشورى . شورى الرجال الصالحين الذين أظهرهم الجهاد ، وبرزوا فى ميادين العمل الصالح ، فى الحرب والسلم ، ثم النقطة الأخيرة ، هى الناس . نعلمهم بشىء واحد ، هو القدوة الصالحة . بإنكار الذات ، بزهد القادة فى مباهج الدنيا ، فالانقطاع الكامل للعمل من أجل الجماعة ، بالثقة فى الدين ، لا بالوعود الكاذبة ، ولا بادعاء أن الشعوب هى التى تحكم .

هذه الجماعة ، سيكون من حقها ، لا بحكم نص فى القانون ، ولكن بحكم التربية والتنشئة ، أن تقول للحاكم أخطأت وهى لا تهاب . لأن الحاكم وصل إلى مكانه بالجهاد ، لا بشراء الأصوات ، ولا ببذل الوعود ، ولا بالضحك على الناس . .

ثم عاد الرجل يتكلم فى هدوء عجيب ، دون أن يخرجه الترسل فى الحديث عن ضبط نفسه فقال :

الألمان يقولون « ألمانيا فوق الجميع » والقرآن قال « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أنا أعرف أن هناك فارقاً كبيراً بين المعنيين ، ولكنه فارق روحي ، ولكن إن أخذنا الألفاظ على ظاهرها ، قد نرى تشابهاً .

« إن هؤلاء النازيين يريدون أن يرفعوا زعيمهم إلى المكان الذى رفع الله إليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، حينما قال لنا « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ولكن هيهات أن يصل زعيمهم إلى مواطئ قدم الرسول فهذا موحى إليه ، من ربه ، وقد اختارته العناية الإلهية « صدارهم على عينها . ولكن لا يزال الشبه المادى قائماً ، وأنا لا أود أن أحرج صدوركم بهذه المقارنات ، وأنا أعرف وقعها على أسماعكم ولكن اسمعوها ، وغفر الله لنا جميعاً » ، فنحن لا نبغى إلا الخير» .

« ولأمر ما كانت خصومة اليهود لزعيم الألمان ، أشد الخصومات لدداً ، والله تعالى قال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وقد أجلاهم رسول الله عن بلاد العرب ، فى حين أن زعيم الألمان ، تبعا لحضارة عهده ، مثل بهم وخرج عن كل حد معقول وهذا هو الفرق بين زعيم ورسول » .

وختم الرجل كلامه بقوله : أنا لا أدعوكم إلى النازية ، ولا أحسنها لكم لأنى لا أدعو إلا للإسلام : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ولكنى أردت أن أقول ما أقول لأحذركم من الوقوع فى حبائل ، ما يروجـــونه للديموقراطية وأشباهها ، فإن الإسلام يأبى هذا الرغاء ، الذى يتناثر فى الهواء ، ويؤمن بالرجل المؤمن الصالح القوى ، ليتحلق حوله رجال أقوياء ، نذروا أنفسهم لطاعة الله ، رحماء بينهم ، أشداء على أعدائهم ،

يجد فيهم خصومهم غلظة ، وهم يتواصون بما قاله الله تعالى لهم :

« قل إن كان أباؤكم آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين .

وقد كنت أحب أن أرى هذا العالم الفاضل ، بعد أن توالت هزائم الألمان النازيين وزعيمهم ، ولكنى وجدت علماء مسلمين كثيرين ، يسدون وجه الأفق إذ تلقاهم فى كل مكان تذهب إليه ، يشيدون بالديموقراطية ، بعد أن رجحت كفتها فى نهاية المجزرة البشرية الثانية ، التى بلغت غايتها سنة ١٩٤٥ .

ومرة أخرى وجد الإسلام الناس بفضل هذا الجيش من العلماء ديموقراطيًّا ، ووجدوا نصوصه ، وآياته ، وأحاديث رسوله ، عليه الصلاة والسلام تدعو إلى الديموقراطية : حكم الشعوب نفسها بنفسها .

وقد قيل فى هذا الصدد ما أصبحنا نعرفه لكثرة ما تكرر ، فى القرآن الكريم آيتان تنصان على الشورى ، وتأمران بها ، فى سورة الشورى آية قال فيها الله تعالى فى وصف المؤمنين : وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

وفى سورة آل عمران : فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ».

وقد سجلت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقعة بدر أنه أراد أن ينزل المسلمين منزلاً اختاره لهم ، فسأله أحد أصحابه أهذا المنزل ،

أنزله إياه ربه ، أم هى الحرب والخديعة ، فأجاب رسول الله : بل هى الحرب والخديعة . كما أثر عنه عليه الصلاة والسلام ، أنه احتمل مراجعة أحد المسلمين المعروف باسم «ذى الثديية» لنتوء لحم فى وجهه يشبه الثدى الصغير فى أمر توزيع الغنائم إذ وجه إليه عليه الصلاة والسلام هذا الرجل قولاً جافيا بدأه بعبارة : أعدل يا محمد . وكررها ثلاثاً وفى الثالثة فقط قال الرسول . ويحك من يعدل إذا لم أعدل .

كما جذبه أعرابى جلف من ردائه حتى ترك الثوب أثره فى عنق الرسول ، والأعرابى يقول : أعطنى من مال الله . فأعطاه الرسول وهو يبتسم .

وقد روى لنا تاريخ المسلمين كيف اختاروا بعد ان قبض رسول الله إلى ربه ، خليفتهم الأول ، فى مشاورات طالت ، واحتدم فيها النقاش ، واشتد الجدال ، كما أثرعن الخلفاء الراشدين من الأقوال والأفعال ، ما ينفى كل شبهة فى أن الإسلام دين الشورى ، ومن ذلك ما قاله الخليفة الأول رضى الله عنه وهو يطلب من المسلمين أن يطيعوه ما أطاعه الله فيهم ، وأن يؤيدوه ما استقام ، ويسدداه إذا أخطأ ، وأن الخليفة الثانى رضى الله عنه خطب المسلمين فطلب منهم أن يقوموا اعوجاجه ، فأقسم مسلم ليقومن اعوجاجه بحد السيف . فحمد الله ، ان كان من بين المسلمين من يقوم اعوجاج أمير المؤمنين بحد السيف .

هذا كله بعد أن أرسى القرآن القاعدة الكلية من أن الناس سواسية ، وأنهم لا يتفاضلون إلا بالتقوى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد شرح

هذا المبدأ رسول الله بقوله : لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

وذلك انتفت الشبهة على أن الإسلام هو دين الديموقراطية .

وتواصى المسلمون بأن يقيموا فى بلادهم هذه الديموقراطية ، لينصلح حالهم ، ويثوبوا إلى سابق أمجادهم ، ويدفعوا عن أنفسهم ما لحق بهم من الهوان وقلة الشأن ، وتفرق الكلمة ، والخضوع للأقوياء .

ولكن لم ينقض على انتصار (الديموقراطية) فى الحرب العالمية الثانية ، على دول الحكم الشمولى أو الكلى الذى تجتمع فيه السلطة كما قلنا فى حزب ، وتجتمع كلمة الحزب فى جماعة بين أعضائه ، وتجتمع سلطة هذه الجماعة ، فى زعيم يدين له الجميع بالطاعة والانقياد ، لم تنقض سنوات حتى واجهت الديموقراطية فى موطنها الأصيل ، من العقبات ، والصعاب ، وأزمات المال والعمل ، التى تمثلت فى تضخم النقد ، وكثرة المتعطلين ، وتوالى الإضرابات ، وفساد الأعمال ، حتى بدأ يساور الناس جميعاً إحساس بأن الديموقراطية ، التى هى الحرية السياسية لم تعد كافية لإقامة الحكم الصالح ، وعلا الحديث الذى يدور حول الحرية الاجتماعية أو الاقتصادية . وهى حرية لا تمنح كل مواطن صوتا يدلى به فى الانتخابات فحسب ، أى يتيح له الحق فى إبداء الرأى فيما يجرى فى بلده من أمور الحكم والاقتصاد والتشريع ، بل تضمن له قوت يومه ثم تضمن له قدراً من العناية الطبية إذا مرض ، ومعاشاً يعينه على مواجهة الشيخوخة إذا أسن وعجز عن العمل ، كما توفر له رزقاً مناسباً إذا تعطل لمرض أو لكساد الأعمال فى وطنه . وقيل أن الصوت الانتخابى لا قيمة له إذا كان صاحبه

جائعاً لا يجد ما يسد رمقه ، جاهلا لا يعرف كيف يقرأ ولا يكتب ، ولا يميز بين الغث والثمين من الأقوال ، وقد ظهرت دول كثيرة بعد الحرب العالمية الثانية ، تصطنع هذه الديموقراطية الجديدة ، وتزرى بالديموقراطية السياسية وبعدها نصبا واحتيالاً ، وتعد حرية الرأى فيها وهى مضللا إذ أن الصحافة فى بلد يحكمه الأغنياء أصحاب النفوذ ، لا تكون إلا بوقاً لهؤلاء ، لأن الصحيفة لا تقوم إلا بقدر ما تجنى من أرباح الاعلانات والمعلنون هم أصحاب المصانع والمزارع والمتاجر ، وهم بهذا أصحاب الكلمة فى الصحف ، حتى ولو لم يكونوا أصحابها فعلاً ، وشعر المسلمون أن قولهم بأن الإسلام هو دين الديموقراطية لا يكفى لإعلاء شأنه ، وإذاعة دعوته ، ونشر كلمته ، فلا بد إذن أن يكون الإسلام اشتراكياً .

وفى الحال استطاع هؤلاء العلماء ، أن يجدوا النصوص التى تؤيد أن الإسلام هو دين الاشتراكية ، بل هو أول مذهب أرسى مبادئها ، وأحكامها ، فقد قال رسول الله الناس شركاء فى ثلاث : الماء والنار والمرعى . والماء والنار كانتا مصدر القوة والطاقة فى عهد الرسول ، وقياساً عليهما ، يمكن أن نقول إن مصادر القوة والثروة يجب أن تكون ملكاً للدولة ، ليكون الناس شركاء فيها بحق .

والذين يقولون إن الإسلام اشتراكية ، سيجدون فى ركن الزكاة من أركان الإسلام الخمسة ، ما يؤيد دعواهم ، فالزكاة هى إضافة لجزء من أربعين جزءً من رأس المال ، إلى المال العام ، لينفق فى سد حاجة الفقراء والمرافق العامة والخدمات الاجتماعية فى الجهة التى تم فيها تحصيل حصيلة الزكاة . وقد بلغ من حرص الإسلام على إقامة هذا الركن أن

الخليفة الأول خاض حرباً ضروساً ضد القبائل التى ارفضت أداء الزكاة إذ وهمت أنها ضريبة تفرضها الحكومة المركزية فى مكة على القبائل الموزعة فى أطراف الجزيرة وأعطافها ، وقد بلغ من شدة هذه الحرب ، أنها كادت تكون ثورة ضد الخليفة الأول ، وتنذر بانهيار دولة الإسلام ، ومع كل هذه المخاطر ، أبى أبو بكر الصديق ، الوديع الرقيق إلا أن يمضى فى هـذه الحرب ، لا يلوى على شىء . فعل ذلك على الرغم من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حاول أن يثنيه عن إعلان الحرب على المرتدين ، وعمر هو عمر ، قرباً من الرسول وصاحبه ، وإيماناً بدعوة الله ، وتشدداً فى إقامة دينه .

على أن الزكاة ليست هى كل ما يطلب من المسلم أداءه فإن كتاب المسلمين ، القرآن الكريم ، فاضت آياته بدعوة متصلة للإنفاق فى سبيل الله ، أى فى السبيل العام ، أى فى وجوه الخير والمنفعة التى تتطلبها ظروف الجماعة وتقضى بها ، وهذا الإنفاق العام ، يصل إلى مرتبة العبادة ، لأنه يكفر الذنوب ، ويقرب إلى الله ، ككفارة اليمين الباطلة والإفطار فى رمضان ، والظهار أى الطلاق الجاهلى ، الذى كان شائعاً قبل الإسلام .

ومن الآيات التى تدعو إلى الإنفاق : «مثل الذى ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » .

ولكن لا يزال فى الإسلام من النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ما يظهر جانب الاشتراكية الواضح الجلى فى الإسلام ، فالقرآن يقول « وآن ذا القربى حقه والمسكين» كما يقول فى وصف

المؤمنين المسلمين :« كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » وبهذين النصين ارتفع الإنفاق على الفقراء ، وسد حاجتهم ، إلى مستوى الواجب ولم يعد تبرعاً أوتطوعاً ، وهو أمر لم تصل إليه كثير من المذاهب الاشتراكية الحديثة ، ولم تقرره بهذا الوضوح والإلزام .

بل ان فى النصوص القرآنية ، ما يعلن منهجاً اشتراكيًّا صميماً ، وعميقاً ، فقد قال الله تعالى فى سورة الحشر : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » فهذا نص صريح للدلالة فى كراهية استئثار الأغنياء بالمال ، وقيام دولة للأغنياء .

أما نصوص القرآن فى الربا ، فهى استظهار بين لروح الإسلام والاشتراكية ، فقد قال الله تعالى : الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » كما قال : يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ، إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » .

فهذه النصوص تدل على كراهية كل صور استغلال حاجة الإنسان وفقره ، فى سبيل الحصول على المال والاستكثار منه ، وليس الربا ، إلا أظهر صورة من صور هذا الاستغلال المقيت ، فكل استغلال آخر ملعون فى الإسلام ، وواجب المنع والتحريم ، وتصوير من يأكل الربا ، بأنه كمن يتخبطه الشيطان من المس ، تصوير بالغ التأثير ، يكاد

يلمس الإنسان بفصله باليد ، مدى ما يضمره ويعلنه الإسلام من كراهية وُسخط على هؤلاء الذين يركبون ظهور الناس ، ويستذلونهم ، لعجزهم وقلة شأنهم فى المجتمع ، مع تقرير الإبقاء على رأس المال ، بعد تجريده من سلاحه المسموم ، وهو الفائدة التى تحيله وحشاً مفترساً ، وغولاً شرساً .

فانا أضفنا إلى هذا قول الله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب آليم » بدت صورة المجتمع الاشتراكى الذى أراد الله تعالى أن يقيمه بأحكام القرآن . مجتمع لا يكون فيه المال سيداً ، ولا يسمح فيه بجماعة منه تتميز استئثاراً بالمال ، ولا يكتنزه ، ولا بالكسب من غير العمل ، لأن المال لا يلد مالاً ، وإنما الذى يلد المال ويصنعه هو العمل وحده .

وتزداد هذه الصورة وضوحاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تعـالى وتبارك » وبقوله عليه الصلاة والسلام : ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم »

وقوله : أيما جماعة مات فيها امرؤ جوعاً ، لزمتها ديته » أو كما قال .

فجماع هذه الاحاديث ، ان مجتمع المسلمين ، هو مجتمع التضامن الاجتماعى ، الذى يكفل فيه أهله بعضهم بعضهاً ، والذى لا يكون فيه للجوع والفقر ، موضع ، يعضف فيه بفريق من أهله : وأن من يموت جوعاً ، فيه ، بمثابة من قتل عمداً ، فتجب على الجماعة

كلها أن تعوض أهله عن مقتله لأنها قتلته بشحها وشرها .

وقد استوحى خلفاء وصحابة رسول الله ، هذه الروح ، من بعده ، فقد كره رسول الله ، أن يضع للسلع سعراً ملزماً ، أى أن يلجأ إلى التسعير الجبرى ، حينما قال له المسلمون ، كما قال أبو هريرة : يا رسول الله سعر لنا » فقال بل أدعو ، ثم قال : إن الله تعالى يخفض ويرفع » وعن أنس أن الناس قالوا ، يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا فقال : أن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ثم روى البيهقى « أن عمر مر ببائع تمر وأمره أن يرفع سعره أو يدخله بيته » أما التابعون ، فقد أفتوا بجواز التسعير ومنهم سعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصارى ، والتسعير هو صورة من صور تدخل الدولة فى المجال الاقتصادى ، وتوجيه المال . وهى بداية اشتراكية ، بلا خلاف . وقد ذهب الإمام مالك إلى جواز التسعير ، ويرى هذا الرأى بعض الشافعية ، فى حالة الغلاء .

ولكن الذين دعوا إلى الحرية الاجتماعية ، واعتبروها مناط حرية الإنسان الحقيقية ، ولم يقنعوا بضمان رزق الفقراء ، وتقرير المعونات والمعاشات للمتعطلين وتقرير معاشات للعمال المسنين ، وإقامة مرافق واسعة النطاق للخدمة العامة المجانية من جمية صحية وثقافية المستشفيات والمدارس المجانية ، وتقرير وتمليك الدولة مصادر الثروة الطبيعية ، ومرافق المواصلات والإنارة ، واعتبروا هذا كله عبثاً لا طائل تحته ، فاستغلال الفقراء فى رأيهم لن ينتهى إلا باستئصال رأس المال الخاص من جذوره ، وقصر الملكية بأنواعها على الدولة التى تمثل الشعب كله ، لتصنع خططاً

مركزية وشاملة ، تعين على زيادة الموارد العامة لرفع مستوى الشعب الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، ولتحول حيلولة كاملة ونهائية دون نشوء أية صورة من صور الاستغلال ، بأى اسم ، وفى ظل أى نظام . وأن الوعظ والإرشاد ، والنصح والتوجيه ، لا ترد المستغل عن استغلاله ، ولا تمنع من بيدهم المال ، من إخضاع الحكم لتوجيهم ، وحينما تخضع الحكم للمال ، فلا أمل للفقراء الكادحين فى أن يحصلوا إلا على فتات موائد الأغنياء . وجملة القول أن هؤلاء قد بشروا بأقصى درجات الاشتراكية وخاتمة المطاف فيها ، حيث ينعدم رأس المال الخاص فتنعدم الطبقات ، ويصبح المال العام ملكاً للجميع وينتهى القهر ، وتفقد الدولة وظيفتها ، لأن الدولة لا تقوم إلا لخدمة الأغنياء والأقوياء فى المجتمع لقهر الضعفاء والفقراء ومنعهم من إزالة الحكم القائم على استذلالهم واستعبادهم .

وقد رأى فريق من المسلمين ، أن الحرب العالمية الثانية أسفرت عن ظهور قوة هائلة ، هى قوة الاتحاد السوفييتى ، الذى قام على هذه النظرية ونفذها فى هذه القارة الفسيحة ، التى تسمى (روسيا) والتى تترامى آفاقها لتشمل مساحة عظيمة فى آسيا وأوربا معاً ، فإن الناس فوجئوا ، عقب الحرب العالمية بأن هذه الدولة التى لم يسمعوا عنها وعن نظامها من قبل ، إلا أقل القليل ، لم تقنع باقتسام النصر العسكرى الهائل ضد ألمانيا ، مع الغرب إذ أعلنت أنها عرفت سر القنبلة الذرية ، كما عرفته الولايات المتحدة من قبل ، ثم استعملها فى صنع قنبلتين جهنمتين ألقت بهما على مدينتين تعيستين فى اليابان فى السادس والتاسع من أغسطس ١٩٤٥ ، فمسحتهما من فوق سطح الأرض فى ثوان ولذلك

نشأ ما بين هاتين القوتين أى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ما عرف (بتوازن الرعب) القائم على خوف كل جانب من قنابل الطرف الآخر الذرية .

والأهم من هـــذا كله ، أن الاتحاد السـوفييتى ، بسط نفوذه المادى والروحى على النصف الشرقى من أوربا ، ثم وقفت إلى جانبه أكثر الدول سكاناً ، وأعظمهما مساحة ، وأقدمها حضارة ، وهى الصين ، فأظلمهـا معاً علم (الشيوعية) ، ومضت كل منهما تحقق انتصارات مذهلة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث وصلتا فى بضع وعشرين سنة إلى مرتبة من النجاح والقوة ، لم تستطع دول غيرهما أن تصل إليها فى التاريخ الطويل العريض فى أحقاب وعهود ، بعد أن كانت روسيا والصين مثلين من أمثلة الفوضى والانحطاط والتخلف والعجز . ومن ثم فقد زاد أثرهما فى المجال الدولى زيادة مضطردة ، روجت لمذهبهما فى السياسة والاقتصاد ، كان من مظاهره نشوء أحزاب قوية غاية القوة ، فى دولتين من أعظم دول أوربـا هما فرنسا وإيطاليا إلى جانب أحزاب شيوعية عديدة فى دول أخرى .

ولم يكن ممكناً أن يشهد الفكر الإسلامى كل هذا التطور ، وألا يفكر فيه ، وألا يتدبر معانيه . فمن علماء المسلمين ، من رأى فى الشيوعية ، خطراً محدقاً بأقطار المسلمين ودولهم ، بل بعقيدتهم وبينهم ، فإن دعاة الشيوعية الأوائل ، دعوا إلى تأجيج نار الصراع بين الطبقات المحرومة والمغلوبة على أمرها ، طبقات العمال والكادحين والفقراء ، مع الأغنياء أصحاب المصانع والمزارع ، ورأس المال ، والموجهين لأقدار بلادهم

عن طريق أحزاب يديرونها ، وصحف يصدرونها ، وهيئات للطباعة والنشر ، وللسينما والمسرح يؤسسونها تروج أفكارهم ، وتخدع الفقراء والعمال عن حقيقتهم . وقال هؤلاء الدعاة إن رجال المـال ، فى عهد رأس المال الطليق صاحب الكلمة النافذة ، استأجروا كبار الأحبار ورجال الدين فى كل مكان ، ليصرفوا الفقراء ، عن حقيقة حالهم ، وسبها ، بالرجاء فى عالم أخروى ، ينعمون فيه بأنهار من العسل المصفى ، تحيط بهم فيها الحور العين والولدان المخلدون . وأن الأغنياء ، لم يبخلوا على ترويج فكرة الجنة والفردوس المقيم ، لتبقى لهم شركاتهم وأرصدة ملياراتهم فى المصارف الدولية ، تروح وتغدو كالأسد المفترس ، بحثاً عن الفريســـة فى أى مكان ، والمحرومون التعســاء ، يرددون أدعيتهم ويرتلون أناشيدهم فى بيوت الله ، سواء كانت مسيحية أوإسلامية أو يهودية أو بوذية . فمن هنا وجب أن تهدم الكنائس والمعابد والمساجد على رءوس علمائها وأحبارها وقبسيسها وعلمائها . وأن يحرم الدين الذى يبعث هذه الأخيلة الكاذبة المهدئة والمنومة ، وأن يعلن أن الدين هو أفيون الشعوب . وأنه يجب تحريم تعاطيه ، ومن هنا أشفق المسلمون على دينهم ، وعقيدتهم ، وخافوا أن تزحف هذه الدعوة إلى بلادهم ، فتنخدع بها النفوس البريئة ، التى بهرها انتصار العالم الشيوعى العسكرى والصناعى وسرعة تقدمه وضخامة ما أنجز فى كل حقل ودرب ومجال ورأى آخرون أن المسألة ليست بهـذا القـدر من البساطة ، وأن الحكم على الأمور بهذه الخفة ، يؤدى بالمسلمين إلى أمرين أولاً مخاضمة قوة دولية هائلة ، تتعامل معها الدول الكبرى ، وتسعى إلى عقد المعاهدات والعقود معها ،

وإن كانت تعمل كل ما فى وسعها لاتقاء خططها وتدبيراتها وتسد فى وجهها مسالك ومسارب التسلل .

ثانياً – حرمان أنفسنا من دراسة هذه التجربة الإنسانية الضخمة ، التى لا ينكرها إلا كاذب ، أنها خلقت عالماً جديداً ، وغيرت مجتمعاً بأسره ، وأدخلت فى حياة الأمم والشعوب والأفراد أساليب جديدة فى الإدارة والسياسة والتوجيه والتخطيط والبحث .

هذا إلى أن بعض الذى يقوله دعاة هذا النظام الجديد ، صحيح فيما يخص رجال الدين ، لا الدين نفسه ، وأننا نحن أنفسنا شكونا ، كما شكا غيرنا كثير من الأمم من مصانعة الأحبار والعلماء ومداراتهم للحكام الظالمين وطنيين وأجانب . وأن الدعوات تبدأ دائماً ، فى صورة من التطرف ، ثم تصطدم بحقائق الحياة ، فتخفف من غلوائها ، وتقلل من أندفاعها ، فالثورة الفرنسية غالت فى محاربة العهد القديم حتى تنبعث رجاله بالقتل والتشريد وطمس آثاره ، واعتبرت كل ما قيل فيه ، أو صدر عنه كفراً وتحريفاً ، ثم أصبحت الثورة مذهباً معتدلاً ، ضاق به المؤمنون بالتقدم السريع .

ويهمنا من هذا كله ، أن بعض الذين درجوا على أن يوائموا بين الإسلام وبين أى مذهب ناجح فى العالم ، حرصاً على مستقبل دينهم حيناً ، وجرياً وراء كل ظافر ذى قوة حينا آخر ، قالوا إن المسلمين ، المؤمنين حقاً ، جديرون بأن يجدوا فى الشيوعية ، تحقيقاً لما دعا إليه الإسلام فإن رسول الله قال إن الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا سبيل إلى إقامة هذه المساواة إلا بما فعلته الشيوعية إذ جردت الجميع من أموالهم – وجعلت

المـال ، حكراً للدولة ، أى للناس قاطبة . فامتنع الاستغلال ، وزال الفقر ، وسدت السبل فى وجه الاستعلاء والادلال . كما ذهبوا فى التدليل على صحة دعواهم : بأن الإسلام لم يحارب أحداً كما حارب أغنيـاء مكة وقريش ، وأن القرآن لم يلعن أحداً كما لعن هؤلاء المتألهين الذين كانوا يدلون بمالهم وتجارتهم وعبيدهم وإمائهم ، وينفقونها فى الصد عن دعوة الإسلام ونبيه الكريم فقد قال مثلاً فى الوليد بن المغيرة فى سورة المدثر : ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد ، كلا أنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً .

وفى سورة القلم – ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين . وقد بين القرآن الكريم موقف أغنياء قريش ، من دعوة الإسلام ، وعقدهم العزم على استعمال المال وسيلة لمحاربة هذه الدعوة الجديدة « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » .

على أن فى القرآن من الآيات ما يكشف بجلاء عن نظرة الإسلام للمال ، فالمال ، هو مال الله ، أى أنه ملك عام ، فالله تعالى يقول : وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ، وقال عزو يتارك : وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فالقول بأن المال ، مال الله ، وأن الناس ليسوا سوى أمناء وحراس عليه وهو قول لم يصل إليه مذهب من المذاهب الاشتراكية الحديثة ، لأن ترجمته بلغة هذه الأيام ، هو أن المال وظيفة عامة ، وليس ميزة شخصية .

ثم يقولون فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد ، فليعد به على من لا زاد له » أدركنا أن ما زاد عن حاجة الإنسان يجب أن يكون فى خدمة غيره ، وأن الاستئثار به ، لا تقره روح الإسلام . ولقد انتهى الأمر بالخليفه الثانى :
عمر رضى الله عنه أن قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وقسمتها على فقراء المهاجرين »

وهكذا ترى أنه ما من صاحب مذهب حديث ، إلا وقال عن الإسلام إنه تطبيق لمذهبه ، والصورة المثلى ، لعقيدته ، ولو صدقنا هذا كله لكان الإسلام نازية وديمقراطية واشتراكية وشيوعية فى آن واحد فهل هو هذا حقا ؟ وهل يتسع ، لترامى آفاقه ، لهذه المذاهب المتناخرة ويظلها بظله ، مع تناقضها ، وصراعها ، ليقيم منها بناء متناسقاً أم هذه دعاوى ، ليست لها إلا غاية واحدة هو أن تدخل إلى المسلمين من المدخل الذى لا يرفضونه ، ولا يلتفتون إلى ما يدس عليهم عن طريقه .

وواقع الأمر أن الصلة منبته بين الإسلام وبين هذه المذاهب التى جاءت بعدة بقرون ، وجاءت ثمرة تطور الحضارة الحديثة على أساس من الظروف التى صاحبت نشوء هذه الحضارة ، فقد ولدت ، بعد الحرب الصيلبية ، التى كشفت لأهل أوربا مدى تخلفهم عن العرب والمسلمين ، فعقدوا العزم على أن ينقلوا عنهم أصول حضارتهم ، وأن يقلدوهم ، ما استطاعوا التقليد ، وكان أن نقلوا عن العرب والمسلمين المنهج العلمى القائم على التجربة ، وقد بشر بذلك كل من روجر

بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢) وفرنسيس بيكون (١٥٦٠ - ١٦٢٦) كما سبقت الإشارة فى هذا الكتاب وقد كانت تلك خطوة موفقة ، وسديدة ، ولكن صاحب هذا التطور العلمى الصائب حروب طاحنة وشرسة بين البابوية ، وبين عدد من أقوى ملوك وأباطرة أوربا ، جعل الدين مخوفاً فى أوربا وجهل سلطته على العقول والنفوس محل ارتياب وشك ، لما مارسته بعض السلطات الدينية فى هذه الفترة العصيبة فى تسلط على أفكار الناس ما يعلنونه ، بل وما يضمرونه من أفكار وذلك فى فترة ديوان التفتيش التى انتهت إلى تحريم قراءة الكتاب المقدس ، على غير القساوسة المأذون لهم ، وظهور طوائف متطرفة ، كادت تنقض بناء الكنيسة من أساسه ، بل ، والعقيدة المسيحية من قواعدها .

ومن ثم سار العقل والفكر فى أوربا ، فى طريق ، وسار الدين والكنيسة فى طريق مما جرد جميع الحركات الفكرية والتحررية والتجديدية فى أوربا من وحى الدين ومن قوى النفس الإنسانية التى لا تقل عن عقل الإنسان ، تأثيراً فى حياته .

وقد أيد هذا التطور وأكد آثاره ، اكفهر الطبيعية المادية فى أوربا ، فقد عاش الإنسان فى تلك القارة ، فى حرب مستمرة مع الأمطار والثلوج والضباب الكثيف والصقيع ، مما وسم الحياة كلها بالعنف ، وجعل كل ما فيها صراعاً فانعكس هذا على أسلوب حياة الأوربى ، فمضت كلها صراعاً دمويا بين قوى مختلفة : فبعد أن حسم النزاع بين الكنيسة والسلطة الدينية ، استمر الصراع بين الملك والأمراء ، وبين الملك والشعب ، وبين أهل القرى وأهل المدن ، وبين العمال وأرباب

الأعمال ، ولما سبقت أوربا إلى إخضاع قوى الطبيعة ، استطاعت بفعل هذا السبق أن تحصل على وسائل لإخضاع الجماعات بقوة البارود ، مما مكن دولاً أوربية صغيرة المساحة ، قليلة عدد السكان ، كهولندا وبلجيكا أن تحكم أقاليم شاسعة كأندونسيا والكونغو ، مما أكد هذا الصراع ، وأضاف إلى سجله فصلا جديداً ، ومن خلال كل هذا ، انبثقت المذاهب الجديدة ، متأثرة بطبيعة الفترة التى ظهرت فيها . فما كان من وجوه الشبه بين تلك المذاهب وبين الإسلام أو حتى بينها وبين المسيحية ، لم تكن إلا مجرد شبه سطحى ، لا يقوم على جوهر طبيعة الدينيين وبينها .

فالإسلام عقيدة قائمة بذاتها ، ليس فيها ديموقراطية ، وليس فيها نازية ، ولا اشتراكية ولا شيوعية ، وقد تلتقى – كما سبق القول – مع بعض المذاهب فى أمر أو أمور ، ولكن عند تحليل هذا التشابه ، ورده إلى أصوله – يبين أنه فى واقع الأمر اختلاف لا التقاء .

فالديموقراطية التى استخلصها الأمراء ثم زعماء الشعب من ملوك أوربا ، غايتها ألا ينفرد الملك بالحكم ، ووسيلتها إقامة مجالس ينتخبها أفراد من الشعب ، كانوا فى أول الأمر ، ممن يؤدون ضرائب بمقادير تحددها قوانين الانتخاب – ولم تقم قط على أساس احترام الإنسان الفرد لذاته ، أيا كان نصيبه من المال والعلم ، ولم تنظر إلى نفس الإنسان ، ولا إلى عقله ، ولا إلى تقويم نظرته إلى الحاكم ، ولا إلى حقه إزاء هذا الحكم ، ولا إلى علاقة الحاكم والمحكوم ، بخالق هذا الكون والمبادئ الأساسية التى يجب أن تحكم العالم كله . ومن هذه كان ممكنا أن يموت

الإنجليزى أو الفرنسي ليظفر بحريته فى بلده ، ثم ينطلق بعد ذلك ، ليحكم غيره من بنى البشر وقد يكونون من أهل قارته أو من إخوانه فى الدين ليركبهم بالهوان والذل . لأن الحرية التى سعى لها ، وحارب من أجلها ، لم تكن حرية إنسانية وإنما كانت حرية ذاتية ، ثمرة صراع محدد ، ذى غايات محلية فى حين أن المسلمين حينما خرجوا إلى العالم ، كانوا أينما ذهبوا يحررون العبيد ، ويؤاخون بين الناس ، ويرفعون البلاد المحكومة إلى سواء العربى المسلم الفاتح ، ويفسحون أبواب الترقى والعلم والتحصيل والقيادة والإقامة لكل الأجناس بلا تفرقة ولا تميز .

فالديمقراطية السياسية فى أوربا ، كان أساسها فرضاً قانونيا ، هو أن الأمة هى صاحبة السيادة ، وأن المعبر عن هذه السيادة هو الناخب بصوته ، وأن الهيئة التى يفرزها أصحاب الأصوات الانتخابية هى أعلى سلطة ، ثم ثبت أن هذا الفرض وهم فالناخبون لا يعبرون عن الأمة ، وإنما عن مصالحهم الشخصية البحتة ، وفى بعض الأحيان ، لا يملكون التعبير حتى عن هذه المصالح بل عن مصالح من هم أقوى منهم حتى كاد الناخب فى كثير من الأحوال أن يكون صوت سيده ، وقد استمر الصراع بعد قيام الديموقراطية فقد ثار الشعب فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والنمسا والمجر ، عشرات المرات ، وسقط الألوف بعد الألوف وبقيت الحرية وهى أمل لا تطوله الأيدى .

وقد جاءت الاشتراكية لترقع ما تمزق من ثوب الديموقراطية ، فلم يكن الاشتراكيون أحسن حالاً من الديموقراطيين ، فقد كانوا يسيرون الجيوش إلى بلاد الشرق العربى ولا إلى بلاد الشرق كله ، بل ولا إلى أمريكا اللاتينية

وآسيا ، ليقيموا ألواناً من الحكم الذى لا تسنده إلا الحراب والسيوف . وكانت الشيوعية اخر مراحل هذا التطوير القائم على نفس الأساس ، فظهرت فيها عيوب الأساس (١) .

فالشيوعية حبست نفسها فى سجن المادية الضيق ، الذى يؤدى حتماً إلى الإيمان بالعنف كوسيلة مبررة لإقامة النظام وتثبيت دعائمه ، والعنف لا يلد إلا العنف وردوده المتوالية . والمادية ، التى تحسب أن ما عداه باطل ووهم ، تقيم الحياة على جانب واحد من الإنسان وتلقى بباقيه فى العدم ، فيبقى كل شىء جزئياً ، ولم يقوم الواحد الصحيح ، ومن ثم فنحن نرى العالم قد انقسم إلى اثنين ، يتداوله معسكران ، يشطران كل مشكلة وكثيراً من الدول والمدن إلى شطرين فألمانيا اثنتان وكوريا اثنتان والصين اثنتان وإرلندا اثنتان وبرلين اثنتان وفلسطين اثنتان بل أكثر من اثنتين ، وقد لحقت بأولئك قبرص ، وأزمنت المشكلات ، وتحققت ، وما ينفق على التحضير للحرب والخوف منها ، واتقاء شرها مليارات فوق مليارات ، وثلث العالم لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس ، وأصبح العديد من الدول لا يجد حتى جرعة الماء ، فإن حزام الجفاف يتسع ويزداد عرضاً .

أما النازية ، فقد انحسرت بوجهتها ، وإن لم تفقد جاذبيتها عند قطاعات عريضة فى عدد من الدول التى لا تجد لمشكلاتها حلا . ولم تكن النازية ابتكاراً (لهتلر) ، فقد كانت نتاجاً ألمانيا بحتاً يمثل مشكلة ألمانيا القوية التى لا تقنع بمكانها فى أوربـا ، دون الزعامة التى ترى نفسها بفضل مواهب أبنائها النادرة ، وطاقاتهم الفنية والعلمية والإدارية والتنظيمية ،

(١) كتاب « الإسلام والإنسان المعاصر» للمؤلف فى سلسلة اقرأ .

جديرة بالقيادة ، وبأداء رسالة عالمية . وهى تؤمن بعنصرها ، ومن ثم فهى تؤمن بالرجل البطل العظيم ، وبحفنة من الرجال الأشداء الأقوياء يحفون به ، ويفنون فى سبيله ، وينفذون أوامره ، ولا يستوحون الشعب ، الذى يرتبطون به بدعوى أنه لا يحب الحرية . وبل يتعثر فى ذيولها الطويلة ، ويفضل عليها أن يساق إلى ميادين المجد ، وإن يتلقى أوامر واضحة ومحددة من قائد قوى ، يعرف ماذا يريد ، ويقتضى من الناس الاحترام والطاعة ، وهم سعداء به ، وبوجوده على رأسهم . ويرون فيه تجسيد أنفسهم ، ولا يضيعون وقتهم فى الثرثرة الديموقراطية ، التى روج لها اليهود ، ليشغلوا الناس عن مؤامرات اليهود ودسائسهم وجمعهم المال ، وتسلطهم على الأسواق ، وإشاعتهم الفن الوضيع ، والأدب المهلك .

فأين الإسلام من كل هذا .

الإسلام يقيم بناءه على قاعدة طويلة عريضة عميقة . هى الإيمان بإله واحد ، يحكم هذا العالم ، بقوانين ثابتة لا تتغير ويتساوى أمامه الجميع . والإيمان بالتوحيد ليس اكتشافاً تعبدياً روحياً ، بل هو هداية عقلية . فقد حررت هذه العقيدة الإنسان من الأوهام والأباطيل ، وسدت الطريق فى وجه المشعوذين والمتجرين بالأكاذيب العقلية الباب ، وأصبح اتصال الإنسان بربه ، وبالعالم كله ، اتصالاً مباشراً ، لا يقوم فيه أحد مهما كبر مقامه ، أو عظم علمه ، بدور الوسيط أو الشفيع بين الناس وبين خالقهم .

وقد تناولت هذا المعنى فى فصول هذا الكتاب ، بشىء من التفصيل

والإسلام يؤمن بأن الذى يصوغ حياة الإنسان هو ما يدور فى عقله ، وما يساور نفسه ، وما يضطرب فى أعماق وجدانه ، لذلك حرص على أن

ينشئ الإنسان الحر الشريف ، الكاره للدنايا ، والصغائر ، المتطلع للسمو ، الباذل نفسه وماله ، من أجل المثل الأعلى ، ولقد قرر الله تعالى لهذا الإنسان حريته بنصوص عديدة فى كتابه الكريم منها قوله تعالى : لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » منها « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومنها قوله « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

فالنص الأول يؤكد أن الإنسان يختار لنفسه عقيدته ، دون أن تفرض عليه حتى من خالقه . فحرية الإنسان إزاء العقيدة التى يأمر بها خالقه محققة بأمر هذا الخالق العظيم ، مبدأ ينفرد به الإسلام . وكان من أثره انتشار نوره فى أقل من قرن من الزمان مع قدرته الفائقة فى خلق الحضارة أينما ذهب . فقد بحث العلماء فى ظله حتى ولو لم يكونوا مسلمين وتناقشوا واهتدوا إلى حقائق العلم المادى الذى أقام الحضارة الحديثة .

والنص الثانى ألقى مسئولية حياة الإنسان على عاتقه ، فهو الذى يقبل وهو الذى يرفض ، وهو الذى يبنى وهو الذى يهدم . ومن ثم ، فقد انطلقت الطاقات الحبيسة فى هذا المنجم الغميق . منجم نفس الإنسان ، فكان العلم الذى نشره الإسلام الذى بنى عليه العلم الحديث ، مشطوراً أو محذوفاً منه نصفه .

والنص الأخير ، لا يعدل سموه وجلاله ، ، نص آخر ، فقد ساوى الله بين الظالم وبين المظلوم الذى يقبل الظلم ، إذ لا ظالم إلا حيث يجد مظلومين خانعين ، يذعنون للخسف ولا يجتمعون للوقوف فى وجهه ،

ملتفتين عن الحكم الذى قرره القرآن ، ليدفع عن النفس الإنسانية غائلة الخوف : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

وإلى جانب هذه الأحكام الثلاثة ، لم يأت القرآن لقوم ذاهلين عن الدنيا كما قلنا وكررنا ، وحقائق العيش المادى ، فقد وصف القرآن الإنسان ودوافعه المادية ، لا لينفض منه يده ، بوصفه مخلوقاً ، ميئوساً منه ، بل بوصفه قابلاً للعلاج والهداية قال الله تعالى : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » .

ولم يطلق الإسلام الإنسان فى الهواء ، قاطعاً صلته بالأرض ، التى يعيش عليها ، ويكافح على وجهها ، بل أنه ربطه بها ربطاً محكماً ، ليعرف كيف يسعى فى مناكبها ويجرى فى مسالكها فقال للناس : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . فالقرآن لا يحجب الجانب المادى للحياة الإنسانية ، بل نبه إليه ، ويدعو الإنسان للتأمل فيه وقد كرر هذا المعنى من ذلك قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

« والقرآن نبه الإنسان أيضاً إلى عنصر من عناصر حياته فى الأرض ذلك هو الصراع القائم بين الأحياء والدافع للتقدم .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

والإنسان فى القرآن ، يستوطن الأرض كلها ، فهو إنسان منتسب إلى العالم ، لا يغلق نفسه فى مكان ، ولا يقيم بينه وبين أخواته فى هذا الوطن الفسيح حواجز ولا سدوداً . .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفعوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هذا هو الإسلام ، وهذا هو موقفه ومكانه ، مما سواه من المذاهب .

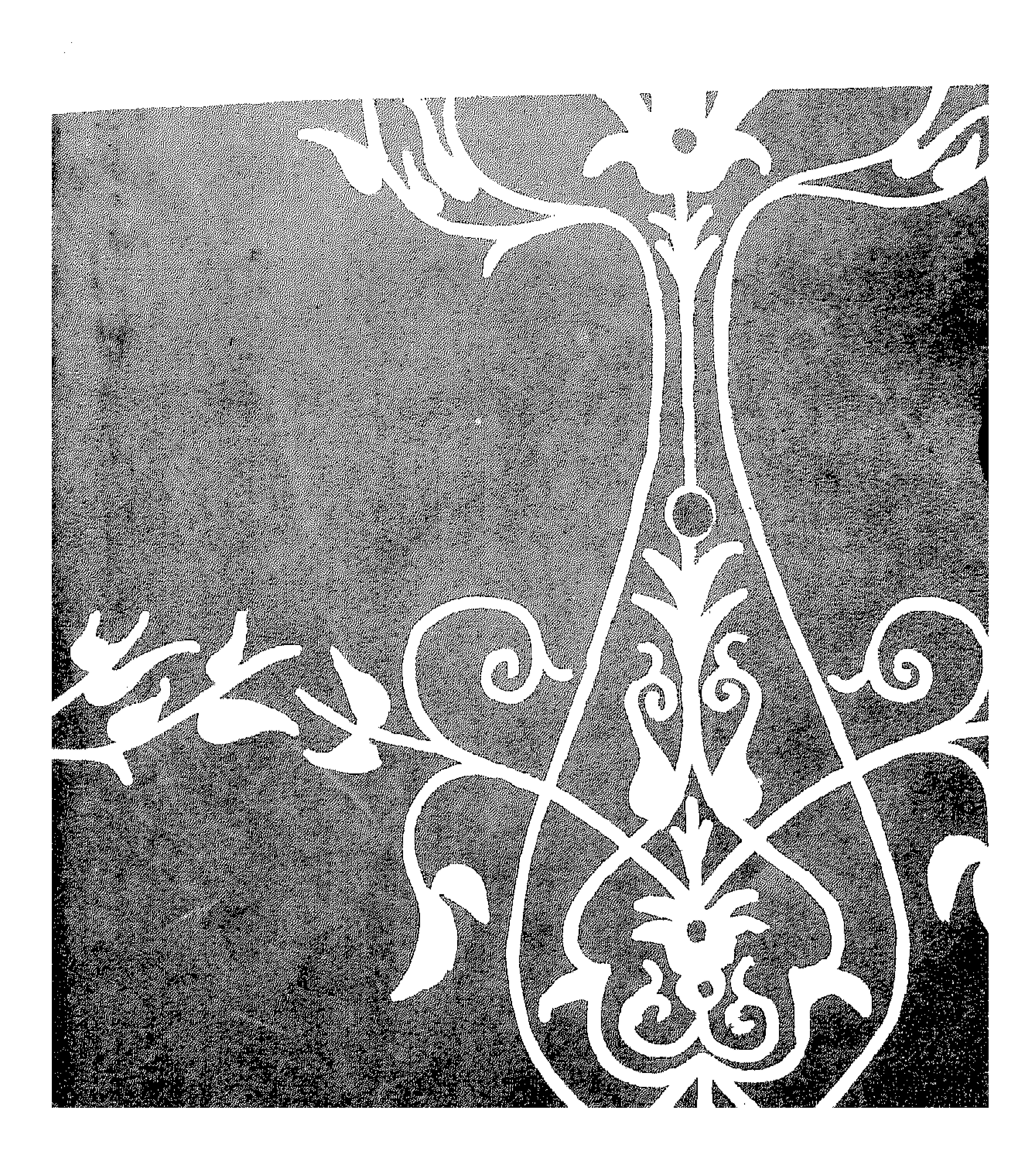
وقد تسألنى أى إسلام هذا الذى تحدثنا عنه ، وحال المسلمين أمامنا لم يصل إلى مثله ، أهل دين أو مذهب آخر .

والواقع أن هذا الاعتراض صحيح ، ولكن ما نراه هو ضعف المسلمين ، واختلافهم ، وتخلفهم ، وحيرتهم ، لشيء واحد واضح ، هو انقطاع صلتهم بدينهم ، ولعجزهم عن فهمه ، والتأثر به ، إلى حد أنهم لا يجدون مذهباً ناجحاً حتى يخيل إليهم أنه دينهم أو أنه يشبه دينهم أو أنه يغوضهم عنه . ولكن الإسلام لا يسأل عن كل هذا ، فإن التجربة الإسلامية التى استمرت بضع مئات من السنين حققت للناس الذين شاركوا فيها ، من القوة والسعادة والإخاء ، والتقدم المادى والطمأنينة النفسية والتألق الروحى ، ما لم تحققه أية حضارة أخرى فى ظل أى مذهب آخر ، فالإسلام لم يفتح فقط أبواب العلم للناس ، ولم يقفز بهم فى مجالات الرياضة والفلك والطب والجغرافيا والعمارة وعلوم البحار قفزات لم تتح لهم من بعد ، بل إنه آخى حقاً وفعلاً بين الشعوب ، وقضى على النزعات العنصرية وقلل إلى أضيق نطاق أسباب الفرقة والنزاع بين الطبقات والشعوب ومن ثم فمن حقه أن يقول إن هذه التجربة جديرة بأن تدرس ، وبأن تعاد من جديد .

فهرست

رقم الإيداع	١٩٧٦/ ٤٦٧١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٥٠٢ – ٧

١/٧٦/٤٦٩ مطابع دار المعارف–١٩٧٦





أحمد عبد المجيد

رحلة مع الظرفاء



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



خذ المعارف من دار المعارف

أحمد عبد المجيد



اقرأ ٤١٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٦)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . ج . م . ع .

تمهيد

تجمعت لى من أطراف العالم ، سهوله وأعاليه ، وحواضره وبواديه ، مادة وفيرة من كل ما اتصل بالظَّرف ، أو أَلَّم به ، أو طاف حوله وحول أهله من الماجنين وسمّار لياليه ، ومن اشتهر من الظرفاء فى العالمين العربى والغربى .

وقد يجتمع القول الظريف ، وبناؤه اللطيف ، فى لماحيته وعمقه ، داخل إطار واحد ، وعلى قاعدة ثابتة ، مهما تباينت الأجناس والأذواق والمشاعر والأحاسيس ، ومهما سلك أهل الظرف من الدروب ، ومن وسائل أكثرها من وحى الخاطر ، وأقلها مما كان عن دراسة وتعمق وفلسفة .

وهذا الاستقطاب لكافة الاتجاهات ، ومختلف طرائق البشر فى سَوْق الفكاهة ، أو خلق النادرة ، وفى عناصر الظرف وقواعد المجون ، هو مهمة هذا الكتاب ، للتعريف بما وراء المجون من مواقف ودواع .

ولست أزعم أن ما أعرضه شيئاً فريداً جديداً ، إذ أن الأدب الغربى والأدب العربى يزخران بكتب وفيرة فى هذه المادة ، حتى لقد أصبح الأدب والظرف نسيجاً واحداً ، لا بد لأحدهما من صحبة الآخر ، ولا غناء لهذا عن ذلك .

ولست أدرى هل عرف التاريخ عصراً لم يكن فيه المجون والظرف من ضرورات الحياة ولوازم الحضارة الحديثة ، إلى حد أن فنون الآداب كانت تطلق منذ القرن الثالث الهجرى ، على فنون المنادمة عند العرب ، بما كانت

تحويه من فكاهة ونوادر وغناء وموسيقى ومطارحة للشعر ومساجلة فى المدح أو الهجاء .

كما أننى لا أدرى ، هل عرف الناس أدباً خلا من الملح والطرائف ، التى هى قوام كل أدب ، وصميم كل أدب ، والأنس الذى يشرح الصدر ، ويجلب راحة الفكر ، أينما حل الإنسان وحيثما ولّى وجهه .

ولقد صدق معاوية فى قوله الذى أورده الصابى فى تحفة الأدباء :

« لا يكون للمرء صبرٌ على الجد ، حتى يأخذ من الهزل قدراً » .

والمجون ملازم للإنسان فى حالى الصحة والمرض ، واليسر والعسر ، والراحة والتعب ، والرخاء والشّدة . وإذا كان مفهوماً أن يكون المجون ملازماً لحالات الصحة والرخاء واليسر ، فإن قيامه فى الأمور المضادة يكون عجيباً ومستغرباً ، ولكنه عجب يزول إذا عرفنا أن التنديد من طبع الإنسان ، إذا فاق الحد ، فى اللعب أو الجد ، وفيما يعترض حياة الناس فى مسعاهم ، من بخل وجشع ، ونفاق وتبجح ، واستكانة وحاجة ، وأن هذا التنديد يشحذ قدرات الكتاب والشعراء ، وهذا هو لب الفكاهة وصميم المجون ، فى شرق كان ذلك أو فى غرب .

من ذلك قول عبد الحميد الديب وهو فى أشد حالات العوز والحاجة يصف حجرته التى لم يكن بها من أثاث سواه :

تحمّلت فيها صبر أيوب فى الضَّنى
وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

* * *

ومهما يكن من أمر ما صدر فى هذا الشأن من كتب ، فإن الأقلام قد

تناولت كارل ماركس ، وشكسبير وبايرون وڤيكتور هيجو ولامارتين ، وبرنارد شو ، وأبا العلاء المعرى وابن الرومى والمتنبي ، وكانت لكل كاتب زاويته التى تناول منها أدب المترجم له ، مثلما يصنع الرسامون والنحاتون فى الموديل المعروض ، الذى ينقلون عنه أحاسيسهم ورؤيتهم الخاصة من زواياهم المختلفة ، ليروا فى الموديل رؤى لا تلمحها العين المجردة ، ولينقلوا عنه بفرشاتهم ، تلك الأحاسيس والمشاعر ، بعد أن استشفّوا من واقع ما رأوا ، أفانين من الحقائق والأوهام ، تدب فى أوصالها الحياة والفن .

الفصل الأول

مدخل إلى عالم الفكاهة والمجون

النكتة كما فسَّرها علماء النفس والفلاسفة ، إنما هى محاولة لإعادة التوازن داخل النفس المضطربة القلقة ، التى هزَّتها أحداث زعزعتها عندما وقعت خارجها ونفذت إليها ، فرأت تلك النَّفس أن تستعيد توازنها بالضحك أو افتعاله .

ويقول ماوتسى تونج ، فى معرض متابعته للصراعات الدولية والتوازن الدولى : « إن خلل التوازن هو القاعدة ، والتوازن هو الاستثناء . انظروا إلى القمر ! ما هى المدة التى يتوازن فيها ويصبح بدراً ؟ إنها ليلة واحدة فى الشهر ، ثم يبدأ بعدها خلل التوازن » .

والنكتة تتطلب من المتلقى لها ، لماحية وقدرة على التصور والتخيل ،فإذا ما افتقرت إلى هذا النوع من المتلقِّين والمستمعين ، احترقت . . كما يقولون ولا تجد على وجه مستمعها إلا مزيجاً من البلاهة وعدم الفهم . ولولا خوفه من أتهميتهم بالغباء ، لسأل جاره : ماذا يعنى الأخ ؟ . . .

كذلك تتطلب النكتة من راويها ، حُسن إلقاء ، وخفة ظل ، وبراعة عرض ، مع اختيار مناسب ، إلى جانب تمثيل للمواقف بالإشارة أو حركات الوجه ، لتكتمل صورة ما يرويه مؤدى الفكاهة .

كان الرّسام (لوتريك) الفرنسي فنَّاناً قديراً فى عالم الرَّسم . وكانت دمامته تحول دون اجتماعه بالمرأة ، نأياً بنفسه عن رؤية ما يؤذى وجدانه ، ويجرح كبرياءه ، من مظاهر النفور منه من جانب المرأة .

من أجل ذلك آثر البعد عنها ، وإن كان يقترب منها بفرشاته ، كلما رأى جمالا يلح عليه ، وما يزال به حتى يسجله ، ليحتفى بما رسم ، ويتلذذ بما صنع .

وقد مرَّت به مع المرأة تجربة جعلته يختط لنفسه هذا الطريق .

وكان يقول فى معرض تحليل المرأة من واقع تجربته المرَّة ، وألمه الدفين ، وإحساسه المرهف وسُخره اللاذع :

« إن المرأة إذا أحبَّت ، والمرأة إذا كرهت . . . لا ترحم . . . »

هنا يجىء دور المتلقى لهذا القول الحكيم ، النابع من تحليل وقدرة على التغلغل فى أغوار النفس البشرية ، وفى دخيلة المرأة بوجه خاص ، وقدرة على التهكم بأسلوب ذكى .

فعلى المتلقى أن يتصور امرأة أحبت رجلا لا يقابلها عاطفة بعاطفة ، بل يتجنَّبها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهى تلاحقه دون هوادة ، فلعله أن يقع مرة ، لتبدأ معه غرامها فى الانتقام لكبريائها ، وويلٌ للمغلوب .

والصورة المقابلة لهذه الصورة ، تكون عندما يحب رجل امرأة تنفر منه وهو يتابعها ويلاحقها وكأنها فى سباق ماراتون . هذه الصورة الهزلية يرسمها خيال المتلقى اللماح ، وكأنه يشاهدها على إحدى الشاشتين . . .

والنكتة المصرية بصفة خاصة ، هى التى تكشف عن العلاقة بين المصرى ، وبين ما انطوت عليه جوانحه من حب للمرح ، وبذل للود ،

ورغبة فى الاستمتاع والانطلاق فى أجواء لا تحدها إلا حدود الذوق ، التى يقيمها هو بنفسه ، ويجعل منها سياجاً لا يتعداه ولا يجاوزه إلى ما يحرج أو يجرح . ذلك أن المصرى ، من أى طبقة كانت ، يحمل نفسه على أن تكون على ما يحبه لها ، بعيدة عما يجرح إحساس الآخرين ، حتى لا يعرض ذاته لمثل هذا التجريح .

وقد رسم قاسم أمين ، لابن البلد المصرى ، صورة قلمية بارعة ، تنم عن قدرته على استجلاء الغامض ، وكشف ما لا يبين .

فابن البلد فى تصويره إنما هو :

« رجل خفيف لطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه . ولم يره أحد غير مبتسم . إذا قال لك نهارك سعيد ، ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيّب ضحك ، وإذا سمع أن صديقاً مات ، ضحك ، (فربما تذكر لهذا الصديق موقفاً أثار ضحكه) . إنه زينة المجالس ، وأنيس النوادى . يرى نفسه مكلّفاً بوظيفة السرور فيها ، ومنوطاً بنشر التفريح حوله ، مستخدماً كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه » .

وفى يقينى أن الإنسان الضاحك ، أو الذى يصنع الضحك ، هو إنسان رقيق المشاعر ، مرهف الحس . فليس الإضحاك بالأمر الهيِّن ، بل الهيِّن هو بعث البكاء واستحداث الأسى . من أجل ذلك كان كتّاب الكوميديا قلة إذا قيسوا بكتاب التراجيديات ، منذ المسرح الإغريقى حتى زماننا هذا .

وكان مهرجان ديونيسوس إله الخمر والإخصاب ، يقام فى مسرح الأكروبول على مدى ستة أيام . تُخصص أربعة منها لعرض التراجيديا

واثنان منها لعرض الكوميديا بين كتاب هذين النوعين من الدراما ، فى مسابقة تخصص لها جوائز . وكانت الترجيديا من حيث النشأة والظهور ، أسبق من الكوميديا ، مثلما كان الشعر من الناحية التاريخية أسبق من النثر .

والإنسان الضاحك ، على قدر استجابته للضحك ، أو قدرته على إثارته ، نراه سريع الاستجابة للبكاء إن دعا داعيه ، أو حدث ما يحمله عليه . فهو مرهف الحس كوتر الكمان . .

ويقول شاعر لمّاح :

إذا أنا لم أضحك فقدت مشاعرى
وإن أنا لم أحـــزن فقــدت شعورى

* * *

وربما كان المصرى القديم الذى بنى الأهرام الخالد ، وشيَّد المعابد والتماثيل التى تطاول الزمان وعواديه ، وزخرفها بأفانين من رسوم وديكور وألوان عزَّت على الأفهام أسرار تركيبها . والذى صنع أول حضارة إنسانية ، وقام بأول ثورة عرفها التاريخ عندما خرج عن المألوف ، ووحّد الإله المعبود ، على يد أخناتون ، نقول . ربما كان هذا المصرى ، هو الإنسان الأول ، الذى رسم على الأرض طريق الحياة ، وأقام عليها أول حضارة إنسانية عرفتها الدنيا ، عندما كانت العوالم الأخرى فى بيداء التأخر ، وانعدام المعرفة وبدائية العيش .

هذا المصرى القديم ، ربما كان هو أول من ضحك من بين كائنات

هذه الأرض العجوز . لقد كان يسجل فكاهاته وسخرياته على أحجار الأعمدة والجدران والمعابد فى صور كاريكاتيرية لوجوه حيوانات على أجساد آدمية ، ويتخذ من الأوزة مثلاً ، وحشاً كاسراً يسوق أمامه أسداً هصوراً . أو منظر حمار يلاعب أسداً بقطع من الحجارة ، إشارة ذكية من الفنان إلى أنه يلقى بنفسه إلى الهلاك لأنه ، حمارٌ . . حمارٌ . . . وذو نسب بين الحمير عريق . . . .

* * *

وربما كان المصرى من أبناء البلد ، من أكثر الناس انزعاجاً لرؤية أى نقص أو عيب فيما حوله من كائنات متحركة أو جامدة . وإنك لتستمع منه إلى قوله (آخر لطافة) لأنه يعشق الكمال .

والقهوة البلدية خير شاهد على ذلك . فالقائمون بالخدمة فيها ، ما إن يحل الغروب ، حتى يأخذوا فى رش ما حولها بالماء ، حتى لا تثير الريح الأتربة ، وتزعج الروّاد . وحدّث عن الكراسى وعنايتهم فى رصّها وصفّها فى مربعات هندسية أو صفوف متراصة أفقية ساذجة ، ولكنها ذكية اقتصادية

أما بريق الأوانى النحاسية فهو همهُم فى النهار ، وهمّهم فى الليل ، ومذلتهم إذا اكتشف المعلم انطفاء لها أو خيّل له ذلك ، إذا انطفأ فجأة مزاجه . . .

وهم يضعون جهاز الراديو فى مكان لا تصل إليه إلا أيديهم ، ويختارون له وضعاً رُواقيًّا ، مثلما كان الأساتذة والمشايخ فى الزمان القديم يتصدرون أروقتهم ، التى يلقون فيها دروسهم فى المساجد على مرتفع من الأرض .

ولا بد من زهور توضع بعناية فى آنية فخّارية وأغلب هذه الزهور أو (الصُحبات) من العتر والرّيحان والنعناع ، ليزدان المقهى بها وتسعد بنفحها نفوس الروّاد .

والمناداة على الطلبات تتسّم بظرف جذاب ، ترتاح له أذن الزبون وصاحب المقهى ، فالتنغيم مستطاب ، والصوت عالى النبّرة ، رنّان الجرس ، نادى القرار .

وصبي القهوة ، يفتنّ فى تبجيل الزبائن من كبار الأسطوات والمعلمين ، لا طمعاً فى رفدهم ، ولكن إعجاباً بهم وتقديراً لمقامهم ، لأنهم أصحاب (معْلَمة) ، كل واحد منهم قطبٌ فى صنعته وملك بين صبيانه .

ويرون أن رجلاً رقيق الحال ، قصد مقهى من هذه المقاهى البلدية ، ولم يكن يملك ثمن طلبه . وقد أسرّبذلك فى أذن الصبي الذى طيَّب خاطره ، وأفهمه أن رقبته سدَّادة ، ثم نادى بصوت مرتفع للعامل الذى يعد الطلبات داخل المقهى ، ويسجِّل فى الوقت ذاته ، عدد الطلبات وأثمانها ، قائلا :

شاى كُشرى للسيد مغاورى والحساب عندما تُفرج . . . إنه لا يقصد إحراجه ، ولكنه يريد ألا يسجل العامل الذى يقوم بإعداد الطلبات ، ثمن هذا الطلب فى حساب وإيراد هذه الليلة ، ولكنه يريده على أن يرجئه إلى ميسرة ، كما وعد الزبون ، ولن تتأخر عن الغد أو بعده بيومين .

وابن البلد هذا رقيق فى معشره ، لا يفحش القول إلا إذا استثير ، وعند ذاك تشهد مباراة ، لا أذن سمعت ولا عين رأت مثلها ، فهو يختار قاذع القول الذى يصيب به هدفه فى دقة ودراية ، ويصفه خارجياً وداخلياً ، بما فى ذلك أهل بيته ، كأنه أشعة الليزر . . . وأحسب أن من خير ما كتبه

الكاتب البريطانى T. A. Wilson ، عن المصريين ، قوله :

« قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى ، والأرض السمراء الخصبة ، المستدفئة بشمس أفريقيا . ولكن السبب الأكبر الذى يكمن وراء هذه الحضارة ، هو عقيدة المصرى القديم ، بأن مصر يحكمها إله ، هو ابن إله الشمس ، الذى يمنح مصر الخلود ، ويحرر أهلها من الخوف »

ذلك أن التحرر من الخوف يبعث على الاطمئنان . والاطمئنان سبيل الأمل والتفتح للحياة . ومن تفتّحت مشاعره للحياة ، اندفع يعبّ منها وينهل مستبشراً فرحاً . والاستبشار مدعاة للضحك والانشراح ، والانطلاق إلى العمل بروح متفائلة .

والمرء إذا زايلت نفسه معاول الخوف الذى يحطم الإرادة ، ويهدم القيم الأخلاقية ، ويدفع بصاحبه إلى الكذب والنفاق والمذلة ، ويباعد بينه وبين أى مبهجة أو ابتسام ، اندفع مع تيار الحياة ليأخذ بنصيبه من مرحها وبهجتها ، ومن المشاركة بالعمل المخلص الصادق .

وما أظن أن امرءاً يخاف من شيء أو يخشى عاقبة أمر ، إذا كان قادراً على الأضحاك وانبعاث الفكاهة ، لأنه ينطلق على طبيعته ويترجم عن إحساس خلا من التعقيد ، ويواكب سجيته التى ركبها الله فيه ، وأنعم بها عليه .

ومهما بلغ الوقار بأحد كائناً من يكون ، يستطيع أن يمسك نفسه عن الضحك إذا ما استمع لقائل أو راوٍ ، لحكاية الشغّالة الصغيرة ، التى دقّت باب جارتهم فى السكن ، فلما فتحت الجارة ، بادرتها الشغّالة بقولها : ستى بتصبح عليكى ، وبتقول لك اضربينى قلمين ، علشان إيدها مش فاضية . . .

أو حكاية الراكب فى الترام ، الذى أعطى الكمسارى عشرة قروش ، وكان إلى جواره راكب آخر أعطى للكمسارى قرشاً واحداً ، وكان الزحام حائلا دون التعرف على وجوه دافعى أجرة الركوب . وبعد قليل نادى صاحب العشرة قروش على الكمسارى ليرد له باقى العشرة قروش ، لأن محطة نزوله هى القادمة . وكان الكمسارى بسبب الزحام ، قد ناول هذا الباقى لمن دفع قرشاً واحداً على اعتبار أنه هو صاحب العشرة قروش . ولكن الكمسارى أفهمه أنه ناوله باقى ما دفع ، فأنكر الرجل ، وإذا بالكمسارى فجأة يلمح وجه الراكب الذى دفع قرشاً وأخذ باقى العشرة قروش ، فقال له فى غيظ : ألم تأخذ منى باقى عشرة قروش ، فلم ينكر الراكب ولكنه قال للكمسارى بثبات : وأنا أعرف منين ثمن التذكرة عندكم يطلع بكام . . .

وكذلك ما يروى من أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أرسلت تابعاً بدوياً ذات يوم ليأتيها بقبس من نار للدار . وبينما البدوى يلتمس القبس شاهد قافلة تسير إلى مصر ، فمضى معها ومكث بها عاماً ، ثم حنّ لمآلفه وأهله فعاد . وخلال مروره بطرق المدينة ، تذكر القبس عندما رأى ناراً على مبعدة ، فعدا إليها ، فتعثر ووقع على الأرض ، ثم نهض وهو يقول : لعن الله العجلة . . .

وليس أبعث على الضحك من المفارقة التى تعد أساس كل ضحك وفكاهة ونكتة . وقد رأينا فى الحكايات الثلاث السالفة ، قدر المفارقة الذى كان هو أساس الإضحاك فيها . وسوف يأتى شرح ذلك فى فصل قادم .

والفكاهة والنكتة والظرف والمجون ، أجهزة لا تستطيع كل يد أن تلعب بها أو تستخدمها . فإن لها لطرائق خاصة وفلسفة خاصة وقدرة فى

الاستعمال كقدرة الطبيب الجراح فى استعمال المبضع ، توخّياً من أن تجاوز ما هو مقصود منها إلى ما يجرح أو يسيء ، ما دام القصد منها إضحاكاً يقتضيه المقام فى حدود مرسومة ، سادتها الذوق العام ، والبعد عن الإيلام ، والتوسل بها لنقدٍ بريء ، يتطلب النصح والتوجيه والإشارة .

والفكاهة من قبل ومن بعد ، مثلها مثل ملح الطعام ، قليله ضرورى ومرغوب ، وكثيره متلف وضار .

وشرح سيجموند فرويد النكتة بقوله :

النكتة ضرب من القصد الشعورى ، والعملى ، يلجأ إليها الإنسان ليعفى نفسه من الواجبات الثقيلة ، و يتحلل من الحرج الذى يوقعه فيه الجد ولوازم العمل .

ونبى الفطرة ، محمد عليه الصلاة والسلام ، يقول فى حديث ، هو قبسٌ من الذكر الحكيم :

« روّحوا عن النفوس ، فى الحين بعد الحين ، فإن النفوس إذا كلّت عميت » .

الفصل الثانى

الفكاهة والمجون فى ضوء العلم والفلسفة

بالضحك يستعيد الإنسان ما اهتزّت له نفسه من أحداث نزلت به . فهو يقاوم بحركة لاشعورية هذا الذى حلّ به من حدث أمضّه وأزعجه ، بابتسامة أو ضحكة أو قهقهة فى بعض الأحيان . إنها عملية موازنة ، مُسيّر هو فيها لا مخيَّر .

إنها أشبه بموقف كرات الدم البيضاء من الميكروبات الدخيلة التى تقف منها بالمرصاد للقضاء عليها إن حاولت التسلل .

فعندما يصاب امرؤ بجرح ، فإنه ينزف حتى ينقطع النزيف عند حد محدود بالعلاجات المألوفة المتيسرة .

عند هذه النقطة ، تبدأ الكرات البيضاء التى يتكون الدم منها ومن شقيقتها الحمراء ، فى العمل بنشاط وانتباه ، لمنع أى ميكروب من التسلل إلى الجرح الذى يكون قد بدأ فى الاندمال .

ولولا هذه الكرات البيضاء ، لتلوث الجرح بما يتسلل إليه من ميكروبات ، كانت تتحين الفرص للانقضاض ، غير مقيمة وزناً لما ينتظرها من تهلكة .

هذه الحركة البيولوجية التى وضعها الخالق لحكمة بقاء النوع ،

بقدر معلوم وفى زمنٍ موقوت ، هى الموازنة التى أشرنا إليها فيما سلف ، بين اهتزاز النفس ، وبين اندفاع الابتسام أو الضحك ، الذى يقينا من الانخراط فى البكاء أوالانطواء على ألم ، كترياق سريع المفعول ، مضمون الأثر.

ولكن هناك سؤال يلح فى طلب الجواب والشرح .

لماذا يضحك الكائن الحى ؟ .

الكائن الحى ، من إنسان أو حيوانٍ أو طير أو نبات ، ترتسم على أساريره أو أعضائه الابتسامة فى ظروف معينة ، وعند وقوع أحداث تحمله حملاً لا حيلة له فيه على الابتسام أو الضحك أو القهقهة ، على قدر ما يحمله الدافع إلى الضحك من شحنات و بواعث ومن نوازع وهواتف .

فالرجل والمرأة ، وما بينهما من شبان وشابات ، وصبيان وصبايا ، وأطفال وطفلات ، يبتسمون و يضحكون عند سماعهم أو رؤيتهم ما يضحك ، أو عند ارتياحهم لأمر جاء وفق ماتمنوا ، أو لسماعهم نبأً جاء على هوى ما كانوا ينتظرون .

فالرجل إذا سمع نبأ نجاح ولده ابتسم وانشرح . والأم إذا جاء لابنتها خطيب مرموق ، ضحكت ور بما زغردت . والزغرودة فى مصر أعلى مراتب الفرح ، وليس لى أن أقرر ما إذا كان لها مثيل فى غير مصر ، وإن كنت لم أسمعها فى كل ما زرته من أقطار متعددة .

وقل المثل فى الشبان والشابات عندما يسمعون ما يحبون . أما الطفل فإنك إذا ناولته شيئاً مما يحب كقطعة من الشيكولاته ، فإنه يبتسم ابتسامة ملائكية ، تحملك على إعادة العطاء ، لتسعد بمثل هذه الابتسامة (والغاوى ينقط بطاقيته) .

والطير الذى يصدح ويهدل ويزقزق ، فوق غصن فينان ، إنما يصنع ذلك إعراباً عما يحسه من متعة الأنس والانشراح . والكروان الذى يسبِّح ويصدح ويتغنَّى بوحدانية الله ، دليلٌ حيٌّ صائت على شعوره بالمَسَرَّة والابتهاج . ولن تجد كرواناً يصدح إلا قريباً من مجرى الماء ، الذى هو أصل كل شىء حى .

والحيوانات التى تتصل حياتها بحياة الإنسان ، مثل الكلاب والقطط والخيول ، لها طرائقها فى إبداء السرور والابتهاج . فالكلب يهز ذيله عند عودة صاحبه بعد غيبة ، طالت أو قصرت ، فإنه يرتاح لوجوده ويبتهج بوجوده . وهو يهز ذيله كذلك فى مناسبة أعظم ، وهى عندما يقدم إليه ما يحب تناوله من الأطعمة .

والقط يتنازل أحياناً ، ويتمسَّح فى صاحبه ، إظهاراً لرضاه وارتياحه وسروره ؛ ثم يتمطَّى فى دلال وحركات أنيقة ، حملَ الشاعر الشعبى على أن يقول :

« خُذ الدلال من الحمام والبِدع من القطة »

وهو ضنين بهذا السرور الذى يبديه . فالكبر فى طبعه ، والجحود ديدنه ، منذ أن اتخذه قوم من قديم الزمان إلٰهاً يعبدونه ، فاستخفّ بعقول الناس ، وراح يتعالى ويتكبّر . والقط يأنس للمكان لا للسكان . فإذا تبدلوا أو شالت ريحهم ، فالأمر عنده لا يعنيه ، ما دامت الجدران هى الجدران والأثاث الوثير الذى يفترشه ما يزال فى مكانه .

والحصان عندما يبتسم ، يكشف عن ثنايا أسنانه ولثته ، ومتسع خياشيم أنفه ، ويهز ذيله فرحاً وانشراحاً بما يحسه من عوامل البهجة ، إلى جانب

دقّ الأرض بقدمه . والحصان الأصيل يعرف صاحبه ، ولا يألف على ظهره سواه ، بل ربما أوقعه على الأرض ، فليس هو بالمطية لكل من هبَّ ودبَّ ، ولكنه يتخير الفارس الرشيق العالم بسرائره .وهو يبتسم لصاحبه هذا إذا اقترب منه ليلاطفه أو ليمنحه قطعة سكر أو شيئاً من اللوز والفستق ، جزاء له على فوزه فى سباق الخيل أو قفز للحواجز .

ولعلنا لا نجاوز المنطق ، إذا سلكنا النبات والماء فى سلك الكائنات الحية التى تضحك وتبتسم .

إنك إذا استجمعت كامل أحاسيسك الدفينة ، ونظرت إلى نبات ظامئ وأنت ترويه ، بدفقات صغيرة متأنية من الماء ، الذى ينساب إلى أرضه المشقَّقة ، من فرط الظمأ ، أمكنك أن تشعر بحسّك هذا الشفيف ، بآيات الرضا والفرح تترقرق على ورق هذا النبات ، وكأنه يبتسم لك تعبيراً عما أوليته من نعمة الريّ وحنان الرعاية .

والبحر فى هدوئه إذا نظرت إليه والريح من حوله رخاء ، والنهر فى جريانه إذا ما تابعت مساره الوئيد الوسنان ، راعك منهما رضى يتجسّد فى همهمة للبحر كأنما يتغنىّ ، وفى وشوشة موج النهر وهيماته المرحة اللعوب ، كأنه يكتم ضحكة خافتة ندّت عنه ، ولكنك تسمعها مهما حاول إخفاءها . وخرير الجدول موسيقى راقصة ضاحكة ، يعبر بها عن فرحه بقفزاته الغريرة فوق صخور المجرى .

والفولكلور الشعبى العريق العميق الرقيق ، لم يفته الإحساس بهذا الهمس الساحر من ابتسامات وضحكات مكتومة ، تنعكس على صفحة البحر أو النهر ، فراح شاعره يسجل انطلاق الصبايا وهن يتغنَّين بأغنيته

التى صاغها لهن ، وهن فى طريقهن إلى النهر لملء جرارهن من مائه السلسال النمير ، تقول كلماتها :

البحـــر بيضحك ليه وأنا نازله ادّلع املا القلل

* * *

نعود لنسأل . هذا الكائن الحى ، ما الذى يضحكه ؟

مما أوردنا فيا سلف ، نجد أن راحة الأب لنجاح ولده ، ورضى الأم لخطوبة ابنتها ، وفرحة الطفل بحصوله على أشهى ما يتمنى وهى الشيكولاتة ، التى يتم بها اعتدال مزاجه ، كأى صاحب كيف ، ولا أهمية عنده لما عداها من سكريات ، أقول إن نوال كل هذه المتمنيات ، بعث مرحاً ، تشكل فى ابتسامة ، هى حركة عضلات متعددة فى وجه المبتسم ، تجمعت كلها وارتسمت على صورة ابتسامة . فإذا انفرجت هذه الابتسامة وغدت ضحكة ، احتاجت إلى عضلات أكثر ، واستخدامات أوسع لهذه العضلات التى تمتد إذا ازداد الضحك إلى منطقة البطن . وكثيراً ما نسمع من أحد ، أضحكه موقف ، قوله آه يا بطنى . . .

والمعنى المستخلص من ذلك ، أن الابتسامة إنما هى تعبير عن الفرحة بنيل شىء مرغوب ، والوصول إلى مبتغى تحقق ، فشاعت الفرحة ، واتسعت البسمة ، وتعالت الضحكات .

إلا أن علم النفس لا يقف عند هذا الحد ، بل ينصرف إلى إيراد تحليل آخر للموقف المثير للضحك ، وللظرف المحيط بالضاحك .

فعلماء النفس يرجعون مبعث الضحك إلى حالات من غرابة المفارقة حيناً ، أو الخروج عن مألوف القول ، أو الإشـــارة ، أو العمل أحياناً .

كما يرجعون أسبابها إلى أنانية الضاحك ، عندما يرى موقفاً يقع فيه على الأرض ، وجيه ذو هيبة ووقار ، يرتدى بزّة غالية أنيقة ، حتى إذا ما انطرح على الأرض لسبب خارج عن إرادته ، راح يلملم أطراف وقار تبعثر ، وثياب علاها التراب ، ووقف ليستعيد اتزانه ، وليهرب من أنظار متطفلة وبسمات متوارية ، خجلاً منه ، لا رثاء له .

فى رأى علماء النفس ، أن الضاحك ، رأى فى تعثر هذا الوجيه الوقور مفارقة كبرى ، ورآه ينبطح على الأرض فى وقار حاول أن يجمع شوارده ، ولكنه تخلّى عنه وتركه يقع ومن حوله حاجياته من نظّارة إلى عصا إلى سيجار ، وهى مبعثرة على قارعة الطريق .

هذه المفارقة يتضح حجمها ، إذا ما قسناها بالحدث نفسه ، إذا ما جرى لصبي جزار مثلا ، وقع على الأرض مع دراجته التى حمل عليها فخذاً من اللحم سميناً وثميناً . . . إنه يقوم سليماً معافى ، دون أن ينال تراب الطريق من ملابسه شيئاً ، (وماذا تأخذ الريح من البلاط) .

هذا المنظر لا يثير ضحك أحد ، مثلما أثار المنظر الأول ضحك الضاحكين .

ويسترسل علماء النفس فى إيرادهم لبواعث أخرى للضحك ، مستلهمين فى ذلك بما انطوت عليه الطبيعة البشرية من ضعف أو استعلاء .

فالإنسان بطبعه محب لذاته ، لا يحب أن يقع فيما وقع فيه غيره من الشر . أما الخير ، فهو طامعٌ فيه ، متلهف عليه ، مشتاق إليه ، ومانعه عن غيره كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهذا ديدن النفوس الشريرة النهمة ، وما أكثرها .

وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه استمع إلى أعرابى ، بعد أن قُضيت الصلاة ، يدعو الله أن يدخله ومحمداً الجنّة وحدهما . فاستدرك النبى وذكر للرجل أن الجنة سعتها السماوات والأرض ، وهى تتسع لكل المتقين .

والذى ضحك على الوجيه الذى افترش أرض الطريق ، وتبعثرت أشياؤه وأشلاؤه ، إنما يضحك لأنه نجا من وقوع ذلك له ، وأنه كما يقولون ، أخذ الشر وراح . ولذلك فإنه يحمد الله على أنه لم يكن فى هذا الموقف .

وقد استطاع شارلى شابلن أن ينفذ بذكائه اللمّاح ، وعمقه الفلسفى إلى نخاع هذه الظاهرة العميقة ، ويستغلها على أحسن ما يكون عليه الاستغلال فى أفلامه .

فالمشاهد إذا رآه يوقع برجل الشرطة ، الذى يمثل سلطات الأمن كلها ، على الأرض ، فإنه يضحك للمفارقة أولا ، ثم لأن ذلك لم يحدث له ، وأخيراً لأنه يعلم أن الأمر قائم على التمثيل لا الحقيقة ، وإلا لأخذوه إلى القسم شاهداً على ما رأى . . ويدخل فى حلقة س ، ج المعهودة . .

وعندما يرى المشاهد ، شارلى ، وهو يعدو هارباً من كلب يطارده ثم لا يلبث الكلب ، بإرادة المخرج ، أن يلحق بشارلى ويأخذ فى تمزيق سرواله وعضّه ، استغرق هذا المشاهد فى ضحك متواصل ، تهتز له كل أطرافه وعضلات جسمه ، للأسباب الأولى نفسها .

هذا الخيط الرفيع ، التقطه بمهارة وذكاء واقتدار ، نجيب الريحانى ، وراح ينسج من غزله مفارقات ومواقف ، بناها على حب الإنسان لذاته ، وميله إلى أن يرى غيره فى مأزق هو فى منجاة منه ، ومبعدة عنه ، وبعيد

فليكن الطوفان . وإلى جانب هذا الشعور ، فإن بعض النفوس ترثى لذلك ، ويبعثها هذا الشعور النبيل على ضحك راقٍ .

ويذهب بعض الفلاسفة إلى أن هناك علاقة وثيقة بين الضحك والتعاطف والمشاركة الوجدانية .

ذلك أن بعض طبائعنا الرقيقة ، تتأذى إذا فاض بها الانفعال من جراء منظر تتأثر له هذه الطبيعة النفسية الحسَّاسة .

من أجل ذلك اخترعت لنا القدرة الإلهية ، حيلة ومخرجاً بيولوجيين ، فى صورة الضحك ، ليقيانا آثار الانفعال المباغت ، والشفقة المستجيبة لنوازع النفس ، والتعاطف البالغ عندما نحس بالآم الآخرين إذا وقعوا فى مأزق أو نكبة أو ورطة .

ومحتوى هذه الحيلة وهذا المخرج ، يتمثل فى أن الضحك فى مثل ما ذكرنا من حالات التعاطف ، إنما هو استجابة للألم لا للسرور ، بحيث إننا إذا لم نضحك ، استرسلنا فى حالة من الضيق والكرب هى نتاج زيادة التعاطف والمشاركة الوجدانية لدى النفوس الرقيقة ، التى ينالها من الكرب بعضاً مما شاهدت .

وتأييداً لهذا الفريق من الفلاسفة يقول Mac Dougol ، فى كتابه An Outline of Psychology إن النظرية الحقيقية فى تفسير بواعث الضحك ، يمكن أن تتلخص فى عبارة واحدة ، مضمونها ، أن الضحك ترياق سريع المفعول ، يمنع من التعاطف والمشاركة الوجدانية Antidote to Sympathy ، ودفعها للانفعالات التى تصيبنا ، فلا نجد لها مخرجاً إلا بالضحك .

وإذا كان الضحك يبعث على إدخال السرور إلى نفوسنا فإننا نحس السرور لأننا نضحك ، وكلاهما جاذب للآخر ، وباعث عليه .

وأذكر أن الزنوج الإفريقيين فى أمريكا ، كانوا يضعون ألحاناً دينية تعرف بالروحيات ، ويتغنون بها مع نغمات الجاز المرقص ، تصحبها الطبول الإيقاعية الموافقة لأصوات غنائهم . وكانت هذه الأغانى ، يغلب عليها مسحة الحزن ، لانصرافها إلى التعبير عن بؤس حياة الزنوج ، إلا أن ذلك لا يمنع من استخدامها فى الترويح والرقص على أنغامها ، أيًّا كان محتواها .

وقامت إلى جانب هذه الأغانى ، أغانى (البلوز) Blues ، التى تعبّر عن الفراغ واليأس والجوع والحنين والحسرة عند هؤلاء الزنوج .

وعلى سبيل المثال ، تقول إحدى هذه الأغانى :

عندما ترانى أضحك
فإننى إنما أفعل ذلك
لأمنع نفسى من الاسترسال فى البكاء

* * *

من هذا يتبين أن (فرويد) كان على حق عند ما أوضح أن الفكاهة تؤدى دوراً رئيسياً هاماً فى صميم حياتنا النفسية ، لأنها باستبعادها لما يمكن أن يحدثه الألم ، تتخذ مكانها لدفع الألم ، ولتحررنا من الانفعال ، وترفع من مستوانا النفسى ، وصحتنا النفسية .

وكثيراً ما يواجه الإنسان مواقف الخوف والهلع والقلق ، والاضطراب بالاسترسال فى الضحك ، دون أن نعرف مأتى هذا الضحك أو أسبابه الظاهرة أو الخفية .

ولكنه على أى صورة كانت ، يرفع من الروح المعنوية ، عندما تضطرب ، وتستعين بهذا الضحك المباغث ، على مواجهة المواقف الحرجة .

وهناك حالة من الضحك ، تتملكنا أحياناً عندما نكون فى مأتم أو فى ساحة المحكمة أو فى أى مكان يتطلب الإصغاء بأدب واحتشام . وقد تقع حركة أو إشارة داخل هذه الأماكن ، لا تثير أى ضحك إذا وقعت خارجها ولكنها تطلقنا فى ضحك ، نحاول جاهدين أن نوقفه ، فإن الموقف لا يحتمل مثل هذا العبث ، الذى نتغلب عليه بكثير من المشقة ، فإن خاب مسعانا ، تركنا المكان حثيثاً .

وهناك روايات تروى عن مواقف درامية ، ينسى فيها المرء نفسه ، ويلقى بنكتة ، قد تكون هى آخر ما يقول . . .

من ذلك أن محكوماً عليه بالموت شنقاً ، وقف فوق الخشبة فى انتظار وضع الحبل حول عنقه ، وراح يردد على مسمع من منفذى الحكم : لعلِّى بذلك ارتدع ، ولا أعود ثانية لمثل ما صنعت . . .

ولا بأس من أن نورد هنا ما جاء على لسان محكوم عليه بالشنق ، عندما وقف على الخشبة ، وسأله ضابط السجن ، على ما جرت به التقاليد ، هل يريد شيئاً لتحقيق المستطاع منه ؟ فقال للضابط ، نعم ، أريد أن أقول شيئاً ، وقد ظن ضابط السجن أنه ربما أفشى أسراراً تساعد سلطات الأمن والعدالة ، وأوقف أمر التنفيذ لحظة ، وإذا بالمحكوم عليه يقول : الحبل راح يخنقنى . . .

وتجرى فى هذا السبيل ، رواية الرجل المتنبى الذى ادّعى النبّوة فى صدر الإسلام ، مع من ادعوا ، وما أكثر من ادّعوا النبوّة حتى إن حروب الردَّة

والتنبؤ فى ذلك الحين ، فى مطالع فجر الإسلام ، قد عوّقت التقدم المنشود الذى جاء به الدين الجديد .

جئ بهذا المتنبي المدَّعى النبوة أمام الوالى ، وهو مكبل بالسلاسل ، وكان فى دعوته يقول إنه نبي مرسل إلى هذه الأمة من قبل السماء .

وكان الموقف يدعو إلى الخوف والهلع ، من قسوة العقوبات المفروض توقيعها على أمثال هذا المتنبي . فلما سأله الوالى :

أمازلت تصر على أنك نبى مرسل ؟ .

فأجاب المتنبي بسرعة خاطر ولماحية أسعفته بقول عجيب :

لقد كنت بالفعل نبيًّا مرسلاً ، أما الآن ، فأنا يا مولاى مقيَّد كما ترانى . . .

ومن ذلك أيضاً أن الجاحظ لم يكن يفارقه مجونه أو يغيب عنه بيانه اللطيف ، وهو فى أقسى الظروف ، وفى أعنف المراجعات والمساءلات .

وتقرر الروايات الأدبية ، أن صديقه الوزير ابن الزيَّات قضى نحبه فى (تنُّور)[1] على يد منافسه قاضى القضاة ابن أبى دؤاد . فما كان من الجاحظ إلا أن هرب ، فلما جيء به بعد القبض عليه ، إلى ابن أبى دوَاد ، سأله .

لم هربت ؟

---

(١) التنُّور صندوق خشبي بيضاوى الشكل فيما يشبه البرميل . وجدرانه قد كُسيت بمسامير حادة متقاربة . ويدخلون المحكوم عليه بالإعدام على هذه الصورة ، ثم يأخذون فى دحرجة الصندوق جيئة وذهاباً ، حتى يقضى المحكوم عليه نحبه وسط عذابات تفوق كل وصف .

أجاب :

خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنُّور . . ؟

فقال ابن أبى دؤاد : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً فقال الجاحظ :

خفِّض عليك ، فوالله ليكون لك الأمر علىَّ ، خيرٌ من أن يكون لى عليك . ولأن أسىء ، وتحسن ، خير من أن أحسن ، وتُسىء . وأن تعفو عنِّى فى حال قدرتك ، لأجمل من الانتقام .

فقال ابن أبى دؤاد :

قبحك الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام .

جيئوا بحداد ؟ .

فقال الجاحظ :

أعزّ الله القاضى . ليفكَ عنى ، أو ليزيدنى !

قال :

بل ليفكّ عنك .

وأتى الحداد ، فغمزه أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فما كان من الجاحظ إلا أن لطمه وقال :

اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر بساقى وليس بجزع . . . !

وانتهت القصة بضحكة عريضة من قاضى القضاة ، قال على أثرها :

« إنى أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه » .

* * *

ومهما حلل وعلَّل علماء النفس والفلاسفة ، بواعث الضحك ودوافعه ، ومهما أقاموا من نظريات دلّلو عليها بكل منطق وحجة ، فإن المفارقة ، إذا رُوعى فيها براعة الحبكة ، وغرابة ما اشتملب عليه ، وحكمة ما تستهدفه ، فإنها وحدها تكفى لحمل أى إنسان على الضحك ، مهما بدا تجهمه وانطواؤه .

وما علىّ للتدليل على ذلك ، إلا أن أسرد نادرتين ، تلعب فيهما المفارقة دورها ، كما لو كنت قائداً لأوركسترا ، يحرك بعصاه كل العازفين ، حسبما يشير به .

أما الأولى ، فإنك سوف تجد نفسك أمام بناء درامى مكتمل الصورة فى الشكل والمحتوى ، وفى مقدماته ونهاياته ، حتى تصل إلى موقف الحبكة Climax ، التى تبلغ الذروة من هذا البناء المكين .

وسوف تجد أنك فى الثانية ، أمام سيمفونية ، تبدأ سريعاً ، ثم تتمهل ، ثم تخفت هامسة راقصة ، لتعود إلى سرعتها الأولى عند الختام ، مع براعة فى القرار ، وعند الجواب :

أقام أعرابى كان الحجاج قـــد ولَّاه بعض النواحى النائية ، مدة طويلة ، بعيداً عن مآلفه وأهله ودياره ، وذات يوم مرَّ به أعرابى من حيِّه ، فحمد الله على أن أرسل له من يطمئن منه على من يحب ويرعى . وقدم له الطعام ، وراح يسأله عن أهله ، والرجل منهمك فيما بين يديه من طعام .

وكان الرجل عابر السبيل جائعاً ، فراح يجيب بكل عناية وتلطف ، وقد أحس بنشوة الطعام بعد مسغبة .

ودار الحديث على الوجه التالى :

كيف حال ابنى عُمير ؟

على ما تحب . قد ملأ الأرض والحى رجالاً ونساءً .

فمافعلت أم عمير ؟

صالحة أيضاً .

فما حال الدار ؟

عامرة بأهلها .

وكلبنا إيقاع ؟

قد ملأ الحى نبحاً .

فما حال جملى زريق ؟

على ما يسرك .

عند ذلك وبعد أن اطمأن والى الحجاج من الضيف العابر على ما ما يهمه من أمر أهله وولده وداره ، مال إلى خادمه يأمره برفع الطعام ، ولم يكن الأعرابى قد شبع بعد . ولكن الوالى اشتاق لأن يسمع من جديد ، المزيد من أخبار أهله ، فراح يسأل الأعرابى الضيف ، وأخذ الحديث مجراه على هذه الصورة :

يا مبارك الناصية . أعد ما ذكرت وزد .

سل ما بدا لك

فما حال كلبى إيقاع ؟

مات .

وما الذى أماته ؟

اختنق بعظمة من عظام جملك زريق ، فمات .

أو مات جملي زريق ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

كثرة حمل الماء إلى قبر أم عمير .

أو ماتت أم عمير ؟

نعم .

وما الذى أماتها ؟

كثرة بكائها على عمير .

أو مات عمير ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

سقطت عليه الدار .

أو سقطت الدار ؟

نعم . .

عند ذلك قام والى الحجاج المنكوب فى كل من سأل عنهم من أهل ودابة ودار ، وراح وقد شهر عصاه ليضرب بها الضيف الذى ولَّى هارباً مذعوراً .

* * *

والثانية مفادها أن بشّار بن برد ، الشاعر الضرير ، دخل على المهدى ، وكان فى مجلسه خاله ، يزيد بن منصور الحميرى . فأنشده قصيدة يمدحه فيها . فلما فرغ من إلقائها ، سأله خال الخليفة :

ما صناعتك أيها الشيخ ؟

فأجابه بشار وقد أحب ممازحته :

أثقب اللؤلؤ :

فقال له المهدى :

ويحك أتهزأ بخالى ؟

فقال بشار :

يا أمير المؤمنين . ماذا تريد أن يكون ردِّى على امرئٍ يرانى شيخاً اعمى ، أنشد المديح من الشعر ، ويسألنى عن صناعتى ! . . .

فأعجب المهدى بجوابه ، وأجازه .

* * *

وللضحك وجهان . وجه جاد هادف ، ووجه هازل أجوف ، ليس فيه إلا قهقهة عالية تصدِّع الرءوس . ويخلو محتواه من الهدف والمبدأ والسخرية التى تتطلع إلى إصلاح معوج أو تقويم انحراف ، وتستهدف التحرر من العبث ، لترقى إلى ذروة من الضحك المهذب الرزين الرصين ، الذى يصل إلى أعماق متلقِّيه من الطبقة المثقفة ، وإلى أبعاد يعجز عن الوصول إليها الضحك الهازل السفيه .

ويقول الكاتب البريطانى ، جوزيف إديسون ١٦٧٢ - ١٧١٩ فى معرض تحبيذه وتقريظه للضحك الراقى ، والكوميديا الهادفة ، فى الشكل والمحتوى :

« سأعرض أفكارى على شكل صور مجسّدة ، فالضحك الراقى عندى ، إنسان ، جدُّه الأعلى هو الحق ، وقد أنجب هذا الحق ابناً سماه

خبس الرأى ، وهذا بدوره أنجب الذكاء اللماح ، الذى تزوّج من امرأة من قريباته ، اسمها الفرحة ، فأولدها مولوداً اسمه الفكاهة .

هذه الفكاهة المتعددة الأعراق ، نراها لهذا السبب ، تارة جادة ، وتارة نشوانة ، وثالثة عابثة ، ونراها أحياناً فى وقار القاضى ، وأحياناً أخرى مرحة كأى ممراح ، على أنها على أى صورة ، تثير ضحك من حولها .

وهناك فكاهة تدَّعى وتتطاول فى ادِّعائها حتى يصح فى الأذهان أنها شبيهة بالفكاهة الأولى الجادة ، وإليكم شجرة عائلتها :

يقوم على رأس الشجرة ، الكذب ، ويليه الهراء ، ويلى هذا ، الحمق ، والضحك الأجوف ، ثم الفكاهة الزائفة .

أما أوجه الشبه والخلاف بين الفكاهة الحقة ، وتلك الفكاهة المزيفة ، فتقترب مما يقوم من شبه بين الإنسان والقرد وصفات الفكاهة الزائفة هى « الشقلبة » والمحاكاة البلهاء للصالح والطالح ، بلا تمييز ، والنيل من الجيد والردىء معاً .

ومن شأن الفكاهة الزائفة ، أنها لاتفرِّق بين عدو وحبيب ، منذ أن كان كل همها هو مجرد الإضحاك . ولما كان هذا هو مبلغ جهدها القاصر ، فإنها تقدم ما تستطيع ، لا ما يجب ، أو يحسن تقديمه .

وإذا كانت هذه الفكاهة عاطلة من كل عقل ، فإنها لا تهدف إلى شىء سوىٍّ من الخلق أو العلم ، وإنما هى تسير فى طريق الغفلة من أجل هذه الغفلة وحدها .

ومن أجل ذلك ، فإنها تهاجم الأفراد والأشخاص ، وتعجز عن أن تسمو إلى مستوى المبدأ المجرد »

وحسبنا هنا أن نسوق تفسيراً واحداً لهذا الكلام الذى قاله قائله منذ ما يقرب من الثلثمائة عام ، ونفذ به إلى دخيلة ما يجرى فى زماننا الحاضر ، عندما نشاهد موقفاً للريحانى ينبنى على سوء فهم وعلى حيرة وعلى تورط أو استنكار من جانبه لما يدور حوله من واقع هو فى نظره عجيب غريب مثل موقفه فى مسرحية « غزل البنات » من مربٍّ كلب الباشا الذى يبلغ مرتبه ثلاثين جنيهاً والمربى المعلم لا يصل مرتبه إلى نصف هذا الرقم ، نقول إننا نتحقق من صحة وواقعية ما أورده الكاتب إديسون فيما سلف ذكره ، عندما نقارن بين موقف الريحانى المثير للضحك الراقى المهذب وبين موقف ممثل آخر يعتمد على مواقف حركية يستخدم فيها الأيدى والأرجل لإثارة ضحك الجمهور وصخبه ، استجداءً لتصفيق فارغ يملأ فراغ المسرح الخالى من المتعة الذهنية .

ولعلنا نزيد الأمر وضوحاً بسرد مثلين فى روايتين ، فيهما الكفاية ، ويمثلان الرمز إلى ما سلف ذكره .

كان عباس محمود العقاد ، يؤم مع كثير من الأدباء ورجال الفكر من رجال وسيدات ، دار كاتبة أديبة ، جرت عادتها على إقامة حفل فى اليوم الموافق لعيد ميلادها ، تدعو إليه المعارف من الأصدقاء والصديقات .

وكانت بين السيدات المدعوات ، سيدة متصابية ، تطوى حقيقة عمرها ، فى تلافيف الأصباغ والمساحيق التى لا تلبث كثيراً حتى ترفع الستار عن الواقع الأليم من العمر المديد .

وبينما كانت الأحاديث تدور فى حلقة من الحلقات ، فى صالون ربّة الدار ، حول أعياد الميلاد ، وهدايا أعياد الميلاد ، إذ بالسيدة المتصابية

تقول فى تفاخر وازدهاء ، إن زوجها أعفاها مؤونة التفكير فيما تحب أن يقدمه لها ، أو تكراره إذا لم تذكر له ما تريد ، تقول السيدة إنه درج على أن يقدم لها فى كل عيد من أعياد ميلادها مبلغ خمسين جنيهاً لتشترى به ما تشاء ، وهنا فاجأها العقاد بقوله ، وهو سيد مثل هذه المواقف ، لا بد يا هانم أنك أصبحت مليونيرة . . .

والصورة الأخرى للضحك الفارغ إلا من القافية ، نراها فى هذه الحكاية : أقام أحد تجار الفاكهة من أبناء البلد ، حفلاً بمناسبة زواج ابنه ، دعا إليه زملاءه من تجار الفاكهة . وكانت الموسيقى تعزف ألحاناً مشجية مرقصة ، لم يستطع معها أحد المدعوين الذى استخفه الطرب والنغم المرقص ، وهو من تجار الموز ، إلاّ أن يمسك بعصاه وينزل إلى وسط القاعة ، حيث رقص عشرة بلدى ، وعشرة بنقطة . . .



الفصل الثالث

علاقة الفكاهة بالأدب في جميع صوره

تمتزج الفكاهة بالأدب فى جميع صُوَره ، امتزاج الروح بالجسد ، حتى ليتعذر فصل هذه عن ذاك .

ولن تجد أديباً ، مهما التزم الجدَّ فى كتابته ، بقادرٍ على أن يتجنب التمثل بنادرة ، أو يستبعد بيتاً من الشعر طريف المعنى والمبنى ، أو يخلو قلمه من أسلوب مشرق بسَّام .

وإذا كانت وظيفة الأدب الكبرى هى تعميق الحياة ، وإحسان التعبير عنها بمختلف الفنون وصورها ، تعبيراً يعكس إحساس الفنَّان ومشاعره ، وتأثره بالبيئة والمحيط ، ونقل كل ذلك بأمانة ، يتجلى بعدها الأدب فى ثوب دقيق الصنعة ، متناسق الهيئة ، مهذب الطابع والأسلوب ، فإن هذه الوظيفة للأدب تستكمل زينتها من ديكور وماكياج وإكسسوار ، بأنماط من الفكاهة والمجون ، فى رقة مستحبة ، ورشاقة نادرة ، لتبدو الصورة الأدبية مشرقة الوجه والمحتوى .

ويقول (مكسيم جوركى) فى معرض وصف نتاج الأديب حسبما توحى به مشاعره ، وما يتأثر به وجدانه :

« عندما تمتلئ الروح إلى حافتها ، فلا مفر من أن تنسكب أحزانها

أو أفراحها على العالم ، وفى آذان الناس »

وبراعة التمثيل والتمثل ، وروعة الشعر وإيماءاته ، ودقة التصوير وما يرمز إليه ، ورشاقة الأسلوب الساحر ، كلها تتجمَّع لتكون سبيلا للفكاهة والظرف .

والظرف فى اللغة ، هو الوعاء الذى يحوى الشيء .فظرف الخطاب ، وظرف الفنجان ، هما اللذان يحميان هذا وذاك من كل شر ، ويقيانهما الأذى ، ويظهرانهما على أحسن صورة ، ويكسوانهما لطف المظهر ورشاقة الهيئة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، يكون الرجل الظريف ، هو الإنسان الذى يحوى خفة الظل ، وحضور الذهن ، وروعة الفكاهة ، وذكاء القلب .

والفكاهة تنساب بين الناس كأنها الماء الذى يرويهم ، والنور الذى يهديهم ، والشمس التى ينعمون بدفئها .

ولم يكن من الأمور التى تدعو إلى العجب ، أن تنتسب إلى الرسل والنبيين ، روايات تشيع فيها المزحة والمجون ، وهم يتقبلونها ، ويستطيبون قولها ممن حولهم .

وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ، أنه أجاب ، ضاحكاً ، على سؤال سيدة عجوز عن نصيبها من الجنة ، بما فهمت منه ، بألَّامكان فى الجنة للعجائز ، فلما أحسَّ بذعر العجوز ، استدرك بما اطمأنت إليه من أن أهل الجنة كلهم ينعمون بشبابٍ دائم لا يريم ولا يبرح .

وروى الراوون أن الهدهد جاء يوماً إلى سليمان الحكيم عليه السلام

وقال : أُريدك أن تكون فى ضيافتى .

فقال سليمان متمشياً مع فكاهة الهدهد : أنا وحدى ؟

فأجاب الهدهد : بل أنت وعسكرك .

وحدَّد لذلك يوماً محدوداً ، ومكاناً مذكوراً على شاطىء جزيرة سمَّاها باسمها .

فلما كان اليوم المعلوم ، ذهب سليمان وجنوده ، إلى تلك الجزيرة وعندما رآهم الهدهد ، طار واصطاد جرادة ، لم يلبث حتى خنقها وألقى بها إلى البحر ، وأردف قائلا :

كلوا جميعاً ، فمن لم ينل من اللحم نصيباً ، أصاب من المرق ما يشاء . . .

فضحك سليمان وجنوده طويلا على مزاح الهدهد الماجن .

ومن المعروف عن قضاء سليمان ، أنه كثيراً ما كان ينحو به نحو الحيلة المستظرفة ، ليصل إلى قلب الحقيقة .

من ذلك ما صنعه مع المرأة التى ادَّعت أن طفلها تنازعه فيه جارتها ، فلما جىء بالمرأتين إلى سليمان ، أمر بقسمة الطفل المتنازع عليه ، وإعطاء كل امرأة نصفاً ، فصرخت إحداهما وهى تقول . فلتأخذه خصيمتى ، وليبق الطفل حيًّا ، وهنا أدرك سليمان أنها الأم الحقيقية للطفل ، وأمر لها به دون الأخرى المدعية كذبًا أمومتها للطفل .

ومن ذلك أيضاً أن رجلا شكا إليه أن جاره سرق من داره أوزة . فلما توافد القوم على المسجد للصلاة ، قام سليمان ليخطب فى الناس ، وراح يعظهم حتى وصل إلى تحريم السرقة وأنها إثم له عقوبته وجزاؤه .

ومما جاء فى خطابه : إن أحدكم ليسرق أوزة من جاره ، ثم يدخل الجامع ليصلى ، والريش على رأسه ، فما كان من الرجل إلا أن مسح على رأسه بيده ، فقال سليمان ، لقد وقعت فيما كنت تنكر . خذوه ! . . .

* * *

والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للعلم .

فالعلم يقوم على تقرير وقائع ، وتطبيق نظريات ، سلخ العلماء قدراً كبيراً من الزمن ، وقدراً آخر أكبر من الجهد ، حتى توصلوا إلى الكشف عنها ، بعد انعكاف فى المكاتب ، وفى المعامل ، وفى المصانع ، ووراء الأنابيب والمجاهر . فهو قانون وقواعد .

والعلم لا يؤمن إلا بالمحسوس الملموس . ولا مجال فيه لبراعة خيال ، أو رشاقة أسلوب ، أو روعة موقف .

والأسلوب العلمى ، أسلوب جادّ جامد ، يزن الكلمة بميزان الجوهر ، فى دقة وحزم .

ولا يعنى هذا أن الأسلوب الأدبى يفتقد الدقة ويفتقر إلى الجد والحزم ، ولكنه إلى جانب هذه المواصفات ، يصحب قارئه فى زورق حالم ناعم ، إذا ما شاء الكاتب الأديب أن يصور منظراً يحتاج إلى سعة خيال وحسن تصور ، فيمهّد له بجمال الوصف ، وموسيقى الكلمة ، وبديع البيان .

وإليك حقيقة علمية ، لن يستطيع إنسان أن يدس فى ثناياها كلمات تبعد بها عما هى بسبيله من تطبيق نظرية ، أو تقرير حقيقة أو تحليل واقع ، لا ظرف فيه ولا تندُّر :

« إن الذى يجرى فى بيضة الأنثى ، من بنى الناس ، محجوب من

رؤية الناس ، لأنه يجرى فى ظلمات البطون والأرحام .

ولقد كشف العلماء عن كثير من هذا المجهول ، بدراسة هذه الظواهر ، فى الحيوانات ، مثل الأرانب والفئران ، وعلموا من ذلك الكثير .

ومن بيضة الحيوانات ، انتقلوا إلى بيضة الإنسان . وقد علموا أن الطفلة الأنثى حين تولد وبها كل حصيلتها فى الحياة من البويضات غير الناضجة، قد أتمت أول تطورّ لها ، وذلك بانقسامها أنصافاً . بمعنى أن (كريموسوماتها) ينقسم كل منها إلى نصفين . وهى تبدأ هذا التطور الأول ، وتتمه بين الشهر الرابع ، والشهر السابع من حياة الجنين »

هذه مسألة مقررة بميزان العلم ، وتطبيق نظرياته ، وتجاربه ، من غير ما تنميق أو تجميل .

* * *

ولقد أتى حين من الدهر ، كانت الفكاهة فيه صناعة تدر الربح الوفير والذكر البعيد .

فعندما أصبح الخلفاء والأمراء يعيشون فى ترف ونعيم ، وعندما ناءت كواهلهم بأثقال وأحمال المسئوليات والمتاعب ، أحسوا أنهم فى حاجة إلى من يمسح عن صدورهم ويسرى عنهم عبء ما يحملون ، بالضحك والمجون .

وفى بلاطات ملوك الغرب ، كان هناك مكان دائم لمن كانوا يطلقون عليهم اسم King's yester أو مضحك الملك . وكان يصاحب الملك فى رحلاته ويرفه عنه فى قصوره ، وإذا غاب افتقده الملك وبعث فى طلبه .

وقد اشتهر فى بلاط كل خليفة أو والٍ أو ملك عربى كثير من الأدباء والشعراء وأهل المجون ، الذين لا همّ لهم إلا إضحاك سادتهم بالفكاهة

الحلوة والنادرة النادرة .

واشتهر من هؤلاء أشعب الطَماع والشاعر أبو دلامة وأبو الحسين الخليع وأبو العيناء وغيرهم مئات ومئات .

وكان الجاحظ إمام عصره فى فن الفكاهة الذى امتلك ناصيته بإدراك واقتدار ، أعانهما منه ، سخرية قادرة ساحرة وهو يستهدف فى الفكاهة الضحك والإضحاك . ويروى فيهما خير ما فى الحياة ، وما يُعد مصدراً للقوة ومعيناً على العمل .

وهو يقول فى تحليل وتعليل المجون :

« إنه شىء فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ، ومادة قوته »

ثم يقول فى موضع آخر :

« وإذا أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الخير ، الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدًّا ، والضحك وقاراً » .

وقد كانت مجالس الخلفاء والملوك والولاة تفيض بالقول النادر والشعر الرصين والحكمة الغالية ، وقد تغلغلت فى كل هذه الفنون ، فكاهة عفَّة راقية ، جمعتها بين دفّتيها كتب للأدب ، يزهو بها أدب أى عصر وأى جنس ، بدءاً بالأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وبدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى ، إلى كتاب الكشكول للعاملى .

ولا يسع كاتب فى هذا الباب إلا أن ينتقى بعض ما قد قيل فى تلك

المجالس ، التى كانت بمثابة مدارس وجامعات ، تطرح فيها مسائل فى اللغة وفى الفقه وفى المنطق وفى الشريعة وفى رواية الشعر حفظا ونظماً وفى قوالب النثر التى ينبهر لها العقل ، وتأخذ بمجامع الرشد ، من قوم فى مطالع الحضارة وعلى شاطئها الضحل .

غضب الرشيد على جارية فأقسم لا يدخل إليها ، ثم لم يلبث أن عاجله الندم فقال :

صدَّ عنى إذ رآنى مُفتتن   وأطال الصدَّ لما أن فَطَنْ

كان مملوكى فأضحى مالكى   إن هذا من أعاجيب الزمن

وطلب إلى جعفر بن يحيى أن يطلب من الشعراء من يزيد فيهما ، فأجابه هذا ·

ليس لهما إلا أبو العتاهية وكان مسجوناً ، فكتب إلى الرشيد ، لما بلغه الخبر ·

يا ابْن عم النبي سمعــاً وطاعةْ   قد خلعنـا الكساء والدرَّاعـةْ

ورجعنا إلى الصناعــة لمَّـا   كان سخط الإمام ترك الصناعةْ

فأمر الرشيد بإطلاق سراحه ، وصلته ، فقال أبو العتاهية ، الآن ، طاب القول ، وأنشد يجيز البيتين السالفين :

عــزة الحــب أرتـه ذلَّتى   فى هواه ولـه وجه حسنْ

فلهـذا صرت مملوكـاً لـه   وبهـذا شاع مابى وعَلَـنْ

فاستحسنه الرشيد ، إذ أصاب ما فى نفسه ، وضاعف صلته .

وتغنَّى زرياب يوماً بين يدى عبد الرحمن الداخل فاتح الأندلس ، بهذين البيتين :

قالت ظلوم سميَّة الظـــلم ما لى رأيتـــك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصـــده أنت الخـــبير بموقـع السهم

فقال عبد الرحمن : هذان البيتان منقطعان ، فلو كان بينهما ما يوصلهما ، لمكان أبدع .

فقال عبد الرحمن بن قزمان :

فأجبتهـــا والـدمع منحـدرٌ مثل الجُمان ، هوى من النَّظم

فاستحسنه عبد الرحمن الداخل وأمر له بجائزة .

وقال الشيخ أبو عبد الله ،محمد بن على القرمونى ، إن والده الشيخ أبو الحسن ، أنشد قول ابن الرومى :

شهر الصيـــام مبـارك ما لم يكن فى شهر آبْ
خِفت العـــذاب فصمتُه فوقعت فى نفس العذابْ

فقال عبد الرحمن الداخل ، إنهما كذلك منقطعان ، ويحتاجان إلى من يصل بينهما ، وأنشد بديهاً :

اليـــوم فيه كأنه من طوله يوم الحسابْ
والليـــل فيه كأنه ليل التواصل والعتـابْ

* * *

ولعل من أكثر ما يوضح الفرق بين الأساليب الأدبية والأساليب العلمية فيما يدخل فى اختصاص هذا الكتاب ، ما جاء على لسان أبي العلاء المعرى عند ما وصف بكاء الطفل ، ساعة مولده ، بقوله :

لِما تُؤذن الدنيا به من صُروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولَدُ
وإلا فما يبكيه منهـــا وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغَـــدُ

هذا ما يقرره الأدب على لسان شاعر فحل كأبي العلاء المعرى ، أما الطب ، فإنه يقرر أن بكاء الطفل ساعة مولده ، إنما هو أمر تلقائى ، يأتيه الطفل بوحى من حبه ونزوعه للبقاء ، وكفاحه ونضاله فى سبيل ذلك بالبكاء الصارخ ، الذى تتفتح به رئتاه ، بعد انكماش كانتا فيه مضغوطتين ، بحكم الحيِّز الضيق الذى جاء منه الطفل .

ومن أجل ذلك ، ينصح الأطباء بترك الطفل الوليد يبكى ويصرخ بأعلى صوته ، ففى هذا نفعه .

وهكذا نرى أن فى التقرير الأدبى ، خيالا ومقارنة وتصوراً جميلا بموازين الأدب ، ومفارقة فيها تشاؤم ذكى عميق ، ولكنه بعيد عن الحقيقة العلمية ، التى تقرر ما ذكرنا ، تأكيداً لحب البقاء عند الإنسان منذ ولادته حتى يتوفاه الله ، بغريزة رُكِّبت فيه ، ليتشبث بحياة مهما أتعبته فإنه راغب فيها لا عنها .

* * *

وكانت للكتابة الأدبية عند العرب ، روح شفيفة ، تفيض بالتهكم والسخرية وسرعة الخاطر والنقد لأوضاع المجتمع ، وهى جميعها عناصر أساسية للكوميديا الراقية فى عالم المسرح ،

قال الجاحظ : سألنى بعضهم كتاباً بالتوصية إلى بعض أصحابى ، فكتبت له رقعة وختمتها .

فلما خرج من عندى ، فضَّها فإذا فيها :

« كتابى إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقّه ، فإذا قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمُّك » فرجع الرجل إلىّ فقلت له :

كأنك قرأت الرقعة !

قال : نعم .

قلت : لا عليك . ولا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لى إن أردت العناية بشخص .

فقال الرجل :

قطع الله لسانك ويدك ورجليك ولعنك .

فقلت : ما هذا يا هذا .

فأجاب :

لا عليك فهذه علامة لى إن أردت أن أشكر أحداً . . .

وقد تثير ضحكك ، المقارنة بين نظرة العالم للإنسان ، ونظرة الأديب للجماد .

فالعالم يحلل الإنسان إلى جزئيات تحتوى على هيموجلوبين وكالسيوم وفوسفور ومغنيسيوم وكبريت وصوديوم ويوتاسيوم إلى آخر ما فى جسم الإنسان الحى من أجزاء .

فى حين أن الأديب أو الشاعر ، إذا نظر إلى نهر ينساب فى مساره ، شبهه براقص يعرض فوق مجراه أفانين من الرقص الجميل ، حتى إذا ما استمع إلى خرير موجه ، وصفه بأنه سيمفونية شجية ، نادية النغم ، حلوة الأداء .

وحسبنا أن نرى العالم وقد حول الإنسان إلى جماد وجزئيات ، فى مفارقة مذهلة ، فى حين حوَّل الشاعر ، الجماد إلى كائن حىٍّ يحس ويمشى ويرقص ويبعث الصوت الرخيم ، والنغم الأغن .

الفصل الرابع

أدب الفكاهة فى المسرح

امتلأ شراعنا بالهواء والهوى ، أو بالريح والمحبة ، ليدفعان بمركبنا (عُطيل) باسم الله مجريها ومرسيها ، فى طريق ما نحن بسبيله من رحلتنا مع الظرفاء ، التى تمضى من هذا الفصل الرابع ، فى صحبة أقطابها ، لنسمع منهم وعنهم ، ونستشف من وراء ما يقولون وما يعملون ، روح الفكاهة وأدب المجون .

مضت سفينتنا تشق عباب الماء فى ثقة واطمئنان .

وكان قائد السفينة ومعاونوه قد حملوا معهم ، إلى جانب الركاب ، أثمن ما تحمل سفينة ، من رواد التاريخ فى كل أدب وفن مما ضمّه هذا الكتاب من فكاهة وظرف ومجون . وكان أولهم مؤرخ المسرح الفكاهى .

وكانت السفينة من طراز سفن الأقدمين التى كانوا يجوبون بها البحار قبل اكتشاف البخار ، وقد زودها مرتبو الرحلة بكل وسائل الراحة وبما تستلزمه من أبهاء للمناقشة والاستماع .

ورحنا نحن أعضاء الرحلة ، نتحلق حول مؤرخ المسرح الفكاهى ، وسادن آدابه ، وحافظ أطواره ، نستمع منه إلى أقواله :

الكوميديا فى مفهومها الشامل ، تعبير يوصف به الكثير من الأعمال

الأدبية الدرامية وغير الدرامية . وكلمة دراما Drama في اللغة اليونانية ، تعني العمل ، كما أن كلمة Comedy ، كوميدى ، تعني في عرف المسرح القديم ، العرض المسرحي ، قبل أن تطلق على العمل المسرحي الفكاهي ، وتختص به وحده . ونذكر من باب التداعي ، أن كلمة Opera . أوبرا ، تعني في اللغة الإيطالية العمل ، من فعل Operare ثم تطورت لتصبح علماً على المسرح الغنائي الكلاسيكي المعروف بالأوبرا .

والمسرحيات الدرامية المعاصرة ، والتي تسمى بالكوميديا ، هي تلك التي تكتب بأسلوب خفيف مرح ، وتتضمن أحداثاً لطيفة ، وشخصيات تتمتع بظرف يمكنها من استحداث مواقف تثير الضحك وتبعث على الإضحاك .

ويوم أن بدأت الكوميديا اليونانية ، لم تكن تحوى سوى طقوس واحتفالات دينية أو اجتماعية ، تتخللها أغنيات ورقصات . وكانت تتميز بما يلبسه القائمون بالتمثيل فيها ، من أقنعة من جلود الحيوانات ورءوسها ، وربما كان هذا التخفي على هذه الصورة البدائية الفجّة ، هو بداية (البال ماسكيه) الأنيق الراق في العصور الحاضرة ، أو مهرجانات الزهور وملكات الجمال التي تعتلي عربات أنيقة رشيقة لا يبين هيكلها من غزارة الزهور التي تغطّي كل جزء فيها وتتفتّح براعمها عن ملكات جميلات .

ورحم الله عمرو بن العاص ، وهو ابن الصحراء ، يوم أن رأى لأول مرة عندما غزا مصر ، مركباً في النيل ، ليس من اليسير معرفة كنهه بعد

أن تعلّق به الناس وانتشروا وفاضوا على جانبيه ، فسأل عن خطبه ، فأجابه المسئول ، بأنها مركب تحمل الناس ، ليقطعوا بها النيل إلى الضفة الأخرى فقال : دودٌ على عود . . .

ويقول (أرسطو) فى كتابه (الشّعر) إن كريتس Crates (٤٥٠ ق . م) ، يُعد أول من قدَّم كوميديا ذات حبكة ، وذات وحدة فى الموضوع .

ونظرة الكوميديا إلى البشرية ، تختلف عن أعمال البطولة والشعر الحماسى للتراجيديا . وكثيراً ما حاول أرسطو أن يجد تعريفاً للكوميديا ، حتى اهتدى إلى أنها عمل مسرحى ، يتناول بطريقة مسلية ، الشخصيات العادية فى حياتها ، ومواقفها اليومية حيال ما يحيط بها .

وعندما نقل الرومان هذه الأسس للكوميديا ، عن اليونان ، ضمَّنوها قدراً وفيراً من المتعة ، حتى أمكن وصفها بأنها عمل يبعث على التسلية ، ويهدف إلى عرض مسائل بعينها ، قد يتخللها التعرض لبعض الأخلاقيات .

ولقد وصف سيشيرو Cicero ، الكوميديا الروائية لذلك العصر ، بأنها « تقليد للحياة ، وتصوير للعادات ، وللحقيقة » .

ثم جاء بعده دوناتوس Donatus ، ليقــرر أن الكوميديا تبحث المسائل الشخصية دون عنف أو مخاطرة . وتحل فيها السعادة محل الشقاء . فإذا ما اشتملت القصة المعروضة ، على موقف يختفى فيه طفل ، فالكوميديا تحتم العثور على الطفل المفقود ، كنهاية سعيدة للعمل المسرحى المعروف ، الذى ترتاح إليه نفوس المشاهدين .

ولا يوجد فى تاريخ الدراما ، ما يشير إلى أن الكوميديا تهدف إلى

مجرد الضحك والإضحاك ، ، وإن كان الضحك مقترن بالكوميديا ، ومرتبط بها ارتباطاً عضوياً .

ولقـــد ناقش هـذه الحقيقة كلّ من Burgson (بيرجســـون) فى كتابه عن الضحك Le Lire ١٩٠٠ ، وكذلك Sully . فى كتـــابه An Essay on Laughter

والكوميديا تتفرع إلى الكوميديا التهكميــة ، والـكوميديا السـلوكية ، Come dy of manners ، والـكوميديا الاجتماعيـــة ، والـكوميديا ، الرومانتيكية ، والكوميديا العاطفية . وربما كـان أرقى هذه الأنواع ، كوميديا السلوك ، التى تهدف إلى عرض شخصيات من المجتمع ، وتسليط الأضواء على ما يقومون به من انحرافات ، وخلق جو يشيع فيه الضحك الراقى ، عن طريق نقد تصرفاتهم نقداً مهذباً ، سَوِى القصد ، دون الالتجاء الرخيص إلى استخدام ألفاظ ذات مدلولات ومعانى مزدوجة ، استدراراً لضحك الحاضرين .

ولن تجد كوميديا راقية ، إلاّ فى وسط متحضر ، يكون للمجتمع فيه تقاليد خاصة ، وسلوك اجتماعى متحضر ، حتى يمكن التغلغل فيه ، لنقد ما يستحق النقد بصورة تجمع بين التهكم واللذع والسخرية ، توسلا إلى الإصلاح والبناء السَّوى .

والكوميديا تمتـــاز بهذا الهدف الـراقى عن الفارس Farce ، الذى وصف بأنه كوميديا مبالغ فيها بقصد الإضحاك ، وسيلة وغاية .

وهو فى جملته يعتمد على التناقض ، وعلى المواقف المصطنعة ، استجلاباً للضحك المجرد من أى هدف أو غاية .

وإن كان هذا ، فى جملته ، لا يمنع الكوميديا الراقية من اشتمالها على عناصر ومواقف من الفارس .

عند هذا الحد ، توقف قليلا المؤرخ الأعظم للمسرح الكوميدى ، ليسأل إن كان هناك من يريد توجيه سؤال إليه ، وهنا انبرى أحد المستمعين ، ليسأل عن نصيب العرب ، فى عهودهم الأولى ، من المسرح ، سواء فى تراجيدياته أو كوميدياته ، فأجاب المؤرخ الأعظم بهذه الحقائق :

علة قصور العرب فى المسرحية والتأليف المسرحى ، أن مزاولتهما تقتضى الروية وإمعان الفكر ، والعرب أهل بديهة وارتجال . كما أنهما يتطلبان الإلمام بطبائع الناس وأحوالهم ، والعرب فى بدواتهم الأولى كانوا رُحَّلا ، فإذا استقروا قليلا نفروا إلى الحرب لأسباب تتعلق بالعيش والحياة .

وظل العرب فى شغل بأنفسهم : وما ينتقلون إليه من مطارح ، وكفايتهم بذلك عن النظر إلى من عداهم ، ومن جاوز أفق تفكيرهم .

فوق أن ممارسة شئون التأليف المسرحى ، تتطلب التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم تعمقاً فى البحث ، وأكثرهم ضيقاً بالمعاناة فى أمر يلزمهم بالتفكير فى دوائر محدودة وآماد مقيدة .

وهم أهل انطلاق وحرية تأبى أى قيود وحدود . ولا يضير العرب قصورهم فى التأليف المسرحى ، فقد سلس لهم قياد الشعر والبيان ، فضلا عما بلغوه ، فيما أتى بعد ذلك من حقب ، من شأو بعيد فى العلوم والفنون أيام نهضتهم ، عندما كانت أوربا تحبو فى ظلام دامس وغفوة لم يوقظهم منها إلا العرب ، بما نقلوه إليهم من علوم وفنون وآداب ، جمعوها وترجموها

وصنفوها ، فكانوا حماة لها من أن تندثر وتذوى .

ولعل العهد بالأندلس ما يزال قريباً نسبيًّا ، لمن يريد العلم بما وصل إليه العرب فى ذلك الزمان من امتياز فى العلوم والفنون والطب والمعمار والهندسة وفنون القول على اختلاف صوره وبأساليب كان يمكن لمن يشاء منهم أن ينسج منها درامات لا تطاولها أعمال مسرحية فى زمانهم فى الأندلس .

وكان موقف ابن زيدون من ولّادة بنت المستكفى ، الخليفة ، وهو موقف واحد من آلاف مثله ، وما تبادلاه وتطارحا به من أروع الشعر الغزلى الرقيق ، كافياً لأن يكون عملاً أوبراليًّا وتراجيديًّا ، ولأن يكون فكرة لأوبريت تجرى فى أروقة وأبهاء ، قصور الأندلس ، وتتغنى بشعر ابن زيدون الوزير وبشعر الولادة ، قيانٌ مغنيات مع رقصات أندلسية يزيد من بهائها ملابس ذلك العصر المتحضر البهيج . وابن زيدون ، الوزير الشاعر ، هو الذى قال عند ما يئس من لُقيا ولادة بعد دل منها وإلحاح منه ، وهو منظر درامى تراجيدى ، قال بعد ترك قرطبة إلى أشبيلية :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنَّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
عليك منى سلام الله ما بقيت ... صبابة منك تخفيها فتخفينا

وهى قصيدة طويلة لكل بيت فيها موقف تمثيلى جدير بالإشادة .

ثم أردف المؤرخ المسرحى العظيم قائلاً ، إن العصور الوسطى كذلك ،

خلت من العروض المسرحية بصورةٍ عامة ، فيا عدا موضوعات مستمدة من التوراة والإنجيل وطبيعى أن يكون أغلبها تراجيدياً وأقلها ما كان كوميدياً .

ومن كوميديات العصور الوسطى ، ما ورد نصه فى كتاب Seisam سيزام ، وهى كوميديا «سفينة نوح» حيث تُشاهد زوجة نوح تعنف معه إلى حد الاعتداء عليه بالضرب .

والحبكة هنا تعتمد على أن نوحاً أصر على أن يأخذ من كل كائن حى ، زوجين ، استمساكاً منه بدوام الحياة ، وليسير بهذه الأزواج فى مركبه ، مع علمه بما سوف تتعرض له الحياة فوق المركب من خلافات تثيرها المرأة ، بزغم عدم وجود منافس لها ، ولكن القصة كانت تغمز ، مبالغة منها ، إلى أن المرأة تلازمها طبيعتها فى كل مكان وزمان ، وهو غمز مقصود ، تتطلبه الكوميديا .

والعجيب أن مسرحية (فاوست) Faust ، المفروض أنها مأساة ، كانت تمثل تمثيلا كوميدياً . فقد وجد رجال المسرح آنذاك ، أن شخصية (فاوست) فى تطاوله على شئون إلهية عليا ، يمكن أن تكون موضوعاً للسخرية التى هى مادة الكوميديا ، لا أن تكون موضوعاً للتراجيديا .

فى مثل هذه العصور الوسطى الجامدة الجادة ، لم تجرؤ ابتسامة ما ، أن تطل من فوق شفاهٍ أطبقها شظف العيش حتى لا تنطق ، لا أن تبتسم .

ومضت السنين يطوى بعضها بعضاً ، حتى أطل عصر النهضة ، وظهرت الكوميديا فى ثلاث صور :

كانت الصورة الأولى تعتمد على الفكاهة اللفظية ، التى تعتمد بدورها على ذكاء وفطنة وسرعة خاطر الممثلين فى الحديث والجدل .

وكانت الثانية تعتمد على المواقف ، عندما يقع سوء تفاهم أو خطأ غير مقصود . أو تورط فى أمور مفاجئة .

وكان النوع الثالث هو أرقاها ، وهو ما أطلق عليه ، Comedy of Humours ، أى كوميدياً الطبــاع ، لأنها تبرز ما فى الإنسان من نقط ضعف تدعو إلى التهكم عليه لا الرثاء له .

وكوميديات شيكسبير من هذا النوع الراقى . وتظهر براعته فى تناوله للكوميديا ، فى مسرحية (هنرى الرابع ومسرحية زوجات وندسور المرحات ، ثم فى كشف ما انطوت عليه شخصية شايلوك فى تاجر البندقية) .

ولعل (موليير) كان سيد هذا النوع ، الذى تفرَّغ له وأصبح علماً عليه ، ولا شأن له بغيره ، على عكس شيكسبير الذى توزع بين التراجيديا والكوميديا .

وكان موليير ، بفضل تفرغه ، قد جمع بين أصابعه خيوط الكوميديا الثلاثة التى سبق ذكرها ، وراح يستخدمها بقدرة وإدراك فى مسرحه الذى ما يزال نابضاً بالحياة حتى أيامنا هذه ، وهو أمر يندر وجوده . ومن ذا الذى ينسى شخصيات المريض بالوهم والبخيل . إنهــا أهرامات آدميــة .

ومما يروى عن (موليير) ، أنه كان يجنح إلى وسيلة بارعة ، للتأكد من بلوغه ما يطمع فيه من مستوى الكوميديا الراقية التى يقدمها . فقد لاحظ أن خادمه الخاص ، الموكل إليه كل ما يتصل بخدمة موليير وشئونه

العامة والخاصة ، وهو ما كان يطلق عليه اسم Butler أو الوصيف ، لاحظ أن هذا الوصيف لا يعرف الابتسام إليه سبيلا .

وكان من العسير إضحاكه ، أو بعث الابتسامة إلى شفتيه .

فكان يستدعيه ، ويطلب منه الاستماع إلى مسرحيته الجديدة . ويطلب منه أن يجلس أمامه ، ليستطيع موليير تتبع أسارير وجه خادمه . ثم يمسك بورقة وقلم ، ويدون ما راق للوصيف ، وما أحس بأنه حرّكه حتى ابتسم أو أخرجه عن حدّه حتى ضحك ، ليقف من ذلك على تأثير ما يكون قد كتب ، على المشاهدين عن طريق متابعة الخط البيانى الذى ارتسم على وجه وصيفه العبوس ، ثم يمضى فى إجراء تعديلات على مسرحيته من واقع ما خرج به من ملاحظات ، كانت أمامه مقروءة كأنها رسم القلب أو مقياس ضغط الدم ، أو تقلبات الأسعار . . . .

وبرغم أن أعمال (ابسن) المسرحية لا تدخل فى نطاق ما نحن بسبيله من بحث الكوميديا ، إلا أن العلم بمسرحه يؤدى إلى العلم بما تأثرت به الكوميديا من روافد صبت فى نهرها ، وأمدته بالغزير الوفير من العلم الصحيح والمدى الأفقى والرأسى للمجتمع ، وما به من نقائص ، يعمل مسرحه على إبرازها كعلة كشف عنها فحصه ، وكتب لها الدواء الذى يساعد على الشفاء .

ولقد سقط ظل (ابسن) على المسرح الحديث ، وكان تحليله لمشكلة الطبقة المتوسطة قاطعاً ، مما استحال معه تجاوز حدود فكره . ذلك أن التحرك خارج هذه الحدود ، معناه التحرك خارج حدود المجتمع فى تكوينه الحديث .

ففى مسرحية (عصبة الشباب) يظهر (ابسن) براعة فائقة وقدرة مذهلة استطاع بها أن يحلل بها شخصيات مسرحية عن طريق ما تصنعه الضغوط الاجتماعية بالنفوس . ويقول فى القصة ، دكتور فيلدر عن أحد شخصيات الرواية « كان أبوه أنقاض رجل . عُشبْ ذابل . . . . أو قل لا شىء . . . وكان يحتفظ بدكان يعمل فيه بالتجارة وبالربا . أو على الأصح كانت زوجته ، تقوم بذلك ، نيابة عنه ، حتى يصح فى أذهان كل معارفه ومن لا يعرفه ، أنه لا يصلح لأى عمل » .

وهو على عكس من أراد من مؤلفين ومفكرين ومسرحيين ، أن يظهروا أن الطبقة المتوسطة طبقة مغلوبة على أمرها ، كان هو يرى أنها طبقة تحاول إنقاذ نفسها بشتى الطرق ، التى كان المال يلعب أكبر دور فى الضغط على هذه الطبقات ، ليحملها على الانحراف . وكان يرى أن أفــراد هذه الطبقة ، كانوا يكافحون ضد العرف الذى أصبح قانوناً ، لا ضد الظروف التى ينبع منها العرف .

ثم مرّت هذه الفترة لتعقبها الكوميديا الحديثة ، التى كان مسرح « برناردشو » زعيمها . وكانت كوميدياته تقوم على المذهب الواقعى ، ولذلك ارتبطت هذه الكوميديات بالنقد الاجتماعى ، وهو مادفعه إلى اتباع مدرسة كوميديا السلوك .

ومع برناردشو ظهر فى فرنسا مارسيل بانيول . وفى روسيا نيكولاى جوجول . وكانت أعمالهم جميعاً تهدف إلى النقد .

وما دمنا قد أتينا على ذكر الكاتب المسرحى الفرنسى وعضو الأكاديمية الفرنسية ومؤلف المسرحية الخالدة (توباز) ، مسيو مارسيل بانيول ،

فلا بأس من أن نذكر طرفاً مما عرف عنه من ظرف ومجون وأقوال مأثورة لاذعة .

كان يقول إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحمر وجهه . ولا بد من حيوان آخر مثله يتسبب فى ذلك .

وكان يقول عندما علم بمأساة أحد أصدقائه بعد أن أصبح لا يملك شيئاً على الإطلاق ، وفى وقت مبكر : إن الإنسان لا يرتاب فى توخى هذا الصديق لما وصل إليه من إفلاس ، كان نتيجة وضع ماله فى يد امرأة ، وخاصة عندما كانت يد هذه المرأة صغيرة .

ويقول إن المرء يبلغ سن الشيخوخة عندما يبدأ فى ترديد هذه العبارة : إننى لم أشعر من قبل بأننى فتى مثل اليوم .

وكان يروى عن أحد الخالدين الأربعين أعضاء الأكاديمية الفرنسية الذى اشتهر ببخله ، أنه انقطع انقطاعاً تامًّا الآن للتاريخ حتى أصبح يعيش فى دهاليز الماضى وأروقة الزمن الغابر ، فما كان من فرانسوا مورياك الذى كان يستمع لهذا الوصف ، إلا أن استغرق فى ضحك طويل ليقول :

ذلك لأن تكاليف الحياة ، هناك ، زهيدة جدًّا . . . .

وكان يروى نادرة يعود تاريخها إلى عهد الملك لويس فيليب .مفادها أن أحد أصحاب الحاجات ، كان يبغى إنجاز مهمة لدى موظف حكومى عظيم الشأن ، وقد عرف عنه أنه يرتشى . فلما تأكد صاحب الحاجة ، أنهما وحيدان فى المكتب ، همس بصوت خفيض :

نحن يا سيدى الآن وحيدان هنا . فخذ بالله هذا المبلغ المتواضع ،

وأقسم لك أن أحداً لن يدرى شيئاً عما جرى بيننا .

فما كان من الموظف الكبير إلا أن هتف عالياً :

بالعكس أيها العزيز ، أعطنى ٢٥ ألف فرنك ، وارو الخبر للجميع ...

وكان إذا أراد مارسيل بانيول أن يتحدث عن فتنة امرأة ، وجمالها الأخاذ ، يقول :

إنها جميلة مثل زوجات الآخرين . . .

ومن أقواله أيضاً إن اللحظة الوحيدة ، التى تصغى فيها الزوجة إلى ما يقوله زوجها ، هى ، عندما يتكلم فى نومه . . .

وكان يقول عن التليفزيون الفرنسي ، إنه ساهم بحق فى نشر الثقافة فى فرنسا على أوسع نطاق . فعندما يبدأ هذا التليفزيون فى عرض مسلسلاته على شاشته ، فإن عدد المشاهدين الذين يقفلون أجهزتهم ، يزداد ليفزعوا إلى أقرب الكتب الجديدة التى صدرت وقرءوا عنها ، هارعين إليها هرباً مما يرونه من عروض ، وهو أمر لم يكن قائماً قبل التليفزيون . . . .

* * *

ويسأل المؤرخ العظيم : هل أمضى ، أم لأحدكم شيئاً يريد أن يستعلم عنه ؟

وارتفعت أصواتنا تسأله الاسترسال ، رغبة منا وقد قاربنا عصرنا الحاضر ، أن نسمع منه عرضه له ومسحه الشامل للمسرح الفكاهى فى زماننا .

راح يستعرض المسرح الفكاهى منذ عهد يعقوب صنوع الذى كان إمام الساخرين فى الصحافة والمسرح الفكاهى ثم جاء بعد فترة مجدبة

من الفكاهة فى المسرح المصرى ، عهد الريحانى وعلى الكسار ، الذى اعتمد فيه الأول على شخصية عمدة كفر البلاص ، حتى إذا أحس بملل الجمهور منها انتقل إلى كوميدياته الراقية التى بناها على نقد ما فى المجتمع من نقائص ، واعتمد فيه الثانى ، على الكسار ، على شخصية رجل كان يطلق عليه (بربرى مصر الوحيد) وكان طيب القلب ، مهمته فى الحياة التوفيق بين المتخاصمين وجبر الخواطر ، حتى يصل الشاطر حسن إلى ست الحسن التى حجبها عنه شياطين يمثلون الشر ، مع استعراض غنائى كان الجمهور يستسيغه ، ويغنى فيه حامد مرسى وعقيلة راتب ، ويلمع هو فيه معهما ، لمعاناً أتاح له أن يقف موقف الند من مسرح الريحانى .

ثم أتى حين فى الحرب العالمية الأولى ، كانت الكوميديات تعتمد على استعراض مسرحى غنائى راقص ، مع بعض ديالوجات فكاهية ، فرانكو آراب ، كما كانوا يطلقون عليها .

ثم ظهرت إلى جانب هذه الاستعراضات ، مسارح عبد الرحمن رشدى وجورج أبيض والشيخ سلامة حجازى وعزيز عيد وأمين صدقى ، لتقدم كوميديات مترجمة راقية ومصرية أحياناً .

وكان مسرح الشيخ سيد درويش يقدم أوبريتات غنائية ما تزال أغانيها كأنما قد فرغ ملحنها المبدع الخالد سيد درويش منها فى التوِّ وفى هذه الأيام التى تعيشونها . والفن الأصيل روح لا تنطفئ شعلتها ، بل تبقى متوهجة بفضل ما بها من حرارة الصدق وعبقرية خالقها وصانعها الفنان القدير .

وقد قدَّم على مسرحه العشرة الطيبة وشهر زاد والباروكة ، التى كان يضع فيها من النقد للاحتلال ، غمزات لاذعة حتّى استطاعت السلطة أن تغلق مسرحه بأساليبها الملتوية .

* * *

ويمضى المؤرخ الأعظم فى سرد أخبار المسرح الكوميدى فى مصر فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

كانت الكوميديات ، كما ذكرنا ، تنحصر فى مسرح الريحانى والكسار وعزيز عيد فى فترات متقطعة ، وذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

وعزَّ على يوسف وهبى ألا يلقى بدلوه فى الدلاء ، فراح يقدم مسرحيات كوميدية مترجمة لاقت نجاحاً كبيراً . وهو نفسه ، كوميدى من طـــراز فريد شكلا إن أراد ، وصوتاً وحركة برغم إرادته .

كما أنه يعد من أكثر الممثلين فهماً لأبعاد الدور الذى يمثله ، أيًا كان نوعه ، وهو ما حدا به إلى تقديم مسرحية (بيومى أفندى) التى كان يغمز فيها بنقد لاذع ، أوضاع المجتمع ومتناقضاته ، ويوغل فى سويداء ما يريد كشفه متوسلا فى ذلك بقدرته على فهم كوميديا . المواقف وكوميديا السلوك .

وكان يعلم أن تراجيدياته لا تجذب إلا فريقاً من الطبقة المستنيرة ، وهذه لا تشبع جوع الشباك النَّهم .

فقلَّة ، هى التى تعنى بمشاهدة راسبوتين وغادة الكاميليا ، والمجنون ، والوحوش وأبناء الفقراء وعشرات مثلها .

ولا بأس من سرد نادرة تناسب هذا المقام ، عن تراجيديات عميد المسرح ، يوسف وهبى . فقد قصد مسرح رمسيس ، فى أوج مجده ، عامل من الكادحين ، أراد أن يروِّح عن نفسه فى يوم عطلته وهو يوم الجمعة ، واجتذبته الإعلانات فقطع تذكرته فى أعلى التياترو ، وجلس لمتابعة أحداث الرواية التراجيدية التى راح يوسف (بك) يأتى فيها على مصائر كثير من شخصيات التراجيديا ، بلا شفقة أو رحمة .

انقبض صدر العامل المسكين ، الذى جاء ليرفه عن نفسه ، فإذا به أمام مأتم متلاحق المآسى ، وأيقن أن نقوده ذهبت هبـــاء ، وتمنى لو كان ما يجرى أمامه ، إنما هو مقدمة ، كان لا بد منها ، لسوء سلوك الذين لقوا مصرعهم على يد رغبة عميد المسرح ، وأنه سوف يأتى بعدها ، إن شاء الله ، ما يزيل كربه ، ويعمل على الترفيه المنشود .

ولما لم يحدث ما تعلَّق به من أمل واه ، صرخ من أعلى التياترو :

« يا سى يوسف . كفايه كده . واللى فينا مكفِّينا . قول لنا حاجة من شكوكو ، الله يجبر خاطرك » .

ولعل المجال يسمح بسرد نادرة أخرى أقدم عهداً تتعلق هى الأخرى بالمسرح .

فقد حدث فى إحدى جولات فرقة جورج أبيض فى عواصم المديريات ، أن تخلَّف ممثل من أعضاء الفرقة ، وكان دوره صغيراً ، ولكن مغصاً كلويًّا . مفاجئاً ، أقعده عن مجرد الحركة . ومهما يكن من أمر دوره الصغير ، فإنه لا بد من شغله بأحد .

أسقط فى يد الأستاذ الكبير جورج أبيض ، لولا أن انتشله مما هو

فيه ، أحد ممثلي الفرقة ، الذى ذكر للأستاذ جورج ، أنه قابل صديقاً فى المدينة – وكانت المنصورة – أنبأه بأنه كان فى طريقه إليه ، ليدعوه إلى حضور فرح أخيه ، الذى أحضروا له من القاهرة ، فرقة موسيقية وبعض فنانين من المونولوجست وكذلك أحمد الفار الذى اشتهر برواية الحكايات الفكاهية ، والدخول فى قفشات مع الجمهور ، بترتيب خاص ، مثلما كان يحدث فى مسرح على الكسَّار ؛ إلى جانب تقليده لبعض الأصوات وهو بحكم اعتياده على مواجهة الجمهور ، فإنه يستطيع أن يقوم بدور الممثل المريض ، ثم يعود إلى الفرح ، لأن دوره لا يتجاور دقائق .

واستصوب الأستاذ جورج أبيض الفكرة ، وأحضروا أحمد الفار ، الذى أفهموه دوره الصغير ، وألبسوه عمامة وقفطاناً ووضعوا له ذقناً وشارباً مستعارين .

وكان عليه ، طبقاً لمجريات الرواية ، أن يرد على جورج أبيض ، بأربع كلمات على التحديد ، هى :

أقسم لك أنى برىء

وذلك عندما يكون جورج قد غرز أصابعه فى صدره ، صارخاً ، « سوف أقتلك أيها المجرم ، سوف أقتلك ، سوف أقتلك. . »

وبدلاً من أن يغرز جورج أبيض أصابعه فى صدره ، غرزها فى بطنه ، بسبب ضعف بصره ، وبسبب ما عرف عن جورج أبيض من اندماج كلِّى فى الدور الذى يؤديه ، فإنه لم يكن يسمع شيئاً مما يدور حوله ، حتى

صوت الملقن ، ولم يلتفت إلى صوت أحمد الفار وهو يناشده أن يخفف من ضغط قبضة يده ، لأنه بالفعل سيموت إذا استمر جورج فيما هو مندمج فيه . فلما لم يجد الفار صدى لهذا الرجاء المستميت ، إذ به يخلع العمامة والذقن والشارب والقفطان ، ويلقى بهم على أرض المسرح وهو يصرخ ويدفعهم عنه :

حدّ الله بينى وبينكم ! دول ما كانوش ثلاث (برايز) ، ثلاثين قرشاً ، علشان تتآمروا على قتلى ، والاسم تمثيل ؟ . . . ابعدوا عنى . .

ثم جاءت سنوات ما بعد عام ١٩٥٠ ، وظهر معها مسرح كوميدى انتقادى ، مهمته نقد المجتمع فى سبيل خدمته ، عندما تنحرف بعض طبقاته عن جادة المعقول والصواب .

وكان من الطبيعى عقب الانتقال من مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى ، أن تهتز موازين كل شيء قامت عليه الكوميديا فيما قبل ذلك . وأصبح الهدف شيئاً ضرورياً ومصاحباً لأحداث المسرحية الكوميدية .

وانحصرت الكوميديا فى السخرية من أوضاع المجتمع القديم أو من وقوع انحرافات حديثة تدعو إلى النقد والتوجيه ، مثلما كان يجرى فى رواية (ميرامار) أو (روبابيكيا) ، يهدف تنقية المجتمع والسلطة من شوائب ، إن لم تستأصل وهى فى بدايتها ، استشرت وصَعُب الفتق على الراتق .

وظهرت فى هذه السنوات الأخيرة مسرحية سكة السلامة ، ومسرحية القضية ، اللتان عرضتا إلى نقاط الضعف فى شخصيات من المجتمع ، ذات ميول متباينة واتجاهات متعددة ، وخفة ظل وقدرة على الحركة والتحليل ، سرت فى طول هاتين المسرحيتين ، عن فهم وإدراك بالكوميديا

السلوكية الراقية .

وقد أكون واقعياً وأنا أقول إن الكوميديا المصرية منذ عهد الريحانى ، لم تتقدم خطوة إلى الأمام ، إلا فى بعض شخصيات المسرحية ، التى يعتمد فيها المؤلف على ما يقع من متناقضات فى الطبقة المتوسطة ، نابعة من تخفيف التمسك بقيود القديم ، والتطلع إلى الجديد بحذر مأتاه نقد المجتمع والبيئة لكل أمر مستحدث ، سرعان ما يألفه بعد حين ، ما ذكرته هنا من مسرحيات إنما هو على سبيل المثال . وقد ظهرت عشرات التمثيليات التى نجح مؤلفوها فى الوصول بها إلى حيث يريدون .

ومما يؤسف له أن بعض كوميديات العصر الحاضر فى مصر ، نرى فيها المؤلف يلجأ إلى الألفاظ التى تثير الضحك لمدلولات فيها ، وإشارات وحركات تخدش الحياء .

كما أن الاعتماد على الإضحاك لمواقف حركية كضرب الممثل نفسه بحذاء ، أو الوقوع على الأرض ، أو بلبس ملابس مستهجنة ، لا يعد من الكوميديا الراقية مطلقاً . وإن كان يثير الضحك للضحك ، وهو فى رأى بعض الناس هو الغاية من الكوميديا ، بل هو وسيلة وغاية فى اختصار مفيد .

على أننا لوجه الحق ، نقول إن المؤلف المصرى للكوميديا معذور فى ذلك كل العذر .

ذلك أن الجمهور لا تحركه إلا مواقف بعينها ، يراقب المؤلف بعين يقظة ، مواضعها أثناء العرض ، ليجد لنفسه مكاناً فى كوميدياته القادمة إرضاء لهذا الجمهور ، الذى يخافه ويخشاه كأنه الجنة والنار ، والذى

عرف زاده الذى يهفو إليه ويهواه .

ولعلى لا أجاوز الحق ، إذا قلت إن پارڤان شانيل سانك ، أوجاك فات ، أو كريستيان ديور ، لا يقبل عليها أقوام لا يرضيها إلا الروائح النفَّـــاذة ، التى تحتل المواضع التى تنسكب عليها ، احتلالا يتطلب جهداً وكفاحاً ونضالا ، حتى يذهب ريحها . :. هذا إن ذهب . . . ومؤلف الكوميديا المصرى يعلم أنه يعرض عمله على شعب ذكى (يفهمها وهى طائرة) كأنه فى موقعه يبيع ماء فى حارة السقايين .

وليس أعرف بطبيعة النفس إلا صاحبها . وقد تتطور الكتابة المسرحية للكوميديا إلى ما هو مرجو منها ، إذا التزم الكتَّاب الجانب الإنسانى الذى يمكن أن يضحك منه كل مشاهد ، مهما كانت طبقته ، ومهما كان زمانه وعصره ، وأينما عرضت مثل هذه المسرحيات .

ولديكم فى مصر بحمد الله وفرة من الممثلين الكوميديين تباهون بها أى دولة . وكلهم مجيد نابغ لأن وصولهم إلى خشبة المسرح وسط هذا الجمهور الواعى المستنير ، يتطلب مزايا هى بحمد الله متوفرة لدى الكثرة من المصريين وتظهر واضحة بالمران . ولو وقع هذا الحشد من الكوميديين على نص ناجح ، إذن لسمعتم طرباً ورأيتم عجباً .

* * *

كنا قد وصلنا فى طوافنا إلى بيروت ، ثغر لبنان القريب ، حيث كان المؤرخ الأعظم للمسرح على موعد مع مركز هيئة اليونسكو فى بيروت ، الذى أعد له برنامجاً ثقافياً يستمع فيه المدعوون إلى محاضراته ومناقشاته ، عن تاريخ المسرح اليونانى منذ عهـــد يوريبيدس صاحب مسرحية

هيبوليتاس ، وسوفوكليس صاحب أوديب وأنتيجون ، وأشيل صاحب بروميثيوس .

ودعناه شاكرين ، ودعا لنا بالتوفيق فى باقى رحلتنا .

ولما كنا ننوى أن نبحر إلى أماكن نائية ، لا قبل لمراكب الشراع بها ، لأسباب جوية وفنية ، فقد هبطنا بيروت مع الهابطين ، لنستقل منها ، طبقاً لجدول مرسوم ، باخرة فاخرة ، ضخمة فخمة ، تُغرى بالاطمئنان وتبعث بالثقة فى النفوس ، وتزدان أبهاؤها بكل ما تطيب به الروح ، وينشرح له الصدر . كما كانت تتسع هذه الأبهاء لمئات المسافرين ، عند عرض مسرحية أو فيلم سينمائى لدفع أى ملل أو سأم من الرحلة ، إلى جانب تجهيزها بالحديث من الآلات الكهربية الحديثة ، التى تتحكم فى الصوت وفى الضوء ، بحيث يطيب للمشاهد فى مقعده الوثير ، الوقت والمتعة والفائدة وانسجام رفقة الطريق .

تفرقنا فى ممرات الباخرة بحثاً عن مقصوراتنا التى دلّنا عليها مستخدمو الباخرة ، وتواعدنا على اللقاء فوق ظهر الباخرة ، لنشاهد الهابطين والصاعدين ، وهى متعة المسافر فى كل شىء ومن أى جنس ، وكأنما كنا نلتقى بخواطرنا مع خواطر أبى الفرج الأصبهانى ، صاحب كتاب الأغانى عند قوله : « فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء إلى شىء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه ، أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، المنتظر أغلى على القلب من الموجود » .

وتلاقينا على سطح الباخرة : « مفاعيل » . . . وقفنا ندقق النظر فى الصاعدين ، انتظاراً منا لرؤية المؤرخ الأعظم للشعر والشعراء ،

حيث كان منظمو الرحلة قد اتفقوا معه على أخذه فى رحلتنا هذه ليحدثنا خلال الرحلة عن عالم الشعر الفكاهى والشعراء الماجنين ، إلى أن نتوقف فى ميناء تريستا الذى ينزل هو فيه ليقطع الطريق براً من فينيسيا إلى فلورانس شمالاً ، وهى مركز الإشعاع الفكرى فى القرون الوسطى ، وموطن (دانتى) صاحب الكوميديا الإلهية ، وأخلد شعراء إيطاليا ، ليصل منها إلى مدينتى (فيرونا وبادوفا) القريبتين من بحر الأدرياتيك حيث وقعت أحداث مأساة (شكسبير) الخالدة ١٥٩٤ (روميو وجولييت) فى هذه المنطقة .

وقد علمنا من منظمى الرحلة أن المؤرخ الأعظم للشعر تلقى دعـــوة من جامعة (ڤيرونا) لإلقاء محاضرة ، صرف همه فيها إلى عقد مقارنة بين مأساة مجنون ليلى ، العربية ، ومأساة شيكسبير ، روميو وجولييت .



الفصل الخامس

أدب الفكاهة فى الشعر عند الشعراء

شاهدنا من مواقعنا العالية فوق سطح الباخرة « مفاعيل » شيخاً مهيباً وقوراً أشيب ، يلبس (حُطَّة) يحيط بها عقال ، ويلتف فى عباءة فضفافة بيضاء ، وقد أمسك بعصاً طويلة ، وأطل من تحت إبطه سجل كبير ، كان يحرص عليه حرص الخليل بن أحمد الفراهيدى على صحة أوزانه وبحوره .

وكان يصعد مرقى الباخرة فى تؤدة ومهابة استقطبت من حوله الأنظار وأحاطت به فى إعجاب وارتقاب .

لقد بدا عليه ، برغم طول الطريق الذى قطعه ، توثب الشباب ، واطمئنان الشيوخ .

لقد علمنا فيما بعد ، أنه جاء من شبه الجزيرة العربية ، وعرَّج فى طريقه على بغداد فدمشق فحلب ، موطن وحاضرة إمارة سيف الدولة الحمدانى ومسرح تغنِّى المتنبى بشعره ، حتى بلغ بيروت ، ليصحبنا فى رحلتنا ، ولنسعد بصحبته ولنستمتع بمعارفه وواسع إحاطته بكل مجالات الشعر ، وبصفة خاصة بالشعر الفكاهى والشعراء الماجنين .

سار الشيخ الوقور بتؤدة ووقار ، وتقدمه إلى البهو الكبير ، ضابط

بحرى من ضباط المركب ، حتى استقر فى صدر البهو فوق أريكة وثيرة الفراش ، ناعمة المساند ، وراح يتمتم بكلام مقفى موزون ، تبين لى من التقاط أذنى لبعض ألفاظه ، أنه لابن أبى صقر ، الذى كان يقول بعد أن طعن فى السن ، وأصبحت العصا جزءاً من أشلائه :

كلُّ أمر إذا تمعَّنت فيه وتأملتــــه رأيت ظريفًـــا
كنتُ أمشى على اثنتين قوياًّ وترانى على ثلاثٍ ضعيفاً

* * *

أخذ الشيخ يرفع صوته حتى يصل إلى كل سمع متشوِّق ، وكل نفس راغبة ، وراح يقول :

الظرف فى الشعر ضرورة كضرورة الأنوثة للمرأة ، والطيب فى العطر ، والماء للزروع ، والحرية للبشر أجمعين .

ولن تجد شعراً تستطيبه الأسماع ، وتحفظه الأذهان ، إلا إذا احتوى على طلاوة أسلوب ، وجمال معنى ورهافة حس ، وخفة ظل فى التناول والسرد ، والتندّر ببدائع المجون . .

والهجاءون إذا لم يضم هجاؤهم ظرفاً مُستحبًّا ، وخيالاً ممتد الأفق ، ومفارقة ذات مجون ، فأولى بشعرهم وهجائهم أن يسلك فى شعر السباب والشتائم ، لا الهجاء الظريف .

فقد حدث أن الأقيشر ، واسمه المغيرة بن عبد الله الأسدى ، الذى ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام ، كان يحب ابنة عم له اسمها الرباب ويتحرق شوقاً للزواج منها الذى أباه عليه أبوها ما لم يدفع مهراً قدره عشرة آلاف درهم لم يكن يملك منها درهماً . وقد ردّه أهله عندما رجاهم بدعوتهم

له ، فعاد حزيناً شقياً .

وهداه تفكيره إلى أن يسأل العون من ابن رأس البغل ، وهودهقان الصين ، وكان مجوسياً من عبدة النار . وقد وجد عنده ضالته وأعطاه الصداق المطلوب .

ورأى الأقيشر أن يمدحه بقصيدة تنم عن الشكر وهى إلى جانب الشكر ، تضمنت قدحاً مستطرفاً بالغ الظرف . قال :

كفانى المجوسىُّ مهر الرباب
فِدًى للمجوسىِّ خالى وعمْ
شهدت بأنك رَطْبُ المشاش [١]
وأنَّ أباك الجـواد الخِضَمْ
وأنك سيد أهـل الجحيم
إذا ما تردَّيت فيمن ظَلَمْ
تجاور قارون فى قعـرها
وفرعون والمُكتنى بالحَكَمْ [٢]

فلما عاتبه المجوسى على هذا الجزاء وهو الذى فك ضيقته ، أجابه الأقيشر :

أو ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبى جهل ؟

بل إن بعض الرِّثاء إذا صاغه شاعر ظريف ، لطيف الحس ، لمست فيه العزاء الجميل ، والفلسفه التى تذهب الحزن .

(١) رطب المشاش بمعنى كريم النفس .

(٢) الحكم هو أبو جهل .

فقد حدث أن أبا دلامة زند بن الجون الكوفى المنبت ، الماجن المضيع للقروض ، والمجاهر بذلك ، كان الخلفاء والولاة يتجاوزون عن آثامه للطفه وظرفه .

وكان من ندماء أبى جعفر المنصور ، الذى حبّبه فيه ظرفه . ومما يروى عنه أنه دخل على أم سلمة المخزومية ، امرأة الخليفة أبى العباس السفّاح ، بعد وفاة زوجها ، فإذا بفجيعتها فيه تبعث الدموع فى عينيه ، فبكت معه . وراح ينشدها قصيدة فى رثائه ، فقالت له :

لم أر أحداً أصيب به ، غيرى وغيرك يا أبا دلامة .

فقال : يرحمك الله ، ولكن لا سواء ، فأنت لك منه ولد ، وما ولدت أنا منه . . . . .

فضحكت ، ولم تكن ضحكت قبل ذلك ، وقالت :

لو حدَّثت الشيطان لأضحكته . .

* * *

طاف المؤرخ الأعظم بنظره بين المستمعين ، فلمح وجوهاً مصرية كثيرة ، فابتسم لها مرحباً ، ثم أردف يقول :

يطيب لى قبل أن نوغل فى عالم الشعر الفكاهى عند العرب ، أن نعرض بعض ملامح رقيقة من شعر ظرفاء مصر ، فى عصر ، لا هو بالبعيد ، ولا هو بالقريب ، وإن كان العلم به غير منتشر ، حتى ليخشى أن يندثر .

كان هذا العصر وشعراؤه ، يقع فى نهاية القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وبلغ ذروة إشراقه ما بين عام ١٧٥٠ وعام ١٧٩٠ .

ولم يأل صديق الجبرتى جهداً فى بحث أحوال ذلك العصر ، فى نواحيه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والعسكرية ، ليؤرخ لها تأريخاً ، التزم فيه كالعهد به ، صدق الحس ، وأمانة العرض ، والإحاطة بالوقائع .

وشعراء مصر من الظرفاء ، لا يحصيهم العد .

والظرف فى مصر فن له أصالته وطريقته ، وله سدنته وفرسانه .

وإنك لتدركه فى كل مقال ومجال ، فإن لم تدركه أدركك ، لما يتميز به من سرعة بديهة وإشراق لماحيته ، وظرف معناه ومبناه .

وإنك لتقرأ لافتات على محال تجارية ، فيما تسلك من طرقات ، تثير فى نفسك الضحك وتشيع بين جوانحك البهجة .

من ذلك أن جزاراً فتح محلا فى شارع من الشوارع غير المعروفة ، وعلق لافتة للمحل جاء فيها : « الجزارة العالمية . . . . »

ويبدو أن الرجل ، أخذه الحياء مما أقدم عليه من ادعاء العالمية ، فعاد يكمل اللافتة مستدركاً بظرف لمّاح ، لتصبح : « الجزارة العالمية . . . الصغرى . . . »

وعندما عُرض فى مصر فيلم الوردة البيضاء ، استهوى الاسم أفئدة كثيرين من أصحاب المحلات التجارية ، من غير مراعاة لمقتضى الحال ، كما هو الأمر فى البيان .

فكنت ترى مثلاً « فسخانى الوردة البيضاء » أو « أسماك الوردة البيضاء » أو فرارجى الوردة البيضاء »

وصدرت فى مصر مجلة فى الثلاثينات ، طاب لصاحبها أن يسميها

« مجلتى » . وكانت هذه التسمية كفيلة بأن تجتذب إليها المولعين بالتجديد ، فراح كثير من التجار يطلقونها على محالهم ، فكنت ترى على سبيل المثال : « بفتتى » لمحل بيع الأقمشة الشعبية من بفتة ودمور وغيرها . أو « لحمتى » . . . على محل جزارة متطور .. حتى بلغ الحال بحانوتى عصرى بالإمام الشافعى ، أن أطلق على دكانته : « طربتى » . . . .

وأنت إذا كلّت عينك من قراءة اللافتات ، التقطت أذنك وأنت تسلك طريقك ، أحاديث المارة التى تنطوى على متعة ما بعدها من متعة .

فقد أبلغنى صديق ، أنه كان يتنزه على شاطئ النيل ، وإذا برجل يصحب أولاده الأربعة فى نزهة اقتصادية ، فهو موظف محدود الدخل من المال لا من الولد . . . ، وكان منظر بائع « السميط » الذى مرّ بهم ، قد حرّك شهية الأولاد ، فرضخ الوالد لإلحاحهم ، واستوقف البائع ليسأله عن ثمن الواحدة من السميط ، فلما علم أنه قرشان ، راح يتلمس مخرجاً من هذا الحرج ، وسرعان ، ما وجده فى جس السميط وقوله للبائع : منذ كم من الأيام وأنت تبيع هذا السميط ! . .

وإذا بالبائع يرد عليه بصوت عال ليقول : إذا لم تكن قادراً على السميط ، ابحث لك عمّا يتفق ومقامك . . .

وذكر لى صديق آخر أنه كان يمر فى الطريق ، وإذا به يسمع حواراً بين صاحب عربة « كارو[1] » تحمل نسوة رقيقات الحال ، وبين

---

(١) الكارو عربة يجرها فى الأغلب حمار وتتكون من ألواح خشبية عريضة فوق عجلتين . ويجلس على الألواح ركب هذا النوع الذى يعد أقل أنواع المواصلات نفقة وقدراً . والاسم إيطالى محرّف .

امرأة تسأله عما يتناوله بين أجر من المنيرة للصليبة . فلما أبلغها أنه يتناول قرشاً صاغاً أجابته بأنها لا تدفع أكثر من نصف قرش ، وإذا به يحث حماره على الإسراع فى السير ، ليقول لها وهو مُدْبر :

مادمتم غير قادرين على « الكارو » ما لكم ومالها . . . . .

وقد حفلت مصر بشعرائها الظرفاء منذ القرن الخامس عشر ، وبزّهم صفى الدين الحلى وابن نباتة .

وقد جاء من بعدهما شعراء عرفوا بشعراء (وجه البركة) .

وكانت آثارهم الأدبية ، كما سوف نرى ، تنم عن طول باعهم فى الشعر ، وجمال تصورهم لما كان يحيط بهم من متع وحياة وارفة الظلال ، تميل أغصانها بثمار المنى ، على مذهبهم .

ولعل المقام يقتضينا أن نذكر أمثلة من شعر صفى الدين ورفيقه ابن نباتة ، قبل أن نعرِّج على شعراء وجه البركة .

يقول صفى الدين الحلى فى الغزل :

يا ضعيف الجفون أمرضت قلباً ... كان قبل الهوى قوياً سوّيا
لا تحارب بناظريك فؤادى ... فضعيفان يغلبان قويا

وله فى موضع آخر .

أبت الوصال مخافة الرقباء ... وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودةً ... وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيَت بزورتها النفوس وطالما ... ضنَّت بها فقضت على الأحياء
أمَّت بليلٍ والنجوم كأنها ... درٌّ بباطن خيمة زرقاء
أمست تعاطينى المدام وبيننا ... عتبٌ غنيتُ به عن الصهباء

وأبيت غير مسالم من طعنة نجلاء أو من مقلة نجبلاء

ولابن نباتة هذا النظم الرقيق :

شكوت فما ألْوى وقلت فما صَغَى وجَدَّ بقلبي حبُّه وهو هازلُ
طويل التوانى ، دلُّه متواتر مديد التجنى وافر الحسن كامل
أُطارحه بالنجو يوماً تعلُّلا فيبدو وفى الإعراب فيه دلائل
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى وينصب هجرى عامداً وهو فاعل
تفقَّهت فى عشقى له مثل ما غدا خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
فيا مالكى ما ضُرَّ لو كنت شافعى بوصلك فافعل بى كما أنت فاعلُ
فإنى حنيفٌ الهوى متحنبلٌ بعشقك لا أُصغى وإن قال قائل

* * *

نخلص من هذا إلى الشعراء الذين وفوا بشعراء وجه البركة ، واشتهر شعرهم بلطف المعنى وظرف المبنى .

ولا بأس من ذكر نبذة عن تاريخ وجه البركة ، لنصل منها إلى شعرائها الذين تأثروا ببيئتها وأثرها عليهم .

بعد زوال الدولة الفاطمية ، قيض الله للبركة حوالى عام ١٤٦٠ ميلادية ، أميراً وقائداً شجاعاً ومحارباً مغواراً ، هو الأمير يزبك الخازندار.

وعندما استتب له الأمر فى مصر ، فكر فى أن يشيد له قصراً منيفاً ، يجمع فيه أطراف الترف من طارف وتليد . وقد وقع اختياره على بركة بطن البقرة ، التى شاء لها الزمن أن تحمل اسمه ، فأصبحت تسمى ببركة الأزبكية .

ومما يجدر ذكره ، أن القاهرة فى العصور الماضية ، كانت تكثر

فيها البرك ، فكان منها بركة الفيل ، وبركة الرطلى. وبركة الحاج ، وبركة الجيش ، وبركة الأزبكية .

وكان الخليج المصرى يخترق القاهرة ، ومن أجل ذلك كثرت القناطر المقامة عليه ، مثل قنطرة الدكة وقنطرة السباع وقنطرة الليمون ، وقنطرة الحسينية .

وذكر الجبرتى ، فى تأريخه لهذه الحقبة ، الكثير من أحداث ذلك العصر ، وأدباء وشعراء هذه البركة ، التى انتشرت من حولها القصور والمنازل الفخمة التى شيَّدها ثراة القاهـرة وتجارها الكبار أصحاب الجاه والمال العريض .

من ذلك ما ذكره ، من أن عائلة الشرايبى ، كانت تسكن قصراً منيفاً بناه عميدها فى وجه البركة .

وفى عام ١٧٢٦ شيد قاسم بن محمد داود الشرايبى ، جامع الشرايبى الذى يعرف الآن بجامع البكرى بشارع الرويعى
وقد سمى (جامع البكرى) لأن المجذوب على البكرى قد دُفن فيه عام ١٧٩٢ .

ولم يكن هذا المجذوب يمت لعائلة البكرى المعروفة التى كانت قصورها حول البركة منيفة عامرة ، ولكن انتماءه للطريقة البكرية ، أكسبه هذا اللقب .

وعندما أتى الجبرتى على ذكره قال : « كان رجلاً من البُلْه ، يمشى بالأسواق ، عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين ، غائباً »

واستطرد الجبرتى ليصل إلى أن أخا هذا المجذوب ، كان فقيراً

لا يكاد يجد قوت يومه ، فعنَّ له أن يحتال على الناس ، عندما رآهم يتبركون بأخيه ، ويعتقدون فى قدرته على الاطلاع على الغيب ، ويشفى المرضى ، ويفرج هم المكروب ، فراح يشيع بين الناس أن أخاه أصبح قطباً يزار ، وحجزه فى داره ، فانهالت عليه الهدايا والنذور والأموال ، حتى جمع أخو المجذوب فى فترة قصيرة ، أموالاً طائلة من وراء هذه الحيل الاحتيال .

ولما مات البكرى المذكور ، دفنه أخوه ، فى ضريح يجتمع حوله الآن المنشدون الذين يذكرون وينشدون المدائح الشعرية فى القطب على البكرى) .

ومما ذكره الجبرتى كذلك فى تأريخه لهـذا العصر ، أن الشيخ عبد الله لشبراوى ، المتـوفى عام ١٧٥٥ ، كان من أبرز شعراء وأدباء عصره . قد تولى فى أخريات حياته مشيخه الأزهر وقد شيَّد قصراً فى حى الرويعى جمع فيه النادر والثمين وحوى ألوان الترف والبذخ التى عرفها الأمراء والأثرياء بفضل ما ورثه من والده .

وكان فى ريعان شبابه ، يخرج مع خلانه وأخدانه ، إلى مطارح اللهو المنتشرة حول البركة وفى الملاهى العديدة المنبثة فى كل ركن من أركان حى وجه البركة ، وما تحويه من كل ما يخطر على بال من شـراب أو مأكل أو رقص أو لعب ومن متعة مجالسة فاتنات هـذه الأماكن ، حيث لا رقيب أوحسيب .

وقد اندفع مع خلانه ليغترف من هذه المتع قبل أن يمضى الشباب ويذبل العمر .

وقد انعكس أمر هذه الحياة على شعر عبد الله الشبراوى الذى شهد له أهل عصره ومن أتى بعدهم بالرقة والظرف .

انظره فى قوله :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى ومونى شهيداً فى الصبابة مذهب
وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا وأهرب من ذكر السلوّ وأغضب
وعشق القدود الهيف عندى عقيدة وطبع عليه ، قد رُبيت ومذهب
قضى الله أن الحب أعلى فضيلة وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

* * *

وإن الذى يمعن النظر فى نظم هذا الشاعر ، يستوقفه حرصه على ذكر ما يرد عادة فى العبادات من مثل « الدين والشهادة والمذهب والعقيدة وقضاء الله والفضيلة والنعيم » .

فى شعر غزلى ، لا فى تصوف أو ابتهال ، وكأنما كان يريد أن يشعر قارئه ، على طريقته ، أن الرجل نشأ فى بيت دين وفضيلة ، غلب ما يشيع فى البيت من ألفاظ العبادات على نظمه الغزلى ، فى ظرف ناعم متعمد شديد الذكاء .

وكان فى حياته تلك التى عاشها فى صدر شبابه ، قد وقف قلبه على أهل الحسن وذوات الفتنة والجمال ، حتى إذا وقعت عينه على إحداهن ، انصرف إليها ، تاركاً كل ما عداها ، وإذا بالنظرة يعقبها ابتسامة و الهوى مُيَسّر حيناً ، ومتعذر أحياناً ، وهذا شأن الجمال وأهل الجمال .

اسمعه فى وصف اجتماعه بإحدى فاتناته :

عانقتُهُ فاسْودت المقل التى هى بلوتى ، واحمرت الوجَناتُ

وضممت قامته فخلت كأنها   قد عجَّلت لذاتها الجنَّات
يا قلبُ إن زعم العوازل أنه   فى الحسن يوجد مثله ، قُل هاتوا
ما زلت أجنى من لذيذ حديثه   تحفاً لها من طيبه نفحاتُ
وبلغت قصدى حين وافى طيفه   ليزور من راقت له الأوقات
ودنا يودِّعنى فلا وأبيك ما   بقيت لدى التوديع فىَّ حياةُ

* * *

ومن أدباء وشعراء وجه البركة المبرّزين ، الذين ذكرهم الجبرتى ، عندما كان يؤرخ لهذا العصر اللاهى ، قاسم بن عطا الله المصرى ، المتوفى عام ١٧٨٥

نظم شعراً كان يسمى فى ذلك الأوان ، بالمزدوجات ، وهو مقطعات شعرية ، ذات جرس حلو وسلاسة عذبة .

ومن ذلك ما قاله فى وصف بديع لحدائق بركة الأزبكية ، وما بها من طير وشجر ، وزهر وجداول ، ورياض وورود :

حديقة بها السرور مُحِدقُ   جدولها مسلسل منطلقُ
فى جوها نجم الزهور مُشرقُ   وبانُها طوراً يميل ويسرقُ
من وجنة الماء احمرار الوردِ

* * *

باكر صبوح روضة الزهور   فأبرك الأشياء فى البكور
ورِدْ على اللذات والسرور   واترك هوى وساوس الصدور
فمنهل اللذات عند المورِدِ

* * *

والورْق مذعنَّت على العيدان — بين قَدٍّ ، ماس غصن البان
والآس فوق وجنة النُّعمان — من ذا رأى الجنَّة فى النيران
عجبت للتأليف بين الضدِّ

* * *

وقد وصف الجبرتى حياة ذلك العصر ، بماعرف عنه من دقة وإحاطة وشمول وغوْصٍ وراء أبعد الغايات .

يقول فى وصف قصر من قصور الأمير (كتخذا رضوان) المتوفى عام ١٧٧٥ ، وكان قد شيَّدْه على ضفاف بركة الأزبكية :

« أنشأ قصراً فى الأزبكية ، له قبابٌ عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد ، والزجاج الملوَّن ، والألوان الزاهية ، والصنائع الدقيقة . وبنى قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى ، وينصب منها إلى حوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار .

وبنى قصراً آخر بداخل البستان ، مطلا على الخليج . فكان يتنقل بين هاتيك القصور ، وبخاصة فى أيام النيل » .

وفى مجلس بأحد هذه القصور المطلة على البركة ، وصف الشاعر قاسم بن عطا الله المصرى ، يوماً قضاه مع الأمير وحاشيته من أصدقاء وندمان وقيان وعازفين ، فى قصف وشراب وضحك وابتهاج :

لله ما أبهى وما أسناها — فى كأسها كالشمس فى مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها — من شفتيه اللُّعس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

* * *

شعاعها سطا على الندمان ساوى شجاع القلب بالجبان
ومالت الحمراء فى الميدان بين صفوف صحبة القيان
كأنها من الدما فى بُرْد

* * *

مليكــة لطيفــة المـــزاج تختال فى برد من الدّيباج
عـلى جوادٍ أشهب الزجاج يبهجة احمرارها الوهَّــاج
تحكى خدود قاتلى بالصَّد

* * *

وكان حى وجه البركة لا ينام . ليله كله حركة وصخب وعربدة وتهتك وخلاعة ومجون وحشيش وخمر وميسر ونساء من كافة الأجناس . وفى ذلك يقول الشيخ حسن العطار ، وهو من أدباء وشعراء وجه البركة ، الذين تأثروا فى أدبهم بما تزخر به هذه البيئة الماجنة .

« يوقد بها كثير من السُّرج والشموع ، فالأنس منها غير مقطوع ولا ممنوع . وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور ، ولطالما مضت لى بالمسَّرة فيها أيام وليال ، هن فى سمط الأيام من يتيم اللآلى » .

ومما ذكر عن الشيخ الشعرانى أحد هذه العصبة الخليعة ، المتوفى عام ١٥٦٩ ، قوله الماجن فى صدر شبابه « لابد لكل معصية من عاص » . وكأنما على غير لقاء مع (راسبوتين) يلتقى معه بالفكر الداعر ويذهب مذهب (راسبوتين) الذى وضعه ليصل به إلى مبتغاه ، ومفاده « أنه لا يتأتى لامرئ معرفة الفضيلة ، حتى يقترف الرذيلة » .

وانتشر اللهو والغناء والطرب فى ملاهى البركة ، واتصل المغنون بالشعراء ، يلتمسون منهم نظم المقطّعات والموشحات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشونه .

وقد استجاب الشعراء لهؤلاء الداعين ، وانتشرت الموشحات والمقطعات والأشعار بين أرباب الفن والغناء . كما ذاعت بين الناس الذين كانوا يحفظونها ويتغنّون بها فى مجالسهم الخاصة وفى أوقات سمرهم .

وكان من أشهر مغنى هذا العصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر : مصطفى الصيرفى ، وإبراهيم الورَّاق ، والمقدِّم ، وحسن قشوة والحبابى .

وكان التنافس على أشده بين الصيرفى وحسن قشوة وقد انتصر الشاعر الخشاب للصيرفى ونظم له شعراً كان يتغنى به وبتيه بما احتواه من مدح لصوته :

صوت رقيق ولحن حسين يُعربه   يأتى بما عنه تعيا طاقة البشر
فلو تغنَّى لميْتٍ مات من قدمٍ   جرت به الروح جرى الماء فى الشجر

* * *

ومن الشعر الغنائى الذى اشتهر فى ذلك العصر ، وما يزال نابضاً بالحياة إلى هذا العصر ، بفضل ترديده من سيدة الغناء العربى ، منذ أن ترنَّم صوت بغناء عربى ، السيدة أم كلثوم ، قول الشيخ عبد الله الشبراوى :

وحقِّك أنت المنى والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوةٌ   تحيَّر فى وصفها كل صبْ
أبيت أُسامر نجم السّما   إذا لاح لى فى الدُّجى أو غرب

ويعجبنى منك حسن القوام ولين الكلام وفرط الأدب

وكان ملحن هذه الخريدة الخالدة الأستاذ أبو العلا محمد للسيدة أم كلثوم .

* * *

ولم يخل ذلك الزمن من بعض أهل الفضل الذين ورد ذكرهم على لسان الجبرتى ، وكان شعرهم عفًّا وإن كان موقفهم مما حولهم من فجور ، لم ينغمسوا فيه ، ولم يحاولوا دفعه أو وقفه ، أشبه بموقف أصحاب الأعراف . وكان (دانتى) قد كشف فى الكوميديا الإلهية عن أناسٍ لا يستحقون عذاب النار ، ولا يستحقون نعيم الجنَّة .

ويبدو أن (دانتى) تأثر بما تناوله أبو العلاء المعرى فى كتابه (رسالة الغفران) ، عند وصوله إلى أحاديث المعراج وفى قوله : « إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنَّة » .

وقد وصف الجبرتى أحد هؤلاء الأدباء وهو مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى ، المتوفى عام ١٧٥٥ بقوله :

« أفضل النبلاء ، وأنبل الفضلاء ، بلبل دوحة الفصاحة ، وغريدها ، من انحازت له بدائعها ، طريفها وتليدها .

ومن شعره فى وصف حديقة الأزبكية :

وهات لى حديث الأزبكية وما حوت أرواحهـــا الزكيَّة

يا حبَّـــذا معاهــدُ حِسان يُغنيك عن وصفى لها العيَان

قد حلَّ فيها الزنبق الفتَّان حصباؤها اليـــاقوت والمرجان
فانظر تراها جنَّة كالخلد

* * *

فكم بهـــا من دوحةٍ أنيقهْ وروضَةٍ أغصانهـــا وريقهُ
وربوةٌ أنهـــارها غديقـــة ومرجـــةٌ أزهارهـــا عبيقـــهُ
من نرجس وسوسن وورد

* * *

تزهو بهـــا حدائق الأزهار عن طيب نفح عَرْفها المعطار
تُعيد نشر طيبها وتُبدى

* * *

هذه المزدوجات التى نأتى على ذكرها ونعيدها على أسماعكم ، إنما نحرص على إثباتها لما تحتويه من ظرف التناول ، وما تحمله من إشارات رقيقة ، وأسلوب قصصى بديع ، وشعر خلا من التكلف ، وتبرأ من الملل والسأم . وهل هناك ما هو أظرف من هذا ؟

شاع الفجور حول البركة ، حتى لم يكن هناك موضع قدم لفسق جديد . وأقبل أبناء الموسرين ، وتبعهم متوسطو الحال على ملاهى ومراقص وملاعب وجه البركة وحاناتها . وأضاعوا ثرواتهم وصحتهم ومستقبلهم . وغدوا فوق الفقر مرضى .

وكم بيعت ضياع وقصور ومتاجر بثمن بخس ، للحاق بقطار اللذات ، الذى يتطلب الكثير الغزير من الوسائل والمال ، والقليل الأقل من العقل والحجا .

وتلقّفت هذه الثروات موائد الميسر وجماعات الرقص ، الأمر الذى ارتفعت معه أصوات الكتاب والمفكرين والمصلحين وراحوا يطالبون الحكومة بالعلاج والإصلاح ، إلا أن الامتيازات الأجنبية كانت تغل يد الحكومة عن إتيان أى إصلاح ، بحكم مراعاة الصالح الأجنبي الذى من أجله قامت الامتيازات ، ومن أجله أنشئت المحاكم المختلطة ومن أجلهما قام الاستعمار لحمايتهما .

ولقد كان شاعركم الكبير وشاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم فى طليعة من ندّدوا بشعرهم ، بهذا الحال المفجع ، عندما قال مخاطباً الأزبكية :

كم وارتٍ غضّ الشباب رميته   بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين فى حاليهما   تيــه الغنىّ وذِلّة المفلـوك

وفى موضع آخر يقول :

يقولون فى النشء خير لنا   وللنشء شر من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين !   وبين المساجـد مثوى الأب ؟

* * *

ولم يصدر إلا فى عام ١٩٤٩ الأمر القاضى بإلغاء البغاء .

وعند ذلك فقط ، جدّت الحكومة فى غلق أمكنة الدعارة ومطاردة القوادين والمفسدين ، وعاد الحى مُبرءاً من كل فساد ، وشغل مبانيــه القديمة ، أصحاب الصناعات والتجارة والحرف ، وأصبح من أنشطه الأحياء فى الصناعات الصغيرة وبيع بضائع الطبقات الوسطى .

وقد أورد على مبارك باشا فى خططه إحصائية عن عدد المقاهى والخمارات بخلاف بيع البوظة ، فكان فى وجه البركة ٢٥٢ مقهى ، ٢٢٨

خمارة ، ١٥ محلا للبوظة . وهذا يعادل كل ما كان فى القاهرة عام ١٨٨٠ من خمارات ومقاه .

* * *

يتوقف المؤرخ الأعظم للشعر الفكاهى قليلا ، ليستجمع شوارد ذكرياته ، وهنا ، استأذن أحدُ المستمعين ، الأستاذ المؤرخ ، فى سؤاله عن السِّر فى انفراد الشعر العربى إلى حد بعيد وتميزه بالقدرة على استخدام السخرية والتهكم والتنديد ، وهنا أضاف المؤرخ مكملا قول السائل ، بل على الشعر الكاريكاتيرى الذى لم يسبقهم إليه سابق ، حتى لكأنك تشاهد أمامك صورة متحركة ، نابضة بالحياة والمجون والفكاهة .

انظر إلى ابن الرومى وهو يصف قزماً بصندوق صدرى (أتب) .

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربصٌ أن يُصفعا
وكأنما صُفعت قفاهُ مرَّةً وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

وصورة أخرى لعمر بن أبى ربيعة يقول فيها :

أبتْ الروادف والثُّدِىُّ لقُمْصِها مَسَّ البطون وأن تَمَسَّ ظهورا

وراح المؤرخ يزيد الأمر وضوحاً بقوله :

لقد ميّز الله العرب بالأديان والشعر . وميَّز مصر وروما بالمعمار والنحت ، وميَّز اليونان بالحكمة والفلسفة ، وميّز الألمان بالأوبرات والسيمفونيات ، كما ميَّز أوربا الصناعية قديماً . . بالاستعمار والاحتلال . . حتى لقد كانت كلمة الاستعمار لا تذكر إلا وعدا وراءها الوعى واستحضر إلى جانبها عالم الغرب .

والعرب أهل سخرية تجرى على ألسنتهم فى شعر كان ذلك أو فى

نثر . وهم أئمة الهجاء والتهكم والسخرية التى تملأ مجلدات إن أردنا لها ذكراً أو تمثيلا . وهم على هذا الحال فى حال يسر أو عسر . انظر إلى قول جحظة البرمكى فى أخريات حياته :

يطول علىَّ الليـــل حتى أملُّهُ فأجلس والنـوَّام فى غفلةٍ عنِّى
فلا أنا بالراضى من الدهر فعله ولا الدهر يرضى بالذى ناله منِّى

* * *

وربما كان مرجع ذلك إلى ما كانوا عليه فى بداوتهم من رزق محدود ، وشظف بغير حدود ، فأطلقوا ألسنتهم بالتهكم والسخرية . ومم يخافون ! والمفلس يغلب السلطان .

وعلى الرغم مما كانت عليه بداوتهم من خشونة فى العيش ، وندرة فيا حولهم مما يوصف ، فقد أتوا بالعجب العجاب فى وصف أى شىء يقع عليه نظرهم ، فى قصائد ومعلقات طوال ، بارعة العرض ، عميقة الفكر والتحليل . وقد يكون الموصوف نخلة أو ناقة أو أطلالا دارسة ، ولكنك سوف تجد فى السَّرد وفى الوصف وفى التأمل وفى الظرف ، نواة لدراما أو عرضاً مسرحيًّا . نجترئ لنعرض إلى مشهد الأعرابى الذى اعترض طريقه أسد هصور وكان هو يركب حصاناً تقاعس عندما رأى الأسد ، فراح الأعرابى يصف موقعته مع الأسد كما لو كانت مشهداً يستحضرك إليه لتراه رأى العين مع أخته :

أفاطم لو شهدت ببطن خبتٍ وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذن لرأيت ليثـاً أمَّ ليثـاً هـزبراً أغلبـاً لاقى هـزبرا

وأخذ يُعد حصانه للهجوم عليه ، ولكن حصانه جفل وجُبْنَ وتقاعس ،

فراح الأعرابي يقول :

أنِل قدميَّ ظهر الأرض إني　　رأيت الأرض أثبت منك ظهراً

وتنتهي الدراما ، باستشهاد الأسد وفوز الأعرابي .

وإذا كان أهل الغرب قد بزُّوا العرب في ميادين التمثيل والمسرح بأنواعه ، فإن من أسباب تأخر العرب في ذلك ، خشونة النشأة ، وصعوبة العيش في محيط وبيئة تصعب فيها الحصول على مطالب الحياة ، وصعوبة التناغم مع محيط كل ما فيه عدوٌ لهم ، بدءاً بعصف الرياح الهوج ، وختاما بعطشٍ لاهب لا يرحم ، وكروفرٌ بينهما بلا نهاية .

وبرغم ذلك تناغموا مع هذا المحيط وأتوا بالعجب فيما تركوه من آثار ، فلما نزحوا إلى الأندلس ، ومن بعدها إلى أوربا ، أثاروا دهشة العـالم حتى اليوم ، بما حصلوا عليه من علم وفن ومعمار وموسيقى وأدب وشعر وفلسفة وطب وجراحة ، أخذها عنهم الغرب وأزدهى بها ، وعاش عليها قروناً ، كان الغرب فيها عالة على علوم العرب وفنونهم .

* * *

ولعلنا إذا ألممنا إلمامة عاجلة ، بقطبين من أقطاب المجون ، من شعراء الدولة العباسية ، هما أبو نواس الذى ولد عند قيام الدولة العباسية ، وحمّاد عجرد الذى شهد الدولتين وارتفع ذكره في عهد الدولة العباسية ، نكون قد عرضنا نموذجاً بارزاً يغنى عن أخبار الآخرين الذين ملأوا بمجونهم صفحات الأدب العربي ، حتى إننا إذا شئنا أن نجمع جانباً مما قالوا ، لاحتجنا إلى مجلد فى حجم دليل تليفونات القاهرة عام ٢٠٠٠ .

وأبو نواس ، الحسن بن هانئ يُعد إمام العابثين الماجنين .

وعندما قدم الكوفة ، تفتقت شاعريته الباكرة ، عندما أحب فتاة صغيرة هي التي قال فيها قصيدته الغزلية الرقيقة :

حامل الهــوى تعبُ   يستخفــه الطــرب
إن بكى يحـق لــه   ليس ما بــه لعبُ
تعجبين مـن سقمى !   صحتى هــى العجبُ

ثم راح يتردد فى البصرة على حلقات الدرس والتحصيل والعلم واللغة والرواية حتى حذق كل ما كان يجلس لسماعه . ولم يكن يفوته منها حلقة .

وعندما دخلت الجارية جنان حياته ، برزت فيه ملكة الشعر الغزلى والوجدانى والفلسفى والصوفى كذلك كأنما انفتحت على وجهها كنوزه .

وكانت حلوة ناعمة ، أديبة ذكية . وحدث أن رآها مرة ، ولم تكن تظهر سافرة ، وإنما كانت تتحجّب ، نقول رآها وهى تبكى وتلطم خديها حزناً على موت بعض سادتها ، وكان يرقب المنظر من بعيد ، فقال :

يا قمــراً أبــرزه مأتم   يندب شجواً بين أتـرابِ
يبكى فيذرى الدر من نرجس   ويلطم الــورد بعنــابِ
لا تبك مَيْتاً حلَّ فى حفـرةٍ   وابك قتيلاً لك بالبــاب

ويوم أن خرجت جنان للحج فى ركاب سيدتها ، لم يستطع صبراً على فراقها ، فلحق بها . وعندما دنا مأخوذاً بقدسية الكعبة ، تملكته رهبة المكان المقدس ، وهو الزنديق العابث الفاسق ، فانخرط فى بكا صادق ، لعل الغفران يحل به والعفو يناله ، وراح ينظم ابتهالا ما يزال يسمع ويتغنى به الناس حتى هذه الأيام :

إلَهنــــا ما أعــدلَكْ مليك كل مــن ملكْ
لَبَّيك قــد لبَّيت لكْ وكل مــن أهلَّ لكْ
لبيَّك إن الحمـــد لكْ والملك لا شريك لكْ
يا غافــلاً مــا أغفَلكْ عجِّل وبــــادر أجلكْ
لبيَّك إن العـــزَّ لك والحمـد والنعمــة لكْ

* * *

أما قصة استغفاره وتوبته وابتهاله ، فقد نفذ إلى صميم حقيقتها كاتبكم الكبير دكتور حسين هيكل عندما قال عن هذا الحدث ، قول طبيب نفسانى ، يتعمق الظواهر ، ليصل إلى المكّنون : « لا تقل إن الازدواج النفسي شأن الشعراء . وإن أبا نواس الذى كان يقول :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهـر

هو أبو نواس الذى كان يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفت
له عن عدو فى ثيــاب صديق

فليس هذا من أبى نواس ازدواجاً فى الروح . وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدتها اللذة فأضعفتها ، فأخافها الضعف ، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد ، وإلى استغفار الله والتوبة إليه . لذلك لا تلبث نفسه إذ تحاورها القوة ، حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة » .

* * *

أما حمَّاد عجرد فقد عاش خلال الدولتين الأموية والعباسية وكان

نديم ابن يزيد الأموى . واشتهر فى الدولة العباسية .

وقامت بين حماد وبشار بن برد مهاجاة لا تهدأ ولا تستقر . وكان ما بينهما من هجاء ، لو تفرغ له باحث لأخرج مجلداً ضخماً ، لا أقول يسر القارئين ، ولكن أقول ، يسر الهجَّائين الذين يفتخرون بأنفسهم لهذين القطبين ، مثلما ينتسب الرسَّامون إلى مدارس بعينها ، فهذا كلاسيكى وهذا تأثيرى وهذا سيريالى وهذا واقعى .

ومن أقذع ما هجا به حمّادٌ ، بشَّاراً ، قوله :

وأعجمى يشبه القــــرد   إذا ما عمى القـــرد

ويروون أن بشّارًا أبكاه هذا القول أكثر من كل هجاء سبقه ، ولما سألوه عن بكائه أجاب ، وفى إجابته سخرية مُرَّةٌ لاذعة : يرانى فيصفنى ، وأنا لا أراه حتى أصفه . . .

وتُروى رواية أن بشَّاراً بلغه موت حماد عندما اشتدت عليه علته فقال :

لو عاش حماد لهونـــا به   لـكنه صار إلى النـــار

وعندما سمع حمَّاد هذا البيت قال :

نبئت : بشار نعانى وللشعر   برانى الخالــق البارى

يا ليتنى مت ولم أهجُـهُ   نعم ، ولو صرت إلى النار

وأى خِزىٍ هو أخزى من أن   يقال لى : يا سابَّ بشَّار

ومن عجيب أمر نهايتهما أنهما اشتركا فى قبرين متجاورين ، بعد أن مات حماد بعلته ومات بشار مقتولاً . ولما مر على قبريهما شاعر بصرى ، هو هشام الباهلى قال :

قـد تبـع الأعمى قفا عجرد   فأصبحا جارين فى دار
قالت بقاع الأرض لا مرحباً   بقــرب حمّــاد وبشّــار
تجاورا بعــد تجــافيهمــا   ما أبغض الجــارإلى الجــار
صارا جميعاً فى يدىْ مالكٍ   فى النــار والفاسق فى النار

* * *

وماذا أقول عن شاعر العروبة شوقى . إن كل ما تقرؤه له ظريف يعبق باللطف والطرافة والجِدَّة . . ولو شاء أن يكتب شيئاً لا ظرف فيه لا ستعصى عليه ما أراد . إنه رسول الحياة .

وهو يجمع ثلاث صور فى نفس واحدة . إنه شاعر نهج البردة الذى قال :

ريم على القاع بين البان والعلم   أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحُرُمِ

إلى أن يناجى رسول الله بقوله فى نجواه الطاهرة :

سَرَتْ بشائر بالهــادى ومولــده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
أتيت والناس فوضى لا تمــر بهم
إلا على صنم قــد هام فى صنم

وهو نفسه ، رسول الحياة وترجمان ما بها من متع ولذائذ ، والداعى لما تشتاقه النفس من هذا النعيم قبل أن يولى العمر ، ويذبل الشجر ويذوى الزهر . وهو يقول فى حلبة رقص وفى كأس :

حفَّ كأسها الحبب   فهى فضــة ذهب

ثم يهرب من واقع ما يأمر به الدين فيفزع إلى المتعة :

رمضـــان ولىَّ هاتهـــا يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ثم تراه فى صورة ثالثة ، كالروح الشفيفة التى تِرفُّ وتملأ الحياة مجوناً لطيفاً ، كأنه رفيف الفراشة أو نسمة الربيع .

فتراه يصف ذقن دكتور محجوب ثابت التى أوت إليها البراغيث كملجأ تخرج منه فى سبيل العمل والسعى فى طلب الرزق من الغير .

براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ما طعمت من دمى

تشق خراطيمهـــا جوربى وتنفـــذ فى اللحم والأعظم

بواكير تطلع قبـل الشتاء وترفـــع ألويـــة الموسم

وقال مَّرة على لسان محجوب شعراً هو ترجمة للمثل الشعبى « يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة »

أيشتمنى سليان بـــن فـــوزى

(وپاپى) فى يدى ومعى (طَبَاقى)

بقارعة الطـــريق ينـــال منى

ويوسعنى عناقاً فى الزقـــــاق

وذلك عندما اختلف سليان فوزى صاحب مجلة الكشكول مع محجوب ثابت .

وعندما استبدل دكتور محجوب ثابت عربته وجواده الذى كان يسميه (مكستوينى) نسبة إلى محافظ (دبلن) عند إضراب أيرلندا مدى عام للحصول على استقلالها ، وكناية إلى ضعفه وهزاله ، استبدل هذه العربة وجوادها بسيارة (أو فرلاند) قال شوقى قصيدته الشهيرة

لكم فى الخُطِّ سيـــارهْ حديث الجـــار والجـــارهْ

وقـــد تحـــــزن أحياناً وتمشى وحدهـــا تـــاره
ولا تشبعهـــــــــا عينٌ مـــن البنزين فـــوّاره

إلى أن يقول وقد عاودته الحكمة :

أدنيـــا الخيل يا (مكسى) كدنيـــا ، الناس غـــدّاره
لقـــد أبدلك الدهـــر مـــن الإقبـــال إدبـــاره
فصبرًا يا أخـــا الخيـــل فنفس الحـــرّ صبّـــاره

وكان شوقى رحمه الله قمة فى كل ما نظم ، والنبع الصافى لا يتغير صفاؤه . من حيث تفجرت عين مائه ، أو حيث يستقر فى الوادى تجده كاللُّجين .

أما شيخ شعرائكم فى مصر ، وهو إسماعيل صبرى باشا ، فقد كان على شاكلة شوقى فى ظرف نظمه ، وصدق حسه ، ورقة خياله . وإنه ليعييك أن تجد شعرًا نَبَت فى باطن الكفّ ، مثلما يعييك أن تجد شعراً لهذين الإمامين خلا من الظرف والطرافة وحلو الرنين .

يقول إسماعيل صبرى ، عندما سقطت وزارة حشمت عن صدر الشعب عام ١٩٠٨ بعد سنوات أعانت فيها المستعمر على ما يريد :

عجبت لهم قـــالـــوا سقطت ومن يكن
مكانك يأمن من سقوط ويســـلمُ
فأنت امروٌ ألصـــقت نفســـك بالـثرى
وحرّمت – خوف العَزْلِ – ما لم يُحرّمُ
فلو أسقطـوا من حيث أنت زجاجـة
على الصـــخر لم تصـــدع ولم تتحطم

وقال يعتب على صديق يتوب عن شرب الخمر ثم يعود إليها :

فى كل يوم عندكم دم كَرمةٍ
لك توبة من توبة من سفكه
والصدق من شيم الكرام فقل لنا
أمن الشراب تتوب أم من تركه !

وكان يؤثر الكاتبة الكبيرة الآنسة مى بالتقدير والإعجاب وكانت هى أهل لأكثر من ذلك .

وقد كانت موضع رعاية واهتمام الأئمة من الكتاب والشعراء ورجال الصحافة ، عند بداية القرن العشرين .

وكانوا يكتبون إليها ، وتكتب إليهم ، على بساط من الطهر ممدود ، من أجل استثارة كوامن الشعر والأدب .

نظم لها إسماعيل صبرى هذه الأبيات :

أهـــاجرتى أطفئى ، لـــواعج لا تنتهى
مضت فى هواك السنون ، وما نلت ما أشتهى
إذا قيل مات الأديب بفاتنة ، أنت هى .

فلما بلغتها الرقعة كتبت تحتها :

زمانك قبـــلى انتهـــى ولا يرجـــع المنتهـى
فحسبى أن أزدهـــــى وحسبك أن تشتهـــى

* * *

النيل وشاعره جديران أحدهما بالآخر . كل منهما فيَّاض على على طريقته . هذا بالماء والخيرات ، وذاك بالشعر والحسرات .

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما
وعُدت وما أعقبت إلا التندُّ ما

ولم يكن حافظ يضمِّن شعره ما كان يجول في خواطره وحواشي نفسه من أخيلة مجونية اشتهر بها في مجالسه ، ابتعاداً بشعره من أن يترخصه غير عالم ولا بصير .

ولقد كان له ذوق بارع في اختراع النكتة وإدراك موضع الفكاهة في أي حديث أمامه ، فيلتقط الخيط ويسير في اتجاهه الضاحك .

وكان في مجالسه موضع الإعجاب ومنبع السرور . وهو ممن يرسل النكتة من بديهة حاضرة ، فتستخف الوقور ، وتستهوى الرزين ، على عكس ما يُعطيك شعره من صور جادة صادقة عبوس .

ولو قد أتيح له أن يدخل صوراً من فكاهته في شعره ، لربح الأدب والشعر المجوني من ذلك ربحاً وفيراً .

ولكن كان يُغلّب على أمره إذا تعرَّض لما لابد منه من فكاهة في مناسبة أو موضع ، وهنا تبرز موهبته الخارقة في النكتة التي تستخرج أعمق الضحك من أكثر الناس وقاراً .

ففي حفل تكريم للشاعر الكبير حفني ناصف بك بمناسبة انتقاله من القضاء إلى التفتيش بنظارة المعارف ، تجد مواضع في قصيدته ، تبتعث الضحك الذي تدمع منه العينان .

يا يـــوم تكريم حفني أرهقت للقـول ذهني
فيـــا قريض أجبني ويا بيــــان أعنّي

إلى أن يقول :

فكل رَبٍّ يَـــــراعٍ في مصرَ خرِّيج (حفني)
إن قال شعـــــراً فـــراحٌ تــدار في يــوم دُجــن
أو قال نثراً فـــــروحٌ يجتـــازنا غِبب مُـــزْن

إلى أن يصل إلى :

لولا الحيـــــاء ولـــولا ديني وعقـــلي وسنّي
لقمت في يــوم (حفني) أدعـــو لسكره (يني)

ويمضي ليقول :

أقـــول هـــذا وإنيّ لمحسن فيـــك ظنّي
فإن غـــدوت وزيـــرًا يوماً وجئنـــا نهنيّ
فلا تكـــن ذا حجـــاب ولا تُطل في التجنّي
ولا تقـــل مـــن غُرور يا أيهـــا الناس إنّي

ثم يأخذني التذكير بأمر حدث لهما وأصبح مما ترويه أحاديث الأدب . ذلك أنه لما توفي الشيخ محمد عبده ، وقف على قبره يوم تأبينه ، ستة من الخطباء هم على الترتيب التالي : الشيخ أبو خطوة ، وحسن عاصم باشا ، وحسن عبد الرازق باشا وقاسم أمين بك ، وحفني ناصف بك ، وحافظ إبراهيم بك .

وقد مات الأربعة الأولون ، واحداً في إثر سابقه ، وعلى نفس ترتيب أصحاب كلمات التأبين . وجاءت النوبة على حفني بك ، وكان قد بعث إلى حافظ بأبيات يذكره فيها بالموت ، ويدعوه إلى الاستعداد له ، إذا نزلت به المنيَّة .

وقد تذكرَّ حافظ عندما وصل إلى الحد الذى ذكرناه آنفاً ، تذكرَّ هذه الحادثة ، فرأى أن ينبه إليها ذهن المحتفى به فراح يقول له :

أخشى عليك المنايـــا حتى كأنــك منىّ
إذا شكوتَ صداعــا أطلت تسهيـد جفنى
وإن عــراك هُــزالٌ هيأتُ لحــدى وقُطنى
وإن دعــوتُ لحيٍّ يومــاً فإيَّاك أعنيِ
عمــرى بعمــرك رهن فَعِش أعِشْ ألف قــرنِ
وليس على الله بمســتكـثر أن يجمع العالم فى واحـد

ذلكم هو حفنى ناصف القاضى المربى العالم اللغوى الشاعر الكاتب الأديب الخطيب الفكه ، السادن للغة العربية ومتنها وشرحها ، ونحوها وصرفها . أو الوصية به ، شأن غيره من المثرين :

أتمضى معى إن حان حَيْنِىْ تجــاربى
ومــا نلتهــا إلا بطــــول عنــــاء
ويحــزننى ألا أرى لى حيلــــةٌ
لإعطائهــا من يستحــق عطــائى
إذا ورَّث المـثرون أبنــاءهم غــنًى
وَجَاهاً فمــا أشــقى بنى الحكمــاء

ولقد أطلنا الحديث عن شعراء المجون منذ زمان بعيد ، إلى زمان قريب ، ولولا أننى أرى على الأفق شواطئ الأرض الإيطالية تبدو مؤذنة بانتهاء هذه المرحلة ، لأطلت ، وخاصة فى ذكر الطيِّب من أقوال وأشعار الشاعر العالم الفيلسوف حفنى ناصف بك .

وأختتم ببعض ما أثر عنه :

فقد قال عندما نقل وهو فى القضاء إلى مديرية قنا ، وجوّها على ما هو معروف قائظ لاهب ، قال : إن اسمها مشتق من الآية الكريمة «وقِنا عذاب النار» .

ولكنه يستدرك بسرعة بديهة غلاّبة ، حتى لا يغضب أهل قنا . فكان يقول ، عن شهرتها فى عالم صنع الأوانى الفخارية ، إن أى جرّة من الفخار أو قُلّة تَشْرُف بين الناس لانتمائها إلى قِنا ، ثم يزيد :

ويكفى ان يُقال قِنا لتُقنى

وأنجبت مصر من شعراء الفكاهة محمد الأسمر وحسين شفيق المصرى وعبد الحميد الديب والعقاد (وإبراهيم ناجى ومحمود غنيم) وكان بينهما مثل ما كان بين بشّار وعجرد . والمجال يطول والنهاية اقتربت .

قام المؤرخ الأعظم للشعر ، ليستعد للهبوط إلى ميناء تريستا التى يغادرها إلى (فيرونا) وِفق ما اتفق عليه مع جامعة المدينة العتيدة التى شهدت أحداث روميو وجوليت ، ليلقى محاضرته عن هذه المأساة ومقارنتها بمأساة مجنون ليلى .

وقد شكرنا له ما أفدنا منه ودعا لنا بالتوفيق وسمعناه يُردّد قول ابن حزم الأندلسى :

لم يستقر بـه دارٌ ولا وطـن ... ولا تدفأ منـه قط موضعـه

كأنما صيغ من بعض السّحاب فما ... تزال ريحٌ إلى الآفاق تدفعـه

الفصل السادس

أدب الفكاهة فى الرسم عند الرسامين

هبط المؤرخ الكبير ميناء تريستا مع الهابطين ، ومضى لغايته نحو الأديج الأعلى الذى تقع فيه مدينة ڤيرونا .

وهبطنا نحن للقيام بجولة فى الميناء الذى تقتسمه يوجوسلافيا مع إيطاليا ، فى عالم وزمن تميزا بانقسام الكل إلى قسمين أو أكثر مثل كوريا والصين وفيتنام وألمانيا والكونجو واليمن .

ثم نترك تريستا الى (فينيسيا) لمشاهدة شوارعها المائية التى تجد بينها أزقة مثلما هو الحال فى طرق المدن ، وأضل سبيلا . . .

كما سوف نشاهد أو نستقل ، من باب التذكار ، واحداً من (جناديلها) إن صح هذا الجمع . وكم وددت ألا يرى الجندول ، كل من رسم له فى خياله صورة ترتفع به إلى عربة (ساندريلا) ، من ابتكار (والت ديزنى) أو فى القليل عربة زينب هانم التى كانوا يؤجرونها للعرائس فى العهد الخديوى .

لون الجندول المعروف بسواده الحالك ، يقبض الصدر ويدفع الفكر إلى الغراب النوحي وسواد شعره الفاحم ونحسه القائم . . .

ولا جمال فيه إلا فى أخيلة العشاق وشعرائهم الغادين ، الذين يهيمون

بهم وبعقولهم كل هيام ، ويعصبون أعينهم برقيق نظمهم الذى يحجب عنهم حقائق الملموس ، وقسوة الواقع .

والملاح الشادى الذى يجدف بالعشاق وهو يغنى ، إنما هو طير يرقص مذبوحاً من الألم ، فى ملابس تقليدية ، تبدو فى الأفلام أنيقة برّاقة ، ولا يسعد بها إلا لحظة التصوير ، ثم تعود إلى مخازن الشركة المنتجة للفيلم ، ويعود هو إلى ارتداء بزّته التقليدية التى بليت من فرط الاستعمال وارتفاع نفقات المعيشة فيما حوله ارتفاعاً لا يسمح له بأن يتناول فى غذائه أكثر من رغيف أسمر كبير ، يغمسه فى دفقات من نبيذ أحمر ، صبّه فى إناء من صفيح ، هو زاده خلال عمله الخيالى الذى عشش فى أخيلة المحبين . وله فى العشاء (سباجيتى ساخنة) .

عدت مع صحبى بعد جولتنا السريعة إلى باخرتنا التى كانت ستقلع بنا إلى مارسيليا ثغر فرنسا الكبير ، الذى اشتهر بماريوس أو اشتهر ماريوس به ، حتى لا يذكر أحدهما حتى يرد على الخاطر ذكر الآخر .

والفكاهات التى أجراها الفرنسيون على لسان ماريوس ، تشبه فكاهات جحا فى الأدب العربى وخوجه نصر الدين فى تركيا .

من ذلك ما رواه من حكاية مفادها أن أحد أصدقائه الباريسيين ، كان على موعد مع فتاته أمام صيدلية معيّنة . وكان الشتاء على أشده فى شهر يناير ، والثلج قد جمّد كل شىء حتى كاد يجمّد الأنفاس .

وكان صاحب الصيدلية يضع بارومتراً لقياس حرارة الطقس على جدار مُعرَّضٍ لتقلبات الجو ، حتى يكون تحرك مؤشره طبقاً لمقتضى الجو . . .

وقد رأى العاشق أن مؤشر البارومتر قد وصل إلى درجة عشرة تحت الصفر . وطال انتظاره وهو يمشي ذهاباً وجيئة استجلاباً لبعض الدفء ، وقد دس كفيه فى قفاز شاموا ، واختفى قفاه وراء ياقة المعطف والتف حول رقبته شال صوف (أنجورا) ، وعلى أذنيه واقية من جلد سميك وأصبح كالقواقع التى لا يبين من هيكلها الصدفى إلا رأسها أو جزء منه تخرجه إذا اطمأنت لما حولها .

ولما طال الوقوف بالعاشق ، قال بينه وبين نفسه : سأنتظر حتى تصل البرودة إلى خمسة عشر تحت الصفر ، فإذا لم تحضر (چانيت) فسوف أنصرف . . .

* * *

غادرنا ميناء مارسيليا إلى محطة السكة الحديدية لنسافر إلى باريس فى قطار المساء الذى يصل باريس فى ساعة مبكرة من الصباح التالى .

وعندما خلوت إلى نفسى فى مقصورة النوم الخاصة بى ، كان الإرهاق قد أخذ منى مأخذه ، فما إن لامست رأسى وسادة الفراش ، حتى رأيتنى مستغرقاً فى نومٍ ، غالبتنى فيه أحلامٌ ، كنت أستمع من خلالها إلى صوت عميق هادئ ، ينساب كالنغم الشجى الذى ملك علىَّ كل حواسى ، ولقيتنى أستمع إليه فى اهتمام ومتابعة وإعجاب وهو يقول :

الكاريكاتير من فنون الرسم ، كالشعر من فنون القول ، فيه بلاغة وبيان وبديع ، تستسيغه حواس النظر والفهم والذوق ، وتحتفظ به لتردده وقتما تشاء .

وإذا كان الشعر هو الرقص ، والنثر هو السير ، فإن الكاريكاتير

رقص باليه ، لأن الرمز يجمع بين الفنين .

ولن تجد رسماً كاريكاتوريًّا لا يبعث على الضحك .

فالضحك مادته التى يستعين بها على الوصول إلى هدفه من نقد وإصلاح وتقويم اعوجاج ، مثلما هو الحال مع النكتة التى تتخذ من الضحك وسيلة لتحقيق مأربها فى هذه الوجوه .

والنكتة قولا أو رسماً ، إنما تنبع من وراء كبت تثور عليه بالكلمة أو بالصورة للتنفيس عن ضغط هابط ، أو حكم جائر ، يعانى وقعهما شعب يقول النكتة اللاذعة ، ويرسم الصورة العميقة الأثر التى تأتى فى حيز ضيق ، بما لا يستطيعه كتاب .

أما عن الكلمة ، فيمكن أن نذكر ما أورده (بيكاسو) عندما كانوا يحتفلون ببلوغه سن الثمانين ، ودهشة البعض من نشاطه وحيويته فى هذه السن فأجاب بيكاسو :

الأمر فى غاية البساطة . . . فأنا لم أشرب نقطة من الخمر ، أو أدخن سيجارة أو أعرف امرأة ، أو أسهر . . قبل أن أبلغ العاشرة من عمرى . .

وأما عن الصورة الكاريكاتورية ، فقد حدث أن اختفى اللبن فى إحدى المدن ، ولم يكن من السهل العثور عليه إلا بأعلى الأثمان ، بسبب المستغلين ، وضعف الرقابة .

وقد رأى رسَّام كاريكاتورى الفرصة سانحة ، ليسخر من المشرفين على توزيع هذا الغذاء الحيوى وخصوصاً للأطفال فعمد إلى رسم أطفال

يقفون فى حلقة وهم يقولون :

« يعملوها الكبار ، ويقعوا فيها الصغار »

. . . .

والرسم الكاريكاتورى يمكن وصفه بأنه الجزء الذى يجمع فى كيانه خصائص الكل . وهو التعبير الذكى ، والإيماءة البارعة ، والفجر الذى لا يطيل فى إقامته ، فهو بعد أن يشرق ، يدع للنهار مكانه بعد أن أدّى ما عليه . أو هو كالهلال الذى يبزغ ثم لا يلبث أن يغيب تاركاً مكانه للدورة القمرية .

والكاريكاتير ، كلما أمعنت النظر فى أهدافه أو هواتفه ودواعيه ، وجدته دعابة غير مخلوعة العذار ، وعلى قدر كبير من التهذيب الراقى .

وقد تصيب النكتة رجلاً فترديه ، لما تضمنته من فحش فى القول وبذاءة فى الألفاظ ، وإيلام جارح دون أن يكون من ورائها نفع أو جدوى للمجموع .

وليس الحال كذلك بالنسبة للكاريكاتير ، لأنه لا يهاجم فرداً ، إلا إذا كان حاكماً خرج عن جادة العدل ، وهو بإصلاحه إنما يسعى إلى إصلاح حال يعود الخير من ورائه على المجموع .

وكثيراً ما يكون الكاريكاتير عميقاً فى فهم مؤداه ، كما لا يكون من اليسير تبين غوره .

وإنك إذا نظرت إلى الحصى اللامع فى قاع النهر ، أو السمك السابح فى مجراه ، ظننت أنه قريب من متناول يدك ، بفعل خداع انكسار الضوء فى الماء .

وكثيراً ما يصادفك شعر يحتوى على شحنة قوية من الكاريكاتير .
انظر إلى أبى نواس وهو يصف بخل شحيح اشتهر بتقتيره الشديد .
قال يصفه فى هذا الشعر الكاريكاتيرى :

يُقَـــتِّر عيسى على نفسه وليس ببـــاقٍ ولا خالد
ولو يستطيع بتقتـــيره تنفَّس من منخـــرٍ واحد

ولصلاح جاهين ولع شديد بهذا الشعر الكاريكاتيرى الذى تراه فى شعره الشعبى أكثر مما تراه فى صوره .

لقد أراد أن يصور الشرور التى تحيط بالعالم ، حتى تكاد أن تغرقه دون ما أمل فى إنقاذ أو نجاة كما نجا نوح :

استمع إليه فى هذه الرباعية الكاريكاتيرية :

نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايه لسَّه مش لاقى له بر
آه من الطوفان وآهين يا برّ الأمان
ازاى تبـان والدنيـا غرقانـه شر
عجبى

* * *

ويقولون إن كلمة (كاريكاتير) مشتقة من اللغة اللاتينية . وتشير إلى معنى من يحمل شيئا Carrier .

ثم تطورت إلى أن استعملها الإيطاليون بمعنى القيام بعمل ، من فعل Caricare .

وقيل فى التدليل على ذلك إن القائم بالأعمال – فى السلك الدبلوماسى –

يطلقــون عليه باللغــة الإيطالية ، اسم Caricato d'affare بمعــنى أنه يقوم بعمل أحد فى حال غيابه

ومن ذلك يبدو أن الصورة الكاريكاتيرية ، طبقاً لهذا المفهوم ، تعنى أنها تحل محل الصورة الأصلية ، لا بصورة كاملة ، ولكن على وجه قريب من الوجه الأكمل . وهذا هو الحادث بالنسبة للصورة الأصلية والصورة الكاريكاتيرية .

وكان لابد من احتوائها على عنصر المبالغة ، حتى تصل إلى هدفها من التهكم والسخرية . فإذا كان صاحب الصورة ذا أنف يطول قليلا عن الأنف الطبيعى ، ركّز الكاريكاتيرست على حجم الأنف ، وبالغ فى تكوينه مبالغة تحمل على الضحك منه والهزء به . وقل المثل فى السياسة والاجتماع .

* * *

لقد بدا لى أن إمكانيات النفس ليست مقصورة على منطقة الشعور ، وإنما تكمن وراء هذه المنطقة ، قوة أخرى تعمل بطريقة ما ، وبكيفية لا يشعر بها الإنسان ، ولا يدرى من أمرها شيئاً ، حتى جاء « سيجموند فرويد » وأطلق على هذه القوة المختفية اسم(اللاشعور) .

ويبدو أن هذا هو الذى حدث لى ، عندما استغرقت فى النوم ، ومرّ على صفحة ذهنى هذا الشريط من الحديث عن الكاريكاتير وأصله وهدفه وغاياته .

ثم تذكرت وأنا بين النوم واليقظة ، أن بعض النقاد ولعلهم من الوجوديين – قبل وجودهم – زعموا أن فن الكاريكاتير بزغ فى عهد

النهضة (Rènaissance) ، من أجل إثبات أهمية الفرد ووجوده ، وهو ما كان يُعنى به هذا العصر ، تأكيداً لإظهار شخصية الفرد فى أى مجال من المجالات وعلى أى صورة من الصور .

وتذكرت أن يعقوب صنوع ، هو أول من استخدم فى صحيفته (أبو نضارة) فن الكاريكاتير ، فى بداية القرن العشرين ليصلح من ورائه ما يريد إصلاحه ، بلغة يفهمها حتى الأميون .

ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة قبل وخلال الحرب العالمية الأولى واستخدمت هذا الفن الجديد . وكان يرسم لها الأخوان . . . إيهاب ونهاد خلوصى ، وهما من أصل عثمانى .

ثم جاء سانتس ورسم للكشكول وأعقبه صاروخيان فى روز اليوسف وأخبار اليوم .

وزخرت مصر بعد ذلك بفنانى الكاريكاتير أذكر منهم على سبيل المثال وبلا ترتيب رخا وصلاح جاهين وزهدى وناجى ورجائى وجورج ، وحجازى وبهجت والليثى وطوغان وعبد السميع، ورفقى وشوقى ومصطفى حسين

وظهرت شخصيات مصرية، على يد الفن الكاريكاتيرى ، منها : رفيعة هانم والسبع أفندى ، والمصرى أفندى ، وبنت البلد ، وابن البلد ، وكشكش بك .

أما الفهّامة فهى شخصية آلية ، يستخدمها قصيرو الفهم ، مثلما يستخدم النظارة ، قصيرو النظر . ويستخدمها مبتكرها بكل اقتصاد .

* * *

كان الفجر قد أخذ يبعث بنوره ، وقد أزحت ستارة شباكِ المقصورة ، لأمتع بصرى بمنظر الريف الفرنسى قبل الوصول إلى باريس . هذه هى نعمة الحياة التى تتجدد مع كل فجر وصباح .

هذه هى اللوحة الإلهية التى تتقطع أيدى كل الفنانين دون أن يصلوا إلى سرِّ مزج هذه الألوان على صورتها الطبيعية ، عند الأفق وعلى صفحة السماء وعلى أديم الأرض . إعجاز يفوق كل إعجاز .

الهواء كأنه العطر ، وألوان السماء تبدو كما لو كانت قد ارتسمت على جبين ووجنات عذراء ، مسَّها سحر الرغبة ، ثم أخذ يزايلها كلَّما اطمأنت ، رعشة المفاجأة ، وحمرة الخفر .

بعد قليل من الوقت ، أخذ الركب يستعد لمغادرة القطار فى محطة الشمال بباريس ، التى كانت أنوارها ما تزال تختطف الأبصار وإن كان نور النهار قد حثَّها على الانصراف .

هبطنا باريس العزيزة التى لها فى صدر وخَلَد وقلب وخاطر كلٍّ منا ، ألف حديث وذكرى وتاريخ .

وذقت من عطرها كأساً مشعشَعَةً
فعـاد لى الأطيبان الشِّعر والغَـزَلُ

ولكل أديب وشاعر ومصور وفنَّان ، وطنان : موطنه الأصلى ، ووطنه الفكرى ، فرنسا ، حيث عاش أو درس أو زار أو قرأ أو نقل عن الصفوة من فنانيها فى كل مجال .

وكنا على اختلاف جنسياتنا ، واختلاف لغاتنا ، لو شئنا أن نقول شيئاً ، نحيي به ذكرى أيامنا المواضى ، لما خرج ما نقوله عما قاله

إسماعيل صبرى منذ عهد بعيد :

سقى الله عهــد الشَّباب النضير
فقد كان روضاً شَهِىَّ الجنىَ
إذ العيش كالغصن فى لينـــه
يميــــل بعبء ثمـــــار المنى

* * *

كان موعدنا مع المؤرخ العالمى الكبير للرَّسم والرسّامين قد تحدَّد ، بعد ظهر اليوم التالى ليوم وصولنا ، وفى الساعة الخامسة مساء بمدرج من مدرجات المعهد العالى للفنون الجميلة فى الحى اللاتينى ، وهو يتبع كلية الفنون الجميلة التى تقع ضمن مبانى السربون .

أمضينا ما كان لنا من وقت بين الوصول وبين موعد المحاضرة ، فى زيارة عاجلة لمتحف اللوفر وحده . إنه موجز الفنون جميعاً . ومقيل أهل الفن كلهم .

وبعد ظهر اليوم المحدَّد ، شخصنا نحو الحى اللاتينى .

حيَّاك الله أيها الحى العتيد . إنك مازلت منذ القرن الخامس مقصد ومهبط ومقيل أهل الفنون جميعاً من كل فجٍّ عميق ، فى شرق كان أو فى غرب .

وكان هذا الحى يتبع من ناحية التقسيم الإدارى لباريس (البانثيون) ثم (لوكسمبورج) فى القرن السادس ، إلى أن أصبح منذ القرن الثانى عشر ، مركز الإشعاع الفنى والفكرى والجامعى فى باريس .

اجتمعنا من كل الجنسيات التى كانت تضمها الرحلة ، فى مدرج

متسع ، زوّده القائمون بالعمل فى المعهد ، بمكبرات للصور التى تعرض على شاشة خاصة ، كما أعدت منصة المحاضرات لتكون مرئية بوضوح من كل الجوانب .

كذلك كان الصوت يصل هادئاً عميقاً للمتحدث إلى كافة أنحاء المدرج .

دخل المؤرخ الكبير من أحد جوانب (الكواليس) وكان يرتدى الروب الجامعى ، وقد أطلق لحيته وشعر رأسه وأمسك فى يده عصا رفيعة ، شبيهة بعصا قائد الأوركسترا ، لتساعده فى الشرح كلما اقتضى الأمر ذلك .

ساد الصمت المدرج الكبير جداًّ . واشرأبت الأعناق وأطرقت الأسماع واتسعت الحدق لترى كل ما تريد رؤيته ، مهما ابتعد المنظور ، واللهفة تتملك الجميع .

حيا الجمهور ، الأستاذ المؤرخ المحاضر ، وجلس على فوتيل كبير وراء طاولة عالية ، حملت أوراقاً ومراجع ومصباحاً خافت الضوء إن شاء ، قويّة إن أراد .

بدأ الحديث بقوله :

ليس من المهم أن يتابع الرسم والنحت والحفر ، العارفون بهذه الفنون ، الذين هم فى كل أمة قليلون .

ولكن من اليسير على كل مشاهد ، لأى معرض مما ذكرت من فنون ، أن يحكم على ما يرى ، دون أن يكون عارفاً بأصول هذه الفنون وحرفيتها .

ولا يتحتم ألّا يقدر الشعر ولا يجيد فهمه إلا العارف بأوزانه وأسرار

الصناعة فيه . أو يتحتم ألا يطرب للموسيقى إلا واضعوها ، والواقفون على ضروبها ، وهذا أمر يرفضه العقل ، وتنكره الغريزة والفطرة والبديهة .

وأنا إذا سلّطت الأنوار الآن على صورة (الأمل) (لجورج فردريك) التى تعرض صورة فتاة تقف على كرة وعيناها معصوبتان ورأسها مائل إلى قيثارة فى يسراها ، لم يبق من أوتارها سوى وتر واحد ، راحت تعالجه بأصابع يمناها فى جو مكفهر جهم ، وسماء ملبدة بغيوم كأنها حَلك الليل ، فليس من المهم أن يستعين المشاهد بقواعد الفن فى فهمها ، أو يكون عالمًا بقواعد الرسم ، ليبدى فيها رأياً .

ذلك أن هذه القواعد إنما هى كالنحو فى اللغة ، يعصم الكاتب من الخطأ .

أما مشاهد هذه الصورة ، فقد رأى الكفاية فى الصورة وفى تعبيرها عن الشيء الغامض الذى تتشبث به النفس فى أعصب الساعات ، استمساكاً منها بالإيمان والأمل وحب البقاء

وجدير بى أن أذكر لكم أن رسم الوجوه من أصعب ما يتعرض له الفنان فيما يرسم .

ذلك أن لكل إنسان صندوق أسرار ، يحرص على أن يبقيه مغلقاً ، حتى لا تنتهبه العيون ، وترى ما لا يشاء أن تراه .

والمصور ذو منظر فاحص ، يغوص وراء السريرة لينتزع منها ما خفى .

وهو فى موقفه هذا كالمحقق الذى يجلس أمام صاحب الوجه ، كما لو كان متهماً ، ويروح يسائله ويحاوره ، لعله يعثر على خيط يعين على كشف أستار الجريمة ، أو يهتدى به إلى براءة المتهم .

فإذا استطاع الجالس إلى المصور ألا يرفع القناع عن شخصيته ، غمض على المصور إظهار خصائصه من ملامح طلعته ، وخرجت الصورة فاترة ليس فيها من معالم التصوير سوى وجه أخرس ، فقد النطق والتعبير .

وفي يقيني وحكمي ورأيي ، أن المصور في هذه الحالة ، لم يكن هو الذي قصَّر أو عجزَ ، ولكن الجالس إليه هو العاجز وهو المقصر .

ولقد راعتني مرَّة صورة لرأس إنسان ، لم أستطع أن أنقل النظر عنها ، رغم بساطتها .

وقد اختار المصور لهذا الرأس ، صاحباً بسيطاً تافهاً ، يضرب في أحشاء الأرض على غير هدى .

وكأنما أراد المصور أن يكشف عن تلافيف عقل هذا الرأس ، فصوَّرها على هيئة جمجمة فارغة ، لو نقرت عليها لسمعت صدى نقراتك يرتد إليك ، حاملاً الدليل على فراغ ما نقرت عليه . والآن وجهوا إليّ ما تشاءون من أسئلة .

* * *

بعد صمت ساد دقيقة ، سأل أحد المستمعين ، عن رأى المؤرخ في فن الكاريكاتير .

أجاب المؤرخ بقوله : إنه سيستعير من الكاريكاتير أسلوبه ، في وصفه ، بقدرته البلاغية الموجزة المثيرة للضحك والابتهاج .

إنه قديم كالقارة الأفريقية ، وجديد كاليورانيوم .

لقد استخدمه قدماء المصريين بنحته على الجدران أو رسمه على أوراق البردي . وهو يعيش بين ظهرانينا الآن موفور القدر والاحترام .

وأنا إن نسيت لا أنسى صورة كاريكاتيرية لمسجون يتحدث إلى زميله فى الزنزانة ، ويقول له ، إنه كلما رأى قضبان نافذة الزنزانة ، تذكر على الفور ، أيام أن كان صرّافاً فى البنك ، ويجلس وراء نفس القضبان . .

أو أنسى صورة سيدة فى عيادة دكتور نفسانى ، تقول له فى قلق ظاهر ، إنها لا تخشى ولا يهمها إذا كان زوجها يتصور أنه نابوليون ، ولكن ما يهمها وتخشاه ، هو أن يتطور المرض مع زوجها فيظن أن الخادمة هى جوزفين . . .

والرسامون من كل المدارس ، أهل مرح ونكتة وانطلاق ، ويحيلون مجالسهم إلى ندوات بهيجة .

كان سالفادور دالى صاحب الأطوار الغريبة يقول ، إن الفارق الوحيد بينه وبين المجنون ، إنه ليس مجنوناً .

وكان يقول : الحب كالحرب ، نبدؤهما متى نشاء ، ونتوقف عنهما ساعة نستطيع . . .

ويقول عن شاربيه الطويلين المعقوصين إلى أعلى بطول يقدر بخمسة وعشرين سنتيمترا ، إنهما يمثلان أنتين الراديو ؟ بالنسبة له ، ويستخدمهما أحياناً فى تنظيف أصابعه بعد تناول حبات من العنب أو ثمرات من البلح . . .

وهو رجل أعمال ، همه من الدنيا جمع المال بلذة وشغف ، ويتقاضى مثل بيكاسو أضخم المبالغ ثمناً للوحاتهما .

وكان يقول إنّنى شبيه لبيكاسو فى كل شيء . فبيكاسو من أصل

إسبانى وأنا كذلك ، وهو يحب جمع المال وأنا كذلك ، وهو عبقرى وأنا كذلك ، وهو شيوعى وأنا لست شيوعيًا كذلك . . .

وبيكاسو كان يحب المال ولكنه كان بارًّا بالفقراء . وكان يساعد كل من يلجأ إليه .

كان يعتز بلوحة فنية تمثل مدينة (جيرنيكا) التى أزالتها الطائرات النازية من الوجود . وفى أثناء الاحتلال الألمانى لفرنسا ، زاره فى مرسمه بعض الضباط النازيين .

ولما وقع نظرهم على تلك اللوحة ، سألوه ، أنت صنعت هذا ؟ فأجابهم : كلا ، أنتم الذين صنعتم ذلك .

وإنى لأذكر بافتخار بعض الرسامين الذين تركوا للعالم ثروة من الفن لا تقدر بمال . وهم إلى جانب ذلك أئمة فى عالم المجون .

إنهم رسل السماء إلى الأرض ، ليثبت الله على أيديهم ، قدرته على خلق كل ما هو بديع ، لأنه هو فى النهاية صانعهم .

والأفذاذ فى كل علم أو فن ، قلة بين الناس ، توحى بأنهم رسل ، أراد الله بهم أن يشيعوا بين خلقه المتعة واللذة والمعرفة وحب الحياة ، وأن يروى بثمراتهم ما يجف من جوانب العيش ، وأن ينعش بهم ما ذوى من حيوات أرهقها الكد والعناء

وقد أودع الله فى نفوسهم طاقات خالقة ، شاء الله لها أن تكون بارزة متألقة ، ليست يسيرة على كل الناس ، إلا من اصطفى واختار . وتلك حكمة الله التى نفذ إلى دخيلتها العقاد عندما قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس
والشاعر الفذُّ بين الناس رحمن

والراجح أن العقاد لا يقصد هنا بالشاعر ، ناظم الشعر ، وإنما يقصد كل من عبرَّ بشعوره عن لونٍ من ألوان الفنون ، بآلته التى اختصه الله بها ، شعراً كانت أو رسماً أو عزفًا يطرب السامعين .

* * *

والرسامون فى كل العهود ، يشتهرون بخفة الروح وسرعة البديهة ، وروعة الكلمة . فهم الذين يتوغلون داخل كل شيء وحول كل شيء .

من هؤلاء على سبيل المثال : كلود مونيه . كان يتعشى عند زوجين اشتهرا بالبخل والشح ، وكان عدد المدعوين كبيراً جدًّا ولا يتناسب مع دجاجة واحدة توسطت المائدة . فما كان من مونيه إلا أن هز رأسه فى شفقة وحسرة وهو يقول :

مسكينة هذه الدجاجة ، لعلها الآن تقول بصوت حجبته الرهبة :

ياللوحشية ! كل هذا الحشد سوف يأكلنى . . .؟

وكان للرسامين منذ أقدم العصور ، مقام مرموق فى بلاط أكبر الملوك ، وكان قدرهم لا ينازعهم فيــه منازع . ففى أيام مايكل انجلو ودافنشى لم يكن هناك من ينافسهما من شخصيات وكذلك الحال بالنسبة لجويا فى إسبانيا .

ولعل ما تركه دافنشى ومايكل أنجلو من شهرة ، لم تستطع أية قدرة أخرى أن تنافسهما وتملأ الدنيا إعجاباً بإيطاليا مثلهما .

وما صنعه آل جريكو وجويا لإسبانيا لم تستطع أساطيلها أن تبلغ

ما بلغاه من مجد انعكس عليها حتى اليوم .

وقل المثل عن سيزان الرسام الفرنسى ورودان المثال الفرنسى ، وما تركاه من شهرة ومجد يطاول الزمان .

وكذلك (ڤيلاكيز) البرتغالى المنحدر من أصل يونانى .

أما هولندا فإن شهرة روبنز ورامبرانت وفان جوخ قد ملأت الآفاق فى كل بقاع الأرض ، وقد أكسبُوا هولندا من المجد ما لم تستطع كل جيوشها وأساطيلها أن تبلغه .

ويطيب لى أن أذكر كمثال لما كان للرسامين من قدر لدى أعلى الشخصيات ، حادثة كلود مونيه ١٨٤٠ – ١٩٢٣ الذى كان كما قال عنه ساشا جينرى الكاتب المسرحى والممثل ، إنه لم يستطع أى إنسان أن يكون نموذجياً ومثالاً يحتذى مثل مونيه .

وكان من أحب الأصدقاء ، إليه كليمنصو ، وقليل جداً من أرقى الطبقات ، إذ لم يكن يميل إلى استقبال الكثيرين .

وكان وهو فى الثانية والثمانين من العمر يبدو نشيطاً محتفظاً بكل قوته كما لو كان سنديانة هرمة تهزأ بأعتى العواصف .

وكأنما احتار الموت معه ، وكيف يصل إليه ، فلما أعيته الحيلة ، رأى أن يخادع ويغدر فتسلل إليه وأصابه فى أعز ما يملك . . فى عينه .

ويروى ساشا جينرى أنه عندما زاره قالت له زوجة ابنه ، إنك تجىء فى أنسب الأوقات ، فانظر إلى أى حد بلغ بمونيه اليأس والقنوط بعد ما حلَّ بعينيه .

ولما دخل عليه ، شد على يده وقال له يا عزيزى ساشا إننى لم أعد

أرى اللون الأصفر .

وبعد قليل فقد بصره تماماً .

وراح فى نوم لم يشأ أن يقوم منه حزناً على بصره ، ولزم فراشه ، وكان قد طلب من زوجة ابنه أن يرى كليمنصو ، صديقه الأثير .

وقد عملت على ذلك ، ولم يضع النمر لحظة بل سارع إليه ليراه بأقصى سرعة ممكنة إلى (جيفرنى) سبعمائة كيلومتر لكى يودعه الوداع الأخير .

وكان وصوله فى الوقت المناسب . فقد أسلم مونيه الروح بين يدى صديقه الحميم كليمنصو رجل فرنسا الشهير بالنمر الذى انتصرت فرنسا بحسن قيادته فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وصار اسم النمر رمزاً له ، وعنواناً على قدرته وقدره .

وقد أشرف بصمت وتأثر على وضع جثمانه فى النعش .

وعندما أراد المشرفون على الدفن أن يُغطى النعش بالغطاء الأسود التقليدى ، أمسك كليمنصو بيده ذلك الغطاء وقال للمسئول وهو ينزع الغطاء :

لا ، ثم تلفَّت حواليه ، وتقدم من إحدى النوافذ ، وانتزع إحدى الستاير المزهرة ، وغطى به نعش الرَّسام الكبير بنفسه وهو يردِّد :

اللون الأسود ليس لمونيه ! . .

وأروى لكم عنه هذه الحادثة . عندما زاره فى مسقط رأسه (جيفرنى) وزير التربية عام ١٩٢٣ ليطلب إلى كلود مونيه لوحة من أعماله ليزين بها متحف اللوفر ، قال مونيه .

بكل سرور على أن أختار اللوحة بنفسى .

ووافق الوزير على الفور . وهنا اختار مونيه لوحة اشتهرت باسم « غذاء فوق العشب » .

فسأله الوزير :

هل لى أن أعلم يا سيدى البروفيسير ، لماذا اخترت هذه اللوحة ، لا سواها .

أجاب مونيه :

لقد اخترتها ، يا سيدى الوزير ، لأنهم رفضوا قبولها فى « المعرض » عام ١٨٨٧ . . . !

صفّق الجمهور المحتشد فى المدرجات ، للمؤرخ المحاضر تصفيقا طويلا تقديراً لما حوته كلمته الجامعة من شمول وتعريف بالرّسم والرسامين

انحنى المؤرخ الكبير وانسحب داخل الكواليس ، فى تؤدة ووقار .

تفرقنا شيعاً شيعاً ، ورحنا نتلمس طريقنا إلى خارج المعهد ، لنمضى بعض الوقت فى الحى اللاتينى وفى بعض المطارح التى كان لها عند أغلبنا ذكرى عزيزة فى صدر الشباب وأيام الدرس والتحصيل .

وعدت إلى باريس بعد أن أطفأت بعض الظمأ برؤية مآلف قديمة عزيزة ، أراها على النوى خيالات فى أحلام اليقظة .

وبعد أيام انتظرتها لحين حصولى على مقعد فى طائرة Caravelle ، كانت ستغادر مطار (أورلى) ، فى طريقى إلى مصر ، بعد فترة حرّكت أشواقى وأثارت فى نفسى حنين المغترب لمن يحب ، ولهفتى على عودة

لظلالٍ ألفتها وأحباب فارقتهم ، ومطارح للصِّبا هى فى الشيخوخة الزاد والمعاد ، ومبعث النجوى والعماد .

وبعد ساعات بلغنا مطار القاهرة الدولى ، الذى غادرته مسرعاً إلى دارى لأستكمل ما بقى أمامى من هذه الأوراق .



الفصل السابع

أدب الفكاهة في الكتابة وعند الكتّاب والصحفيين

لن يستطيع كاتب مهما أوتى من الجلد وحب المتابعة ، أن يحصى الظرفاء من الكتاب فى مصر ، قديماً وحديثاً .

فالظرف صناعة أتقنها المصريون ، وأتقنها الكتّاب منهم ، حتى إنك لتحار فى تعليل ذلك .

وقد كتب مرَّة الأديب الشاعر أحمد فارس الشدياق عندما زار مصر أول مرَّة : « كلُّهم فصيح اللهجة ، بيِّن الكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة » .

وذكر البشرى أنه « لا يعرف أمة من الأمم العربية ، أحسنت هذا النوع من النكات ، أو برعت فيه ، براعة المصريين » .

ويمضى ليقول : « لست بالضرورة أعنى تلك النكت القائمة على التلفيق بين صدر معنى من المعانى ، وبين ألفاظ ثانية لمعانٍ أخرى » .

ويسوق عن ذلك مثلا بقوله : « فى قافية الغناء ، يقول الرجل لمناظره : إخوانك لما يشوفوك متعلّق فى حبل المشنقة يزعقوا ويقولوا : كده العدل . .

فلا ذكاء فى مثل هذا ، ولا مجال لسرعة الخاطر ، إنما أريد ذلك

النوع الذى تُلهمه دقة المتفطِّن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة القادرة على لطف التصوير والتخيُّل » .

وإذا كنت قد آثرت أن أروى نماذج من كتابات أهل الظرف فى مطالع هذا القرن العشرين ، فإنما لأننى رأيت أن ألتزم بحكمة صينية قديمة تقول : (إن النبع القريب لا يروى ولا يرضى عنه أهله) .

إلى جانب أن من بيننا من ظرفاء الكتّاب فى أيامنا هذه ، هم ملْء القلب والعين ، ومهوى النفس والخاطر ، وكتاباتهم نسعد بها ونستزيدهم منها كل يوم ، ونحسد أنفسنا على أن حبانا الله بهذا القدر من كتاب الفكاهة فى جيل واحد .

فلدينا الأساتذة يحيي حقى وأحمد بهجت وأحمد رجب وكامل الشناوى ومأمون الشناوى ومحمد عفيفى وعباس الأسوانى وعبد الله أحمد عبد الله ، وعبد الحميد الديب على سبيل المثال لا الحصر .

وإننا لنباهى بهم كل الأقوام ، وندخرهم ليوم كريهة وسداد ثغر .

ولعلنى إذا اخترت من بين كتّاب الجيل الذى أعنيه ، اثنين فى طليعة كتاب مصر ومفكريها ، هما الأستاذ عبد العزيز البشرى والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، فذلك ليكون ما أرويه لهما ، وأكتبه عنهما ، بمثابة نماذج لأمثال المويلحى وإمام العبد وعبد الله النديم ويعقوب صنوع وحسين شفيق المصرى .

وقد جمع البشرى بين ثقافات متباينة دَرساً ونقلا ، قديماً وحديثاً ، وعاش الحياة طولا وعرضا ، يتناغم مع ما حوله وبإحساس لنبض كل نأمة تطرق سمعه .

أما ثانى الفارسين ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، فهو المصور البارع بآلتى الشعر والنثر ، والمحلل المعلل الساحر الساخر ، القاص الضاحك ، فقد امتلك ناصية التصوير والتحرير ، بخفة ظله ولطف حسه ، ودقة شعوره ، دون أن يشعرك بأن ما يكتب هو قصده أو غايته ، من فرط ما به من انطلاق سجية ووضوح بيان .

* * *

لم تكن كتابات البشرى تغضب من يتناولهم فى صوره القلمية من عظماء عهده ، بل إن منهم من كان ينتظر صدور المجلة التى خصها بهذه الصورة بصبر فارغ .

فقد كان عف اللسان ، حسن القصد ، دون التواء أو تجريح .

وكان الجاحظ يقول : « لا يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ولا يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن » .

وكنت لا تلقى البشرى إلا مشرقاً كديباجته ، مرحاً فرحاً كأسلوبه ، فإذا ضحك استحال وجهه كله إلى ثغر ضاحك .

ولم يتأثر البشرى فى كتابه « فى المرآة » أو فى صوره القلمية العديدة ، بالأساليب الغربية التى قدمها واشتهر بها جون جونتر ومارك توين لعظماء وسياسيين ، أبدعا فى تصويرهم ، وإن كان تأثره بالجاحظ فى كتاباته وأسلوبه وتصوراته واضحاً فى كثير مما تناول .

والذى أعان البشرى على بلوغه ما بلغ ، سيطرة على اللغة ، ووضوح فى بيانه ، وخفة روحه فيما يصف ، ودقة حسه فى المرئى وما وراء المرئى ، إلى جانب طبيعة مرحة بغير حدود قبل أن يغافله المرض ويندس إليه

فى غدر لم يكن يتوقعه .

يروى الجاحظ عن الطفيليين ، أن المأمون أمر بأن يحمل إليه عشرة من الزنادقة ، قد سُمُّوا له بالبصرة .

فجمعوا وأبصرهم طفيلى فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع . فانسل فدخل وسطهم . ومضى بهم الموكلون حتى انتهوا إلى زورق قد أعد لهم فركبوه ، فقال الطفيلى ، هى نزهة ، ودخل معهم فلم يكن بأسرع من أن قيدوا ، وقُيد معهم الطفيلى ، ثم سير بهم إلى بغداد .

وأدخلوهم على المأمون ، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً فيأمر بضرب أعناقهم ، حتى وصل إلى الطفيلى وقد استوفى العدد ، فقال للموكلين ، من هذا ؟ فقالوا ، والله ما ندرى ، غير أنَّا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فقال له المأمون : ويلك ! ما قصتك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، امرأتى طالق إن كنت أعرف من أمرهم شيئاً . وإنما أنا طفيلى ، رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة . فضحك المأمون وأمر بتأديبه .

وكان إبراهيم بن المهدى حاضراً فسأل المأمون أن يهبه ذنبه ، فوهبه ، فعفا عنه المهدى وأطلقه.

ويصف البشرى بصورة قلمية ، بخيلا كان يقتر على أبنائه ويخص نفسه بما يحرمهم منه . وكان يأكل ما يستطيب خارج الدار حتى لا يشركونه مأكله وعددهم كبير ، ونفقتهم باهظة .

ويقول البشرى : « فعندما مات ، لم ينتظر أولاده حتى يقسموا التركة ،

ويهتدوا إلى اسم البنك الذى يكتنز فيه المرحوم أمواله ، بل إنك كنت ترى أحدهم يهرول فى الطريق وعلى رأسه شباك ، والثانى على كتفه مصراع ، والثالث يحمل بين يديه طشتًا ، والرابع يحمل مقطفاً امتلأ (بحنفيات) .

وللبشرى صورة قلمية أخرى لأحد الوزراء فى عهده يقول فيها : « جاءهُ مرَّةً أحد زملائه من الوزراء ، فسأله أن يُرقى أحد صنائعه ، على أن يرقى هو أحد أقرباء هذا الوزير فى ديوانه . فأدار الوزير الأول ذهنه الرياضى الكبير فى الحسبة ، فرآها تفرق ٢٤٠ قرشاً فى كل شهر . وتعاصى الأمر ، وتعذّر الحل . وأخيراً وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء الحاضرين فى الأمر ، على أن يزيد قريبا للوزير الأول ، فى وزارته هو ، مائتى قرش ، هى كل ما تسعه طاقته ويدخل فى جهده . وبعد لأى رضى الوزير الأول بهذا الحل ، محتسباً عند الله أربعين قرشاً كل شهر .

* * *

ومن أرق ما وصف به البشرى صوت محمد عبد الوهاب ، فى مطلع حياته الغنائية ، قوله : ده صوته زى الخسْ . . . وقال فى موضع آخر : إن صوت عبد الوهاب فى يده ، وكل مغنٍّ آخر صوته فى فمه . . .

وللبشرى قدرة على التوغل فى نفس الشخص الذى تتناوله كاميرا قلمه ، فترى ما لا تراه إلا بالمجهر ، أى عين خلا عينه .

يقول عن الجراح الكبير على إبراهيم : « إنك تستطيع أن تلحظ أن هـذا الرجـل أصـابع ليست من جنس سـائر الناس ، فإنها تشير عليك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها . على أنه إذا تحدث رأيته يستعين

دائماً بسبابته ووسطاه ، فما تزالان كالمقص فى انفراج والتئام إلى أن يفرغ من حديثه ، حتى إنك تعرفه من أصابعه ، كما تعرفه من وجهه . ولو قُدر لمصور أن يرسم أصابعه وحدها ، لدَلّت عليه إلى غاية الزمان » .

وكتب يصوِّر الراديو عند ظهوره ، على لسان أعرابى قادم من البادية ، لم يحدث أن رأى فى باديته هذا الجهاز :

(دعانى صاحبك ذات عشية إلى أن أصعد إليه . فلما استوينا فى مجلسنا من إحدى الغرف ، أومأ إلى ركنها فحوّلت بصرى ، فإذا دمية من خشب ، بتر ساقاها ، فأقعدوها على منضدة لها أنف صغير ، ولها أذنان دقيقتان ، وقد توسط ما دون الجبين عين لها . واعجباه ! واحدة تمزَّقت حدقتها فتناثرت فى بياضها تناثر أكارع النَّمل على صفحة الرمل . ولها فم ، يا حفيظ ! قد استهلك نصف وجهها . سجُّوه ديباجة من حرير ، وليتهم سدُّوا عليه مسامير من حديد . وما أحسب والله هذه الدمية إلا صنعت على صورة الجن . لم تصنع على صورة الإنسان) .

وعندما أدار صاحب الراديو جهازه ، مضى على لسان الأعرابى يصف ما حل به بعد سماعه همهمة ودمدمة من الجهاز « خلت أن الأرض قد زلزلت علىَّ ، وأحسست قلبى يتمشى من الروع فى صدرى حتى يصل حنجرتى . فجمعت ثوبى للهرب ، فجذب صاحبك فضل ردائى ، ولو قد أطلقنى ما أصبت المهرب . فلقد تخاذلت عنى ساقاى ، وأظلم ما بينى وبين وجه الطريق ، وجعلت ألتمس آية الكرسى أستعصم بها من هذا الشيطان ، فأذهب بها الرعب عنى ، وكأنى لم أحفظ منها فى دهرى الطويل كلمة واحدة » .

وللبشرى كتب وأبحاث ومقالات عديدة بليغة . ومن كتبه المطبوعة : فى المرآة ، والمختار ، وقطوف .

وقد نشر الكتاب الأخير مشفوعاً بمقدمة للدكتور طه حسين جاء فيها :
« إن الشيخ عبد العزيز البشرى من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الإنسان أقلَّه ، إلا كلف له أشد الكلف ، وافتتن أشد الافتتان ، وأصبح لا يستطيع له نسياناً ، ولا يجد فيه سلوًّا ، مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف » .

ولقد كان الدكتور طه حسين على حق فى وصفه هذا للبشرى ، وعلى تركيزه على خفَّة روحه وعذوبة نفسه . فقد أعانته هذه الروح الشفيفة على الوقوع بخفة امتلك ناصيتها باقتدار ، على مواطن إثارة الضحك ، بالكتابة التصويرية ، وبالصور القلمية وبالحديث الماتع .

ولادة كاتب صاحب أسلوب فكاهى من هذا الفريق ، حدث كبير فى أى بلد ، لا يقل عن مولد مخترع أو طبيب عالمى أو مكتشف لفيروس مثل باستير ، وكلٌّ ميُسَّر لما خُلق له .

ولقد شاهدت إحدى صحف المليونير الأمريكى Hurst التى كانت تصدر فى سان فرنسسكو باسم San Francisco Examiner ، تنشر صباح كل أحد ، عموداً واحداً لكاتب فكاهى ، كانت ملايين النسخ التى تنشرها الصحيفة تنفد بسبب إقبال القراء على قراءة هذا العدد .

وكان يتقاضى هذا المحرر أجراً يفوق ما يتناوله رئيس مجلس إدارة بشركة أو مؤسسة كبرى ، وهو رقم خيالى أو فلكى ، كالأرقام الرابحة من شهادات الاستثمار حرف ج . لا الجائزة نفسها . . .

وانظر إلى هاتين الصورتين القلميتين الناطقتين .

أما الأولى فهى لشاعر النيل حافظ إبراهيم :

« إنه جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنه قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكّر فى آخر ساعة أن يكون إنساناً فكان (والسلام) .

وأما ما يدعى فمه ، فكأنما شق بعد الخلق شقًّا . وأما عيناه فكأنما دُقَّتا بمسمارين دقًّا ، وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكأنما عهد به إلى نقَّاش مبتدئ ، تشابهت عليه الأصباغ والألوان ، فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها ، فمزج مزجاً من هذا كله ، لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب » .

وأما الصورة الثانية ، فهى لدولة أحمد زيور باشا . وكان ضخم الجثة ، يحب الهزر والمجون :

« أما شكله الخارجى وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته الساقطة الأفقية ، فذلك كله يحتاج وصفه وضبطه وضبط مساحاته إلى فن دقيق ، وهندسة بارعة .

وهو مؤلف من عدة مخلوقات ، لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض . . وإنك لترى بينها الثابت والمختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره .

ومنها اليابس ومنها المتحجر . وفيها المسترخى والمترهل . وعلى كل حال فقـــد خرجت هضبة عالية مالت من شعابها إلى الأمام ، شعبة طويلة أطلَّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان ، طَلَّة من ترقّب السقوط إلى قرارة ذلك الهوى السحيق .

* * *

ونأتى إلى ذكر خصائص ثانى النموذجين اللذين اخترناهما من كتَّاب المجون فى عصر يُباهى ويزدهى بما خلّفاه من آثار ، وأعنى به الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

إن الذهب فى غير حاجة إلى طلاء . فهو لامع أبداً ، مشرق أبداً ، مُبتهج أبداً ، مفرح أبداً ، وإن كان الذهب نفسه – وأقصد المازنى – يفور داخله ويمور ، وتعبس فى وجهه الدنيا فيترضّاها ، وتعصف به الأزمات فيصمد لها ، ويلجأ مراراً إلى بيع مدَّخراته من الكتب الثمينة ، للحصول على ما هو أثمن ، وهو البقاء على قيد الحياة .

وبالرغم من ذلك كنت لا تلقاه إلا مستبشراً متفائلاً مقبلا على الحياة ، داعياً الآخرين إلى الاحتفال لها معه والاحتفاء بها على ما يحبه ويرضاه من دنيا استعلى أن ينهزم أمامها .

ولعل المازنى هو النسخة الوحيدة من كتاب جيله ومن جاء بعدهم من كُتّاب ، الذى جمع إلى الكتابة ، مهنة الصحافة والشعر والترجمة والقصـــة والتحليل والتعليل لما يقرأ من نوادر الكتب ولما يدور حوله من أحداث بصورة يهضمها ، أى فكر ويتشهّاها كل عقل ، لجاذبية خاصة فيما يكتب ويعرض ويناقش . وكان فى كل ما طرقه من هذه الأبواب ،

النابغ المتألق ، البارع الذى لا يُبارى ، دون أن يعتد أو يتعاظم أو يتيه بما يحسن . وهذا هو موضع العجب منه والإعجاب به .

وكأنما كان يلتزم بدعاء صوفى تقول كلماته :

« اللهم جنِّبنا الإعجاب بما نُحسن ، والكَلَف بما لا نحسن » .

والمازنى من أقل الكتّاب والأدباء حظًّا من التقدير والتكريم ، ومن أبعدهم عن ذاكرة الجماهير ، برغم ثرائه فى الفكر واللغة والقصة والسُّخر المهذَّب البنَّاء .

لم يكن يكتب إلا ما يحسُّه ولا يترجم إلا ما يرى نفعه للناس . وعندما أحس أن ما نظمه من شعرَ ليس بذى جدوى للناس ، أتلف ما نظم وعكف على الكتابة ، برغم جزالة شعره .

وبرغم تجهُّم الحياة له فقد أحبَّ الناس ، وأحب الحياة ، ونفر من المتشائمين الذين لا يحسنون التناغم مع الحياة .

وكان ابن الرومى ، فى معرض الاعتذار عن دوام هجائه يقول : لو كنت أكثر حظًّا ، لكنت أقل هجاءً .

وهذا هو الفارق بين الرجلين ، وبين المعدنين .

* * *

وللمازنى رأى فى النكتة وفى الفكاهة ، يجلو ما بينهما من فارق ، يتعين العلم به ، لمن يريد أن يتابع رحلة المجون ، على يد أساتذة المجون .

يقول : « إن النكتة مظهر فطنة . والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك . ويندر أن يستطيع صاحبها أن يُحلِّق فوق الظاهر ، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة . وهى تُضحكنا بما فيها من مقارنة بين

أمرين أو حالين أو سلوكين .

أما الفكاهة فشيء مختلف جداً . لأنها تدور على المعانى والحقائق ، وتغوص فى الجوهر ، ولا تتعرض للصورة الظاهرة » .

وهكذا ترى الفرق واضحاً بين أمر عارض كالنكتة ، وبين فكاهة مدروسة فى تعمق وأناة » .

وليس أجدر بالحديث عن إبراهيم عبد القادر المازنى ، من صفيِّه ، عباس محمود العقاد ، صديق عمره وخدين هواه فى تحقيق ما عقدا عليه الآمال ، فى تطوير الشعر والأدب على ما يحبَّان وما يبتغيان .

وقد أجرى العقاد هذا الحديث ، أمام أعضاء المجمع اللغوى عند اجتماعهم على أثر انتخاب المازنى عضواً به ، وليقوم بتقديمه لأعضاء المجلس كما جرت العادة ، فى كلمة جاء فيها :

« كان من حظّى أن وُكل إلىَّ إلقاء هذه الكلمة فى استقبال صديقى القديم ، وزميلى الجديد فى المجمع ، الأديب الشاعر الثائر الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

ولكن ليس من حقّى أن أسميها كلمة تقديم . فإن المازنى مُقدم ، متقدِّم له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه ، رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد .

عرفت المازنى منذ نيف وثلاثين سنة ، أى منذ جيل كامل فى عصر النهضة الحديثة ، وقعت فيه حربان عالميتان ، وشجرت فيه حروب لا عِدادَ لها فى ميادين الأدب أو الثقافة أو السياسة . ولم نكن فى تلك الميادين على انتماء دائم إلى صف واحد ، ولكننى راضٍ ومغتبط بأن أقول : إنه كان

لسماحته وحسن تقدير الفوارق بين اختلاف الآراء واختلاف العقول والطباع ، فضل مشكور في بقاء هذه الصداقة التي أعزها وأعتزُّ بها ، ويسرني أن تصبح من الصداقات النادرة في تاريخ الآداب العربية الحديثة .

وكان المازني طالباً بمدرسة المعلمين العليا ، يكتب في صحيفة الدستور التي كنت أشترك في تحريرها ، ثم عرفته فيما يصح أن نسميه بمدرسة « البيان » . . وهو اسم المجلة التي كان يصدرها الأديب البليغ الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله . وكان يكتب فيها نخبة من ناشئة تلك الفترة ، شيوخ هذا الجيل ، أمثال : محمد السباعي ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الرحمن شكري . وكنا نزاملهم في كتابة فصول المجلة . فكنا نتلاقى على مائدة الأدب والمطالعة : نقرأ ابن الرومي ونعارضه . ونقرأ الجاحظ والشريف الرضي ونختلف فيهما . ونقرأ وليام هازليت ناقد الإنجليز الأكبر ، ونرفعه مكاناً عليًّا فوق زمرة النقاد العالميين ولا نسمع بشاعر أو كاتب من أعلام الأدب والفكر في اللغات الأجنبية إلا ذهبنا نلاحقه ونطارده في كل ما يصل إلينا من كتبه ، ثم نقتسم نصيبنا منه بالمذاكرة والمشاورة ، كما نقتسمه بالمنازعة والمشاجرة في أحايين .

ولست أحب أن أختم هذه الكلمة قبل أن أنصف المازني الذي لا يحتاج إلى الإنصاف . .

وهو لا يحتاج إلى الإنصاف إلا في موضع واحد : هو موضع الكلام عن نفسه . فلم أر أحداً يجور على المازني ، كما يجور المازني على فضله وقدره .

وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بجدواه . فأنكر على نفسه الشاعرية . وأنكر غناء ما يكتب وما ينظم وما عسى أن يكتب وينظم . وقد تُغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد منها بما قاله فى تصغير فضله وقدره . ومن هذه الأسماء « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » !

وقد غالطته أحياناً فقلت له : إن هذه البدعة منه ضربٌ من المكر الحسن الذى لا يستغرب ، كأنه أراد أن ينزل عن مكانه ليجلسه الناس عليه ، وأن يجحد حقه ليثبته له الناس .

ولو كان هذا قصده ، لكان فى كلامه ما هو أقوى جواب عليه . وذلك حيث قال فى حصاد الهشيم ، « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون منزلتها التى تستحقها ، لم يرفعك الناس إليها . بل أغلب الظن أنهم يدعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها ، لأن التزاحم على طيِّبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالا للعمل » .

والأرجح أننى غالطته حين استفززته بمثل تلك التهمة البريئة فى حقيقة الأمر فى هذه الخصلة » .

* * *

ونختار للمازنى بعضاً من كتابته فى فصول منوَّعة ، لنقف على أسلوبه فى معالجة ما يتناوله بروح يشيع فيها التبسُّط والمرح والمجون المهذب .

كتب فى بحث له عن القاهرة التى يعتبرها بلدته، يقول :

« كان ينبغى أن تكون بلدة – « كوم مازن »– مركز تلا ، على ما أظن ، من أعمال المنوفية – مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى . . .ولكن

المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقطت فى كوم مازن ، ولا كتب لى قط أن أزورها أو ألم بها .

وشاءت إرادة الله – لحكمة ولا شك – أن أكون قاهريًّا ، مولدًا ، ونشأة ، وإقامة . وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة . ولا يخطر لى أن أرى هذه البلدة – الطيبة على ما سمعت – التى نزل فيها أجدادى ونسبوها إليهم .

وكنت أظن لفظ (كوم) ، مُحرفاً عن (قوم) . ولكن الدكتور زكى مبارك – وهو أدرى – يقول إن الصواب (الكوم) بالكاف ، وإنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا يؤثرون الأرض المرتفعة ، حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان . .

والقاهرة التى عرفتها – أو قل الرقعة التى عرفتها منها – فى صدر حياتى ، شىء مختلف جدًّا عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى . . والرقعة التى أعنيها ، هى التى لا تزال معروفة بأسمائها ، وإن كانت معالمها القديمة قدعفا عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية والأزهر ، والسكة الجديدة وغيرها مما يتفرع عليها .

وكانت الحارات فى الأغلب ضيقة جدًّا ، والبيوت فيها متقاربة ، فالطريق لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب .

وللبيوت « مشربيات » جميلة دقيقة الصنع ، من خشب ، تبرز من المنازل المتقابلة ، وتكاد تتلاصق ، وفيها توضع القلل ليبترد الماء . وما زلت أذكر كيف كنت أمد يدى إلى مشربية الجار ، فأشرب من قلله إذا وجدت قللنا فارغة ، أو ماءها غير بارد ، أو لمجرد العبث والشيطنة ! . .

وكان الترام قد ظهر فى قلب المدينة . ولكنى لم أره إلا بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائى ، ودخلت المدرسة التوفيقية الثانوية – أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلا بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوّفونى منه – وقد حاولوا تخويفى فعلا – بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل لى على ، « أبو نيه » مجانى « لعربات سوارس » ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل ! . . .

على أن حياة الصغار لم تكن كلها لهواً . فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوراد ، ونذكر مع الذاكرين ، وفى الصيف – فى الإجازة المدرسية – يرسلنا أهلنا إلى « الكتاب » فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم .

وكانت على بعضنا واجبات عجيبة . فكنت أنا مثلا ، مكلفاً أن أعلف لجدى حماره ، وكان جدى – لا الحمار – ضعيف النظر . فكنا نجىء له بالحمار مسرجاً ملجماً ،ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان « التغييرة » أو الملزمة (صفحات من كتاب) ، ويدنيها من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب « المزينين » ، وهو أحد أبواب الأزهر ، فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ، فيترجل ، ويترك الحمار لمن يُعنى به : ويلقى درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء ! .

فحدث ذات يوم أنى أهملت إطعام الحمار ، فجاع ، فلما ركبه لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كر به راجعاً إلى الإسطبل ، فلما ترجّل

جدى لم يجد ما ألف ، ولم يدر أين هو ؟ فما دخل الإسطبل قط . . !

وقد ضربت فى ذلك اليوم علقة — لا من جدى ، فقد كان أحنى على من أن يضربنى — بل من أخى الأكبر رحمه الله ! . . .

* * *

وكتب مرّة عن عجزه فى وظيفته كصحفى ، لا فى الكتابة ، ولكن فى الوسيلة لحصوله على الأنباء :

« دارت الأيام ، وقامت الثورة ، ونفى سعد ، ثم أطلق سراحه وذهب إلى باريس ثم عاد إلى مصر ، فاوفدتنى جريدة (الأخبار) التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى بك ، إلى الإسكندرية ، لأكتب لها وصف استقبال سعد . . .

وعدت فى القطار الخاص معه ، واضطررت أن أحمل حقيبتى من محطة مصر إلى ميدان الفلكى ، لأنى لم أجد سيارة ولا مركبة خيل ، ولا رجلا يحمل عنى ، لأن الدنيا كلها مضت وراء ركب سعد . . .

ومضى الليل ، وطلع النهار ، فحدثت معجزة . !

ذلك أنى كنت قبل ذلك بعام ، قد نزل بى مصاب رجّنى رجّة شديدة ، وأتلف أعصابى ، فآثرت أن أتخذ مسكناً لى بين المقابر ، وكان موقعه موحشاً ، والقبور حوله تقبض الصدر . وكانت لى قريبة كلما زارتنى تقول لى : « يا ابنى ما هذا ؟ كلما نظرت من النافذة اضطررت أن أقرأ الفاتحة ! ولكنى كنت أجد فى هذه الوحشة أنساً . وكنت لا أكاد أطيق رؤية الناس . وبلغ من تلف أعصابى ، أنى كنت إذا تناولت الصابون لغسل يدى مثلا ، أشعر أن فيه شعراً . فخفت على نفسى وطلبت الراحة

والسكون . وأى سكون أتم من سكون الموت ؟ .

وطبيعى أنى كنت أعرف « الطُّربية » بضم الطاء ، وفى صبيحة اليوم التالى لعودة سعد ، خرجت من بيتى ، ووقفت أنتظر الترام ، وإذا بشيخ « الطُربية » المرحوم الشيخ عبد الخالق الطحاوى يخرج فى سيارته مسرعاً ، فلما رآنى وأخبرنى أن سعد باشا آت لزيارة مقابر الشهداء ، وأنه ذاهب لاستقباله عند القلعة ، وأن هذا الخبر سر ، لا ينبغى أن يذاع ، وهذه رغبة سعد .

وتركت الترام وانتظرت ، وبعد قليل أقبلت سيارات ، فى الأولى سعد وواصف غالى باشا ، وفى الثانية أمين بك يوسف والمرحوم سينوت بك حنا ، فأشرت إليهما وركبت معهما . وزرنا مع سعد مقبرة الشهداء المسلمين ، وفيها ألقى سعد خطبة وجيزة ، كتبتها على ركبتى ، فما كان ثم مقعد أو حائط . ثم انطلق الجمع إلى مقبرة الشهداء الأقباط فى شارع الملكة نازلى (رمسيس حاليا) ، وهناك خطب سعد أيضاً مترحماً على الشهداء ، حاضًّا على الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الوطن ، وهناك أيضاً سلّم علىّ سعد ، وشكرنى ، ولم يزد . وعاد إلى سرادق مضروب بجوار بيت الأمة ، وخطب أيضاً ، ثم ذهبت إلى (الأخبار) ودخلت على المرحوم أمين بك الرافعى أعتذر عن التأخر ، فضحك رحمه الله وقال « لقد أبلغنى سعد باشا أنك رافقته فى زيارته لمقابر الشهداء ، وهو يستغرب جدًّا أنك علمت بأمر هذه الزيارة مع أنه أخفاه حتى عمن رافقوه . وهو يثنى عليك ويقول إنك أبرع صحفى ، وأن ما كان منك يشبه السحر . . !

وضحك أمين بك وقال : « طبعاً لم أفضح السر ، ولم أقل له ان بيتك فى المقابر ! » .

وهكذا فزت بثناء لا أستحقه ، ولا فضل لى فيما استدعاه ، وإنما الفضل لمجاورتى يومئذ لأهل القبور . . ! .

وكتب مرة فصلا بعنوان : « من ذكريات عابر سبيل » جاء فيه :

كان أحد الإخوان يصحح قول الشاعر ، « سافر ففى الأسفار خمس فوائد » فيقول – بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها – أن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة .

فأما البعد عن المرأة – أى الزوجة – فإنى لم أعد أدرى أهو مزية خير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذى أدريه أنى جادلته مرة بلا لف أو مداورة ، ثم عدلت عن التماسه ، ووطّنت النفس على اليأس منه ، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة .

وتجاربى فى هذا الباب تخولنى أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده ، أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فإذا أبت ، كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً ، أن المعول فى هذا الأمر على أسلوب الحوار ، وطريقة الكلام ، والزواج ، – كما هو معروف – من مزاياه أن يكسب الإنسان مرونة فى التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة فى التحرز ، وسعة فى الحيلة .

وإنى لأذكر أنى كنت فى سوريا مع أسرتى منذ نحو سنتين ، فذهبنا مرّة إلى بيروت لنشترى أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا .

فرأت زوجي معطفاً من الفرو ثميناً جداًّ ، فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولكني نظرت إلى ثمنه فدار رأسي ، وأيقنت أننا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول . فأصابتني فجأة نوبة عصبية حادة ، لم ترها زوجتي قط من قبل . ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع فى الأمراض العصبية . فقد خيل إليها أن هذا الذى أصابنى لابد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج ، أو لا أدرى ماذا غير هذا . فحملونى إلى طبيب فرنسي ، قالوا لها انه هو الإخصائى الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته فى طب الأمراض العصبية . فأدخلونى عليه ، فاتضح له من استجوابى ، ومما عرفه من تاريخ آبائى وأجدادى من قبلى ، أن أهلى – فى حداثتى – خوفونى مرة بدب صناعى ، له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع الذى انتابنى فى صغرى شديدة جدا ، فأنا من ذلك الحين ، أضطرب جدا إذا وقعت عينى على الفرو . فسألته زوجتى التى لم تكن تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتى الحافل بالمفاجآت ، سألته عن العلاج فقال : « أوه . . لا شيء . . لا داعى للقلق . . ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً . . »

والحق يقال إنه كان طبيباً بارعاً جداًّ ، فإن مرضى العصبي لم يعاودنى بعدها أبداً . . والفضل بعد الطبيب ، هو بلا شك لزوجتى التى حرصت أعظم الحرص ، على ألا أرى الفرو . أبداً . .

* * *

ولا أحسبنى ارتددت بالقارئ أكثر من غمضة عين ، من غمضات عيون تاريخ مصر الأدبى فى حقبة حافلة تقع بين العشرينات والأربعينات

من هذا القرن العشرين ، والعهد بهذه الفترة ما يزال عالقاً بالأذهان .

وما زلنا نرى القوم فى الغرب يتجادلون فى أخطاء معركة (ووترلو) وثغرات معاهدة أوسترلترزوأخطاء بسمارك الذى كان يقول عنه ، أعداؤه ، انه جعل ألمانيا كبيرة والألمان صغاراً . .

وما يزال النقاش محتدماً حول ما كان يجب أن تكون عليه ختام مأساة شيكسبير (روميو وجولييت) . وهل كان يجب من الأصواب أن يتزوج روميو من جولييت وتنفض الحكاية . . . أو يتركها (شيكسبير) كما تركها ، دمعة حائرة فى أعين الرومانسيين فى زمن عزّت فيه الرومانسية ، وهرولت تلتمس نجاة من تهديد المادية لها بخنقها وإخماد أنفاسها بحيث لا يشفع لها إسعاف أو حجرة إنعاش . .

حتى قطع فى الأمر ناقد لماح بقوله : لو أن روميو تزوج من جولييت لعاشا فى (تبات ونبات) وخلّفا (صبيان وبنات) وسكتت الناس عن الحديث عن روعة مأساة (شيكسبير) الخالدة ، وتلاشت تنهداتهم على العاشقين الصغيرين . والخيرة فيما اختاره الله . .

ويجرى ذلك أيضاً على مأساة المجنون وليلاه . فلو أن قيساً تزوج من ليـلى بدلا من ورد ، لعاشا فى (تبات ونبات) وخلّفا قيسا صغيراً غير مجنون ، وليلى صغيرة سمراء ، ولخمدت الحسرات التى دأب على ترديدها الرومانسيون من العشاق ، كلما جرى على الخاطر ذكرى مأساة المجنون الشديدة، أو أخطرها على بالهم شبيه لذلك العشق العقيم مع استحالة ذلك فى زمن أصبح القمر فيه فى متناول رجل الإنسان . .

* * *

رحم الله الكاتبين الكبيرين ، عبد العزيز البشرى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وأحسن إليهما بأسخى مما فضّضَا من ظلام العيش ، وأنارا من حلك الأيام ، لنفوس كلّت فى طلب الرزق ، وقلوب جفّ فيها معين الحياة ، بما كانا يفيئان به على الناس من حكمة ورشاد ، فى أفانين من حلو الحديث وبراعة الرواية .



الفصل الثامن

أعلام الفكاهة فى الغرب

لكل أمة فكاهتها ، تبعاً للبيئة والميراث والتقاليد ، والجو وحالة الرخاء أو الفقر ، فى كل صُقع من الأصقاع .

والشعوب فى كل أرض ، فى إقبالها على الفكاهة ، تتباين فى أذواقها وفى قدر فهم ما يستمعون إليه ، وإن التقوا جميعاً عند الإعجاب بما يثير الضحك ويبعث المرح .

وهم فى هذه الحالة ، يتفاوتون فى درجة الضحكة ، وتزاوجها بين الابتسامة والقهقهة ، عندما ترتسم على وجوههم .

والفكاهة فى الغرب لها خصائص تتميز بعمق الثقافة ، ولمس الوقائع لمساً يعتمد على الثقة فى فهم المتلقى ، دون أن يغوص فيشرق فيغرق فيها لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

وليس من اليسير على الغربى أن يفهم فكاهات المجتمع العربى ، لغياب كثير من تقاليده عن أذهان كثير من أهل الغرب .

ونسوق فى هذه المناسبة ، القصة التالية :

جلس أعرابى على مائدة بعض الخلفاء . وكان من بين ما قُدّم جَدى مشوى . وراح الأعرابى يلتهم التهاماً أجزاء كبيرة من الجدى ،

فقال له الخليفة :

إن من يراك على هذه الحالة من الالتهام ، يعتقد أنه لابد أن تكون أم هذا الجدى قد نطحتك .

وهنا أجاب الأعرابى على الفور وببديهة حاضرة :

وإن من يراك أنت يا أمير المؤمنين فى عطفك على هذا الجدى ، يظن أن أمه أرضعتك . .

والذى يغرب عن فهم الغربى لهذه القصة ، صعوبة تصور العيش فى البوادى النائية ، وارتفاع الكلفة بين البدوى البسيط ، والخليفة ذى الشأن والسلطان .

وعلى نفس هذا المستوى من الصعوبة فى فهم فكاهات المجتمع الغربى للمجتمع العربى ، نسوق قصتين ، تستلزمان فهماً لأوضاع وثقافات خاصة بالغرب :

وتتلخص القصة الأولى فى أن (Tiers تييرس) كان أول رئيس جمهورية فى فرنسا عام ١٨٧١ . وكان هو الأول كذلك فى إطلاق لقب President على رئيس الجمهورية ، بعد أن كان Chef du - Pouuoir Executif أى رئيس السلطة التنفيذية . وكان يقول فى معرض التشبث بالتسمية الجديدة : لماذا تريدوننى على أن أكون مشتركاً فى الوظيفة مع صاحب مهنة أخرى وهو الطباخ (إذ أن Chef بالفرنسية تعنى طباخ) ثم يردف قائلا ، ومع احترامى لأصحاب هذه المهنة ، إلا أن تنازع الاختصاص يبرّر تغيير الاسم . وهذا ما نادى به (مونتسكيو)

وقد كان قصير القامة ، وجاء اسمه Tiers أى (الثلث)

مؤكداً لهذا القِصَر . إلا أن أصحاب المجون من الفرنسيين استكثروا عليه الثلث وأطلقوا عليه اسم Le Quart أى الربع . . .

كما أن القصة الثانية تتلخص فى أن جان – بول سارتر فيلسوف الوجودية ، روى مرَّة أنه كان فى زيارة لميناء طولون ، وقابل على رصيف الميناء بحاراً يعرض سلعة فنيَّة صنعها بنفسه ، تمثل زجاجة ويسكى فارغة ، بداخلها مصغَّر دقيق لبارجة حربية .

وقد بادره سارتر بالسؤال :

لا شك أن إدخال بارجة إلى داخل زجاجة ويسكى أمر فى غاية الصعوبة . أليس كذلك ؟

فأجابه البحَّار .

لا يا سيدى ، إنه لأسهل بكثير من إدخال زجاجة ويسكي إلى البارجة . . .

والخفىُّ الذى لا يظهر فى هذه القصة ، أن طولون تعتبر قاعدة للأسطول الفرنسى . ولهذا تحكم القاعدة قوانين عسكرية شديدة ، من بينها تحريم إدخال الخمور إلى بوارج قطع الأسطول .

* * *

سوف أصحب القارئ معى فى رحلة نجوس فيها خلال ألوان من الضحك ، تبعثه فكاهات من الغرب ، على مختلف المستويات .

وتجنباً للسير الطويل الذى قد يجهد القارئ ، ونأيا عن الدخول فى متاهات ومسالك ، أن بدت لها بداية ، عزَّت نهايتها على أى تحديد ، لإتساع مجال القول فيها وتعدد طرق الشعوب فى رواية الفكاهة وقول

النكتة ، أقول ، تجنباً لكل ذلك ، رأيت أن أستعرض ثلاث شخصيات من أهل الظرف فى كل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا .

ثم أستعرض فكاهات اشتهرت وذاعت على لسان أو نقلاً عن أصحاب الوظائف والمهن المختلفة ، دون التقيد بجنسية أصحابها .

وسوف أدخل مع القارئ إلى حياة ثلاثة من أهل الظرف من الإنجليز ، نبدؤها بحياة برناردشو ، وما جذب الناس إليه ، إلى جانب نبوغه وعبقريته وتفرّده بفكاهة ذكية بارعة .

جورج برنارد شو :

لا يختلف اثنان فى أن جورج برنارد شو ، كان أعظم أدباء هذا العصر الذى يفترش عهداً يبدأ بأيام الملكة فيكتوريا ، وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بالعصر الفيكتورى ، حتى عصر القنبلة الذرية الذى نعيشه وهو القرن العشرين .

وكثير من الناس الواقعيين ، يوقنون بأنه كان روائيًّا أعظم من شيكسبير ، وأخبر بالموسيقى من بيتهوفن ، وأبعد نظراً فى الاشتراكية من كارل ماركس .

كما أن كثيراً أيضاً فى العالم الأدبى ، يرفضون أن ينظروا إليه إلا على أساس أنه مهرج خفيف الظل ، وأغفلوا من حسابهم ذلك العمق الفلسفى فى نظرياته وأفكاره التى كان ينثر عليها طبقات رقيقة من منثور السكر ليجذب إليها قراءه .

وبرغم الأربعة والتسعين عاماً التى عاشها ، فإنه لم يحظ فى أخريات حياته بتحقيق ما كان ينادى به من آراء وأفكار .

فلم يقدر أن يثنى الناس عن أكل اللحم ، اكتفاءً بالخضراوات والفاكهة ، ولا امتنعوا عن التردد على الكنائس بدلا من دور الأوبرا التى كان ينصح بالذهاب إليها ، ولا انقطعوا عن زيارة الأطباء ، بعد أن عصوه فى المحافظة على حرارة القدمين وبرودة الرأس .

وكان يقول عن التراجم الشخصية ، إنك عندما تطالع ترجمة رجل ما ، اذكر دائماً أن الحقيقة غير صالحة للنشر .

استوقفه مرّة أحد الأشراف الإنجليز nobles ، وسأله : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك خيّاطاً ؟

فأجابه شو بقوله : نعم يا سيدى كان والدى خياطاً .

فسأله النبيل : ولِمَ لَمْ تأخذ مهنته .

وهنا راح شو يسأل النبيل : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك نبيلاً ؟

فأجاب النبيل : نعم يا سيدى كان والدى نبيلاً .

وفاجأه شو بقوله : ولِمْ لَمْ تأخذ عنه النُّبل ! . . .

وكثيراً ما كانت تنتابه حالات من التفاؤل تحمله على أن يدعو الناس إلى التفاؤل مهما بلغت بهم الشدة وقسوة الحياة . وكان يقول : إذا كنت أصم فاستمتع بالسينما وإذا لم تكن مبصراً ، فاستمتع بالراديو ، أما إذا كنت قد فقدت سمعك وبصرك ، فعليك أن تحمد الله الذى أنقذك من السينما ومن الإذاعة . . . والتليفزيون . . . .

كانت إحدى الممثلات تعجب بشو وأرادت أن تدعوه إلى منزلها بطريقة توهمت أنها مبتكرة ، فكتبت إليه رقعة حملها إليه رسولها ، وقد جاء فى الرقعة :

سأكون فى منزلى فى الساعة السادسة من يوم السبت القادم

فرد عليها شو بقوله :

وأنا كذلك . . .

وكان يقول إنه ليس هناك من فوارق بين الإنجليز والأمريكيين سوى اللغة ، أو بمعنى أوضح أن إنجلترا وأمريكا بلدان ، تفرقهما نفس اللغة . .

ولقد قام بتصنيف عجيب للرسّامين فى ردّه على سؤال فى هذا الشأن : يمكن تصنيف الرسّامين على النحو التالى :

الرسامون الذين يرسمون ما يرون

الرسامون الذين يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون . . .

كان شو يعتنى بحديقته على عادته المألوفة ، وحدباً منه على نباتاتها وخضراواتها التى يعيش عليها . وإذا بسيدة صديقة لزوجته لم تكن تعرفه ، جاءت للمنزل ورأته وهو منهمك فى عمله ودار بينهما الحوار على الوجه التالى :

هى : هل مضى عليك زمن طويل وأنت تعمل لحساب آل شو ؟

شو : بين العشرين والخمسة والعشرين عاماً يا سيدتى .

هى : وكم تتقاضى منهم ؟

شو : إننى أعمل فى مقابل طعامى وكسوتى يا سيدتى .

هى : (بلهفة) ما رأيك فى العمل عندى بنفس الشروط مع منحك

أجراً شهرياً ؟

شو : يؤسفني يا سيدتي أن أعتذر ، لأنني مرتبط مع السيدة شو مدى الحياة .

هي : (وهي تصيح) مدى الحياة ! إنها عبودية ؟ إنها سخرة ،

شو : (ببرود) : كلا يا سيدتي ليس في الأمر عبودية أو سخرة ، نحن ندعو ذلك زواجاً . .

* * *

أوسكار وايلد :

كان يحلو له أن يقول إنه من مواليد ١٨٥٦ برغم أن الثابت عن حقيقة عمره ، أنه من مواليد عام ١٨٥٤ .

وكان يقول إن السنوات التي تنقصها السيدات من أعمارهن لا تعتبر سنوات ضائعة بالنسبة للناس ، لأنهن يضفنها إلى أعمار صديقاتهن العزيزات .

وكان شاعراً نابغاً بليغاً ، وقصصياً بارعاً ، وقد خلّدت ذكره روايته « صورة دوريان جراي » .

وكان مغرماً بتدخين السجائر ، وهو القائل عنها إنها الشيء الوحيد الذي يدعك دون أن تشبع رغبتك منه .

وكان يقول ، إن السجائر ذات الأطراف المذهّبة مرتفعة الثمن ، بحيث إنني لا أستطيع الحصول عليها ، إلا عندما تتراكم عليَّ الديون . .

وكان يروي القصة التالية : وصلت سفينة إلى جزيرة نائية مجهولة .

وقد شاهد ربّان السفينة التجارية التي رست على الشاطئ عجوزاً تبلغ لحيته الطويلة البيضاء قدميه الحافيتين ، فسأله قبطان السفينة :

– لماذا أتيت إلى هذا المكان ؟

– لأنسى

– لتنسى ماذا ؟

– نسيت ! . .

وقد قصده مرّة شاعر مغمور وراح يشكو إليه ويسأله المشورة .

– ماذا أعمل ؟ هناك مؤامرة لإسكاتى تُحاك ضدى ، فلا كلمة ولا إشارة ولا حديث عنى . ماذا تنصحنى أن أفعل ؟

فأجابه وايلد :

رأيى أن تنضم إلى المتآمرين ! . .

وكان أوسكار وايلد صديقاً حميماً للرّسام المشهور جيمس هويسلر . وذات يوم قرأ وايلد قصيدة جديدة له أمام هويسلر وسأله رأيه فى القصيدة بعد أن ناولها له ليقرأها بنفسه . فأعادها هويسلر وهو يبتسم ابتسامة مبهمة ويقول لوايلد إنها تساوى ثقلها ذهباً .

وقد سمع وايلد رّنة الإخلاص فى صوت صديقه الرسام فارتاح نفساً وغلبه السرور ، ثم فجأة انقلب ساخطاً على هويسلر عندما اكتشف أن القصيدة كان قد كتبها على ورق رقيق خفيفٍ لا يكاد يزن شيئاً . .

وعندما مات فى باريس ودفن فى مقابر الفقراء (بيير لاشيز) أحضروا له قبل وفاته طبيباً كشف عليه وبعد الكشف قدَّم فاتورة لم يكن يملك أجرها وقال لمن حوله :

إنى أموت ميتة فوق مستوى إمكانياتى . .

ولم يستطع بالتالى أن يسدد إيجار حجرته فى الفندق الذى مات فيه ، مما حمل صاحب الفندق على إرسال إكليل من الزّهر وضع فوق نعشه وقد حمل العبارة التالية :

« إلى المستأجر » ! . . .

* * *

سير ونستون تشرشل :

المنتصر فى الحرب العالمية الثانية عندما كان رئيساً لوزراء بريطانيا .

سئل مرة عما إذا كان يعتقد أن حرباً ثالثة ستنشب قريباً فأجاب بقول :

الواقع أن مستر شنويل كان وزيراً للفحم ولم يكن لدينا فحم فى بريطانيا . . .

والآن مستر شنويل هو وزير الحربية . . . إذن . . . . . .

وفى أثناء الحملات الانتخابية فى إنجلترا ، شاعت بين المجتمعات النادرة التالية :

استقل تشرشل هذا الأسبوع سيارة الميجور أتلى زعيم العمال الذى قال لتشرشل لدى إحدى المنحنيات المفاجئة الخطيرة :

أود أن أطرد هذا السائق المتهور الذى يقود السيارة بسرعة جنونيـة . وقد كاد يقتلنى مرتين !

فقال له تشرشل :

كن متسامحاً معه ، وأتح له فرصة أخرى .

استغل برنارد شو نفور تشرشل من الناس ، فبعث إليه يوماً ببطاقتيْ دعوة لحضور مسرحية له ليلة الافتتاح وذيَّلها بالعبارة التالية :

وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقاً ، هذا إذا كان لك صديق . . . .

فرد عليه تشرشل ببطاقة جاء فيها :

آسف جداً ، إذ لا أستطيع لموانع طارئة الحضور الليلة . وسوف أشهد العرض الثانى . . . . إذا كان هناك عرض ثان . . . .

* * *

ذات يوم فى مجلس العموم تحمست سيدة من حزب العمال ، هى عضو فى المجلس ، بعد أن أثارها تشرشل ببروده ، فى موضوع هام مطروح للبحث ، وكانت المناقشات صارخة صاخبة ، فقالت :

لو كنت زوجى لوضعت لك السم فى الشاى ! . . .

ولم تكن السيدة على شىءمن الجمال ، وجهاً أوجسماً ، فرد عليها بابتسامة ساخرة خبيثة :

لوكنت زوجتى يا سيدتى ، لشربت السم عن طيب خاطر ! . . .

ومن أقواله المأثورة :

يروج استعمال الكذب فى الحالات الثلاث الآتية :

- قبل الانتخابات . . .
- أثناء الحرب . . .
- بعد رحلة صيد .

قال ذات يوم عن أحد خلفائه فى الحكم :

– إن الوقت الذى لا يقضيه فى تأمل نفسه فى المرآة ، يكرسه لإهمال واجبات المهمة الملقاة على عاتقه ! . .

أنتقل بالقارئ إلى جولة ثانية ، نعيش فيها بين أعلام النكتة من الفرنسيين . وقد اخترت ثلاثة هم :

فولتير – تريستيان برنار – ساشا جيترى

ڤولتير :

أقام الفيلسوف ڤولتير والكاتب بيرون رهاناً حول أقصر رسالة يمكن أحدهما أن يكتبها للآخر . تاركين لنفسيهما حرية اختيار اللغة . (وبيرون كاتب فرنسي عاصر ڤولتير)

وكان بيرون يستعد للذهاب إلى الريف ، فاستخدم اللغة اللاتينية وكتب رسالة إلى بيرون فحواها وكلماتها باللاتينية :

سأذهب للريف . وكان واثقاً من كسب الرهان . إلا أنه فوجئ بفولتير يرد عليه برسالة أقصر مستعملاً كلمة لاتينية واحدة هى :

اذهب . . . !

فى حديث بين فولتير وأحد أصدقائه ، قال الصديق :

إنها لشهامة منك أن تمدح دائماً فلاناً فى حين أنه دائماً أيضاً ، يذمك . فقال فولتير :

لعل كلينا مخطئ . . . !

فاجأ فولتير عشيقته العجوز مع شاب صغير السن وهما يتناجيان . فندت عن فولتير صيحة بالرغم عنه :

أوه . . . أيها الشاب المسكين . . بالتعاستك ، إنك لم تكن مكرهاً على ذلك . . .

ومن أقواله : إن كل بيت شعر ، وكل عبارة ، فى حاجة إلى شرح وتفسير ، لا يستحقان الشرح والتفسير .

* * *

تريستيان برنار :

الروائى الساخر الأديب ١٨٦٦ – ١٩٤٧ ، كان يقول للكاتب المسرحى الأديب ساشا جيترى :

هل لاحظت التقدم الذى يسجل الجهل هذه الأيام ؟

كان يروى تريستيان فى أحد الصالونات القصة التالية :

كان ذلك فى ليلة كنت أشاهد فيها رواية تمثيلية فى أحد المسارح الباريسية . وكان النعاس يراود عينى وأحاول دفعه فأفشل . وعندما أضيئت الأنوار للاستراحة ، قمت وقصدت مكان حفظ المعاطف وتناولت معطفى عندما كان مدير المسرح يلاحقنى بقوله

– أمنصرف أنت يا سيد برنار ؟

– أجل . . . .

– ولكن الرواية لم تنته بعد ؟

– . . . ومن أجل ذلك أنا منصرف . . . .

كان يستمع لإحدى العجائز تسدى نصائحها لحفيدها بقولها : إنك لن تخسر شيئاً إذا كنت مهذباً فى تصرفاتك .

فقاطعها برنار بقوله للصبى :

لا تصدق هذا ، إنك على الأقل ستخسر مقعدك فى الترام . . .

لم تلق إحدى مسرحيات تريستيان برنار نجاحاً وبرغم ذلك تقدم إليه أحد معارفه فى طلب تذكرة لدخول التياترو فلبىَّ الروائى الساحر طلب الصديق وقال له وهو يناوله بطاقة الدعوة لحضور المسرحية :

يستحسن على سبيل الاحتياط أن تحمل معك مسدساً فالمكان مقفر . . . والحذر واجب فى مثل هذه الظروف . . . .

فى إحدى مآدب العشاء كان الروائى الساحر برنار يجلس إلى جانب شاعرة معروفة بالتعصب لبنات جنسها وبضرورة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة دون أى تمييز للرجل .

وكان تريستيان برنار يستمع ويهز رأسه ويقول « نعم . نعم » واحتار الناس كيف يسكت عن كل هذا الاعتداء على الرجال دون أى تعليق منه على الشاعرة المتعصبة للمساواة ، حتى إذا انتهت ، قام واقفاً وقال لها : سأذهب إلى . .وأشار إلى التواليت المخصص للرجال — فهل تأتين معى . . . .

* * *

ساشا جيترى :

الكاتب المسرحى والممثل والمخرج الفرنسى صاحب مسرحيات ناجحة منها (الحارس الليلى وفضيحة مونت كارلو وباستور وزواج طيِّــب) كان يمثل فى جميع رواياته التى بلغت المائة والثلاثين .

وقد ولد فى سان بطرسبرج من والدين ممثلين وترعرع بين الكواليس . .
وكان على أكبر جانب من الظرف وخفة الروح فى مسرحياته وحديثه .

كان البعض يتحدث عن كاتب تافه سخيف أمام ساشا جيترى فقال أحدهم ، متأثراً لأن رجله سوف تبتر :

رحمة بالمسكين . إن إحدى قدميه أصبحت على حافة القبر فقال ساشا معلقاً : نرجو أن تكون القدم التى يكتب بها . . .

وهذه القصة تذكرنى بقول لحسين الترزى إمام النكتة فى مصر بلا منازع .

كنا جلوساً معه وجاء صديق ينبئنا بأن أحد معارفنا – وكان جاحداً بالنعمة كافراً بكل خير – ومضى الصديق ليقول إن هذا الجاحد قد كُسرت رجله فى حادث :

فقال حسين على الفور : إنشا الله تكون رجله اللى بيرفص بها النعمة . .

تزوج ساشا خلال حياته بخمس زوجات ، واحدة تلو الأخرى بعد الانفصال والطلاق طبعاً . . وكانت أولى زوجاته تروى هذه النادرة :

فى يوم جرى بينى وبين ساشا الحوار التالى :

إنى أحبك ! وأنت ؟

فأجابها ضاحكاً :

إننا متفقان فى حب شخص واحد . . . .

بعد أن أنهى أحد المنتجين السينمائيين زيارته لساشا جيترى فى داره ، اتجه نحو علبة السجائر الكبيرة فى الصالون ، وتناول منها ملء قبضة يده وقال بلا تحرج :

هذه مؤونة الطريق .

فقال له ساشا :

لم أكن أعرف أن منزلك بعيد إلى هذا الحد . . . .

ومن أقواله فى النساء :

من الجنون المطبق منح المرأة نفس الحقوق التى يتمتع بها الرجل . يمكن منحها حقوقاً أخرى . . يمكن منحها – إذا لزم الأمر – أكثر من حقوق الرجل ، لا بأس فى ذلك ، ولكن لا حقوق الرجل نفسها . . . .

وكان زوجاً لجاكلين دولوباك الممثلة ، فلما انتقلت بعد الطلاق لتقيم فى شارع (إيليزيه – روكلو) ، وكان المنزل الذى اختارته لإقامتها يقع قبالة مسكنه ، علّق على ذلك بقوله :

عشنا جنباً إلى جنب ، ثم ظهراً إلى ظهر ، وها نحن الآن نعيش وجهاً لوجه . . . .

* * *

بعد هذه الرحلة الفرنسية ، سوف أصحب القارئ إلى رحلة أبعد ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لنطّلع معاً على روح الفكاهة عند الأمريكان ، من خلال أعلام الفكاهة عندهم . وقد اخترت ثلاثة منهم ، هم على الترتيب التالى : مارك توين ، بوب هوب ، إخوان ماركس .

مارك توين ، ١٨٣٥ – ١٩١٠ :

إنه من أكبر الأدباء الساخرين فى العالم ، حتى إن كثيراً من النقاد يقدمونه على (أرسطوفاليس ورابليه وسرڤانتس وسويفت وأمثالهم)

وفكاهاته ذات طابع عام ، بحيث يتفهمها أى شعب وهذا سر نجاحها .

وقد قال عنه الروائى الأمريكى (أرنست همنجواى) ، إن مارك توين بقدرة أسلوبه وذكائه لخص الأدب الأمريكى كله فى روايته (هكليرى فن) .

سئل مارك توين عن رأيه فى الفيلسوف الألمـــانى Nietgsche نيتشه – هكذا يكتب اسمه – فقال توين لسائله :

تسألنى عن رأيى فيه ؟ هناك حروف كثيرة فى اسمه لا فائدة منها .

وصل مارك توين ذات مرة إلى فندق للمبيت ، فقدم إليه المستخدم ، السجل الخاص بأسماء النزلاء ليكتب اسمه ، فلاحظ أن آخر سطر فى السجل اشتمل على اسم « البارون أونتيل وخادمه » فكتب هو فى السطر التالى له : (مارك توين وحقيبته) . . . .

ذهبت إحدى السيدات إلى مارك توين ، وقالت له إنها متعلقة بالأدب وتود أن تشتغل به ولذلك فقد جاءت إليه لتسأله عن أفضل طريقة للكتابة ، فقال لها على الفور :

من اليسار إلى اليمين يا سيدتى . . . . .

أرسل مارك توين مرة اثنتى عشرة برقية إلى اثنتى عشرة من أكبر الشخصيات فى مدينة هانيبال الأمريكية ، وكانت جميعاً بنص واحد ، هو :

« اهرب ! لقد اكتشف كل شىء »

وفى أقل من ساعة كان الاثنا عشر المعنيون قد غادروا المدينة . . . .

فى حفلة عشاء كبرى ، التفت مارك تـوين إلى السيدة التى تجلس

إلى جواره وقال لها وهو يشير إلى أحد المدعوين :
إننى أكره هذا الرجل الذى يجلس أمامك .
فدهشت السيدة وسألته إن كان يعرف أنه زوجها !
فلم يرتبك ، ولكن ساعفته سرعة خاطره فأجابها على الفور :
طبعاً أعرف ذلك . . . وأنا أكرهه لأنه سبقنى وتزوجك ! . . .
كان على مارك توين أن يتحدث فى نهاية إحدى المآدب الرسمية بإلقاء كلمة ولم يكن راغباً فى الكلام ، فقام ، وقال :
سيداتى سادتى . . شيكسبير مات ، وسويفت مات ، ومولبير مات . . . وأنا لا أشعر بأننى على ما يرام ! . .
ثم جلس . . . .
ومن أقواله اللاذعة :
لاحظت أنه فى باريس ، يتكلم خدم المقاهى الإنجليزية بإتقان ، ولكنهم لا يفهمونها .
كن طيِّباً ، تعش وحيداً .
إذا كانت الموسيقى بلا كلام لا تطرب الكثيرين ، فإن الموسيقى بلا موسيقى ، توغر الصدر .
جلس مع صديق يستمع إلى عازف كمان ، كان أقل من المتوسط فقال لصديقه ، إن هذا العازف ، يعزف كما كان يعزف شيكسبير ، فقال الصديق :
إن شيكسبير لم يكن يعرف العزف !
فقال توين ، ولا هذا أيضاً . . . . ! . .

بوب هوب :

لقد بلغ من مكانة هذا الممثل الفكاهي الكبير فى قلوب مواطنيه ، أن الكونجرس الأمريكى – أيام أزمة كوبا – وجد لديه من الوقت ما يسمح بأن يناقش ضرورة منح وسام ذهبي لبوب هوب واعتباره كما لو كان مَعْلماً من معالم أمريكا ، تفيض فكاهاته على المجتمع بالسعادة والاستبشار .

لم يجد ما يعبر به عن إعجابه بالممثلة الأسوجية الفاتنة ، أبلغ من أن يقول : « إن والدى أنيتا يستحقان جائزة نوبل للهندسة »

وكان يقول عن زوجته الحسناء (دولوريس ريد) التى مضى على زواجه منها ثلاثون سنة ، إن ثلثها أيرلندى ، والثلث الثانى إيطالى ، والثلث الأخير جهاز لكشف الكذب ! . . . . . .

ولم يصل فى تعليمه إلى أبعد من السنة الأولى الثانوية . وبرغم ذلك فقد منحته جامعة جورجتاون درجة علمية فخرية تقديراً لعمله المستمر . ولما قدموا له براءة الدرجة العلمية المكتوبة باللغة اللاتينية ، قال : إنى شديد اللهفة على العودة إلى المنزل لكى يقوم ابنى المتخرج من الجامعة نفسها ، بترجمة مضمون البراءة .

وابنى هذا ، بوسعه أن يكتب إلينا ، من أى مكان هو فيه بخمس لغات مختلفة ، ليطلب نقوداً . . . . .

ومن أقواله : لقد قلقت جداً لكثرة ما قرأت من المقالات والأبحاث عن ضرر التدخين وما يعقبه من ويلات بصحة الإنسان ، مما جعلنى

أتوقف تماماً . . . . . عن قراءة الصحف . . . . .

في أثناء مرور بوب هوب بميكسيكو عرفوه بمصارع الثيران المحلى الشهير فى المنطقة ، وقد قال لبوب هوب بكل ثقة واعتزاز واعتداد :

إنك تصافح من قابل أكثر من أربعمائة ثور . . فرد عليه بوب يقوله : إنك ولا شك تثير غيرة كل البقرفى مكسيكو . . .

وهو يروى عن الممثل الفرنسى الشهير جان – بول – بلموندو ، أنه عندما كان ضيفاً على صديقه الممثل جان – كلود ، صادف عند دخوله المنزل كلباً ضخماً استقبله بنباح متواصل ، فتردد بلموندو فى الدخول ، فصاح مضيفه كلود :

تقدم ولا تخف ! ألا تعرف المثل القائل ، إن الكلب الذى ينبح لا يعض !

فأجابه بلمـوندو : أنا أعرف هذا المثل ، ولكن هل كلبك يعرفه ؟ . . .

* * *

إخوان ماركس :

لقد ظل الإخوة الثلاثة : تشيكو وهاريو وغروتشو يبسطون ظلهم على السينما الضاحكة فى أمريكا طوال عشرين عاماً .

فى أحد أفلامهم قدّم غروتشو قلم الحبر إلى تشيكو ليوقع به على عقد عمل . فيجيبه أخوه تشيكو

ولكنى لا أعرف الكتابة !

فيقول له أخوه : لا بأس ولا أهمية لذلك ، فليس فى القلم حبر.

عندما كان الإخوة ماركس فى المكسيك لحضور مهرجان سينمائى ، وكانوا ضمن وفد هوليورد ، جاء رئيس تشريفات القصر الجمهورى وأبلغهم الرسالة التالية :

يشرفنى كثيراً أيها السادة ، أن أنقل إليكم أن رئيس الجمهورية سيستقبلكم غداً فى الساعة الخامسة .

فما كان من غروتشو إلا أن قال :

ونحن كذلك . . .

وعندما رأى الممثلة مانسفيلد ذات الصدر الرائع قال :

إن حياة الممثلة تبدأ عندما تجد صعوبة فى إدخال ثدييها داخل البلوزة . . وتنتهى حياة الممثلة عندما لا يعود فى استطاعتها أن تحشر نفسها فى جونيلتها . . .

وكان غروتشو دائم الشكوى من الأمبريزاريو (وهو المتكفل بتقديم ممثليه للفيلم والتعاقد معهم مقابل نسبة له) .

وقد قال مرة إنه أوصى فى وصيته بأن تحرق جثته ، على أن يُعطى عشر كمية الرماد إلى (الأمبريزاريو) طبقاً للعقد الموقع فيما بيننا . . . . .

* * *

والآن ، سوف نتجول فى رحلة أخرى ، نجوس خلالها بين مختلف المهن والوظائف ، لنلتقط الفكاهات الذائعة من أهل كل مهنة ، والتى تنم عن خفة روح قائليها ، مهما كانت مراكزهم ، فالقافية كما يقولون ، تحكم .

سأل السائح الأمريكى الذى يريد أن يعبر بحيرة طبرية صاحب

زورق عن أجرة العبور بالزورق .

– مائة دولار !

– إنه مبلغ مرتفع . . .

– يمكن يا سيدى أن يكون المبلغ مرتفعاً ، ولكن تذكر يا سيدى أن البحيرة تاريخية وأن السيد المسيح سار على الماء ههنا . .

فقال السائح الأمريكى :

لا عجب . . . فهو عندما رأى أسعاركم الفاحشة ، فضل أن يلجأ إلى وسائله الخاصة . . .

الفكاهة بين الموسيقيين :

يروى ملك الجاز (لويس أرمسترونج) أنه كان فى مطلع حياته فى حال من الفقر لم تسمح له بأن يمتلك ساعة من أى نوع . فكان إذا أراد أن يعرف الساعة فى الليل يلجأ إلى آلة الكورنيت ليعزف عليها بالنفخ العالى الذى يوقظ من غير شك أحد الجيران ليقول له :

« ألا تخجل من العزف فى الساعة الثالثة صباحاً » .

كان أحد الموسيقيين الأمريكيين (جورج آلنتى) ابتكر عرضاً للباليه يتفق مع المعيشة الآلية المعاصرة ، فاستخدم فى الأوركسترا عشرة بيانوات أفقية الأوتار وستة من آلات تحدث الصوت بمطارق تطرق على قضبان من الخشب وصفارة إنذار وجرس من أجراس رجال الإطفاء ومروحة طائرة وبضعة أبواق سيارات نفخية . فلما تزايد العزف عنفاً ، أخذ الحاضرون يتململون ويتذمرون ، وقد شاع بينهم الهياج ، واستمر الحال

ثمانى دقائق على هذا الحال وإذا برجل من المشاهدين يجلس فى المقاعد الأمامية يرفع منديله الأبيض على رأس عصا ، فانفجر المشاهدون فى الضحك وسكت العزف . . . .

كان أحد مديرى المسارح الاستعراضية الموسيقية فى مارسيليا ، خفيف الروح حاضر البديهة . وكان مسرحه يعرض استعراضا فاشلاً وكان المشاهدون فى الصالة يعدون على الأصابع ولكنهم أخذوا يصيحون ويهتفون ويحدثون جلبة عالية ، فما كان من مدير المسرح إلا أن دخل فى المكان المخصص للملقن ورفع صوته موجهاً القول للجمهور قائلاً :

ليعلم الجمهور أننا نحن عمال المسرح أكثر منكم عدداً ، فاحذروا عاقبة ما تصنعون . . .

الفكاهة بين السياسيين :

كان تاليران رجل الدولة الفرنسى ومن أدهى رجال السياسة والدبلوماسية فى فرنسا وشغل منصب وزير الخارجية أكثر من مرة ، من أكثر الناس ظرفاً ، ولقد تعرض كثيراً للسخرية من أجل عرجه .

لقد أحسنت وصفه مدام ده ستال ، وكانت معجبة لحسناته وسيئاته على السواء ، عندما قالت فى وصفه :

موريس هذا الطيب ، يشبه كثيراً الدُّمى الصغيرة التى تمثل الجنود ويلهو بها الأطفال . . رءوسها من فلين وسيقانها من رصاص ، مهما قلبتها ، فإنها دائماً تقف على أقدامها . . . . .

وهى تقصد أنه بالرغم من تاريخه الثورى استطاع أن يحظى بتقدير الملكية . . .

سألته ذات يوم سيدة في عينيها حَوَل ، وهي تُعرِّض بعرجه لإيلامه :
كيف تسير الأمور ؟
فأجابها على الفور : كما ترَيْن . . . . !
عندما اشتدت العلة على تاليران ، ولم يكن على تفاهم مع رجال الأكليروس ، قال أحد رجال البلاط في حضور الملك لويس الثامن عشر :
لا أدرى ماذا يستطيع تاليران أن يصنعه مع الكهنة لتنظيم المأتم :
فقال الملك : لا خوف عليه ، فإن تاليران قد عرف كيف يعيش ، ولا بد أنه سيعرف كيف يموت . . . !
عندما أعلن الملك لويس الثامن عشر عن صدور دستور جديد كان على المتخصصين أن يسرعوا في وضعه ، وعند عرضه على الملك استشار تاليران رئيس الحكومة المؤقت آنذاك ، فقال تاليران :
إني ألاحظ ثغرة في مواد الدستور .
فسأله الملك عن أي ثغرة تكون ، التي لاحظها .
فأجاب تاليران بأن النص الخاص برواتب أعضاء المجلس النيابي جاء خلواً من تحديد أي مرتب لهم
فقال الملك : ذلك لأني أريد أن أدفع مقامهم في نظر كل الجهات والجميع فقال تاليْران : هذا صحيح يامولاي . . . ولكن المجانية دائماً تكلف كثيراً . . . . .

* * *

عندما انتهت مدة رئاسة أرمان فاليير (١٩٠٦) للجمهورية الفرنسية ، سلَّم مقاليد الحكم لخلفه في الرئاسة ريمون بوانكاريه .

وقد قال له وهو يصافحه :

المنصب لا بأس به ، ولكن ليس به مجال للتقدم والترقى . . . . !

من أقوال جاستون دوبيرج :

نحن نحسب وعودنا مجاملات ، فى حين يعتبر المرشحون الذين انتخبونا أن مجاملاتنا وعوداً .

كان ميلران رئيساً للجمهورية فى ظل الجمهورية الثالثة . وكان سيئ الحظ فقد هاجمته جميع الأحزاب وانتقدت الحكم فى عهده . وعندما كان يمر يوماً فى حى من الأحياء سمع هتاف الجمهور فى الشارع : (يحيا ميلران !) . فتمتم لنفسه :

هذا أمر غريب ومثير للعجب . . . . أما يزال فى باريس أناس لا يطالعون الصحف . . . . . !

حدث فى مارسيليا عندما كان جنرال ديجول يستعرض قادة قوات فرنسا الحرة ، أن قدموا له عشرة بين كولونيل وقومندان من المحليين وكانت الأشرطة الجديدة تلمع على أذرعهم وأكتافهم ببريقها .

وعندما بلغ آخر الصف ، رأى جندياً برتبة سرجان ، فتقدم منه ديجول قائلاً ، ألم تزل جاويشاً ؟

لماذا يا بنى ! ألا تحسن الخياطة . . . .

فى آخر عام ١٩٥٩ طلب أحد نواب الجمعية الوطنية مقابلته ليقول له : إن أصدقائى لا يوافقونك على سياستك فى الجزائر .

فأجابه ديجول بكل ازدراء : استبدلهم . . !

كان ديجول يحادث أحد السفراء الأجانب عن صعوبة إيجاد

متضامن فرنسا ، واحتد فى حديثه ثم صاح قائلاً :

كيف السبيل إلى حكم بلاد فيها ٢٥٨ نوعاً من الجبن . . . !

تولى رئاسة الجمهورية فى فرنسا عام (١٨٧٩) جول جريڤى وكان طيب القلب مرحاً ولكن كانوا يعيبون عليه شدة بخله .

وقد روى عنه الصحفى هنرى روشفور فى (الأنترانزيجان) القصة التالية :

« ألقى القبض على شاب فى ملابس السهرة الرسمية ، حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، متلبساً بسرقة رغيف خبز من فرن كان ساعتها يفتح أبوابه ، فلما استجوبه رجال الشرطة ، أجاب : « إنها حالة الضرورة القصوى Force Majeur فقد كنت أتناول العشاء على مائدة رئيس الجمهورية . . . . !

فأطلق البوليس سراح المسكين على الفور . . . . !

وقيل إن من كان فى المخفرقاموا بجمع مبلغ قدموه إليه . . . . ليسد به رمقه ، بعد جوع شديد . . . .

الفصل التاسع

أعلام الفكاهة عند العرب

العرب أمة غنية بأفانين القول ، حتى لقد تضمنت علومهم علماً ، أطلقوا عليه اسم (علم الكلام)

وهم فى جميع أطوار حياتهم ، كانت الفكاهة على ألسنتهم تجرى وتفيض كأنها النهر الثرى .

فلقد رزقهم الله بسطة فى سرعة الخاطر ، وحضور البديهة . وكانوا كلما ارتقوا فى حياتهم ، ارتقت فكاهاتهم : نثراً وشعراً ورجزا ، وانتشرت وذاعت وملأت قصور الخلفاء والأمراء ، وتناقلها المولعون بحفظ هذا اللون من الآداب فى كتب ومصنفات عديدة .

وكلما فاضت الرفاهية فى القصور العامرة بكل غال وثمين ، ملأت الفكاهة والمجون تلك القصور مما كان يتطلبه العصر من فنون القول الجميل المختار المفرح الباعث على الاستبشار .

وكثر فى بلاط كل خليفة أو أمير ، المشتغلون بوظيفة ابتعاث الضحك وبمهمة الإضحاك ، إلى جانب ما كان يزخر به البلاط من فاتنات شاعرات عازفات راقصات ، كن هن دوافع الفكاهة والضحك وبواعث المرح والحبور .

وكان يطلب من الشعراء القول المرتجل فى عازفه أو جارية ، ويجزى الشاعر إن أحسن .

قال أبو العتاهية فى مجلس من هذه المجالس شعراً فى جارية :

لم يُبق منى حبهـــا ماخلا حشاشة فى بدنٍ ناحـــل

يا من رأى قبـلى قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

والعرب ، وأهل الفكاهة والظرف منهم بصورة خاصة ، أكثر الناس اختصاراً فى القول ، وأدقهم فى إصابة الهدف وأوضحهم فى عرض الشئون ، وألمسهم بموقع الداء .

حلَّت فاقة قاصمة بالشاعر أبى الشمقمق وهو الظريف الفطن . وقد لزم داره بعد أن رثَّت ثيابه وبليَتْ وأشفق من أن يقابل بها فى الطريق أحد معارفه . وقد زاره صديق وراح يخفِّف عليه بقوله : إن العارين فى الدنيا ، هم الكاسون فى الآخرة .

فقال : إن صح ذلك فسوف أكون صاحب محل قماش يوم القيامة . .

واختصار القول فى النكتة أعظم من أى باب آخر . لأنها تقال لإصلاح حالة أو علاج أمر ينقده والتهكم عليه والسخر منه سخرية للذع ولا تجذع ، وبإيجاز كأجزاء الدواء ، محسوبة مقاديره وموازينه ، حتى لا تزيد على العليل علته ، ولا تثقل عن وزن (البرشامة) حتى لا يصدعنها المريض ، أو يحسّ مرارتها بعد أن طواها غلاف رقيق .

* * *

وكان (كارليل) يقول فى كتابه (الأبطال والبطولة) إن الأقدمين كانوا أسرع إلى إدراك الحقائق منا نحن . . وكانوا بدلا من اللغو واللغط فى

شأن الكائنات ، ينظرون إليها وجهاً لوجه .

أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه ، وأدرك لسرِّه فى خلقه . . وربما صح هذا القول فى العرب عن غيرهم من الأمم . وقد يرجع إيجازهم فى القول إلى انشغالهم بشئون الحياة العسيرة التى كانوا يحيونها فى بداوتهم الأولى ، فهم فى شغل بمطالب العيش ومطالب الحياة ، والعمل الدائب على رد عدوان الطبيعة وبنى البشر عنهم على وجه الدوام .

مرَّ أعرابى ضرير على حى من الأحياء وكان يردد قوله :

آه لو أدركتم مصيبة العمى

وسمعه أعور فقال له .

إنى أدركت نصف المصيبة . .

ومنعاً من أن ينفرط بين أيدينا عقد الحديث عن أعلام الفكاهة عند العرب . وخوفاً من أن نَضَل بين مسالك القول ، نبدأ فى هذه الجولة مع القارئ ، بذكر نماذج لأعلام الفكاهة والظرف والإمتاع عند العرب ، ثم نأتى على الأبواب التى كانت هدفاً لسخرياتهم ولواذع كلامهم ونوادرهم ، مع كثير من أهل الحرف . ونختم جولتنا بمتفرقات لا تخضع لباب معين أو يشملها تحديد موصوف

* * *

كان الجاحظ أطولهم باعاً ، وأغزرهم علماً ، وأعمقهم رأياً وفكرة . وقد أتينا على ذكر كثير من أقواله فيما مرّ بنا .

ونعرض فيما يلى إلى أبى دلامة وأشعب وأبى العبر ، دون أن نطيل القول عملا بحب العرب للاختصار ، كلما وجب الاختصار .

وزعموا أن الحجاج خطب فأطال ، فقام رجل من الحضور فقال : الصلاة ! ، فإن الوقت لا ينتظرك ، والله لا يعذرك . فأمر الحجاج بحبسه . فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون ، وسألوه أن يُخلي سبيله . فقال الحجاج لهم ، إن أقرّ بالجنون خلّيته . فقال الرجل لأهله : معاذ الله . لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى . وبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .

أبو دلامة :

دخل الشاعر أبو دلامة ذات يوم على المهدى فى مجلسه وعنده جماعة من بنى هاشم ، فبادره الخليفة بقوله :

إن لم تهج أحداً ممن فى هذا المجلس يا دلامة ، لأقطعن لسانك .

فجال أبو دلامة ببصره فى القوم ، وحار فى أمره ، فصار كلما نظر إلى واحد غمزه وأفهمه أن عليه رضاه . . فما كان إلا ليزيد فى حيرته ، حتى رأى أن أسلم ما يفعله هو أن يهجو نفسه فقال فى ذلك :

ألا بلـــغ لـــديك أبا دلامهْ   فلست من الكرام ولا الكرامهْ
جمعت دمامةً وجمعت بؤساً   كذاك اللؤم تتبعه الدمامهْ
إذا لبس العمامة قلت قرداً   وخنزيراً إذا نزع العمامهْ

* * *

وعندما هبط المهدى العراق ، كان أبو دلامة بين من امتدحوه من الشعراء . فقد قال :

إنى نذرت لئن رأيتك قادماً   أرض العراق وأنت ذو وفر
لتُصلِّين على النبى محمـــد   ولتمـــلأن دراهماً حجـــرى

فقال المهدى : صلى الله عليه وسلم

فقال أبو دلامة :

ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية . . فأمر له ببدرة صُبت فى حجره .

كان أبو دلامة يكره علىّ بن سليمان . واتفق أن خرج المهدى فى رحلة إلى الصيد وكان أبو دلامة وابن سليمان يرافقانه . وقد اصطاد المهدى ظبياً واصطاد علىّ كلباً من كلاب الصيد التى كانت تصاحبهم .

وكانت فرصة مواتية سرعان ما انتهزها أبو دلامة ليقول :

قــــد رمى المهدىّ ظبيـــاً ... شـــك بالسهم فــــؤاده
وعـــلى بن ســـليمــان ... رمى كلبـــاً فصـــابه
فهنيئـــاً لهمـــا كلّ ... فـــتى يأكـــل زاده

ولد لأبى دلامة ابنة ليلا ، فأوقد السراج وجعل يخيط رقعة على هيئة وعاء من جلد رقيق ؛ فلما أصبح طواها بين أصابعه واستأذن فى الدخول على المهدى فأذنوا له فأنشده شعراً يمتدح فيه آل عباس وأقعدهم فوق شعاع الشمس .

فاستحسن المهدى ما أنشد ثم سأله :

ما الذى غدا بك إلينا ؟ قال : ولدت لى جارية يا أمير المؤمنين .

فسأله إن كان قال فيها شعراً ؟ فأجاب منشداً ؟

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوءٍ ... إلى أولادهـــا وأبٌ لئيم

فسأله المهدى وهو يضحك مما قال : بماذا أعينك على تربيتها ؟

فقال أبو دلامة : أن تأمر بملء هذه الرقعة مالا . فاستصغر المهدى الرقعة فقال أبو دلامة : إن من لا يقنع بالقليل لا يقنع بالكثير ، ثم فرد الرقعة المطوية وإذا بها تملأ صحن الدار فضحك المهدى وأمر بأن تملأ مالا كما وعد . .

* * *

أشعب :

كان – كما قال مؤرخوه – أحلى الناس مفاكهة . وكان أهل المدينة يقولون : تغير كل شيء على وجه البسيطة إلا مِلَح أشعب .

قيل لأشعب : كم كان أصحاب النبي عليه السلام يوم بدر

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر رطلاً . .

فقد أحصاهم بما كانوا يحملون من مؤونة الجيش . للأكل . .

وسألته إحدى صديقاته أن يشترى لها خاتماً لتذكره به .

فقال لها : اذكرى أنك سألتنى خاتماً فمنعتك . .

كان يساوم بائع سهام على سهم اختاره فقال البائع : أبيعه بدينار . فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت به طائراً وقع مشوياً بين رغيفين ما اشتريته بدينار . .

قيل لأشعب : لو أنك حفظت الحديث حفظك النوادر لكان أولى بك . فقال ، لقد فعلت .

فسألوه : فماذا حفظت من الحديث ؟

قال : حدثنى نافع عن ابن عمر ، وفى رواية أخرى عكرمة عن ابن

عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : من كان فيه خصلتان كُتِبَ عند الله خالصاً مخلصاً .

قالوا : إن هذا حديث حسن . فما هما الخصلتان ؟

قال : نسي نافع واحدة ، ونسيت أنا الأخرى . .

سئل أشعب ، إن كان رأى من هو أطمع منه فأجاب :

أجل . كلبة قوم شاهدتها تتبع شخصاً يمضغ علكاً وابتعدت ما يزيد من الفرسخ فى أمل أن يرمى لها بشيء مما يأكل . .

أهدى رجل من بنى لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجاً (بالوظة) وكان أشعب عنده ، فدعاه إلى الأكل منها ففعل . فسأله إسماعيل كَيف وجدها ، فقال :

امرأتى طالق، إن لم تكن قد عُملت قبل أن يوحى ربك إلى النحل (لخلوّها من السُّكَّر) .

كان أشعب يختلف إلى جارية فى المدينة ويظهر لها العشق . إلى أن سألته يوماً سلفة نصف درهم فانقطع عنها . . وكان إذا لقيها فى الطريق سلك طريقاً آخر . فصنعت له نشوقاً وأقبلت عليه، فسألها : ما هذا؟ قالت : نشوق عملته لك لعله يذهب عنك هذا الفزع الذى أَلَمَّ بك فقال أشربيه . إنه للطمع ، فلو انقطع طمعك انقطع فزعي وأنشد :

اخلفى ما شئت وعدى　　　وامنحينى كل صدِّ
قد سلا بعدك قلبي　　　فاعشقى من شئت بعدى
إننى آليت لا أعشق　　　من يعشق نقدى

* * *

أبو العِبَر :

كان أبو العِبَرَ ظريفاً ، بارع الحيلة ، مولعاً بقلب المعانى والألفاظ شعراً ونثراً . . وقد كتب ذات يوم إلى أحد أصدقائه :

أما بعد ، فأحكم بنيانك على الرمل ، واحبس المـاء فى الهواء ، حتى يغرق الناس من العطش ، فإنك إن فعلت ذلك أمرت لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ، بعد خصم سبعة دوانيق من كل درهم (أى أنه لا ينال من ذلك دانقاً واحداً) . . .

وكان أبو العبر هذا يتردد وهو حدث مع أترابه على رجل يعلمهم الهزل ، فيقول لهم : إن أول ما تريدون ، قلب الأشياء . فكانوا يسألونه إذا أصبح : كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وكان إذا دعاهم إليه بقوله : تعالوا ، تأخروا إلى خلف . .

وكان لهذا الرجلِ أرزاق تتطلب كتابات لها فى كل سنة . فكتب مرة كتاباً وأبو العبر معه . فلما فرغ منه ، ووقعه ولم يبق غير الختم ، قال لأبى العبر ، اجعل عليه التراب ليجف ، وناوله إياه . فمضى هذا فصبَّ عليه الماء فأتلفه . فغضب الرجل وسأله : لماذا فعل ما فعل ؟ فأجاب أبو العبر

ما نحن فيه طول النهار من قلب الأشياء . .

فكان رد الأستاذ المعلم المسكين :

والله لا تصحبنِّى بعد اليوم فقد أصبحت أستاذ الأساتيذ

* * *

نوادر لظرفاء العرب عن البخلاء :

قال الرسول الكريم : (إياكم والشُّح ، فإن الشُّح أهلك من كان قبلكم . والبخل جامع لمساوئ القلوب ، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء) .

وقيل : بخلاء العرب أربعة هم : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان .

فأما الحطيئة ، فقد مر به رجل وهو على باب داره ، وبيده عصا ، فقال الرجل : أنا ضيف .

فأشار الحطيئة إلى العصا قائلا : لِكعاب الضيفان أعددتها . .

وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان كثير الفحش عليهم . نزل به مرة ضيوف فأطعمهم تمراً وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه . .

وأما أبو الأسود الدؤلى ، فتصدّق على سائل بتمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها . . فقال أبو الأسود لو أطعنا المساكين فى أموالنا ، كنا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان فقد أجاب على من سأله : لم لا تنفق ومالك عريض . فأجاب : لأن الدهر أعرض . . . .

* * *

استأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل إنه محموم ، فقال : كُلوا بين يديه من طعامه ، حتى يعرق . .

قال الهيثم بن عدى : نزل على أبى حفصة الشاعر ، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ، ثم هرب مخافة أن يلزمه إطعامه فى تلك الليلة .

فخرج الضيف ، واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يأيهــا الخارج من بيتــه وهارباً من شــدة الخــوف
ضيفك قد جاء بزاد لــه فارجع وكُن ضيفاً على الضيف

غلب الجوع على امرئ ذات يوم فمضى إلى دار أحدهم ليتغدى عنده . فلما وصل إلى باب الدار ، أبصر غلامه ، فسأله عن سيده ، فقال الغلام : والله لن أدلك عليه إلا إذا أعطيتني كسرة خبز . . فولىَّ الرجل هارباً من فوره . .

رُوى عن بخيل أن ضيفاً استأذن عليه ، وكان بين يديه خبز ، وإناء فيه عسل . فسارع إلى رفع الخبز ، وبينما هو يرفع العسل دخل الضيف ، فظن البخيل وقد أخذ على غرة ، أن الضيف لن يأكل العسل بلا خبز . فسأله إن كان يأكل العسل بلا خبز فأجابه بالإيجاب ، وراح يلعق العسل لعقاً . فذعر البخيل وصاح ، مهلاً يا أخى ، والله إنه ليحرق القلب . فقال الضيف :

نعم . صدقت . ولكنه يحرق قلبك أنت . .

قال بخيل لخادمه : هات الطعام وأغلق الباب فقال العبد الرقيق : هذا خطأ يا مولاى . . فإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام .

فسُر منه سيده وقال :

أنت حر لوجه الله ، لوفرة معرفتك . . .

* * *

نوادر ظرفاء العرب عن المغفلين :

اختصمت بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ، ادعى كل فريق أنه منهم . فقال هنبقة (وقد تكون (هنبكة) المسموعة هذه الأيام ، مشتقة من اسمه) . . قال ، نلقى به فى الماء ، فإن طفا فهو من طفاوة ، وإن رسب فهو من راسب . . فقال الرجل : إن كان ذلك حكمكم فلست من الطائفتين . .

ومن لطائف المنقول عن المغفلين ، أن أعرابياً صلى خلف الإمام فى الصف الأول ، وكان اسم الأعرابى مجرماً . فقرأ الإمام : « والمرسلات عُرفاً » فلما بلغ إلى قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » تأخر الأعرابى إلى الصف الأخير . ثم قال الإمام « ثم نتبعهم الآخرين » فرجع إلى الصف الأوسط ، ووصل الإمام إلى قوله : « كذلك نفعل بالمجرمين » . فولىَّ صاحبنا هارباً وهو يردد . والله ما المطلوب غيرى ! . .

سأل حمزة بن بيغى يوما غلامه وكان أحمق : أى يوم صلينا الجمعة بالرصافة . ففكر الغلام طويلا ثم أجاب : كان فى الأغلب يوم الثلاثاء ! .

خرج جماعة من بنى غفار فى البحر ومعهم رجل مغفل . ففاجأتهم عاصفة هوجـاء يئسوا معها من الحياة ، فأعتق كل واحد منهم مملوكاً أو مملوكة . أما ذلك المغفل فقال : اللهم أنت تعلم أنه ليس لى مملوك ولا مملوكة ، ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم . .

ضرب واحد من شريكين فى عمل ، عبداً لهما . فلما أنكر عليه شريكه ضربه للعبد ولامه فى ذلك ، كان رده :

كنت أضرب فى حصتى . .

روى الجاحظ قال : مررت بمعلم كُتاب من الحمقى وهو يقرئ صبياً : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . . » فقلت له : ويحك قد أدخلت سورة فى سورة ! . فقال إذا كان أبوه يدخل شهراً فى شهر (يُغالط) فأنا أيضاً أدخل سورة فى سورة . ومادمت لا آخذ شيئاً ، فلن يتعلم ابنه شيئاً ! . .

قال حيَّان بن غضبان العجلى ، وقد ورث نصف دار أبيه : أريد أن أبيع نصف حصتى من الدار ، وأشترى الباقى ، فتصير الدار كلها لى . .

ومن ظريف ما يروى عن الحمقى والمغفلين ، أن أحدهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة ، وكان قد نما خبر بأن المهدى قد مات ، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك . فقال الرجل رافعاً صوته بين الحضور : « مات الخليفة أيها الثقلان . . » فقالوا هذا أشعر الناس ، فإنه نعى الخليفة إلى الإنس والجن فى نصف بيت (سورة الرحمن : سنفرغ لكم أيها الثقلان)

ومدّ القوم أبصارهم وأسماعهم إليه فقال :

« فكأننى أفطرت فى رمضان »

فضحك الناس واشتهر بينهم بالحمق . .

وصلى أعرابى خلف إمام صلاة الصبح ، فقرأ الإمام سورة البقرة . وكان الأعرابى مستعجلا ففاته مقصوده . فلما كان من الغد بكر إلى المسجد فأخذ الإمام يقرأ سورة الفيل .

فقطع الأعرابى الصلاة وولىَّ هارباً ، وهو يقول :

« بالأمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف نهار . واليوم تقرأ سورة الفيل ، فما أظنك تفرغ منها إلى الليل » . .

سمع أحد الحمقى أن صوم يوم عرفة يعدل صيام سنة ، فصام إلى الظهر وقال : يكفيني ستة أشهر . .

* * *

قال رجل لحكيم : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل . فأجاب الحكيم : لأن الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد فى حمله ، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله

دعت فتاة حبيبها أبا الحارث وتحدثت إليه ساعة من الزمن ، فأحسّ بالجوع فطلب طعاماً . فعجبت لطلبه قائلة : أليس فى وجهى ما يُلهيك عن الأكل ؟ فأجابها : جعلت فداءك ، لو أن جميلا وبثينة لبثا معاً زمناً لا يتناولان فيه طعاماً لأنشب كل منهما أظافره فى وجه صاحبه . .

بنى بعض أكابر البصرة داراً ، وكان فى جواره بيت لعجوز لا يساوى أكثر من عشرين ديناراً . وكان محتاجاً إليه فى توسيع الدار . فبذل لها فيه مائتى دينار فلم تبعه . فقيل لها إن القاضى سوف يحجر عليك بسفهك ، حيث ضيعت مائتى دينار ، لما يساوى عشرين ديناراً .

قالت : لم لا يحجر على من يشترى بمائتين ما يساوى عشرين ديناراً ؟

فأفحمت القاضى ومن معه ، وتركوا البيت لها حتى ماتت .

حمل إلى المأمون رجل ادَّعى النبوة ، فقال له :

ألك علامة على تنبؤك ؟

قال : إنى أعلم ما فى نفسك .

فقال له المأمون : وماذا فى نفسى ؟

فقال فى نفسك أنى كاذب .

فأمر المأمون بسجنه بعد أن قال له إنه صدق فى قوله . وأقام بضعة أيام فى السجن ، أخرج بعدها وجاءوا به إلى الخليفة الذى سأله :

هل أوحى إليك بشيء وأنت مسجون ؟

– لا

– ولم لا ؟

– لأن الملائكة لا تدخل السجون . . فعفا عنه الخليفة . . .

قيل لأحد البدو من الأعراب ، بعد أن قدَّموا إليه مَرَقاً : ما اسم المرق عندكم ؟ قال : السَّخين . فقيل له ، فإذا برد . فأجاب : وكيف ندعه يبرد ؟ .

قُدِّم لأعرابى باذنجان وكان يكرهه ، فلم يرقه طعمه ، واضطر لأكله مرغماً . ولما قامت الصلاة سمع الإمام يقرأ ، « حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فقال الأعرابى ، والباذنجان . . .لا تنسه أصلح الله شأنك . . وقالوا له إنه يحلو إذا كان محشوًا لحماً وأرزاً فقال سيبقى كما هو ، حتى لو حشوه توبة ومغفرة . .

روى الجاحظ أن سائلا وقف بقوم وقال لهم إنه جائع ، فكذبوه ، فقال لهم :

– جربونى فى رطلين من اللحم مع رطلين من الخبز . .

اشتهر لص باسم (البـازى الأشهب) على عهد المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية . وكانت له فى السرقة كل غريبة . وكان مسلطاً على أهل

البادية ، وبلغ من براعته أنه سرق وهو مصلوب ، ذلك أن ابن عبّاد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا إليه . فبينما هو على خشبته على تلك الحال ، إذ جاءت إليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقلن : « لمن تتركنا نضيع بعدك » .

وإذا ببدوى على بغل ، وتحته حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدى ، أنظر فى أى حالة أنا . ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك » .

فسأله الرجل : وما هى ؟

قال : أنظر إلى تلك البئر ، لما أرهقتنى الشرطة ، رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال فى إخراجها . . وهذه زوجتى وبناتى يمسكن بغلك فى أثناء ما تخرجها » .

فعمد البدوى إلى حبل ، ودلّى نفسه فى البئر ، بعد ما اتفق على أن يأخذ النصف منها ، فلما وصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل ، وبقى البدوى حائراً يصيح ، وأخذت الزوجة البغل وفرت مع بناتها . ولما سبَّب الله له شخصاً أنقذه : سأله عن حاله ، قال : « هذا هو الفاعل ، احتال علىَّ حتى مضت زوجته بأثوابى وأسبابى »

ورفعت القصة للمعتمد فأحضر البازى الأشهب وسأله : كيف فعلت هذا وأنت فى قبضة التهلكة .

فقال له ، يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة ، خلَّيت ملكك واشتغلت بها . ومازال به حتى أصلحه وضمه إلى حرسه .

مما مر بنا من نوادر ظرفاء العرب ، فى عيوبٍ ألمت بمن حولهم ، فسلَّطوا عليهم أنماطاً من القول المنثور ، أو الشعر المنظوم ، تلمس مبلغ ما

توفرَّ للعرب من قدرة على جس موضع الداء ، وتحليل مأتاه والتندر بما وعاه ، فى اقتدار تقصر عنه الكاميرا والكاريكاتير .

أما الكاميرا فلأنهم يرسمون صورة واضحة مطابقة لأصل صاحبها ويرسمون معها ما حولها ، فى حين تعجز الكاميرا الحقيقية عن رسم ما هو أكبر من الشخص .

وأما الكاريكاتير فلأنهم أتقنوا إتقاناً فطريًّا فن المبالغة ، الذى هو قوام الكاريكاتير ، كما أتقنوا فن المفارقة ، الذى هو قوام الضحك ، فجمعوا بذلك عناصر فن المفاكهة التى تطير من خفتها بجناحين من مفارقة ومبالغة ، لتشيع الفرحة فى قلب من يستمع إلى رفيف هذه الأجنحة الطائرة ، المحلِّقة فى جو المجون .

ولعل من يتمعن فى هذه النوادر جميعاً ، سوف يعثر على سلك رفيع يتخللها كلها ، ما كان منها رواية واقع ، أو رواية خيال ، وسوف يشهد من خلال تحليله أو تعليله ، بدائع من سرعة الخاطر ، وروائع من ذكى البداثه ، التى تنقذ صاحبها إن حل به ضيق أو وقع فى حيرة .



الفصل العاشر

أعلام الفكاهة في مصر

كانت مصر ولم تزل ، منبع النكتة ومَقيل الفكاهة . ومثلما يجرى النيل ويشق أرض الوادى ، ويفيض على جانبيه بالخير والبركات ، كذلك كانت النكتة المصرية ولم تزل ، ثرية ذكية ، تروى البعيد والقريب ، وتتناقلها بلدان عربية قريبة وبعيدة .

كنت أصطاف فى العشرينات (١٩٢٧) فى لبنان وسوريا . وكان المصريون الذين يصطافون فى هذين القطرين الشقيقين ، يعدون على الأصابع ، ومن القلة إلى حد أن الصحف فى مصر كانت تكتب فى أظهر مكان منها عن سفرهم وعودتهم وعن تنقلاتهم فى البلدين ، كما تكتب الصحف اليوم عن الأقمار الصناعية واتجاهاتها والتحامات سفن الفضاء ، إلى آخر هذا الفتح العجيب .

وكنت ألاحظ أينما حللت فى الفندق أو المقهى أو المتاجر ، أنهم يرددون على مسمعى جملة ، (إحكى يا مصرى) . ولما استعلمت عن ذلك قيل لى (ولم تكن السينما المصرية قد ولدت ، وإلا لا نقطع عيشى . .) قيل لى إن أهل سوريا ولبنان يتعشقون اللهجة القاهرية ، ويستمتعون بها كما لو كانوا يستمتعون إلى سيمفونية .

ولقد قال مؤرخ قديم ، لعله هيرودوت ، (إن من يهبط مجرى النيل فقد هبط مجرى التاريخ) . فقد كان المصريون يعتقدون أنهم بداية الوجود وأنهم نهايته ، فاحتالوا على أن يخلدوا أرواحهم ويحتفظوا بأجسادهم محنطة إلى حين رحلة العودة على متن مراكب الشمس . فإذا كانت قد قامت على هذه الدنيا فكاهة فهم أول من قالوها وأول من ابتدعوها فى العالم .

وكان سنوحى الكاتب المصرى القديم الذى هرب من مصر خوفاً من فرعون جديد ، لم يكن سنوحى من المقربين إليه ، مثلما كان مع من سبقه ، كان سنوحى هذا عندما عاد إلى مصر مطمئناً إلى الفرعون الجديد الذى منحه الأمان ، كان يكتب فى مذكراته كل طريف وقعت عليه عيناه وهو بعيد عن مصر ، ويعلق على ما يرى بأرشق أسلوب وأظرف عبارة .

وما تزال الصور الكاريكاتيرية التى رسمها القدماء من المصريين على الجدران شاهدة على هذه الروح المرحة بين المصريين منذ القدم .

وكانت للفكاهة فى مصر منذ عهد المماليك والأتراك والخديويين ، قدم راسخة وباع طويل .

وكانت تقام منذ أكثر من مائة عام ، ندوات كثيرة فى المنادر (التى تمثل صالونات العصر الحديث) وفى قصور آل البكرى وآل راتب وآل عبد الرازق وآل المويلحى ودار إسماعيل صبرى باشا وفى مقاهى اشتهرت بمن كان يؤمها (مثل قهوة متاتيا وقهوة البورصة وقهوة المعلم ومقاهى باب الخلق وسيدنا الحسين) من شعراء وأدباء وكتاب وصحفيين وسياسيين ، كانت بمثابة حلقات للدرس والمعرفة ،

حيث كان الحديث فيها يحفل بالنادرة الجميلة وبالفائدة الجليلة .

وربما كان للكبت فى عهود الاستعمار والاستبداد ، فضل كبير كفضل الكحل على العين فى براعة المصريين فى إخراج النكتة وإطلاقها فى حجم مناسب ووقت مناسب وإصابة لا تخيب .

ومنذ قديم كان أصحاب النكتة فى مصر يتشعبون إلى فريقين : فريق من المحترفين طلاب القوت والرزق مثل أحمد الفار وكامل الأصلى ومحررى الصحف الفكاهية كالسيف والمسامير والصاعقة والشباب ، وحديثاً مثل حسين الفار وسلطان وغيرهم ، وفريق من الهواة من مشاهير الأدباء والشعراء والوجهاء أمثال الشيخ على الليثى ، ومحمد الدرويش ، والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم ونعمان الأعسر باشا والدكتور بكير ومحمود رشاد باشا والدكتور محمد رأفت وحسن بك رضا المحامى ومحمد بك المويلحى ومحمد بك البابلى وحفنى ناصف وعثمان جلال ، وعبد الله النديم وإمام العبد ، والمستشار سليم زكى بك .

وكان شوقى وإسماعيل صبرى ينظمان فكاهاتهما شعراً .

ثم ظهرت طبقة أحمد رامى وإبراهيم ناجى وأم كلثوم وحسين الترزى ومحمد دبشة .

ثم ظهر فى عصرنا الحالى رعيلٌ ضخم أذكرهم بلا ترتيب أو تقديم منهم أحمد بهجت وأحمد رجب ومحمد عفيفى وفكرى أباظة وعباس الأسوانى وزكريا الحجاوى ومأمون الشناوى ومن هؤلاء من يرتجل النكتة ومنهم من اختار الكتابة الفكاهية ذات الصور القلمية البارعة النابضة بالحركة والحياة ، طريقاً له .

ومن شعراء الفكاهة امتاز بيرم التونسى (موليير مصر) وحسين شفيق المصرى (صاحب المشعلقات فى شعره الحلمنتيشى) ورمزى نظيم وسعيد عبده وحسين الطنطاوى و إمام الصفطاوى .

وهؤلاء الشعراء تأثروا بمن سبقهم أمثال الشاعر الكاتب الصحفى الساخر يعقوب صنوع صاحب مجلة (أبو نضارة) وغيرها ، وأمثال إمام العبد وعبد الله النديم .

وعندما نفت السلطات فى مصر على عهد الخديو إسماعيل ، يعقوب صنوع ، لجأ إلى فرنسا وأصدر مجلة (أبو نضارة) من باريس .

ومن أبرع وأخف ما نشره فيها من الصور الكاريكاتيرية ، صورة للخديو إسماعيل وهو فى زى بائع صحف ويبيع صحيفة الأهرام ، كناية عن أنه لم يبق فى مصر ما يبيعه إسماعيل سوى الأهرامات .

وعلى يد حسين شفيق المصرى شاع الشعر الحلمنتيشى الذى كان من فرسانه عبد السلام شهاب وحسين الطنطاوى والصحفى الأديب اللماح عبد الله أحمد عبد الله الذى كان آخر من حرر مجلة البعكوكة قبل اعتكافها . . أو احتضارها . .

وظهرت من الصحف والمجلات الفكاهية فى مصر بعد صنوع وإمام العبد وعبد الله النديم ، الكشكول لسليمان فوزى وخيال الظل لأحمد حافظ عوض والسيف والمسامير والصاعقة . وغيرها كثير .

ورُب سائل يسأل : ما الذى يمنع الفكاهة المتناثرة فى مختلف الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية فى عصرنا الحاضر من أن تتجمع فى مجلة فكاهية راقية ، تقدم صورة حديثة للفكاهة فى ثوب عصرنا

الحاضر . ولعل هذا الذى يتمناه السائل ، يتحقق فى عهد خلت فيه موانع الحديث فيا يشاؤه الكتاب ، طالما لم يكن فى ما يكتبون مجافاة للقانون .

وإن كان تحقيق ذلك يبدو مستحيلا بعد أن تغيرت الصورة ، وأصبحت للصحيفة أو للمجلة قراء يقرءونها ويتابعون فيها كاتباً بالذات له مُرَبَّع منيف لطيف ، أو صورة كاريكاتورية ، من غيرها لا يعتدل المزاج .

ولعله أن يكون كذلك من المستحيل تحقيقه ، الإحاطة الوافية بأكثر أنباء ظرفاء مصر . وحتى لو استحال ماء البحر مداداً ، وجبال الأرض حبراً جافًّا ، وأوراق أشجار العالم ملازم وأغلفة ، لما أمكن تحقيق أنملة من هذه المحاولة .

وفى استطاعتك أن تقول إن تعداد السكان فى مصر يبلغ أربعة وثلاثين مليوناً من الظرفاء وبضعة من الأهالى ، مثلما قال (جيته) عندما كان مستشاراً فى بلاط الأمير فردريك ، أحد أمراء المقاطعات الألمانية قبل الوحدة ، الذى كان محباً للشعر والشعراء حتى امتلأت العاصمة (ڤايمار) بهم . فقد سئل (جيته) عن عدد سكان العاصمة ، فأجاب (جيته) ، الغريب السائل ، إن تعداد (ڤايمار) يبلغ عشرين ألفاً من الشعراء وبضعة آلاف من الأهالى .

ولهذا فسوف أكتفى فيا يلى بذكر أنباء وفكاهات من أجمعت الأقلام على التنويه بظرفهم ، على أن أخصّ بالذكر منهم حسين الترزى الذى لازمته عشرات السنين وهو – وأقولها بكل ثقة واطمئنان – فارس لا يبارى

فى عالم المجون ، وإمام الفكاهة فى مصر ، فى قديم كان ذلك أو فى حديث من الزمان .

* * *

حافظ إبراهيم :

من العجيب أن الصبي الذى هرب من بيت خاله ، تاركاً له هذين البيتين :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيهْ
فأفرح فإنى ذاهبٌ متوجهٌ فى داهيهْ

والكادح الشقى فى شتى دروب الحياة ، الذى أحاطته الشدة منذ مولده ، وطوّقه البؤس طفلا وصبياً ورجلا ، حتى قال عندما لم ينشقّ أمامه باب من بين كل ما طرق من أبواب :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما

والذى انطوى على الطوى حتى هتف فى حياءٍ وأسى :

نحن نرضى بالقوت فى هذه الدنيا وإن بات دون قوت النَّعام

من العجيب أن قائل هذا الشعر الرصين الحزين ، هو نفسه ، زينة المجالس ، وبهجة المنتديات ، الذى يفيض على النفوس من أُنسه ويمتلئ المكان الذى يؤمه بالراغبين فى الإفادة من فيض أدبه ورائق سحره ومؤانسته ، الذى لا تراه إلا ضاحكاً مهما تجهَّم وجهه وبدا لك عبوساً صارماً .
هو شاعر النيل ، وبلبله الصَّداح وكروانه الذى يرسل شعره جادًّا

سخيًّا نديًّا ، مُنذراً ومحذِّراً وداعيًا إلى أقوم السبل ، ومِمحِّضاً أصدق النُّصح لبنى وطنه وللعرب أجمعين .

إنه حافظ إبراهيم الذى نُريك شخصيته الأخرى الباسمة الضاحكة التى يضحك لها حتى من يتناوله بالمفاكهة . ولا عجب فقد أسبغ الله على الممتازين من أهل الفنون نعمة التمتع بأكثر من شخصية .

كان وهو فى لبنان ، يلازمه شاعر القطرين ، خليل مطران . وزارهما فى الفندق الذى ينزلان به ، المطران قطّان . فتقدّم خليل مطران ولثم يد المطران ، ففعل حافظ مثله ، فتفضل المطران وخص حافظ بقبلة فوق جبينه ، الأمر الذى أحسَّ أن خليل مطران يحسده عليها ، فما كان من حافظ إلا أن أمسك بكلتا يديه رأس خليل مطران وقبّله وقال له : مطران باس حافظ ، حافظ باس مطران ، نبقى خالصين . .

قال أحد وجهاء لبنان لحافظ : ما السر فى أن خليل مطران ، يحبه كل الناس .

فأجابه حافظ على الفور : لأنه كالمعصية . . . !

لاحظ خليل مطران على حافظ أنه كان خلال ترجمته لرواية البؤساء ، تمسكه ببدلة قديمة لم يكن ليبدِّلها بغيرها . ولما سأله عن السر فى ذلك أجاب :

لأن فيها صفتين من صفات الله : الوحدانية والقِدَم .

روى حافظ أنه كان يصحب صديقاً ضعف بصره واحتاج لرفقة حافظ إلى وزارة الأوقاف التى كانت تجرى عليه راتباً لسبق عمله بها ، ولما أصاب بصره من علة تستوجب العطاء .

وعند مغادرتهما الوزارة ، تقدم أحد المتسولين وهو يقول لصديقه :
إديني شيء لله ربنا ينوَّر لك عينك .
فما كان من حافظ إلا أن صاح فى الرجل :
إنت عايزهم يقطعوا عيشه . . . !
التقى به مرة وهو فى طريقه إلى مقهاه سائل ملحاح كان يطارده وهو يقول له : قرش صدقة يا بيه
فأجابه حافظ : عمرك أطول من عمرى . . .
ذهب حافظ وخليل مطران إلى حديقة الحيوان بالجيزة .
وعند دخولهما أشار حافظ إلى خليل وهو يقول للحارس :
خلِّى بالك أحسن وأنا خارج به تفتكرنى لطشت حاجة من الجنينة . .
وقف حافظ يوماً يلقى قصيدته فى رثاء عبد الخالق ثروت باشا وكان الجمع حاشداً والشعراء يتتابعون . وكان من بينهم المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب شاعر البادية . وكان من عادة الشيخ أن يحضر إلى الأماكن التى يرتادها راكباً حماراً . ثم يتركه أمام الباب فى رعاية البوَّاب أو الحارس .
وعندما وصل حافظ فى إلقائه الأخَّاذ ، إلى أحد المقاطع المؤثرة ، سأله الحاضرون الإعادة، وصادف أن ارتفع نهيق حمار الشيخ فى الخارج ، فقال لهم حافظ :
دقيقة من فضلكم حتى ينتهى حمار الزميل من إنشاده . . . فانقلب المأتم إلى ضحك متصل . . .
كان حافظ يسير مسرعاً فى طريقه إلى دار الكتب عندما كان مديراً لها . وكان يسرع خطاه ، وإذا بأحد المارة يستوقفه ليسأله قائلا :

والنبي يا عم ، الشارع ده رايح على فين !
فأجابه حافظ : يا أخي لا رايح حتّه ولا جاى من حتّه أهو طول عمره هنا . . . .

قصد حافظ مرّة إلى قصر عابدين لمقابلة الخديو عباس لأمر هام . وتأخر عنده ، وعند خروجه دعاه الخديو عباس (وكان شحيحاً) للبقاء ليتغدّى مع المعيَّة فى المكان المخصص لهم .

واستقبل حافظ الدعوة بابتهاج . ولكنه فوجئ بطعام عادى نمطى روتيني . . وبعد الغداء عاد إلى الخديو كما طلب منه لاستكمال الحديث ، فسأله الخديو : لعلك انبسطت يا حافظ بك فقال حافظ على الفور : الحقيقة يا فندينا كأنى كنت باتغدّى فى بيتنا . . . .

إمام العبد :

ولعل إمام العبد يمثل فى خفته وظرفه وسرعة خاطره ورقيق شعره ، شعراء الدولة العباسية ، لولا ما كانوا فيه من عزٍّ وما كان هو فيه من عوز ، كان يحيله أنساً وسُحراً .

سأل خليل مطران الشاعر إمام العبد – (وكان أسمر سماراً داكناً)
– ما الذى يمنعك من الزواج !
فأجاب العبد :

وأمـا المـلاح فيـأبينني وأما القِبَاح فأأبى أنـا

ثم أجاب على سائل آخر فى الموضوع نفسه بقوله :

أنا ليـلٌ وكل حسناء شمس فاجتماعى بها من المستحيـل

عاد ، خليل نظير الشاعر ، صديقه إمام العبد وهو يحتضر ، فى غرفة تضيق حتى كأنها ثوبه ويتبارى فيها الليل والنهار فى الظلام ، واستأذنه فى أن يستدعى طبيباً لإسعافه وعلاجه ، فقال إمام :

أجر الطبيب عشرون قرشاً . لو كانت معي لكنت اشتريت ربع كونياك مارتيل وصندوق بسكوت مارى وأموت من السُّكر . . .

سمع إمام العبد أن داود بركات وخليل مطران وأنطون الجميل وسليم سركيس يتأهبون جميعاً للذهاب معاً إلى حفل زفاف نجل الشاعر اللغوى القاضى حفنى ناصف بك . فذهب إليهم وطلب منهم أن يصحبوه معهم فقال له واحد منهم ، أنت ترانا جميعاً نلبس الفراك الرسمية فكيف تحضر معنا ببدلتك العادية فقال لهم ، ليس هذا بمانع من الحضور ، فأنا إذا خلعت كل ملابسي وعقدت بابيون أبيض حول رقبتى ، أصبحت فى الزى المطلوب وفى نفس أناقتكم . . .

كان إمام العبد مدعوًّا إلى فرح فى شبرا ، وكان المطرب عبد الحى حلمى الكبير مغنى الحفل ، وعزَّ عليه أن يترك أى فترة تمر من الحفل دون الاستمتـــاع به ، وسرقه الوقت وخرج قرب الفجر ليجد المطر يهطل بغزارة . ولمح عربجيا يقبع داخل العربة المغطاة وقد أرسل صوته بالغناء وهو يمر به ، فقال إمام ياسلام . . يا عينى يا أسطى . . .إيه الطرب ده كلـــه . . ثم أردف قائلا : إلى أين أنت ذاهب ! فقال السائق : إلى السيدة زينب . فقال إمام ، ألَسْت فى حاجة إلى (سمِّيع) فأنا أيضاً ساكن فى السيدة ، فركب إلى جانب السائق ، فقال له إمام لا تظن أنى سأركب مجاناً ، فعند الوصول بمشيئة الله سأعطيك بدلة قديمة عندى -

(وعندما يستغنى إمام ، على خصاصته ، عن بدلة قديمة ، فمعنى هذا أنها هى التى استغنت عنه) ووصلا أمام منزل إمام وصعد إلى الدور الثانى حيث يسكن ، وألقى بالبدلة إلى الأسطى ، فأخذها وراح يقلّب فيها – وعلى عادة العربجية فى طلب المزيد – قال له ، دى شوية أوى . . . وإذا بإمام ، وكأنه كان متوقعاً ذلك ، يلقى له بالصديرى . .

عبد العزيز البشرى :

اجتمعت للشيخ عبد العزيز البشرى ميزة الفكاهة المكتوبة والفكاهة المنطوقة ، وتبرأ من النكتة المباشرة التى قال عنها مثلما قال المازنى ، إنها لا تدل على إعمال فكر أو ذكاء قلب ، أو عمق نظرة ، ولكنها تعتمد على سرعة الخاطر و (القفش والقافية) .

وللبشرى أسلوب جمع بين لغة الجاحظ الذى افتتن به ، وتأثر بتصويراته البارعة وتحقيقه الذكى ، وبين البليغ من لغة أهل زمنه وعصره ، وقد كان بينهم ، يتسنّم الذروة .

وأنت إذا طلبت فكاهته المكتوبة وجدتها منبثة فى كتبه : (فى المرآة – المختار – قطوف) . وقد اخترنا بعضاً منها فى هذا الفصل .

أما فكاهته المنطوقة فهى موضوع ومهمة هذا الفصل من الكتاب

ولم يكن يستقر بالبشرى مكان . فهو سريع التنقل ، كثير التغيير والتبديل ، واسع الصدر ، يحادث من يعارضه بنفس سماحته فى الحديث مع من هم من رأيه .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى مقدمة كتاب (قطوف)

« كان أقل الناس حبًّا للاستقرار ، وميلاً إلى الإمعان فى طريق واحد . فُطِر على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً » .

وقد أفاد من هذه النقلة التى تتيح له حسن الاستماع ، والإحاطة ، والتعليق على ما يرى وما يسمع بما فطر عليه من روح مازحة ساخرة ، وذوق سليم قويم ، ونظر عميق ثاقب .

وقد كان يخص بار (الأنجلــو) حيث روى فيه أغلب فكاهاته — بالتردد عليه وإيثاره على غيره من المنتديات . فقد كان هذا المنتدى ، مرتاداً لكل الاتجاهات الفكرية ، كما لو كان مقرًّا للأمم المتحدة . وكنت ترى فيه هيكل الدستورى ، وحافظ عوض الوفدى وفكرى أباظة الوطنى ، وعلى إبراهيم المستقل ، يسمرون ويتناقشون فى كل الشئون ، على بساط ممدود ، من الود ورعاية الحدود .

وبرغم تربيته الأزهرية فقد كان محبًّا ، مع الاعتدال ، لكل ما هو عصرى ذى فائدة وجدوى .

أسرَّ إليه أحد جيرانه من حى السيدة زينب حيث كان يسكن فى فترة من حياته ، بأن أهل الحى أخذوا يتحدثون بأشياء لا يريدها أن تحدث . فسأله البشرى : وماذا والعياذ بالله قد حدث منى وأزعجهم . فقال الصديق : إن المحروسات ، بناتك الصِّغار يلبسن البرانيط فى ذهابهن للمدرسة الفرنسية . . .

فقال له البشرى على الفور : أُمَّال عايزينى ألبِّسهم عمم . . .

ومما كان يرويه فى التدليل على سرعة الخاطر ، أن حافظ إبراهيم كان مع أحمد حشمت باشا وزير المعارف فى حفل رسمى فى سباق

الخيل ، وكان حافظ إبراهيم يحفظ لحشمت باشا جميله فى اختياره له ، لإدارة دار الكتب .

وكان حشمت باشا يسأل حافظ إبراهيم : أما كان الأولى أن يسمى الحصان الرابح الأول (المُصَلّى) والثانى (المجلّى) على عكس ما هو متبع ! فأجاب حافظ إبراهيم بذكاء لمّاح :

عمرك يا باشا ما كنت المصلى . . .(أى الثانى فى أى أمر) . . .

وذات مساء اضطرته حسرة فى البول أن ينتحى نحو زقاق غير مطروق والليل ستّار ، وأزال الحسرة ، وقبل أن يتقدم خطوة ، وجد أمامه أحد جنود البوليس يطلب منه الذهاب إلى القسم ، فقال له إنه قاضى شرعى ولا داعى لكل هذه الشكليات . وما دامت الغرامة معروفة ، فتولّ عنى توريدها ، ولا داعى لاسم المخالف ، واكتب أمام اسمى ، فاعل خير . .

وكان الشيخ البشرى يروى فكاهات من سبقوه ويخص بالذكر فكاهات حافظ إبراهيم ، كما قدّمنا .

روى مرّة أن حافظ إبراهيم والدكتور محجوب ثابت كانا بين ضيوف الزعيم سعد زغلول فى مسجد وصيف وصباح أحد الأيام افتقد سعد الدكتور محجوب فبعث من أيقظه من نومه الساعة الحادية عشرة وذهب لمقابلة سعد . ولما سأله عن السبب فى إبطائه فى الاستيقاظ من النوم ، أجابه بأنه كان يحلم حلماً طويلا . وسأل محجوب سعد باشا إن كان يعرف شيئاً فى تفسير الأحلام أجابه سعد إنه لا يعرف وربما كان حافظ إبراهيم أدرى .

وأرسل فاستدعى حافظاً ، وقص محجوب ما رأى بقوله : حلمت

أنى ركبت ثوراً قويًّا ، وأنى كنت أمسك بكلتا يدى قرنيه ، وأن الثور جمح بى جموحاً مزعجاً ، وكان يجرى ورائى نحو مائتى حمار .

واستمر الثور فى جموحه حتى استطعت أن أوقف ثورته وهنا أفقت من النوم .

وهنا قال حافظ إبراهيم :

إن الثور فى المنام يا دكتور يرمز إلى القوة . ولقد رشحت نفسك فى الانتخاب لمجلس النواب وقد انتصرت على حكم القوة ، وهذا يقابل تمكنك من إيقاف الثور .

فقال الدكتور محجوب :

عظيم . وما معنى المائتى حمار !

فقال حافظ : ما هم دول اللى انتخبوك يا دكتور ! . . .وكان البشرى معجباً كل الإعجاب بالشاعر إمام العبد الذى قال عنه إنه كان عفًّا فى مزاحه ، لا يفحش ولا يقذع ، وكان سريعاً فى خلق الأحاديث الفكاهية من العدم .

وكان البشرى يروى عنه ، أنه لما ضاقت به الحال ذات يوم ، لجأ إلى صديق يرجوه أن يقرضه عشرين قرشاً ، إلا أن صديقه لم يجد معه سوى عشرة قروش . فتناولها إمام وهو يقول له : معلهش!يبقى لسَّه لى عندك عشرة قروش وأنت لك عندى عشرة قروش وعلى ذلك نبقى خالصين . .

ومن فكاهات البشرى مع أصدقائه أنه خلع جبته ذات يوم ، وكان مدعوًّا على الغذاء ، وذهب إلى مكان غسيل الأيدى ولما عاد وجد رسماً لحمار على الجبّة ، فتلفت حواليه ثم قال مستعلماً : مين اللى نشّف

وجهه فى الجبة . . .

وذات يوم رأيناه يسرع الخُطى ويهدر كأنه السيل الجارف وهو قادم نحونا ونحن جلوس فى بار (الأنجلو) . وقد سألنا إن كنا رأينا بائعاً (سرِّيحا) يبيع (ترامس) ، فلما أجبناه بالنفى تأفف ، فرحنا نسأله عن أصل الحكاية ، فقال وهو يضع على المائدة (الترموس) ، جسم الجريمة ، وأخذ يصف كيف أنه بالأمس كان وحده وإذا بالشقى اللص بائع (الترامس) يصف له قدرة هذا الترموس على حفظ برودة الماء فيه ، لمدة ثمان وأربعين ساعة .

وعندما عاد للمنزل ، أخذ يضع فى الترموس قطعاً من الثلج صغيرة حتى أصبح محتواه كله ثلجاً لا ماءاً .

وعندما أصبح الصباح منى نفسه بشرب كوب بارد من الترموس ، ولكنه وجده ، كما راح يقول :

ماءاً غاليًا وضعت بعضاً منه فى كنكة القهوة ولقَّمته بُنًّا وشربتها قهوة وشربت مقلب اللص . . .

* * *

ومن صور البشرى القلمية الرائعة فى بساطتها وفى عمقها وفى حلاوتها وفى ظرفها وهو يتحدث عن عبد الخالق ثروت باشا بقوله :

« لقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يحدثك ، فلا يرتفع بك إلى نفسه ، وإنما يتدلَّى بكل حدثة إلى نفسك ، فتراه يدارجك فى قولك ، ويكلمك من جنس كلامك ، ويباريك على قدر فهمك ، حتى تنصرف عنه وقد هيأ لك وهمك أنه مثلك . هذا إذا لطف الله بعقلك فلم يهيئ لك أنه دونك .

ولقد يخيّل إليك لطف ثروت وتبسطه فى حديثه معك أنك تستطيع أن تدسه فى جيبك ، إذ هو قد دسّك من أول المجلس تحت نابه ، فاحذره أطلقَ ما يكون وجهاً ، وأنعمَ ما يكون حديثاً » .

كان حافظ والبشرى يزوران حديقة الحيوان . وعند خروجهما قال له حافظ :

– حاسب أحسن حد يحوشك على الباب .

فأجاب البشرى : أما بالنسبة لك فلا خوف ولا حذر لأن منك فى الجنينة كثير وبناقص واحد .

وكان يعتز بفكاهات محمد البابلى ويروى منها وهو يضحك :

كان البابلى فى زيارة عزبة لصديق له فى ضواحى القاهرة وراح الصديق يصف للبابلى محتويات الحديقـــة حتى وصل إلى أشجـار (الكازورينا) وقال إنها تصد الرياح وتمنع دخول الحيوانات :

فسأله البابلى متوسلا :

ماعندكش شجر يمنع دخول أصحاب الديون . .

حفنى ناصف بك :

لم يكن بحكم وظيفته الرسمية فى القضاء أو فى التعليم أو المجامع اللغوية يتردد على النوادى والمقاهى برغم حبه لمرتاديها وميل نفسه إلى مجاراتهم فيما يأخذون فيه من الضحك والمجون وفى حديث الشعر والأدب .

ولحفنى ناصف نوادر ما تزال يحكيها الخلف عن السلف .

وكان حفنى بك يرأس جلسة فى إحدى المحاكم . . وبعد قليل من

افتتاح الجلسة راود النوم عيون العضو اليمين ورآه حفنى بك وسكت . ثم لم يلبث بعد قليل أن سمع غطيطاً فالتفت إلى مصدره فوجده العضو الشمال قد أخذته سنة من النوم ، فوكزه وهو يغط فصحا مذعوراً فقال له حفنى بك :

إذا كان من حقك أن تنام ، فليس من حقك أن توقظ النائمين . .

ويروى عن حفني بك أنه مرض مرضاً خطيراً فأمره طبيبه بالإقلاع عن أى عمل فكرى ولا سيا المطالعة . ثم عاد إليه بعد يومين فرآه يطالع فى كتاب (روح الاجتماع) الذى عرَّبه المرحوم فتحى زغلول ، فغضب الطبيب وقال لحفنى بك :

ألم أنهك عن المطالعة ؟

فابتسم حفنى ناصف برغم مرضه الخطير وغلبت عليه طبيعته المرحة الفكهة وقال للطبيب :

– يا أخى لا تغضب فقد كنت أطالع فى الروح .

ودعى مرّة حفنى ناصف مع نفر من أصدقائه لزيارة حديقة برتقال لأحد أصدقائهم من الأعيان .

وعندما وزع البستانى البرتقال المعروف باسم (برتقال بدمه) وجد حفنى بك أن برتقالته من النوع العادى ولا أثر لأى حمرة بها ، فقال لصاحب البستان :

يظهر أن برتقالتى طلع عندها أنيميا حادة . . .

والعجيب أن أبناء حفنى بك قد ورثوا عنه خفة روحه وحلو مزاحه وسرعة خاطره ورقيق أدبه لفظاً ومعنى .

كان ابنه الأكبر قاضياً . وكان لفيف من أصدقائه يذهبون أمسيات كثيرة إلى دار نبيل سابق حيث يتبارون فى الشراب والضحك والمزاح والتنكيت والمرح الراقى .

وكانت لا تمر ليلة دون أن يذكر واحد من الأصدقاء نادرة لجلال بك ناصف القاضى .

وما كان من النبيل إلا أن قال لهم : إذا حضرتم المرة القادمة بدون جلال ، فسوف لا أستقبلكم .

وذهب الأصدقاء إلى جلال ناصف وطلبوا منه أن يصحبهم وأبلغوه أن النبيل لطيف وصاحب مجال ومرح . وكان جلال متهيبا قليلاً . ولكنه لم يجد ما يدعو لهيبة أو احترام عندما رأى ابتذال النبيل . وبعد قليل اقترب منه النبيل وقال له : إننى جلال ! ضحّكنى . . . !

وعلى الفور قال جلال : ده أنا اللى جاى أضحك عليك يا أفندينا ! .

وضحك النبيل ضحكاً لم يضحكه من قبل . وربما كان خلل القياس ووقع المفارقة من أسباب هدا الضحك ، حيث لم يكن ينتظر أن أحداً يخاطبه بهذه اللهجة .

مختارات العقاد من حكايات جحا :

للعقاد روائع من نوادره الفكاهية ، منطوقة ومنظومة ، وقد أتينا على بعضٍ منها .

وفيمايلى مختارات للعقاد من حكايات جحا :

سئل جحا : أيهما أفضل ، المسير خلف الجنازة أم أمامها ؟

فأجاب : لا تكن فى النعش وسر حيث تشاء . . . .

ولقيه بعض معارفه فى الطريق فقال له : إنى رأيت الساعة ، رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر » .

قال جحا : « وماذا يعنينى أنا » ؟

قال صاحبه : إنهم يحملون الطعام إلى بيتك !

فقال : جحا : وماذا يُعنيك أنت ! . . .

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه فقال له : إنك محق فى شكواك أيها الصديق وجاءه الصديق الثانى فى اليوم التالى فعرَضَ عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يا لك من منافق . خصمان مختلفان ، وكلاهما محق فى شكواه ؟

فقال لها جحا : ولماذا تغضبين ! أنت أيضا محقّة فيما تقولين ؟

سأله سائل : ما طالع نجمك ؟

قال : ولدت والشمس فى برج التيس .

فقال سائله : لا يوجد فى السماء برج التيس ولعلك تقصد الجدى

فأجاب جحا : أفمن مولدى إلى اليوم ، لا يصبح الجدى تيساً ؟ . . .

سكن جحا فى دار ، وراح يشكو إلى صاحبها أنه يسمع قرقعة سقفها .

قال صاحب الدار : (لاتخف ، إنه يسبح الله) .

فقال جحا : « وهذا ما أخشاه ، فقد تدركه رقة فيسجد علينا » .

وادّعى جحا الولاية فسأله السامعون عن كراماته فقال : أتريدون مني كرامة أكبر من علمي بما في قلوبكم جميعاً ؟

قالوا : « وما في قلوبنا » .

قال : « كلكم تقولون في قلوبكم إنني كذّاب » .

وسألوه ذات يوم : « أيهما أنفع للناس ، الشمس أم القمر ؟ » فلم يتمهل وأجابهم بيقين :

« إنه القمر ولا مراء » .

فسألوه : « ولم ؟ » .

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغني الناس عنها . وأما القمر فلا يطلع إلا في الظلام حين الحاجة إليه » .

سأله حاكم المدينة ، وقد أخذه معه إلى الحمام . وخلع ملابسه إلا مئزراً يديره على وسطه : « بكم تشتريني الآن لو عرضت عليك في السوق يا جحا ؟ » .

قال « بخمسين ديناراً » .

فقال الحاكم : « ويحك . إن ثمن هذا المئزر وحده خمسون ديناراً » .

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته ! » .

سألوه عن معنى كلمة حيزبون . فتمهّل قليلا ثم قال :

هي الكلمة التي يكتبها الكاتب بدلا من كلمة أخرى خطرت على باله ، ولكنه نسي حروفها ، فهو يخشى إذ يستعملها أن يخطئ في حروفها . . .

* * *

شاعر الشباب أحمد رامى :

شاعر الشباب كما يحب الناس أن يلقبوه ، و(لا مارتين) كما أحب أنا أن ألقِّبه ، هو إمام الغزليين والغنَّائين ، وفضله عليهم فضل الكحل على العين . وهو فى خفة الظل ، نغمة تطيب وتسعد النفوس .

وهو يمثل جيلا بأسره (بهناه وشقاه) على حد قوله .

شعره الفكاهي قليل وهو معروف بمناسباته عند المتأدبين . أما فكاهاته المنطوقة فهى كثيرة وقد عاصرت أكثر مناسباتها معه .

برغم رقة حاشيته وحرصه على ألا يؤلم أحدًا ، فقد اختلف معه شاب غرير فى دار الكتب وضايقه ، وأخرج رامى عن حده ، فتوسط الشاعر أحمد محفوظ من زملاء رامى فى الدار وراح يقول له ، ده شاب أحمق وغير متعلم وجاهل بل تقدر تقول إنه (أمى) فقال رامى على الفور : (أمى) دى شوّية عليه ، ده لازم (ستّى) . . . !

وذات مساء سهر مع أصدقاء له فى صدر الشباب فى فرح امتد سهرهم به حتى ساعة متأخرة . وكان معهم صديق من سلالة أسرة ثرية ، ولكنه كان متلافاً فأضاع كل ما ورث وبقى من أملاك العائلة بيت كبير فى الحلمية من بيوت الوقف ، فعرض على إخوانه أن يناموا عنده فلا مواصلات الآن ، ولا قدرة لهم على السير الطويل . فوافقوه ودبَّر لهم أماكن للمبيت وكانوا خمسة . وكانوا يحسون البرد ، لأن صاحب الدار أو ساكنها ، كان كلما احتاج ، عمد إلى ضلفة باب أو شباك أو زجاج نافذة أو أكرة أو مسند سلم وخلعها وراح يبيعها ، بعد أن كاد البيت يخلو من الأثاث . .

وراح صاحب الدار يفكر قبل النوم فى كيفية إفطارهم بعد أن دبَّر أمر نومهم . ثم نام واعتمد على الله فى حل ما هو فيه من حرج . ونامت جفونه ولكن عقله بقى صاحياً يفكر ويدبر . . .

وعندما أصبح الصباح ، شم النائمون روائح بيض مقلى وبسطرمة وفول وزبد ، ولم يصدقوا ، حتى إن أحدهم ظن أنهم يحلمون ، لعلمهم برقة حال الداعى ، وراح يقرص جاره فى النوم ليشترك معه فى شم هذه الروائح الفاتحة للشهية . . .

وقاموا جميعاً ليفاجأوا بسماط ممدود حوى كل ما كانوا يتنسَّمون رائحته .

وبعد شرب الشاى والقهوة ، أرادوا أن ينصرفوا ، وبحثوا عن أحذيتهم فلم يجدوها ، فسألوا صاحب الدار عنها ، فراح يضحك ضحكاً متواصلاً وهو يقول : ما أكلتوها وكان اللى كان . . .

كان يسكن بجوار رامى أحد المحبين للشعر ولكنه لم يكن يهتم بالعروض والبحور والقوافى والأوزان . وكان فى كل مرَّة يعود فيها رامى مُرهقاً من عمله ، يحل به هذا الجار ليقرأ عليه ما يكون نظمه . فيقول له رامى : مكسور يا أستاذ . وثانى مرّة يقول : مدشدش يا حبيبى . وثالثة يقول له : مدغدغ يا أخ . وفى آخر المطاف صرخ المتشاعر وهو يقول لرامى : انته متقصدنى ! ده ظلم ! دى مشى معاملة ! . . مش طريقة دى ! . . فقال له رامى وهو محتد أيضاً : شوف يا أخ . إحنا عندنا هنا بنوزن كده ، وإن ما كانش عاجبك ، روح إوزن برّه . .

وكان لنا صديق يحضر مجلسنا ويسمعنا ونحن نتطارح ما يكون كل منا

قد نظمه . فيقول : يا جماعة دى حاجة عجيبة أوى . كل اللى أنتم بتقولوه خطرت على بالى معانيه وكثير من ألفاظه و إشاراته .

يبقى إيه ده يا رامى ، توارد خواطر والا مناجاة أرواح ؟

فأجابه رامى : لا أبدا . تقدر تقول إن إحنا شعراء بقافية ، وأنت شاعر بلا قافية . . .

كان المجتمع الانفصالى الذى عاش رامى جزءًا كبيرًا منه ، هو المسئول عن تعلقه هو ومن عاصره من شعراء زمانه بأى قشة يجدون فيها سبيلا للغزل والتشبيب والرومانسية . . .

روى لى هذه القصة : كنت فى صدر الشباب ، أغادر دارى بعد الغروب ، وأعود إليها قبل الشروق . وكنت ألاحظ كلّما هممت بالانعطاف من الحارة التى أسكن أحد منازلها ، أن رأساً صغيراً يُطل وهو يلتفّ بغلالة بيضاء ناصعة من وراء مشربيَّة من مشربيّات بيوتنا القديمة . وظننت – والشباب كثير الظنون والخيلاء أنها تنتظرنى لترانى ، والليل ستّار يلف العشّاق بحجب ، ويحميهم من أنظار دخيلة . وقد أكبرت فى هذه العاشقة دأبها على انتظارى فى نفس موعد خروجى ، وعند عودتى لتطمئن علىَّ فى رجوعى . . .

ولم تكن نفسى ، ولا التقاليد ، يسمحان لى حتى برفع النظر إلى أبعد مما يحمينى من مزالق الطريق ، ولا ينبغى لى ، وهى من أهل حيٍّ أن أرجوها حتى فى منامى . وكأنى كنت أقول مع من قال :

وإنى لأستحييك حتى كأنما   علىَّ بظهر الغيب منك رقيبُ

ورحت أنظم فيها شعراً يحوى ويضم المعانى التى تثيرها مشقة النوى

وحنين الواجد وإكبار الوفاء . وأنطوى على وجدى وسهدى . . .

وذات يوم خرجت من دارى قبل الغروب ، وإذا بعينى تفلت منى وترمق حبيبة خيالى ومهوى حنينى العفّ ، وحنانى المشفق ، لأكتشفت أنها (قُلَّة) تلتف فى شاش أبيض رقيق مُبْتل ، ليبترد الماء بهذه الوسيلة أو الحيلة . . . .

وفقدت ليلاى ، وأفقت من حلم جميل . . .

أم كلثوم :

ذكاؤها يمهد لها سبيل التفوّق فى كل عمل تقدم عليه . وذوقها الرفيع يُسبغ على هذا الذكاء رداءً من لماحية برَّاقة ورونق باهر وحديث مزغرد النبرات ، فيَّاض النَّدى .

وهى مثلما تفوقت وتفرَّدت فى الغناء ، بفضل نعمة السماء عليها بحنجرة لم يَجُد بها الزمان على أحد ، حتى أصبحت كالماس الكريم (سوليتير) ، إلى جانب فن متمكن لا يجارى ، تفوَّقت كذلك فى عالم الفكاهة والممازحة حتى غدت فى الصَّدَارة من أهله .

وقد سئلت مرَّة عما يمنعها من التلحين ، فأجابت بأنها لم تُخلق له ، وأنها لا تحب أن تعمل عملاً لا تتقنه إلى حد التفرّد فيه .

ذكر لها مرَّة أحد معارفها ، اسم صديق له ، وكان اسمه مثلا ، محمد أحمد محمد فقالت ، وليه يسيب اسمه كده ، ده عامل زى ما تقول : لوبيا يافجل لوبيا . . .

وكانت ترى وجهاً أمامها فى كل حفلاتها ، لا يغيب أبداً . وحدث

لحسن حظه – فى حفلة خاصة – أن قدّمهُ إليها أحد معارفها ، ثم أردف قائلاً ، إلى جانب أنه سمّيع دائم ، فإنه مهندس كهرباء مستشفى قصر العينى وبقى له فيه مع الكهرباء والسلوك ، عشرين عاماً ، فقالت أم كلثوم على الفور . . . يا ابن الكابل . . . . . .

كان المرحوم الأستاذ عبد الغنى السيد المطرب القديم ، قوى البنية ، مفتول العضلات . ولاحظت أم كلثوم غيابه فترة طويلة . فسألت عنه صديقاً له ، فقال لها ، إن عبد الغنِّي عاتب عليها لأنها لم تسأل عنه عندما عمل عملية فى عينيه فقالت نكمِّل : فى عينيه ولا فى عافيته . . . .

عندما عادت من رحلة لها من إنجلترا عام ١٩٥٠ بعد أن أطمأنت على صحتها واطمأن جمهورها عليها ، أقيمت لها فى الإسكندرية حفلة تكريم ضمَّت لفيفاً كبيراً من أهل الأدب والفن والصحافة وخاصة الشعر .

وراح الشعراء يتعاقبون فى إظهار فرحهم بعودتها حتى جاء دور الشاعر الكبير المرحوم فضل إسماعيل . فكان قد أعد قصيدة يعارض فيها بردة البوصيرى ، مطلعها .

إن سجَّل النيل لحناً رائع النغم ... أو حنَّ طائره شوقاً إلى الهرم

فالبحر يعرف ما للفن من أثر ... وما له فى حياة الناس من قيم

وكان رحمة الله قد أفرط فى الشراب ، وانعكس ذلك على إلقائه ، وتعثر لسانه ، وكثرة حركات يديه ، وحماسه والإشادة بعبقريته فى اختيار قصيدته معارضاً نهج البردة للبوصيرى نزيل الإسكندرية ومواطنه . وأشاعت هذه المفارقات روح الدعابة فى أم كلثوم وراحت تصغى

باهتمام ، وإذا بالتيار الكهربائى ينقطع بعد المقطع الأول من القصيدة .
وساد صمت قطعه صوت أم كلثوم وهى تسأل الشاعر : جرى إيه يا أستاذ ، هى قصيدة ولاَّ غارة . . . . .
وسرعان ما أتوا بشمع لإنارة ورقة الشاعر وظهر للهيب الشمعة دخان ، فقالت أم كلثوم على الفور : ودى قصيدة إيه المهبِّبة دى . . .

محمد البابلى :
سليل عائلة قاهرية عريقة . وكانت لها عقاراتٍ اشتهرت باسم عمارات البابلى فى حى السيدة زينب .

أم كلثوم، عندما حلت بالقاهرة مع عائلتها فى فندق جوردون هاوس . كان البابلى من نزلاء الفندق فترة من الزمان ، قبل أن تنتقل أم كلثوم منه إلى شقة فى شارع (قولة) كانت مرتاداً لأهل الفن والأدب والظرف .
وكان يجلس معها ومع معلمها الأول الشيخ أبو العلا محمد يسمرون ويستمعون لنوادر البابلى وحلو حديثه وبديع مفارقاته ، وهى تُصغى كأنها فى درس .

وقد شربت من البابلى وارتوت من هذا النبع الصافى والتقطت منه بذكاء وملاحية ، صناعة الحديث وروايته ، وأصول ترتيبه بمفاجآته ومفارقاته ، واختيار المناسبة الصالحة للمقال والمجال .
وكان متلافاً لا يبقى على مال لديه ، بل ما يزال به حتى يزول . وانتهى به المطاف إلى بيع ورهن معظم ما يملك ، وكان يستمع ذات

مساء إلى صالح عن الحى وهو يغنى دور : أهل السماح الملاح ، دول فين أراضيهم . .

فماكان من البابلى إلا أن يهتف بحسرة : فى البنك العقارى يا بو صلاح . . . .

وكان يسير فى جنازة وراء النعش ، وإذا برفيقه فى تشييع جنازة المتوفى الثرى ، يسأل البابلى عن عظمة الخشبة وقماش الخشبة الحرير الشاهى وراح يستعلم من البابلى عما تتكلفه هذه الخشبة ، وإذا بالبابلى يقول له على الفور : بالميت . . ثلاثين أربعين جنيها . . .

وكان والده قد أعد حوشاً وطربة للآخرة . وأخذه ذات يوم ليشاهد المدفن . وسأله بعد الزيارة عن رأيه فى الحوش فقاله له الحقيقة بق ، حاجة ترد الروح . . . .

وكان قد أصيب بالسُكَّر الذى كان يشتد حيناً ويقل أحياناً . وذات صباح كان فى بار الأنجلو ، وحضر إليه خريستو ليلبي طلبه ، وسأل البابلى عن حالة السكر عنده فقال له البابلى بلهجة الجرسونات اليونانيين ، ميوليجى يا خريستو . . . وهى تعنى فى عرف الجرسونات : سكر شويه . . . . بلغة الإغريق .

وفى ظهر أحد الأيام كان يخترق بعربة حنطور (تجرها الخيل) ميدان الأوبرا والحركة على أشدها . وإذ به يسمع صوتاً متلهفاً يناديه . . يا محمد بك . . يا محمد بك . . فطلب من السائق التوقف وحضر المنادى وإذا به معرفة ، وليس بصديق . وراح يسأل البابلى عن صحته والأنجال ومن تزوج منهم ومن لم يتزوج بعد . وطال الحديث التافه ، وكان

يظن أن الأمر هام وأراد أن يلفت نظر هذا الصديق المتطفل – بطريقته الخاصة – إلى ما يجب ولا يجب ، فربت على ظهر السائق وقال له : القعدة احلوّت يا أسطى ، اعمل لنا فنجالين قهوة على ذوقك . . . .

وكانت القفشات بينه وبين حافظ إبراهيم لا تنقطع وذات يوم قصد حلوان لزيارة حافظ بك .

وعندما قدم حافظ بك إلى الصالون حيث كان البابلى يجلس ، لاحظ أن حافظ بك – وكان الوقت شتاء – يلبس للوقاية ، جلابية قماشها ورسومها مخططة على طريقة الكليم الصوف الذى كانوا يفرشونه فى صالة المنزل على البلاط ويضعون تحته ما يقيه من حدة البلاط ، كقماش أوما شاية ، فقال البابلى لحافظ على الفور : أنت لازم لابس حصيرة تحت الكليم ده يا حافظ بك . . . .

وكان فى زيارة لبستان أحد الأصدقاء وقد رأى البستانى يزرع حول نبات شوكى Seizilbinia .

ولما سأله عن السر فى ذلك قال له علشان نمنع دخول التعابين ، فقال له مفيش زرع يمنع دخول المحضرين . . . . . وكان وهو يجلس مع أخصائه فى باراللواء ، يطلق اسم أى دخيل ثقيل عليهم ، اسم حنفى وحضر ذات يوم متأخراً قليلاً وإذا بدخيل ، بين الجماعة ، أى (حنفى) على حد اصطلاحه . فلما قدّمه أحد الأصدقاء إليه وقال له الأخ حنفى أفندى ؟

فقال البابلى : طبعاً ، أنا عارف ، فرجع الصديق يقول ، لا ده اسمه الحقيق حنفى فقال البابلى يبق اسمه بق ، حنفى أفندى حنفى . . . . .

وبينما كانوا جلوساً فى بار اللواء إذا بحنفى جديد يهبط عليهم . وبعد قليل أخرج علبة سجائره وراح يوزّع على كل الجالسين سيجارة لكل منهم .

ونسى سهواً أن يقدم للبابلى .

وقد تَدارك الأمر أحد الأصدقاء الجالسين ، وأخرج علبته وراح يقدِّم منها للبابلى بك .

ولكن البابلى شكره وهو يشير بيده إلى من أغفل تقديم السيجارة له ثم يقول : دخانك يا محمد بك حامى أنا عايز من البارد ده . . . . .

وكانت فكاهة البابلى تقوم على المقابلة والتلاعب باللفظ من وحى المناسبة .

حسين الترزى :

اسمه الحقيقى ، حسين فهمى الكريتلى . فقد كان جدُّه الأعلى من أهالى جزيرة كريت ، عندما كانت ضمن أملاك الإمبراطورية العثمانية فى سالف من العصر .

وحضر الجد إلى مصر وتزوج مصرية وأنجب أحد أبنائه ، حسين فهمى الكريتلى .

أما صفة الترزى هذه فقد لحقته على أثر مساهمته بنصيب فى محل للتفصيل ، لم يكن هو يعرف فى هذه الصناعة شيئاً ، ولكنه كان يشرف على العمال ثم يترك المحل إلى جولاته وسهراته حتى أفلس المحل وارتاح وأراح .

وكان وجهاء القوم وأدباء وشعراء البلد يتشوقون إلى مجالسه ويتحرّون مكانه ليصحبهم فى سهراتهم .

وفكاهاته ومداعباته كانت تقوم على دعامتين عرفهما بحسه الفطرى ، فقد كان لا يعرف الكتابة أو القراءة .

كانت الدعامتان هما : خلل القياس ومباغتة المفارقة ، إلى جانب اصطياد المناسبة وتخريج الصور العديدة من لفظ أو جملة ، مع عفة فى القول ورعاية للأدب واحترام للتقاليد المرعية ، فقد كانت مجالسه زاخرة بأرقى الطبقات وصفوة أهل الأدب .

وكان ذكياً ذكاء مفرطاً ، حتى لقد اخترع اختراعات منها جهاز حاسب يوضع عند مدخل المخابئ أو المناجم ليعد الأعداد الداخلة والخارجة . واستطاع أن يقسّم الملّيمتر إلى أجزاء .

كنا نسهر معه ذات مساء فى كازينو راق فى الإسكندرية .

واحتك به أحد السكارى . وراح يضايق حسين وحسين يلاطفه دون جدوى وأخيراً قال له : يا أخى ابعد عنى الله يخرب بيتك . . . وفضضنا الاشتباك ، ثم رحنا نثير خوف حسين من ناحية من كان مشتبكاً معه ، فقلنا إنه ابن أكبر محام فى الإسكندرية وسيرفع ضده دعوى قذف وفى مكان عام والشهود كثير . . . فاغتمّ قليلاً وبعد تفكير خاطف قال : أنا رايح أترافع عن نفسى . أنا لم أتفوه بما يهين هذا السكير . ودعوت الله أن يخرب بيته . ومنذ متى يستجيب الله لدعائى ! . . الأمر معلّق على استجابة الله لدعائى ، وهذا أمر أنا واثق من عدم تحقيقه وبهذا يا حضرات . . . . . ولكن الواقع أنه ارتبك وأفلحنا فى إثارته . . فانقطع

عن تكملة مرافعته أو مشروع مرافعته . . . وضحك معنا

وكان عفيف النفس لا يطلب مالاً من أى أحد مهما بلغت به الفاقة . بل لقد كان بعض الأثرياء ممن كان يؤم بيوتهم ويسعدهم بأحاديثه ، يجرون على مدّه بمبلغ شهرى دون أن يشعروه بأنه مساعدة ، ودون أن يلزموه بالحضور إليهم .

وفى مطلع حياته كان حسين من مرتادى صالون ومنزل المرحوم على فهمى الثرى الشهير . وكان قد أبلغه يوماً ، بأنه عيَّنه سكرتيراً خاصاً للمشتريات . ولو أن حسين اعتدل فى إنفاقه لترك أملاكاً وعقاراً من مبالغ كان يأخذها من المحلات – بعلم على فهمى – عندما يشترى سيارة أو يؤثث منزلاً أو يشترى حاجيات للبيت من كل الأنواع بما فى ذلك الأرض والعقار والأثاث .

وقد سافر مع هذا الثرى إلى أوربا ، فى معيته مع صديق آخر ليستكمل المجلس مداعباته ، ويصبحان كموسيقى الحجرات . . .

وكان هذا الصديق ، يكتب لحسين ملاحظاته فى أوربا وكان يبعث إلى بخطابات كلها دعابات وفكاهة ، ضاعت مع كثرة انتقالاتى .

كان عندما ينام يحب أن يتحدث مع من معه فى البيت أو فى الحجرة حتى ينام . وكان هو وصديقه عبد الرحمن هذا يقيمان فى حجرة واحدة فى الفندق الذى ينزلان به .

وذات ليلة أرق حسين وراح يحادث عبد الرحمن ، فإذا به قد استسلم لنوم هنىء .

وكان محباً لحسين ويطيعه فيما يأمر . وأراد حسين أن يظل مستيقظاً

معه فعمد إلى حيلة ، مفادها أن يطلب منه غلق النافذة ثم يطلب فتحها ثم سأله فتح النور ثم يسأله قفله ثم يسأله مزيداً من الغطاء ثم يطلب رفعه . . وبعد أن وجد أن شيئاً فى الحجرة لم يبق دون أن يسأل زميله عبد الرحمن رفعه أو فعله أو فتحه وبرغم ذلك لم يكن النوم قد حل به مثل زميله المطيع . . .

وأخيراً سمع استغراق عبد الرحمن فى النوم ، فراح يوقظه بلهفة وهو يقول له : عبد الرحمن . . عبد الرحمن . . قوم غطِّى القصرية أحسن ناموسة تقع فيها . . . . بلاش وخم . . .

وعندما كان شريكاً فى محل تفصيل الملابس ، حضر إليه دَعِى يجالس العظماء وهو ليس منهم . وكان إلى جانب ذلك لا يُعنى بنظافة بدلته ، ويترك عليها بقايا مما يأكل أو يشرب .

وعندما رأى حسين فى المحل ، بادره بلهجة حادة :

أنتم مادام مش قد المحل ده فاتحينه ليه !

فين البدلة اللى جبت قماشها واتعمل لها بروفتين ، وكل مرة تقولوا لى بعد يومين ، بعد يومين ، فقاطعه حسين وهو يقول له ، وقد غاظه هذا التأنيب الغليظ :

البدلة جاهزة يا أستاذ بس تلقاهم بيركبوا لها الُبقع . .

وكان يصحب أحد الأصدقاء فى أوتوبيس الجيزة .

وقد دفع الصديق للكمسارى ثمن تذكرتين . نسأله حسين ، التذكرة بكام ؟

فقال له الصديق : بقرش صاغ .

فقال حسين : يا سلام دى حاجة رخيصة أوى ما تشترى كمان مرَّة . . . . .

وكنا نجلس آخر الليل فى قهوة المثلث بميدان الجيزة فى الصيف . وكان صاحبها يضع فى الأشجار ، لمبات حمراء وخضراء وزرقاء . وجلسنا على مائدة كانت تظللها إحدى هذه الأشجار . وإذا به يقول متوسّلاً : يا جماعة اعملوا معروف ننتقل على مائدة ما يكونش فوقها شجرة من دول ، أحسن لمبة تكون استوت تقع علينا . . .

وكان يزورنى فى مكتبى وكان وسيعاً .

ولم يكن النيون قد اخترع . فكانوا يضيئون الحجرة بأربع كلوبات من ذات اللون الأبيض الناصع . وكانت كروية الشكل مما يلتبس على ضعاف النظر أمرها .

وكان فى إحدى هذه الزيارات ، عندما كان نظره قد أخذ يضعف ضعفاً شديداً ، نظر إلى السقف ورأى هذه الكلوبات الناصعة ، وإذا به يسألنى فى شىء من الاستهجان : أنتم معلّقين توم . . . ؟ . . . .

وموضع الفكاهة أنه استعمل خلل القياس ، لأن مكتبى كان فى وزارة الخارجية . . . . فى قصر التحرير .

وكان يقول لى ونحن وحدنا : إنكم تستطيعون كتّاباً كنتم أوشعراء أن تعدِّلوا فيما تعدون من كتابات أو تنظموا من شعر ، أما أنا فإنى إذا قلت قولاً ، أصبحت مسئولاً عنه ولا أستطيع أى تعديل فيه

وحدث أن اقتحمته عين أحد أصدقائنا ، لأن حسين كان دقيق الجسم ذو صلعة ناصعة ويجلس صامتاً . وراح هذا الصديق يدخل معه

قافية دون أن يعلم أنه حسين الترزى ، وكانت قفشاته من قبيل قافية اشمعنى .

فسألنى وكنت أجاوره ، عن اسم هذا الظريف . . .

وعندما علم أن اسمه حسنين ، وكان جلداً على عظم ولا يزيد أكثر من ثلاثين إلى أربعين كيلو ، وفى هزال دائم .

فراح يسأله : وليه يا أخى حسنين ؟ ما حسن واحد كفاية بالنسبة لوزنك ؟ وليه تشيل حسنين لوحدك . . . .

وكان يقول عنه بعد أن قام هارباً ، إن الحانوتى يدق على باب منزلهم ويقول لأهل البيت : مش سى حسنين خلاص . . . يقصد أنه مات من ضعفه . . .

فيقولون له : فى الحقيقة لسه شوية . . . فوت بكره . . . .

فيقول لهم : هاتوه بقى أهو كويِّس كده . . . . .

وكان أحد الأثرياء الذين كان يتردد عليهم ، قد نصحه طبيبه المعالج أن ينشغل بهواية من الهوايات فإنها تصرفه قليلاً عن مواصلة شرب الخمر . ولم يكن هذا الثرى ، برغم نعومة الحياة التى كان يحياها ، ورعاية أهله وجميع إخوانه ، يفيـق من الخمر واستمعُ بالفعل لنصح الطبيب وأحضر لوازم التصوير بالزيت وخصص حجرة من حجرات القصر الوسيع لهذه الهواية . وذات يوم قصده حسين الترزى وكان قد فرغ من رسم صورة Portrait نصفية تمثل شخصاً ما فسأل حسين عمن يكون هذا الشخص فقال له حسين : أنا لا أعرف هذا الشخص ولا عمرى شفته فقال الثرى : دقّق نظرك . ففعل وفشل فى معرفة الشخص فقال له

الثرى : يا أخى دى صورتى فقال له حسين : أنت عايزنى أعرفك إزاى من الصورة دى . لا فى إيدك كاس ولا عينك حمرا ولا بتطوَّح ولا بتتخانق . . . أعرفها إزاى . . .

كنا نجلس فى أحد النوادى وحضر أحد الوجهاء الذين يهتمون كثيراً بهندامهم وزينتهم وراح يحمل على الحلاق الذى قص شعره وأصبح لا حديث لنا غير هذا الوجيه وهو مهتاج ومندفع فى عصبيته فقال له حسين : المسألة بسيطة يا أخى ، روح للحلاق ورجع له الحَلْقة ما دام مش عاجباك . . . .

ذكر له أحد أصدقائه أن الحارة التى يقع فيها منزله يسكنها عفريت . فقال له حسين : ما كبر دلوقت العفريت وبقى عجوز وغلبان وبيقعد على الأرض ويسند ظهره للحيط ، وإمبارح بس وأنا فايت عليه لقيته بيقول لى ، والنبى يا ابنى أنت يا اللى ماشى . تعالى خد بأيدى علشان أخُضَّك . . . .

كنا نستمع إلى أم كلثوم وكلنا آذان . واذا بالجالس إلى جوار حسين يسأله أن يدله على القصبجى ، ومن يكون هو من بين أعضاء التخت ، فقال له حسين ، ووجدها فرصة ليسرح به ، شوف بقى ، سيب أول قصابجى وثانى قصبجى وثالث قصبجى ، وبيبقى هو الرابع . . . على إيدك الشمال .

كنا نتردد على مطعم الباريزيانا أيام عز شارع الألفى وكان (بانايوت) كبير جارسونات المشرب يتولى مدَّنا بجميع خيرات المشهِّيات . بل لقد كان فى ختام الجلسة يحضر لنا سلطانيات مشمش وقاراصيا . وفى إحدى

هذه الليالى ، وبعد أكل المشمش والزبيب والقاراصيا ، نادى حسين على بانايوت وقال له : هات لنا طشت الغسيل وصابونة تغسل أيدينا . علشان مروَّحين . . .

ومن تعليقاته اللطيفة ، كان يقول : إن العادة جرت فى مصر على فرش الرمل فى ثلاث مناسبات :

عند ذهاب الملك لافتتاح البرلمان . وعند ذهاب سفير لتقديم أوراق اعتماده . وعند مرور وابور الزلط . . . . عند تبليط الشارع . . . .

كان يجلس معنا من راح يبشر بزوال الصلع بفضل دواء اخترعه وعرض على حسين استعماله (وكانت صلعته ناصعة)

فقال له حسين : أنا عندى منشة تساقط شعرها نجرب فيها . . .

ومن مفارقاته المضحكة المبكية ، قوله لى : يا أخى الناس جاكتاتها تدوب من الكوع أو الياقة أو الجيوب ، وأنا لا يدوب معنى إلا كم الجاكتة من كثرة من كان يأخذ بيدى بعد ضعف نظرى . . . .

عندما أعدِّى الشارع ، أو أنزل سلالم ، أو أطلعها .

وأصحاب الفكاهة فى مصر كانوا ينقسمون إلى : أصحاب فكاهة منظومة مثل محمود غنيم ومحمود بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى (أبو نواس مصر) . وأصحاب فكاهة منطوقة .

هم أمثال من سلف ذكرهم فى هذا الفصل .

ولا يمنع هذا التقسيم من خروج فريق من هؤلاء إلى صنعة هؤلاء والعكس صحيح .

فقد كان حسين شفيق المصرى عندما كلَّ بصره لا يسير إلا فى رفقته مرافق ليساعده فى الطريق .

وذات يوم قابله صديق فى الطريق ورأى هذا المرافق فسأل شفيق عمن يكون . فأجابه : ده واحد ساحبنا . . .

وكان المرحوم عثمان جلال ينظم فكاهاته شعراً أو زجلاً وهو الذى ترجم لموليير (تارتوف) وأسماها الشيخ متلوف ونظم كثيراً من الأزجال المرحة على ألسنة الحيوانات .

ولكن كان إلى جانب ذلك سريع النكتة وصاحب بديهة حاضرة . وقد حدث له عندما كان قاضياً أن ذهب إلى المحكمة متأخراً فأسرع الخطى وراح يصعد سلم المحكمة فى عجلة وإذ بأحد معارفه من الوجهاء يعدو وراءه ليرجوه فى قضية لديه وكان يقول له يا عثمان بك أنا ليَّه دعوة . . .

فأجاب عثمان بك وهو مسرع : وأنا ما ليش دعوة . . . .

وتخلص بهذا الرد المفحم الظريف .

* * *

وكان من بين سمَّار الليالى ومرتادى مجالس الأنس والمرح والطرب ، صديق يتمتع بقول الفكاهة المنطوقة والفكاهة المنظومة ويعدل بينهما عدلاً سليمانيًّا . . . .

وأبى علينا الصديق المذكور أن نذكر اسمه فى هذه الأوراق ولكننا كنا نحفظ له الكثير مما قال ، نذكر بعضه فى هذا الفصل على سبيل المثال ، وقد حملنا هذا على أن نطلق عليه (الصديق المجهول) . . . نزولاً على طلبه . . .

كان ذات يوم ينتظر فى بهو العمارة التى يسكن إحدى شققها ، نزول « الأسانسير » . وكانت هناك قبله ، أمام المصعد سيدتان ، فى زيارة لإحدى الشقق . وكان السهم الدال على نزول الأسانسير يبشر بقرب الفرج ولكنه طال ، فقالت إحدى السيدتين لزميلتها : تعالى نصعد السلم يظهر أن الأسانسير متوقف . فقال لها الصديق المجهول : يا أفندم الأسانسير نازل وعلامة النزول دليل ، ولكنه أحياناً ينزل على السلم . . . .

وفى ظهر أحد أيام شهر أغسطس فى القاهرة ، كان الصديق المجهول يلبس قبعة تقيه وهج شمس أغسطس ولهيبها ، وإذا به يفاجأ بمن يعدو وراءه وعندما استدار وجده أحد أصدقائه القدماء ولكنه كان مشغول البال ، فلم يلحظ مرور الصديق فى مواجهته ، وراح الصديق يعتب عليه نسيانه أو تجاهله ، فوجم الصديق المجهول ، وقد سدّت فى وجهه منافذ الاعتذار ، ثم استدرك أخيراً وقال له : الحقيقة بقى ، أنا ما عرفتكش (وأنا) لابس البرنيطة . . .

وكان يسير فى الطريق وإذا بصديق يستوقفه ويمضى معه فى حديث استغرق أربعين دقيقة ، وعلى المقيمين خارج القاهرة ، تُصبح اثنين وأربعين ، وعندما جاء الفرج وأراد الصديق أن يذهب لحال سبيله ، قال للصديق المجهول ، ابقى خلّينا نشوفك ، فقال له الصديق المجهول : بس قول لى أنت بتقف فين وأنا أجيلك . . .

اشترى الصديق المجهول لبًّا أبيض عندما كان ثمن (الكيلو) ، (١٦٠) وعندما عاد لداره وجد أن أغلبه قلبه فارغ (أفرغ من فؤاد أم موسى) . ولم يشأ أن يترك ثأره وذهب فى اليوم التالى لمحل التسالى الذى

اشترى منه ، فظن الرجل أنه أصبح زبوناً ، فسأله ، يظهر أن اللب عجبك ، فقال له الصديق المجهول ، عجبنى جداً يا أخ ، بس كنت تقول لى إنه لب بناتى . . . .

وذات يوم دُعى الصديق إلى الغداء بمنزل أحد أصدقائه ، وكان من عادته أن يتناول شيئاً من المشروبات لفتح شهيته العنيدة . ولكنه فوجئ بأن جميع المدعوين ممن لا يجرؤ على فعل ذلك أمامهم . ولاحظت السيدة اللمَّاحة ما هو فيه من ضجر وضيق ، فأدخلته إلى حجرة داخلية ، وقالت له إنها ستحضر إليه كأساً يشربها بسرعة قبل الغداء ولكنه اعتذر فقالت له : ده كأس واحدة . . .

فقال لها : ما هو عشان واحدة ما اقدرش . . . .

وكان للصديق المجهول صديق يمتلك رخصة مجلة أدبية منذ زمن بعيد ، وطلب من الصديق المجهول أن يسهم بقدر من شعره فى صحيفة الشعر ، فلم يعارض الصديق المجهول .

وإذا به يُفاجأ من صديقه بضرورة تفسير كل كلمة له ، من القصيدة التى ينشرها قبل ظهور العدد بمدة ، لأن مدير التحرير عامل سيبوبه . . . فرضخ له لما بينهما من صداقة . وعندما نفَّذ له هذا الشرط فى أول عدد ، إذا بالصديق يقول للصديق المجهول ، يا أخى ده أنته بتعرف عربى كويس أوى ، فقال الصديق المجهول ، أبداً يا أخى ده انته اللى يظهر ما تعرفش عربى .

وسافر مرَّة إلى الإسكندرية للمصيف وكان قد حجز حجرة ، وبسبب زحام المصيف قبل أن يقيم بها برغم أنها مخصصة لاثنين . . . وصودم

بأنها تكاد لا تتسع لحركته بها ، إلا بعد حركات أكروباتيه حتى لا يتعرض لانزلاق غضروفى أو كرامب . . . وكان مثلا يلبس ملابسه على الطريقة السويدية . . .

وعندما نزل إلى المكتب لتسليم المفتاح سألوه إذا كانت الحجرة أعجبته فقال للمسئول : لا بأس . . أبداً . . ففرح المسئول فرحة لم تطل لأن الصديق المجهول راح يقول له : إن الحجرة لا بأس بها ، ولكن لشخص واحد ، على شرط ألا ينام فى الحجرة ولكن يكون له خالة أو عمة ينزل عندها ولا يحضر للأوتيل إلا للسؤال عن البوستة أو التليفونات . . . .

وعندما كان الصديق المجهول يعمل فى اليونان فى موقع من مواقع عمله ، سأله عندما عاد ، مسئول كبير عما لفت نظره أكثر من أى شىء فى اليونان ،

فقال له : كثرة القهاوى ، لدرجة أنك يمكن تقدر تعد بين القهوة والقهوة عشرين قهوة . . . .

وعندما أتم الصديق المجهول دراسته القانونية ، وكان يسكن مع عائلته بالقرب من مقياس النيل فى الروضة ، قال له والده ، إن البيت متسع وأنت الآن لك مدخل مستقل وحجرتان ، حجرة لنومك والحجرة الأخرى لاستقبال أصحاب الدعاوى . فقال له الصديق المجهول : أصحاب الدعاوى يحضرون هنا ؟

ده أنا عمرى ما شفت سائل أو محروم وصل لغاية هنا . . .

* * *

وبعد ، فإذا كان كل فن ينطوى على إطار ومحتوى ، وعلى شكل ومضمون ، وعلى مظهر وجوهر ، يستوى فى ذلك الرسم والشعر والتمثيل والنحت ، وما شاكل ، فإن الفكاهة هى الأخرى ، ينطبق عليها هذا القانون ، لأنها فن من فنون القول الجميل .

فالرسم إذا خلا من محتوى الجمال الفنىّ ، الذى يبثه الرَّسام من ذات نفسه وروحه ومشاعره ، وينقله إلى لوحته لينفذ به إلى قلب وإحساس ومشاعر المشاهد ، فإنه لن يبقى من الرسم إلا قطعة من قماش ومزيجاً من الألوان .

والتمثيل إذا خلا من مضمونه وهدفه من البناء والتوجيه والترشيد ، أصبح شيئاً لا يزيد على مشاهد تتوالى وأفراد يذهبون ويجيئون على المسرح ويتحدثون حديثاً أكثره ثرثرة لا تطرق إلا السمع ولا تنفذ إلى الحس والعقل والخاطر .

وقل المثل فى الشعر الذى سما به العقاد حتى بلغ به أعلى سماك حين قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ والشاعر الفذُّ بين الناس رحمن

وهو إذا خلا من هذه القدسية ، ومن معانيه العميقة الدقيقة ، ومن مشاعره النبيلة الجميلة ، فإنما هو تفاعيل وقوافى لا روح فيها ولا حس .

والدِّين فى أوامره ونواهيه وفى أركانه ودواعيه ، لا بد فيه من روح ومحتوى ومضمون .

فالصلاة إذا خلت مما تحضُّ عليه من عدم إتيان المعصية والمنكر ، ومن الوقوف بين يدى الله خاشعين لتقديم الشكر له على ما أولانا من

نعيم الوجود ، فإنها تصبح حركات رياضية .

والصيام يصبح جوعاً لا حضًّا على الشعور بحاجة المحروم وتقوية الإرادة والسمو على الشهوات الدنيا .

والحج إذا خلا من التبرك بأرض الوحي والرسالات ، والطواف حول أول بيت شُيد للناس ليعبدوا الله فيه ، وخلا من زيارة مثوى النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، حامل آخر الرسالات السماوية ، وخاتم الرسل والنبيين ، وتحقيق منافع من التعارف واللقاء ، فإنه يصبح تجارة وسياحة .

والفكاهة التي تعتبر كالمسرح (أبي الفنون) ، هي الأخرى تتضمن إطاراً ومضموناً .

في الفكاهة تمثيل . وفي الفكاهة إخراج . وفي الفكاهة تصوّر وخيال . وفيها من الشعر رويّه وحُسْنُ وقعه وترتيله . وفيها من الرسم نقله الأمين للأصل المرسوم .

وفي الفكاهة نقدٌ وتوجيه وترشيد . وفيها ترفيه وتمريض وعلاج .

وهي إذا خلت من المضمون والجوهر والمحتوى ، غدت شكلاً لا غناء فيه ولا جدوى منه ، وأصبحت عبثاً لا طائل من ورائه ، وانحدرت إلى مستوى (القفش والقافية) .

وقد اشتق العرب اسمها من الفاكهة ، وما أظن أن لغة أخرى حملت هذا المعنى الجميل . فالفاكهة ضرورة وشفاء ولذة . وفيها تنوّع في الطعم والشميم والغذاء .

وكذلك شأن الفكاهة في حياتنا ، فإنها تساعد على هضم مصاعب

الحياة وعلى تفريج تجهم العيش وتيسير العسير المرير .

ولا أزعم أنى أحطت إلا بالقليل مما تحتوى عليه الفكاهة ، من معان وأهداف ، ولكنى أزعم أنى فيما ذكرت ، نوَّهت بمزايا للفكاهة على أساس أنها قاعدة التوازن ، كما سلف وأوضحنا فى التمهيد لهذا الكتاب . فعندما يعترى النفس اضطراب ، تخف هى لتمسح بسحرها كربة المكروب ، ولا تترك النفس حتى يعود إليها الأمن والاطمئنان ، لتمضى فى سيرها إلى هدفها المنشود ، ومصيرها المحتوم .



الفصل الحادى عشر

مجالس الظرفاء

كانت مجالس الظرفاء تنتشر فى أنحاء عديدة فى القاهرة القديمة والحديثة . فكانت قبل العشرينات تنعقد فى مقاهى متعددة حول المقام الحسينى وفى دار المهدى بباب الخلق وفى قهوة المعلم بباب الخلق أيضاً وفى قهوة متاتيا بالعتبة الخضراء وفى بار أستراليا بشارع عماد الدين ، وفى منادر وصالونات لا حصر لها ولا عد .

ونحن نذكر ما سوف نرويه عن هذه المجالس على سبيل المثال فإن حصرها يحتاج إلى هيئة إحصاء وتعداد ومراقبة ومراجعة ومتابعة . .

وكان الشيخ الشربتلى ، نجم قهوة المعلم بباب الخلق . ويتخذ منها مكتباً يدير منه أعماله الصحفية . ففى استطاعته تقليد أى أسلوب أو قلم فى البلد . وعندما يجىء إليه أصحاب الصحف — وكان أغلبهم من الأميين — كان يتفق معهم على تسعيرة تتنوع فئاتها تبعاً لنوع الكتابة والأسلوب .

فإن كان المطلوب مقالة على نمط كتابات اللواء وأسلوب المؤيد ، فثمن الصفحة خمسة قروش .

وإذا كانت الكتابة المطلوبة تسلك مسلك أسلوب الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى ، فالصفحة بعشرة قروش .

أما النوع الممتاز من كتابات ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمذانى فالشيخ لا يسمح بأقل من خمسة عشر قرشاً ، لأنها كتابة مخدومة ومنتقاة .

وكان إذا اشتكى أحد أصحاب الصحف من أن المنضدين للحروف ضجوا من صعوبة قراءة الحروف الصغيرة التى يكتب بها الشيخ الشربتلى ، صرخ الرجل : « هى الخمسة قروش حتشترى ورق والا حبر والا أجر كتابة . احمدوا ربنا ! » .

وكان عثمان جلال بك المستشار الشاعر الزجَّال المسرحى ، قد ألف مع شلَّة من أقرانه ، جماعة أطلق عليها اسم (جماعة الأنس) تجتمع فى مندرة دار تقع على ناصية حارة البرقوقية .

وكان يروى ذات يوم لروّادِ المندرة ، قصته مع ناظر مدرسة الطب فى أيامه .

فقد ذهب لمقابلة الناظر وكان يعرفه . ورحب به الناظر وسأله إذا كان يرغب فى إدخال (حافظ جلال) – الدكتور فيا بعد – المدرسة ، فقال له عثمان بك : لا فسأله الناظر إذا كانت هناك خدمة أخرى أؤديها فأنا كلى استعداد . فقال عثمان بك : عايزك تدخل حافظ ابنى مستشفى المدرسة . فأجابه الناظر بأن حافظ فى صحة طيبة . فقال له عثمان بك أنا أعلم ذلك . ولكنى أريد أن يتمرن أولاً على المرضى ثم يرتقى إلى ممرض ثم رئيس ممرضين ثم يدخل مدرسة الطب ويسير متدرجاً من أول خطوة . . . . حتى يتخرج دون أن يفوته شىء . . . فانبرى أحد أعضاء الجماعة ليقول لهم إن قريباً له من أهل الريف جاء لزيارته فى

القاهرة . ولما استقر به المقام راح يسأله عن أهل بيته وفى طليعتهم ، ابنه الوحيد ، فقال له صاحب الدار ، الحمد لله دخل مدرسة الطب ودلوقت بيشتغل طبيب أطفال ، فقال له قريبه الطيب القلب : ليه يا شيخ ما كنت تخليه يكمل . . . .

وكان بار الأنجلو وبار اللواء وقهوة ماتاتيا وحلوانى صولت وقهوة ولبانى التى كانت تقوم بجوار سميراميس وكان يرتادها شوقى بك صنيعاً ، كلها كانت منتديات عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الراقية .

وكان الشيخ عبد العزيز البشرى نجم الأنجلو . كما كان حافظ إبراهيم نجم بار اللواء . ومحجوب ثابت نجم حلوانى صولت . وفى قهوة ماتاتيا كان يجلس بها إمام العبد مع رهط من ألمع أصحاب النكتة .

وهذه القهوة شهدت جلسات جمال الدين الأفغانى وعبد الله النديم وسامى البارودى فى شبابهم .

وكان الشيخ البشرى يعجب كل الإعجاب بإمام العبد وبسرعة خاطره ونكتته الحاضرة دون فحش أو تجريح . ولكنه ابتلى ذات يوم بمتأدب كان اسمه محمود راح يقول لإمام العبد إنه أجمل قصيدة للمتنبى هى قصيدة :

عيد بأية حال عدت يا عيد .

وضحك ضحكة فهم منها أن المتأدب المذكور يقصد بيت القصيدة .

لا تشترى العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

فقال له إمام على الفور . بل لعل بيت القصيدة هو :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمنٍ يسئُنى فيه كلب وهو محمود

* * *

وكان يؤم دار حافظ إبراهيم فى حلوان رجل اسمه سليمان شوقى يزعم أنه توصل إلى اختراع مُرشّح للماء بوضع تركيبات فخارية فى زير يخرج منها الماء رائقاً صافياً .

وذات يوم كان يجلس مع الندوة دكتور بكير ، وكان يستمع فى غيظ لشرح الرجل الذى علم أنه كل يوم على هذه الحال ، فقال له : يا أخى ذنب الناس إيه لما تروّق الميّه وتعكّر دمّهم . . . .

وذات يوم كان البابلى يجلس فى ندوته الخاصة بالسيدة زينب عندما يصعب عليه نزول البلد للجلوس فى الأنجلو بسبب إضرابات جارية . فقد كانت المدارس مضربة وكذلك الترام والعربات والمحال العامة احتجاجاً على تصريحات كانت تصدر عن زعماء بريطانيين ، تمس أمانى مصر فى الاستقلال ،

ومر بهم شحّات ألح كثيراً فى طلب السؤال فقال له البابلى : يا أخى اضرب لك يوم ، أنت ما عندكش وطنية ؟

وكنا نجلس فى مقهى رويال أمام شيكوريل ومعنا أحد أفراد عائلة ترك أصحاب المخابز الشهيرة باسمهم . ومر سائل وألح على الأخ ترك فى طلب حسنة فصرفه بحجة عدم وجود فكّة ، ولكن السائل لم ينصرف ، فقال حسين الترزى لإبراهيم ترك :

يا أخى اكتب له شيك برغيفين يصرفهم من المخبز . . . وقمنا ذات مساء من قهوة رويال لسماع الأستاذ محمد عبد الوهاب فى تياترو برينتانيا وكانت وقتها تجرى فى عهد إسماعيل صدقى انتخابات نيابية على

درجتين أى لا بد من انتخاب ثلاثين مندوباً وينتخب من هؤلاء نائب الدائرة

وفى التياترو كان عبد الوهاب يغنى لأول مرّة موال : مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك . وإذا بحسين الترزى يصرخ : كمان والنبى يابنى محمد ده أنا مسكين ثلاثينى . . . .

وفى قهوة نيس بميدان الإسماعيلية (التحرير حالياً) ومكان عمارة بحرى كنت أجلس فى انتظار حسين الترزي ومعى صديق دكتور . وعندما حضر حسين قدمته للدكتور وراح حسين يشتكي من بعض أوجاع يحس بها ، فقال له الدكتور أحسن شيء أنك تحللّ البول علشان الدكتور المعالج يعرف بالضبط مرضك . وهات لى تقرير التحليل وأنا أكشف عليك .

وراح حسين يسأله : وكم يكلفنى تحليل البول ؟

فقال له الدكتور : أظن جنيهاً أو اثنين !

فقال له حسين : طيب والبول من عندى ولا من عند الدكتور . .

وفى أحد الأيام حضر المعلم دبشة الجزار وجلس على مائدة قريبة منا . وكنـــا نعرف أنه لا يقرأ ولا يكتب . وأردنا مداعبته . فكتبنا ورقة صغيرة ونادينا الجرسون وطلبنا منه تسليمها للمعلم دبشة . ونفَّذ الجرسون ما طلبنا .

وقد أسقط فى يد دبشة ، ولكن لماحيته وذكاءه كانا أسرع من فرحتنا فيه ، فقد استبقى الجرسون وراح يمصمص شفتيه متحسراً ، ثم أخرج من جيبه قطعة فضية من فئة الخمسة قروش وطلب منه أن يسلّمها لنا ، كما لو كنا سألناه إحساناً . . . .

ومن نوادر دبشة أنه كان يمتلك دكان جزارة بشاع التحرير الحالى . وكانت صغيرة إلى حد ملفت للنظر .

وذات يوم وقف أمام القاضى لاتهامه بمخالفه التسعيرة . وكان رئيس الجلسة بالمحكمة الجزئية ، أمضى سنوات عديدة بالمحاكم الجزئية مفضلاً تخطيه ، على ألاّ يغادر القاهرة . ولما نودى على القضية تقدم دبشة ، فسأله القاضى ، أليس هو أنت صاحب الدكانة . . .

وراح يشير بيديه إشارة يفهم منها أن الدكان فى حجم الكف . وعلى الفور قال له دبشة : أيوه يا سعادة البيه الدكانة الجزئية . . . .

وذات يوم مرّ حسين الترزى على رامى بدار الكتب — وهى ندوة عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الذكية — وعندما حان ميعاد الانصراف قال رامى لحسين : بختك من السما . احنا عندنا النهارده ملوخية بالأرانب وتعال بنا نمشى واخترقا ميدان باب الخلق وهما فى طريقهما إلى بركة الفيل . ومرا على محلات كثيرة من محال بيع الطرشى . وكان رامى يقول لحسين : يا سلام لو كان معانا سلطنية كنا أخذنا معانا من هنا ، دى البرطمانات شكلها يشهى فما بال الطرشى . فقال حسين لـرامى والا يا سيدى لو كان معانا ترموس كنا أخذنا فيه طرشى علشان يفضل حرّاق ٤٨ ساعة . . . . .

وفى ندوة دار الكتب ، كان يجتمع أحمد رامى وأحمد الزين وأحمد محفوظ ويحضر لزيارتهم أحياناً الهياوى وكنت من بين المترددين على النـدوة لزيارة رامى أو لاستعارة كتاب .

وحضرت مرة حديثاً فى الندوة يتناول طريقة أداء الأغانى وأسلوب

كل مغنٍّ . ولم يكن الأستاذ أحمد الزين من الراضين عن النعومة فى الغناء وترديد النواح والبكاء فى موضع الترفيه . وسمعته يقول إنه بدأ فى قصيدة ينعي فيها على هذه الفئة كل هذا النواح وأن مطلعها هو :

أنائح أنت أم مُغَنٍّ ! سلبت عزم الرجال منِّى

وكان محل صولت الحلوانى ، المكان المفضل لشوقى بك . وكان جلساؤه فيه ، الدكتور محجوب ثابت والشيخ عنارة والشيخ الجديلى والشيخ الجزيرى وأحمد محفوظ وكثير من أهل الفضل والأدب وكبار رجال الصحافة الذين كانوا يسعون وراء الجديد من أخبار الندوة وخاصة شعر شوقى فى محجوب ثابت . وقد أملى فى صولت قصيدة (براغيث محجوب) وقصيدة (مكسوينى) . وقد سبقت الإشارة إليهما فى فصل سابق .

وكان الشيخ البشرى لا يغادر الأنجلو إلا بعد أن ينتصف الليل . وذات ليلة تأخر عن موعده ولم يشأ أن يذهب إلى دار أولاده فى الزيتون ، ففضل أن يبيت عند شقيقته فى السيدة زينب .

وكان فى عصر ذلك اليوم قد اشترى وهو جالس فى الأنجلو ، قفص فراخ يحتوى على خمس عشرة دجاجة . وأدخل خدم المقهى القفص فى مخزن المهملات لحين قيام الشيخ .

وعندما استعد للذهاب . وضعوا له القفص بجوار سائق العربة المعتاد توصيل الشيخ إما إلى محطة الزيتون أو إلى السيدة زينب تبعاً لإشارة الشيخ . وسارت بهما العربة إلى السيدة .

وعند وصول الركب إلى دار السيدة شقيقة الشيخ البشرى حمل

السائق القفص إلى المنزل واحتفظت السيدة بالفراخ فى السطوح واعتنت بها وبأكلها ونظافتها كل العناية .

وبعد شهرين من هذه الزيارة ، كانت التعليمات لدى السائق أن يذهب إلى السيدة . فمضى بالشيخ إلى دار شقيقته .

وفى الصباح تنسَّم الشيخ روائح ذكية منبعثة من بيض يُقلى بزبدة طيبة . وسأل وهو يتناول إفطاره عن كل هذا الخير – وكان البيض كثيراً أمامهم – فقالت له :

فضلة خيرك . الفراخ فراخك والبيض منهم . وإذا كنت عايزهم أجمعهم لك ، بس تدفع مصاريف الأكل إللى قدمته لهم ، وهى حسبة ثلاثة جنيهات . . .

فصرخ الشيخ وهو يقول : بقى يا عالم أدفع قسط بناتى فى (الساكركير) ، ثلاثة جنيهات فى الشهر وادفع للفراخ زيهم . . . ليه ؟ رايحين يكاكوا فرنساوى . . . .

وعندما دُعى الشيخ البشرى لقضاء أيام فى عزبة الشريعى باشا بالمنيا ، تأخر عن العودة فى الموعد المضروب ، وفكَّروا أعضاء الشلة فى إرسال برقية تتعجَّل عودته وتركوا لحفنى بك محمود صياغة البرقية . وكانت على هذه الصورة الشفرية :

« كشكار دايم ولا علامة مقطوعة . . . »

حتى لا يفهمها إلا الشيخ وحده ، باعتبارها من لهجات شمال الأنجلو . . ومن اللغات المندثرة . . . .

وكانت تعنى ، أن العز المؤقت الذى تنعم فيه ، مصيره إلى نهاية .

ومن الخير لك أن تعود لما هو دائم . . . .

وفى عصر أحد الأيام ، حاول البشرى أن يقطع شارع شريف أمام الأنجلو ، ولكن السيارات ، كانت وكأنها مسبحة ، متوالية ، متصلة . فوقف إلى حين انفراج .

وكانت تقف إلى جواره سيارة إسعاف كانت تؤدى خدمة فى المنطقة فقال سائقها للشيخ البشرى ، الذى يترقب فى خوف :

ما تفوت يا سيدنا الشيخ !

فقال له الشيخ : بس مش عايزين نتعبكم . . . . . .

وكنت أجلس مع دكتور إبراهيم ناجى فى مطعم سيسبل بميدان التوفيقية ننتظر رامى . وراح ناجى يحكى لى عن قصته مع مريض كان على خصاصة وعوز ، فأعطاه ناجى بعد الكشف وكتابة الروشيتة مبلغ جنيه لمساعدته .

وبعد شهور لقى ناجى زوجة المريض فسألها عن صحته فقالت له الله يعوض عليك يا دكتور . إحنا جبنا بالجنيه بتاعك حكيم كويس وكان فى ايده الشفا والحمد لله . . . .

فقلت له ، إنى كان بينى وبين صديق كريم ، دكتور عيون ذكى ونابه ، ولكن كانت تشغله عن فنه شئون عديدة وسعيدة . . .

فرويت مره عنه ، أنه كان يفحص عين مريض وأطال فى الفحص وتململ المريض وقال للدكتور ، بتعمل إيه يا دكتور ، قال له بافحص عينك يا أخى ، فأجاب المريض :

دى العين القزاز يا دكتور

وفى مصيف رحله بجبل لبنان ، فى صيف عام ١٩٢٧ ، نظم شوقى قصيدة « يا جارة الوادى » ، واسم القصيدة فى ديوان شوقى « آية الزمان » ، ليرد به شاكراً لبلدية زحلة تفضلها بمنحه قطعة أرض فى أجمل بقعة بالمصيف ليبنى عليها شوقى قصراً يحل به كل صيف .

وكانت البلدية قد أقامت فى هذه المناسبة حفلاً كبيراً دعت إليه الكثيرين من أدباء وشعراء وكتاب العرب ممن كانوا يصطافون فى لبنان فى ذلك الصيف ، احتفاء بشوقى بك وتكريماً له .

وبعد أن أعلن مدير البلدية قرار البلدية ، قام الأستاذ الكبير بصوته الأخاذ ، الأديب الكاتب فكرى أباظة ليلقى القصيدة الخالدة . ولم تكن (يا جارة الوادى) المعروفة إلا مقدمتها الغزلية . ولكن القصيدة الأصلية تزيد على خمسين بيتاً .

وكان الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب قد لحن هذا الجزء المعروف ، وقام بغنائه فى هذا الحفل الكبير ، حيث استقبله جمهور المستمعين استقبالاً يتمناه الفاتحون . . .

وكانت ليلة . . تمنينا أن يقف الصباح فلا يقربها ، إلى أن انبلج نور الفجر ، وانطوت ليلة العمر ، التى ما يزال أرجها يعبق ويملأ الذاكرة بشذاها ويفيض على الفكر بريَّاها . وحتى يومنا هذا ، ما تزال هذه القصيدة (يا جارة الوادى) تغنَّى بصوت عبد الوهاب فى منتديات نهر البردونى الذى يشق وادى زحلة وتنتشر على ضفافه مطاعم ومشارب وأماكن لهو تسطع أنوارها وتبدو حول البردونى الذى لا يزيد عرضه على أربعة أمتار ، كما لو كانت سواراً من ماس .

وأصبحت يا جارة الوادى رمزاً على وادى زحلة ، ونالها من الشهرة الخالدة ، مثل ما نال أغنية (على جسر أفنيون) Sur le Port d'Avignon التى ظلت منذ القرن الرابع عشر تتردد حتى اليوم على لسان كل صبى وصبية فى جميع أنحاء فرنسا .

* * *

وفى صباح هذه الليلة الهنيئة ، كان المصريون المصيفون من نزلاء فندق قدرى يجتمعون ، وكلهم أصدقاء ، فى تراس الفندق انتظاراً لصحف القاهره فى لهفة وقلق .

وكان شوقى بك يجلس معنا أحياناً ، مستمعاً كعادته ، أو معلقاً بقول حكيم لا يطول أكثر من حسو الطير من جدول رقراق .

كانت الصحف قد نشرت هذا الصباح ، توصل مدام (كورى) لاكتشاف عنصر الراديوم الذى يمثل مرحلة من مراحل الاختراعات والتطور العلمى السريع ، وسلسلة من فتوحات العلم النظرى والتطبيقى .

وكنت من حسن طالعى أجلس إلى جوار الشاعر الخالد حيث كنت أطلعه على الخبر المثير فى صحف الصباح المحلية ، ورأيته يبتهج لهذا النصر العلمى ثم يهمس لى بصوت خفيض ، (إن السيدة التى تصلح لعمل الرجال ، لا تصلح للرجال .)

وكان يعنى أن عملها سوف يشغلها عن مهام بيتها ، ولكن ، لقد أثبتت المرأة بجدارة وبكل صدق وإخلاص فى عصرنا الذى نعيشه ، أنها فى كل ميدان تطرقه تبلغ فيه غايتها بنجاح وتوفيق وصدق وأمانة .

وبينما نحن جلوس ، إذ بصبى يحمل أعداداً من قصيدة (آية

الزمان) طبعتها بصورة عاجلة مطبعة محلية فى زحلة وراح هذا الصبي – وفى جبل لبنان مثل أمريكا يشتغل الصبية فى عطلة المدرسة ببيع الصحف – راح الصبي يلح علينا فى شراء بضاعته من (آية الزمان) واشترينا جميعاً منه فيما عدا شوقى بك ، وراح الصبي يلح على شوقى بك ليشترى نسخة وهو يأبى أن يجيبه إلى طلبه ، بمكر حسن ليرى النتيجة ، وإذا بصديق من الجالسين ، وهو لبنانى ، يقول للصبي : يا أعمى القلب ، ها يدا شوقى بك بنفسه بعظمه بلحمه ، كيف تبيع له القصيدة وهو ناظمها ؟

فقال الصبي : يابا ، باعرف أنه شوقى بك أميرا لشعرا لكن بلكى بينساها . . . .

على أن هذه المجالس ، كانت تطوى فى جوانحها وبين ثناياها ملامح كثيرة من ملامح الجامعات التى لا تقيد طلابها بمواعيد للحضور أو الانصراف ولا تحملهم على الاستماع إلى ما لا يحبون إلا وقتما يشاءون . فالكل فيها منتسب والكل فيها مستفيد ، منذ أن كانت كالبحر المنفتح على كافة التيارات ، وليست كالبركة التى أسن ماؤها من افتقارها طوال ركودها إلى تيارات جارية متجددة .

وكانت المحاولات التى تدور فى الصحف وفى النوادى وعلى منابر الجمعيات ، تطرح للبحث فى هذه المجالس .

فكانت مبارزات الدكتور زكى مبارك التى حمل فيها على كلٍّ من الشيـخ عبد العزيز البشرى وأحمد أمين بلا داعٍ يدعو إليها وكلا الرجلين حقى بكل تقدير ، كانت هذه المصارعات – من طرف واحد – تدعو إلى العجب منها والبحث فى هذه المجالس عن هواتفها .

وقد توصل مجتهد . . من المجتمعين إلى سر الهجوم بقوله : إن الدكتور فى غير حاجة لشهرة ، ولكنه بهجومه المدبر يضمن ألا يتصدى له أى قلم بعد أن عرفوا مرارة هجومه . والمفلس يغلب السلطان ، وهو يعتمد على أنه فى حال ليس من بعده ما هو أسوأ منه .

وإيه ياخد الريح من البلاط . . .

وبعد ، فقد كانت المناقشات فى هذه المجالس تجرى على وتيرة مناقشات الأطروحات التى تقدم للجامعات لنيل درجات علمية ، أمام هيئة من كبار الأساتذة المتخصصين ثم ينصرف المجتمعون وهم على شوق للقاء آخر وآخر حتى آخر العمر . . . رحم الله أهل هذه المجالس ، وأعان من تبقى من فلولها على قيد الحياة .



الفصل الثانى عشر

استخدام الفكاهة في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية

منذ أقدم العصور ، والفكاهة تستخدم فى نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية . وقد تحقق لها ما استهدفته من أغراض ، على أحسن الوجوه ، ولقد استخدمه النقاد وطالبوا بالإصلاح من خلال الفكاهة ، وسلكوا وسائل كان من بينها النقش والنحت والتمثيل والغناء والرسم والنظم والكتابة الأدبية ، لتقويم المعوج من انحرافات تميل بتقدم المجتمعات ، وتخرج بها عن جادة الاتزان ، بحيث يصبح الإصلاح ضرباً من ضروب العلاج العاجل والتصحيح الصحيح .

وكان لقدماء المصريين فضل السبق فى استخدام النحت والنقش للنقد الفكاهى بقصد الإصلاح والعلاج . وما تزال الصور الدالة على ذلك ، تحتل أماكن ظاهرة على جدران المعابد والهياكل ، كما انبثت فى البرديات ، قصص ناقدة ونظم ساخرة .

ولقد ظهر فى نهاية حكم الفاطميين ، أحد قواد صلاح الدين الأيوبى ، واسمه قره قوش . وكان من خيرة قواد صلاح الدين .

وكانت الأحوال السياسية الجارية فى الدولة وحولها ، وانتقال البلاد من نظام شيعى إلى نظام سنىٍّ ، يستدعيان استعمال الشدة والقسوة حتى

لا يفلت الزمام من أيدى الحكام ، الأمر الذى جعل اسم قره قوش رمزاً لكل حكم ظالم مستبد ، أو طاغية جبَّار.

وقد لجأ أهل الفن من الشعب الذى قاسى من ظلم قره قوش إلى ، الفكاهة فى صورة كتابات وقصص وشعر وأزجال وتمثيل ، تناقلها الخلف عن السلف .

وفى أيام الظاهر بيبرس ، كتب ابن دانيال وكان كحَّالاً (يبيع الكحل) مسرحية أسماها (طيف الخيال) استخدم فى إخراجها (خيال الظل) .

وقد أراد بها تحقيق أمرين ، الأول نقد الأحوال الاجتماعية والسياسية فى الدولة ، والثانى المساهمة فى الترفيه عن الشعب الذى كان الظاهر بيبرس قد حرَّم عليه تعاطى المخدرات وهدَّد المخالفين بعقوبات رادعة ، ووقع بالفعل عقوبات بالغة الشدة على هؤلاء المتعاطين .

ووجد ابن دانيال فرصة سانحة فى التعريض عن سبيل هذا الترفيه بما وصلت إليه البلاد من انحلال ، كان يعمل على تفشِّيه ، تدخل الأجانب ونفوذهم .

كما ظهر خلال حكم المماليك (ابن سودون) الذى كان يندِّد بما انصرف إليه الفقهاء من اهتمام بالمتن والشروح وإهمالهم شئون الدعوة إلى الإصلاح الذى هو أولى وأسبق . وراح يجرى حواراً بين دابة وعربة ، أو بين فرس ومركب شراع بصورة غير مألوفة فى التناول والحوار ، حتى لقد ذكر بعض النقَّاد أن هذا الاتجاه وهذه المحاولة كانت بذرة لمسرح العبث واللامعقول الذى حمل لواءه فى عصرنا الحاضر (صمويل بيكيت)

وفى تحقيقات الجبرتى وابن إياس ، تفاصيل وافية عن هذه الحقبة من ذلك* ما نقله الجبرتى من أهازيج كانت تجرى على ألسنة الشعب ، يتندرون بها على الحاكم التركى ويتناولونه بالزراية والهزء ، مثل قولهم :

يا باشـــا يا وش القملة مين قال لك تعمل دى العملة

ثم ظهر الشربينى ، الذى نظم قصيدة شعبية أسماها « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » . وكانت تعد من أكثر الأعمال الفنية الشعبية فى ميدان النقد الفكاهى ، جرأة وكشفاً وثائقياً لأحوال الفلاح المصرى وما كان يحيط به من ضنك نتيجة عدم العناية بعيشه أو صحته أو تعليمه ، وراح ينادى بالإصلاح السريع ، والعمل على رفع الظلم عن الفلاح ، ومنحه بعضاً من صميم إنتاجه من مأكل أو ملبس ، حتى لا يصبح كالإبرة التى تكسو الناس بغزلها ونسجها وتبقى هى وحدها عارية .

ثم ظهر فى عصر تال ، يعقوب بن صنوع ، ليقدم تمثيلياته النقدية ، ويصدر صحيفة (أبو نضارة) فى مصر ، ثم يصدرها وهو فى باريس بعد أن نفاه الخديو إسماعيل من مصر ، ليستمر على الدرب فى نقد الأحوال فى مصر والمطالبة بالإصلاح ، وكان إسماعيل أكبر هدف أمامه .

وعاصر صنوع واستمر من بعده ، عبد الله النديم الذى أصدر صحيفة التبكيت والتنكيت ، التى رفع فيها لواء المطالبة بتعليم الفلاح وإنقاذه من استغلال الأجانب والمرابين ، اعتماداً على جهله بما يحيط به ، ولحجب العلم عنه توسلاً لهذا المصير ، وكانت الفكاهة فى عرض هذه الشئون بارعة ونافعة .

وقد استخدمت المقامات على طريقة بديع الزمان الهمذانى على يد

المويلحى ، فى كتابه (حديث عيسى بن هشام) للتعرض إلى نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بصورة جذابة ، فيها فكاهة ومفارقات ومتناقضات . كما استخدمت الفكاهة الأحاديث التى تجرى على ألسنة الحيوان ، فى كتاب ابن المقفع ، على يد عثمان بك جلال ، الذى نظمها شعراً ، وكذلك صنع شوقى وله فى ذلك ديوان كامل .

ولقد بث شوقى فى أشعاره كثيراً من النقد الفكاهى نكتفى بعرض بيت منها ينتقد به إهمال الحكومة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد فى فى إصلاح وترميم كوبرى (غَلَطَه) الذى يعتبر شرياناً هاماً وجسيراً وحيداً فى إستانبول ، يقول فيه :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمُرُّ على الصراط ولا عليه

* * *

ثم ظهرت مجلات وصحف فكاهية نذكر منها السيف والمسامير وحمارة منيتى ثم الكشكول وخيال الظل والفكاهة والبعكوكة ، لتحمل لواء النقد السياسى والاجتماعى فى عهدها ، وتنقل بأمانة تأوهات الشعب ، بصورة فكهة جذابة ، منذ أن كانت الدعوة إلى الإصلاح ، بالصورة الجادة المألوفة ، تنفرِّ وتفض الناس من حولها .

ومن كتابات عبد الحميد الديب فى نقده لمجتمعه ووصفه لمحترفى السياسة والأدب ، قوله :

« تجد تلك الأقزام المتعملقة ، متحلِّقة ، تستمتع على الكؤوس ، بصيد ونهش سيرة الآخرين . كل لسان هناك نصلٌ سفَّاك ، عاطش للأذى ، فى لؤم ضحَّاك ، إذ أن ذاك الطراز المستريح ، ينبغ فى التهريج ،

ويذبح بطرف اللسان . . »

وهو يخاطب صديقته فاطمة ، منددا بالعيش الذى عاشه فى أيامه .

« لو أننا ، أنا وأنت يا فاطمة ، ظهرنا فى زمن ، يأخذ كل إنسان فيه حقه وكيانه الآدمى الحقيق ، لكان لنا عشق جميل ، وعمل وبيت وأمل . . لكننا ولدنا فى زنقة الطاحون وعشنا فى الكهوف ، وداست عواطفنا وأحلامنا ، أحذية الموكب الأعمى . . »

* * *

وفى أوربا ، كانت رواية (دون كيشوت) أروع أعمال كاتب أسبانيا الكبير ، (سرفانتس) ، تجرى أحداثها من خلال رحلة نظمها الكاتب ، ليقوم بها فى الخيال (دون كيشوت) وتابعه (سانكو يانزو) وبغلته الشهيرة ، ليجرى على ألسنتهم ، حوارا يتناول بالنقد الفكه ، وبالأحداث المجونية ، ما كان يجرى فى أسبانيا من مساوئ فى المجالين السياسى والاجتماعى .

وكذلك كانت روايات وتمثيليات (موليير) الفكاهية ، وقصص (لافونتين) فى القرن السادس عشر ، تهدف إلى الإصلاح ، وكانت تنطوى على نقد ما كان يجرى فى البلاد وفى القصور الملكية من انحرافات . ومن العجيب أن تمثيليات موليير وقصص لافونتين كانت تمثل ، دون أى تعديل ، على مسارح القصور ، أمام الملك والحاشية ، ليروا بأعينهم ، مبلغ ما وصلت إليه الحال من سوء .

وفى إنجلترا ظهرت مقالات (تشارلز لامب) :

Essays of Charles Lamb لتنقد ، برغم التحفظ البريطانى المعهود ،

الأوضاع التى يسلط عليها المؤلف بأسلوبه الفكه الماجن ، أضواء تكشف عن الأدواء ، وتصف الدواء .

* * *

ومصر بحمد الله غنية بالنقد الفكه البنّاء ، الذى وصلت فيه إلى أعلى الذرى ، فى النظم والكتابة والصور ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حتى أيامنا هذه

وتعددت ألوان الفكاهة الناقدة ، من كاريكاتير إلى تمثيل إلى شعر إلى زجل . وهذا اللون الأخير ، تولاه أعلام الكلمة المنطوقة الهادفة ، وسادتها المجيدين ، أمثال بيرم التونسى (موليير مصر) وحسين شفيق المصرى (أبو نواس مصر) وصلاح جاهين وأبو بثينة ومحمود رمزى نظيم وحسين الطنطاوى وإمام الصفطاوى

كان بيرم التونسى ينتقد الغلاء الفاحش وارتفاع رسوم المجلس البلدى ، بشعر جاء فيه :

يا بائــع الفجـــل بالمليم واحــــدة
كم للعيــال وكم للمجلس البــلدى !
إذا الـرغيف أتى ، فالنصـــف آكله
والنصــف أجعله للمجلس البــلدى
كــأن أمى أبــلّ الله تـربتهــا
أوصت وقالت ، أخوك المجلس البلدى . . .

* * *

أما دكتور سعيد عبده ، فقد كان ولم يزل من خير من استخدم من

ناظمى الكلمة الناقدة ، الموال فى نقد الأوضاع الإجتماعية والسياسية باقتدار ودراية .

ونذكر له فيما يلى ، نماذج تلمس فيها مدى درايته واقتداره فى كتابة الموال ، واستهداف الإصلاح بأسلوبه المرح النابه ، وقارئه يلحظ قدراته العروضية فى استخدامه لبيت فى الموال يصوغه باللغة العربية الفصحى ، ويرفع من قدر عمله الفنى .

كان بشعور الأب ، يكتب عن قلق الآباء الطويل ، أيام الامتحانات ، وقلق الأبناء فترة قصيرة ، وشتان بين الفترتين :

يا محنة الامتحان ما أتعسك محنه
يا قالقه نوم الولاد والقلقانين احنـــا
يا قايده نار انتظـــارك فى جوارحنـــا
يا ريت هناكى على قد الشقا . . . إلا
شقاكى أش وفرحك يوم ، إذا فرحنا

* * *

ويقول فى نقد مسئول كبير ، استطاع خلال الأربعينات ، بقدرته الفريدة فى النفاق والرياء ، أن يحتفظ بمركزه الحساس ، عشرين عاماً ، وسط الزعازع والأعاصير :

فين وشك اللى عليه رب العباد أنشاك
أبوسه بوسه هنا وارجع أبوسه هناك
يا معجزة فى البلد ، جلت على الإدراك

يا آية في أكل مخ الخلق . . يا قادر
سارح مع الديب وراجع والغنم ديّاك

* * *

وبعد ، فإن مصر ما تزال بين مختلف الأمم ، جوهرة لألاءة ، في ميدان النقد الفكاهي منذ أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، بإطلاقها النكتة المريشة ، والسخرية اللاذعة ، والكاريكاتير المتهكم البارع .

ولقد شهد للكاريكاتير المصري ، وأساطين الفن الكاريكاتيري في العالم ، وشهدوا بقدراته ، رسما وكلمة ، ودقة وأمانة ، وبوءوه أعلى المراتب ، وأشادوا بدوره كلما عرضت مناسبة .

والكاريكاتير عندنا ، ذخيرة نعتز بها ، وبأربابه على مر الأيام ، وندخرهم للملمّات والأزمات ، ونسعد بإنتاج قرائحهم في أيام الصفو والسلام .

* * *

ولعله لا يكون من العجائب أن الطبيعة في مصر ، تشترك مع أهاليها في إرسال السخرية ، طبعاً لا تطبعاً ، فهي الأخرى ناطقة صادقة . .

فالنيل في جريانه ، يرسل خريراً كله سخر وحكمة . وريحها المعتدل ، يعزف على أوتار الصفصاف ، نغمة ضاحكة وسخراً خفياً . والنار في الأجران عندما يتحلق حولها الفلاحون استجلاباً للدفء ، أو إعداداً للشاى ، ترسل أصواتاً ضاحكة مكتومة ، كأنها تسخر من موقديها . . وسواقي الغدير تئن في ضحك مكتوم ، وسخر لا يبين ومصر التي ترعرعت

الحضارة على ثراها الطيب الطاهر ، تَعْبرُ فى أيامها الحديثة ، مفازة ، كانت خطواتها الأولى على دربها واثقة أبيَّة ، وسوف تصل إلى شاطئ الأمان الذى اعتزمته ، وأصرَّت على بلوغه ، ما دام روح أبنائها المجدِّين ، يترقرق فى أساريره فى كل الظروف ، مزيجٌ من الجدِّ الواثق ، والسخر الجاد .



مراجع الكتاب

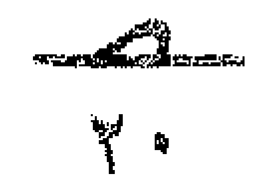
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى
المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى
ديوان أحمد شوقى : لأحمد شوقى
ديوان حافظ إبراهيم : لحافظ إبراهيم
عبد العزيز البشرى : للدكتور جمال الدين الرمادى
سبيل الحياة : لإبراهيم عبد القادر المازنى
جحا الضاحك المضحك : لعباس محمود العقاد
الدراما بين النظرية والتطبيق : لحسين رامز رضا
الكشكول : للعاملى
العقد الفريد : لابن عبد ربه
البخلاء : للجاحظ

Good for a Laugh — by Bennett Cerf For funs and Popularity — by Paul Showers Oeuvres Choisies — par Jules Renard Believe it or not — by Robert L. Ripley.

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٧٦/٤٧٨٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٥٢١ – ٣

١/٧٦/٤٦٨ مطابع دار المعارف–١٩٧٦


ص
٢٠

اقرأ

صلاح طنطاوي

½ مليون دقيقة في أستراليا





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



صلاح طنطاوى

½ مليون دقيقة في أستراليا

اقرأ ٤١٧

دار المعارف بمصر

(أقرأ – ٤١٧)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة . ج . م . ع .

تقـــديم

بقلم سعد الدين توفيق

كانت فكرة تقديم مسرحية عربية فى أستراليا فكرة غريبة حقًا . . ولكنها لم تكن مستحيلة . . فهناك حوالى خمسين ألف عربى يعيشون فى أستراليا ، لا يشاهدون مسرحاً عربيا أو فيلماً عربيا أو يقرءون جريدة أو مجلة عربية . . ليس لديهم سوى الذكريات العميقة التى تربطهم ببلادهم .

فى هذا « الوادى » قرر الفنان المصرى صلاح طنطاوى أن « يصرخ » ! . وهذه هى تفاصيل أول – وربما آخر – تجربة فنية .

فى شهر مارس فكر صلاح فى أن يحتفل بذكرى سيد درويش . ولكن كيف وأين يستطيع إقامة مثل هذا الاحتفال وهو شخصياً لا يعرف أحداً هناك لأنه كان قد وصل مهاجراً إلى أستراليا قبل ذلك بشهرين فقط . وكان « بالتيلة » يعيش ويعمل فى وظائف لا تتفق وماضيه الطويل فى القاهرة رساماً وممثلا ومؤلفاً مسرحيا . ومع ذلك فقد واجه صلاح التحدى بإرادة قوية ، بل لعلنى لا أبالغ إذا وصفتها بأنها جبارة . إذ لابد أن تكون إرادتك جبارة حقًا عندما تقرر أن تحتفل فى أستراليا بذكرى سيد درويش فى مسرح أمام جمهور ، مع العلم بأنك

مفلس ليس فى جيبك أجرة ركوب تاكسى ، فما بالك بدفع إيجار مسرح ! . . وأنك جديد لا تعرف أحداً فى البلد ومع ذلك تريد تقديم اسكتشات غنائية من أوبريتات سيد درويش ! . . وعلاوة على هذا كله فليس لديك أسطوانة واحدة من أغانى سيد درويش ! . .

الشيء الوحيد الذى كان يملكه صلاح طنطاوى يومئذ هو أنه يحفظ أغانى سيد درويش ، ويعرف قصة حياة سيد درويش معرفة جيدة جداً إلى درجة أنه ألف عنه مسرحية منذ سنوات قدمها مسرح التليفزيون ولا تزال مسجلة ومحفوظة بعناية فى مخازن المبنى العتيد القائم على كورنيش النيل .

وبدأ صلاح يذلل المشكلات واحدة واحدة . . مشكلة المسرح حلها عندما اتفق مع الأب بولس راعى كنيسة سيدة لبنان على إقامة الاحتفال بذكرى سيد درويش فى كنيسته . . ووافق الأب وتطوع بأن يدعو بنفسه جمهور المصلين لسماع المحاضرة بعد الصلاة . . وهكذا ضمن صلاح المكان والجمهور وبقى أن يعد الاسكتشات والأغانى . وهذه المشكلة حلها عندما عكف على تحفيظ شابين مصريين مجموعة من أغانى سيد درويش .

وبدأت البروفات فى صالة كنيسة سيدة لبنان . ولبى كثيرون من الهواة العرب هذه الدعوة فانضموا إلى الفرقة . بل إن طلبات الانضمام فاقت العدد المطلوب وهو ٣٠ شخصية من شخصيات الرواية . ولم يبحث المخرج المؤلف عن بطلة لفرقته . إذ تقدمت إليه فتاة مصرية جميلة موهوبة اسمها برناديت مهران . ومع بدء البروفات بدأت المتاعب .من ذلك مثلا ما لمسه صلاح فى معظم الممثلين من عجز عن حفظ الحوار وحفظ الحركة .

واستطاع صلاح رغم ذلك أن يذلل معظم هذه العقبات . أما العقبة التى فشل فشلا ذريعاً فى تذليلها رغم كل المحاولات فكانت تتلخص فى شاب من الهواة اسمه فهمى . فبعد بروفات شهر كامل اتضح عجزه التام عن حفظ جملة واحدة تتألف من أربع كلمات ! . . مرة بعد مرة ، وبروفة بعد بروفة ، ولا فائدة ! . . وفى كل مرة يبدو وكأنه غريب يشهد البروفة لأول مرة ! ! . .

يقول صلاح : « عرضت عليه أن يترك الدور ما دام لا يستطيع أن يحفظه . ولكنه تمسك بالدور بشكل مؤثر . فتركت له الدور وبحثت عن طريقة أعالج بها هذه المشكلة . ثم وجدت الطريقة . كان دوره يتطلب أن يمسك مصحفاً فى يده طول الوقت ويفتحه من وقت لآخر ويقرأ فيه . فكتبت له دوره فى نوتة صغيرة واستبدلتها بالمصحف على أن يقرأ دوره من النوتة باستمرار وكأنه يقرأ القرآن .

« ثم جاء اليوم الموعود . يوم الافتتاح وتحولت صالة الكنيسة الهادئة إلى صالة سينما فى أحد أحياء القاهرة الشعبية ! ! فمن أجهزة التسجيل تتصاعد الأغانى المصرية . ومن البوفيه تتصاعد رائحة الطعمية التى أعدتها أم برناديت لبيعها فى سندويتشات استكمالا للجو الشعبى المصرى .

ووسط هذه الحرارة وهذا الحماس بدأنا الحفل . فقدمنا تابلوه « الوطن العربى » وهو النشيد الذى وضعه محمد عبد الوهاب . . ثم تابلوه « عدوية » من ألحان محمد الموجى . وتابلوه « الجارسونات » من ألحان سيد درويش . وبعد هذه التابلوهات الغنائية الراقصة قدمنا مسرحية « سيد درويش » . . وقد نجحنا نجاحاً سأظل إلى آخر عمرى أتذكره

وأتدفأ به . كان التصفيق يقاطعنا طول الوقت . والضحك يتعالى أمام كل جملة مرحة . وملأت السعادة قلوبنا نحن الممثلين .

« أما فهمي فقد أثبتت مفاجآته اللطيفة أنها أكبر من ذكائي ! . . كنت أتصور أنني ضمنته بعد أن كتبت له دوره في نوتة وسمحت له بأن يقرأ الدور من النوتة أثناء التمثيل ، ولكنه كان يفتح النوتة ويردد حواراً من الفصل الثاني في حين أننا في الفصل الأول . . أو يردد حواراً من الفصل الأول ونحن في الفصل الرابع حتى بدا وكأنه يعيش في مسرحية أخرى . وحتى كاد يحدث لنا بلبلة غريبة على المسرح لولا ما كان يسود العرض كله من روح طيبة .

« ثم كان دوره يتطلب منه أن يحمل إبريقاً مليئاً بالشاي ويوزعه على الممثلين في أحد المشاهد . وقد حرصت على أن أملأ له الإبريق بنفسي بين الكواليس حتى لا يحدث خطأ . ومع ذلك فقد ظهر على المسرح والإبريق خال تماماً من الشاي ! . . واكتشفت في النهاية أن فهم شرب الشاي كله أثناء فترات الاستراحة حتى يبقى منتبهاً ولا يكب عليه النوم !

« وجاء موقف بيني وبينه على المسرح . كان الموقف يقضي با يخرج فهمي من المسرح ويتركني بمفردي على المسرح لكي أغني « زورو كل سنة مرة » . .

« وبدأ الموقف على ما يرام . وانتهى فهمي من دوره . وقال : « تصبح على خير يا شيخ سيد » ولكنه لم يخرج من المسرح . وقف جامداً في مكانه وقد نسي البروفات العديدة التي تدربنا فيها على هذا المشهد .

همست له بالخروج : اخرج يا فهمى . . اخرج . ولم يخرج ! . . تصلب فى مكانه ولم يتزحزح . واضطررت أن أهمس لرجال الإضاءة لتخفيفها وأكملت المشهد العاطفى ، فبكيت وغنيت وهو واقف بجانبى إلى آخر الفصل . وبين الكواليس أمسكت بتلابيبه وسألته عن السر فى عدم خروجه . فأجاب فى براءة تامة بأنه كان يعجب بأدائى للمشهد الأخير . ولذلك وقف ليشاهدنى عن قرب ! ! . .

« كان لا بد أن تحدث هذه الأخطاء اللطيفة فى عمل هو الأول من نوعه فى أستراليا ومع أشخاص يقفون على المسرح للمرة الأولى فى حياتهم . وكان النجاح رائعاً وفى الختام غنينا النشيد الخالد « بلادى بلادى » فألهبنا حماس الجماهير التى وقفت تردد النشيد معنا والدموع تملأ عيونها » .

هذه سطور من كتاب جديد اسمه « ١/٢ مليون دقيقة فى أستراليا » تأليف صلاح طنطاوى .

إن هذا الكتاب متعة حقيقية لأنه يروى بصدق وبصراحة تجربة حقيقية . وبعد أن قرأته مرتين ، مرة بالقطاعى عندما تصفحته ، ومرة بالجملة عندما عدت إلى أول سطر فيه وقرأته بالترتيب ، سرحت مع أحلامى وتمنيت أن يفكر صلاح طنطاوى فى تحويل هذه القصة الحقيقية إلى قصة سينمائية . وليس من شك فى أنها ستكون فيلماً لطيفاً وجديداً وغريباً . . .

سعد الدين توفيق

الطريق إلى قوس قزح

في الطائرة أخيراً حقًّا . . .

وورائي أحلامي الكثيرة العريضة في أشياء بعضها مبهم وبعضها واضح . . وأمامي قارة هي أبعد مكان في الدنيا . وهي فيما سمعت المكان الوحيد الذي يسمح بتحقيق أكثر الأحلام طموحاً وجنوحاً إلى الخيال .

هأنذا في الطريق إلى قوس قزح أمتطي هذه الطائرة الضخمة التي لم أرها قبل ذلك إلا في المجلات وأفلام السينما .

عند دخولي الطائرة لفحني هواء بارد ، واستقبلني موظف طويل عريض ذو شارب كث ، وذكرني منظره وثوبه الأزرق الرسمي بصورة البحار الشهير على صناديق السجاير . ثم أرشدتني المضيفة إلى مكاني الذي تصادف أن كان بجانبه مقعد آخر خال . جلست ومعي حقيبة ضخمة كنت أتعثر في حملها ، ولكني أصمم على الاحتفاظ بها متظاهراً بأنها (حقيبة يد) متهرباً بذلك من الوزن القانوني المسموح به في الطائرة وهو ٢٠ كيلو . هذا الوزن الذي حرصت على ألا تزيد حقائبي الأخرى عليه .

استمر الهواء البارد الذي استقبلني يعيش في نفسي وخيالي ويلفح أطرافي فيكاد يجمدها . لم يسترع دخولي وجلوسي انتباه أحد ، كما كنت

أتصور ، أو كما كان يصور لى انفعالى الشديد . ولم يكن جميع من فى الطائرة مهاجرين إلى أستراليا أيضاً كما كنت أتصور ، ثم جاءت جلستى بجوار النافذة ، فأشعلت سيجارة وجلست فى توتر وتأهب منتظراً لما يحدث .

ولكن لم يحدث شىء . ولم تأمرنا المضيفة بربط الأحزمة كما كنت أسمع من قبل ، ولعلها حرصت على عدم إقلاق راحة الركاب النائمين ، حيث كانت الساعة منتصف الثالثة صباحاً .

لم يصعد من مطار القاهرة غيرى . ولم يجاورنى أحد فى مقعدى ، وقضى على أن أقطع المرحلة الأولى من رحلتى وحيداً ، محروماً من متعة الحديث مع الركاب كما يحدث فى قطارات الدلتا .

ثم أقلعت الطائرة فى هدوء . وفى ثوان اختفت عن عينى معالم مطار القاهرة ، ووجدت نفسى فى بطن هذا الحيوان الخرافى ، فى أجواء الفضاء .

حاولت أن أقرأ فلم أستطع ، وحاولت أن أنام مثل باقى الركاب فلم أستطع ، ووجدتنى متيقظاً متنبهاً متوتراً ، فهربت من تصورات المستقبل إلى اجترار الماضى . منذ شهور قليلة لم تكن فكرة الهجرة قد خطرت لى على بال . ربما عابثتنى فكرة السفر من وقت لآخر كما يحدث لكل إنسان عندما تمر به ساعات ضيق أو ساعات رغبة فى التغيير .

ولكن الهجرة كتغيير مادى ملموس لم تكن قط من بين الرغبات التى عابثت خيالى فى أى فترة من فترات حياتى ، فإننى بطبيعتى أتهيب دائماً التغيير ، وليس أحب إلى نفسى من أن يستمر حالى دائماً كما هو ،

إيثاراً للدعة والألفة وتهيباً من المجهول . ولقد عوضنى الله عن ذلك (الركود) الجسمى بنشاط روحى رائع يتمثل فى خيال محلق يطوف الدنيا كلها فى غمضة عين . خيال يحقق لى كل ما أحب بصورة لا تستطيع الحقيقة أبداً أن تصل إليها .

وأستراليا نفسها لم يكن اسمها ليعنى لى شيئاً أكثر - ربما - من المعلومات الجغرافية التى تلقنتها فى الماضى والتى تراجعت على مدى السنين إلى أطراف الذاكرة كمعلومات باهتة غير مجدية لا يشعر العقل باحتياجه إليه .

ومع ذلك هأنذا فى الطائرة ، فى الطريق إلى أستراليا .

ما الذى حدث حتى جعلنى أغير حياتى بهذا الشكل الحاد ؟

لعلها جملة عابرة سمعتها من زميل لى فى العمل أثارت فى نفسى كوامن كثيرة لم أكن أدرى بوجودها من قبل .

خيل إلى بعد حديثى العابر مع زميلى بأن الهجرة هى الحل المثالى لكل مشاكلى . وماذا كانت مشاكلى ؟ .

لم تكن مشاكل بقدر ما كانت رغبات تجيش فى نفسى باستمرار ، تهبط وتعلو ولكنها لا تختفى أبداً . . إن مواهبى جديرة بأن توفرها لى ، ولكن ظروفى كانت تمنعنى من الحصول عليها . رغبات فى معايشة تلك العوالم الساحرة الغريبة التى قرأت عنها آلاف الكتب ، يضاف إلى ذلك رغبتان أساسيتان أعتقد أنهما السبب المباشر فى هجرتى إلى أستراليا . السبب الأول يعود إلى خيالى الجامح الذى يرفض دائماً أن يتصور شيئاً دون أن يسرع كالريح إلى نهايته . حتى اختلطت نهايات الأمور مع

بداياتها فى تصورى . هكذا تصورت أننى مهما عشت ومهما كتبت ومهما نجحت ، فسوف أظل محدوداً بجمهور يقرأ لغة واحدة . وصور لى طموحى أننى أستطيع أن أقهر ذلك التصور البخيل إذا ألقيت نفسى فى عالم آخر يتكلم لغة أخرى ، وألقيت بمواهبى أمام جمهور آخر ، جمهور لا تحده حدود وتنتشر لغته فى جميع أطراف المعمورة .

صور لى طموحى إذن أننى إذا نجحت فى الكتابة بلغة (عالمية) فإننى أستطيع أن أحلم بأن أصير فناناً عالميًّا .

السبب الثانى هو نوع من سوء المصادفات المضحك ، أو الذى يبدو الآن مضحكا ، ولو أنه طالما آلمنى وصور لى وجودى كله ومستقبلى كله فى صور مظلمة شائهة .

فقبل هجرتى بست سنوات صدر قرار بنقلى من وظيفتى بالقاهرة إلى إحدى مدن الوجه القبلى . ولما كنت لم أغادر القاهرة فى حياتى – إلا لمزاجى – فقد جاء هذا النقل صدمة لكل أعمدة حياتى . يضاف إلى ذلك أن اهتماماتى بالمسرح والأدب والصحافة لم تكن لتجد مجالها إلا فى القاهرة .

وتصورت عند نقلى أنها صدمة عابرة ، وأننى أستطيع أن أعود إلى القاهرة بعد مضى بعض الوقت . ولكن كل ما يحدث ، أو كل ما يستطيع أن يحدث ، من عقبات حدث لى حتى لا أعود إلى القاهرة .

جربت كل وسائل التغيير من طلبات للنقل وللندب وللبدل وللاستقالة ، وللتعيين الجديد ، ولكن لا فائدة ، كأن الدنيا كلها قد اجتمعت لتجعل بعدى عن القاهرة مصيراً أبديًّا .

وبعد سنوات من محاولات النقل المستمر والانتظار والأمل واللهفة والترقب وخيبة الأمل والمحاولة من جديد والفشل من جديد ، شعرت بأن أعصابى قد انهارت وبأننى لن أستطيع أبداً أن أغير هذا الوضع ولن أستطيع أبداً أن أقبله .

قلت لنفسى إنه إذا كان قد كتب على أن أحرم من وجودى فى القاهرة فليكن هذا الحرمان حرماناً حقيقياً ، حرماناً يباعد بينى وبينها آلاف الأميال لا عشرات الأميال.

هكذا وجد منى الحديث العابر مع زميل فى العمل أرضاً خصبة للتفكير الجاد فى الهجرة ، وبدا ساعتها أن الهجرة هى الحل الموفق السعيد لوضعى الغريب . وبنفس الحماس الذى أتناول به كل شىء بدأت المشروع الجديد . وما أسرع أن ذهبت إلى مكاتب السفارات التى توافق على الهجرة إلى بلادها . ولم أجد سهولة فى الاستعلام وتقديم طلب الهجرة إلا فى مكتب الهجرة التابع لأستراليا .

ملأت الطلب الحافل بأسئلة لا أول لها ولا آخر ، ثم قدمته فى اليوم التالى . ولم تمض أيام حتى جاءتنى رسالة تدعونى لاختبار المقابلة الشخصية التى لم تخرج عن تكرار الأسئلة والأجوبة الواردة فى الطلب الأول . ثم انتهت المقابلة بابتسامة وبتذكيرى بأننى أسافر على حسابى فى حالة الموافقة على سفرى .

ولم أكن أتصور غير ذلك منذ بداية تفكيرى فى الهجرة فوافقت وعدت إلى البيت أنتظر ما يأتى به الغيب .

وتمخض ذلك الانتظار عن دعوة جديدة للكشف الطبى الذى انقسم

إلى مرحلتين ، الأولى للكشف الباطنى ، والثانية للكشف بالأشعة ، ثم قيل لى فى النهاية إن هذه هى آخر مرحلة . وعلىّ الآن أن أنتظر أربعة أشهر حتى يأتينى التصريح بدخول قارة الأحلام .

وتعوذت بالصبر الجميل فى هذه المدة الباقية حيث بدا أنه لا حيلة فى تغييرها ، وإن كنت لم أحتج إلى هذا الصبر الجميل . فبعد شهر واحد فوجئت بالتصريح النهائى يصلنى فى خطاب رقيق من مكتب الهجرة .

وكان التصريح يسمح لى بدخول أستراليا فى خلال مدة سنة من تاريخه ، ولكنى لم أنتظر . ولماذا أنتظر ؟ ها قد تحققت أحلامى بصورة باهرة ، وجاءتنى موافقة (عالمية) بعد ست سنوات من الرفض القاطع لكل طلب بسيط أتقدم به .

سلمنى مكتب الهجرة خطاباً (إلى كل من يهمه الأمر) يفيد بأن إقامتى وسكنى وعملى مكفولة عند وصولى إلى أستراليا . وأمام أسباب الطمأنينة هذه سارعت بتقديم استقالتى من عملى واستخراج جواز السفر ، وأنهيت إجراءات التصريح بالخروج فى أيام ، ثم ودعت أهلى وأصدقائى ، وركبت الطائرة فى الساعات الأولى من صباح أحد أيام يناير .

وهأنذا فى الطائرة أخيراً حقًّا . وقد زالت عنى رهبة الموقف ، ونظرت من النافذة المجاورة لى لأرى الطائرة فوق السحب ، ويخيل إلىّ من فرط سرعتها أنها واقفة فى مكانها . وأرى من خلال السحب بحاراً وجبالاً تبدو وكأنها خريطة باهتة فى أطلس مدرسى قديم .

وبدأ ضوء النهار يدخل من النوافذ الضيقة وبدأ الركاب يستيقظون

وجاءت المضيفة لتقدم لنا الفطور ، وهو كأس شراب له لون المانجو وطعمه به مزوزة غريبة . وصدمنى هذا الطعم عندما تذوقته لأول مرة . وظل يصدمنى دائماً حتى بعد أن عرفت أنه عصير الأناناس . .

ومع شراب الأناناس جاءتنا صينية بها أطباق ميكروسكوبية بها ما يكاد يكون « عينات » من الطعام . ولم يكن هذا ما تصورته عن طعام الطائرة ، ولكنى جاريت من حولى وأكلت ذلك الطعام الذى تركنى أكثر جوعاً مما كنت عندما بدأت فى تناوله .

« تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » . . هذا ما قلته لنفسى عن المضيفة التى طلبت منها مزيداً من هذه الوجبة المضحكة ، فنظرت إلى باستغراب شديد ، وكأننى أطلب شيئاً منكراً . ثم عادت على مضض وقدمت لى بعض الفتات أكلته حتى لا أتعرض للجوع فى هذا السجن الطائر .

ثم جاءت أول محطة للطائرة : (كوالا لامبور) ، وقيل لنا إن المدة المسموح لنا بالخروج فيها هى ثلاثة أرباع الساعة ، ثم أعطونا تذكرة صغيرة تسمح لنا بتناول شراب مجانى فى مطار (كوالا لامبور) .

وخرجت من الطائرة لتقابلنى شمس متوهجة وقيظ شديد ووجوه سمراء . قصدت بوفيه المطار ، وتناولت الشراب المجانى (الوحيد) فى البوفيه . الأناناس مرة أخرى . . ثم عدت إلى الطائرة . ومن كوالا لامبور صعد راكب جديد أسمر ذو عين وجلس بجانبى . واحدة وملامح قاسية . ورحبت به وتصورته مهاجراً مثلى ، ولكن اتضح أنه موظف رسمى فى كوالا لامبور . سجان على وجه التحديد، وأنه ذاهب فى مهمة رسمية فى هونج كونج .

وحكى لى صديقى السجان الشيء الكثير عن بلاده وعن مشاكلها السياسية والاجتماعية وعن كفاحه هو ضد قوى الاستعمار أو قوى التحرير لا أدرى .
ثم جاءت هونج كونج أخيراً وهبط فيها .

وتوالت المطارات ، وتوالى شراب الأناناس كأنه (قسمة ونصيب) .
وفى النهاية وصلنا إلى أول مطار فى أستراليا مطار (أدليد) .

وجاء هذا المطار بعد المطارات السابقة مفاجأة مذهلة . قطعة رائعة من فن المعمار ، عامر بكل أسباب الفخامة الحضارية والذوق الجميل .
وشربت الأناناس دون أن أشعر بمزوزته وأنا مبهور بألوان الجمال التى تحيط بى ، وكأنى فى متحف فنى بديع . هذه هى أستراليا إذن أرجو أن يصدق المثل القائل : (الخطاب يقرأ من عنوانه) .

ومن (أدليد) صعد الطائرةشاب أسترالى جلس بجانبي وبدأنى الحديث فى ألفة وبساطة ، فأخبرنى أنه جندى عائد من حرب فيتنام بعد سنوات من البعد عن وطنه . ووجدته ساخطاً على الحرب وعلى فيتنام وعلى كل ما ينتمى إليها . ولكنى لم أنجح فى أن أعرف منه شيئاً عن طبيعة الحياة فى أستراليا ، فإنه كان يجيب عن كل سؤال بما يشبه النكتة والدعابة ، ثم يغير ما يقول ، ثم يتفرع إلى حديث آخر . وفى النهاية عرفت أننى لم أعرف منه شيئاً ، ولا غرابة فى ذلك فلعله هو نفسه لا يعرف شيئاً عن بلاده . .

ثم وصلنا إلى المطار الأخير للطائرة : (سيدنى) الذى لم يكن المطار الأخير بالنسبة لى ، فقد كنت أقصد (ملبورن) . لماذا ؟ لست أدرى . .

فى سيدنى مررنا بموظفى الجوازات والجمارك مرور الكرام ، فلم يفتح أحد لنا حقيبة ولم يفتش جيباً . وكان الاستقبال رقيقاً مهذباً ترك فى نفسى

أثراً بالغاً ، وكان على أن أستقل الطائرة المحلية . . من (سيدنى) إلى (ملبورن) وهذا ما قلته لموظف الجمارك المهذب الذى تولى حمل حقائبى بنفسه ونقلها إلى الطائرة الأخرى فى دماثة غريبة جعلتنى أقول فى نفسى إنه إذا كان الأستراليون جميعاً على شاكلة هذا الملاك فإن هذه هى الجنة حقاً . .

ثم تركنى الملاك ومضى إلى حال سبيله ، وركبت الطائرة الصغيرة التى بدت كاللعبة الخشبية الصغيرة بالقياس إلى الطائرة الضخمة التى تركتها لتوى .

حتى المقاعد فى الداخل كانت صغيرة متلاصقة كأنها « صالة » سينما أنشئت على عجل . ومرة أخرى جاءت جلستى بجوار النافذة . وجلس بجانبى زوجان فى أواخر السن . وما كان أشد دهشتى عندما عرفت أنهما من مصر ، وأنهما هاجرا إلى أستراليا منذ عشر سنوات . حادثانى بعربية متكسرة وسألانى عن كل شىء فى مصر بشوق وحنين .

كان الرجل يبدو عجوزاً لطيفاً ، أما الزوجة فقد كانت تتصنع الشباب وترتدى ثياباً زاهية الألوان . طمأنانى على طبيعة الحياة فى أستراليا وعن سهولة الحصول على عمل ، ولاحظت فى أثناء الحديث أنهما عاشا فى مصر حقاً ، ولكنهما لم يحملا الجنسية المصرية . . ثم حلقت الطائرة فى سماء (ملبورن) بعد قرابة ساعة ، وعند ذلك رأيت من النافذة أجمل منظر رأيته فى حياتى . ملبورن . . دائرة هائلة من الخضرة اليانعة تتخللها أو لا تكاد تتخللها مبانٍ صغيرة ذات أسقف حمراء اللون ، حتى خيل إلى أن ملبورن حديقة كبيرة وليست مدينة . ثم اتضح المنظر بالتدريج ، وإذا

بملبورن فعلا حديقة ضخمة تتناثر فيها المبانى والشوارع والأنهار .

وظهر مطار ملبورن ، وهبطت الطائرة ، وأرشدنى أصدقائى الجدد إلى أن أركب أتوبيس المطار ليوصلنى إلى قلب المدينة . أما هما فقد ركبا سيارتهما الخاصة التى كان ينتظرهما بها ابنهما . حملت حقائبى وركبت « الأتوبيس » الصغير الأنيق الذى لا يوجد به كمسارى وإنما السائق هو الذى يحصل ثمن التذاكر ودفعت ثمن التذكرة (نصف دولار) ، وكان هذا أول مبلغ أنفقه فى أستراليا .

جلست فى « الأتوبيس » وأنا أشعر بتعب شديد ، فلم أكن قد نمت ساعة واحدة فى الاثنتين والعشرين ساعة التى استغرقتها الطائرة فى الوصول من القاهرة إلى سيدنى ، ولكنى أخذت أطمئن نفسى بأننى بعد قليل سوف أصل إلى قلب المدينة ، وأجد رجال الهجرة فى انتظارى لإرشادى إلى محل راحتى وإقامتى .

وانتهى « الأتوبيس » من رحلته ، ووقف فى فناء واسع هبط فيه الركاب . وحملت حقائبى الثلاث ونزلت . ونظرت حولى فلم أجد أحداً فى انتظارى . وانصرف الركاب جميعاً ، وانصرف « الأتوبيس » نفسه ، وبقيت وحدى .

أين رجال الهجرة ؟ هل وصلت إلى قارة خطأ ؟ ؟ ! !

انتظرت دقائق فلم يظهر أحد . ثم لحظت موظفاً فى كشك خشبى صغير ، فتقدمت نحوه وسألته عما إذا كان عنده علم بقدومى ، ولكنه نفى علمه بأى شىء ، كما نفى أن أحداً من رجال الهجرة قد حضر فى ذلك اليوم .

وما العمل ؟ علىّ إذن أن أذهب بنفسى إلى مكتب الهجرة . ولكنه

أخبرنى بأن اليوم الأحد العطلة الأسبوعية الرسمية ، وأن مكتب الهجرة وجميع الوزارات والمصالح فى إجازة . وتصورت أنه من المستحيل ألا يكون أحد موجوداً على الإطلاق فى مكتب الهجرة ، فطلبت منه أن يدلنى على مكتب الهجرة ، فأرشدنى إليه ، وكان على مسافة قريبة من الجاراج ، فتركت حقائبي عنده ، وخرجت من الجاراج إلى شوارع ملبورن لأول مرة .

كانت الساعة الثالثة ظهراً ؛ ولكن الشمس كانت مختفية ، والجو بارداً جدًّا ، والمطر يهبط على شكل رذاذ خفيف ، والشوارع صاعدة هابطة ، والمنازل مغلقة والمحلات مغلقة ، وكل شيء متلفع فى إطار من البرودة والفراغ وما يشبه الظلمة .

ولكن أشد ما أدهشنى كان ذلك الصمت المروع . الصمت الذى لم أعرفه قبل الآن قط . فلا صوت بشر ولا عربة ولا ترام ولا حتى طيور . صمت هائل مخيف يكاد الإنسان يحس به مادياً ملموساً ، كأن المدينة مهجورة ، أو كأن البشرية لم تدب على الأرض بعد .

سرت حسب إرشاد موظف « الجاراج » حتى وصلت إلى مكتب الهجرة ، ووجدت أمامه حديقة ضخمة كانت هى المكان الوحيد العامر بالأحياء . طيور بيضاء غريبة تطير على مستوى منخفض وتطلق صرخات غريبة روعت نفسى لشدة تأثيرها وسط الصمت الهائل .

ووجدت مكتب الهجرة مغلقاً ولا دليل على وجود إنسان فيه .

آه . . ماذا أفعل ؟

بدأ الخوف يتسلل إلى نفسى ثلجاً بارداً . فلم يكن فى جيبي إلا ثمانية جنيهات أو ١٦ دولاراً أستراليًّا هى كل ما دخلت به أستراليا . ولم أكن

أعرف أحداً على الإطلاق فى أستراليا . كان خطاب مكتب الهجرة المطمئن فى جيبى . ولكن ما العمل الآن ؟ أين أقضى الليلة ؟ وعلى حساب من ؟ .

عدت إلى الجاراج وعرضت مشكلتى على موظف الجاراج (وهو المخلوق الوحيد الذى رأيته منذ وصلت). كان الموظف شاباً صغيراً مهذباً سريع الكلام سريع الحركة . . وقد طمأننى أولا إلى أننى ما دمت أتكلم الإنجليزية بطلاقة فلا خوف على . وأخبرنى بأنه كثيراً ما استقبل مهاجرين لا يعرفون من الإنجليزية كلمة واحدة . . ثم كان الحل الذى اقترحه لمشكلتى هو أن أقضى الليلة فى فندق على أن أذهب إلى مكتب الهجرة فى الصباح التالى .

وسألته عن إيجاز الغرفة فى الفندق فأجاب بأنه فى حدود خمسة أو ستة دولارات . وتراجعت فى ذعر فلا أستطيع إنفاق رأسمالى الوحيد (١٦ دولاراً) بهذه البساطة .

ثم طلبت منه أن يساعدنى فى العثور على أرخص محل للنوم . فاقترح على جمعية الشبان المسيحيين، إذ ليس هناك – فيما يعلم – ما هو أرخص من نفقاتها ، وافقت وحجز لى بالتليفون حجرة بإيجار (٣ دولارات) فى الليلة (ونصف دولار) للفطور .

اطمأننت إذن على قضاء الليلة ، وسألته عن مكان جمعية الشبان المسيحيين فاقترح على أن أركب تاكسى ، فكدت أشك فى سلامة عقله . . وعند ذلك تطوع بأن يوصلنى بسيارته إذ كان ميعاد عمله قد انتهى . قبلت عرضه فى امتنان . وبعد دقائق كنا فى سيارته بعد أن تركت حقائبى عنده لليوم التالى . .

سارت السيارة فى الشوارع الجميلة المهجورة . وأردت أن أجامله فأبديت إعجابى بالطابع (الإنجليزى) الذى يبدو فى كل شىء . ولكن هذه المجاملة أغضبته وفسرلى غضبه بأن الأستراليين (أو الجيل الجديد منهم على الأقل) يكرهون الإنجليز ، ويحاولون التخلص من تغلغل النفوذ الإنجليزى ، ونصحنى بألا أكرر هذا الخطأ أمام أى أسترالى مرة أخرى . .

حاضر . ماذا يهمنى أن يكره الأستراليون الإنجليز أو يحبوهم ؟ إن أمامى ألف مشكلة تتطلب التغلب عليها .

بعد دقائق كنا أمام جمعية الشبان المسيحيين ووجدتها بناء ضخماً جميلا فى ميدان واسع يطل على نهر (يارا) . وهناك تركنى الصديق الأسترالى ومضى . .

دخلت الجمعية وفى يدى حقيبة يد صغيرة بها ملابس خفيفة . وتقدمت من موظفة الاستعلامات وأخبرتها باسمى ، فأعطتنى مفتاح حجرتى بيد ، ومدت يداً أخرى قائلة : ٣ دولارات ونصف من فضلك .

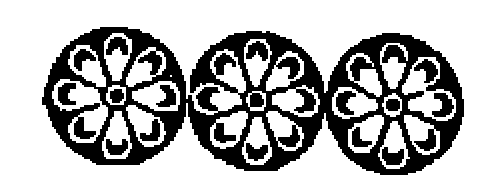
صعدت إلى حجرتى فى الطابق الثانى بعد أن عبرت ممرات وجدت الصمت فيها أشد هولا من صمت الشارع . وفتحت باب الحجرة ودخلت وخلعت ملابسى وارتديت « بيجامة » ثم تمددت – أخيراً – على السرير ، وقلت لنفسى : أنا الآن فى أستراليا وفى جيبى ١٢ دولاراً ونصفاً ، ولا يعلم إلا الله ما يأتى به الغد .

ومن النافذة المقابلة لسريرى جاء الطائر الأبيض الغريب يحوم حول النافذة ويطلق صرخته الثاقبة ، فقلت لنفسى لعل هذا نوع من الترحيب .

لم أكن قد تناولت أى طعام منذ إفطارى فى الطائرة ، وكان عصير

الأناناس هو آخر شراب دخل معدتى . ولكنى لم أكن أشعر بجوع فى هذه اللحظة بل برهبة وذهول وإرهاق شديد . وما هى إلا لحظات حتى غلبنى النعاس .

وسرعان مارحت فى سبات عميق .



سلطانية شاى

استيقظت من النوم العميق بعد ساعات .

ولم أدرك مكانى لأول وهلة بل تصورتنى ما أزال فى مصر. وشيئاً فشيئاً تمالكت حواسى ، وأدركت الحقيقة الباهرة ، الباردة جداً ، فقد شعرت بأننى فى ثلاجة ، فضلا عن الجوع الشديد الذى كنت أسمع عصافير بطنى تهتف به فى « كورال » جماعى طالبة الشبع .

ارتديت ملابسى وخرجت إلى الدور الأول وطلبت من موظفة الاستقبال أن تحدد لى موقع الجمعية حتى لا أضل الطريق إليها عند عودتى . أعطتنى الموظفة خريطة لمدينة ملبورن ، وحددت عليها بالقلم موقع الجمعية ، ثم أرشدتنى إلى أن أمشى فى شارع (سوانستون) الذى يمتد من بداية المدينة إلى نهايتها فى خط مستقيم ، والذى لا يمكن أن أضل ما دمت أسير فيه .

خرجت من الجمعية وفى يدى الخريطة كالسياح . استقبلنى عند خروجى رذاذ المطر الذى لم ينقطع . ثم عبرت ميدان الجمعية وعبرت جسر نهر (يارا) إلى ميدان آخر ، عرفت فيما بعد أنه ميدان محطة (فلندر) ، وهى محطة القطارات الرئيسية فى ملبورن .

ومن هذا الميدان بدأ شارع (سوانستون) على امتداد مستقيم مع جسر

نهر (يارا) . بهرتنى الأضواء المتعددة الألوان والمعروضات الجميلة ، ومعالم المدينة الرائعة ، ولكنى وجدت المحلات كلها مغلقة كما كانت منذ أن وصلت .

أين أستطيع أن أجد مكاناً أتناول فيه الطعام أو أشترى منه شيئاً ؟

لم أجد مطعماً ولا محل بقالة ولا مقهى مفتوحاً ولا أى شيء ، أو على الأقل لم أجد محلا يوحى شكله بأنه واحد من هذه .

جعلت أتقدم فى الشارع حريصًا طول الوقت على أن أنظر خلفى باستمرار لأتأكد أننى لم أبتعد كثيراً عن جمعية الشبان المسيحيين . وكلما تقدمت فى الشارع رأيت مزيداً من محلات المجوهرات والفراء والأزهار والكتب « والأنتيكات » وكل ما يمكن أن ينتجه البشر ، ما عدا الطعام ، أى طعام . .

وتقدم الوقت وأنا أذرع الشارع صاعداً هابطاً دون أن أجد غايتى . ومر بى بعض الناس ولكنى خجلت أن أسأل أحداً ، وتجرعت مرارة الوحدة والجوع على مضض حتى وقعت عينى أخيراً على محل مفتوح . محل حلويات مفتوح . كيف عميت عيناى عنه مع أنه فى أول الشارع ؟ وتذكرت المثل القائل : الغريب أعمى ولو كان بصيراً .

وقفت أمام المحل أدرسه وأدرس معروضاته . رأيت فى « الفاترينة » أنواعاً مختلفة من الحلوى ، وعلى كل قطعة سعرها . الحمد لله . لن أضطر إلى حرج السؤال أو المساومة .

بحثت بين الأصناف المعروضة عن أكبرها حجماً وأرخصها سعراً ، فوجدت فطيرة بالتفاح بسعر (١٣ سنتاً) . عظيم . هذا شيء فى متناول

ثروتى . . دخلت المحل واشتريت ٣ فطائر وخرجت بها فى كيس من الورق .

ضمنت العشاء . بقى الآن أن أشرب الشاى . . ولم يخطر ببالى أن ذلك المحل نفسه يبيع الشاى ، فعدت أسير فى الشارع من جديد باحثاً عن مقهى أو ما يشابهه ، ودخلت فى تخبطى وتجوالى إلى مبنى محطة (فلندر) . ووجدت داخلها ممرات وأنفاقاً سرت فى أحدها ، وإذ بى أفاجأ بالشاى ، رأيت أشخاصاً يقفون وفى أيديهم أكواب كبيرة يشربون منها الشاى الساخن الجميل . ورأيت أمامهم ما يشبه البار وخلفه عاملة هى التى تبيع الشاى والقهوة والمشروبات المثلجة (إذا كان هناك مجنون يشرب شيئاً مثلجاً فى هذا الجو البارد) . تقدمت فى سعادة وطلبت كوب شاى ودفعت ثمنه (١٠ سنتات) أى ما يعـادل (٥ قروش) . ومن الشاى وفطائر التفاح حصلت على عشاء بديع وخرجت من المحطة قرير العين .

ماذا أفعل الآن ؟

الساعة ما زالت العاشرة فهل أعود إلى الجمعية ؟ وماذا أفعل هناك إلا أن أجلس بمفردى فى الحجرة الصغيرة الباردة ؟ ولكن ماذا أفعل فى الخارج وأنا لا أعرف أحداً ولا مكاناً أتجه إليه ؟ ولكن امتلاء معدتى ملأنى ثقة بنفسى وبالمستقبل . وكنت قد رأيت الترام يقطع شارع سوانستون ، فقلت فلأستكشف مدينة المستقبل . ركبت الترام الذى وجدته شبه خال . وسار الترام يقطع شارع سوانستون الطويل صاعداً حيناً هابطاً حيناً آخر كأنه يسير على تلال . وجاء « الكمسارى » وأعطانى تذكرة تقاضى ثمنها (١٣ بنساً) أى ثمن فطيرة التفاح . هذا تبذير لامبرر له ، والأفضل أن أغادر

الترام وأعود ماشياً ، لقد أنفقت فى هذه الأمسية ما لا يقل عن دولار من دولاراتى المعدودة .

غادرت الترام وعدت من جديد ، وأنا أحرص على ألا أنحرف عن شارع سوانستون إلى غيره من الشوارع ، وسرت أتفحص المحلات فأجد الغالبية منها محلات للمجوهرات التى تعرض أصنافاً لا نهاية لها من الحلى الذهبية ، ولاحظت أن لون الذهب مختلف عن لون الذهب المصرى ، فهو أكثر ميلا إلى البياض . إنه يشبه ما يسمى عندنا بالذهب الإفرنجى ، وكان فى أصبعى خاتم من الذهب المصرى أتيح لى فيما بعد أن أعرف أنه الوحيد من نوعه فى أستراليا .

وصلت إلى ميدان محطة فلندر ، وحرصت على أن أتناول كوباً آخر من الشاى ، ثم عبرت الكوبرى والميدان ، ودخلت الجمعية وصعدت إلى حجرتى . .

كنت أتوقع أن يتملكنى الأرق ، وأن أظل أتقلب فى الفراش مدة طويلة ، ولكنى وجدتنى أتثاءب وأغالب النوم . ولماذا أغالبه ؟ ألقيت بنفسى ، وقبل أن أدرى كان غطيطى يملأ الحجرة .

استيقظت فى السادسة صباحاً جائعاً – مرة أخرى – كالذئاب . وتذكرت أننى دفعت ثمن الإفطار ، فلبست ثيابى فى لحظات وخرجت ، ووصلت إلى المطعم فى الدور الأرضى ، ولكن وجدت المطعم مغلقاً . . وقرأت على الباب لافتة تقول إن الإفطار يبدأ من السابعة والنصف . .

خرجت من الجمعية وذهبت إلى محل الحلويات فوجدته مغلقاً . دخلت محطة (فلندر) وهبطت النفق ، فوجدت محل الشاى مفتوحاً

وهبط الشاى فى أمعائى ساخناً لذيذاً غريباً مؤلماً ، وشعرت فى هذه اللحظة بأن الدنيا كلها لا تساوى طبقاً من الفول ورغيفاً طرياً . . وربما بصلة خضراء ، ولكن أين منى هذه النعم الآن ؟

انتهيت من الشاى ، وخرجت إلى ميدان المحطة ، ووجدته مكتظًّا بالناس الذين يسيرون فى سرعة مذهلة . عشرات من الناس يدخلون المحطة ومئات يخرجون منها . وقفت أتأمل هذه الصفوف الآلية وأنا أقول لنفسى : عما قريب أنضم إلى هذه الجموع النشيطة ، وأبدأ تكوين المليون دولار الأول من ثروتى . اشتريت جريدة وقرأتها دون أن أفهم عما تتحدث ، فلم أكن – فى ذلك الوقت على الأقل – أعلم شيئاً عن مجتمع أستراليا ومشاكله واهتماماته . ثم قرصنى الجوع بشدة بعد أن دخل هواء الصباح النقى رئتى وهفا على أمعائى الخاوية . نظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف . آه . . إلى المطعم . .

وعلى باب المطعم قابلتنى الروائح الشهية والبخار المتصاعد من الآنية العامرة بكل خير . فدخلت وأنا أتعشم كل خير . وجدت المطعم مليئاً « بالترابيزات » التى يجلس حولها المفطرون على أطباق البيض واللحم والفاصوليا وأصناف أخرى . إذا كان من حقى أن أطلب ما أشاء بتذكرتى فسوف أطلب كل هذه الأصناف .

فى نهاية المطعم رأيت « طابوراً » متحركاً من الزبائن فى يد كل زبون صينية عليها أطباق فارغة ورأيتهم يمرون أمام سيدات تملأ كل سيدة طبقاً من الإناء الساخن الكبير الذى أمامها .

عظيم جدًّا . وقفت فى نهاية الطابور ورأيت الزميل الذى أمامى تناول

صينيته من دولاب فى طريق « الطابور » فأخذت صينية مثله ، ثم رأيته وضع على الصينية أطباقاً فارغة . . ففعلت مثله وسرت فى « الطابور » . .

وتحرك « الطابور » الساحر حتى وصلت إلى السيدة الأولى التى سألتنى ماذا تريد ؟ وظننت أننى يجب أن أبدأ بالشاى ، فقدمت لها الفنجان الفارغ وقلت : شاى من فضلك ، وإذا بها تنظر إلىّ نظرة غريبة وتسأل باستنكار : تريد شايًا فى هذا ؟ ولم أدرسر استغرابها ، فأجبت : نعم . فكررت سؤالها وكررت إجابتى ، وأنا أشعر بحرج شديد . وبأن آمالى العريضة فى الإفطار الشهى تنهار بسرعة مخيفة . ولم ترحمنى المرأة بل استدارت إلى زميلتها وهمست لها وهى تشير إلىّ ، فضحكت الأخرى ثم همست الثالثة إلى الرابعة ووجدتنى فى النهاية مركزاً لهمس ساخر قاس لا أفهم له سراً . .

وعند ذلك جاءتنى النجدة من الرجل الواقف خلفى – أو لعله أراد أن ينهى هذا الموقف ليحصل على إفطاره – فنبهنى إلى أن ما قدمته لأحصل على الشاى فيه ليس فنجاناً وإنما هو سلطانية للفاصوليا .

ونظرت إلى الفنجان المشئوم فوجدته حقاً سلطانية صغيرة بدون يد ، لم أنتبه فى ارتباكى الأول إلى الاختلاف الدقيق فحملتها على أنها فنجان.. التهب وجهى وتمنيت لو تنشق الأرض وتبلعنى . ثم رأيت المرأة مازالت تنظر إلىّ فى سخرية وشماتة حببا إلى أن أقذف بالسلطانية فى وجهها . ولكنى أردت أن أصحح موقفى ، ولم أجد ما أقوله للساخرة القاسية خيراً من أن أقول : نعم أريد أن أشرب الشاى فى هذا .

ولكنها هزت رأسها فى إصرار ورفضت أن تعطينى الشاى وصممت على أن أحضر لها فنجاناً . حاولت أن أعود القهقرى إلى مكان الدولاب ،

ولكن الواقفين خلفى احتجوا وطلبوا أن أخرج من « الطابور » كلية وأبدأ من جديد .

خرجت من الطابور وبيدى الصينية الخالية ، وعبرت المطعم كله وأنا لا أكاد أرى ما أمامى لفرط ما يملؤنى من الخجل والغيظ والقهر . وعدت إلى أول نهاية الطابور واستبدلت بالسلطانية فنجاناً ، ووقفت فى الطابور أتحرك كالمذهول حتى وصلت من جديد إلى آنية الطعام . ورأيت الأصناف العديدة التى تملأ الأطباق من بيض بالجامبون إلى شرائح اللحم المقلية والفاصوليا ، ولكنى كنت قد فقدت شهيتى لكل شىء ، بل إننى كنت أشعر أنه لولا خوفى من أن أسبب عاصفة من الضحك الجماعى لألقيت بالصينية على الأرض وأطلقت ساقى للريح ، لأهرب من هذا المطعم اللعين وأستنشق هواء نقيًّا بعيداً عن هذه الروائح الشهية البعيدة المنال . هكذا لم أجرؤ على أن أطلب إلا فنجان شاى . وخرجت من الطابور وبيدى الصينية وعليها مجموعة من الأطباق الفارغة وفنجان ملىء بالشاى ، وجلست إلى منضدة خالية أتناول فطورى ، وبعد رشفات من فنجان الشاى اليتيم تجرأت على أن أنظر حولى لأرى تأثير وقع مغامرتى على الجالسين ، ولكنى لم أجد واحداً قط ينظر إلىّ . وكأننى غير موجود وكأن ما حدث لم يحدث .

رأيتهم يأكلون فى سرعة « ولهوجة » وانقطاع تام عن الدنيا كلها وانشغال مخلص كامل لعمليات القطع والمضغ والبلع ، ورأيت بعضهم يأكلون ويقرءون الجرائد فى نفس الوقت . فأتممت شرب فنجان الشاى (٥٠ سنتاً) وخرجت من المطعم إلى قاعة الجمعية .

أما تفسير هذا الموقف العدائى الغريب الذى وقفته منى عاملة المطعم فإنه – كما فهمته بعد – راجع إلى تعصب الأستراليين الشديد لعاداتهم وتقاليدهم ، حتى إنهم لا يسمحون للغريب بأن يخالف هذه العادات لحظة واحدة مهما كان حسن النية .

ولكن كان على أن أتعلم الكثير عن قارة العجائب فيما بعد .

أما فى هذا الوقت فقد كانت الساعة الثامنة وكان هدفى هو أن أذهب إلى مكتب الهجرة . ولم أكن أعرف الطريق من الجمعية إلى مكتب الهجرة بل لم أكن أعرف الطريق إلى « الجاراج » الذى تركت به حقائبى ، ولكنى كنت أحفظ الاسم عن ظهر قلب ، جاراج (أنا – سيتا) .

جلست فى « الصالة » وأشعلت سيجارة وقلت لعلنى أتعرف هنا إلى مخلوق يرشدنى إلى أى شىء . ومر بى الكثيرون ولكنهم كانوا دائماً فى عجلة شديدة ، والذى يجلس منهم يجلس ليفحص الجريدة فى سرعة غريبة ثم يقفز إلى التليفون أو إلى الخارج . وأخيراً رأيت شاباً قرأ الجريدة ثم انتهى منها ووضعها بجانبه وجلس دون أن يقفز هنا أو هناك ، بدأت فى التودد إليه بهذا السؤال : كيف حال الأعمال فى أستراليا ؟ ولكنه أجابنى إجابة سدت على كل طريق : (كويسة جدًّا) .

بلعت هذه الإجابة البرقية . ولم أجد مبرراً للتلكع فى الجمعية . فأعطيت موظفة الاستقبال مفتاح الحجرة ، فسألتنى عما إذا كنت أنوى أن أقضى ليلة أخرى فى الحجرة فأجبتها بأنى لا أعرف . وعند ذلك نبهتنى إلى أنه إذا حانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ولم أبلغها بشىء فإن الحجرة تحجز على حسابى .

فى الأربع ساعات القادمة إذن على أن أصل إلى مكتب الهجرة وأن أجد إقامة مجانية ، فإن ثروتى قد تضاءلت إلى (عشرة دولارات ونصف) . أجبت الموظفة بأننى سوف أبلغها قبل الموعد المحدد ، ثم خرجت أحث السير وأنا لا أعلم فى أى اتجاه أسير.

كيف وصلت إلى مبنى وزارة الهجرة ؟ لا أدرى . ولكنى سألت ألف شخص فى الشارع حتى وصلت فى النهاية بعد ساعة على الأقل مع أن المسافة لا تستغرق دقائق .

ووجدت مكتب الهجرة مفتوحاً هذه المرة والدخول والخروج منه على قدم وساق ، اليوم الاثنين . بداية الأسبوع فى أستراليا .

دفعت الباب الزجاجى الكبير ودخلت وأنا أشعر باطمئنان كأننى فى بيتى ، وقرأت اللافتات المختلفة ثم اخترت المكتب (المختص بشئون المهاجرين) ودخلت فيه .

لم أجد فى المكتب إلا امرأة عجوزاً ذات عينين سوداوين بارزتين وأنف بارز وشعر أبيض ، قدمت نفسى إليها وأخبرتها بقصتى . واستمعت المرأة إلى بوجه جامد وهى تهز رأسها بتعجل وملل ، وفى النهاية أخرجت لها خطاب مكتب الهجرة ، ولكنها قرأته بنفس الوجه الجامد ثم أعادته إلى وسألتنى : ماذا تريد ؟

يا حلاوة . . . ماذا أريد حقًّا ؟

قلت لها بهدوء : أريد تنفيذ الكلام الوارد بالخطاب . أريد الإقامة والعمل . ولكنها هزت رأسها نفياً وقالت : ليس لنا بك أى صلة . ماذا ؟ كادت الإجابة أن تصعقنى ، ولكنها كررت كلامها بوضوح

غريب . انفعلت وارتفع صوتى ، ولكن لا فائدة . لم تتزحزح المرأة عن موقفها شعرة واحدة . وسرعان ما انضم إليها موظفون آخرون أكدوا كلامها . وختمت المرأة الموضوع بهذه الجملة : لقد سمحت لك أستراليا بدخولها ، وأنت الآن فيها ، فابحث لنفسك عن إقامة وعن عمل . منك لروحك .

خرجت من مكتب الهجرة وأنا أكاد أفقد عقلى . لقد انهارت آمالى كلها ، منى لروحى ! ! هذا ما قالته الشمطاء المجنونة . لقد اجتمعت ضدى كل عجائز أستراليا فى هذا اليوم فيما يظهر . منى لروحى . . وكل ما فى جيبى لا يكاد يكفينى أكثر من يومين مع الاقتصاد الشديد والاكتفاء بالشاى كغذاء أساسى .

منى لروحى . . وقد دفعت (٥٠٠ دولار) لأصل إلى أستراليا وهأنذا فى الشارع ، وحقائبى فى مكان لا أعرف كيف أصل إليه ، وثيابى فى مكان لا أعرف كيف أصل إليه . وحياتى نفسها لا أستطيع الاطمئنان على امتدادها أكثر من يومين . منى لروحى ! !

وجدت بواباً يقف أمام باب الوزارة وهو يصفر سعيداً ، فسألته عن مكتب العمل ، فقال إنه فى ميدان (فلندر) . أنا أعرف ميدان (فلندر) ولكن كيف أصل إليه من هنا ؟ وصف لى الرجل الطريق وهو يتراقص فى وقفته ، ولم أفهم حرفًا واحداً من وصفه ، واكتفيت بوصفه لبداية الطريق ثم سرت فى الطريق أسأل كل من أقابله حتى وصلت أخيراً إلى مكتب العمل .

دفعت الباب ودخلت فوجدت صالة هائلة . الجزء الأمامى منها

مخصص لطالبى العمل ، والباقى لمكاتب الموظفين . تقدمت لأقرب موظف وأخبرته بأننى أبحث عن عمل ، فكتب اسمى فى ورقة ثم طلب منى أن أجلس لأنتظر دورى .

جلست بين زبائن المكتب وجعلت أتفحص (زملائى) طالبى العمل فوجدتهم لا يصلحون لشىء إلا لتمثيل أدوار القتلة والمجرمين فى أفلام العصابات . وجوه شائهة وذقون غير حليقة وملابس قذرة ممزقة . رباه هل أنا واحد من هؤلاء ؟

استمعت إلى أحاديثهم يتكلمون لغة تبدو كالإنجليزية ولكنها ليست إنجليزية . كانوا يتحدثون بالأسترالية التى هى عامية غريبة لا يمكن أن يفهمها غيرهم ، وبعد فترة فقدت الأمل فى أن أفهم حرفاً واحداً مما يقولون . وبالتالى فى أن أتعرف إلى واحد منهم . .

ثم سمعت الموظف ينادى اسمى ، فجريت إليه ، وعند ذلك أخبرنى بأنه نادانى قبل الآن فأين كنت ؟ أين كنت ؟ إننى لم أغادر مكانى فهل نادانى دون أن أسمع ؟ غير معقول . وعلى أى حال فقد أمرنى بأن أذهب إلى المكتب رقم (٤) لمقابلة الموظف المختص .

وجدت الموظف المختص شاباً صغيراً كتلاميذ المدارس مؤدباً بغير حدود ، باسماً كأنه صديق قديم ، ونزلت مقابلته اللطيفة برداً وسلاماً على نفسى المشتتة ، فأخبرته عن مؤهلاتى وخبراتى وطلبت منه وظيفة مناسبة . واستمع إلىّ الموظف فى أدب واهتمام ، وفى النهاية قال لى إنه من الصعب أن يجد لى وظيفة مناسبة بسرعة . وعند ذلك صرحت له بموقفى الدقيق وقلت له إننى يجب أن أجد أى عمل بأقصى سرعة ، ففتح

درجاً أمامه وأخرج منه « كروتًا » عديدة هى بيان بالوظائف الخالية الواردة إليه من المصانع والشركات ، ثم تفحص الكروت وسألنى : هل تقبل وظيفة (ضابط بريد) ؟ ضابط بريد ؟ إننى أقبل أى شىء . أمسكت بهذه الفرصة بيدى وأسنانى فكتب لى خطاباً إلى هيئة البريد ، ووقعه وختمه بخاتم المكتب ، ثم وصف لى المقر الرئيسى لهيئة البريد وكان على بعد خطوات من مكتب العمل .

خرجت من المكتب رقم (٤) وفى يدى الخطاب السحرى ، وسرعان ما وصلت إلى هيئة البريد ودخلت وسألت عن موظف المستخدمين فقيل لى إن هناك موظفين فى حجرتين مختلفتين ، وكلاهما مختص بشؤون المستخدمين . وصلت إلى الحجرتين ونظرت فى الأولى فوجدت الموظف جالساً وأمامه طالب وظيفة ونظرت فى الثانية فوجدت الموظف يجلس بمفرده .

طرقت الباب ودخلت وقدمت خطاب مكتب العمل إلى الموظف الذى قرأه ثم وافق على تعيينى . . . وتنفست الصعداء أخيراً . وبدأ الموظف يكتب لى خطاباً لأستلم به وظيفتى التى أخبرنى بأنها ستبدأ من الثانية بعد ظهر نفس اليوم . ثم انتهى من كتابة الخطاب ووقعه ووضعه فى ظرف . ومددت يدى لأتسلم الخطاب ، ولكنه سألنى كأنما تذكر شيئاً عابراً : كم مضى عليك فى ملبورن ؟ فأجبته بأننى وصلت إلى أستراليا فى اليوم السابق ، وعند ذلك سحب يده ومزق الخطاب وألقاه فى سلة المهملات .

سألته لماذا فعل ذلك ؟ فأجاب بأنه غير معقول أن أصل إلى ملبورن

فى يوم لأشتغل فى اليوم التالى فى هيئة البريد . البريد بالذات . وأنا لا أعرف أسماء الشوارع والمدن والقرى .

اللعنة على أسماء الشوارع والمدن والقرى . . حاولت أن أجادله ولكنه كان قد تحول إلى صنم جامد .

خرجت من المكتب الذى لمست فيه السعادة لحظة ووجدت نفسى فى الشارع من جديد .

كانت الساعة قد شارفت الحادية عشرة ، وبعد ساعة يكون على أن أدفع (٣ دولارات ونصفاً) لجمعية الشبان المسيحيين إذا لم أعثر على إقامة فى غيرها .

ازدحمت فى نفسى مشاعر الغيظ والغضب ولم أجد من أصب عليه سخطى وأتشبث بخناقه إلا مكتب الهجرة . قررت أن أعود إلى مكتب الهجرة ولا أخرج منه إلا قاتلا أو مقتولا . ووصلت هذه المرة فى دقائق ، ثم دخلت المكتب الذى بدأت منه متاعبى . ولم أجد المرأة العجوز بل وجدت موظفاً آخر استقبلنى فى رفق وأدب ، وقرأ الخطاب العتيد الذى غير حياتى ثم أعاده لى وأخبرنى بمعلومات مغايرة تماماً لكل ما سمعته منذ وصولى .

أخبرنى بأنه حتى بدون هذا الخطاب فإن مكتب الهجرة متكفل بإقامتى وتوفير العمل لى ، فهذا ما يفعله المكتب مع جميع المهاجرين ، لم إذن لم يستقبلنى أحد من مكتب الهجرة فى المطار ؟ لأننى وصلت بالطائرة والمهاجرون عادة يصلون بالبواخر لأنها أرخص ثمناً . أو أن هذا على الأقل ما يتصوره مكتب الهجرة . فالمهاجر فى نظر مكتب الهجرة شخص

فقير ليس أمامه إلا أن يصل بالباخرة لا الطيارة كما يفعل السياح ، كيف كان لى أن أعرف ذلك ؟ أخبرنى الموظف الباسم بأن المهاجرين جميعاً يعلمون ذلك وأنه – شخصياً – لم يسمع بمهاجر وصل بالطائرة ، ما علينا . قلت له : ها هو ذا مهاجر وصل بالطائرة وهو حائر لا يعرف له رأساً من رجل . فطمأننى بأن المكتب سوف يجد لى عملا بالتأكيد . وأخبرنى أيضاً بأننى أخطأت فى ذهابى لمكتب العمل فى شارع (فلندر) لأن هذا المكتب مختص بالأعمال اليدوية ، أما وظائف أصحاب المؤهلات العليا فهى فى مكتب آخر فى نفس مبنى مكتب الهجرة .

كل هذا جميل . ولكن لِمَ استقبلتنى هذه المرأة البغيضة بهذا الشكل فى الصباح ؟ هذا ما لم أعرفه عندئذ ولا بعدئذ ومالا أجد له تفسيراً إلا أنها صهيونية . .

والآن أين الوظيفة العالية ؟ أخبرنى بأنه ليس مختصاً بالتوظف ، ولكنه سوف يحجز لى موعداً مع (مستر آدمز) المختص ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مستر آدمز وحجز لى معه موعداً فى الرابعة بعد الظهر أخبرته بأن هذا موعد متأخر جدّاً ، وأننى يجب أن أحدد موقفى قبل الثانية عشرة ، ولكنه قال إن مستر آدمز رجل مشغول جدًّا وإنه بصعوبة حجز لى ذلك الموعد فى نفس اليوم . (كتر خيرك) شكرته وخرجت ولم أفكر أن أطلب منه أن يساعدنى فى الإقامة بعد أن عرفت أن إقامة المهاجرين هى فى معسكرات فى ضواحى ملبورن التى سوف تبعدنى عن مجال الوظائف .

وفى الردهة الخارجية وقفت أتفحص اللافتات المكتوبة من جديد

فعثرت بينها على هذه اللافتة (مكتب وظائف المؤهلات العليا) بالدور الرابع . لم لا أجرب حظى قبل موعدى مع مستر آدمز ؟ دخلت المصعد وصعدت وخرجت ودخلت فوجدت موظفة الاستقبال تتحدث مع شخص فجلست فى مكانى حتى تفرغ الموظفة إلىّ .

لابد مما ليس منه بد ، فلأبق إذن فى جمعية الشبان المسيحيين . ولأقتصد حتى الموت حتى لا أنفق ثروتى كلها فى ليلة واحدة . ولعل ميعاد مستر آدمز أن يتمخض عنه شىء مفيد . لم أكن سعيداً .

قلت لنفسى إن ما فعلته جنون مطبق . منذ يومين كنت فى منزلى معززاً مكرماً ، وهأنذا الآن فى هذه القارة التى لا أعرف فيها مخلوقاً أجد نفسى حائراً ضائعاً كالطفل الضال الجائع . نعم إننى جائع حقًّا . وعطش أيضاً ، ولكن ما أشعر به من إرهاق وقهر لا يترك لى مجالا للشعور بشىء آخر .

ترى كيف تمضى هذه الأزمة ؟ وهل تمضى حقًّا ؟ هل يأتى يوم أذكر فيه هذا اليوم وأضحك منه ؟ هل تتحول هذه التجارب المرة الساحقة إلى كلام على الورق ؟ إن كل ما أطلبه هو جسر صغير من المساعدة أعبر عليه هذه الأيام القليلة . أو هذا اليوم على الأقل إلى حيث أعمل وأربح ما أستطيع أن أقف عليه بقدم ثابتة .

يارب . .

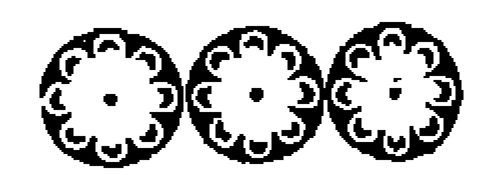
وعند ذلك حدثت المعجزة . .

دخل المكتب شابان أحدهما متردد والآخر متحمس . ووقفا لحظة ، ثم جذب المتحمس المتردد وقال له : تعال إننا لن نخسر شيئاً .

قال له ذلك بالعربية . . إنهما مصريان إذن . نظرت إليهما وأنا لا أصدق عينى ، ونظرا إلىّ ، وسرعان ما تصافحنا . كان المتردد هو (فهمى حافظ) والمتحمس هو (رشدى حنا) والاثنان من القاهرة ، وهما أول من صادفت فى أستراليا .

وعرفت أنهما وصلا إلى أستراليا منذ شهور ، وأنهما اشتغلا بعدة أعمال . ثم عرفا منى موقفى وتطوعا بإرشادى إلى المساكن المفروشة التى لا تزيد قيمة الإيجار فيها على (٦ دولارات) للحجرة فى الأسبوع .

فرجت . خرجنا ثلاثتنا إلى الشارع الذى يسكنان فيه وهو شارع (دراموند) ، ووجدنا حجرة مفروشة جميلة مجاورة لهما فى منزل أنيق دفعت إيجارها فى الحال (٦ دولارات) ثم أخذت تاكسى إلى جمعية الشبان المسيحيين ووصلت فى الثانية عشرة بالضبط فسحبت ملابسى ، ثم ذهبت إلى جاراج (أنا – سيتا) حيث حملت حقائبى ، وعدت إلى حجرتى الجديدة . وأقرضنى رشدى (١٥ دولاراً) وأرشدنى إلى محال البقالة التى لم أرها من قبل ، لأن محل البقالة هنا اسمه (بار اللبن) ، وهى تسمية غريبة لا أجد لها معنى . من بار اللبن اشتريت شاياً وسكراً وطعاماً ، وعدت إلى حجرتى وأنا أشعر بالحياة تدب فى أوصالى متذكراً فى الوقت نفسه موعدى مع مستر آدمز فى الرابعة بعد الظهر .



شارع دراموند

إذن فالإنسان يستطيع أن يتنفس وأن يعيش وأن يملأ معدته في أستراليا .. هذا ما قلته لنفسي وأنا أتناول أول طعام حقيقي منذ أن دخلت قارة أستراليا . وكان المنزل الذي سكنت فيه عبارة عن شيء جميل صغير له واجهة رمادية وحديقة خضراء ناضرة وضعت فيها (مسز كيرلي) صاحبة المنزل كلباً خشبياً أسود مفتوح الفم باستمرار كأنما ليخيف لصوصاً وهميين .

أما من الداخل فالمنزل عبارة عن دورين . الدور الأول به طرقة صغيرة ضيقة نسبياً بها ترابيزتان ، واحدة منهما لاستقبال خطابات الرجال والأخرى لاستقبال خطابات النساء من النزلاء (ولعل هذه هي التفرقة الوحيدة بين الجنسين في أستراليا) .

وعلى يمين الداخل حجرة مسز كيرلي ، وبعدها مباشرة ممر يؤدي إلى فناء داخلي مكشوف به حجرة المكواة والمطبخ والحمام . ثم حجرة أخرى قائمة بنفسها وسط الفناء يطلق عليها اسم (بنجالو) .

وبجوار هذا الممر سلم خشبي مكسو بالمشمع المزخرف الجميل يؤدي إلى الدور العلوي الذي به خمس بحجرات وحمام .

وكانت حجرتي هي الحجرة الداخلية المطلة على الفناء ، ويقع المطبخ

تحتها مباشرة . وكانت أرض حجرتى مكسوة بنفس المشمع المزخرف وتبدو لجمالها كأنها علبة هائلة الحجم من القطيفة ، وفى الحجرة سرير كبير ودولاب ومنضدة ومرآة وكرسيان . أما (مسز كيرلى) فقد وجدتها امرأة قصيرة عصبية بدون سبب كأنها ناظرة مدرسة . . وقد أوضحت لى شروط السكن عندها وهى : الدفع مقدماً فى بداية كل أسبوع . ثم دفع (٥ سنتات) لكل مكالمة تليفونية ودفع (٥ سنتات) لكل مرة أستعمل فيها الحمام الساخن .

وإذا أردت أن أنتقل من المنزل فلابد من إخطارها قبل انتقالى بأسبوع .

هذه هى الشروط ، وأما التعاقد نفسه فقد كان شفويًّا دون ورق أو كتابة ، وفيما عدا هذه الشروط فأنا حر أخرج وأعود متى أشاء . أستقبل من أشاء وأفعل ما أشاء . .

كان لهذه الشروط الإنسانية وللاطمئنان إلى خطواتى الأولى فى أستراليا أثر بالغ فى تهدئة مخاوفى وقلقى . وأعتقد أنه لولا ما قابلنى فى ساعاتى الأولى من سوء توفيق غريب فى كل شىء لكان لى رأى مختلف فى أستراليا ، فإن كل ما فيها معقول ومريح وإن كان غير مألوف للنازح الجديد .

ولعله قد حان الوقت لأن نعرف شيئاً عن أستراليا .

هى قارة صغيرة نسبيًّا (١٢ مليون نسمة) وسكانها الأصليون الذين كانوا يقطنونها فى العصور القديمة ويطلق عليهم اسم (أبو ريجينال) هم أغرب مخلوقات فى العالم ، فهم سود البشرة ولكن وجوههم قبيحة بشكل منفر ، وأذرعهم طويلة تكاد تصل إلى أقدامهم وعند ما يسيرون يتحركون كما تتحرك القرود !

و (الأبوريجنال) ليس لهم حضارة ولا تاريخ ولا معتقدات ثابتة معروفة . وعندما دخل الرجل الأبيض أستراليا لأول مرة وجدهم يعيشون فى الغابات كالحيوانات . لم يقاوموا الغزو الجديد ولم يرفضوا شيئاً ولم يقبلوا شيئاً بل ظلوا يفسحون الطريق للرجل الأبيض وينزحون نحو الشمال حيث المناطق الحارة التى تصعب الحياة فيها على الرجل الأبيض .

والباقى منهم الآن يعيش فى المناطق الاستوائية فى شمال أستراليا . نفس المعيشة التى كانوا يعيشونها منذ آلاف السنين ، إذ يبدو أنه لا أمل إطلاقاً فى جذبهم إلى المدنية ، وإن كانت الحكومة الأسترالية تحاول باستمرار ، صادقة أو كاذبة ، الله وحده أعلم – أن ترسل إليهم المبشرين والمعلمين والمدربين ، بل إن هناك جمعيات أسترالية متطرفة تنادى بالمساواة فى الحقوق المدنية بين (الأبوريجنال) والأستراليين الجدد . ومن وقت لآخر تنتقى منهم الحكومة (عينات) بشرية لتجرى عليها تجارب الذكاء والغباء والقدرة على التعليم . وإن كان من المؤكد أن هذه الطائفة الغريبة من المخلوقات فى طريق الانقراض لسوء التغذية وسوء التكيف مع البيئة الجديدة ولطغيان الحضارة الأوربية .

أما الأستراليون الجدد (أحفاد الإنجليز) فإن تاريخهم فى أستراليا بدأ منذ ٢٠٠ سنة بالتحديد ، وقبل ذلك التاريخ كانت إنجلترا تنظر إلى أستراليا كما ينظر المالك إلى قطعة من الأرض (البور) فى أملاكه ، لأن بعدها الشاسع عن أوربا ، وصعوبة الحياة فيها وصعوبة الوصول إليها كانت تقطع الطريق على كل محاولة لاستئناسها .

ثم حدث تضخم فى (سجون) إنجلترا على إثر الثورات وحركات التمرد ،

ولم تعرف حكومة إنجلترا ماذا تفعل بمئات المساجين الواردين إليها يومياً . عند ذلك تذكرت أستراليا . . فلتنقل إليها هؤلاء المساجين فإما ماتوا فى الطريق قضاء وقدراً (وبذلك يرتاح ضمير إنجلترا) ، وإما وصلوا إلى المنفى وهو مصير أقسى من الموت .

هكذا بدأت سفن (الشحن البشرى) تنقل آلاف المساجين والمسجونات من شواطئ إنجلترا إلى قارة أستراليا . وكانت السفن تقطع المسافة فيما لا يقل عن مائتى يوم ، وكان المساجين جميعاً مغللين بالقيود الحديدية ، وكانوا يلقون أقسى ألوان المعاملة فى هذه السفن الخشبية مما تسبب فى وفاة أعداد هائلة منهم قبل الوصول .

ثم كان يحدث فى هذه السفن نفسها ما يندى له جبين الإنسانية من فسق وفجور بين السجانين والمساجين والمسجونات . وهذه حقبة سوداء فى تاريخ إنجلترا .

وعندما تصل السفينة إلى شواطئ أستراليا فإنها كانت تلفظ شحنتها البشرية وتطلق لها السراح فى المجاهل الجديدة فلا قيود ولا سجون . أستراليا كلها سجن كبير دون قيود .

واستمرت عمليات الشحن ، وامتلأت موانئ أستراليا بالنزلاء الجدد ، الذين وجدوا فى أستراليا — على عيوبها — فرصة جديدة للحياة ، فتمسكوا بها وبدءوا يخططون لاستقرارهم الدائم فيها .

هكذا بدأت حياة الرجل الأبيض فى أستراليا .

حرث هؤلاء المنفيون الأرض وزرعوها ، وشيدوا المنازل ، وعبدوا الطرق ، وأنشأوا الجسور والكبارى والمدن وتحولوا مع الوقت إلى مواطنين

(عاقلين) يحبون الحياة الشريفة المستقرة ويحرصون عليها .

هؤلاء الأستراليون الجدد هم أنفسهم الذين ثاروا على إنجلترا فيما بعد ورفضوا أن يستقبلوا مجرمين جدداً . . ووقفوا فى وجه عمليات (الشحن البشرى) حتى لا يتشوه كل ما صنعوه بوجود هؤلاء المجرمين ، واضطرت إنجلترا أن ترسل شحناتها البائسة إلى منفى آخر . . إلى أمريكا . .

وكان ذلك فى سنة ١٧٦٧ ، وقد احتفلت أستراليا فى سنة ١٩٦٧ بمرور مائتى عام على آخر شحنة بشرية وصلت إلى أرضها .

وأرض أستراليا أرض (فائرة) كل ما فيها ينبت بخصوبة غريبة . كل شىء فيه نضارة رائعة ، وكأن الحياة تتفجر فى كل ما يعيش على أرضها .

أما أستراليو القرن العشرين فهم لا يختلفون عن الملائكة إلا فى أن الملائكة لها أجنحة . وهم شعب مهذب مشرق صادق لا يعرف الكذب ولا السرقة . .

هؤلاء هم الأستراليون الذين قابلتهم فى أستراليا بعد مائتى عام من استقرار أجدادهم الموصومين فيها .

وأستراليا تسمح بالهجرة إليها لجميع الأجناس ما عدا الجنس الأصفر ومن المستحيل أن تجد بلداً على وجه الأرض ليس له مواطنون فى أستراليا .

وبعد أربعة أعوام ونصف من دخول المهاجر إليها يحصل على الجنسية الأسترالية ويصير له كل حقوق المواطن الأسترالى . وأينما حللت فى أستراليا وجدت عشرات الجاليات المختلفة، ولكن مصادر الهجرة الرئيسية إلى أستراليا (وربما إلى العالم كله) هى اليونان وإيطاليا ولبنان ، ولذلك فإنك قد تجد مدناً كاملة كل أهلها من الإيطاليين أو اليونانيين أو اللبنانيين .



على الشاطئ فى أستراليا

والحرية هى (الغذاء) الرئيسى فى أستراليا ، فالمواطن حر فى كل شيء . فى عقيدته . فى تصرفاته. حر فى أن ينتمى إلى أى ديانة أو ألا ينتمى إلى أى ديانة ، حر يلبس ما يشاء ويفعل ما يشاء . حر فى اختيار الوظيفة التى يريدها . حر فى تركها . حر فى البقاء فى الولاية التى يستريح فيها . حر فى هجرها . حر فى أن يقف على ناصية الشارع ليبشر بالمذهب الذى يؤمن به ، ولو كان هذا المذهب هو الهجوم على أستراليا .

وأكبر مدن أستراليا هى (ملبورن) و (سيدنى) ، وهما أكبر موانيها

فى نفس الوقت ، وإليهما يقصد معظم المهاجرين لأنهما مركز الأعمال والوظائف .

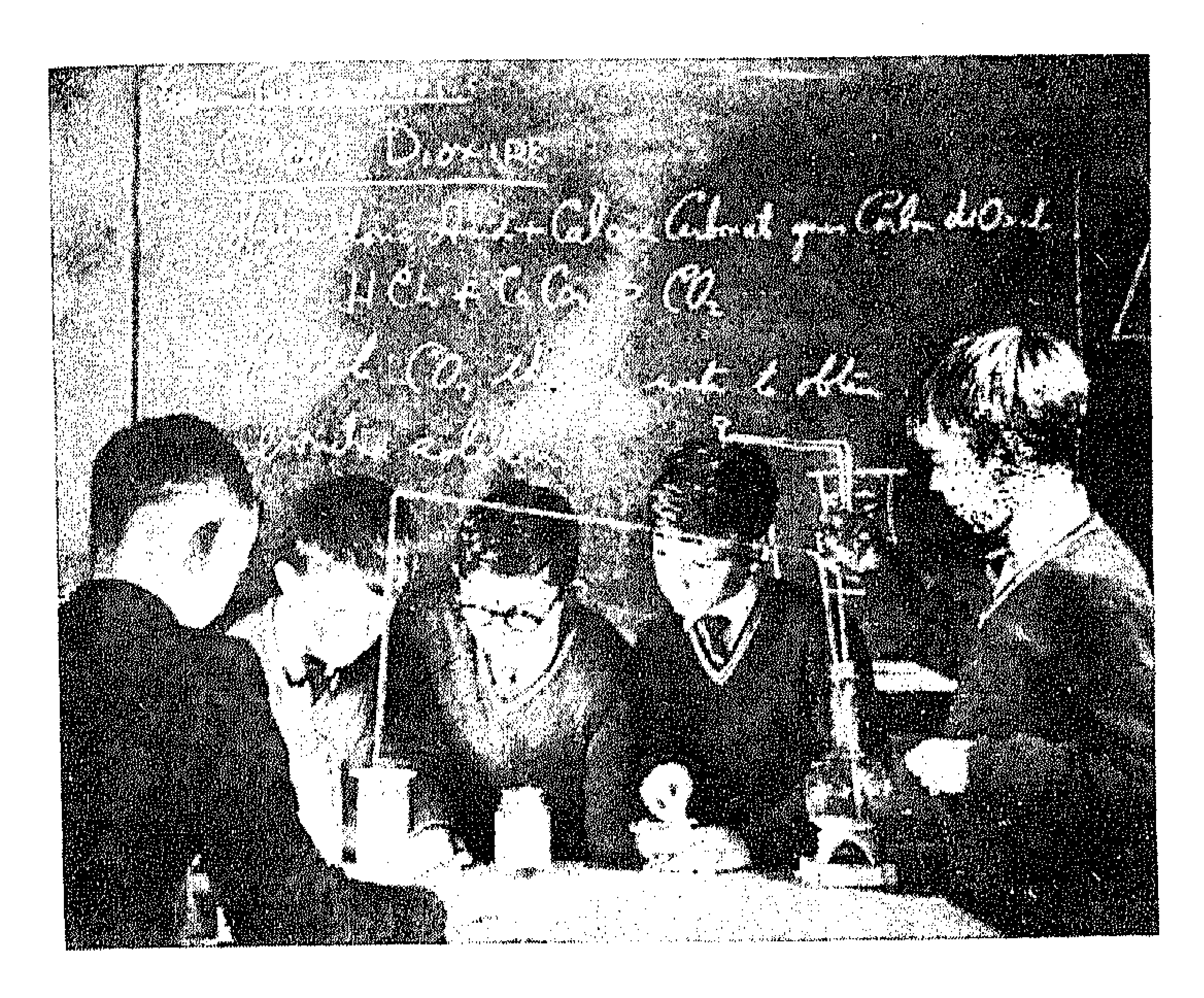
أما (كنبرا) فهى العاصمة التى تتوسط المسافة بين ملبورن وسيدنى .

و(كنبرا) مدينة من أجمل مدن الدنيا وأحدثها ، وقد ولدت فى أوائل القرن العشرين عندما تنبهت أستراليا إلى التطورات السياسية العالمية ، وشاعت أن يكون لها عاصمة سياسية وتمثيل ديبلوماسى . ثم ثار الخلاف حول اختيار مكان العاصمة ، وهل تكون (سيدنى) أم (ملبورن) حتى استقر الرأى على إنشاء عاصمة جديدة تماماً فى مكان متوسط بين المدينتين الكبيرتين .

هكذا ولدت (كنبرا) ، وبنيت على شكل دائرة هائلة خضراء تقوم فيها الشوارع والمبانى على شكل دائرى أيضاً . ولكنها اقتصرت على السفارات والقنصليات ، وخلت – تقريباً – من الوظائف التى تناسب المهاجرين .

وأستراليا بها ست ولايات (نيوسوث ويلز – فيكتوريا – كوينز لاند – سوث أستراليا – تاسمانيا – وست أستراليا) . ولا تختلف واحدة من هذه الولايات عن الأخرى فى احتياجها لكل خبرة فى كل مجال .

ونظراً لقلة كثافة السكان (١٢ مليون نسمة) بالنسبة لمساحة الأرض الهائلة فإن أستراليا ترحب بالمهاجرين من كل مكان ، وتذهب فى ذلك إلى حد أن تستجلب المهاجرين من بلادهم على حسابها . وإن كانت تشترط بعد ذلك أن يعمل المهاجر لمدة ٣ سنوات فى العمل الذى تختاره له . ولابد لتنفيذ ذلك أساساً من وجود اتفاقية بين أستراليا وبين البلد الذى يصل أبناؤه بالمجان مثل إيطاليا واليونان .



الجيل الجديد فى أستراليا

والأعمال متوافرة فى كل لحظة وفى كل مكان فى أستراليا .

والسبيل الأول هو مكاتب العمل . وهى نوعان : الأول يختص بالعمالة العادية (النجارة – الحدادة – الكهرباء – السمكرة . . .إلخ) والثانى يختص بالشهادات العليا والمتوسطة . والشهادات من جميع البلاد معترف بها فى أستراليا بشرط أن تقدم مترجمة إلى الإنجليزية ترجمة معتمدة من السفارة الأسترالية أو الإنجليزية أو من بنك (نيوسوث ويلز) فى أستراليا الذى يساعد المهاجرين مجاناً ويترجم مستنداتهم من جميع اللغات إلى الإنجليزية وهى

اللغة الرسمية فى أستراليا .

وبعد تقديم الشهادة المترجمة إلى مكتب العمل يمر المتقدم بامتحان شفوى إذا جازه منح شهادة خريج من إحدى جامعاتها وإلا فإنه يدرس مادة أو اثنتين يمنح بعدها هذه الشهادة .

والعملة الأسترالية كانت الجنيه الإسترلينى إلى سنوات قليلة . ثم أصدرت أستراليا الدولار الأسترالى ، وهو يعادل (٥٠ قرشاً مصرياً) ويحتوى على (١٠ شلنات) أو (١٠٠ سنت)

والحد الأدنى للمرتبات بالنسبة للعامل العادى هو (٤٢ دولاراً) فى الأسبوع وبالنسبة للجامعى (٨٥ دولاراً) . وأسبوع العمل خمسة أيام ، ويوما السبت والأحد إجازة رسمية . ووقت العمل فى اليوم (٨ ساعات) من الثامنة صباحاً إلى الخامسة بعد الظهر باستثناء فترات استراحة للشاى وتناول الغداء .

وكل ساعة عمل (إضافية) تحتسب بساعة ونصف . ومن يعمل يوم السبت يتقاضى أجر يوم ونصف ، أما يوم الأحد فأجره يساوى أجر يومين .

وفى كل شهر مكافأة قيمتها أجر يوم وربع ، وفى كل سنة إجازة ثلاثة أسابيع بأجر بالإضافة إلى الأعياد الرسمية والقومية (وما أكثرها) وكلها بأجر .

وأبدع شىء فى هذا النظام كله هو تأمين البطالة وهو مبلغ (٨ دولارات) فى الأسبوع للمهاجر الجديد و (١٦ دولاراً) لمن حصل على الجنسية الأسترالية .

هذا التأمين يحصل عليه بمجرد خروجه من عمله (سواء كان هذا الخروج بسبب الاستقالة أو الفصل أو الرغبة فى البحث عن عمل جديد وحتى لو كانت مدة البطالة أسبوعاً واحداً) . .

والمعاش لكل مواطن (لا لكل موظف فقط) وهو معاش يحصل عليه المواطن بمجرد بلوغه سن الخامسة والستين حتى لو كان يعمل أو لو استمر يعمل .

ومدارس الأطفال بالمجان ، بل إن الحكومة تمنح الأم التى تبقى فى البيت لتربية أولادها دخلا أسبوعيًّا تشجيعاً على كثرة النسل .



الطيور الغريبة

والمواطن المثالى فى أستراليا هو المواطن الذى ينجب أكبر عدد من الأطفال . .

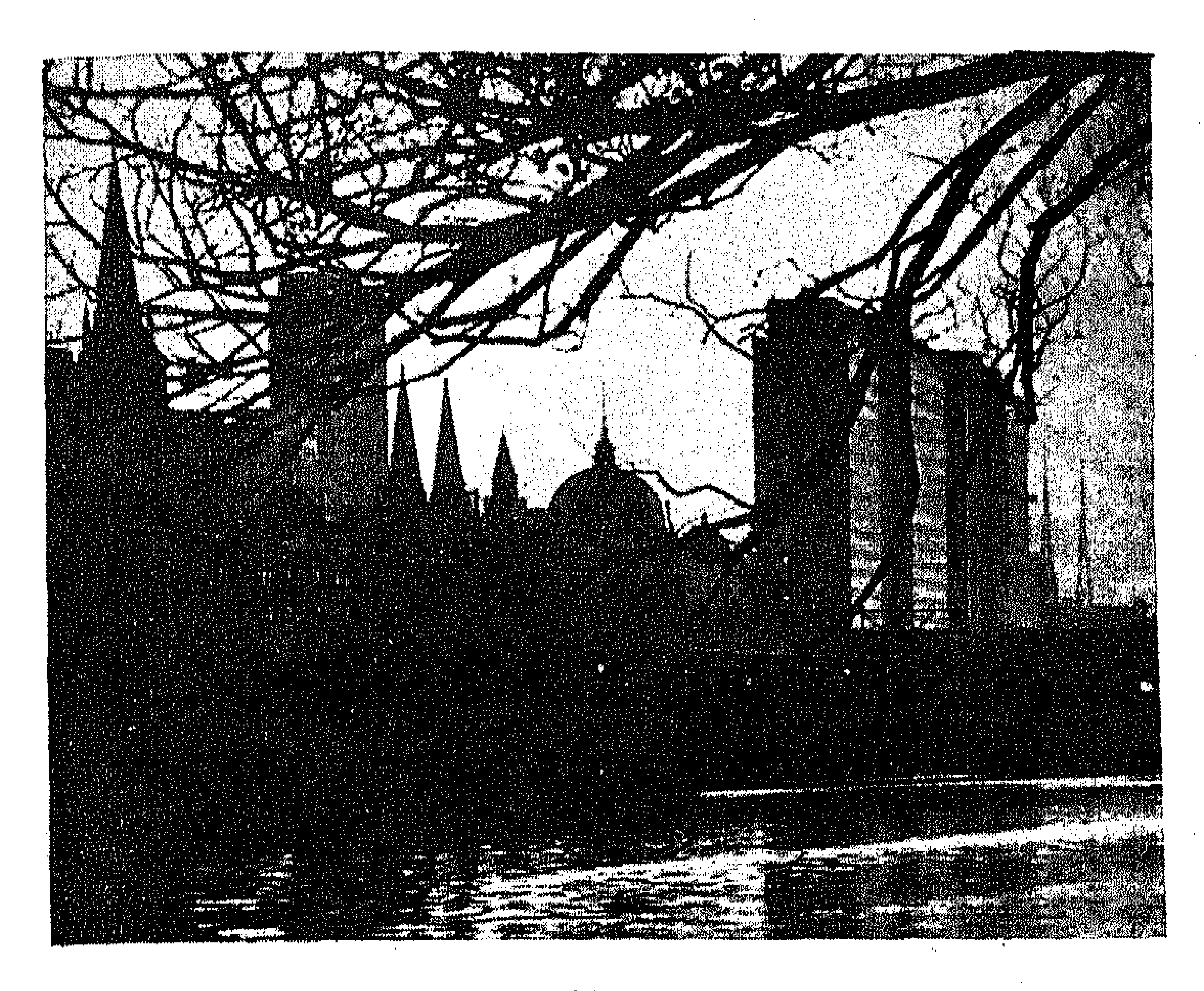
ويستطيع الفرد أن يعيش عيشة ممتازة فى حدود (٢٥ دولاراً) فى الأسبوع . فالغرفة المفروشة لا يزيد إيجارها على (٨ دولارات) فى الأسبوع ، والبدلة الصوفية الجاهزة فى حدود (٤٠ دولاراً) والحذاء (٤ دولارات) والخروف المذبوح (٤ دولارات) والدجاجة المثلجة (دولار ونصف) ودستة البيض (نصف دولار) .

والأستراليون لا يأكلون إلا اللحم الأحمر فقط . أما الكبدة والكلاوى والمخ وباقى أجزاء الذبيحة فإنهم يلقونها فى صناديق القمامة . ثم تعلموا من المهاجرين أن هذه الأجزاء صالحة للأكل فكفوا عن إعدامها ولكنهم لم يتعلموا أكلها . عرضوها للبيع فقط بأسعار مضحكة . .

أما الفواكه والخضراوات فإنها تباع مقطعة مجهزة فى أكياس أنيقة . وأما اللبن والشاى والسكر فأسعارها زهيدة لا تكاد تذكر .

والسيارة الجديدة تباع فى حدود (٦٠٠٠ دولار) ، أما المستعملة فقد يهبط ثمنها إلى (١٠٠ دولار) ، وكل شىء يباع بالتقسيط .

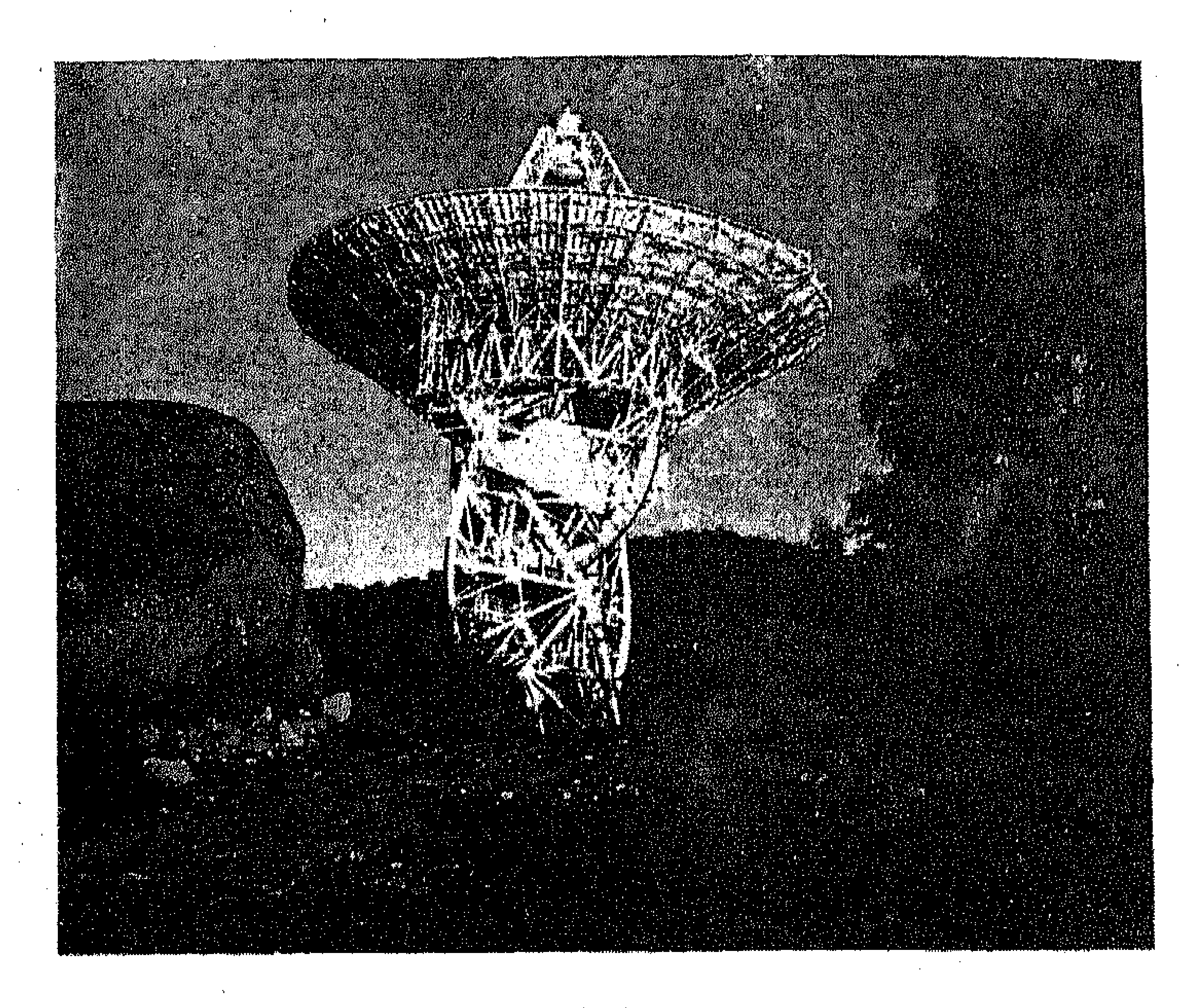
ولا يوجد فى مجال البيع والشراء شىء اسمه الخدمة (البشرية) ، فكل شىء يتم بطريقة آلية . محلات البيع تدخلها فلا تجد بائعاً أو بائعة وإنما تجد البضائع كلها مرتبة أنيقة وعلى كل سلعة سعرها ، فأنت تختار ما يعجبك وتضعه فى عربة يد وفى النهاية تحاسب على ما جمعت من مشتريات . هذه المحلات يطلق عليها اسم (اخدم نفسك) ، وهذا النظام نفسه يطبق فى محلات الغسيل ، وهى محلات كبيرة منتشرة فى جميع الشوارع ،



نهر يارا

وليس فيها موظفون بل غسالات كهربائية تعمل أتوماتيكيًّا عند وضع الأجر المحدد فى الخانة المخصصة له وهو (١٥ سنتاً) . وبعد نصف ساعة يخرج الغسيل نظيفاً معصوراً . ثم ينقله صاحبه إلى دولاب التجفيف فى مقابل (٥ سنتات) وبعد دقائق يخرج الغسيل جافًّا أربعة وعشرين قيراطاً .

ومكاتب العمل ليست هى الطريق الوحيد للحصول على عمل ، فإن الجرائد تنشر يوميًّا مئات الإعلانات عن مئات الأعمال والوظائف التى تناسب صاحب الخبرة وعديم الخبرة . فإذا قرأ طالب العمل إعلاناً عن وظيفة



محطة الرادار

تناسبه فإنه يتصل بصاحب الإعلان ويطلب منه تحديد موعد لمقابلة شخصية (ولا يمكن على الإطلاق مقابلة أى إنسان فى أستراليا دون موعد سابق) .

وفى المقابلة الشخصية يعرض الطالب مستنداته وخبراته ، فإن أعجب ذلك صاحب العمل وافق — فى الحال — على تعيينه وإلا فإنه يعتذر إليه حتى لا يضيع وقته . وما أثمن الوقت فى أستراليا .

والبنوك تنتشر فى كل مكان كما تنتشر محلات الكشرى والطعمية

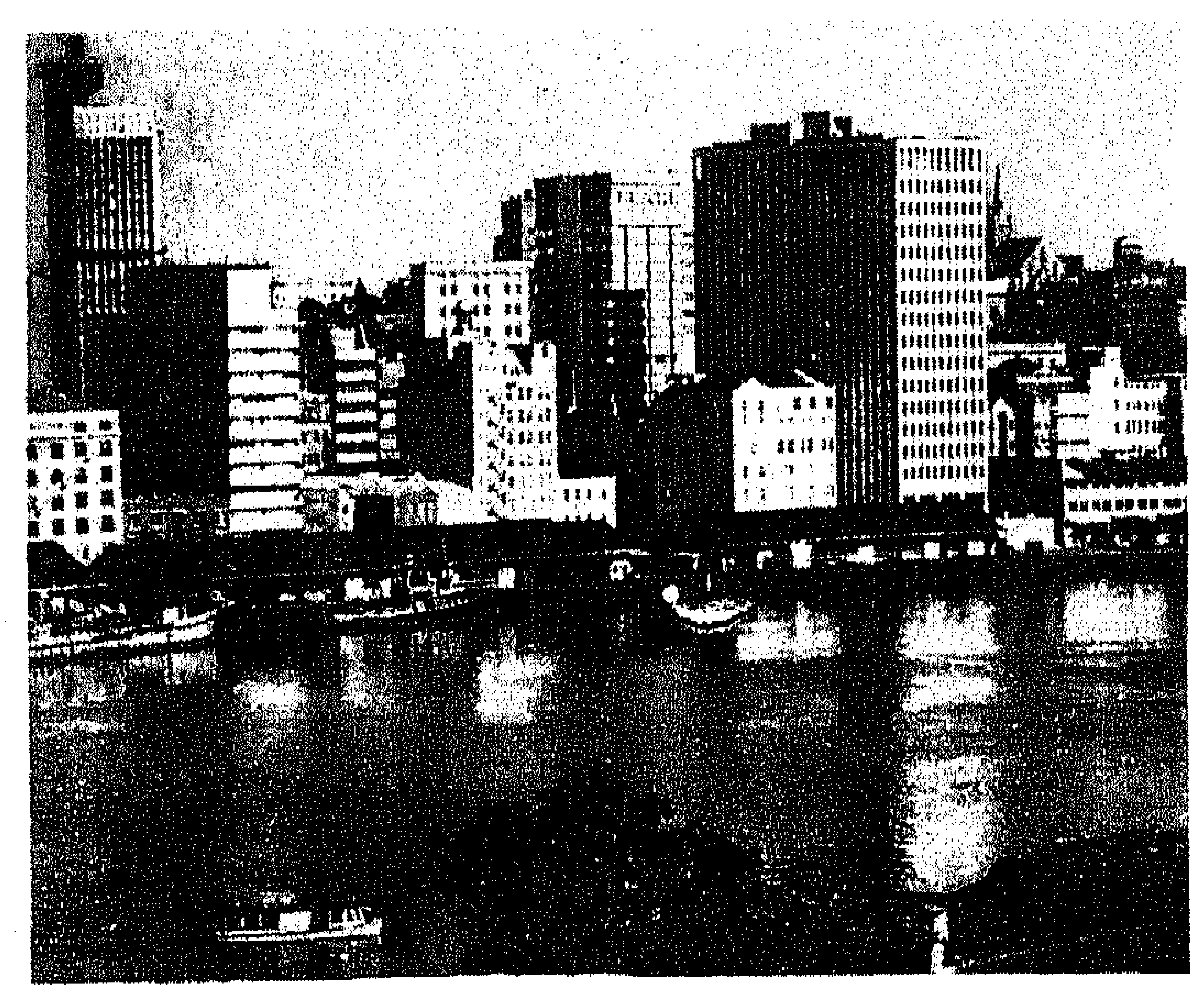
فى بلادنا ، والذى له حساب فى أحد البنوك تكون جميع فروع هذا البنك فى كل ولايات أستراليا تحت تصرفه .

وإجراءات البنوك تتم بسرعة مذهلة . والموظفون فى البنوك وفى جميع المصالح لا يختلفون عن الآلات الكهربائية إلا فى أنهم يتنفسون .

والموظف الأسترالى يعرف أنه يتقاضى أجره ليخدم الجمهور – فعلا – ولذلك فإنه فى أثناء أداء مصلحة أى مواطن يعتبر نفسه خادماً لهذا المواطن .

والجالية العربية فى أستراليا كبيرة لا أول لها ولا آخر (٦٠ ألف عربى) وهى تجمع بين اللبنانى والسورى والفلسطينى والعراقى والأردنى والمصرى . والمصرى هو (أحدث) مهاجر عربى فى أستراليا . وربما فى العالم كله . ولكنه يتميز بين مواطنيه العرب بأن نسبة الشهادات الجامعية بين زملائه هى أعلى نسبة بين باقى المواطنين العرب . ولعل السبب فى ذلك هو أن الهجرة فى بلادنا نظام حديث ، ولذلك أقبل عليها معظم الجامعيين . أما فى البلاد العربية الأخرى مثل لبنان فإن الهجرة منها (تقليد) قديم . والمهاجر اللبنانى يعتبر العالم كله مجالا مفتوحاً له . ويهاجر وهو شاب صغير ثم يلقى بنفسه فى غمار جميع الأعمال المناسبة وغير المناسبة ، بعكس المهاجر المصرى الذى تساعده شهاداته الجامعية وإتقانه اللغة الإنجليزية على اختيار الوظيفة المناسبة . .

وهناك تجمعات عربية كثيرة قد تختلف أسماؤها ولكنها تتفق فى النهاية فى أهدافها مثل (المركز الإسلامى) وهو فرع من مراكز (الاتحاد الإسلامى) الذى يشرف على المراكز الإسلامية فى ولايات أستراليا كلها . والمركز الإسلامى فى (ملبورن) يشرف عليه المواطن اللبنانى



المنشآت الحديثة فى أستراليا

(الشيخ فهمى الإمام) وهو يبذل جهوداً طيبة فى رعاية المهاجرين العرب ويقوم بخدمتهم فى الشئون الدينية ومراسم الزواج والوفاة . . إلخ . بالإضافة إلى الاحتفالات الدائمة بالمناسبات الدينية . ومن أحلام (الشيخ فهمى الإمام) بناء مدينة إسلامية تجمع بين المسجد والمدرسة وبيوت المسلمين . وهو يجمع التبرعات لذلك باستمرار . وقد تبرعت له الكويت أخيراً بمبلغ (٢٠ ألف جنيه) ثم تبرع له الأمير صدر الدين خان بشيك على بياض عندما زار أستراليا .

وهناك (الجمعية اللبنانية) وهى فرع من (الجمعية اللبنانية العالمية) فى أمريكا وكندا وأستراليا . ومن أهدافها الإشراف على العرب ورعاية شئونهم وتقديم المساعدات لهم فى خطواتهم الأولى . ويشرف على الجمعية اللبنانية فى ملبورن (الخورى بولس الخورى) .

وهناك (الرابطة العربية) وهى إحدى التجمعات العربية فى أستراليا . وهى بجانب اشتراكها مع التجمعات الأخرى فى أهدافها الطيبة فإنها رابطة (سياسية) تخطط باستمرار لمقاومة أكاذيب الصهيونية ، وتقف لها بالمرصاد ، وتهاجمها فى الجرائد والإذاعة والتليفزيون . وقد أنشأ الرابطة العربية فى ملبورن (الدكتور ناصح ميرزا) السورى الأصل ، وهو رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط فى جامعة ملبورن .

وقد أضيف إلى هذه التجمعات فيما بعد جمعية جديدة باسم (أضواء القاهرة) كان لى الشرف أن أكون مؤسسها ، وأن أقدم المسرح العربى بها لأول مرة فى أستراليا .

أما فى هذه اللحظة فإننى لم أكن أعرف شيئاً قط ، كل ما كنت أعلمه هو أن معدتى قد امتلأت وأننى وجدت أخيراً أسقفاً (معقولا) أحتمى به ، وأننى ضمنت حياتى لعدة أيام قادمة ، وأن أستراليا ما تزال تبدو لى لغزاً هائلا مجهولا ، وأنى على موعد فى الرابعة بعد الظهر مع (مستر آدمز) كان يتوقف عليه — فيما يبدو — مستقبلى فى أستراليا .

حرصت على أن أخرج فى الثانية لأضمن الوصول فى الرابعة ، ولكنى لم أصل إلا فى الرابعة وعشر دقائق . المهم أننى وصلت مطمئنًّا إلى أن « مستر آدمز » سوف يغفر هذا التأخير البسيط من شخص لم تمض عليه

أكثر من ساعات فى قارة الأحلام .

نقرت الباب بلطف ثم دخلت وعلى وجهى ابتسامة عريضة وقلت :

– مساء الخير يا مستر آدمز .

ووجدت مستر آدمز الموعود شاباً صغيراً مصفف الشعر بطريقة الخنافس ، ووجدت أمامه رجلا بدا من اضطرابه « وبهدلة » ثيابه أنه مهاجر جديد . وضاقت الابتسامة فى وجهى عندما نظر إلى مستر آدمز ببرود شديد وأخبرنى أن موعدى كان فى الرابعة لا الرابعة وعشر دقائق . ثم انصرف عنى تماماً إلى زائره المضطرب .

وأغلقت الباب على مستر آدمز وزائره وأملى فى وظيفة فى أستراليا . ولم أدر ماذا أفعل ، فعدت إلى الشاب الذى حدد لى من قبل موعداً مع مستر آدمز والذى كان يبدو أقرب إلى البشر فقصصت عليه قصتى مع مستر آدمز ولعلنى أقنعته ببراءتى أو لعله أراد أن يتخلص منى ، فإنه حدد لى موعداً جديداً مع المستر آدمز الذى بدأت أشعر أنه المفتاح الوحيد لدخول أستراليا .

جاء الموعد الجديد فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، وحرصت هذه المرة على أن أبدأ جولتى فى الثامنة ثم نجحت فى الوصول فى الميعاد .

وكانت نتيجة المواظبة غريبة للغاية . استقبلنى مستر آدمز ببشاشة ولطف ، ولم يشر إلى (جريمة) تأخرى بالأمس ، وقرأت فى وجهه أنه صفح عنها صفحاً جميلا ، ثم قرأ مستنداتى وسألنى عن خبراتى وطبيعة ما يمكن أن أقوم به من أعمال ، وأصدر بفمه مصمصات تدل – ربما – على التقدير . وأخبرنى أننى اخترت وقتاً سيئاً (شهر يناير) لدخول أستراليا ،

لأن إجازات عيد الميلاد تمتد من ديسمبر حتى تكاد تغطى يناير . كنت قد بدأت أشعر بأننى اخترت « قارة » سيئة للهجرة ، وعلى أى حال فقد بدأ مستر آدمز العجيب يبحث لى عن وظيفة ، ففتح دفتر التليفون وبدأ يكلم الشركات والمصانع التى قد يكون بها عمل يناسبنى .

ومع كل مكالمة كان قلبى يخفق ثم يهبط مع كلمة « شكراً » التى ينهى بها مستر آدمز مكالمته .

ساعة كاملة وهو ينتقل بالتليفون بين الشركات المختلفة حتى أصابنى « أنا » الملل والفتور وودت أن أعود إلى حجرتى ، التى لا يعلم إلا الله كيف أصل إليها ، ثم أشعلت سيجارة وأشعل مستر آدمز سيجارة وقال لى معتذراً إنه لا بد عملا يناسبنى ، فهل أقبل عملا لا يناسبنى مؤقتاً ؟ وافقت حتى تنتهى هذه الجلسة المملة ، وعند ذلك أمسك بالتليفون من جديد لأمد لم يطل . من المكالمة الأولى وجد الوظيفة غير المناسبة : وظيفة « أمين مخزن » ، وفى الحال وردت إلى خيالى صورة أمناء المخازن فى مصر . . المكتب الكبير والسعاة الكثيرون والشاى الذى لا ينتهى والرجاءات والمجاملات . .

وفى نفس الوقت كان مستر آدمز قد كتب لى خطاب التوصية المطلوب ووضعه فى ظرف أنيق وسلمه لى لأقدم نفسى « فوراً » إلى مخازن « كولز » .

وضعت المظروف فى جيبى وخرجت ممتنًّا متعباً مصمماً على أن أصل فى نفس اليوم إلى « مخازن كولز » ، فقد أكد لى مستر آدمز أنهم فى انتظارى .

وركبت القطار وغادرته بعد ثلاث محطات كما أوصانى مستر آدمز ولكنى وجدت نفسى فى المتاهة التى كنت أجد نفسى فيها منذ أن

وصلت إلى القارة السعيدة . . شوارع لا متناهية الطول والعرض وعربات تمر بسرعة الريح تعبر الشوارع صعوداً وهبوطاً فى سرعة جنونية ، ثم لا أحد يسير ليسأله الإنسان عن شيء .

وحمدت الله على أننى لا أحضر هنا بناء على موعد محدد بل « يوم » محدد . لذلك أستطيع أن « أتوه » حتى نهاية اليوم كما أشاء .

ووصلت فى النهاية إلى أرض فضاء شاسعة فى وسطها بناء ضخم مكتوب عليه « مخازن ج . ج . كولز » .

ودخلت من الباب الذى لا يقوم على حراسته أحد ، فوجدت نفسى فى صالة صغيرة بها أثاث قليل ونافذة تجلس خلفها فتاة ، فتقدمت نحوها وطلبت مقابلة مستر ويزرز ، فأمرتنى بالانتظار ثم طلبته بالتليفون فحضر ليقابلنى فى نفس الصالة الصغيرة .

وعجبت أن شخصاً مثل مستر ويزُرز يكون موظفاً فى حين أن كل ما يناسبه هو ملجأ للعجائز أو متحف للعجائب ، فهو مخلوق ضئيل محدودب الظهر ذو ساق خشبية ويد خشبية .

لم أجد فيه شيئاً يمكن أن يوصف بالحياة إلا عينيه النافذتين اللتين ترسلان من وراء نظارته السميكة أشعة حادة أكاد أقسم أن بها تياراً من الكهرباء .

ثم تكلم مستر ويزرز ، وبذلك أضاف عجيبة جديدة إلى عجائبه السابقة فعندما انفرجت شفتاه تحركت كل أجزاء وجهه بسرعة وإخلاص كأنها أجزاء لعبة متصلة ، ولكن استحال على أن أعرف أكان مبتسما أم مكشراً عن أنيابه . .

ونهضت واقفاً بمجرد ظهوره ، ومددت له يدى بالسلام فسلم فى دهشة عرفت فيا بعد مصدرها ، وهو أن السلام باليد شيء غير معروف — أو مطلوب — فى أستراليا .

سلمته خطاب التوصية ففتحه وبدأ يقرؤه وهو يتلمظ كأنه يمضغ بأسنانه قطعة من الكاوتشوك ، ثم قادنى إلى ما يسميه حجرة مكتبه ، وهو فى الحقيقة شق صغير فى الحائط به ترابيزة صغيرة كأنها ترابيزة طفل صغير وبجوارها كرسى . وأشار إلى بالجلوس فحشرت نفسى فى الكرسى وجلست وأنا أخفى عجبى وأحرص على أن يرى منى أحسن ما عندى .

سألنى عشرات الأسئلة وأجبته عنها ، وفى النهاية قال إننى نجحت فى الامتحان « ولعل هذا أعجب امتحان مررت به » ثم كتب لى فى ورقة صغيرة قيمة مرتبى الأسبوعى وضرائبى الأسبوعية ومواعيد الحضور وطلب منى أن أحضر فى اليوم التالى لتسلم عملى .

كانت مواعيد الحضور هى الثامنة إلا ثلاث دقائق ولكنى كنت أمام المخازن فى السابعة والنصف ولم أجد أحداً أو شيئاً فى هذه الصحراء الخضراء فى ذلك الوقت ، فرابطت أمام الباب حتى حضرت عربة صغيرة خرج منها صديق الأمس مستر ويزرز . تقدمت إليه أحييه ولكنه نظر إلىّ كأنه لا يعرفنى ثم قال باقتضاب : فيا بعد . وسرعان ما اختفى داخل المبنى .

وقفت حائراً لا أدرى ماذا أصنع ولكن بدأ الناس يتواردون ويدخلون ويوقعون فى الساعة ففعلت مثلهم ، ووقفت فى الصالة لا أدرى أين طريق مكتبى ، وعند ذلك نادانى مستر ويزرز وقدمنى إلى شخص اسمه « جيرى » وأخذنى « جيرى » ، من حجرة إلى حجرة وهو يكلمنى بسرعة فى واجبات

عملى فلم أفهم شيئاً مما قاله ، ولكنه أوصلنى إلى « بيل » الذى قطع بى شوطاً آخر ، ثم أوصلنى إلى « إيدى » الذى عرفت منه مكان المطعم والدولاب المخصص لثيابى ثم تسلمنى منه « جولى » فسار بى من مخزن إلى مخزن حتى وصلت إلى المكان الذى خصص لعملى ، وعند ذلك نادى شاباً كان يعمل فى نفس المكان لكى يمرننى على العمل الجديد .

وأفقت لنفسى بعد هذا المشوار فوجدتنى فى فناء واسع به عشرات الأشخاص الذين يعملون كالنحل فى تعبئة بضائع فى صناديق من الكرتون ثم يضعونها على عربات يد صغيرة يقودها أشخاص آخرون حتى تخرج من البوابة .

وهو مخزن بضائع حقًّا ولكن لا مكتب ولا سعاة ولا شاى . . أنا المكتب وأنا السعاة وأنا الشاى والكل حولى يعمل فى سرعة ونشاط كالقردة ثم تنبهت إلى معلمى الجديد ووجدته شاباً باسم الوجه قدم لى نفسه باسم « جيدو » وقال إنه يونانى ، ثم هون على العمل وقال إننى سرعان ما أتعود العمل وأعرفه .

وجاء جيدو حقًّا الواحة الوارفة الظلال وسط الصحراء الجليدية التى شملتنى منذ الصباح . ولم يشغل جيدو نفسه كثيراً بالتفكير فى أمرى ومحاولة معرفة « قصتى » فإنه سرعان ما وضعنى فى إطار المهاجر النموذجى . . الرجل الفقير الذى تضيق به بلده فتلفظه إلى بلاد أخرى تملك المال والعيش وتهيئ الحياة – الكريمة أو غير الكريمة – لكل من يدخلها .

هكذا عرفت من جيدو أننى حسن الحظ لحصولى على هذا العمل فهو عمل جيد يحسدنى عليه الكثيرون ، بل إنه سألنى عن « الواسطة »

الذى ألحقنى بهذا العمل .

أما لماذا وصف هذا العمل بأنه عمل جيد فلأنه نظيف فى مقابل أعمال كثيرة كنت سأضطر فيها إلى أن أغوص فى الأوحال وأتسلق الجبال وأغطس فى المناجم وأطفو فى الحقول .

هو عمل جيد إذن . وإذا نجحت فى الحصول على عطف رئيسى المباشر فإنه يسمح لى بعمل إضافى أتقاضى الأجر فيه مزدوجاً ، وكيف أحصل على هذا العطف ؟ أن أحرص على ألا أتكلم فى أثناء العمل وألا أضحك وألا أدخن وألا أجلس وألا أقف وأن أبدو طول الوقت عبداً نشيطاً سعيداً .

ثم أسر إلىّ جيدو بأنه من القلائل الذين يحضرون للعمل فى أيام الإجازة الأسبوعية فيحصل بذلك على أجر يومين فى مقابل عمل يوم واحد .

وما الذى يقوم به فى هذا اليوم ؟ إنه يكنس ويمسح المخزن كله . . وكان يجب أن أستعين بقدر كبير من الهدوء لكى أتصور أنه جاد فى كلامه ، وبقدر أكبر من الهدوء لكى يبدو علىّ الإعجاب والتقدير . فمن المؤكد أننى لم أترك بلدى لكى أكنس وأمسح مخازن أستراليا .

ثم اتبعت نصيحة – نفسى – التى خلقتها الظروف المتلاحقة وهى ألا أدهش لشيء أو على الأقل لا أبدى هذه الدهشة ، فهذا مجتمع جديد علىّ . إما أن أقبله أو ألفظه كما هو . .

وركزت انتباهى على جيدو لأرى كيف يقوم بعمله فوجدته يعمل بمهارة ودربة وسرعة وبساطة ، وشاركته شيئاً فشيئاً فى تعبئة هذه البضائع التى بدا ألا نهاية لها ، وكأنما هذه المخازن تصدر بضائعها للعالم كله . . وكنا نضع البضائع الكثيرة فى صناديق من الكرتون ثم نربط هذه الصناديق بالحبال

ونحملها إلى حيث تنقلها عربة اليد . وسال عرقى ونال منى الجهد والتعب فلم أتعود من قبل هذا المجهود اليدوى الجسمانى الشاق ، ولكنى وضعت ثقتى فى قدرة الإنسان الطبيعية على التكيف والتعود .

وبعد ساعتين من بداية العمل فوجئت بصوت صفارة يدوّى فجأة ، ورأيت الجميع يتركون ما بأيديهم ويجرون فى اتجاه واحد . هل هو إضراب ؟ ورقص قلبي فى صدرى ، ولكن جيدو جذبنى من يدى وهو يصيح : الشاى . الشاى . .

وصلنا إلى حيث يقف الجميع فى طابور طويل أمام عربة صغيرة عليها براميل ذات صنابير بعضها للشاى وبعضها للبن ، أما السكر فكان موضوعاً فى إناء كبير فوق العربة .

وملأت فنجانى وجلست بجوار جيدو ونظرت حولى فإذا الجميع يقرءون جرائد الصباح بسرعة واهتمام كأنهم فى عمل جاد فى حين انتحى بعضهم جانباً وأخذ يلعب الورق ، وعرفت من جيدو أنهم يكملون أدواراً بدأت بالأمس وقد لا تنتهى اليوم ، فهم يلعبون فى كل فترة شاى .

لا وقت للكلام ولا للتراخى وحتى اللعب يؤدونه فى جد . . هل أستطيع يوماً أن أهضم هذه الحياة الصارمة وأفرزها أحوالا وتصرفات ؟

وانتهى وقت الشاى الخاطف وعدنا إلى تعبئة البضائع اللعينة ، وبعد ساعتين انطلق الصوت المزعج من جديد إيذاناً بوقت الغداء ، وجريت مع زملائى ، ولكنى لم أصعد إلى المطعم بل خرجت إلى الهواء الطلق واشتريت غدائى من محل قريب ثم جلست أتناوله فى الفضاء المحيط بالمصنع .

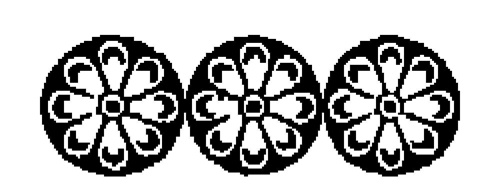
وتمددت على الأرض أريح عضلاتى المكدودة فلم أعد أرى إلا السماء

الرمادية تحيط بى ، وطار طائر أبيض ثم هبط على الأرض وهو يط
صيحات ذكرتنى بالغراب ، ثم سار يحجل فوق العشب ، إنه
حقًّا ! ! ولكنه غراب أبيض . .

طالما قال العرب القدماء : عندما يشيب الغراب . وها هو ذا الغراب قد شاب فماذا بعد ؟

وشعرت بأننى أبتعد عن العشب الأخضر والسماء الرمادية والغرا الأبيض والمخزن الرهيب وأصل إلى حيث يعيش الناس حقًّا ويضحكون بأصوات عالية ويجعلون من كل شيء مشكلة تستحق الاهتمام ، وسمعت ضجة الناس والحياة والراديو وعشت زحام الشوارع والعربات ورأيت الشمس الذهبية الدافئة تسكن السماء ولا تفارقها .

ثم ردنى إلى الواقع صوت الصفارة يدعونا إلى العذاب من جديد ، فنهضت ونفضت العشب من ثيابى وسرت وسط القطيع . إلى الداخل .



دائرة الطباشير الأسترالية

فجأة دب الخلاف بيني وبين جيدو اليوناني ، صديقي ومعلمي في مخازن (ج . ج . كولز) ، وجاء الخلاف من جانب واحد . جانبه هو . والسبب فيه (اللغة) . .

وأقول (فجأة) برغم أن الخلاف جاء بعد ستة أسابيع من العمل في المخازن . إلا أن هذه الأسابيع كانت قد انقضت في محاولة (تربية) الصداقة بيننا ، فلما جاء الخلاف نتيجة لهذه المحاولات أو بعد المحاولات كان إذن فجائيًّا .

ولكن كان قد سبقه خلاف آخر عميق بيني وبين المخازن كلها ومن فيها . ربما من اليوم الأول . ولم يحدث بعد ذلك في كل يوم إلا ما يزيد هذا الخلاف أو يعمقه .

لم أستطع إطلاقاً مثلا أن (أبلع) نظرة هؤلاء الناس إلى الحياة . هذه النظرة التي تكاد تكون شيئاً غريزيًّا أكثر منه عقليًّا لقلة اهتمامهم بالتفكير واندماجهم بالأكثر في ساقية ظروف حياتهم التي تدور بهم أو يدورون بها ولا يتوقفون أبداً .

لم أفهم كيف يمكن أن يقضي الإنسان أعواماً من عمره لا يفعل شيئاً

إلا تعبئة بضائع لا أول لها ولا آخر وهو تحت تأثير كرباج غير منظور . هذا الكرباج هو الرؤساء الذين ينتشرون فى المخازن كالنحل فإذا لاحظوا (نأمة) لا تعجبهم فى عمل واحد من العمال فإن نتيجة ذلك هى الفصل الفورى المصحوب بالابتسامة الرقيقة والتمنيات الطيبة . ما أسهل الفصل وما أسهل أى شيء فى هذه المصانع ، وليس بين العامل وصاحب العمل إلا (يفتح الله) . وأذهلنى أن أجد عمالا أمضوا عشرات السنين فى هذا المخزن حتى استحقوا فى النهاية نيشاناً مضحكاً يحمل اسم (ج . ج كولز) على صدورهم. لم تزد مرتباتهم ولم تخف واجباتهم . كل الذى حصلوا عليه مقابل استمرارهم فى العمل هو استمرارهم فى العمل . فلا علاوة ولا ترقية ولا جلوس على مكتب ولا تخفيض فى ساعات العمل . ولا شيء . .

وبعد أيام أخبرنى رئيسى بأن هنالك (مصريًّا) آخر فى المخازن اسمه (ريكو) وأنه فى المخازن منذ سنوات . ثم عرفنى به فوجدته مصرياً (فرانكو آراب) فهو يتكلم العامية المصرية ، وهو قد ولد فى مصر وعاش فيها ، وهو من جنسية لا يعلمها إلا الله ، ثم خرج من مصر مع من خرجوا عندما بدأت مصر تنفض عن ظهرها الطفيليات والطحالب .

وقد تبادلنا النفور على الفور فلم أر فيه إلا مسخاً مشوهاً ، لا هو مصرى ولا هو أجنبى ، ولم ير فىّ إلا مصريًّا فلاحاً ثقيل الظل . هكذا انفصلنا بمجرد أن تقابلنا ، ثم لاحظت بعد ذلك – على البعد – أنه يتشبه بالأستراليين فى كل شيء ، فيتحدث مثلهم ، ويتصرف مثلهم ، ووجدته يتمتع حقًّا بمكانة ممتازة بينهم . رأيت فيه صورة دقيقة للعبد الشبعان النشيط السعيد .

ولقد تصورت أنه قد يجيء يوم على عمال المخازن يتحولون فيه إلى مخلوقات أخرى غير إنسانية ، وسوف ينسون اللغة – أيًّا كانت اللغة التى يتخاطبون بها – فإن لغتهم التى سمعتها كانت مزيجاً من العواء والنباح والشوشرة غير المفهومة التى لا تعنى شيئاً والتى ربما كانوا لا يقصدون بها شيئاً . أو على الأقل شيئاً معقولا .

وكنت كلما رأيت سعادتهم بعبوديتهم ازدادت نفسى بعداً عنهم . واحتججت فى صمت على هذا العمل وهذا النظام وهؤلاء الناس .

ثم اكتشفت بعد ذلك أنهم ليسوا سعداء جدًّا كما يبدو عليهم . ضبطتهم يدخنون فى دورة المياه مرة بعد مرة وواحداً بعد الآخر حتى اضطررت أن أراجع نفسى فيما أصدرته عليهم من أحكام . إن هذه الأعمال (الصغيرة) هى احتجاج على القبضة الحديدية الباردة التى تغل أعناقنا جميعاً .

وهل أستطيع أن أفعل مثلهم ؟ وجربت . ولكنى ما كدت أشعل سيجارة حتى فتح الباب ودخل رئيسى كأنه كان فى أعقابى ، وهاج وثار ثم سار وأنا خلفه أتخبط فى سخطى وخجلى . كيف عرف ذلك المجنون أننى دخلت لأدخن ؟ ولماذا لا يضبط الباقين ؟ . . وعدت إلى مكان عملى فوجدت الابتسام الخبيث يعلو وجوه جيرانى . هل هى مؤامرة ؟ وإذا كانت مؤامرة فكيف عرفوا أننى ذهبت لأدخن ؟

زميل واحد هو الذى أشفق على موقفى وأخبرنى أن أذهب إلى (دائرة الطباشير) كلما شئت التدخين . أين دائرة الطباشير هذه ؟ فأشار إليها . إنها على بعد أمتار من مكان عملى ، وطالما رأيت العمال يقفون فيها

ويدخنون دون أن أفهم سرًّا لحرية تدخينهم . ولكن جاك – زميلى الجديد – أوضح لى أن هذه الدائرة الطباشيرية هى المكان المخصص للتدخين ، ومن حق كل عامل أن يذهب إليها مرتين فى اليوم . كل مرة لمدة دقيقة . وبالرغم من أن التدخين فى دائرة الطباشير (حلال) إلا أنه ليس من المستحسن التواجد فيها كثيراً حتى لا يأخذ الرؤساء فكرة سيئة عن العامل . لهذا إذن يلجأ العمال إلى دورة المياه للتدخين .

وبدأت أستعمل حقى القانونى ودخلت دائرة الطباشير وأخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة . ودائرة الطباشير هى دائرة صغيرة فى وسط المخزن الكبير لا تكاد تتسع لوقوف ثلاثة أشخاص متلاصقين . ولكن ما أجمل الإحساس بالحرية والشرعية وأنا أقف فيها أدخن . . إننى أنظر حولى بأمان الطفل فى حضن أمه وأخرج لسانى (فى سرى) لكل شيء حولى . . أنا فى دائرة الطباشير حر . . أدخن وأنظر حولى دون أن أخشى الفصل . أقف معوجًّا كما أشاء . أطرقع أصابعى كما أشاء ، بل إننى أستطيع أيضاً أن أجلس القرفصاء ، فما أجمل هذا ! . .

وتعلمت فى المخازن أن أبرع ما يفعله العامل هو (سرقة) الوقت ، دقيقة فى دائرة الطباشير فى الصباح ودقيقة أخرى فى المساء . ثم دقيقة فى دورة المياه بين هذا وذاك . ودقيقة أخرى لتنظيف قطعة الإسفنج التى تستعمل فى بل الشرائط اللاصقة . أربع دقائق كاملة وربما خمس . . كانت هذه هى السعادة الوحيدة وسط ذلك النظام الصارم المجنون .

ولكن الجديد لا يظل جديداً إلى الأبد . سرعان ما تعودت هذه السعادة حتى صارت مع الوقت شيئاً عاديًّا لا يثير فى نفسى ما كان يثيره

فيها من دواعى السرور . وتطلعت نفسى إلى ترويح جديد . الكلام .
ريد أن أتكلم وأن أسمع غيرى يتكلم . أى كلام . ولكن مع من أتكلم ؟ .
ن (جيدو) لا يعرف من الإنجليزية إلا كلمات قليلة لا تتجاوز التحية
وخذ وهات . وهو فى ذلك لا يختلف عن معظم المهاجرين اليونانيين الذين
يتصفون بغباء ذهنى غريب ، فهم قد يقضون أعواماً فى بلد المهجر دون
أن يتعلموا لغته . ربما كان غباؤهم هو السبب . وربما كان أيضاً تكتلهم
وتلاصقهم مع أبناء جلدتهم فى أى بلد يحلون فيه . ولما كانت معظم
الأعمال (صامتة) وكانوا يقضون وقت الفراغ الضئيل مع يونانيين مثلهم
فأين يمكن أن يتعلموا لغة أخرى غير اليونانية ؟

هكذا لم تجد محاولاتى مع جيدو شيئاً . ولكنى لم أيأس ، كان جيدو
هو جارى الوحيد ، ولكن (جاك) كان جاراً (متنسباً) فهو مكلف
بوضع صناديق البضائع التى نملؤها على قضيب متحرك يسير بها إلى داخل
المخزن فهو يقترب منى مرة كل ربع ساعة للحظة خاطفة ثم يتابع سير
البضائع على القضيب .

فى هذه اللحظات الخاطفة تمكنت من إنشاء علاقة طويلة المدى
مع جاك فى كل مرة كان يقترب منى فيها وذلك بأن أقول أول ما يخطر
ببالى ، وقد يرد أولا يتمكن من الرد فيرد عند عودته . وعرفت أنه يكره العمل
فى المخازن لأنه ليس عاملا عادياً . . . إنه صاحب مهنة . ما هى هذه
المهنة ؟ طباخ . وضحكت عندما لم أجد فارقاً كبيراً بين العامل والطباخ ،
لكنه قال جاداً جداً : إن مهنة الطباخ تكسب دولارات أكثر . . هذه
هى القيمة الوحيدة فى هذه القارة السعيدة . وهى أيضاً العلاقة الإنسانية

الوحيدة فيها . هات وخذ . فلا غرابة إطلاقاً فى أن يستقيل عامل من عمله لأنه وجد عملا آخر يمنحه دولاراً واحداً زيادة . . العمل غير ثابت والعامل غير ثابت والوجوه تتغير كل يوم وكأن المجتمع كله سوق كبيرة تنهض وتنفض كل يوم . ثم ماذا يفعلون بهذه الدولارات الكثيرة ؟ . .

إنهم يشربونها . أو يشربون بها البيرة . . والبيرة هى الشراب القومى ، أو الشراب المقدس عندهم . وعندما ينتهى العمل اليومى (والأعمال كلها تنتهى فى الخامسة مساء) يهرع الجميع إلى البارات ويشربون البيرة (واقفين) حتى العاشرة مساء (وهو موعد إغلاق البارات) وهذا الموعد (المتأخر) رفاهية جديدة منحتها الحكومة للشعب منذ سنوات قليلة ، وقبل ذلك كانت البارات تغلق أبوابها فى السادسة مساء ، وعلى سكان القارة كلهم أن يشربوا ما يريدون فى ساعة واحدة .

فكان الجميع يحرصون على الوصول فى وقت واحد وكانت النتيجة دائماً هى مصرع بعض الأشخاص تحت الأقدام . ونظراً لقلة عدد السكان بالنسبة لمساحة القارة فإن الحكومة رأت أن (تبحبح) موعد الشرب حرصاً على (عدد) السكان .

هذا العدد الذى لا يكاد يتغير برغم فتح جميع الأبواب للهجرة ولكن ما يحدث هو أن معظم من يهاجر إلى أستراليا لا يبقى فيها بالقدر الذى يسمح له بتكوين ثروة صغيرة أو كبيرة ثم يعود إلى بلده الأصلى فلا يبقى فى أستراليا إلا من لا بلد له ليعود إليه .

وحتى الآن لم تنجح أستراليا فى أن تجعل (المهاجر) يحب البلد والمجتمع لدرجة تجعله يسمى نفسه أستراليا .

وزميلى (جاك) أسترالى من أصل إنجليزى ولذلك لم يفهم أبداً سر عودة المهاجرين من أستراليا إلى بلادهم . وهو يشرب البيرة كل يوم وكل وقت إذا أمكن ولكنه سكير (عاقل) فهو يشرب بنفس إفراط أبناء جلدته ثم يدخر جزءاً من مرتبه كل أسبوع ، وهو يحضر إلى العمل فى ملابس يخجل أى شحاذ فى القاهرة أن يظهر بها ، أما هدف ادخاره فهو القيام برحلة حول العالم . وقد وجدت فى رحلته المرتقبة هذه فرصتى (للكلام) فشرعت أحدثه عن بلادى وتاريخها وشمسها ومطارح الجمال التى لا تنتهى فيها ، فوجدت بذلك الموضوع الذى أملأ به اللحظات الخاطفة التى كنا نتجاور فيها .

ولم أتصور أبداً أن هذه الصداقة الجديدة كانت على حساب صداقة قديمة حتى نظرت يوماً إلى وجه (جيدو) فقرأت فيه أشياء غريبة جدًّا . . إنه غاضب إلى أقصى حد لأنه يتصور أن كل حديثى مع جاك إنما هو سخرية منه . وهالنى ذلك التصور الخاطئ ، وحاولت أن أشرح له الحقيقة ولكن كيف ؟ إنه لا يفهم الإنجليزية وأنا لا أفهم اليونانية ، وكلما حاولت الكلام ازداد إمعاناً فى النفور والتباعد حتى انقلب عدوًّا حقيقيًّا على غير حق .

هكذا جاء الخلاف بينى وبين (جيدو) لغويًّا .

وأحزننى أن أبدو فى صورة الجاحد للجميل ، ولكن (جيدو) كان قد اقتنع بما لا يدع لديه مجالا للشك بأننى أسخر منه ، وانطوى على الحقد والغل ، وتحولت محاولاتى الحسنة النية للتفاهم إلى ما يشبه الاستجداء ، فتراجعت .

الأمر لله . هذه عداوة حمقاء مفروضة عليّ . ولكن عدم قبولها أسوأ من قبولها ، فلأقبلها إذن .

وتصورت أن الأمر سوف ينتهي عند ذلك (القرار) ، وأن جيدو سوف يسقطني من حسابه كما أسقطته من حسابي ، ولكن شد ما كنت مخطئاً . . .

. لقد كان إعلان العداء بداية لسلسلة من المضايقات الصغيرة المتلاحقة ، وتحول جيدو إلى واحدة من (نساء حوش بردق) ولعله لو ساعدته اللغة لفرش لى الملاية حقًّا ، ولكن اللغة أعجزته فوقف عند حد التلميح والغمز واللمز .

ماذا أفعل مع هذا العدو ؟

حاولت أن أفكر بطريقة عمال المخازن فلم أجد إلا الضرب والعدوان تعبيراً عن (شعورى) نحوه ، ولكن شدة توتر العدو جعلته يقرأ فى وجهى ما يعتمل فى نفسى فإذا به يذكرنى بأننى المصرى الوحيد فى هذه المخازن أمام ٥٠٠ يونانى .

آه . . هذا طريق مسدود إذن .

ولكن إذا كان يعتمد على هذا العدد الهائل من (الحلفاء) فلماذا لم يبدأ هو بالضرب ؟ ولكنه كان يدخر لى انتقاماً (يونانيًّا) بعيد المدى .

أخبرنى جاك أن جيدو ينوى أن يضع فى دولاب ثيابى بعضاً من البضائع التى نعبئها على أن يتهمنى بسرقتها فيما بعد . هذا هو انتقامه إذن . انتقام قاس رخيص لا رجولة فيه ولا شرف . ولكنه انتقام كفيل بأن يسوء عيشتى فى أستراليا كلها . فهؤلاء المجانين لا يغضبهم شيء قدر السرقة التى

يعقبها الفصل غير المشرف والتى يكاد يستحيل بعدها الحصول على وظيفة أخرى .

أثبت جيدو بهذه النية أنه عدو خطير حقاً . . وكيف أتقى شره ؟ وضعت كل انتباهى عليه ونسيت (الكلام) والدقائق التى كنت أختلسها من الوقت ودائرة الطباشير ولازمته كالظل ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم حتى كدت أفقد عقلى .

ثم أستيقظت ذات صباح وقد اهتديت إلى فكرة هائلة رأيت فيها الحل الموفق السعيد الذى يجعلنى أرد كيد (جيدو) إلى نحره . قلت لنفسى إذا كان انتقام جيدو مبنياً على الوشاية (الكاذبة) بى عند الرؤساء فلم لا أسبقه وأشى به أنا ؟ لن يطاوعنى ضميرى على وصمه بالسرقة . . ولكنى سوف أبلغ (الرؤساء) بما ينوى هو أن يفعله ضدى ، وبذلك أكون قد وضعت أولى الأمر فى قلب المشكلة ولن يستطيع (جيدو) بعد ذلك أن يفعل شيئاً .

وارتحت لهذه الفكرة بعد أن قلبتها على مختلف الوجوه ، ولم أجد فيها عيباً واحداً . هكذا لم أكد ألمح (الرئيس) بالقرب منى حتى تقدمت منه وحكيت له فى بلاغة ووضوح كل ما حدث بينى وبين (جيدو) ثم توجت قصتى بأن أشهدت ذلك الرئيس على ما قد يفعله (جيدو) .

فماذا كان رد (الريس) ؟ بدون أدنى اهتمام بقصتى المؤثرة رد علىّ بأن الشركة تمنحنى راتباً فى مقابل ثمانى ساعات من العمل المتواصل ، فليس من حقى أن أضيع الوقت (الذى لا أملكه) فى علاقات شخصية مكانها الحقيقى هو الشارع . .

كان ردًّا بارداً قاسياً لم أتوقعه ، وقد ذهلت لحظة ، ولكني قلت لنفسي إن ذلك (الريس) قد عرف بما ينويه جيدو وإنني أستطيع أن أستشهد به إذا وقعت الواقعة .

عدت إلى مكاني (نصف) منتصر ، ونظرت إلى جيدو لأضع فى ذهنه حقيقة ما قلته ، ولكنه لم يفهم ، فسألنى ماذا كنت أقول للريس فأجبته بهدوء وبطء لأجعل الكلام يتسرب إلى ذهنه . واستمع إلىّ جيدو فى هدوء وبلادة وفى النهاية هز رأسه وانصرف عنى إلى صناديق البضائع .

وعجبت لعدم تأثره أو اضطرابه ، ولكنى أقبلت على العمل فى نشاط وأنا أؤكد لنفسى أننى انتصرت ودفعت عن نفسى شبح التهمة المخيفة المستقبلة . فما أكاد أطمئن حتى أتذكر هزة رأس جيـــدو الأخيرة فيتبدد اطمئنانى . ترى هل يستطيع جيـــدو أن يفعل شيئاً آخر ؟ هل يستطيع حتى أن يدافع عن نفسه ؟ المفروض أننى اتهمته وأنه الجانى وأننى المجنى عليه ، فهل أرى قريباً ما يشفى غليلى فيه ؟ أو على الأقل هل أضمن أنه سينصرف عن نيته البشعة ؟ ولكن هل كنت أكره جيـــدو حقًّا ؟ أبداً لم أنس إطلاقاً بشاشته معى فى الأيام الأولى ومحاولاته الكريمة لتبسيط الأمور أمامى : إنه وأنا ضحايا (اللغة) وأنا أفهم موقفه تماماً وأتعاطف معه ، ولكن كان لابد أن أدافع عن نفسى . وقد دافعت وبقى أن أجنى ثمار انتصارى .

ولم يطل انتظارى لهذه الثمار . فى الصباح التالى جنيتها . ما كاد اليوم يبدأ حتى جاء (الريس) الذى شكوت له جيدو . . جاء مسرعاً كعادته ثم اختارنى ومعى ثلاثة آخرون وكلفنا بأن نتسلم العمل فى مخزن الخشب .

لم أعرف أترقية كان هذا النقل أم عقوبة ، ولكن ما قرأته فى أعين جيرانى من الاستنكار والهلع جعلنى أعرف أننى إنما أجنى ثمار انتصار جيــدو لا انتصارى ، وأن هذا النقل عقوبة .

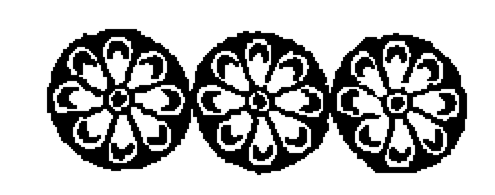
سرنا وراء (الريس) حتى وصلنا إلى أقصى المخازن ، ودخلنا حجرة صغيرة من الخشب ذات سقف واطئ لا يستطيع الإنسان أن يسير تحته إلا منحنياً . وفى الحجرة وجدنا صناديق كبيرة من الخشب وجرارات من الحديد وأشياء لا يمكن أن توجد إلا فى سجون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

ما هو عملنا هنا ؟ أن ننتزع المسامير من صناديق الخشب وأن نفتح الصناديق الكبيرة ونعبئ فيها الصناديق الكارتونية ثم نغلق الصناديق الخشبية ونسمرها ونحملها فى الجرار الحديدى عبر طريق مرتفع يخرج بها إلى الشارع وهكذا طول اليوم . ولقد كنت أشكو قديماً من عملى ومن (جوار) جيدو ، ولكن هذه الزنزانة الجديدة كانت شيئاً أبعد من كل خيالى . .

كان الجو حاراً جداً حيث كانت القارة تتعرض لموجة حارة ، وكانت الزنزانة الخشبية حارة فى حد ذاتها ، ولكن الجو الحار أحالها إلى فرن ملتهب ، فخلعت ثيابى حتى أصبحت نصف عار ، وبدأت أجتهد فى العمل الجديد الغريب . ولم تمض ساعة حتى أيقنت أن الأمر كله مهزلة وأننى لن أستطيع البقاء فى هذه الزنزانة ساعة أخرى ، فقد تكسرت أصابعى تحت دقات الشاكوش الخاطئة ، وتمزقت ثيابى ، وجرحت رجلاى لسقوط صناديق الخشب فوقها أكثر من مرة ، وأسال الحر والتعب عرقى على جسمى حتى صرت كقطعة من الإسفنج المغموس فى ماء يغلى .

وما كادت الصفارة تعلن موعد الغداء حتى هرعت إلى الخارج بدون

ثياب هرباً من ذلك الأتون ، وجلست فى الهواء معرضاً جسمى كله للهواء ، وبعد الغداء عدت إلى الزنزانة وقد جف عرقى نوعاً وبدأت العمل البغيض ، وانحنيت فوق صندوق خشبي وفى يدى الشاكوش لأنتزع المسامير منه ، وانتزعت أول مسمار وأردت أن أعتدل فى وقفتى وإذا بلسان من النار يندلع فى ظهرى ، وصرخت من الألم ، وتصلبت فى وقفتى وأنا عاجز عن الاعتدال وعن الانحناء وعن الحركة فى أى اتجاه . لقد أصبت بانزلاق غضروفى ، وأحسست بآلام لا تطاق فى ظهرى وفى جسمى كله . واستنجدت بأقرب الواقفين معى فحضر ومعه آخرون وبعض الرؤساء واقتادونى إلى حجرة الطبيب (وهو طبيب وعامل فى نفس الوقت) واستخرج لى الطبيب صورة أشعة فى الحال قرر على أثرها أن ألازم الفراش لمدة أربعة أيام أبدأ بعدها العلاج (الذى حدده لى) على حساب الشركة ، فعدت إلى البيت ، وكانت أول إجازة طويلة أقضيها فى البيت منذ وصلت إلى أستراليا ، ولكنها لم تكن ما يمكن أن يوصف بأنه إجازة مثالية .



جريمة المحطة

كانت هذه الحادثة فاصلا بين عهدين من حياتى فى أستراليا .

كان قد مضى على وجودى فى ملبورن ستة أسابيع ، وفى هذه الأسابيع لم أفعل شيئاً سوى تعبئة البضائع والعمل بجهد فى المخازن والجرى من المخازن إلى الأتوبيس إلى البيت إلى الفراش ثم إلى الأتوبيس فإلى المخازن من جديد .

لم أجد دقيقة فراغ واحدة أفكر فيها فى شىء ، كل ما كان يهمنى هو أن أضمن بقائى فى المخازن . وبالتالى أضمن تسلم مرتبى كل خميس . هذا المرتب الذى دفعت منه ديونى وانتقلت به إلى منزل جديد ، أكثر هدوءاً وجمالا ونظافة ، وتمكنت من ادخار مبلغ معقول وضعته فى البنك . ولكنى لم أفكر فى المستقبل . كنت دائراً مع الدولاب راضياً به وبالضمان المادى الذى كان يزداد مع مرور الأيام .

وأما فى يومى الإجازة (السبت والأحد) فإننى كنت أعمل بنشاط يبتلع اليومين فى شراء مؤونة الأسبوع التالى وفى غسيل ثيابى وكى قمصانى وتجهيز الأكل للأيام الخمسة التالية .

ثم جاءت هذه الحادثة فمنحتنى إجازة (بأجر) . . إجازة أقضيها

فى البيت مطمئنًا إلى أن راتبى مستمر . وقد وضعت مرتبة السرير على الأرض كما أمرنى الدكتور وتمددت على المرتبة وقضيت الوقت متألماً عاجزاً عن الحركة حزيناً لما حدث ، مرعوباً من المستقبل مستعرضاً فى الوقت نفسه موقفى فى وضوح وجلاء . .

قلت لنفسى لم أعد بعد المهاجر الضال الخائف . لقد حصلت على عمل وعرفت شيئاً عن الناس والأعمال والحياة . لم أعد مجبراً على شىء ، أستطيع أن أستقيل وأبقى فى البيت شهراً كاملاً ، أنفق من مدخراتى دون خوف من شىء فلأضع هذه الحقيقة فى ذهنى طول الوقت فإنها تمنحنى الشجاعة والثقة ، ولأبدأ التفكير إذن .

بدأت التفكير ووصلت إلى أن أول ما يجب أن أفعله هو أن أترك هذه الوظيفة التى لا تناسبنى على الإطلاق . سوف أستمر فيها حتى يتم شفائى وسوف أستفيد من الإجازة الإجبارية فى البحث عن وظيفة مناسبة .

أما القرار الثانى الذى وصلت إليه فى تفكيرى . فهو أننى يجب أن أبدأ حياتى كفنان فى أستراليا . وحددت أحلامى فى تكوين فرقة مسرحية عربية تقدم مسرحيات عربية لجمهور الجاليات العربية . ولكن كيف أبدأ ؟ إذا كان تكوين فرقة مسرحية فى القاهرة شيئاً صعباً فإنه فى أستراليا يكاد يكون مستحيلا ، أو على الأقل مستحيل بالنسبة لمريض طريح الفراش لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد . لم أكن أعرف فى ذلك الوقت إلا الصديقين (فهمى حافظ) و (رشدى حنا) وهما لا يعرفان أى شىء عن المسرح .

ومع ذلك لابد من البدء ، ولا بد من الوصول إلى وظيفة مناسبة ومعها فرقة مسرحية عربية .

أما عن الوظيفة فإنني كنت أقرأ جميع الإعلانات التي تنشرها الجرائد (والجرائد تعلن يوميا عن آلاف الوظائف فى كل ما يخطر ومالا يخطر بالبال) . وكنت أتصفح الإعلانات وأبحث عما يناسبني . لم أشأ أن أتعرض هذه المرة لما تعرضت له فى المخازن .

وجدت عشرات الوظائف ، وكتبت عشرات الطلبات ، وجاءتني عشرات الردود . لم يحدث أن أرسلت خطابا لم أتلق عليه رداً . وهذا فضل أخلاقى أسجله لأصحاب الأعمال فى أستراليا دون أى تحفظ ، فهم يحترمون أى خطاب يصل إليهم ، ومن المستحيل ألا يردوا عليه بالرفض أو بالقبول .

ويشاركهم فى هذه الفضيلة مصلحة البريد . فالعمل فيها منتظم بشكل رائع ، من المستحيل أن يتأخر خطاب أو يضيع . بل إنك تستطيع أن تتحكم فى موعد تسليم خطابك ، فتضعه فى صندوق البريد الخاص (ببريد اليوم) أو الصندوق الخاص ببريد (الغد) . وتستطيع أن ترسل ما تشاء فى الخطابات . ساعة أو مفاتيح أو مجوهرات ، وأنت مطمئن أن شيئاً لن يضيع . .

البريد فى أستراليا شيء مثالى . حلم رائع من أحلام المدنية الحديثة .

هكذا امتلأ مكتبي بالخطابات والردود . وكان الرفض هو القاسم المشترك فى معظم الردود التي تلقيتها . وكانت هناك مفاجآت طريفة فى بعض الوظائف التي تقدمت إليها مثل وظيفة (مدير المسرح) فى مستشفى صاحبة الجـــلالة التي اتضح أن عمل مدير المسرح فيها هو أن يقف مع الطبيب أثناء إجراء العمليات الجراحية لينقل القطن وقطع اللحم البشرية والضمادات

وما إلى ذلك .

ومثل وظيفة (مدير الأسماك) الذى اتضح أن عمله هو أن يقف بجوار الصيادين يفرز الأسماك حسب الأحجام .

ولكنى لم أيأس وتابعت القراءة والكتابة والأمل والانتظار . وأخيراً جاءنى خطاب يطلب منى مقابلة (مسز درو) فى الثانية و ٣٥ دقيقة من ظهر أحد الأيام ، كانت الوظيفة هذه المرة هى وظيفة (رسام إعلانات) . وفى اليوم المحدد حملت معى عينات من رسومى وذهبت إلى العنوان الذى حدده الخطاب .

ذهبت قبل الموعد بوقت طويل . فقد علمتنى أستراليا تقديس المواعيد ، وفى هذه الأيام كنت أسير بصعوبة بالغة وأترنح يساراً ويميناً بسبب الانزلاق الغضروفى . وكنت أخشى أن يؤثر مظهرى على أملى فى الوظيفة خصوصاً أننى قد عرفت أن أصحاب الأعمال يراعون الصحة والقوة بجانب المواهب والخبرات ، وربما قبل المواهب والخبرات . ولكنى كنت أعتمد على بذلتى السوداء الأنيقة وعلى قدرتى فى التمثيل والظهور بمظهر الشاب السعيد السليم حتى أخفى عجزى المؤقت .

سألت عن مكتب (مسز درو) ووصلت إليه . وفى الدقيقة المحددة كنت أطرق الباب وأفتحه بعد أن سمعت كلمة : تفضل . فتحت الباب ولكنى لم أدخل بل ابتسمت ابتسامة عريضة أشغل بها انتباه (مسز درو) عن حركاتى العاجزة . ثم فى قفزة واحدة كنت قد جلست فى الكرسى الذى أشارت إليه . . قد تظننى مجنوناً ولكن ذلك خير من أن تظننى مريضاً . ونجحت الخطة ولم تر (مسز درو) منى إلا جسمى الطويل العريض وابتسامتى المشرقة .

أما (مسز درو) فقد وجدتها امرأة فى الحلقة الخامسة من عمرها ، جميلة أنيقة كأنها ممثلة سينما ، هادئة كأنها صديقة قديمة . ودار بيننا حوار لطيف لم أشعر معه بأنه امتحان إلا عندما أخبرتنى فى النهاية أنها قد أعجبت بى ، وبعملى الفنى . وأنها ترشحنى للوظيفة المطلوبة .

ثم حددت لى مواصفات الوظيفة . فقالت إنها وظيفة ذات مستقبل باهر وإن عدداً كبيراً قد تقدم للوظيفة وقابل مسز درو (ولكنها شخصياً تفضلنى أنا .) ليه ؟ . ما تفهمش . أما المرتب فهو (٧٠ دولاراً) فى الأسبوع (بزيادة ٢٥ دولاراً عن مرتبى فى المخازن) وفى يوم الجمعة من حتى أن أخرج فى الثالثة ظهراً بدلا من الخامسة لأذهب إلى السوق وأشترى طلبات الأسبوع . هذه لفتة إنسانية كريمة .

كل شىء على ما يرام إذن . وهل العمل فى هذا المبنى ؟ لا . إن (مسز درو) ليست موظفة فى الشركة . إنها صاحبة مكتب استخدام (مكتب عمل خاص) وأصحاب الأعمال يعلنون عن الوظائف الخالية فى شركاتهم ثم يطلبون منها أن تمتحن المتقدمين نظير أجرة . وإذن أين الشركة التى سأعمل بها ؟ . .

إنها خارج ملبورن . وسوف تكتب لى (مسز درو) خطاباً لأذهب به إلى الشركة حتى لا تضيع منى الوظيفة . وقبل الخطاب رفعت سماعة التليفون وطلبت صاحب الشركة وحدثته عنى حديثاً مستفيضاً ، ثم وضعت السماعة وغمزت لى بعينها دلالة على أن كل شىء على مايرام .

ثم كتبت الخطاب بنفسها على ماكينة الكتابة الموجودة بجانبها ووضعته فى ظرف أنيق عليه عنوان الشركة وأوصتنى بأن أطير إلى الشركة ثم ودعتنى

بابتسامة جميلة والتمنيات الطيبة .

خرجت إلى الشارع وفى يدى الخطاب الثمين وطرحت جانباً فكرة الرجوع إلى البيت لتناول الغداء وأسرعت إلى محطة (فلندر) وقطعت تذكرة ذهاباً وإياباً إلى الضاحية المطلوبة (وهالنى ثمن التذكرة) واستنتجت أنها بعيدة جداً . ولكنى تذكرت أن (مسز درو) أخبرتنى بأننى سأجد صاحب الشركة فى انتظارى .

ركبت القطار الذى ظل (يرقع) بى ساعة ونصف ساعة حتى وصلت إلى المحطة المنشودة وقد أوشكت الشمس أن تغيب .

كنت الوحيد الذى هبط إلى هذه المحطة ونظرت فلم أجد أحداً ولا شيئاً . وجدت نفسى فى صحراء قاحلة ليس فيها أى مبان ولا أى دليل على العمران ولا على وجود صاحب العمل ولا غيره . ماذا أفعل ؟ هل أستطيع أن أصل إلى الشركة بمفردى ؟ هل تظل الحيرة تقابلنى طوال أيامى فى أستراليا ؟ وكيف أبحث عن مكان الشركة ؟ هل أستطيع المشى والبحث فى هذه الصحراء وأنا الذى أتنقل فى منزلى بصعوبة ؟ ولكنى قلت : لن أتراجع . هذه وظيفة عظيمة جديرة بالتعب ، ولعل تغيب صاحب العمل نوع من الامتحان لقدرتى ونشاطى فليمنحنى الله القوة على الوصول إلى مكانها .

اخترت اليمين اتجاهاً وسرت بجوار شريط القطار (حتى لا أتوه) فى اتجاه مضاد لاتجاه القطار . لم يكن الطريق ممهداً بل كان مليئاً بالتراب والصخور ولا تبدو له نهاية ، وقد أقبل المغيب ينشر ظلامه على الكون ، وبدأت الرياح الباردة تصفر وأنا أترنح فى سيرى كالسكير دون أن أعلم

هل أسير في الاتجاه الصحيح أم لا . ثم سرت حوالى (٢ كيلو) وأنا لا أبتعد عن شريط القطار . وأخيراً لاحت لى دلائل العمران . وجدت مبنى ينبعث الدخان من مدخنته وقرأت على الباب لافتة عرفت منها أن هذا المكان مدرسة .

دفعت الباب ودخلت بأمل أن أجد أحداً أسأله عن مكان الشركة . وفى الداخل وجدت سيدة وبيدها مكنسة وهى تكنس وتصفر فأريتها الظرف وعليه العنوان فهزت رأسها قليلا ثم قالت إننى أسير فى الاتجاه الصحيح ، ولكن المكان ما يزال بعيداً بعض الشيء .

خرجت من المدرسة وأنا لا أقدر على جر جسمى من التعب ، وقد علانى التراب والغبار ، ثم واصلت السير حتى وصلت إلى الشركة ، وعند ذلك وقفت مذهولا وقد انتابنى ضحك عصبي تغلبت عليه بصعوبة شديدة . . هل هذه هى الشركة التى حفيت حتى وصلت إليها ؟

كانت الشركة ذات المستقبل الباهر مبنى صغيراً حقيراً من الصاج لا يزيد حجمها كله عن حجم حجرة صغيرة .

هل أعود من حيث أتيت ؟ . . إن شركة حقيرة كهذه جديرة بأن تمتص دمى حتى الثمالة فى مقابل كل دولار تدفعه لى . ومن ناحية أخرى بفرض أننى اشتغلت فيها فكيف أصل إليها كل صباح ؟ هل أسير هذه المسافة المخيفة كل صباح ؟ هكذا رفضت الوظيفة المأمولة بينى وبين نفسى ، ولكنى طرقت الباب بأمل أن يعيدنى صاحب الشركة – على الأقل – بالسيارة إلى محطة القطار .

رد على صوت من الداخل قائلا : ادخل . دخلت فلم أجد أحداً

ولم أجد شيئاً . وجدت حجرة ضيقة باردة شبه مظلمة عارية إلا من بعض الصـور الملقاة هنا وهناك كأنها مكان مهجور أين إذن من رد عليّ ؟ .

وقفت فى مكانى فى انتظار ظهور صاحب الصوت . وأخيراً ظهر من شق فى الحائط كأنه عفريت . . كان رجلا من الصعب تحديد عمره ، بيده فرشاة ألوان وثيابه مغطاة بالألوان كأنه مهرج فى سيرك . سألنى عما إذا كنت الموظف الجديد الذى كلمته عنه (مسز درو) فأجبت بالإيجاب ، وعند ذلك صحبنى إلى فراغ ميكرسكوبى بجوار الباب عليه لافتة مضحكة تقول . الإدارة . هذه الإدارة التى لم أجد فيها إلا منضدة خشبية رخيصة وكرسياً واحداً تهالكت عليه منتهزاً هذه الفرصة للراحة بعد الهلاك الذى تعرضت له فى الطريق .

قرأ الرجل خطاب (مسز درو) ثم وضعه على المنضدة وبدأ حديثه بالاعتذار عن عدم انتظاره لى على المحطة لانشغاله بعمل مفاجئ . لم أهتم باعتذاره بل لم أهتم به ولم أتابع حديثه ، بل جعلت أنظر إليه وأنا أشعر برغبة شديدة فى أن أخنقه لغروره وتصوره أن هذه الحقارة (الصاج) شركة يعلن أحد من أجلها عن طلب موظفين ويتعب معه أولاد الناس من المهاجرين .

كان كل ما يهمنى منه هو أن يعيدنى إلى المحطة بالسيارة فإنه من المستحيل أن أعود هذه المسافة على قدمى . ولعله كان يجب أن أخفى ما يدور فى نفسى – على الأقل حتى أحظى بهذه المنحة – ولكنى لم أستطع أن أخفى استخفافى به وبشركته ذات المستقبل الباهر ، فسألته عما إذا كان (المشى) هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى مقر الشركة ؟ فأجابنى بأننى أستطيع شراء

عربة (منعت نفسى بصعوبة من أن أسأل : على إيه ؟) وأجبته بأننى لست على استعداد لشراء عربة فى الوقت الحاضر لأننى أجهل القيادة ، وعند ذلك عرض على أن أسكن فى هذه القرية لأكون قريباً من العمل . ولكنى رفضت هذا العرض السخيف وأخبرته بأننى لا أستطيع أن أترك ملبورن . (كأنها بلد أبويا ! !) .

هكذا ملأ النفور والجفاء لقاءنا الأول والأخير ، وخفت أن يداهمنى النوم وأنا فوق هذا الكرسى . فاستأذنت فودعنى إلى الباب ولم يعرض أن يصحبنى بالسيارة ، بل تركنى ودخل وأغلق الباب الصاج خلفه .

وجدتنى مرة أخرى فى العراء والظلام والبرد والتراب والرياح ، ثم فوجئت بالمطر مصاحباً لسيمفونية « القرف » هذه . تنهدت ورفعت ياقة الجاكتة وأخفيت صورى داخل القميص حتى لا تبتل . ثم بدأت مشوار العودة . لم أعد من الطريق الذى أتيت منه لأننى استنتجت أن المسافة الباقية على المحطة السابقة لابد أنها أقصر كثيراً من المسافة الأولى .

هكذا سرت إلى الأمام ، وكان هذا أسوأ قرار اتخذته فى ذلك اليوم الغريب . . اتضح لى أن استنتاجى خاطئ وأن المسافة الباقية هى (ضعف) المسافة السابقة واتضح لى (أيضاً) أنه لا يوجد طريق على الإطلاق للوصول إلى المحطة . .

وجدت نفسى أتسلق تلالا وأهبط أودية وأرى شريط القطار أحياناً تحتى بمسافة طويلة . وأحياناً أخرى أراه فى السماء وأنا على السفح . وكان المطر قد ازداد ونفذ من ثيابى إلى جسمى وأغرق رسومى ، وأخذ الهواء يعصف بى ويقتلعنى من مكانى ، ومن بعيد كانت تتردد أصداء صيحات الحيوانات

الغريبة (دعوت الله ألا تكون ذئاباً) وازدادت آلام ظهرى حتى كدت أقع على الأرض ، وأخيراً وصلت إلى محطة القطار ، وكانت مرتفعة قليلا عن الطريق العادى ، فصعدت إليها فوجدت بوابة خشبية صغيرة مفتوحة فدخلت منها ، ووقفت فى انتظار القطار . ثم جاء القطار وهممت بالتوجه إليه ولكنى تراجعت لقد انتبهت إلى أننى لا أعرف الاتجاه إلى ملبورن . لقد أفقدنى كل ما مربى القدرة على إدراك الاتجاه الذى أسير فيه فلم أعد أعرف أقادم هذا القطار من ملبورن أم متجه إليها .

وجدت شخصاً بجانبى فسألته وعرفت منه أن هذا القطار قادم من ملبورن أما القطار المتجه إلى ملبورن فهو يقف على الرصيف المقابل . سألته عما إذا كنت أستطيع أن أهبط من الرصيف المرتفع إلى فراغ القضبان ثم إلى الرصيف المقابل أم أن الأفضل أن أخرج من المحطة كلها وأدور نصف دورة خارج المحطة فأجابنى بأن هذا هو الأفضل .

وقد يبدو سؤالى ساذجاً لا هدف له ، ولكنى تعلمت أن فى أستراليا قوانين غريبة لتنظيم أمور قد لا نراها نحن محتاجة إلى تنظيم . من ذلك مثلا القانون الذى ينظم المرور ، فالذى يخطئ فى المرور يدفع غرامة (١٠ دولارات) فوراً لجندى المرور . والذى يركب بدون تذكرة يدفع غرامة (٥ دولارات) للكمسارى بدون كلام أو حديث . وأشياء كثيرة مثل هذه علمتنى أن أحتاط فى كل خطواتى حتى لا أتعرض لمخالفة القوانين متذكراً المثل القائل : (إن كنت فى روما فتصرف كما يتصرف الرومان) .

غادرت الرصيف واتجهت إلى البوابة الخشبية التى دخلت منها ، ورأيت أنها ليست مفتوحة كما كانت منذ دقائق ، بل وجدتها مربوطة بدوبارة

صغيرة فتصورت أن طفلا عابثاً ربطِ هذه الدوبارة (ولو أنني لم أر أطفالا فى المحطة) نزعت الدوبارة وفتحت البوابة وخرجت إلى الشارع . فيها حاجة دى ؟

ومع ذلك قامت القيامة وفوجئت بهرج ومرج وبصيحات غضب واستنكار تملأ المحطة كلها ، ولم أتصور أن هذا كله له علاقة بى ، فتابعت سيرى وإذا بى أفاجأ بشابين يجريان خلفى ثم يسبقاننى ويعترضان طريقى ويأمراننى بالوقوف فى غضب شديد . . وقفت وعند ذلك رأيت ما غابت عنى ملاحظته من قبل . كان ركاب القطار قد تجمهروا حولى ينظرون إلى فى فضول وذعر ، بعضهم يتحدث ويشير إلى ، وبعض الفتيات قد انتحين جانباً قصياً وهن ينظرن إلى ويتكلمن فى هستيرية شديدة .

يا ساتر يارب ؟ ماذا حدث ؟

أفقت على صياح الشابين اللذين أمرانى بالوقوف ، وهما يأمراننى بالعودة معهما . سألتهما عن السبب ، ولكنهما كررا أمرهما لى وهما ينظران إلى نظرات مستريبة كأنما يتوقعان أن أخرج من جيوبى مدفعاً أو قنبلة أو ثعباناً . . كررت سؤالى إياهما ! فأجاب أحدهما بأننى لا أستطيع أن أنكر أننى فتحت البوابة الخشبية . أليس كذلك ؟ فأجبت بأننى فتحت البوابة وأننى لا أنكر ذلك ولكن ماذا فى ذلك ؟ ولكنهما اقتربا منى وهما مازالا ينظران إلى فى خوف وتوجس وأمرانى بأن أسير معهما بالتى هى أحسن .

سرت معهما تتابعنى نظرات الجمهور وصيحاته وتعليقاته العدائية حتى وصلنا إلى مكتب ناظر المحطة ، فوجدت الناظر ينتظر وهو فى أشد حالات الغيظ والسخط ، وبجانبه موظف شاب يحمل فى يده قضيباً حديدياً يلوح

به نحوى كأنما ليحذرنى بأنه سيهوى به علىّ عند أول حركة عدائية تبدر منى ، كالعض مثلا أو الخربشة . .

أمرنى الناظر بالجلوس وعدم الالتجاء إلى العنف (إذا كنت عاقلا) . واجتمع الأربعة حولى وهم يتصايحون وأنا لا أفهم شيئاً من كلامهم . وفى النهاية اتفقوا على أمر . فقدم لى الناظر استمارة مطبوعة طلب منى أن أجيب عما فيها من أسئلة .

أخذت الاستمارة وقرأت أول سؤال فيها وإذا هو : لماذا ارتكبت هذه الجريمة ؟ . .

جريمة ؟ أنا ارتكبت جريمة ؟ ما هى جريمتى ؟ سألت الناظر (وقد هدأ قليلا) فأجابنى بأننى اعتديت على أملاك (الكومون ويلث) ! !

قال إننى فتحت البوابة فسمحت لركاب القطار بدخول المدينة دون تسليم تذاكرهم فالقطار فى أستراليا ليس فيه كمسارى ، وإنما كل راكب يسلم تذكرته عند دخول مدينته .

كانت الدوبارة المربوطة فى البوابة إذن دوبارة (رسمية) والذى وضعها هو واحد من هؤلاء الموظفين المجانين وليس طفلا عابثاً كما تصورت .

كانت محاولتى (النبيلة) لاحترام النظام هى التى قادتنى لارتكاب هذه الجريمة ، لغاية كده كويس . والعقوبة ؟

غرامة لا تقل عن (٢٠٠ دولار) أو السجن لمدة لا تقل عن سنة ! !

حاولت أن أتذكر أنا اصطبحت بوجه من فلم أستطع ، وقرأت فى وجه الناظر أنه من الأسهل على أن أقنعه بأن الأرض ليست كروية من أن أقنعه ببراءتى وحسن نيتى . .

واستحثنى الناظر على الإجابة ، فبدأت أجيب . ولاحظت وجود أسئلة عن السوابق الإجرامية وعن أشياء أخرى لو تحققت لكنت واحداً من رجال العصابات .

ولاحظت أيضاً شيئاً طريفاً فى سلوك الناظر وأعوانه . ذلك عندما أجبت عن الأسئلة الخاصة باسمى وعنوانى فلم يطلب واحد منهم منى إثباتاً لصدق ما أقول . لماذا ؟ . لأنهم لا يتصورون أننى أكذب . لأنهم لا يعرفون الكذب فى الحقيقة . فأنا قد أكون فى نظرهم مجرماً خطيراً . ولكن من المستحيل أن أكون كاذباً .

وتعمدت فى إجابتى أن أوضح تاريخ دخولى إلى أستراليا آملا أن شخصاً (عاقلا) سوف يقرأ هذه الإجابة ويرحمنى من نتائج (جريمتى) .

والظاهر أن طاعتى وامتثالى وجدا طريقهما إلى قلب الناظر وأعوانه فكفوا عن تهديدهم ، وتمالكوا روعهم ، وانصرف بعضهم إلى عمله حتى انتهيت من الإجابة . ثم سلمت الاستمارة إلى الناظر ، وسألته عن نتيجتها ، فأجابنى بأنها سوف تأخذ طريقها إلى (محكمة أمن الدولة) حيث يحدد القاضى جلسة لسماع دفاعى ، فإذا كان المحامى الذى سوف أوكله بارعاً كانت العقوبة (غرامة ٢٠٠ دولار) وإلا فالسجن . .

ما شاء الله . . خرجت إلى الرصيف وأنا لا أكاد أرى ما أمامى حزناً وتعباً وغيظاً وسرت على الرصيف وماء المطر يتقاطر من ثيابى حتى جاء القطار – أخيراً – وركبته ووصلت إلى (محطة فلندر) فى ملبورن .

كانت هذه المفاجأة الأخيرة قد عصفت بكل أمل لى فى أى شىء وخرجت من القطار وأنا فى حالة من اليأس الأعمى جعلتنى أفقد الشعور بكل

شيء إلا الشعور المؤلم بالمستقبل المظلم .

عند باب الخروج وجدت كمساريين يقفان بجوار الباب أحدهما متقدم فى السن والثانى شاب . تقدمت إلى العجوز وحكيت له قصتى آملا أن يهدينى إلى شيء وسط ما يحيط بى من ظلام . ولاحظت فى أثناء حديثى أن الكمسارى الشاب كان يصغى إلى كلامى دون أن يتدخل وفى النهاية هز العجوز رأسه وأكد ما قاله لى ناظر المحطة من قبل .

خرجت من باب المحطة وأنا أنتزع خطواتى انتزاعاً ، وعند ذلك فوجئت بشخص يجذبنى من يدى لأتوقف . كان الكمسارى الشاب الذى سمع قصتى وأنا أقصها على زميله العجوز . سألنى فى بشاشة حلوة : إيطالى ؟ قلت : مصرى قال : أنا إيطالى واسمى (تونى) صافحته وقال لى : لقد سمعت قصتك كلها ، وأحب أن أقول لك ألا تهتم بها لأنها كلام فارغ ، ولن يحدث لك شيء .

حدقت فيه غير مصدق ، ولكنه قال : نحن الأجانب يجب أن يساعد (بعضنا بعضاً) . صدقت على كلامه من أعماق قلبى . وعند ذلك قال لى : عندما يأتيك خطاب المحكمة احضره إلىّ وسوف أساعدك . ثم ذكر لى مواعيد عمله بدقة وأكد على بضرورة الحضور بمجرد تسلمى الخطاب،وهل كنت بحاجة إلىّ هذا التأكيد ؟ وفى النهاية طلب منى أن أعود إلى منزلى مبتسماً ، فالمسألة كلها لا تستحق الحزن . ماذا كنت أستطيع أن أقول أمام ذلك الوجه الباسم والقلب الكبير ؟ شكرته وسرت بروح جديدة حتى وصلت إلى محطة الأتوبيس ، وما كدت أقف حتى فوجئت (تونى) يجرى خلفى ويخبرنى بأنه فكر فى خطة جديدة ؟

قال لى : لا داعى لأن تنتظر الخطاب . أعطنى عنوانك لأن الخطاب سوف يمر من هنا وسوف أترقبه وأتسلمه وأمزقه . . هل هذا ممكن ؟ ممكن جداً أعطيته عنوانى وعبرت له عن امتنانى ، وجاء الأتوبيس ، فركبت ووصلت إلى البيت .

كان أول ما فعلته هو أن خلعت ثيابى المبتلة ولبست بيجامة ثم قصدت إلى المطبخ وأخرجت دجاجة من الثلاجة ووضعتها فى ماء مغلى على النار . وفى الفرن وضعت (برام رز معمر) . وما هى إلا لحظات حتى كنت أجلس فى المطبخ الدافئ وأمامى دجاجة سمينة ورز معمر وحساء دسم وطبق تفاح .

شيئاً فشيئاً تناسيت متاعب اليوم ومفاجآته الغريبة وآلام ظهرى وجسمى ونفسى ، وجعلت أمصمص عظام الدجاجة وأنا أفكر فى الغد ومايأتى به .

لم يصلنى خطاب المحكمة قط . أما (تونى) فقد ذهبت إليه ألف مرة بعد ذلك لأشكره ولكنى لم أجده . ولم أستطع الاهتداء إلى مكانه قط . حتى إننى كنت أشك فى بعض الأحيان أنه كان شخصا حقيقيًّا . ولم أحزن على شيء قدر حزنى لأننى لم أقابله بعد ذلك . ولكنى لا أعتقد أنه تذكر شيئاً فيما بعد ، أو أنه انتظر شكراً ، فإن صاحب قلب نبيل مثله إنما يفعل الخير دون أن ينتظر الشكر . بل ربما دون أن يعرف أنه يصنع الخير .

واصلت البحث عن وظيفة مناسبة ، وفى النهاية فقدت الأمل فى الوظيفة (المناسبة) ، فبدأت أبحث عن وظيفة تكون (أحسن شوية) من عملى فى المخازن . فنجحت فى الحصول على وظيفة (ضابط بريد) . وهى الوظيفة التى وجدتها وفقدتها فى ثانى يوم وصلت فيه إلى ملبورن . واتفقت مع موظف

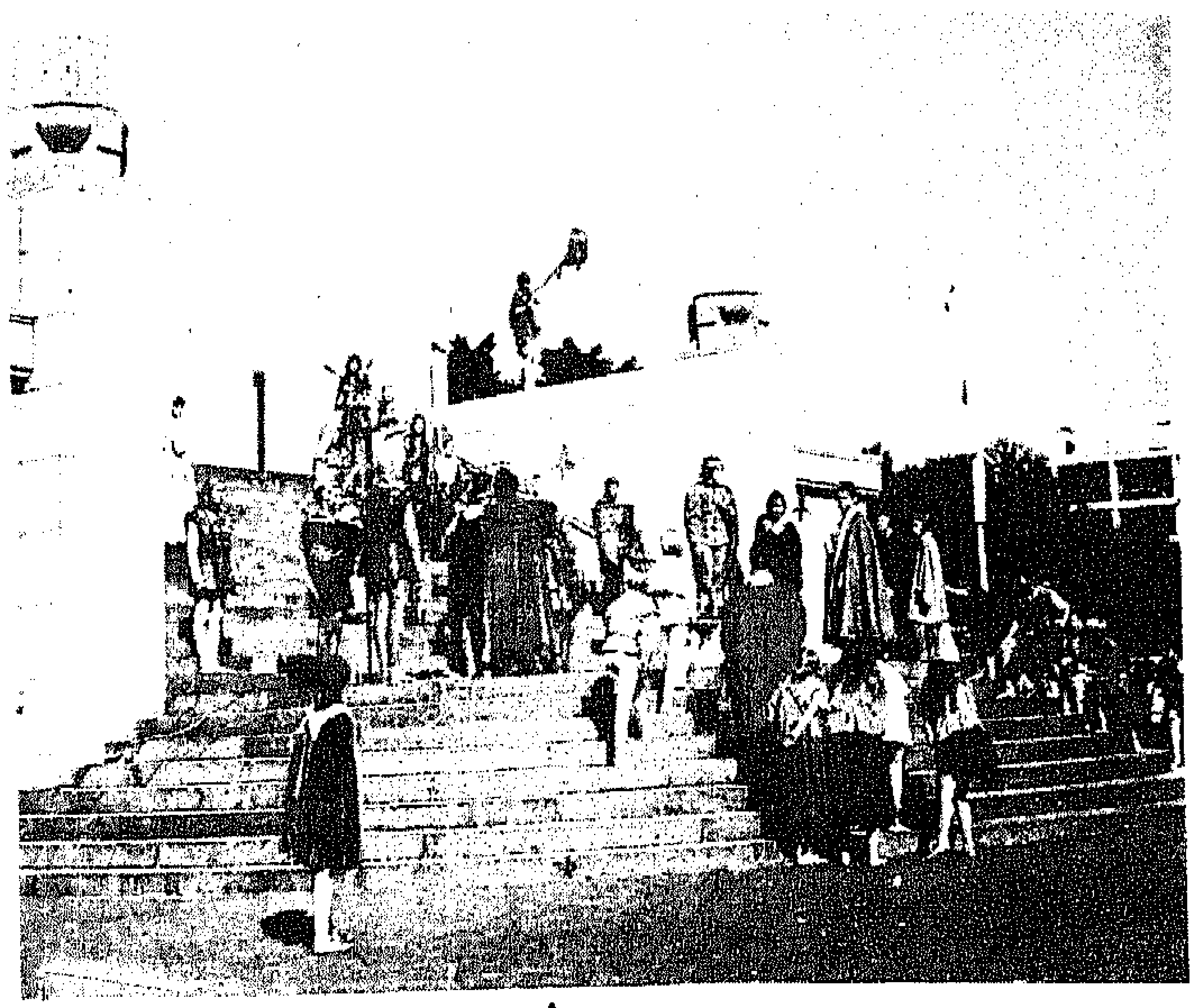
(شئون العاملين) على أن أبدأ عملى الجديد بعد أسبوعين (وهى المدة التى رأيتها كافية لكى أقف على أقدامى بشكل معقول . ثم لكى أستقيل من المخازن) وكنت فى نفس الوقت أذهب يومياً إلى طبيب المخازن حيث كنت أجلس وأعرض موضع الانزلاق الغضروفى لشعاع كهربائى لمدة دقائق . الطريف أن الممرضة هى التى كانت تبدأ بتشغيل ذلك الجهاز ثم تطلب منى أن أغلقه عندما أسمع الجرس (وهو موعد انتهاء المدة) .

انتهت مدة العلاج (القانونية) ، وعدت إلى المخازن . وقد حرصت على أن أقدم استقالتى فى نفس اليوم ، فالنظام يقضى بأن العامل المستقيل يقضى أسبوعاً فى عمله بعد تقديم استقالته حتى يتمكن أصحاب العمل من تدبير غيره .

كان أسبوعاً ناعماً ، وقد لاحظت أن استقالتى أكسبتنى احترام الجميع ، فالمعتاد هو الفصل وليس الاستقالة . ولم يعيدونى إلى الحجرة الخشبية المشئومة ، فقضيت الأسبوع على مزاجى أدخن كما أشاء وأتكلم كما أشاء ، وعادت المياه إلى مجاريها بينى وبين جيـــدو . ومضى الأسبوع وقبضت راتبي ومكافأتى عن مدة العمل السابقة (أجر يوم وربع عن كل شهر) ثم صافحت مستر ويزرز الذى تمنى لى مستقبلا سعيداً وودعت المخازن إلى الأبد .

هذا عن العمل .

أما عن الفن فقد بدأت أدرس المسرح فى أستراليا ، ووجدته مختلفاً كثيراً عن المسرح فى بلادنا ، فهو أولا ليس أستراليًّا ، بمعنى أن ما يعرضه ليس إنتاجاً أستراليًّا . إنه مسرح تجارى لا يهمه مجتمع أستراليا ومشاكله



المسرح فى أستراليا

وتطوره . كل ما يهمه هو (الدولار) . والدولار يأتى من السلعة الرائجة الناجحة . فكل المسرحيات (مستوردة) من أوربا وأمريكا بعد أن تكون قد أخذت حظها من الدعاية والنجاح وتحدثت عنها صحف العالم بما (يضمن) نجاحها فى أى مكان . عند ذلك (يستوردها) أصحاب المسارح ويعرضونها كما هى على الجمهور الأسترالى .

أما المؤلف الأسترالى فلن يجد من يسأل عنه فى أستراليا ، ولذلك يبعث إنتاجه إلى إنجلترا التى ترحب حقًّا باستمرار بالإنتاج الجديد ، وعندها الجمهور

والوعى (وربما الهدف السياسى) لقراءة الإنتاج الأسترالى وتقديمه إلى دائرة الضوء .

وأما أصحاب المواهب الأخرى فى التمثيل والرقص والغناء فإنهم (يضافون) إلى المسرحيات المستوردة توفيراً لنفقات استيراد الكومبارس ، أو يشتركون فى مسرحيات هزلية خفيفة لاترقى إلى مستوى المسرح الجاد .

يضاف إلى ذلك أيضاً مجموعة من فرق الهواة تقدم المسرحيات المحلية والعالمية على مسارح متواضعة فى الضواحى .

فالدولة فى أستراليا لا يهمها أن يتقدم المسرح أو يتأخر . الحقيقة أنها تبدو وكأنها لا يهمها أن يتقدم أى شىء أو يتأخر . إنها مفتوحة مثل (سوق عكاظ) لكل من يستطيع أن ينتج فى أى مجال بشرط ألا ينتظر تشجيعاً أو عطفاً أو تقديراً من أى لون . منه للجمهور ! !

هذا عن المسرح الأسترالى . فكان لابد من أن أتجه إلى الجالية العربية . وجدت أمامى خمسين ألف عربى بدون مسرح عربى . بدون سينما عربية . بدون جريدة أو مجلة . بدون أى شىء إلا الذكريات العميقة التى تربطهم ببلادهم .

هذا هو (الوادى) الذى قررت أن (أصرخ) فيه . . وصادف قرارى شهر مارس ، شهر الذكرى السنوية لابن مصر العظيم (سيد درويش) . كان لابد أن أحتفل بذكرى الحبيب الخالد . ولكن ما الذى كنت أستطيع أن أفعله وأنا لا أعرف أحداً ولا أملك شيئاً ولا أرى أينا وجهت وجهى مجالا للاحتفال بذكرى سيد درويش .

كان هذا هو التحدى الذى واجهنى ، وقد رحبت به . قلت :

سيد درويش هو نقطة البدء ، وسوف أبدأ بتعريف أبناء الجالية العربية بسيد درويس وفن سيد درويش .

ليس عندى مكان أحتفل فيه وليس عندى أسطوانات ولا شرائط ولكنى أحفظ أغانى سيد درويش وأعرف تاريخه كأنه تاريخى الشخصى .

قصدت (الأب بولس الخورى راعى كنيسة سيدة لبنان) وهو رجل نبيل وأديب ممتاز ، وعرضت عليه أن ألقى محاضرة فى ذكرى سيد درويش ، فوافق ورحب وتطوع بأن يدعو بنفسه جمهور المصلين لسماع المحاضرة بعد الصلاة .

ضمنت المكان والجمهور إذن ، وكتبت المحاضرة ، ثم عكفت على تحفيظ زميلىّ (فهمى حافظ ورشدى حنا) مجموعة من أغانى سيد درويش

ولم يكن عندى مكان أستطيع فيه أن أجرى بروفات ، لم يكن من السهل القيام بالبروفات فى منزلى لأن (روائع) سيد درويش تتحول فى أسماع الأجانب إلى (شوشرة) نستحق عليها المؤاخذة . بدأنا البروفات فى حديقة عامة كنا نقصدها كل مساء بعد أعمالنا ونستمر فى الغناء والحفظ والتدريب حتى يوم ١٧ مارس ، فذهبت ومعى زميلاى إلى (كنيسة سيدة لبنان) وهناك وجدنا مفاجأة رائعة فى انتظارنا ! ! ثلثمائة عــربى أحضرهم (الأب بولس الخورى) لسماع المحاضرة وللاحتفال بذكرى سيد درويش .

كانت المحاضرة شيئاً طريفاً للحاضرين ، وزادتها الأغانى طرافة ، وانتهت المحاضرة ولم ينصرف الجمهور ، بل جلسنا جميعاً فى شبه ندوة نتحدث عن سيد درويش ، وعرفنى الناس وعرفت أيضاً شخصيات هامة فى المحيط العربى مثل (دكتور ناصح ميرزا) و (غالب نصر الدين) و (إدموند ملكى) .





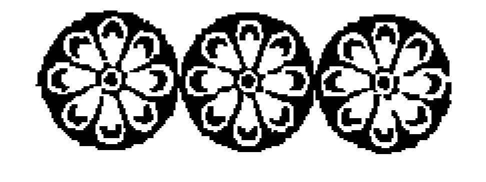
ذكرى « سيد درويش »



ذكرى « سيد درويش »

فى غمرة سعادتى سألنى (دكتور ناصح ميرزا) عن مشروعاتى فى أستراليا فقلت له إننى أنوى تكوين فرقة مسرحية لتقديم المسرح العربى ، فضحك فيما يشبه الاستخفاف ، وقال إن هذا حلم بعيد التحقيق خصوصاً لشخص لم يمض عليه أكثر من شهرين فى أستراليا ، والأفضل أن أنتظر بضعة أعوام حتى أعرف البلد والناس . واستشهد فى كلامه بكفاحه هو فى تكوين (الرابطة العربية) التى أمضى أعواماً حتى تمكن من تكوينها ، وأشار إلى الصعوبات الجمة التى يلاقيها فى سبيل تجميع المواطنين العرب لأى سبب .

لم تعجبنى إجابته ، وصممت على أن أثبت له أننى قادر على تحقيق ما يراه مستحيلا ، وأكدت له أنه سيرى نتيجة عملى فى خلال أشهر . وفى هذه الليلة ولدت فى خيالى (فرقة أضواء القاهرة) ، وبدا بعد ذلك أن الظروف كانت فى جانبى لأن وظيفتى الجديدة (ضابط بريد) كانت وظيفة مسائية (من الثانية ظهراً إلى العاشرة مساء) فكانت تعطينى الراحة الكافية والوقت الكافى للتخطيط والتنفيذ .



أضواء القاهرة

لم أنم لحظة واحدة فى هذه الليلة . .

الحقيقة أننى نمت وخططت (كمان) ، ومع ذلك فإن الأقرب إلى الصدق هو أن أقول إننى لم أنم ، فإن آخر ما كان يدور فى فكرى وأنا أتقلب فى الفراش هو ذلك التحدى الذى كنت أستعد له . وكان هو أيضاً أول ما ملأ ذهنى بمجرد استيقاظى .

كان داخلى يغلى ويفور برغم شدة البرودة التى تملأ الجو . ولم يكن غليان الغيظ والعجز على أى حال . كان غليان الحماس والانفعال بما أنا مقدم على تنفيذه .

كان اليوم التالى لذكرى (سيد درويش) إجازة رسمية . وتقابلت مع (فهمى ورشدى) وأخبرتهما أننى (خلاص) كونت فرقة (أضواء القاهرة) وأننى أنوى افتتاح برنامج الفرقة بمسرحية (سيد درويش) .

وفى هذه الجلسة نفسها بدأت أوزع الأدوار ، فأعطيت (رشدى) دور (سيد درويش) و(فهمى) دور (محمود مرسى) صديق سيد درويش . ولم أعط نفسى دوراً لأتفرغ للإخراج . ولما كانت المسرحية تحتوى على (٣٠ شخصية) فقد كان الباقى هو (٢٨ ممثلا) فقط . ! !

كيف كنت أتصور أن الفرقة ستكتمل ؟ أين باقى الممثلين ؟ الميزانية ؟ الملابس ؟ الديكورات ؟ الموسيقى ؟

ولكنى كنت واثقاً بأنه يكفينى أن أبدأ الخطوة الأولى لكى يتم كل شىء . من أين واتتنى هذه الثقة ؟ على أى أساس بنيتها ؟ لا أدرى . ولكن إيماناً غريباً ملأ نفسى بأننى سوف أنجح . كنت كمن يرى الغيب أو من يتنبأ به . .

هكذا كتبت إعلانات عن تكوين (فرقة أضواء القاهرة المسرحية) وأعلنت عن (ترحيبها) بكل من يهوى التمثيل والغناء . بل إننى حددت فى الإعلانات تاريخ افتتاح الموسم بعد شهرين من هذه البداية .

وعلقت الإعلانات فى كل المطارح العربية مثل (البيت اللبنانى) و(المركز الإسلامى) و(كنيسة سيدة لبنان) و(الرابطة العربية) .

ثم بدأت البروفات فى صالة (كنيسة سيدة لبنان) التى أعطانى (الأب بولس الخورى) تفويضاً كاملا باستخدامها فى أى وقت أشاء .

بدأت البروفات وليس معى إلا (فهمى ورشدى)

بعد يومين حل فى منزلى مصريان جديدان : (هنرى دبوس) و(سمير فوزى) مهندسان شابان بينهما قرابة وزمالة فى الجامعة . وقبل أن يبحثا عن عمل عرضت عليهما الانضمام إلى الفرقة فانضما إلى الفرقة .

بقى إذن (٢٦ ممثلا) وبقيت البطلة . . . بسيطة . . ولكن البطلة نفسها هى التى بحثت عنى .

فتاة مصرية جميلة موهوبة اسمها (برناديت مهران) سمعت بذلك النشاط الغريب الذى يدور فى (كنيسة سيدة لبنان) فتقدمت إلى (الأب



مسرحية « سيد درويش »

بولس الخورى) تطلب منه (مساعدتها) على انضمامها إلى الفرقة فأحالها (الأب بولس) إلىّ .

كانت (برناديت) موهوبة فى التمثيل والغناء والرقص وحضور البديهة والحفظ والقدرة على التعبير . كانت لقية ثمينة بكل معنى الكلمة .

وبانضمام (برناديت) زالت أكبر العقبات التى واجهتنى . وبعدها تقاطر الأعضاء .

جاءنى ابنا العم (تونى شهلوب) و (إلياس شهلوب) . ثم جاءتنى فرقة موسيقية كاملة ، القائد فيها مصرى إيطالى اسمه (ريكاردو ماتسا) وكان قد سبقنى إلى أستراليا بسنوات ، ونجح فى فرض اسمه ومواهبه فى الإذاعة والتليفزيون ، ثم سمع عن الفرقة المصرية الوليدة فأقبل سعيداً يعرض خدماته .

لم يمض أسبوعان حتى صار معى ممثلون أكثر مما أريد . ولم يغب عن ذهنى أنهم جميعاً حديثو العهد بالعمل المسرحى وما يتطلبه من جهد ومشقة ، وأننى قد أفاجأ ببعضهم يتخلى عن الفرقة فى منتصف الطريق بعد أن يتضح له أن الحكاية ليست (لعباً) كما كان يتصور . ولم يكن عندى ما أستطيع أن ألزم به أحداً على البقاء معى . لم أكن أمنح مرتبات (طبعاً) ، وبالتالى لم أكن أستطيع أن أفرض عقوبات . وكان العضوان المؤسسان (فهمى ورشدى) قد تكاسلا عن حضور البروفات ، ثم جاء وقت اختفى فيه (رشدى) تماماً ، وأما (فهمى) فكان يحضر البروفة بدون أن يتذكر كلمة واحدة مما قمنا به فى البروفة السابقة .

أمام ذلك لجأت إلى شىء هدتنى إليه ظروف العمل . أشعرت كل ممثل



مسرحية « سيد درويش »

وكل ممثلة بأنني أستطيع أن أستغنى عنه أو عنها فى أى وقت ، فلجات إلى تغيير الأدوار باستمرار حتى يشعر كل عضو بأن الفرقة تستطيع أن تستمر بدونه ، وأنه (هو) الخاسر إذا تكاسل أو تهاون .

ووضعت نظاماً يقضى بأن من يتغيب بروفة (واحدة) يخرج من الفرقة ، ونجحت هذه الطريقة نجاحاً رائعاً ، وتماسك أعضاء الفرقة بشكل تحسدنا عليه أى فرقة مسرحية فى القاهرة .

وبعد أن اختفى (رشدى) أعطيت (هنرى دبوس) دور (سيد درويش) ولكنه لم ينجح فيه . كان هنرى يملك صوتاً جميلا . وذهناً

عمليًا ممتازاً ، ولكنه كان محدوداً فى التمثيل ، فسحبت منه الدور ، وعهدت إليه بأن يساعدنى فى النواحى الإدارية على أن أقدمه فى أغان فردية وجماعية على المسرح ، وقمت أنا بدور (سيد درويش) وسارت القافلة .

اشتريت أقمشة مختلفة للرجال والنساء ، وقمت بتفصيل (جلاليب وفساتين مصرية) فى منزلى . كنت أرسم تصميم الجلباب على الورق ثم أسلم التصميم والقماش لصاحبة منزلى فتحولها إلى ثوب مصرى على ماكينة خياطتها .

لم تكن صاحبة المنزل تفهم أهمية نشاطى أو معناه ، ولكنها كانت ترانى مخلصاً فيه ، فساعدتنى وأفرغت لى كل أوقات فراغها .

وفى مخزن (كنيسة سيدة لبنان) عثرنا على كمية هائلة من الأخشاب سرعان ما أحلناها إلى ديكورات للمسرحية بالألوان والزيت .

أما الإكسسوار من الكراسى المصرية والسجاجيد والشلت والشيشة وما إلى ذلك فإننا درنا على كل البيوت العربية القديمة فى (ملبورن) وجمعنا ما فيها . وكان كل من نقصده يساعدنا بأقصى ما يستطيع .

ومع ذلك لم يكن الطريق مفروشاً بالورد تماماً . قابلتنى عقبات كثيرة حللت بعضها وتركت بعضها الآخر للزمن يحله كما يشاء .

من أولى هذه العقبات ما لمسته فى معظم (الممثلين) من عجز عن حفظ الحوار وحفظ الحركة والقدرة على التعبير . وكان يقابل هذه العقبة من ناحية أخرى الإخلاص الرائع الذى كان يملأ جميع الصدور . فاعتمدت على الإخلاص وتحولت إلى مدرس فى الابتدائى . كل كلمة لقنتها عشرات

المرات . كل حركة أديتها عشرات المرات . والأغانى رددتها ورددتها حتى تصورت فى النهاية أننى قد أتحول شخصياً إلى مطرب .

وكانت هناك ممثلات عشن فى مصر ولكنهن لا يقرأن ولا يكتبن العربية ، فكنت أكتب لهن الأدوار بالحروف اللاتينية .

كانت هذه عقبات (فنية) ، وكان التغلب عليها ممكناً مع الإخلاص والحب والجهد ، ولكن كانت هناك عقبات أخرى لم يكن التغلب عليها ممكناً أو سهلا على الأقل . كانت هناك أسئلة تدور فى المحيط العربى عن (حقيقة) ما أفعله . . عن هدفى من ذلك النشاط . . عنى شخصياً . . وكانت الأسئلة تصل إلى فلا أهتم بالرد عليها . كنت واثقاً من أن النتيجة سوف ترد بنفسها على كل ما يدور من أسئلة .

وكانت البروفات مزيجاً من الجهد والأمل والضحك أيضاً ، فما أكثر الطرائف التى كانت تحدث . من ذلك مثلا أن (فهمى) بعد بروفات شهر كامل اتضح عجزه الكامل عن حفظ جملة واحدة تزيد على أربع كلمات . مرة بعد مرة وبروفة بعد بروفة ولا فائدة . فى كل مرة يبدو وكأنه غريب عن كل ما يحدث فى البروفة . .

عرضت عليه أن يترك الدور مادام لا يستطيع أن يحفظه ، ولكنه تمسك بالدور بشكل مؤثر . فتركت له الدور وبحثت عن طريقة أعالج بها هذه المشكلة .

ثم وجدت الطريقة . . كان دوره يتطلب منه أن يمسك مصحفاً فى يده طول الوقت يفتحه من وقت لآخر ويقرأ فيه ، فكتبت له دوره فى نوتة صغيرة واستبدلتها بالمصحف على أن يقرأ دوره من النوتة باستمرار وكأنه يقرأ القرآن .

ومن الطرائف ما حدث للزميل (تونى شلهوب) . كان (تونى) شاباً مرحاً ضاحكاً ساخراً باستمرار . وقد تصورت فى البداية أنه من المستحيل أن أضمن استمرار وجود تونى فى الفرقة ، لأن تصرفاته لم تكن توحى بأى جدية . ولكنى اكتشفت فيه بعد ذلك رقة شعور جميلة وإخلاصاً وحباً للعمل والتعاون . كان قلباً مصرياً نقياً يرحب وتدمع عيناه لكل ما يذكره بمصر .

وكان قد هاجر إلى أستراليا وترك عائلته فى مصر على أن يشتغل ويدخر ما يضمن له أن يستقبل عائلته عند حضورها بشكل معقول . ولكنه لم ينجح فى شيء ، وكان ينتقل من عمل إلى عمل ومن منزل إلى منزل . كان طفلا كبيراً نقى القلب . وعندما انضم إلى (أضواء القاهرة) وجد فيها العائلة التى تركها فى مصر ، فأقبل عليها بكل وجدانه وشبابه وحنينه إلى مصر ، وعندما سمع أغانى (سيد درويش) لأول مرة سحرته وتغلغلت فى أعماقه فظل يرددها دون أن يستطيع أن يكف عن الغناء . كان يشكو لى من أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الغناء . كان يغنى فى البيت ، فى الشارع ، فى العمل ، فى البروفة . وكان الناس ينظرون إليه وهو يردد هذه الأصوات (الغريبة) ، وكانت نظرات الناس تخجله ولكنه لا يستطيع أن يكف عن ترديد (الحلوة قامت تعجن فى البدرية . والديك بيدن كوكو فى الفجرية) .

طالما ضحكنا لهذه الظاهرة دون أن نتصور أنها سوف تنقلب إلى جد أو سوف تتسبب فى كارثة حتى جاء اليوم الذى كان يقف فيه فى عمله فى (مصانع فورد) وهو يغنى (زورونى كل سنة مرة) ، وإذا به يفاجأ برئيسه يسلمه خطاباً مغلقاً ، وفى الخطاب وجد قراراً بالفصل لأنه (يسبب

شوشرة وأصواتاً مزعجة) أثناء العمل .

خسر (تونى) وظيفته من أجل أغانى (سيد درويش) وبدأ يبحث عن وظيفة جديدة . كان يبحث بالنهار ويواصل الحضور إلى البروفات بالليل . والغريب أنه وهو يبحث عن الوظيفة الجديدة كان يغنى (سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة) .

هذا الحنين وهذا الحب وهذه الطاقة الشابة الرائعة ظهرت فى أجمل صورة فى كل ما قام به (تونى) فى فرقة أضواء القاهرة .

أما (إلياس شلهوب) ابن عمه فكان أكبر منى سناً وقد جعله ذلك أكبر أعضاء الفرقة سناً . وكان منظره – ولا يزال طبعاً – يوحى بالجدية والصرامة والخبرة . ولكن تصرفاته كانت تحير الألباب ! !

كان يتطوع لأداء أى عمل أطلبه من أحد . ثم لا يقوم بهذا العمل . ثم يعتذر ثم يتطوع من جديد ، ثم يعتذر ، وهكذا .

حيرنى أمره كثيراً ، ولكنى ضحكت فى النهاية عندما عرفت (سره) الحقيقى . . الخجل . كان إلياس خجولا جداً وكانت نيته طيبة دائماً فى كل ما كان يعرضه ثم كان خجله يغلبه فيعجز عن أدائه . وكان وراء هذا الخجل النية الطيبة والقلب الطيب والحب للفرقة ولباقى الزملاء ، فقنعت منه بأن يساعدنى – فى السر – وعهدت إليه بإدارة المسرح .

واقترب موعد الافتتاح . . ولم يكن فى نيتى أن أتزحزح عنه يوماً واحداً . وكان المتفق عليه أن نقدم المسرحية فى صالة (كنيسة سيدة لبنان) بعد تحويلها إلى مسرح لنوفر إيجار المسرح ، ولكننا فوجئنا بأحداث غريبة مؤلمة تحدث فى الكنيسة . كان (للأب بولس الخورى) رعية كبيرة



مسرحية « سيد درويش »

من الشبان والشابات يباشرهم ويرعاهم جميعاً كأنهم أولاده . . وكانت أولى المفاجآت المؤلمة وفاة شابة من هؤلاء فى حادث سيارة . وبعدها بأيام توفى شاب فى حادث سيارة . وبعده بأسبوع توفى شاب آخر فى حادث سيارة .

ملأ الحزن الكنيسة وقلب (الأب بولس الخورى) وقلوبنا جميعاً ، لم يعد فى إمكاننا أن نقيم مسرحاً فى الكنيسة الحزينة .

استأجرنا مسرحاً آخر فى (كنيسة جميع الأديان) التى يشرف عليها القس الأسترالى (نورمان لو) . . وهو رجل مهرج مهزار يرفض أن يناديه أحد بكلمة (أبى) ويقيم حفلات تعارف مستمرة بين أبناء الأوطان المختلفة .

كان (نورمان لو) رجلا غريباً لا يثير الاحترام ولا الحب ، ولكن مسرحه كان مسرحاً ممتازاً كاملا من جميع النواحي . وبعد أن استأجرناه منه لمدة أسبوع قمنا بالبروفات النهائية على هذا المسرح حتى يحفظ الممثلون الحركة على خشبة المسرح الجديد . .

وطبعنا التذاكر والبروجرامات وحددنا ثمن التذكرة (دولاراً) ، ولكننا لم نكتب السعر على التذكرة حتى لا نخضع للضرائب ، بل كتبنا على التذاكر (الدخول بالتبرع) لتفادى مشاكل لا نقدر عليها .

وبدأنا توزيع التذاكر قبل الافتتاح بأسبوع ، فأعطينا كل من نعرفه مجموعة من التذاكر لتوزيعها . وكانت النتيجة طيبة ، بل أكثر من طيبة مما كنا نتوقع .

ثم جاء أخيراً اليوم الموعود . يوم الافتتاح وذهبنا جميعاً إلى المسرح من الصباح الباكر وقدمنا بروفة كاملة بالملابس والديكورات والإكسسوار .

وبعد البروفة قسمت العمل الإدارى على (أصدقاء الفرقة) ، فخصصت أربعة منهم للوقوف فى الصالة وإرشاد المتفرجين إلى مقاعدهم ، ثم أوقفت على الباب الزميل (جورج فريد) ووضعت معه كمية إضافية من التذاكر فى حالة حضور أحد بدون تذاكر .

وفى المساء فاجأتنى الطبيعة مفاجأة لم أكن أتوقعها . انهمر المطر بشكل مخيف مصحوباً برعد وبرق ، وتحولت الشوارع إلى بحار هائجة تحت تأثير الطبيعة الغاضبة ، وضعت يدى على قلبى وقلت إنه من المستحيل أن يحضر أحد فى هذا الجو المخيف . ولكنى كنت واهماً جداً لحسن الحظ .

سرعان ما ملأت العربات كل الشوارع المؤدية إلى (كنيسة جميع

الأديان) ، وامتلأت الصالة وجاءنى جورج فريد يبكى غيظاً لأنه لا يستطيع صد هجوم الجمهور عليه بعد أن باع كل التذاكر التى أعطيته إياها . ما أبدع هذا ! ،

أعطيته كمية أخرى من التذاكر ، وأرسلت معه زميلين آخرين ليبحثا عن كراسى إضافية فى كل حجرات الكنيسة . ووضعنا الكراسى الزائدة فى الممرات الخالية حتى لم يعد فى الصالة موضع لقدم ، وتحولت الصالة الهادئة إلى صالة سينما فى أحد أحياء القاهرة الشعبية .

من أجهزة التسجيل تتصاعد الأغانى المصرية ، ومن البوفيه تتصاعد رائحة (الطعمية) فقد عهدت إلى (أم برناديت) بالإشراف على صنع الفول والطعمية وعمل سندوتشات وبيعها فى البوفيه استكمالا للجو الشعبى المصرى . وقد نجحت فكرة البوفيه نجاحاً بديعاً وبيع السندوتش الصغير الذى يحتوى على قرص طعمية واحد بمبلغ (٦٠ سنتاً) .

ووسط هذه الحرارة وهذا الحماس بدأنا الحفل ، فقدمنا تابلوه (الوطن العربى) وهو النشيد الذى وضعه (محمد عبد الوهاب) ، ثم تابلوه (عدوية) من ألحان (محمد الموجى) ، وتابلوه (الجارسونات) من ألحان خالد الذكر (سيد درويش) وبعد هذه التابلوهات الغنائية الراقصة قدمنا مسرحية (سيد درويش) .

وقدنجحنا نجاحاً سوف أظل إلى آخر عمرى أتذكره وأتدفأ به . . كان التصفيق يقاطعنا طول الوقت ، والضحك يتعالى أمام كل جملة مرحة ، وكأننا فى مسرح (نجيب الريحانى) ، والتجاوب معنا يشعرنا بأننا فى قلب القاهرة ، وملأت السعادة قلوبنا نحن الممثلين الجدد ، وكان من

المستحيل الفصل بين الجمهور والممثلين لشدة الاندماج والتجاوب .

ووسط هذا النجاح حدثت عدة طرائف . .

كنت قد عهدت إلى (إلياس شلهوب) بالميكروفون ليعلن عن كل شيء نقدمه ، واتفقت معه على أن يعلن عن وجود (سندوتشات الفول والطعمية) بعد الفصل الأول من المسرحية .

ونفذ (إلياس) الاتفاق ، وأعلن عن الفول والطعمية فى الموعد المحدد ، وذهب الجمهور إلى البوفيه فلم يجد شيئاً . . كانت رائحة الطعمية قد جذبت كل من شمها قبل أن يبدأ الحفل ، وكانت النتيجة أن كل ما بالبوفيه نفد قبل الإعلان عنه .

وأما (فهمى حافظ) فقد أثبتت مفاجآته الطريفة أنها أكبر من ذكائى . كنت أتصور أنني (ضمنته) بعد أن كتبت له دوره فى نوتة وسمحت له بأن (يقرأ) الدور من النوتة أثناء التمثيل .

ولكنه كان يفتح النوتة ويردد حواراً من الفصل الثانى فى حين أننا فى الفصل الأول ، أو يردد حواراً من الفصل الأول ونحن فى الفصل الرابع حتى بدا وكأنه يعيش فى مسرحية أخرى . وحتى كاد يحدث لنا بلبلة غريبة على المسرح لولا ما كان يسود العرض كله من روح طيبة .

ثم كان دوره يتطلب منه أن يحمل إبريقاً مليئاً بالشاى ويوزعه على الممثلين فى أحد المشاهد . وقد حرصت على أن أملأ له الإبريق بنفسى بين الكواليس حتى لا يحدث خطأ . ومع ذلك فقد ظهر على المسرح والإبريق خال تماماً من الشاى واضطر الممثلون أن (يتظاهروا) بأنهم يشربون الشاى . ولكن أين ذهب الشاى الذى ملأت به الإبريق ؟ شربه (فهمى)

أثناء فترات الاستراحة حتى يبقى متنبهاً ولا يكبس عليه النوم ! !

وجاء موقف بينه وبيني على المسرح أو بين (محمود مرسى) و(سيد درويش) وكان الموقف يقضي بأن يخرج فهمي من المسرح ويتركني بمفردى على المسرح لكى أغنى (زورونى كل سنة مرة) ، ليس ذلك فقط بل إن خروجه كان إشارة لرجال الإضاءة بتخفيض الإضاءة على المسرح لإعطاء الجو المناسب للأغنية العاطفية .

وبدأ الموقف على ما يرام . وانتهى فهمى من دوره وقال : (تصبح على خير يا شيخ سيد) ولكنه لم يخرج من المسرح . وقف جامداً فى مكانه وقد نسى البروفات العديدة التى تدربنا فيها على هذا المشهد . همست له بالخروج . . اخرج يا فهمى . . اخرج . . ولم يخرج . تصلب فى مكانه ولم يتزحزح . واضطررت أن أهمس لرجال الإضاءة لتخفيض الإضاءة . وأكملت المشهد العاطفى ، فبكيت وغنيت وهو واقف بجانبي إلى آخر الفصل ، وبين الكواليس أمسكت بتلابيبه وسألته عن السر فى عدم خروجه . فأجاب فى براءة كاملة بأنه كان يعجب بأدائى للمشهد الأخير . ولذلك وقف بجانبي ليشاهدنى عن قرب ! !

كان لابد أن تحدث هذه الأخطاء الطريفة فى عمل هو الأول من نوعه فى أستراليا ومع أشخاص يقفون على المسرح للمرة الأولى فى حياتهم . وكان النجاح رائعاً . وفى الختام غنينا جميعاً النشيد المصرى الخالد (بلادى بلادى) فألهبنا حماس الجماهير التى وقفت تردد النشيد معنا والدموع تملأ عيونها . .

كانت ليلة رائعة ومجزية أيضاً ، وكان نجاح (أضواء القاهرة) شيئاً

انفجر كالقنبلة فى المحيط العربى فى (ملبورن) وكان ذلك النجاح هو الرد الحاسم الجميل على كل ما كان يدور من أسئلة عنى وعن فرقتى .

وأصبحنا (نجوماً) يستوقفنا من يعرفنا فى الشوارع ويعبر لنا عن إعجابه وتقديره لنشاطنا . واستمر ذلك الحلم الجميل أسبوعاً ، وتلقفنا آلاف التهانى من الكثيرين . وكان أجمل هذه التهانى وأشدها تأثيراً فى نفسى تهنئة (دكتور ناصح ميرزا) الذى اعتذر لى عن استخفافه السابق ، وقال إن ما حققته فى شهرين شىء لا يمكن وصفه إلا بأنه معجزة . وجدته (جنتلماناً) مصرًّا على إعطاء الفضل لأصحابه . بل إنه دعانى وفرقتى إلى أول اجتماع عقدته (الرابطة العربية) بعد ذلك وقدمنا إلى الجميع ذاكراً القصة بحذافيرها .

ثم انتهى الحلم ووزعت الأرباح على كل من ساهم فى نشاط الفرقة . وبدأت أستعد للمسرحية التالية (روض الفرج) .

أسندت دور البطلة إلى (برناديت) التى كانت قد نجحت نجاحاً ساحقاً فى (سيد درويش) واكتسبت شعبية كبيرة ، ولكن ظهر أن هذا النجاح كان أكبر من سنها واحتمالها فقد ملأها الغرور . وبدأت تعاملنا (نحن) على أنها نجمة كبيرة . بدأت تتخلف عن البروفات ، وإذا حضرت بروفة تطلب أن تؤدى دورها بسرعة . ثم تخرج من البروفة .

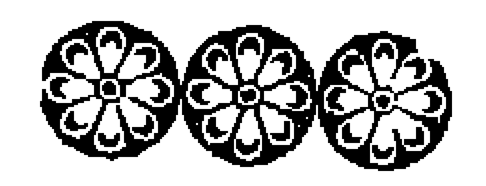
كلام فارغ طبعاً . هذا شىء يهدد كيان الفرقة ، وإذا تركت لها الحبل على الغارب فإن ذلك سوف يشجع غيرها على الاستهتار بالمواعيد والبروفات . ومع ذلك ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ليس من السهل أن أجد فى يوم وليلة ممثلة أخرى لها مواهب (برناديت) وجاذبيتها المسرحية . أرسلت لها (تونى وإلياس) وكانا قد أصبحا جزءاً عزيزاً من نفسى ومحلا لثقتى الكاملة . وقد نصحاها

الاثنان بأن تواصل العمل فى جدية واهتمام فأصغت إليهما ثم وعدتهما بالانتظام . ورغم ذلك تخلفت عن البروفة التالية .

وجدتنى فى موقف لا يحتمل التردد فأعلنت الاستغناء عن (برناديت مهران) بطلة الفرقة وأكملت البروفة بدونها لحين العثور على ممثلة أخرى .

وبعد البروفة سألنى (تونى والياس) عما أنوى أن أفعل بعد خروج (برناديت) من الفرقة ؟ فأجبتهما بأن الله وحده يعلم . ولكن الفرقة سوف تستمر وسوف نعثر على بطلة أخرى . .

واستمرت البروفات وذلك السؤال يلح على فى كل لحظة . أين أجد البطلة التى تقوم ببطولة مسرحية (روض الفرج) ؟



❁ ضابط بريد ❁

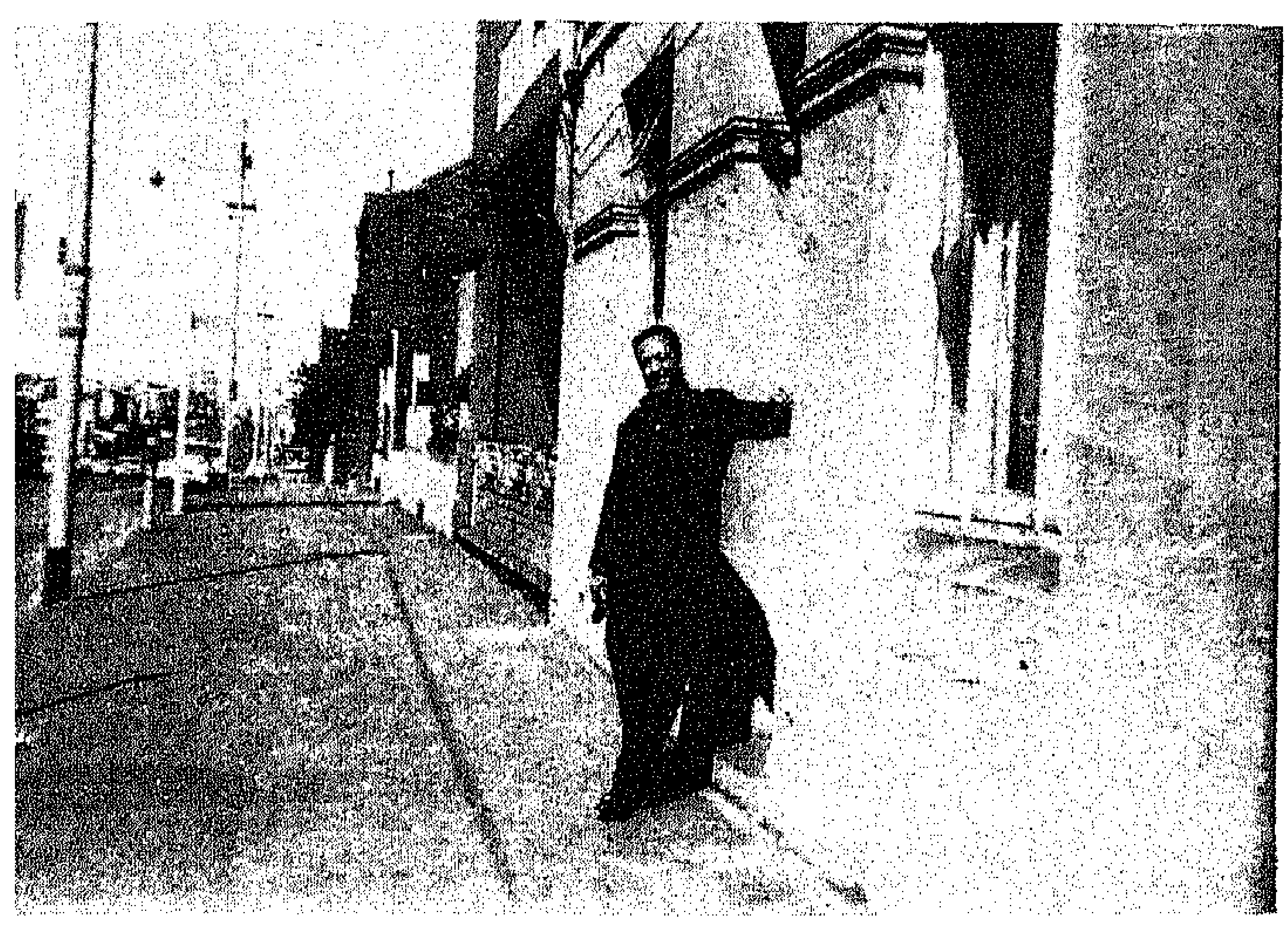
مع الأيام الأولى لتكوين (فرقة أضواء القاهرة) تسلمت وظيفتى الجديدة . . .

أصبحت (ضابط بريد) ، ويجب أن يكون مفهوماً هنا أن كلمة (ضابط) لا تعنى ما تعنيه عندنا فما هى إلا الترجمة الحرفية لكلمة (مكتبى) أو (متعلق بالمكتب) فهذه الكلمة الجميلة (ضابط) يضعها الأستراليون بجانب كل عمل إدارى أو مكتبى .

ووجدت الوظيفة الجديدة تتصف بصفات كثيرة طيبة ، أولى هذه الصفات أن العمل فيها كان فى شارع من شوارع المدينة وليس فى إحدى الضواحى مثل (مخازن ج . ج كولز) وهذه الصفة جعلت الوظيفة أكثر إنسانية وجعلتنى أطمئن إليها . .

الصفة الثانية أن العمل مسائى (من الثانية ظهراً إلى العاشرة مساء) وهو موعد معقول يمنحنى النوم بارتياح والحياة بارتياح والتحرك بحرية والبحث عن وظيفة مناسبة فى فترة الصباح . .

ثم كانت هذه الوظيفة حكومية فلم أكن عاملا هذه المرة . ارتقيت خطوة . لم أصر (ضابطاً) طبعاً ولكنى صرت شيئاً مثل (الأفندى) ، هذا



المنزل رقم ٤٠٥ شارع لايجون

ما شعرت به فى خطواتى الأولى فى مصلحة البريد .

ومع ذلك لم أكن مخلصاً تماماً لهذه الوظيفة . لم تكن هى الوظيفة المثالية التى أحلم بأن أستقر فيها ، فإن مرتبها لم يكن يزيد كثيراً على مرتبى فى المخازن. كانت بالنسبة لى وظيفة مؤقتة . مرحلة انتقال . عمل خفيف أؤديه حتى أجد الوظيفة التى تناسبنى حقًّا .

فى اليوم الأول ذهبت فى الموعد المحدد ، واتضح لى أننى لم أعين بمفردى بل إننى واحد من دفعة كاملة (٥٠) موظفاً جديداً . واستقبلنا موظف مهذب وقال لنا أول جملة إنسانية سمعتها فى مجال العمل فى أستراليا ! قال : تفضلوا



فى حدائق ملبورن

بالجلوس . . .جلست وأنا أدعو الله أن يكون (الجلوس) شيئاً طبيعيًّا فى هذا المكان بعد أن (وقفت) شهرين كاملين فى (مخازن ج . ج كولز) .

ويدأنا ذلك الموظف ببضعة توجيهات خاصة بمواعيد الحضور والانصراف ونظام العمل ، ثم طلب منا أن نقسم يمين الولاء لصاحبة الجلالة ملكة إنجلترا أقسمنا وتعهدنا – عهداً مقدساً – بألا نفشى أسرار العمل . وبذلك انتهت مهمة هذا الموظف معنا . ثم حضر موظف آخر ليلقى علينا محاضرة عن أهمية البريد فى حياة الأمم والأفراد . .

استغرقت المحاضرة ساعتين ، والواقع أن المحاضر قال كلاماً عميقاً مؤثراً

ما كان أجدرنا أن نتأثر به وأن نحس بخطورة ما نحن مقدمون عليه ، لولا أن المحاضرة لقيت منا آذاناً لاهية . كما بدا واضحاً فى وجوه الزملاء .

وبانتهاء المحاضرة صرنا (ضباطاً) فى مصلحة البريد فى حكومة أستراليا . وتركنا المحاضر إلى موظف ثالث قادنا فى رحلة استطلاعية لكى نلم بالعمليات العديدة المعقدة التى يمر بها الخطاب حتى يصل إلى صاحبه .

من حجرة إلى حجرة ، ومن ماكينة إلى أخرى ، وقائدنا يشرح لنا بدقة وسرعة ما نراه أمامنا حتى وصلنا إلى صالة المبتدئين . . وجدنا صالة لا أول لها ولا آخر كأنها ميدان عام ، مليئة بالترابيزات الطويلة التى يجلس حولها مئات الموظفين وهم يعملون ويضحكون ويصدرون ضجة تصم الآذان . . وكان هذا المنظر وحده كفيلا بنزع أى شك من أننا فى مكان حكومى حقًّا .

أجلسنا رئيسنا الجديد حول ترابيزة خالية ، فى وسطها مجرى مرتفع قليلا متصل فى بدايته بفوهة دولاب كبير ، ثم أخبرنا الرئيس أن الخطابات سوف تخرج من فوهة الدولاب وتمر فى المجرى ، وعلينا أن نفرزها حسب الأحجام . فنضع المستطيل مع المستطيل والمربع مع المربع وهكذا . .

عمل سهل . وبدأت الخطابات تنهمر علينا . ونحن نتخاطفها ونرتبها فى جهد هو باللعب أشبه . .

مضى الوقت فى هذا التهريج ، وجاء وقت تناول الشاى ، لم يكن بالمجان هنا ، كان سعر الفنجان (٢ سنت) ومعه بسكويت متواضع القطعة منه سعرها (سنت واحد) وبعده جاءت (ساعة) لتناول العشاء . ساعة كاملة وليس نصف ساعة كما كان النظام فى المخازن ، ولاحظت أن الفوضى تسود كل شىء ، وأن الموظفين يهربون بالساعات دون أن يتمكن أحد من مراقبتهم ،

حتى لقد تعجبت كيف تصل الخطابات فى موعدها بالرغم من هذه الفوضى . ثم جاءت فترة الشاى الثانية و بعدها مضى الوقت حتى شارفت الساعة التاسعة مساء وإذا بنا ننتقل إلى موقع آخر أمام آلات تخرج منها الخطابات بسرعة الصوت ، وكان علينا أن نرتب هذه الخطابات لا حسب الحجم بل حسب العنوان المتجه إليه الخطاب . .

كان عملا شاقًا ، وكانت الخطابات تتكاثر بسرعة مخيفة ، وكان علينا أن نقفز أمام الآلة كالمجانين حتى نتمكن من التوافق مع سرعة لقطها للخطابات .

ساعة واحدة أمام هذه الآنه الجهنمية ولكنها كانت تعادل تعب اليوم كله واتضح بعد ذلك أن العمل أمام هذه الآلة يومى وأنه لا مهرب منها ، فكانت هذه هى الساعة التى نخشاها جميعاً . .

ولكنى تعودت فى الأيام التالية العمل بسرعة أمام هذه الآلة والعمل ببطءوعبث على الترابيزة المستطيلة . وكانت تمر أمامى آلاف الخطابات الذاهبة إلى كل أركان الدنيا .

تعودت كل شيءوأصبح بإمكانى أن أترك العمل ساعة على الأقل كل يوم دون أن يشعربى أحد ، أو أن أتمارض فأذهب إلى عيادة الطبيب الذى وجدته إنجليزيًا عاش فى مصر فترة طويلة ، فكان يحلوله دائماً أن يحدثنى عنها وعن ذكرياته فيها . وكونت علاقات كثيرة كان أهمها صداقة مع فنان شاب من (يوغوسلافيا) وكان ساخطاً على وجوده فى أستراليا ويحلم باليوم الذى يعود فيه إلى وطنه . كان فناناً رقيق الحس والشعور ، وكان وجهه صورة طبق الأصل من تمثال (دافيد) لميكل أنجلو حتى إننى كنت أناديه (دافيد) بعد

أن نسيت اسمه الأصلى .

وتصادقت مع شابين من اليونان لم يكونا يعرفان كلمة إنجليزية واحدة . وقد لجأ إلىّ لتوضيح كل شيء لهما ، وكنت أتفاهم معهما بالإشارة ، وقد أحببتهما لبساطتهما . ولم أغضب عندما عجزا عن حفظ اسمى ، وفضلا أن ينادياني باسم (صديق) ، ولاحظت تشابهاً كبيراً بين طباعهما وطباعنا .

ولاحظت عموماً أن المستوى الاجتماعى فى مصلحة البريد أرقى كثيراً منه فى مخازن ج . ج كولز . وقد فهمت فيما بعد أن زملائى فى المخازن كانوا حثالة الأمم ممن يعجزون عن أى شيء إلا العمل اليدوى البحت ، أما فى مصلحة البريد فالمفروض فى الموجودين أنهم متعلمون .

وجاءت نهاية الأسبوع وتسلمت أول مرتب لى من حكومة أستراليا . ثم تلاه أسبوع آخر . ولم يكن فى نيتى (الاستقرار) فى مصلحة البريد ، ولكنى استنمت إلى ما فيها من راحة وفوضى وتهريج ومواعيد مريحة . فتكاسلت عن البحث عن وظيفة أخرى لولا صديقتى المخلصة (مسز نينا كروناس) صاحبة المنزل الذى كنت أسكن فيه .

كانت (نينا كروناس) امرأة بيضاء مديدة القامة ذات ملامح متناسقة واضحة ، وكان كل ما فيها يعجبنى ، إذ كانت ذكية مرحة ذات طبيعة عملية ، وكانت تتحمس لكفاحى وتقدمى كما تتحمس لحياتها الشخصية . كانت تتمتع بقلب كبير فى الواقع . وقد عرفت منها أنها من (ليتوانيا) وأنها عاشت الحرب العالمية الثانية ورأت بعينها أهوال الحرب وآلاف الجثث والمنازل المحترقة وعاصرت الدمار والخراب . ثم هربت إلى أستراليا وهى لا تعرف كلمة واحدة من الإنجليزية واشتغلت عاملة صغيرة ،



مع « بادى » فى شوارع ملبورن

وحفرت طريقها بأظافرها . وانتقلت من مصنع إلى مصنع وهى تتعلم اللغة والحياة فى أستراليا حتى قابلت الرجل الذى تزوجته ، وهو أيضاً من (ليتوانيا) ، ثم اشترت المنزل الذى سكنت فيه . وبعد سنوات مات زوجها وعاشت وحدها من دخل المنزل ومن المعاش الذى تحصل عليه من الحكومة (١٦ دولاراً أسبوعياً) .

كانت تنظف المنزل يومياً بمفردها ، ثم تخرج إلى السوق لتشترى طلباتها اليومية . وبعد ذلك تقصد إلى محل البقال المجاور للمنزل لتشتغل فيه ساعة أوساعتين حسب التساهيل . . وكانت تتسلم رسائلى وترد على مكالماتى التليفونية فى غيابى ، وكانت توجهنى باستمرار إلى ما يجب وما لا يجب عمله فى أستراليا ، وهى التى كانت تحثنى دائماً وما أسألها عن مكان حتى تحضر خريطة (ملبورن) وتبحث بنفسها عن أسهل مواصلة لذلك المكان .

كنت أجد عندها دائماً الصداقة الخالصة ، وأجد فى منزلها النظافة والراحة والاطمئنان والدفء. بل إننى كنت أجد فى المنزل أيضاً ميزة هامة لا تتوفر فى معظم منازل (ملبورن) القديمة . . هذه الميزة هى وجود (الحمام) داخل المنزل وليس خارجه . فإن (المجارى) نظام حديث فى (ملبورن) ، ولذلك فإن جميع المنازل التى بنيت قبل دخول المجارى قد عملت حساب ذلك وجعلت الحمام فى الحديقة الخاصة بالمنزل وليس بالمنزل نفسه .

شىء مزعج جداً أن يضطر الإنسان إلى الخروج بالليل أوفى الصباح الباكر من الفراش الدافئ إلى الحديقة الباردة حيث يصفعه الهواء القارس



فى حديقة فيتزروى

فى ذهابه وإيابه .

كنت سعيداً بذلك المنزل متفرغاً إلى الكفاح فى مجال الفن ومجال العمل . ومع ذلك كنت معرضاً لأن أترك هذا المنزل بعد سكنى فيه بفترة قصيرة وذلك بسبب صديقتى الأولى فى أستراليا (بادى) .

وقد عرفت بادى فى أول منزل سكنت فيه فى تلك الأيام الصعبة الأولى التى كنت أجد فيها كل شيء غريباً ومعادياً ، وكنت أشكو من البرد الذى فاجأنى وأذهلنى ولم أعرف طريقة أقى نفسى بها منه . ولم تذكر لى صاحبة المنزل (مسز كيرلى) شيئاً عن باقى سكان المنزل فلم أعرف شيئاً . ولكنى كنت ألمح فتاة حسناء تروح وتجيء فى المنزل وكنت أظن أنها ابنة (مسز كيرلى) .

ثم فوجئت ذات يوم بهذه الفتاة الحسناء تطرق باب حجرتى وتستأذن فى الدخول . أذنت لها وأنا فى غاية الدهشة لجرأتها ، ولكنها عرفتنى بنفسها فى لطف وقالت : إنها عرفت من (مسز كيرلى) أننى أشكو من البرد ، وأنها لذلك أحضرت (قربة) صغيرة لكى أملأها بالماء الساخن وأضعها بجانبى وأنا نائم . كانت لفتة إنسانية كريمة من هذه الحسناء الغريبة ، وكانت بداية الصداقة بيننا . وتعودت بعد ذلك أن تحضر إلى حجرتى كل يوم بمجرد عودتى من العمل وتلازمنى حتى وقت متأخر من الليل . وعرفت أنها (أيرلندية) الأصل ، ولكنها حصلت على الجنسية الأسترالية ، وأنها تعمل فى شركة تاكسيات فهى تجلس بجوار التليفون لتتلقى طلبات التاكسيات ، أى طلبات الذين يريدون تاكسيات .

وبعد أيام التعارف الأولى بدأت (بادى) تذكر لى قصصاً غريبة عن

رجال يضايقونها وتستفزنى للوقوف أمام هؤلاء الرجال . وإذا خرجنا معا كانت تتعمد أن تجعلنى أنفق كل ما قد يكون معى . وبدأت أرى وراء جمالها ورقتها جشعاً ورغبة فى التسلط علىّ ، ووجدتها لا تترك لى دقيقة فراغ واحدة بل تأخذ وقتى كله ، فتركت منزل (مسز كيرلى) إلى منزل آخر صاحبته عجوز شمطاء مجنونة سليطة اللسان ، والمنزل نفسه قذر مهدم ، ونافذة حجرتى مكسورة ، كان الهواء الثلجي يدخلها كل ليلة دون استئذان . ولكن (بادى) تصورت أننى انتقلت لأحتفظ بصداقتنا بعيداً عن أعين الرقباء ، فما كنت أصل إلى المنزل يوماً إلا وأجدها فى انتظارى . .

كنت فى هذه الأيام أقرأ الرموز الأولى لأستراليا ، وأكافح باستماتة فى سبيل ضمان حياتى يوماً بيوم ، فوجدت (بادى) عبئاً ثقيلاً . ولم أرض أن أتحول معها إلى المهاجر المجنون الذى يصرف ما فى الجيب ليأتيه ما فى الغيب . خصوصاً بعد أن فوجئت بها يوماً تطلب منى (٩٠ دولاراً) قرضاً . غادرت ذلك المنزل إلى منزل (مسز نينا كروناس) .

وتبعتنى (بادى) أيضاً ، تلاحقنى بالزيارات كل يوم ، ولا تترك لى ساعة واحدة أفرغ فيها إلى نفسى . وكنت ألمح الغضب المهذب فى عينى (مسز كروناس) حتى حدث مرة أن حضرت (بادى) إلى البيت فى أثناء غيابى . وأخبرتها « مسز كروناس » بأننى غير موجود . وعند ذلك طلبت أن تنتظرنى فى حجرتى حتى أعود . فرفضت (مسز كروناس) . وعند ذلك هددتها « بادى » أن تدخل بقوة البوليس ! !

وقامت مشادة بين الاثنتين . وفى الصباح أخبرتنى (مسز كروناس » بما حدث وخيرتنى بين البقاء فى المنزل وبين استقبال « بادى » .

فاخترت المنزل وراحة البال واختفت « بادى » من حياتى .

بقيت فى مصلحة البريد شهراً كنت خلاله سعيداً بكل شيء ، راضياً عن الدنيا وما فيها ، وتعودت أن أخرج من المنزل قبل موعد العمل بساعات لأستكشف مدينة « ملبورن » التى لم تساعدنى الظروف السابقة على معرفتها .

مشيت فى الشوارع التى كنت أخشى قديماً أن أفقد نفسى بعد كل خطوة فيها .

مشيت الآن باطمئنان العارف الواثق بعد أن حفظت جغرافية « ملبورن » وأعجبنى النظام الهندسى العجيب الذى خططت الشوارع على أساسه . . فالمدينة كلها مقسمة إلى شوارع طولية وشوارع عرضية ، لذلك فإنه من أسهل الأمور أن يجد الإنسان العنوان الذى يبحث عنه طالما كان يعرف أنه يقع عند ناصية كذا وكذا . . ثم رأيت فى الشوارع العرضية ظاهرة غريبة لم أرها من قبل ، وهى أن كل شارع هو فى الحقيقة شارعان متوازيان . واحد واسع والثانى ضيق ، أو أضيق . وكلاهما له نفس الاسم باستثناء كلمة الكبير والصغير مثل شارع كولنز الصغير وشارع كولنز الكبير .

كأن الشارع الصغير « مقدمة » للكبير . .

زرت المتاحف والمعارض والحدائق العامة الرائعة التى تمتد وتتسع كالغابات وتسرى فى أوصال المدينة كالشرايين . ورأيت فى المعارض لوحات « أصلية » للفنانين العظام « فان جوخ – جوجان – سيزان . . . إلخ . . » .

وفى متحف الحضارة رأيت نماذج مصغرة لكل شيء فى قارة أستراليا . رأيت طيوراً وحيوانات وحشرات لا توجد فى أى مكان فى الدنيا .

وطفت بالمحلات التجارية التى يدور رأس الإنسان فيها لكثرة المعروضات وروعتها ، ورأيت محلات يكاد الواحد منها أن يكون مدينة مستقلة مثل محلات « ماير » التى تشغل مساحات هائلة على امتداد ثلاثة شوارع ، والتى يشاع عنها أن المسئولين فيها يتحدون أى زبون أن يدخلها ويخرج بدون شراء شيءأوأن يطلب شيئاً لا يجده ، فالمحلات تعرض بجوار منتجات أستراليا منتجات من جميع أقطار العالم . . ويستطيع الزبون أن يشترى كل شيء . . من (الإبرة) إلى « الصاروخ » بالتقسيط أو بالدفع الفورى . وإمعاناً فى اجتذاب الزبائن يعمد المسئولون فى « ماير » إلى اختيار سلعة كل يوم يقدمونها بنصف سعرها الأصلى . هذا الاختيار يكون دائماً مفاجأة ، فلا يستطيع أحد أن يعرف هذه السلعة مقدماً ، ولذلك فإن الزبائن يضطرون إلى الذهاب إلى « ماير » كل يوم للبحث عن سلعة اليوم الرخيصة . .

وبلغت أرباح « ماير » فى تلك السنة « ١٧ مليون دولار » وأصدر المحل كتالوجاً ذكر فيه قصة « ماير » الأب الذى دخل أستراليا وهو لا يملك إلا قميصه .

رأيت « ملبورن » فى صورة زاهية مشرقة فأحببتها ، ورأيت الخنافس يسيرون فى الشوارع فى حرية وجدية ، ورأيت أجمل بنات الدنيا وهن يلبسن أغرب التقاليع ويسرن فى الشوارع حافيات كنوع من الابتكار .

كنت أتمتع بهذه الراحة النفسية الطارئة وأواصل على مهل البحث

عن وظيفة ، حتى قرأت يوماً إعلاناً عن طلب رسام فى شركة إعلانات كتبت طلباً للوظيفة وأرسلته ، وسرعان ما جاءنى الرد يحدد لى موعداً للمقابلة الشخصية .

كانت المقابلة الشخصية هذه المرة فى (مكتب استخدام) مع رجل عملى مرح لم يتركنى أتحدث طويلاً ، بل ألقى نظرة سريعة على رسو وأخبرنى بأنه يعتقد أننى سوف أفوز بالوظيفة ، ثم أعطانى خطاباً للش وكتب لى العنوان ثم أراد أن يسهل لى المسألة فوصف طريقة الوص فقال إن علىّ أن أركب تراماً من منزلى إلى محطة القطار ، ثم أركب أربع محطات ، وبعد ذلك أركب الأتوبيس حتى آخره وفى النهاية مسافة (٢ كيلو) . .

وفى اليوم التالى نفذت نصيحته بالحرف ، وركبت الترام وا والأتوبيس ، ثم بدأت رحلة الـ (٢ كيلو) .

كان الطريق واسعاً ، وكانت السيارات تعبره فى ثمانية اتجاهات ، ولا يوجد رصيف أسير بجانبه ، فسرت وسط العربات أحتمى بالله من سيله الذى لا ينتهى . قطعت نصف المسافة تقريباً وما أدرى إلا والمطر ينهمر مرة واحدة . وفى ثوان كانت ثيابى تقطر ماء . كنت الإنسان الوحيد الذى يمشى بين العربات ، وكان من الجنون أن أواصل السير ، فكيف أصل إلى الشركة التى أرجو أن أعمل بها لأول مرة وأنا أبدو كغريق خرج من الماء لتوه .

عدت أدراجى جرياً ووصلت إلى البيت وأنا أرتجف من البرد . كنت ساخطاً على هذه الوظيفة مندهشاً أسائل نفسى لماذا لا توجد الوظائف

الممتازة إلا فى الأماكن النائية ! !

أما صاحب مكتب الاستخدام الذى أرسلنى فقد حملت له فى نفسى موجدة كبيرة لكونه السبب فى هذه البهدلة .

ومر اليوم واعتقدت أن الموضوع قد انتهى ، وأنهم لا شك قد اختاروا أحداً غيرى ، وإذا بى أفاجأ بتلغراف من مكتب الاستخدام يطلب ذهابى فوراً .

ما الذى يريده ذلك المجنون ؟ ذهبت إليه فوجدته – لدهشتى – غاضباً يسألنى لماذا لم أذهب إلى الشركة ؟

قصصت له ما حدث ، ولكنه لم يتأثر ، بل ظل غاضباً وقال : كان يجب أن تذهب بأى شكل ، لأن الشركة متمسكة بك .

تحملت غضبه أمام هذا الكلام الطيب ، ووعدته بالذهاب فى اليوم التالى . وفى المنزل حكيت القصة كلها (لمسز كروناس) فعمدت إلى خريطة (ملبورن) ، وفرشتها على الأرض ، وسرعان ما اكتشفت أن هناك أتوبيساً يبدأ من باب المنزل إلى باب الشركة . وكان غباء إذن من الرجل أن يصف لى هذه الوصفة الحمقاء . .

وفى الصباح التالى ذهبت مبكراً ووصلت قبل أن يصل باقى الموظفين واستقبلتنى موظفة الاستعلامات الشابة ورجتنى أن أنتظر حتى يحضر موظف شئون العاملين . . وبعد دقائق أخبرتنى أن ذلك الموظف لم يحضر بعد ، ولكن وكيل الشركة قد حضر وأنه يحب أن يقابلنى .

كان الوكيل رجلاً فى الحلقة السادسة بشوشاً ضاحكاً بسيطاً أجش الصوت عاليه كأنه ابن بلد من الجمالية . وقد أرانى الأعمال المطلوب منى

رسمها فوجدتها أشياء بسيطة أستطيع أداءها وأنا مغمض العينين . .

ملأتني رؤية الرسوم التافهة ثقة فى نفسى ، فتحدثت فى وضوح ومرح وذكاء حتى خلبت لب ذلك الوكيل الطيب القلب الذى كان يقهقه فى صفاء أمام كل ما أقول .

ثم بدا لنا أن كل ما قد يقال قد قيل ، وارتاح كلانا إلى الآخر ، وعند ذلك بدأ يتفق معى على المرتب والواجبات والمواعيد .

المرتب (٨٠ دولاراً) فى الأسبوع . . والأيام أربعة أيام ونصف يوم فى الأسبوع . والمواعيد من التاسعة صباحاً – لا الثامنة – إلى الرابعة بعد الظهر .

آه . . كل هذا رائع . وهذا كله لقاء القيام بهذه الرسوم الهايفة . إن قلبى يزغرد فرحاً وعسى يارب ألا تضيع هذه الفرحة .

وعند ذلك جاء موظف شئون العاملين ! ! !

رجل ضئيل ، مشوه الوجه والجسم ، لا مع العينين كالمجانين ، ومظهره كله يوحى بأنه نشال أومن مدمنى المخدرات .

عند دخوله كنا نضحك ، وقد فاجأه ضحكنا فنظر إلينا فى هلع وكأنه يقول : أرجو أن أكون قد جئت فى الوقت المناسب قبل أن تقع الفأس فى الرأس . أخبره الوكيل بأنه قد وافق على تعيينى وأنه اتفق معى على كل شيء . . فاصفر وجهه وتنحنح نحنحة مصطنعة كأنما يكلم الوكيل بلغة سرية ، ثم بدأ يتحدث معى وهو يحاول أن يخترق وجهى وجسمى بنظراته الثاقبة منقباً عما لا أدرى . وكان يتحرك فى نفس الوقت فى عصبية خلف الوكيل كأنه فأر يتصيد فرصة ليخطف شيئاً . .

أجبت عن أسئلته بوضوح ودقة واحتقار خصصته به ، ولاحظت أنه غير مهتم بإجاباتى بقدر اهتمامه بتأملى وتفحصى ، حتى لقد توقعت فى كل لحظة أن يطلب منى أن أخلع ثيابى ثم لاحظت أيضاً والحزن يتسرب إلى قلبى أن وجوده – وحركاته – قد أثرا أثراً سيئاً فى نفس الوكيل الذى بدا متحرجاً وكأنه يحاول أن يسحب موافقته السابقة أو يؤجلها ، وشعرت بأن الفأر اللعين يحاول قصارى جهده أن يجردنى من كل ما كسبته فى نفس الوكيل قبل حضوره .

كان ذلك كله تياراً باطنيًّا ، أما فى الظاهر فقد كنا ثلاثتنا نتحدث فى لباقة وديبلوماسية . انتهى اللقاء . وبدلاً من أن أخرج باتفاق على بدء العمل خرجت بوعد على أن يتصلوا بى تليفونيًّا لإبلاغى النتيجة النهائية . وفى المساء بلغتنى النتيجة النهائية . الاعتذار المهذب والتمنيات الطيبة بمستقبل زاهر . .

نجح الفأر فى إقصائى عن هذه الوظيفة الرائعة .

كانت صدمة أثرت فى نفسى ، وزاد فى إحساسى بها نظرة الأسى العميقة التى رأيتها فى عينى صديقتى الطيبة (مسز كروناس) . كان إخفاقى هنا إخفاقاً لاهتمامها ولنياتها الطيبة .

ثم جاء الغد ، ومع البحث الجديد نسينا هذه القصة وآلامها . قرأت إعلاناً يطلب موظفين (مثقفين) دون أن يحدد طبيعة العمل . . ولكن الذى اجتذب اهتمامى فى الإعلان هو عنوان الشركة . كان نفس الشارع الذى أسكن فيه . هل هذا ممكن ؟ . أن أشتغل فى نفس الشارع الذى أسكن فيه ؟ .

ذهبت إلى الشركة ، وقابلت المسئول ، ووجدته رجلاً طويلاً نحيلاً أسمر البشرة والشعر يلبس نظارة سوداء .

سألني عن مؤهلاتي وخبراتي فأجبته ، ثم عرفت منه طبيعة العمل . (مندوب بيع) فهذه الشركة تنتج ماكينات لصناعة الحلوى ، وتريد تسويقها ، وواجباتي هي أن أمر بالبيوت لأبيع هذه الماكينات لربات البيوت في مقابل مرتب ثابت وعمولة مجزية لقاء كل ماكينة أنجح في بيعها .

كانت وظيفة سخيفة ، من المؤكد أنه لا مستقبل لها ولا حاضر أيضاً . ومع ذلك لا أدري لم تمسكت بكلامه . لعل السبب هو وجود الشركة أمام المنزل . لعله التعب من المشاوير البعيدة هو الذي جعلني أتمسك بهذه الوظيفة المضحكة ، وفي نهاية اللقاء فاجأني الرجل بأن تحدث معي بالعربية . . إنه لبناني ولكنه ولد في أستراليا .

كانت هذه المفاجأة الطريفة هي الكلمة الأخيرة ، فوافقت على الوظيفة وتعهدت بأن أبدأ من الغد على أن أستقيل من مصلحة البريد بعد أسبوع .

وفي اليوم التالي استيقظت متأخراً فغسلت وجهي بماء ساخن وخرجت جرياً إلى الشارع ثم إلى الشركة . وهناك قابلني الصديق اللبناني . . ووجدت عنده مجموعة من الشبان وهو يشرح لهم طريقة استعمال ماكينة صنع الحلوى . . كان هؤلاء الشبان هم زملائي الجدد . وقفت معهم أستمع إلى شرحه العملي وراقبته وهو يضع السكر والقشدة والبيض وجوز الهند وشراب الفراولة في الماكينة . ثم وهو يخرج كل ذلك من الماكينة قطعاً من الحلوى

اللذيذة . ذقناها جميعاً وأبدينا إعجابنا بها . وعند ذلك طلب منا أن نستعمل الماكينة واحداً واحداً حتى نتمرن عليها .

وقفت فى انتظار دورى ، وعند ذلك فوجئت بالدموع تنهمر من عينى . . دموع ؟ لا . . كان سيلاً منهمراً من الماء يخرج من عينى ويبلل وجهى كله . . جففت عينى بسرعة ، وسرعان ما عادت الدموع تخرج من عينى .

ملأنى الحرج والدهشة وأنا لا أعرف سر هذه الدموع ، فلم أكن حزيناً بصفة خاصة ولا سعيداً ولا فى أى حالة عاطفية خاصة ، ومع ذلك فإن الدموع مستمرة فى الخروج من عينى ، وعند ذلك استنتجت أننى أصبت ببرد فى عينى عندما غسلت وجهى بالماء الساخن وخرجت بسرعة إلى الشارع .

عرفت السبب إذن ، ولكن الدموع مستمرة وأنا مستمر فى تجفيفها ، وبدأ الموجودون يلاحظون دموعى القهرية ويندهشون . ومر الوقت وأنا أرجو أن تكف الدموع عن النزول ، ولكنها زادت حتى بللت وجهى وصدرى وثيابى فلم يعد فى إمكانى أن أبقى بهذا المظهر الحزين ، فاستأذنت من صديقى اللبنانى وخرجت وأنا أمسح دموعى وأضحك من أعماقى لهذا النحس الغريب الذى يلازمنى . .

ولكنى لم أكن آسفاً على هذه الوظيفة ، فقد كانت المسألة كلها تهوراً منى من البداية ، ولم أنو العودة إليها وغسلت الدموع هذه الحماقة العارضة .

ثم فوجئت فى مصلحة البريد مفاجأة جعلتنى أقرر أن أبحث عن وظيفة بأسرع ما يمكن . . عرفت أن العمل الذى نقوم به هو (فترة تمرين) ، وبعدها علينا أن نؤدى امتحاناً فى أوراق يعطوننا إياها لنستظهرها فى يوم

ثم نؤدي الامتحان فيا هو فيها .

أما محتوى الأوراق فهو آلاف من أسماء الشوارع ، وأمام كل اسم رمز بريدى يشير إلى الناحية التى يقع فيها هذا الشارع .

الامتحان شفوى خاطف ، والذى ينجح فيه يبقى فى العمل لحين امتحان آخر (أكثر صعوبة) ، أما الذى لا ينجح فإنه يفصل .

كنت واثقاً أننى لن أستطيع أن أحفظ هذه الآلاف من الأسماء ، ، ولم أكن أريد أن أفصل ، لا لأن الفصل يمكن أن يسىء إلى مستقبلى فى أستراليا . وإنما لأنه جدير بأن يؤثر تأثيراً سيئاً فى نفسيتى . أنا أعرف نفسى جيداً .

يجب إذن أن أستقيل قبل أن أفصل . قبل أن أمتحن . أى يجب أن أجد وظيفة أخرى فى يوم وليلة .

شمرت عن ساعد الجد ، ولم أنتظر إعلانات الجرائد ، بل فتحت دفتر التليفون ونقلت منه عناوين كل شركات الإعلان وأرسلت خطابات لها جميعها . ثم جاءنى أول خطاب فحملت رسومى وذهبت إلى الشركة ، ومررت بقسم الرسم فرأيت الرسامين يرسمون خرائط جغرافية . هذا شىء بعيد جداً عن مجال خبرتى ، ولكنى مستعد لأن أتعلم أى شىء ووراثى شبح الفصل الرهيب قابلت الموظف المسئول الذى أبدى تقديره الشديد لرسومى ولكنه اعتذر بأن العمل فى شركته هو رسم خرائط جغرافية . وهو شىء أقل من مواهبى بكثير .

كان اعتذاراً رقيقاً ، فتنهدت وهممت بالانصراف ، ولكنى وجدته يقول فى إخلاص وتأثر : ما الذى يستطيع الإنسان أن يفعله مع فنان موهوب

مثلك ؟ أجبته ضاحكاً : يطلق عليه الرصاص . ولكنه قال فى جدية إنه يعرف صديقاً له شركة إعلان وإنه يعتقد أن مواهبى تصلح لهذه الشركة ، فهل أقبل أن يحول طلبى إليها ؟ .

لم أجد ما أخسره فوافقت ، وعند ذلك أعطانى اسم صديقه (بيتر فاندر هوف) ورقم تليفونه وطلب منى أن أتصل به بعد ساعتين لأعرف النتيجة .

خرجت وأنا أتصور كلامه مجاملة غير جادة ، ونقلت القصة ورأيى فيها إلى (مسز كروناس) التى عارضتنى وقالت إننى مخطئ فى تصورى ، وإنها تعرف أن الناس فى أستراليا لا يقولون إلا ما يعنون . وإنه لذلك يجب أن أتصل بالشركة حسب الاتفاق . كنت لا أزال غير مصدق ، ولكنى لم أرد أن أكون جاحداً لاهتمامها ، فطلبت الرقم وجلست هى القرفصاء على الأرض تبتسم لى فى تشجيع . وشد ما كانت دهشتى عندما رد على (بيتر فاند رهوف) وأخبرنى أنه تسلم طلبى وأنه موافق على تعيينى ، ويرجونى أن أحضر لمقابلته .

فمتى أستطيع أن أقابله ؟

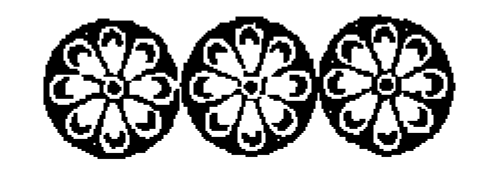
حددت له الغد وأنا ذاهل . ثم وضعت السماعة ونظرت إلى مسز كروناس التى كانت تضحك سعيدة وهى تقول : (جالك كلامى) ؟

فى اليوم التالى قابلت صاحب العمل الجديد (بيتر فاند رهوف) ، واتفقت معه على البدء فى العمل بعد أسبوع بمرتب (٥٠ دولاراً) فى الأسبوع .

كان اتفاقنا شفوياً ، ولم نكتب شيئاً فيما عدا الطلب الذى قدمته

إلى الشركة السابقة ، ومع ذلك فقد عينت فى هذه الشركة . فهكذا تسير الأمور فى أستراليا .

وفى ذلك المساء ، فى مصلحة البريد ، سلمنى الرئيس ورقة أسماء الشوارع المرعبة فسلمته استقالتى . وبعد أسبوع صرفت مرتبى ومكافأتى وبدأت عملى الجديد رساماً فى شركة إعلانات (بيتر فاندر هوف) .



رسام إعلانات

كانت الوظيفة الجديدة طفرة كبيرة فى حياتى . ارتقيت من (أفندى) إلى (جنتلمان) . . وقد بدأت العمل الجديد وأنا أطوى قلبى على أجمل النوايا الطيبة له . قلت لنفسى : هذه هى الوظيفة التى سوف أستقر فيها طالما بقيت فى أستراليا .

لم يكن المرتب (٥٠ دولاراً) هو المرتب الذى أحلم به أو الذى أستحقه ولكن المزايا الأخرى غطت – فى رأيى – هذا النقص . . أولى المزايا كانت أن هذا العمل هو (لاول مرة) العمل الوحيد الذى أحبه من أعماق قلبى . بل لم أكن أعتبره عملا . كان الهواية التى أسعد بمزاولتها فى كل وقت .

الميزة الثانية هى قرب مقر الشركة من منزلى . كان بإمكانى أن أمشى إليه إذا خرجت مبكراً فى الصباح ، فإذا تأخرت فإن الترام الذى يقف أمام منزلى مباشرة ينقلنى إليه فى دقائق .

وكان كل يوم يمر على فى شركة الإعلانات يقنعنى بصواب رأيى . .

كانت الشركة فى (شارع كولنز الصغير) . وهو من الشوارع لراقية فى المدينة . وكانت الشركة فى شقة صغيرة فى بيت صغير ذى ثلاثة أدوار كلها حافلة بمكاتب عمل وشركات مختلفة .

وفى الطابق الأرضى تجلس فتاة جميلة غريبة ، مهمتها أن تحضر الشاى والقهوة للموظفين فى مواعيد تناول الشاى . هذه الفتاة حيرتنى وقتاً طويلا ، إذ كنت أراها كل صباح ، ويعجبنى شعرها الأصفر البديع . وفى المساء أرى فتاة أخرى سوداء الشعر تشبه الأولى تماماً حتى لقد ظننتهما توأمتين . ثم ضحكت كثيراً عندما اكتشفت أنهما فتاة واحدة ترتدى باروكة شعر صفراء فى الصباح وباروكة أخرى سوداء فى المساء . أما لون شعرها الحقيقى فلا يعلمه إلا الله . .

وكانت الشقة التى نعمل فيها أربع حجرات ، والموظفون قليلين يعدون على الأصابع .

أولهم (بيتر) صاحب الشركة ومدير العمل ، وهو شاب هولندى الأصل طويل طولا غير عادى ، له وجه ضاحك برىء كوجوه الأطفال ، وتأتى بعده (كريستين) سكرتيرة الشركة ، وهى فتاة جريئة جميلة رشيقة كأنها مانيكان . ثم (بيرل) وهى فتاة صغيرة الحجم قبيحة الوجه ، ولكنها خفيفة الظل محبوبة من الجميع ، ثم (روز) وهى تتكلم كثيراً وتنسى نفسها فى الحديث بالساعات ، وقد شجعتنى رقتها وبساطتها يوماً على أن أتصور أنها تحاول إغرائى فسرت معها فى الحديث فى هذا الاتجاه وإذا بها تنفر وتغضب بشكل أثار دهشتى وندمى .

بعد هؤلاء يأتى (لورانس) مندوب الشركة لتسويق أعمالها . وهو رجل ذكى ساخر ولكنه مؤدب شأنه شأن الأستراليين جميعاً . ثم (جون) وهو شاب عملاق مصاب بالزكام باستمرار ، وهو رسام ، ولم أجد فيه عيباً إلا

أنه (شحاذ) بالفطرة ، فكل ربع ساعة كان يقصدنى مسرعاً قائلا : أعطنى سيجارة .

أما (تشارلز) الرسام الثانى والذى كان يطلق شعره بطريقة الخنافس فإنه فصل فى نفس اليوم الذى عينت فيه .

هل كان فصله إنذاراً عمليًا لى ؟ . . أو أن (بيتر) استغنى بى عنه ؟ . .

على أى حال – باستثناء هذه الحادثة – فإن البداية كانت طيبة جداً .

أخبرنى (بيتر) فى بساطة وإخلاص أنه لا يتوقع منى أن أؤدى ما يطلبه بالضبط فوراً ، وأنه يعرف أن إخضاع المواهب لاتجاه معين يتطلب وقتاً ومثابرة وخبرة ، وأنه لذلك يتوقع منى أن أخطئ كثيراً فى البداية .

وافقت على كلامه ليكون ذلك خط رجعة لى ، ولكنى كنت فى الوقت نفسه أنوى أن أدهشه بإتقان الأعمال التى يطلبها منى بأسرع مما يتوقع .

هكذا بدأنا معاً .

وجلست إلى المكتب الفخم فى الشقة الأنيقة ، وتحت تصرفى دولاب به كل خامات الرسم . كنت أبدأ العمل من التاسعة صباحاً وبعد ساعتين تتصل بى (وبنا جميعاً) موظفة الاستعلامات الشقراء السمراء لتسألنى عما أحب أن أشرب . شاى أم قهوة ؟ وبعد دقائق تصعد إلينا ومعها طلباتنا . فإذا جاءت الساعة الواحدة خرجت (لمدة ساعة) للغداء ، وفى الثالثة مساء أشرب الشاى مرة أخرى ثم أنصرف إلى منزلى فى الخامسة مساء .

شعرت لأول مرة بأننى فى وسط متمدين حقًّا . كان الجميع مؤدبين مهذبين اندمجوا معى بسرعة ولم يشعرونى لحظة واحدة بأننى مهاجر . وشيئاً فشيئاً صرت صديقاً للجميع . عرفت كل شىء عن (كريستين) وعن

أحلامها فى أن تصير (مانيكان) تغزو « صالونات » الأزياء . وشاركت (بيرل) يومياً فى الحديث عن مشروع زواجها الذى كانت تخطط له وتدخر كل « سنت » تكسبه فى نفس الوقت الذى كان خطيبها أيضاً يدخر كل ما يكسبه ليشتريا المنزل الصغير الذى ينويان أن يعيشا فيه بعد الزواج .

وأصلحت ما أفسدته حماقتى مع (روز) وشاركتها الاهتمام والإعجاب بأطفالها الصغار الذين كانت تحتفظ بصورهم معها طول الوقت . ثم تمكنت من أن ألزم جون حدوده فى الشحاذة وأن أنقص إلى أقل قدر ممكن عدد السجاير التى يشحذها منى كل يوم . أما (لورانس) فلم أكن أراه كثيراً لأن معظم عمله فى الخارج ، ولكنه كان مجاملا مؤدباً فى كل مرة قابلته فيها .

كان كل شىء حولى طيباً وأنيقاً ومريحاً . وكان المستقبل يبدو أمامى مفروشاً بالزهور والعطور . أتقنت العمل الذى كان يكلفنى به (بيتر) وأصبحت أنتج بسرعة وخبرة ودربة .

ولكن شيئاً واحداً كان ينغص على جمال هذه الجنة التى كنت أعيش فيها ، هذا الشىء هو أن عملى لم يكن فنيًّا تماماً . كان عملا هندسيًّا يحتاج إلى خبرة ودقة ولكنه لا يحتاج إلى مواهب خاصة . وأنا مواهبى (خاصة جدًّا) لا تلمع ولا تجد نفسها إلا فى الرسم الحر الخيالى . وقد صارحت (بيتر) بذلك يوماً فقال لى : إنه يفهم تماماً هذا الموقف ، لأنه هو نفسه فنان . ولكنه قال إن السوق لا تحتاج إلى الفن بقدر ما تحتاج إلى العمل الهندسى . وعرفت منه أنه درس الفن فى بلده (هولاندا) ثم حضر إلى أستراليا بأمل أن يجد مجالا لمواهب دراسته .

ولكنه لم يجد ، فأخضع مواهبه لطلبات السوق ، وابتدأ يقوم بتنفيذ هذه الأشكال الهندسية التى تحتاج إليها جميع الشركات . والدليل على نجاحه أنه تمكن فى ظرف سنتين من أن يكون هذه الشركة . ومع ذلك قال لى إنه لا يريد أن يخسر مواهبى الفنية ، وإنه ينوى الاستفادة بها فى المستقبل بعد أن يطمئن على وفرة طلبات الأعمال الفنية التى تحتاج إلى خلق وابتكار مثل اللوحات والإعلانات . فى هذه الحالة سوف يجعلنى أتفرغ للفن الحر وينشئ قسماً يجعلنى رئيسا له . . لم يعد عندى إذن ما أشكو منه .

ومرت الأيام وكان كل شىء يبدو أكثر جمالا وأكثر سهولة . ثم تعين معى رسام جديد اسمه (ديك) وطلب منى (بيتر) أن أدربه على العمل .

كان (ديك) شابًا أستراليًا صغيراً مهذباً جداً وكان مندمجاً فى جمعيات سياسية تنادى بضرورة استقلال أستراليا عن إنجلترا .

ثم شكالى « ديك » يوماً من كثرة شحاذة « جون » السجاير منه ، ضحكت وأخبرته بتاريخى مع (جون) ، وعند ذلك اتفقنا على خطة تأديب (جون) نهائيًا . وبنينا خطتنا على أساس طريقة (جون) فى الشحاذة . فإنه عندما كان يطلب سيجارة لم يكن يطلبها لله . بل كان يقول إنه (نسى) أن يشترى سجاير . لذلك اتفقنا على أن يكون ردنا على (جون) فى كل مرة يقول فيها هذه الجملة الحمقاء : مادمت نسيت أن تشترى فاشتر منا . وفعلاً كنا نبيع له السجاير .

مرة بعد مرة . وأخيراً كف (جون) عن شراء السجاير منا ، وبدأ يحضر معه لأول مرة علبة سجاير خاصة به .

أما أنا و(ديك) فقد تعلق كل منا بالآخر وبدأت أخرج معه بعد

العمل وأرى وجوهاً لملبورن لم أكن أعرفها من قبل .

عرفت عشرات المطاعم اليونانية واليابانية والإيطالية التى تقدم أصنافها المحلية للزبائن ، وتمنيت أن أرى مطعماً مصرياً تتصاعد منه رائحة الملوخية والثوم والفول والطعمية ، وعرفت المطاعم الصغيرة الأنيقة التى (تخدم فيها نفسك بنفسك) والتى تتفنن فى صنع الأطعمة وتضع اللحم والتفاح معاً فى سندوتش واحد . وأعجبنى من أصناف هذه المطاعم (فطيرة الأرنب) . والأرنب يقدم فيها بطريقة لم أرها إلا فى أستراليا ، فهو يفرغ من محتويات بطنه ، ثم ينظف ويحشى باللوز والجوز وما إلى ذلك ، ثم يشكل على هيئة فطيرة مستديرة ، ويربط بخيط رفيع ثم يدخل الفرن ليخرج منه بعد ذلك فطيرة حمراء شهية .

هذه الفطيرة ثمنها (٧٠ سنتاً) أى ٣٥ قرشاً . .

وعرفت المطاعم الفخمة التى يكاد الإنسان يفقد وعيه أمام فخامتها ، (ولم تعجبنى هذه المطاعم !) ، وعرفت الكازينوهات التى تعرض كل ألوان الفن ابتداء من الموسيقى الرفيعة إلى الإستربتيز ، ودور السينما الفخمة ، ودور السينما الغريبة التى يستمر العرض فيها من الصباح إلى الصباح بتذكرة واحدة . فهى مظلمة ليل نهار ، ولكن فيها ساعة كبيرة لامعة بجوار الشاشة كأنما تذكر الجمهور بالوقت إذا كان جمهور هذه السينما يهمه الوقت ! !

وفى معظم الأحيان كنت أذهب إلى البيت لأتغدى وأتبادل حديثاً سريعاً مع (مسز كروناس) ثم أهرع إلى العمل . فإذا لم أتغد فى البيت فإننى كنت أتغدى مع (ديك) فى الشارع . كنا نقصد دولاباً أتوماتيكياً موضوعاً فى الشارع (فى كل شارع) ، ثم نضع فيه الثمن فيخرج لنا الغذاء ساخناً

فى علب من البلاستيك .

وبعد ثلاثة أشهر من وجودى فى شركة الإعلانات عين معنا (مستر جوهانز أرسلومليو) وهو رجل فى الخامسة والستين لا يختلف كثيراً عن ثقل ظل اسمه ، كان يشتغل موظفاً فى مصلحة المناجم فى « نيوغينيا » لمدة ٥٠ عاماً ثم خرج على المعاش بمعاش « ٧٠ دولاراً » أسبوعيًّا وجاء إلى ملبورن ليستمتع بحياته ، ولكنه لم يشأ أن يبقى عاطلا فتقدم بالإعلان الذى نشره « بيتر » يوما عن طلب مراجع لغوى فوافق بيتر وعينه بـ « ٤٠ » دولاراً فى الأسبوع .

وجلس جوهانز أرسلومليو فى نفس الحجرة التى كنت أجلس فيها أنا و(ديك) ، وقد لاحظت من البداية أنه لم يحبنى وأنه لا يبدو عليه أنه ينوى أن يحبنى . ولم يهمنى شعوره فأنا أيضاً لم أرتح إليه . كان فى حديثه ساخطاً على كل شيء . وبالذات على البرد . وهذا شيء طبيعى بالنسبة لشخص عاش طول عمره فى (نيوغينيا) الاستوائية .

كان يحضر كل صباح وهو يسعل ويبصق ويتمخط ويشكو من البرد . ويحيل حياتنا جحيماً ، ولكنه كان شخصاً مضحكاً . هكذا تصورته أنا و(ديك) ، وصار كل ما يقوله يحملنا على الضحك . بل إننا كنا نضحك قبل أن يتكلم . وشيئاً فشيئاً تعود البرد وكف عن الشكوى وانشغل فى مراجعته اللغوية .

وسارت حياتى رخية هانئة فى شركة الإعلانات حتى بدا أنه ليس فى الإمكان حقًّا أبدع مما هو كائن .

وعند ذلك استيقظ (شيطان الهدم) فى نفسى يسألنى لماذا لا تستقيل ؟ . .

كان السؤال غريباً لا معنى له ولا مكان له ولا سبب له ، ولكنه استمر يشغلني كأنما لا يشغلني فى الوجود شيء غيره .

والسبب ؟ نعم كان هناك سبب . . السبب الحقيقى شيء فى أعماقى . فى طبيعتى البناءة الهدامة فى نفس الوقت ! !

فأنا أبنى باستمرار بإخلاص وإيمان وحماس ، وأجعل من كل هدف أبنيه حياة أو موتاً ، فإذا حصلت عليه وشعرت بالاستقرار شعرت بالحنين إلى القلق من جديد ، كأنما (القلق) هو هدف حياتى الحقيقى . كأننى مكافح لا يريد أن يصل إلى شيء أبداً . الكفاح فى حد ذاته هو كل شيء عندى ، ولذلك أهدم كل بناء أبنيه بمجرد شعورى بأننى نجحت فى البناء كأننى أتحدى شخصاً غير منظور أحاول أن أثبت له دائماً أننى قادر على النجاح فى كل شيء. هكذا كنت طيلة حياتى ، ولا يبدو أننى على استعداد لأن أتغير . ولو سألنى سائل عن هدفى فى الحياة لقلت فى صدق وإخلاص : الاستقرار . ومع ذلك فإن كل ما أسعى خلفه هو القلق والجرى والكفاح . والدليل على ذلك أننى فى أستراليا لا فى مصر ! !

هكذا وجدت فى نفسى لهفة شديدة على الاستقالة والخروج من هذه الجنة الوادعة إلى معترك البحث عن وظيفة من جديد . وبدت الاستقالة كأنها أجمل ما فى الوجود ، فأنا أفكر فيها فى كل وقت ولا أستطيع أن أبتعد بفكرى عنها أبداً .

قدمت استقالتى إلى (بيتر) الذى دهش دهشة بالغة ، ولكنى صممت ، فرجانى أن أبقى أسبوعين حتى يعثر على من يحل محلى .

بقيت أسبوعين وأنا أحلم بيوم الخروج من هذه الجنة . .

وبعد أسبوعين سلمني (بيتر) متنهداً مرتبي ومكافأتي عن المدة التي قضيتها معه ، وتمنى لى مستقبلا طيبا ، ثم ودعني الجميع ، وشربت آخر فنجان شاى مع صديقى ديك ، ثم خرجت من شركة الإعلانات لأبدأ من جديد رحلة البحث عن وظيفة مناسبة .

Cairo Lights Group

presents

The Great Musical Comedy

"Raud el Farag"

at Nicholas Hall, 148 Lonsdale St., Melbourne

on SATURDAY, 29th JULY, 1967, 6.45 P.M.

Directed by: **SALAH TANTAWI** *Entrance by Donatior*

تذكرة دخول مسرحية « روض الفرج »

۞ روض الفرج ۞

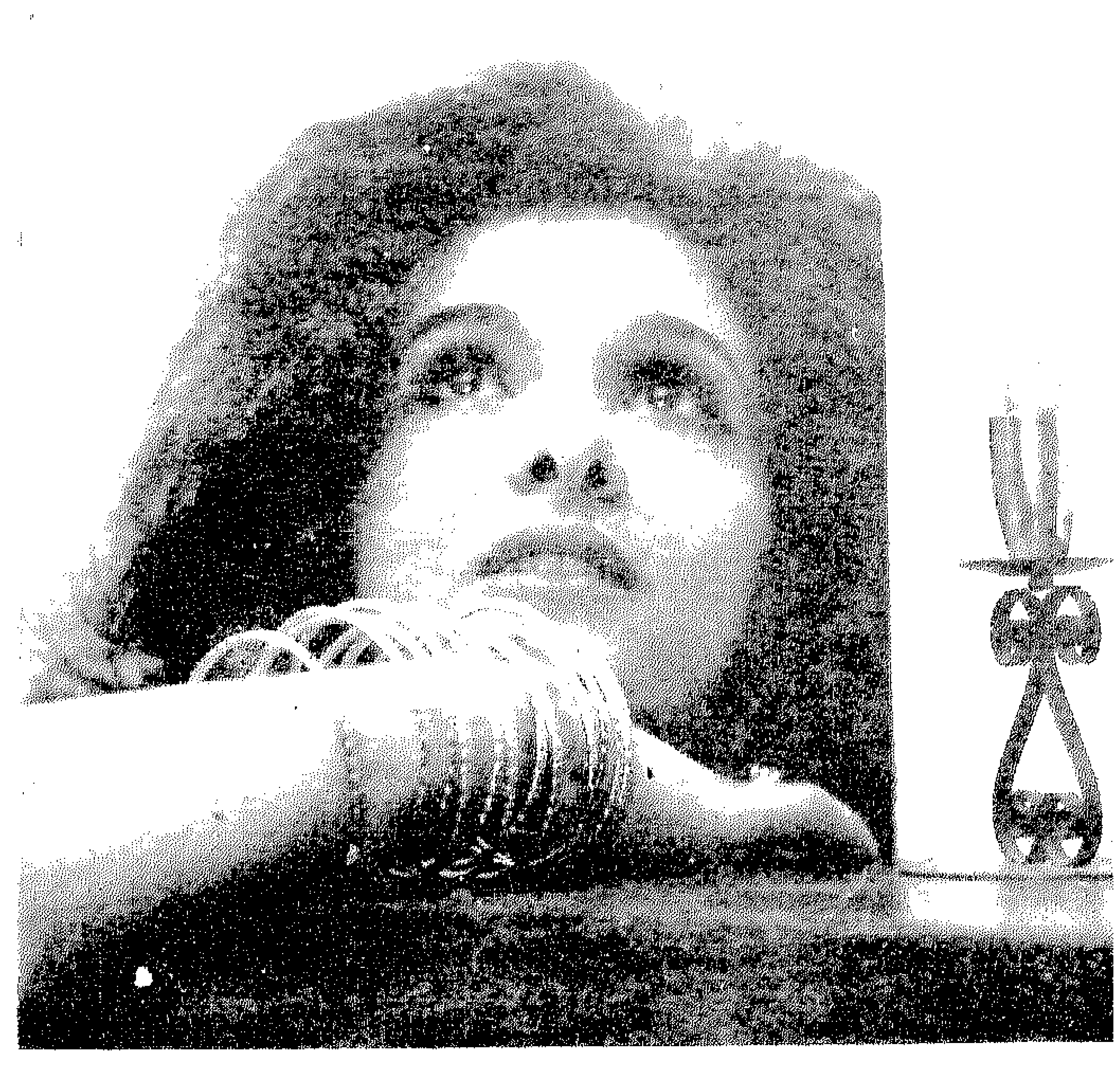
أما فى فرقة (أضواء القاهرة) فإن الأمور كانت تجرى بشكل مختلف . .

كان خروج (برناديت مهران) من الفرقة قد أحدث فيها فراغاً ولا شك ، ولكن البروفات كانت مستمرة . وكنت ألمح فى عينى (تونى وإلياس) خوفاً نبيلا على مستقبل الفرقة ، وكنت أشاركهما بعض خوفهما فى الحقيقة ، ولكنى أيضاً كنت أحمل فى قلبى اطمئناناً راسخاً لا أدرى مبعثه إلى أننى سوف أعثر على ممثلة ممتازة تحل محل (برناديت) وتلعب دور (بهيجة العظمى) الذى لعبته فى مصر (زوزو نبيل) .

ولم تمض أيام حتى تحقق صدق ظنى . .

كنت أسير فى الشارع وإذا بى أسمع من ينادينى بالعربية : (إزيك يا شيخ سيد . .) التفت خلفى فوجدت شاباً مصرياً ضاحكاً تقدم منى وهنأنى على نجاح مسرحية (سيد درويش) ، ثم قدم نفسه . (رشاد زكى) وقدم إلى زوجته التى كانت تقف خلفه فلم أرها عندما رأيته . (سلوى صادق) . صافحتنى سلوى فى حرج وخجل ، ولكن ما إن وقع بصرى عليها حتى شعرت بأنها هى الوحيدة التى تصلح لبطولة (روض الفرج) .

استمر رشاد يحدثنى عن (سيد درويش) وأنا لا أستطيع أن أرفع



سلوى صادق بطلة فرقة « أضواء القاهرة »

بصرى عن سلوى . ثم عرضت على الاثنين أن ينضما إلى الفرقة ، فوافقا فى الحال وطلبت منهما أن يحضرا إلى البروفة فى نفس اليوم .

كان (رشاد وسلوى) قد هاجرا إلى أستراليا منذ سنتين ، ومعهما ابنتهما الوحيدة الصغيرة . وما إن وصلا إلى (ملبورن) حتى أصيبت (سلوى) بحالة عصبية عندما رأت الشوارع خالية من الناس ، فطلبت من رشاد أن يعيدها إلى مصر ، وقد حاول (رشاد) فعلاً أن يعيدها ويعود معها ، ولكن لم يكن معهما نقود يعودان بها فاضطرا إلى البقاء والعمل حتى يدخرا ثمن تذكرة العودة ، وشيئاً فشيئاً تعودا الجو والشوارع الخالية ، وأنجبا طفلهما الثانى ، واشتريا عربة وشقة ، واستقرت بهما الحياة فى (ملبورن) ، ولكنهما لم يستطيعا قط التغلب على الحنين إلى مصر . هذا الحنين الذى دفعهما إلى حضور أولى حفلاتنا ، ودفعهما بعد ذلك إلى الانضمام إلى الفرقة بمجرد أن عرضت عليهما ذلك . .

وفى هذه الليلة احتفلنا بانضمام هذين العنصرين الطيبين إلى الفرقة وأسندت دور (بهيجة العظمى) إلى سلوى ، ودور (زكى مرعش) إلى رشاد ، واختفت مخاوف تونى وإلياس .

وكان رشاد وسلوى يعيشان فى إحدى ضواحى ملبورن ، ولكنهما كانا أول من يحضر البروفة بعد أن يمضيا ساعة على الأقل فى (تنويم) طفليهما ثم يتركانهما فى الشقة ويحضران البروفة .

ومع الوقت أصبحت سلوى هى (ماما سلوى) أم الفرقة كلها .

ثم قدح تونى زناد ذاكرته وتذكر أسرة مصرية كاملة كانت قد حضرت معه على نفس الباخرة ، وذكر أنها أسرة ظريفة جريئة ، وأنه يعتقد أنهم



مسرحية « روض الفرج »



مسرحية « روض الفرج »

سوف يتعاونون مع الفرقة إذا عرضنا عليهم ذلك . ذهبت إليهم بعد البروفة أنا وتونى وإلياس وسلوى ورشاد . . ووجدناهم أسرة مكونة من الأشقاء الأربعة جورج ويوسف وإدوارد لطفى وأختهم الشابة الجميلة مارى . وكان الأربعة قد هاجروا إلى أستراليا منذ عام ليمهدوا لحضور والديهم . وفى ملبورن اشتغلوا جميعاً ، واستأجروا شقة ظريفة ، وعاشوا معاً فى انتظار حضور والديهم من مصر .

وقد رحبوا جميعاً بالانضمام إلى الفرقة . وفى البروفة التالية حضروا . وأسندت إلى مارى دور (سنية الكمسارى) الذى قامت به فى مصر (وداد حمدى) . وإلى جورج أسندت دور مصطفى الذى قام به فى مصر (محمد سلطان) وإلى إدوارد ويوسف أدواراً [illegible] . وبانضمام هذه الأسرة الجديدة أصبحت « أضواء القاهرة » أسرة كبيرة تضم ثلاث أسر . الأولى أسرة تونى وإلياس شلهوب ، والثانية أسرة سلوى ورشاد زكى ، والثالثة أسرة لطفى .

وأصبحت الفرقة أكبر وأغنى بالعناصر الفنية مما كانت .

وتعود أصدقاء الفرقة (دكتور ناصح ميرزا ، والشيخ فهمى الإمام ، وغالب نصر الدين ، والأب بولس الخورى) متابعة البروفات كل ليلة ، حتى لقد قال دكتور ناصح ميرزا إن « أضواء القاهرة » صارت هى (الرابطة العربية) الحقيقية التى تجمع العرب جميعاً كل ليلة .

ثم انضمت إلى الفرقة شابة يونانية حسناء اسمها (جورجيت بقدونس) وكانت تتكلم العربية ، ولكنها لا تكتبها . كانت تتمتع بوجه جميل وجسم

جميل . فأضفت لها مشاهد راقصة ترقص فيها بملابس الرقص الشرقى خلال فصول المسرحية .

كان كل يوم ينقل إلى هواة جدداً وأعضاء جدداً . منهم مصريون سمعوا عن الفرقة فى أنحاء أستراليا وجاءوا للانضمام إليها ، ومنهم مصريون سمعوا عن الفرقة فى مصر قبل أن يهاجروا إلى أستراليا ، ثم جاءوا يحدوهم الأمل فى المساهمة بنشاطهم فى الفرقة .

وآخرون أرسل لهم أهلهم خطابات من القاهرة يحدثونهم عما قرءوه عن الفرقة فى الجرائد المصرية وينصحونهم بالانضمام إليها .

ظلت الفرقة تنمو وتنمو حتى شعرت بأنى أستطيع أن أكون من أعضائها جيشاً لا فرقة ، وكنت أرحب بكل من ألمس فيه إخلاصاً وجدية وحبًّا للتمثيل وعند ذلك ظهرت (برناديت مهران) مرة أخرى . .

دخلت ثائرة ذات مساء ، واعتذرت عن تصرفاتها السابقة ، ووعدت بالانتظام فى البروفات . . رحبت بها وقدرت شعورها الفنى الطيب الذى عاد بها إلى الفرقة ، وعرضت عليها دور (سنية الكمسارية) الذى كان فعلا يناسبها أكثر من دور (بهيجة العظمى) . ولكنها صممت على أن تلعب دور بهيجة العظمى ، فاعتذرت لها بصفة قاطعة ، وعند ذلك اختطفت معطفها وحقيبتها وخرجت مسرعة دون أن تنظر إلى أحد .

كان هذا آخر مشهد مثلته معنا (برناديت) ، وقد أسفت حقًّا لفقدانها ، ولكنى كنت أعرف أن تمردها وتردها أكبر من مواهبها ، وأنه قد يؤثر تأثيراً سيئاً على نظام الفرقة ، وكان النظام والهدوء هو كل ما أهدف إليه ، لأن كل دقيقة كانت محسوبة ، ولا وقت للخلافات ولا للمشاحنات .



المؤلف في مسرحية « روض الفرج »

كانت طريقتى فى العمل هى أن أحدد فى أول بروفة تاريخ عرض المسرحية ، ثم أقسم الوقت بين البروفة الأولى والبروفة الأخيرة إلى مراحل عمل (من حفظ حوار وحفظ حركة وحفظ أغان وتصميم ملابس) ، وأتشدد إلى أقصى حد فى ألا تطغى مرحلة على مرحلة . أتشدد إلى درجة أن من كان يرفع صوته فى أثناء البروفة كان يخرج لا من المكان بل من الفرقة كلها ، فضلا عن النظام القديم الذى يقضى بفصل أى ممثل يتغيب بروفة واحدة . كنت أعيش البروفات فى جدية وصرامة وقسوة ، وأعتصر الممثلين وأدربهم على كل كلمة وكل حركة حتى أثق أنهم يؤدونها تماماً كما أتصورها . .

وبعد البروفة كنت أخلع قناع الصرامة والقيادة وأتحدث على سجيتى مع تونى وإلياس ولا نفترق حتى يكاد الديك أن يؤذن للصباح . وفى إحدى هذه الجولات اكتشفت موهبة جديدة عند إلياس بالإضافة إلى مواهبه القديمة (الخجل والإخلاص) . . اكتشفت فيه موهبة تأليف الأغانى .

كنا نجلس ثلاثتنا عند غالب نصر الدين ، وأخرج إلياس ورقة من جيبه طلب منى أن أقرأها وفى أثناء قراءتها بدأ تونى يمدحها ويؤكد شاعرية إلياس ، واستنتجت من ذلك أن إلياس طلب من تونى أن يساهم معه فى إقناعى . إقناعى بماذا ؟ قرأت الأغنية فوجدتها فعلا أغنية جميلة رقيقة ، وسألت إلياس عما يريده بعد ذلك . تلعثم إلياس ثم سكت . أما تونى فطلب منى أن أضع لها لحناً وأغنيها فى المسرحية . كم أحب تونى وإلياس . . لهذه الدرجة يثقان فىّ ! ! . يتصوران أننى مادمت أفعل كل شىء فلابد أننى أيضاً أستطيع أن ألحن وأن أغنى . فنظرت إليهما ولم أر أمامى إلا قلبين مصريين منيرين ، وشعرت حقًّا أننى أستطيع أن ألحن وأن أغنى . وبدأت ألحن وأطوع الكلمات للغناء

15TH ANNIVERSARY OF THE 23RD OF JULY

* * * * * * * * *

THE ARAB ASSOCIATION

presents

CAIRO LIGHTS GROUP

in the great Musical Comedy

RAUD EL FARAG

* * * * *

Based on a Short Story by

NAGEEB MAHFOUZ

Written for the Stage by

SALAH TANTAWI & HUSSEIN KAMAL

Directed by

SALAH TANTAWI

At Nicolas Hall, 148 Lonsdale Street, Melbourne.

On Saturday the 29th of July at 6:54 p.m.

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

كتالوج لمسرحية « روض الفرج »



مسرحية روض الفرج

وهما يرددان معى ، وغالب نصر الدين يرقبنا باسماً . ومع تباشير الفجر الأولى كانت الأغنية قد اكتملت لحناً وكلاماً وخرجنا من عند صديقنا اللبنانى ونحن نردد اللحن حتى لا ننساه . ولما كنا لا نكتب نوتة موسيقية فقد اتفقنا على أن نظل نردد اللحن (كل منا فى عمله) إلى أن نتقابل فى المساء فى البروفة لكى نغنيه أمام (ريكاردو ماتسا) ليكتب له نوتة . .

وفى المساء التالى كنت ما أزال أحفظ اللحن ، وكان تونى يحفظه أيضاً . أما إلياس صاحب الأغنية فقد نسى اللحن تماماً . .

كتب ريكاردو نوتة الأغنية ووضعتها فى الفصل الأول فى المسرحية .

وكان تونى يقوم بدور (نحلة) الذى قام به فى مصر (سعيد صالح)

وكان تونى يدور كالنحلة فعلا فى الفرقة ، ويساهم فى كل شىء ، ويبذل عصارة روحه فى خدمة الفرقة ، ولكنه كان أيضاً يلازم الممثلات ويتحبب إليهن جميعاً مما أحنقنى وجعلنى أقسو عليه وأنبهه باستمرار إلى أن يلتفت إلى عمله ويترك بنات الناس فى حالها . ثم اتضح لى فى النهاية أنه لم يكن سيئ النية على الإطلاق . كان يبحث عن زوجة لا عن صديقة . وقد تزوج فعلا إحدى ممثلات الفرقة ، واحتفلنا جميعاً بزواج ابن (أضواء القاهرة) البكر .

وبعد شهرين من البروفات استأجرت مسرحاً فخماً وسط المدينة هو (نيكولاس هول) بإيجار قدره (٣٠ دولاراً) فى الليلة ، واشتريت أقمشة فخمة حولتها سلوى ومارى إلى فساتين أنيقة وملابس مصرية شعبية .

واتفقنا مع مخبز يونانى على أن يخبز لنا عيشاً صغيراً يصلح للسندوتشات لأن العيش الأسترالى لا يصلح للسندوتشات . وكان هذا المخبز هو الوحيد

الذى يستطيع أن يخبز ذلك النوع من العيش ، ولكنه كان أيضاً ممنوعا من العمل ، لأنه خالف مصلحة الضرائب فعاقبته بحرمانه من العمل لمدة ثلاثة أشهر . ولم يمتنع المخبز عن العمل ، ولكنه كان يشتغل فى السر ، ولا يبيع إلا لمن يعرف كلمة السر . وقد عرفنا كلمة السر من صديق لرشاد وكنا نذهب إلى المخبز تحت ستار الظلام ونمشى فى حوارى ضيقة مظلمة ونعبر أنفاقاً ونقفز أسطحاً حتى نصل إلى المخبز السرى ونحصل على بغيتنا . وكانت سلوى تشرف – مع قيامها بالتفصيل وبطولة المسرحية – على صنع الفول والطعمية والسلطة ، فى حين كانت جورجيت تضع (طرحة) فوق فستان الرقص وتقف فى البوفيه مع بعض الزملاء لبيع السندوتشات .

وطبعت التذاكر والبروجرامات واعتمدت على أصدقاء الفرقة فى التوزيع وجاء التوزيع ناجحاً لدرجة أننا جمعنا فى الليلة الأولى (١٠٠٠ دولار) .

ومن الطرائف التى حدثت فى أثناء توزيع التذاكر أننا قابلنا عند غالب نصر الدين ثرياً لبنانياً اسمه أبو أمين ، تحمس لنا وطلب ألا نحرمه من شراء كمية من التذاكر . ووافقناه طبعاً ، وقلت له إن التذاكر كلها تحت أمره ، ولكنه طلب منا أن ننتظر حتى يسأل مصلحة الضرائب ليعرف هل الثمن الذى يدفعه لنا سوف يخصم من المبلغ الذى يدفع عنه الضرائب أو لا ووعدنا بأن يرد علينا فى الغد .

انتظرناه ونحن نرجو كل خير . . مادامت المسألة قد وصلت إلى حد سؤال مصلحة الضرائب فلابد أنه ينوى شراء ٥٠٠ تذكرة وربما ١٠٠٠



مسرحية « روض الفرج »

تذكرة ، وفى الغد اتصل بنا (أبو أمين) وأخبرنا بأنه سأل وعرف وأنه يريد يشترى تذاكر ، فهل نستطيع تشريفه فى منزله ؟ قال تونى ضاحكاً : لازم فيها عشوة لبنانية . . .

فى الليلة التالية ذهبنا (سلوى ورشاد وتونى وإلياس وأنا) إلى منزل (أبو أمين) الذى كان يبعد ٥٠ كيلو عن ملبورن . واستقبلنا أبو أمين فى المنزل الذى يعيش فيه بمفرده ، ورحب بنا وجلسنا معه فى (الصالون) . سألنا عما إذا كنا نحب أن نشرب شايا أو قهوة . قلنا له لا داعى . ولكنه صمم فطلبنا قهوة ، ولكنه قال فى ذكاء : إذا قدمت لكم القهوة الآن فإنكم سوف تنصرفون بسرعة ، وأنا أريدكم أن تشرفونى فترة طويلة فسوف أؤجل القهوة إذن لحين خروجكم وعند ذلك أقدمها لكم . .

هل يمزح الرجل ؟ . . لا . إنه جاد جداً . على كل حال فلنأت إلى الغرض الحقيقى من حضورنا . أخرجت له تابلوه المسرح والتذاكر ووضعتهما تحت تصرفه فأخذهما وتفحصهما بدقة كأنه يفحص أوراقاً أثرية ، وبعد نصف ساعة من الفحص الدقيق أعاد لى التابلوه والتذاكر بعد أن حجز لنفسه تذكرتين . .

تذكرتان فقط اشتراهما (أبو أمين بـ ٤ دولارات) بعد كل ما تكبدناه من جهد وتعب لنصل إليه ولمحت خيبة الأمل على وجوه الجميع ، ولمحت بوادر السخرية على وجه تونى ، ولكننى لم أشأ أن نضيع وقتاً أكثر فشكرته على كرمه واستأذنت ، ولكنه استبقانا وقال إنه قد لا يستطيع حضور المسرحية لأنه لا يخرج كثيراً . فهل نستطيع أن نقدم له الآن جزءاً منها ؟

لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك ، وانفجرنا جميعاً ضاحكين . لابد

أن الرجل يظننا فرقة (عوالم) لإحياء الأفراح والليالى الملاح ! !

قلت لسلوى متظاهراً بالجد : غنى شوية يا سلوى . وتنحنحت سلوى طويلا ثم اعتذرت بأن صوتها (مخستك) شوية الليله دى . .

وعدناه بأن نحضر له مرة أخرى ثم خرجنا دون أن نشرب القهوة الموعودة ، وضحكنا يغلب أسفنا ، وأمام الباب مباشرة اكتشفنا أن العربة قد تعطلت ! !

أمضينا ساعات فى تصليحها وعدنا إلى ملبورن ونحن لا نكف عن الضحك . .

وبدأت الليلة الأولى ووقف إلياس يؤدى مسئولياته (الإذاعة والستارة والتلقين) وكنت قد اطمأننت إلى جمهورنا الذى عرفنا فى (سيد درويش) مطمئنًّا إلى وفرة توزيع التذاكر . ومن خلال فرجة الستار كنت ألمح الجمهور مسروراً مندهشاً كأنه مسحور لا يصدق أنه سوف يشهد مسرحية مصرية ويرى فنًّا مصريًّا .

ثم أعلن إلياس عن رفع الستار . ورفع الستار عن مسرحية (روض الفرج) القصة القصيرة التى كتبها (نجيب محفوظ) منذ أكثر من ربع قرن ، والتى حولتها إلى مسرحية أخرجها فى مصر (حسين كمال) وقدمها مسرح التليفزيون فى بداية موسمه الثالث .

أسبوع من التمثيل والنجاح والتصفيق . ثم انتهى عرض (روض الفرج) ، وبدأنا نجتمع لنخطط للمستقبل ولنرى آثار نجاحنا .

جاءنا عرض بأن نقدم المسرحية لمدة أسبوع فى (سيدنى) على حساب التاجر اللبنانى الكبير (إدمون ملكى) ، وجاءنا عرض آخر من الشيخ



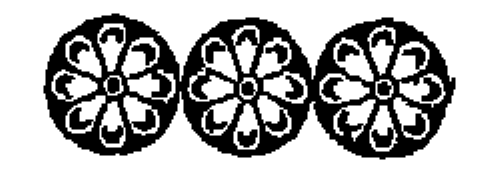
مسرحية روض الفرج

فهمي الإمام بأن نستأجر سينما بصفة دائمة نقدم فيها عروضاً كل ليلة على أن يمول هو المشروع .

وعرض علينا غالب نصر الدين أن يتولى هو الإنفاق على الفرقة على أن نتقاضى نحن أجراً ثابتاً .

كانت هذه العروض جميعاً مغرية ، وكانت نتيجة طبيعية لنجاحنا ، ولكني كنت أرجئ البت فيها لأسمع الصوت الجديد الذى كان يهمس فى أعماقى ،

فماذا كان يقول هذا الصوت ؟ .



مأمور ضرائب

خرجت من شركة الإعلانات وفى جيبي شهادة بمدة الخدمة ومرتبي عن الأسبوع الأخير ومكافأتى عن مدة خدمتي بالشركة .

كان الجو صحواً جميلا والشمس ساطعة ، وكانت المحلات التى تعرض كل يوم مختلف المعروضات تلمع تحت أشعة الشمس ، وكانت المدينة كلها تبدو وكأنها معرض لوحات فنية حية .

كنت سعيداً أحس بالنشاط فى روحى وجسمى ، وأشعر بأننى أريد أن أعانق كل من يقابلنى . . كل هذا لأننى حققت هدفى واستقلت من هذه الوظيفة الممتازة ! !

كان النهار ما يزال فى أوله ، فتسكعت فى الشوارع وطفت بالأماكن التى مررت بها فى أيامى الأولى وأنا ضال وحيد أتخبط فى سيرى وأخبط رأسى فى الحائط بحثا عن حل . الآن جيبي عامر بالنقود وقلبي ملىء بالاطمئنان وكل شىء يبدو جميلا بسيطاً مفهوماً وليس فى نفسى ذرة من خوف من شىء .

ذهبت إلى مكتب العمل وقيدت اسمى ، ووعدنى الموظف بإرسال (تأمين البطالة) إلى عنوانى فى نهاية الأسبوع ، وهو التأمين الذى أظل أستحقه طالما كنت بدون عمل .

ثم ذهبت إلى السوق واشتريت مؤونة الأسبوع التالى ، وضمنتها بضع وحدات من جوز الهند الذى يباع بسعر (١٠ سنتات) للواحدة ، ثم ركبت الترام إلى البيت . لم تندهش (مسز كروناس) لرؤيتى أعود فى وسط النهار ، فقد سبق أن أخبرتها باستقالتى وسبق أن أبدت دهشتها وأسفها .

فى المطبخ جهزت الغداء وبعد أن تغذيت تمددت فى حجرتى تاركاً لخيالى العنان مفكراً فى لا شىء حتى غلبنى النوم .

إحساس كامل بالفراغ السعيد هو الذى كان يملؤنى فى ذلك اليوم ، ورغبة فى التقلب على السرير ما بين النوم واليقظة إلى الأبد . .

آه لو أستطيع أن أتفرغ لفرقة أضواء القاهرة . . ولكن ما الفائدة ما دام أعضاء الفرقة لا يستطيعون أن يتفرغوا ويتركوا وظائفهم ؟ كنا محكومين بلقمة العيش. ولكنى سعيد سعادة دافئة عريضة تحيط بى وتهدهدنى بين أحضانها ، فلأبعد عن ذهنى إذن الأفـكار الحزينة والصعبة ، ولأتمتع بأشعة الشمس التى تدخل من النافذة وتتخلل جسمى وروحى .

ما هى المدة التى حددتها لنفسى لأبدأ بعدها العمل . . ؟

أسبوعان . قلت لنفسى : يكفينى جداً أسبوعان أعيشهما كالسائح السعيد وأبحث خلالهما عن وظيفة جديدة ، ثم أبدأ العمل الجديد بعد أسبوعين .

هكذا بدأت أتمتع بإجازتى ، وأبحث – على مهل – عن الوظيفة الجديدة . ومر الأسبوع الأول وجاءنى تأمين البطالة فى موعده ، وتسلمته وأنا أشعر شعوراً غريباً بالامتعاض . البطالة نفسها كلمة قبيحة . ولكن لِمَ أشعر هكذا ؟ ألست أنا الذى أختار البطالة . . ؟

ومن بداية الأسبوع الثانى بدأت أبحث بنشاط أكثر عن الوظيفة

الجديدة . ولكن مر الأسبوع كله دون أن أوفق إلى شيء .

آه . . بدأ الخوف يتسلل إلى نفسي . . .ماذا لو طالت فترة البطالة أكثر مما قدرت لها ؟ لقد تبطرت على الوظيفة الجميلة السابقة فهل يقدر لى أن أدفع الثمن بطالة مستمرة . . ؟

ودفعنى الخوف من شبح البطالة الدائمة إلى أن أعود إلى حمأة الوظائف الصغيرة ، فطرقت كل المجالات التى كنت أسمع عن وجود وظائف بها . تقدمت إلى مصلحة المواصلات أطلب تعيينى (كمسارياًّ) ولكنى رسبت فى (الوزن) ، وزنونى فوجدونى أزيد (رطلا) على الوزن المطلوب للكمسارى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها بأن الوزن من شروط التعيين فى أى وظيفة .

وعدت إلى مصلحة البريد بأمل أن أقضى فيها فترة انتقال أخرى ، وكنت أتصور أننى أستطيع أن أبدأ من جديد ، ولكن اتضح لى أنهم يحتفظون بسجل فيه أسماء كل من تعينوا عندهم ، ولذلك سألونى لماذا استقلت ؟ ولماذا أعود الآن ؟ كانت مفاجأة لى ، فاخترعت لهم قصة ملفقة عن مشروع تجارى وهمى زعمت أننى استقلت لكى أبدأ فيه ، ولكن المشروع فشل . لا أدرى أبدت قصتى مقنعة أم لا ، ولكنهم وعدونى بأن يخطرونى فيما بعد ، ثم أخطرونى فعلا بالاعتذار .

ثلاثة أسابيع ولم أجد أى وظيفة . .

هل أتصل ببيتر من جديد وأعتذر له وأرجوه أن أعود إلى العمل معه ؟ ولكن بماذا أفسر له هذه التصرفات الغريبة ؟ نبذت الفكرة جانباً على رغمى ، وواصلت البحث عن وظيفة وأنا أزداد كل يوم إحساساً بالندم

والخجل حتى صار تأمين البطالة الذى يصلنى أسبوعيًا سكيناً تطعن كبريائى ومشاعرى . ثم سمعت أن مصلحة الضرائب محتاجة إلى موظفين ، فجريت إلى مجمع (الوزارات) وهو الذى تجتمع فيه رئاسات المصالح كلها . .

دخلت حجرة الاستعلامات فوجدت سكرتيرة تجلس خلف حائط نصف دائرى ، وأمامها مجموعة من الشبان ، فوقفت معهم وأخبرت الفتاة بأننى أريد أن أتوظف فى مصلحة الضرائب . وبدون أن ترد الفتاة - ربما بحكم العادة - أعطتنى استمارة طلبت منى أن أملأ فيها البيانات الخاصة باسمى وشهادتى وخبرتى . وبعد أن ملأت الاستمارة أخذتها منى ثم كتبت لى خطاباً وطلبت منى أن أذهب إلى مصلحة الضرائب وأسلم الخطاب إلى موظف شئون العاملين .

أخذت الخطاب وأنا غير مصدق وطرت إلى مصلحة الضرائب ثم إلى موظف شئون العامين وطرقت الباب ودخلت .

وجدت الموظف رجلا هادئاً وديعاً كأنه مدرس ابتدائى ، ووجدته يتناول غداءه ، لكنه تسلم الخطاب وفتحه وقرأه وأشار إلى بالجلوس وهو مستمر فى الأكل ، ثم سألنى بضعة أسئلة وأخبرنى فى النهاية أنه موافق على تعيينى .

تنفست الصعداء ، ولكنه سألنى : هل قابلت مستر (فيتز جيرالد) ؟ من هو مستر فيتز جيرالد ؟ إنه رئيس مجمع الوزارات وهو الذى تخرج من مكتبه كل توصيات التعيين . والفتاة التى أعطتنى الخطاب هى سكرتيرته .

لم أقابله طبعاً ولم أسمع بوجوده إلا فى هذه اللحظة ، والظاهر أن الفتاة أخطأت وتصرفت من تلقاء نفسها .

لابد من مقابلته . هكذا قال موظف شئون العاملين . لا شيء يتم بدون موافقته ، وكان يجب أن أقابله قبل حضورى ، فإن مقابلته هى حجر الأساس فى كل تعيين . اعتذرت بأننى لم أكن أعرف ذلك ، ولكنه تمسك بهذا الإجراء ، وقال إن موافقته مرهونة بموافقة مستر فيتز جيرالد . .

هل يموت هذا الأمل الوليد ؟ .

سلمت أمرى إلى الله . وكتب لى ذلك الرجل الوديع خطاباً يتضمن موافقته ، وطلب منى أن أذهب بالخطاب فوراً إلى مستر فيتز جيرالد . ثم أعود إليه فى حالة الموافقة . أخذت الخطاب وعدت جرياً إلى مجمع الوزارات ، ثم إلى الغرفة التى بدأت منها ، وسلمت الخطاب إلى السكرتيرة وطلبت مقابلة مستر فيتز جيرالد .

دخلت الفتاة حجرة جانبية ، وما هى إلا لحظات حتى خرجت ومعها رجل عجوز محتقن الوجه كأن جلد وجهه مسلوخ ، وقد نظر إلى نظرة فاحصة ثم أشار إلىّ بأن أدخل معه الحجرة .

دخلت معه وأنا أشعر بأن حياتى على كف عفريت . جلست ولكنه لم يجلس بل وقف ثائراً يلوح بالخطاب فى يده ، وقال إن كل الإجراءات التى تمت خاطئة ، وإنه كان يجب أن أبدأ من عنده هو . وجدته سخيفاً ، ووجدت كلامه سخيفاً ، وكنت أشعر بالغضب يملؤنى ، فقلت له إننى لم أكن أعرف ، وإنه إذا كان هناك خطأ فهو خطأ السكرتيرة . ثم قلت له إننى معه الآن فلنبدأ من جديد إذا شاء .

أدهشته إجابتى فتوقف لحظة ، وبلع ريقه ، ثم قال فى صراحة بغيضة ، إن مجمع الوزارات لا يسمح لأحد بالتعيين إلا إذا كان أستراليًّا أو إنجليزيًّا .

آه . . .الحكاية كده ؟ . .

نظرت إلى ذلك الخنزير الأحمر الثائر ، ورأيت فيه كل صور الاستعمار البغيض ، ونسيت بطالتى وحرصى على الوظيفة ، وقلت له رأيى بصراحة . قلت له إن هذه روح تعصب عنصرى يجب ألا توجد فى بلد مفتوح للمهاجرين ، وإننى لا أجد أى فارق بينى وبين الأسترالى أو الإنجليزى ، فأنا مهاجر شريف حاصل على شهادة جامعية من جامعة معترف بها فى العالم كله . وإذا كنت بعد ذلك أجد أن الفرص فى أستراليا ليست متاحة للجميع وأن فيه خيار وفقوس فإن الأكرم لى أن أعود إلى بلدى .

فهل يحب المستر فيتز جيرالد أن أعود إلى بلدى ؟

جلس الخنزير فى مقعده وهو ينظر إلى فى حنق ، وترددت على شفتيه أشياء كثيرة لم يقلها ، ثم لجأ إلى سلاح آخر ، فقال إننى لن أكون سعيداً وأنا أجد نفسى وسط أشخاص كلهم أجانب عنى .

وقلت له إننى لا أبحث عن السعادة بل عن وظيفة ، وأما السعادة فإننى أفضل أن أكتشف بنفسى الإحساس بها أو بعدمها فى الوظيفة .

شعرت بالقوة والثقة وأنا أرى ذلك الخنزير الأحمر يتلعثم أمامى ولا يجد المنطق القوى الذى يفحمنى به . وفى النهاية قال لى إنه مضطر إلى الموافقة ما دامت كل الإجراءات التى من المفروض أن تتلو موافقته . . قد سبقت هذه الموافقة ، وابتسمت له شاكراً ، وأمضى هو الخطاب الجديد على مضض وهو ما يزال يؤكد لى أننى لن أكون سعيداً .

أخذت الخطاب وعدت إلى مصلحة الضرائب ، وقابلت موظف شئون العاملين وسلمته الخطاب ، فهنأنى ، وأخرج ورقة صغيرة كتب فيها اسمى

وشهادتى وتاريخ تعيينى ، ثم طلب منى أن أبدأ العمل فى الصباح التالى . .

وكانت المفاجأة الرائعة – ولعلها سر غضب المستر فيتز جيرالد – أننى عينت بمرتب على أساس شهادتى الجامعية . عينت بـ (٧٠ دولاراً) فى الأسبوع وأما الوظيفة نفسها فهى مأمور ضرائب .

كانت هذه النتيجة هى خير تعويض عن متاعب الأسابيع الثلاثة الماضية ، وقد أخطرت مكتب العمل فى نفس اليوم بالتعيين الجديد لكى يمنعوا عنى تأمين البطالة المشئوم ، وذهبت إلى مصلحة الضرائب فى الثامنة من صباح أول يوم من أيام الأسبوع الرابع . وجدت نفسى مرة أخرى واحداً من دفعة من الموظفين . كلهم مأمورو ضرائب ، وكلهم أستراليون ، واستمعنا إلى المحاضرة التقليدية عن الضرائب وجديتها وأهميتها ، ثم تعهدنا بعدم إفشاء أسرار العمل ، ثم وزعونا على الأقسام المختلفة . وكان نصيبى أن أتسلم العمل فى قسم (الاستحقاقات) فى المبنى الجديد من مصلحة الضرائب ، وهو عمارة مكيفة الهواء من بدايتها إلى نهايتها مضاءة كلها بأضواء رقيقة غير مباشرة تخلع عليها وعلى حجراتها جوًّا سحريًّا جميلا .

تقدمت نحو رئيس المكتب ، وقدمت نفسى إليه ، فرحب بى باسماً وقدم إلى نفسه : جو ردون ، ثم بدأ يطمئننى من البداية إلى سهولة العمل وسهولة كل شيء فى المصلحة ، ثم أعاد على الأسطوانة القديمة التى تقول بأنه يتوقع منى أن أخطئ فى البداية فلا يجب أن تزعجنى أخطائى .

ثم صحبنى معه وقدمنى إلى زملائى فى الفرع الذى سوف أعمل به ، وكان ذلك الفرع جزءاً من الصالة الكبيرة التى يجلس فيها ما لا يقل عن مائتى موظف وموظفة . وتفصل بين فروع القسم المختلفة حوائط رقيقة من الزجاج .

ثم أرشدنى جوردون إلى مكتبى ، وأشار إلى رف مجاور للمكتب وأخبرنى أننى سوف أجد فيه كل صباح مجموعة من إقرارات الضرائب ، وكل ما على عمله هو أن أفحص هذه الإقرارات لأتحقق من سلامة بياناتها بالمقارنة إلى الشهادات المختلفة التى يقدمها دافعو الضرائب مع إقرارات الضرائب ، وبعد ذلك أعيدها إلى الرف .

وبعد أن قدمنى جوردون إلى زملائى الجدد وسماهم لى واحداً واحداً همس فى أذنى : أنا واثق بأنك لم تحفظ اسماً واحداً من هذه الأسماء ، وهذا شىء طبيعى ، ولكنك سوف تعرف الأسماء جيداً مع الوقت . . .

ثم تركنى لينصرف فقلت له شكراً يا مستر جوردون ، ولكنه عاد مسرعاً وقال لى : لا تقل (مستر) أبدا . . جوردون فقط . الجميع هنا ينادون بعضهم بدون ألقاب فلم أدر ماذا أقول ، وابتسمت وجلست ، وانصرف جوردون ، ولكنه عاد مرة ثانية قبل أن يصل إلى مكتبه ثم قال : نسيت أن أرشدك إلى أهم شىء . تعال معى . قمت معه وسرنا حتى خرجنا من الصالة إلى السلم ثم هبطنا دوراً فوجدت نفسى أمام دورات المياه . وأشار جوردون إلى دورات المياه وقال هذه هى دورات المياه ، ويجب أن تعرف أن هناك اثنتين واحدة للرجال وواحدة للسيدات . الخاصة بالرجال لونها رمادى وعليها رسم يمثل رجلا وكلمة (رجال) مكتوبة . والخاصة بالسيدات لونها أحمر وعليها رسم يمثل امرأة وكلمة (سيدات) .

وأوضح لى جوردون كل هذه الفروق الساذجة بدقة وصبر ، واستمعت إليه أدباً ومجاملة ، فلست من البلاهة بحيث أحتاج إلى مثل هذه الإيضاحات . هل يظننى الرجل الطيب قادماً من المريخ ؟

على أى حال كان جوردون يبذل كل جهده ليجعلنى أطمئن إلى العمل وإلى المكان وإلى الناس وإلى كل شىء . أما جوردون نفسه فقد وجدته إنساناً بسيطاً يتكلم ببطء وتهتهة خفيفة ونظرة شاردة ويلبس بدلة قديمة مقلوبة . وجدته الصورة النموذجية لموظفى الأرشيف فى وزاراتنا .

الآن عرفت واجباتى وزملائى ومكان دورة المياه والفروق الخاصة بها ، فهل بقى شىء لم أعرفه ؟ المواعيد . من التاسعة صباحاً إلى الخامسة إلا تسع دقائق . والعمل متصل طول اليوم باستثناء فترتى الشاى فى الصباح والمساء وفترة الغداء (ساعة) من الواحدة إلى الثانية بعد الظهر .

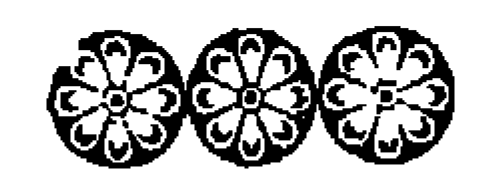
هكذا عدت إلى العمل فى الحكومة من جديد . مأموراً للضرائب لا (أفنديًّا) كما كنت فى مصلحة البريد . ووجدت العمل يتسم بالدقة والآلية والنظام والهدوء الغريب . وكأن الجميع منومون مغناطيسيًّا أو كأنهم يؤدون صلاة فى معبد ، فإذا جاءت فترة الشاى كان من حق كل واحد أن يفعل ما يشاء ، يجلس على المكتب أو ينام فوقه أو يأتى بكل ما يحلو له . هو حر فهذا الوقت ملكه هو .

وعرفت أن نظام الضرائب فى أستراليا يقضى بخصم الضريبة أسبوعيًّا من مرتب كل موظف وكل عامل . وفى نهاية السنة يملأ كل مواطن إقراراً للضرائب يكتب فيه مرتبه السنوى ويخصم منه الضرائب الأسبوعية التى خصمت منه على مدار السنة . فإذا وجد أن الضرائب زائدة على الحد الذى يجب أن يدفعه (بناء على نسبة معروفة) فإنه يطلب (الفرق) من مصلحة الضرائب فى نفس الإقرار وبعد يوم أو يومين يصل إليه شيك بالمبلغ المستحق . .

والذى يحدث هو أن جميع المواطنين يقبضون فروقاً فى نهاية السنة ، وهكذا ، فإن موعد المحاسبة على الضرائب يكاد يكون عيداً قومياً يسعد فيه الجميع بما يصل إليهم من شيكات ! !

ومع الوقت عرفت زملائى وتعودت العمل وأن أجلس بدون عمل إذا كان الرف خالياً وابتدأ رصيدى فى البنك يرتفع من جديد .

وبدا مرة أخرى : أنه ليس فى الإمكان أبدع مما هو كائن .



الدقائق الأخيرة

فتحت النافذة فوجدت (شيطان الهدم) أمامى . .

تراجعت فى ذعر ، ولكنى لم أستطع أن أبتعد . وجدتنى أقترب منه مجذوباً بقوة غير منظورة . نظرت إليه فوجدته يبتسم ويغمزنى بعينيه . .

تنهدت وقلت : أهلا وسهلا عايز إيه ؟

استند الشيطان إلى إفريز النافذة وعقد يديه فوق صدره حاجباً عنى الشمس والضوء والهواء ، ولم يقل شيئاً ولكنه لم يكف عن النظر والابتسام .

قدمت له سيجارة فهز رأسه رافضاً واتسعت ابتسامته كأنما يقول لى : العب غيرها . تظاهرت بالاستخفاف ، وحاولت أن أتجاهله فأشعلت سيجارة وتمددت فى السرير وفتحت كتاباً وتظاهرت بالقراءة فيه ، وأنا أختلس النظر إلى الشيطان .

لم يخدعه التظاهر . لم يختف . لم ينجح التجاهل ، فأغلقت الكتاب ، وقمت من السرير واقتربت من النافذة وصحت فيه : عايز إيه ؟

قال (وكنت أخمن ما سوف يقوله) عايزك تستقيل من وظيفتك وتحل فرقة أضواء القاهرة . . وتعود إلى بلدك .

روعنى كلامه برغم توقعى له . قلت : ولكن هذا جنون . إننى الآن فى أوج

نجاحى ، وظيفتى ممتازة ومرتبى كبير وفرقتى ناجحة محبوبة وأنا الآن أجنى ثمار كفاحى فى أستراليا .

هز رأسه باستخفاف : كلام فارغ ، لقد قمت بتجربة ووصلت إلى نهايتها ولن تستطيع أن تستقر فيها لأنك تزهد كل شىء بمجرد النجاح فيه .

قلت محاوراً آملا : لست زاهداً هذه المرة . إننى أريد الاستمرار فيما حققته من نجاح .

قال : انظر بخيالك إلى المستقبل فلن تجد إلا النجاح . لا جديد سوف يحدث . وهذا معناه فى الحقيقة أنه لم يعد أمامك إلا الموت . الكفاح والصراع والأمل والفشل هى التى تطيل العمر وتجعل الحياة جديرة بالحياة . أما النجاح فهو النهاية . هو الخطوة الأخيرة التى ليس بعدها إلا انتظار الموت . فهل تحب أن تموت ؟

ارتعدت وقلت : لا . إننى أكره الموت ومجرد تفكيرى فيه ينغص على حياتى . ولكن المسألة الآن ليست مجرد تجربة . إن معنى ما تقول هو أن أهدم كل شىء لأبدأ من الصفر من جديد .

قال : وهل هناك ما هو أجمل من أن تبدأ من الصفر ؟ الصفر هو الشباب . هو الميلاد المتجدد . البدايات تجعلك شاباً دائماً . . هل نسيت أن سبب خروجك من مصر هو شعورك بأنه لم يعد أمامك جديد تتوقعه وليس عندك إلا الاستمرار فيما وصلت إليه ؟ ألا تجد نفسك الآن فى نفس الحال التى كنت فيها فى مصر ؟ ماذا أمامك من جديد فى أستراليا ؟ مزيد من الدولارات فى البنك ؟ مزيد من النجاح والشهرة ؟ كل هذا متشابه وكل هذا معناه أنه مقدمة للموت . . قلت متشبثاً بأمل جديد أخير : ولكن ماذا يقول الناس

عنى ؟ كيف يفهمون موقفى إذا هدمت كل شيء ؟

قال الشيطان ، لا يهمك الناس . اتبع نفسك فقط ، اسمع كلامى . تذكر أنه ليس بعد النجاح إلا الموت .

طأطأت رأسى مفكراً فى كلامه ، ثم نظرت إليه ، ولكنه كان قد اختفى وإن استمر صوته يهمس فى أعماقى . ارجع . ارجع . .

كان هذا هو الصوت الذى ملأ نفسى بعد عرض (أضواء القاهرة) الأخير وعبثاً حاولت أن أصم أذنى عنه . . فى بعض الأحيان كنت أحاول أن أخدعه بأن أحول كلامه إلى حلم يقظة ليضعف تأثيره فى نفسى ، فأتصور نفسى وقد عدت إلى مصر وقابلت أهلى وأحبائى وجلست من جديد فى الأماكن التى تعودتها ، ومشيت فى الشوارع التى أحبها ، ولكن هذه المحاولات لتمييع كلامه إنما كانت تثبت كلامه حتى بدت لى – أخيراً – العودة وكأنها الهدف الوحيد المنشود . .

انتصر الشيطان ، والتحمنا معاً حتى صرنا شخصاً واحداً . قررت العودة إلى مصر .

لم يوافقنى واحد على رأيى . عارضنى الجميع . تونى وإلياس ورشاد وسلوى وريكاردو وغالب والشيخ فهمى ودكتور ميرزا والأب بولس . عارضونى وسفهوا كلامى ، ولكن لا فائدة . كانت العودة الآن هى الهدف الوحيد الذى يملأ كيانى نشوة وانفعالا ، وتطلعت بلهفة لا مزيد عليها إلى أن أبدأ من الصفر فى مصر . أبحث عن وظيفة وعن مسكن وعن وجود .

بدأت الوفود تزورنى يومياً لإثنائى عن قرارى ، ولكن منطقى – لدهشتى

– كان أقوى من منطق الجميع . وبذل الأحباء آخر سهم فى جعبتهم . عرض على دكتور ميرزا والشيخ فهمى أن أبقى فى أستراليا وأستقيل من العمل وأتفرغ للمسرح وأتقاضى مرتبى من الرابطة العربية . كان عرضاً جميلا ، وكان خير تتويج لكفاحى . ولكن لا فائدة . . لقد قررت العودة وبدأت تنفيذ إجراءاتها .

ذهبت إلى البنك لأسحب ثمن تذكرة العودة . كان رصيدى قد شارف (١٠٠٠ دولار) ، وتذكرت دخولى إلى ملبورن منذ شهور قليلة وكل ما فى جيبى (١٦ دولاراً) ثم حجزت تذكرة على الباخرة (جاليليو) التى تسير من أستراليا إلى إيطاليا .

وقدمت استقالتى إلى جوردون الذى ذهل . كان قد مضى على فى مصلحة الضرائب أربعة أشهر تقدمت فيها كثيراً ، وخبرت العمل ، وصرت بالفعل واحداً من (قسم الاستحقاقات) . حاول جوردون أن يثنينى عن عزمى ، ولكنى تشبثت بالاستقالة كما يتشبث الطفل بلعبته ، وعند ذلك تنهد الرجل الطيب ووافق ، ولكنه قدم إلى اقتراحاً أفضل من الاستقالة .

قال : لماذا تستقيل ؟ . لماذا لا تأخذ إجازة ؟

قلت مندهشاً : إجازة . . . ؟

أجاب : إجازة سنة بدون مرتب . لعلك بعد أن تعود إلى مصر تغير رأيك وتعود إلى أستراليا ، وفى هذه الحالة تجد وظيفتك محفوظة .

قلت : ولكنى موظف جديد فهل من حقى أن آخذ إجازة طويلة بهذا الشكل ؟

أجاب : أنا لا أعلم أذلك ممكن أم غير ممكن ؟ ولكنى سأحاول . سوف

أكتب طلباً وأقدمه إلى مجمع الوزارات ولننتظر الرد منها معاً .

وجاء الرد بالموافقة ، وحصلت على إجازة لمدة سنة بدون مرتب بعد عمل أربعة أشهر فقط . قلت لجوردون : أريد أن أترك العمل قبل سفرى بأسبوع . سألنى : لماذا ؟ فأجبت : لكى أقدم طلباً أطلب فيه استرداد الزائد مما دفعته من ضرائب . فابتسم وأجاب : هل من المعقول أن تكون موظفاً فى مصلحة الضرائب ثم تحتاج إلى أسبوع لتنال حقك . ابق فى العمل حتى آخر يوم ، وسوف يأتيك حقك وأنت تعمل ، وبذلك تكسب مرتب أسبوع .

وكتب لى جوردون إقرار الضريبة ثم هرش رأسه وقال : إن ما سوف يعود إليك مبلغ صغير هو (٦٥ دولاراً) فقط . .

لم أفهم معنى كلامه ، فقلت : مادام هو حقى فأنا راض به . ولكنه بدا غير مقتنع بكلامى . نظر إلى وابتسم ثم قال : ألا تنفق على أحد ؟ فكرت ثم هززت رأسى نفيا ولكنه قال : سوف نعرض أمرك على أنك تنفق على عائلة وأنك أنفقت عليها فى المدة السابقة (٤٠٠ دولار) فما رأيك ؟ . .

ما رأيى ؟ إنه يطلب منى التزوير . لم أدر ماذا أقول فلم أرد . ولكنه وضع هذا الرقم فى خانة مصروفاتى وبذلك ارتفع المبلغ من (٦٥ دولاراً) إلى (٩٠ دولاراً) . لقد زور رئيس قسم الاستحقاقات بمصلحة الضرائب إقرار الضرائب من أجل أن يجاملنى . ولكنه كان تزويراً جماعياً شاركه فيه رؤساؤه أيضاً عن طيبة قلب .

وفى اليوم الأخير فوجئت بمجموعة من الهدايا من جوردون والزملاء جعلت الدموع تنهمر من عينى ، ثم صافحت الجميع وخرجت وأنا ألعن نفسى وألعن شيطانى معاً . أما مسز كروناس فإنها أعطتنى من وقتها يوماً كاملا

خرجت معى فيه لشراء الهدايا التى كنت أريد إحضارها معى ، لم تخرج معى لتؤنسنى فقط أو لتختار لى ، بل لأنها تملك أبونيها يعطيها الحق فى خصم ٢٠ ٪ فى كل سلعة تشتريها ، وبذلك وفرت لى مالا يقل عن ٤٠ دولاراً .

كان الجميع كرماء ، غمرونى بالحب والمودة ، وجاءت الليلة الأخيرة وامتلأ المنزل . حضر تونى باكياً باسماً ، وحضر إلياس حزيناً وقوراً ، وحضرت سلوى ورشاد ومارى لطفى وأخوتها وكل أعضاء (أضواء القاهرة) وأعضاء (الرابطة العربية) ، وامتلأ المنزل بالضحك والدموع والتمنيات الطيبة وامتدت السهرة إلى الساعات الأولى من الصباح .

وفى الصباح جاءنى دكتور ميرزا بعربته ليصحبنى إلى الميناء . وفى الطريق مررنا بكل أصدقائى وأصدقاء كفاحى : غالب نصر الدين والشيخ فهمى الإمام وادموند ملكى والأب بولس الخورى . ودعت الجميع للمرة الأخيرة وتألمت لأننى لم أجد الأب بولس الخورى . ولكنى تركت له خطاباً أودعه فيه .

وفى الميناء نقل العمال حقائبى إلى كابينتى فى الباخرة (بدون تفتيش) ثم جلست مع دكتور ميرزا فى الكافيتريا حتى اقترب موعد قيام الباخرة ، وعند ذلك صعدت إلى الباخرة لأعرف مكان الكابينة التى سوف أبقى فيها شهراً كاملا ، وما إن جلست فى الكابينة حتى فوجئت بمن يطرق الباب . فتحت الباب فإذا به الأب بولس الخورى . لقد جاء الرجل النبيل يودعنى بنفسه ، واعتذر عن عدم وجوده فى الكنيسة ثم قال إنه ما كان يصفح عن نفسه لو أنه لم يرنى قبل سفرى . !

ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا الحب ؟

جلس معى فترة ثم صحبته إلى سطح الباخرة ثم ودعته ووقفت أنتظر توأمى قلبى : تونى وإلياس . .

كنت أعرف أنهما لا يستطيعان أن يتركا العمل ، ولكنهما سوف يحضران فى اللحظات الأخيرة . ثم حضرا بعد أن ارتفع سلم الباخرة ومعهما مجموعة من (أضواء القاهرة) ورأيتهما للمرة الأخيرة ، وشعرت بأننى أترك معهما قطعة غالية من نفسى . من عمرى . نصف مليون دقيقة من الكفاح والعرق والدموع والضحك والنجاح لم يتركانى فيها لحظة واحدة ، ولم يترددا عن بذل روحهما فى سبيل تنفيذ كل ما أشير به .

إذا كان لى فى أستراليا ألف صديق فهذان هما الواجهة المضيئة الرائعة للصداقة والإخلاص . .

وبدأت الباخرة تسير وهما فى مقدمة المودعين . . ملء قلبى وعينى . تونى يتحرك ويلوح بيديه ويرسل القبلات عبر الهواء مصحوبة بعبارات ضاحكة من ذكرياتنا معاً ، وإلياس يتحرك فى عصبية ويراوح بين تأثره ووقاره ويحاول أن يجارى تونى فى حركاته ولكن خجله يمنعه .

ملأت الدموع عينى ، ومن خلال الدموع التحم تونى وإلياس معاً وصارا قلباً كبيراً لا تنمحى صورته من ذاكرتى مادمت حياً .

ثم تلاشت المعالم ، واختفت ملبورن عن ناظرى .

ووقفت على السطح أفكر وأسترجع أحداث نصف مليون دقيقة وأسائل نفسى : هل أخطأت . ؟

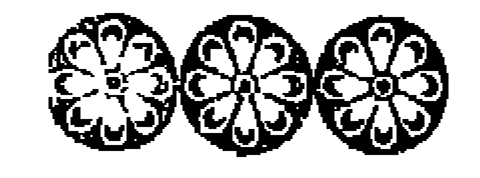
هل أخطأت بعودتى إلى مصر ؟ هل أخطأت بهجرتى إلى أستراليا ؟ وما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب ؟ هل يتاح لى يوماً أن أرى حياتى كما يراها

الغريب لأحكم عليها حكماً محايداً بالخطأ أو الصواب .

ولكنها كانت تجربة رائعة ولدت فيها من جديد ، وعدت إلى سن العشرين ، وعرفت الكفاح والإخفاق والنجاح . واكتسبت صداقات ذهبية ما كنت لأتردد عن بذل روحى نفسها فى سبيل الحصول عليها . .

كانت تجربة رائعة أرجو لكل من يقدر عليها أن يقوم بها ليعرف طعم الحياة ، وقيمة الكفاح ، ومعنى الوطن ،

ويعرف أن الغرض من الوجود حقًّا هو التطلع إلى ما وراء الموجود .



EMBASSY OF THE
UNITED ARAB REPUBLIC
AUSTRALIA.

MR. S. TANTAWY
405 Lygon ST.
Carlton,
MELBOURNE
VIC.

كانبرا ١٩٦٧/٨/٧

الأخ الفاضل / صلاح طنطاوي

تحية طيبة وبعد .

وصلنا خطابكم بتاريخ ٦٧/٨/٢ وبصحبه الشيك

بمبلغ ١٠٠٠ دولار .

أرجو أن تتقبل باسم السفارة المصرية وزملائي

خالص الامتنان على ما تقدمتم به من مجهود مشرف

وعظيم

وإنا نرجو دوام التوفيق ومزيداً من النجاح

متمنين لكم التقدم والرقي

سكرتير السفارة

خطاب شكر من السفارة المصرية فى أستراليا

صدر للمؤلف

الناس والحجارة	مجموعة قصصية	دار المعارف
النقش على الحجر	مجموعة قصصية	الدار القومية
سيد درويش	مسرحية	الدار القومية
الحلوة دى	أوبريت	الدار القومية
$\frac{1}{2}$ مليون دقيقة فى أستراليا	أدب رحلات (الطبعة الأولى)	كتابات معاصرة
القتيلة الثالثة	ترجمة (أجاثا كريستى)	الأهرام
الضحية القاتلة	ترجمة (أجاثا كريستى)	»
الضوء القاتل	ترجمة (روبرت ديللون)	»
رحلة حب مع أجاثا كريستى	دراسة أدبية	روز اليوسف
تحت الطبع :	رحلة حب مع سيد درويش	
	أحزان طائر الكناريا .. ليلى مراد	

كتب للأطفال :

صندوق الدنيا	عالم الكتب
كروان	دار المعارف
حلم زنوبة	»
حارة ستوتة	»
النخلة الذهبية	»
ثوار كوكب لوكور	»
مغامرات الدكتور فصيح	»

المحتويات

رقم الإيداع	١٩٧٦/٤٩٨٠
الترقيم الدولى ٨ – ١ – ٥٤١ – ٢٤٦ – ٩٧٧	ISBN

١/٧٦/٤٧٠ مطابع دار المعارف – ١٩٧٦

